قبل أن تقرأ

في هذا العدد المزدوج من مجلة عالم الفكر ـ الذي يضم العددين الثالث والرابع من المجلد الثالث والعشرين ـ تعود المجلة إلى قطعها الكبير الذي ظلت تصدر به على مدى ثمانية عشر عاماً منذ بداية صدورها عام ١٩٧٣ .

وتضم صفحات هذا العدد المزدوج محورين حول «النظام الدولي الجديد» و«الأدب والعلوم الإنسانية» . وتناقش دراسات المحور الأول مفهوم «النظام الدولي الجديد»، والسمات الأساسية لتطوير النظام الدولي في مرحلته الراهنة، والنمط المحتمل لتفاعلات القوى بين أعضاء الجماعة الدولية المتطلعة في إطار ما نسميه بالنظام الدولي الجديد، واحتمالات المستقبل فيما يتعلق بتطور النظام الدولي في إطار هذا المفهوم . كما تلقي الضوء على مفهوم النظام الدولي الجديد في الكتابات الأمريكية من حيث هيكلية النظام وتوجهات التفاعلات الدولية وتداعيات انتهاء الحرب الباردة على إمكانية العمل الجماعي في النظام العالمي ووضع الدول النامية . ويناقش المحور أيضاً صورة «النظام الدولي الجديد» في الساحة الفكرية العربية متناولاً المصادر والمنهج، وطبيعة الجدل الدائر حول المفهوم ذاته ما بين إقرار بوجود نظام دولي جديد، ورفض لمثل هذه المقولة، واتجاه ثالث يقول بوجود نظام جديد في طور التشكل، ومصادر التغيير في النظام الدولي أو عوامل التحول إلى نظام دولي جديد، وعلاقة حرب الخليج الثانية(حرب تحرير الكويت) بما يعرف بالنظام الدولي الجديد، والجدل الدائر حول بنية هذا النظام وقيمه، وموقع العالم العربي والإسلامي في النظام الدولي الجديد وقضايا أخرى عديدة .

وتقرأ في المحور الثاني: «الأدب والعلوم الإنسانية» مجموعة من الدراسات تناقش الإسهامات التي تقدمها العلوم الإنسانية إلى الدراسات الأدبية، والإضاءات التي قدمتها تلك العلوم لفهم الخبرة الأدبية. ولعل التقديم الممتلىء ثراء وعمقاً لمحرر هذا المحور الأستاذ الدكتور شكري عياد يغني عن أي بيان فيما يتعلق بطبيعة هذه العلاقة وإشكالياتها وتاريخها وآفاقها المستقبلية. كذلك تضيف الدراسات الخمس التي تليه أبعاداً كاشفة وسمات وأفكاراً جديدة ومتنوعة حول تلك العلاقة. فنقرأ عن العلاقة بين الكتابات الأنثروبولوجية والأعمال الروائية، وفي مجال العلاقة بين الأدب وعلم الاجتماع نقرأ «التفسير الاجتماعي للظاهرة الأدبية: التراث وإشكاليات المنهج»، وفي مجال العلاقة بين علوم اللغة والأدب نقرأ «القارىء والنص: من السيميوطيقا إلى الهيرمينوطيقا»، وأخيراً نقرأ محاولة لرؤية فلسفية لنص أدبي لعملاق الرواية العربية نجيب محفوظ في مقال (السقوط والخلاص: قراءة في رواية «أولاد حارتنا»).

والآن ونحن نترك القارىء لصفحات هذا العدد المزدوج، نأمل أن يستمتع بما احتواه محوراه من مناقشات وتحليلات وأفكار، وأن تضيف هذه التحليلات والأفكار جديداً إلى رؤيته لموضوعات وقضايا كل من المحورين.

رئيس التحرير

النظام الدولي الجديد

الواقع الراهن واحتمالات المستقبل

د. علي الدين هلال*

تمهيد

بداية، لعلنا لا نضيف جديدا إذا قلنا بأن النظام الدولي قد شهد منذ نهاية الحرب العالمية الثانية العديد من التحولات غير المسبوقة التي كان لها أعمق الأثر ليس فقط بالنسبة لبنية العلاقات الدولية، وإنما أيضا بالنسبة لمجمل المفاهيم التي استقرت طويلا في ذاكرة الأمم والشعوب.

ولا شك أن بعضا من هذه التحولات قد ازداد عمقا واتساعا خلال السنوات الأخيرة، وإلى الحد الذي سوغ للبعض من الباحثين والمحللين إمكان الحديث عن أن ثمة نظاما دوليا «جديدا» أصبح الآن في طور التكوين إن لم يكن قد تكوّن بالفعل. ويذهب هؤلاء الباحثون إلى حد التأكيد على أن هذا النظام الدولي «الجديد» سيكون مختلفا بدرجة كبيرة في ملامحه العامة وقواعده الحاكمة عن النظام الدولي السابق عليه، وإن احتفظ النظامان ـ على الرغم من ذلك ـ ببعض هذه الملامح أو تلك القواعد كخصائص وسمات مشتركة تجمع بينهما.

فماذا نقصد أصلا باصطلاح «النظام الدولي»؟ وإلى أي مدى يحق لنا ـ في الوقت الراهن ومنذ بداية العقد الحالي تحديدا ـ الحديث عن نظام دولي «جديد»؟ وما هي أهم السمات أو الملامح العامة المميزة لهذا النظام؟ ثم ماهي الآثار المحتملة مستقبلا بالنسبة لهذا النظام، وخاصة فيما يتعلق بنمط تفاعلات القوى بين أعضاء الجماعة الدولية؟

---

* عميد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ـ جامعة القاهرة.

الإجابة عن هذه التساؤلات، وغيرها مما قد تستلزمه ضرورات التحليل، هي موضوع هذا البحث. ونستعرض هذه الإجابة من خلال التركيز على نقاط رئيسية ثلاث هي:

أولا: في بيان المقصود بالنظام الدولي، وهل نحن فعلا بإزاء نظام دولي «جديد».

ثانيا: الملامح الأساسية لتطور النظام الدولي في مرحلته الراهنة.

ثالثا: احتمالات المستقبل بالنسبة لتطور النظام الدولي.

أولا: في بيان المقصود بالنظام الدولي ومدى ملاءمة الحديث عن نظام دولي «جديد»

المشاهد أنه لا يوجد ثمة تعريف واحد متفق عليه بين جمهور الباحثين لاصطلاح النظام الدولي. فكل ينظر إلى هذا الاصطلاح من زاوية خاصة أو من منظور مختلف، وفي ضوء ظروف وأوضاع معينة، بل وحتى انطلاقا من اعتبارات وحسابات خاصة[1]. ولعل هذا هو الذي يفسر لنا لماذا تتعدد أوصاف هذا النظام، إذ في حين يصفه البعض بأنه نظام محايد، يصفه البعض الآخر بأنه نظام غير محايد أو منحاز إلى طائفة من الدول في المجتمع الدولي على حساب الطوائف الأخرى، أما البعض الثالث فلا يتردد في وصف النظام الدولي بأنه يقوم أساسا على مبدأ المعيار المزدوج Double Standard.

وبصفة عامة، يمكن القول بأن اصطلاح النظام الدولي ـ والذي شاع استخدامه على نطاق واسع من جانب الباحثين والمحللين خلال الفترة الأخيرة ـ إنما يستخدم بالأساس للإشارة إلى مجموعة التفاعلات أو شبكة علاقات القوى ـ التعاونية منها والصراعية على حد سواء ـ التي تتم فيما بين أعضاء المجتمع الدولي على المستويين العالمي والإقليمي، والتي تجري وفقا لنسق أو منظومة معينة للقيم.

ويستدل من ذلك، في واقع الأمر، على أن أي نظام دولي إنما تتحدد عناصره المفهومية في مجموعة مقومات رئيسية تتمثل أبرزها فيما يلي: فبداية يلاحظ أن أي نظام دولي لابد وأن يعرف حالة وجود قوة أو قوى معينة هي التي تمسك بزمام الأمور في نطاقه، وتكون هي التي لها الكلمة العليا في توجيه مسار حركة الأحداث بين أطرافه، ومرجع ذلك إلى حقيقة أن «النظام الدولي» ـ كمفهوم مجرد ـ إنما يقوم أساسا على مبدأ الصراع والمواجهة بين القوى الفاعلة فيه، وذلك على خلاف الحال في التنظيم الدولي الذي يفترض فيه أنه يقوم على مبدأ التعاون والتآزر. وثانيا، يلاحظ ـ كذلك ـ أن أي نظام دولي لابد وأن تسود فيه طريقة أو طرق معينة لإدارة الأزمات أو العلاقات المتبادلة بين أطرافه، وبما يحقق أو على الأقل لا يتعارض والمصالح الوطنية لفئة الدول المهيمنة من بين هذه الأطراف. وثالثا، أن كل نظام دولي تتوافر له في العادة سمات وملامح خاصة تميزه بدرجة ملحوظة عن النظام الدولي السابق عليه. ومن هنا، يقال أحيانا بأن كل نظام دولي يكاد يرتبط بواقعة أو وقائع Events معينة تشكل نقطة أو تاريخا فاصلا Critical Date، بين مرحلتين مختلفتين لتطور العلاقات الدولية. ومن ذلك مثلا، أن الواقعة أو الحدث المتمثل في اندلاع الحرب العالمية الأولى قد شكل وبحق أحد الخطوط الرئيسية الفاصلة بين النظام الدولي ذي الطابع الأوروبي الغالب والذي سيطر على العلاقات الدولية منذ قيام الثورة الصناعية ونشوء الامبراطوريات في أوروبا وامتدادها إلى أقاليم ما وراء البحار، والنظام الدولي الذي ساد خلال فترة ما بين

الحربين العالميتين. كما أن نشوب الحرب العالمية الثانية قد مثل بدوره تاريخا حاسماً يفصل بين فترة ما بين الحربين ومرحلة جديدة سواء في تفاعلاتها السياسية أو في قواعدها الضابطة. وطبقا للرأي الراجح في أوساط الباحثين المهتمين بتحليل العلاقات الدولية، فإن المرحلة الجديدة لتطور النظام الدولي منذ أوائل عقد التسعينيات قد ارتبطت بحدثين كبيرين هما: حرب تحرير الكويت (يناير/ فبراير ١٩٩١) وانهيار الاتحاد السوفيتي (ديسمبر ١٩٩١). ويرى هؤلاء الباحثون ـ وبحق ـ أن العديد من الأحداث التي وقعت على امتداد المسرح الدولي منذ أوائل العقد الحالي لم تكن لتحدث لو أن الاتحاد السوفيتي قد ظل قائما[٢].

ورابعا، أن القاعدة بالنسبة إلى أي نظام دولي هو أنه يقوم على/ أو يتشكل من مجموعة من النظم الدولية الفرعية أو التابعة Sub-Systems، والتي يمكن لكل منها أن يباشر تأثيرا متفاوتا على مجمل التفاعلات الحادثة على مستوى النظام الدولي العالمي أو الكوني Global. ولا شك أن ذلك يتحقق بصفة خاصة في حالة وجود أكثر من قطب واحد على قمة هذا النظام الدولي، وذلك على نحو مارأيناه مثلا خلال الفترة الممتدة من نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى الانهيار الرسمي للاتحاد السوفيتي في ٢١ديسمبر ١٩٩١ [٣].

والواقع، أنه إذا أخذنا بعين الاعتبار هذا التعريف المبسط لاصطلاح النظام الدولي بعناصره المشار إليها، فإن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا الخصوص يمكن إيجازه في الآتي: في ضوء التحولات الدولية التي أخذت تحدث بعمق منذ بداية عقد التسعينيات ـ والتي سنعود إلى بيانها تفصيلا ـ إلى أي مدى يصح لنا الحديث عن نظام دولي «جديد» قد تشكل فعلا أو سبيله إلى الظهور والتبلور؟.

مما لاشك فيه أن التحولات العميقة في العلاقات الدولية منذ بداية العقد المذكور، قد خلقت شعورا عاما قويا لدى الكثير من الباحثين بأن النظام الدولي أضحى الآن على أعتاب مرحلة جديدة تكاد تختلف من حيث خصائصها وسماتها العامة عن تلك المراحل التي تطور خلالها هذا النظام طيلة الفترة الممتدة من عام ١٩٤٥ وحتى منتصف الثمانينيات على وجه التقريب. ولعل هذا الشعور العام هو الذي يمكن أن يفسر لنا شيوع استخدام اصطلاح «النظام الدولي الجديد» في السنوات الأخيرة. وطبقا لرأي جانب كبير من الباحثين، فإن هذا الاصطلاح قد استخدم للمرة الأولى على لسان الرئيس السوفيتي السابق ميخائيل جورباتشوف، وذلك في إطار الحديث عن سياسته الخاصة بالتقارب مع الغرب ومع الولايات المتحدة الأمريكية خاصة. وقد قصد جورباتشوف من وراء استخدامه لهذا الاصطلاح أنه النظام الذي أعقب الحرب الباردة وانتهاء خطر المواجهة بين الشرق والغرب، والذي يقوم على مبادىء حاكمة جديدة تتضمن من بين أمور عدة: نزع السلاح، وإحلال مبدأ توازن المصالح بدلا من توازن القوى انطلاقا من التسليم بعدم قدرة أي من المعسكرين الأمريكي والسوفيتي على فرض إرادته على الآخر، ونزع الصفة الأيديولوجية عن العلاقات الدولية. ومع الحرص في الوقت ذاته على العمل من أجل تخطي الحواجز والصراعات تحقيقا لمصالح البشرية جميعا.

وقد عوّل الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش على المصطلح نفسه في بداية أزمة الخليج الثانية في الثاني من أغسطس ١٩٩٠، وذلك بهدف حشد التأييد العالمي ضد العراق. كما عاد الرئيس بوش واستخدم هذا المصطلح مرارا بعد ذلك، ولا سيما بعد أن بدأ الدور السوفيتي في الضعف ثم الانهيار مع توالي عمليات تفسخ

الأطر الاتحادية لما كان يعرف باتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية. ومن ذلك مثلا، ما أعلنه الرئيس بوش في خطابه أمام الكونجرس الأمريكي في ٥ مارس ١٩٩١ من: «أن حرب الخليج كانت المحك الأول لنظام عالمي جديد». وفي أعقاب نجاح الولايات المتحدة في إدارة أزمة الخليج وتدمير آلة الحرب العراقية وتحرير الكويت وإعادة حكومتها الشرعية، عاد الرئيس الأمريكي السابق ليعلن بوضوح ـ في خطاب له بالكلية الحربية بقاعدة ماكسويل الجوية ـ «أن أركان النظام الدولي الجديد هي: تسوية المنازعات بالوسائل السلمية، والتضامن الدولي في مواجهة العدوان، والعمل من أجل تخفيض مخزونات الأسلحة وإخضاعها للسيطرة ومعاملة الشعوب معاملة عادلة . . . ».

وتباعا، أصبح الحديث عن النظام الدولي «الجديد» يمثل أحد الموضوعات الأساسية في مختلف وسائل الإعلام في الدول المختلفة، كما أنه أضحى مادة خصبة للبحث والدراسة من جانب المحللين الذين تباينت آراؤهم بشأن شكل هذا النظام وسماته الرئيسية والقوى الفاعلة فيه، وعما إذا كان سيظل نظاما احادي القطبية أم أن التطورات الدولية اللاحقة سوف تقود إلى شكل معين من أشكال توازن القوى بين الولايات المتحدة وأوروبا الغربية واليابان وبما يعيد إلى الأذهان نظام تعدد الأقطاب الذي كان سائدا خلال الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية[4].

ومع كل ذلك، فليس بوسع أي باحث مدقق أن يذهب إلى حد التسليم تماما بمقولة أن النظام الدولي الذي عرفه العالم طيلة الفترة الممتدة بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٨٥ (وهو تاريخ وصول الرئيس السوفيتي السابق جورباتشوف إلى قمة السلطة في موسكو) قد ولى إلى غير رجعة، وأن نظاما دوليا جديداً بكل معنى الكلمة قد حل محله[5]. فالحق، أن ما يشهده العالم اليوم ـ ومنذ انهيار دولة الاتحاد السوفيتي إنما هو أقرب إلى وصف «الفوضى الدولية» منه إلى أي وصف آخر، أو على أقل تقدير يمكننا القول بأن النظام الدولي يمر اليوم بمرحلة انتقالية ذات طبيعة خاصة قد تستغرق عدة سنوات لكي يعود بعدها إلى الاستقرار النسبي وحسبنا أن ندلل على ذلك بالإشارة إلى الحقائق الآتية: الأوضاع السيئة وخاصة من الناحية الاقتصادية لغالبية الجمهوريات السوفيتية السابقة وبما في ذلك روسيا الاتحادية ذاتها، والغموض الذي مازال يحيط بمستقبل الدور العالمي والإقليمي لروسيا باعتبارها الوريث الأكبر لدولة الاتحاد السوفيتي، والمشاكل الحادة في دول شرق أوروبا واحتمالات انخراطها في علاقات وثيقة سياسيا وعسكريا وقبل ذلك اقتصاديا ضمن نطاق مجموعة حلف الأطلنطي، والصراعات العرقية التي أدت إلى نشوب حروب ومنازعات داخلية ودولية في بعض المناطق كما في يوغسلافيا السابقة واذربيجان وأرمينيا وأفغانستان، واتجاهات السياسة الخارجية للصين سواء في إطار السياسات الدولية العالمية أو على مستوى سياسات منطقة جنوب شرق آسيا، وسياسات كوريا الشمالية التي وصلت ببحوثها إلى درجة تمكنها من إنتاج الأسلحة النووية والتي تفصح من حين لآخر عن مظاهر للتمرد على القيادة الأمريكية للعالم المعاصرة وموجة العنصرية في ألمانيا وبعض الدول الأوروبية الأخرى كفرنسا والنمسا، والمشكلات الداخلية في الولايات المتحدة وخاصة ما يتعلق منها بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية.

إذاً، فالنتيجة المباشرة التي يمكن أن يخرج بها المراقب لمسار حركة الأحداث في عالمنا المعاصر ومنذ بداية

العقد الحالي، إنما تتمثل في ازدياد درجة عدم التيقن بالنسبة لمستقبل اتجاهات هذه الأحداث، وازدياد الإدراك لحقيقة أن ما لا نعرفه بشأن هذا الموضوع أصبح يفوق بكثير حجم ما نعرفه أو نستوعبه فعلا، وهو ما يحتم علينا ضرورة أن نتعامل ـ بحذر منهجي ـ مع وضع جديد لم تكتمل معالمه بعد. وعليه، فقد يكون من الحكمة عدم التسرع في إصدار الأحكام القيمية فيما يتعلق بالصورة العامة التي سيكون عليها النظام الدولي بعد انتهاء مرحلته الانتقالية الراهنة.

على أن الوصول إلى هذه النتيجة العامة لا يمنع من طرح السؤال الآتي: في ضوء القدر المحدد المعلوم لنا في مجمل التحولات الدولية التي أخذت تحدث تباعاً منذ أوائل عقد التسعينيات، ما هي أبرز الملامح أو السمات العامة التي بات يتميز بها النظام الدولي خلال مرحلته الانتقالية هذه؟

نجيب عن هذا السؤال من خلال النقطة الثانية من البحث.

ثانيا: ملامح تطور النظام الدولي في المرحلة الراهنة

قد يكون من المفيد بداية، وقبل أن نعرض لهذه الملامح، أن نعيد التأكيد على ما سبق أن أشرنا إليه فيما يتصل بحقيقة أن أي نظام دولي لا يبدأ من فراغ، وإنما تكون له مقدماته الأولية التي تصله بالنظام الدولي السابق عليه، مما يشكل قدراً من الاستمرارية في تطور العلاقات الدولية على نحو معين. ومرد ذلك إلى كون أن التطور التاريخي لا يعرف ـ كمبدأ عام ـ الاندفاعات العشوائية أو الانقطاعات المفاجئة، فلكل شيء مقدماته وأصوله وجذوره، فالتاريخ الإنساني ـ بعبارة أخرى ـ لم يعرف قط تطورا جديدا تماما لا يمت بصلة بما سبقه، وحتى الثورات الكبرى في نطاق هذا التاريخ ـ وكذلك الأديان ـ قد عكست البيئات التي ظهرت فيها ولو في حدود معينة.

ومؤدى ذلك، أن بعضاً من الملامح التي سيلي ذكرها يمكن تلمسه أيضا في نطاق النظام الدولي الذي ظل يحكم العلاقات الدولية طيلة الفترة الممتدة من نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى منتصف عقد الثمانينيات تقريبا[٦]. ومن ذلك مثلا أن القاعدة المعروفة في نطاق القانون الدولي العام المعاصر بقاعدة عدم جواز اللجوء إلى القوة أو التهديد باستخدامها في نطاق العلاقات الدولية المتبادلة، لها جذورها التي تعود على الأقل إلى اتفاقيات لاهاي للسلام عامي ١٨٩٩ و١٩٠٧ وكذا إلى عهد عصبة الأمم الذي أبرم في إطار معاهدات صلح فرساي عام ١٩١٩. والشيء ذاته يصدق أيضا على الموضوع الخاص بتطور الحماية الدولية لحقوق الإنسان.

ونعود الآن إلى سؤالنا المطروح بشأن الملامح المميزة للنظام الدولي في تطوره الراهن.

يمكننا إيجاز أهم هذه الملامح فيما يلي[٧]:

١ - فبداية، هناك الثورة الهائلة في وسائل الاتصال ونقل المعلومات وسرعة تداولها عبر الدول، وما ترتب على ذلك من اختصار غير معهود للزمن والمسافات بين مختلف مناطق العالم، الأمر الذي جعل أفكارنا ومفاهيمنا عن الظواهر والأشياء تتأثر إلى حد بعيد بالأحداث الجارية والتطورات المتلاحقة على امتداد هذا العالم.. وكما هو معلوم، فقد ساعد على ذلك ـ وخاصة فيما يتعلق بنقل المعلومات من خلال نظم الحاسبات

الآلية ذات القدرة الفائقة على الاضطلاع بمختلف الوظائف التي تناط بها. ونتيجة لذلك، اعتبر البعض ـ ويحق ـ أن إحدى السمات الرئيسية لعالمنا المعاصر إنما هي السرعة في التواصل وفي معدل التغير، وإلى الحد الذي حمل بعض المفكرين الاجتماعيين مثل ألفن توفلر إلى التساؤل بشأن مدى قدرة الإنسان على التكيف مع هذه الدرجة غير المسبوقة من السرعة في تداعي الأحداث وتلاحقها.

٢ ـ واتصالا بهذا الملمح السابق، هناك أيضا الخاصية المتمثلة في الثورة العلمية والتكنولوجية، وهي الثورة التي أضحت آثارها ومظاهرها تتدفق علينا ومن حولنا من كل جانب سواء في شكل منتجات صناعية أو في صورة أجهزة ومعدات حديثة أو في وسائل الاتصال ذاتها. ولعل البعض يتذكر بهذه المناسبة، ذلك الحوار الشهير الذي تم مباشرة عن طريق الأقمار الصناعية والذي التقى من خلاله ما يقرب من ٧٠٠ من رجال الأعمال وعدد من المسئولين المصريين في القاهرة وست مدن أمريكية ـ في إبريل ١٩٨٢ ـ وناقشوا خلاله فرص الاستثمار المتاحة في مصر.

ومرة أخرى، فإنه ليس بوسع أحد أن يغفل في هذا المقام الدور الحاسم للحاسبات الإلكترونية كسمة مميزة لثورة المعلومات الهائلة التي اصطبغ بها النظام الدولي المعاصر في السنوات القليلة الماضية، وخاصة في مجالات الدفاع وبناء القدرات العسكرية للدول. وبحسب رأي بعض المحللين، فإن هذه الثورة الإلكترونية الهائلة قد تميزت بدورها ـ بأربع سمات فرعية هي[٨]:

أ ـ فأولا، توصف هذه الثورة بأنها ساعدت إلى حد بعيد في اختصار المدى الزمني الذي كان يفصل بين كل ثورة صناعية وأخرى. فقد أخذ هذا المدى يضيق باستمرار بحيث يمكن القول بأنه إذا كان العالم قد انتظر ما يقرب من ١٨٠٠ عام حتى تبدأ الثورة الصناعية الأولى، وأنه لم يدخل في عصر الثورة الصناعية الثانية إلا بعد مئة عام من ذلك التاريخ، واحتاج فقط إلى ما لا يزيد على ربع قرن ليدخل في عصر الثورة الصناعية الثالثة، إلا أنه أصبح اليوم وربما في أقل من عشر سنوات على مشارف ثورته الصناعية الرابعة.

ب ـ ومن ناحية أخرى، يلاحظ أن هذه الثورة الصناعية الجديدة في مجال الإلكترونيات تمتاز بأنها ـ وعلى خلاف الثورات الصناعية السابقة التي اعتمدت على الصناعات الثقيلة أو على صناعة الآلات والسيارات وخلافه ـ تعتمد على نتائج العقل البشري وعلى حصيلة الخبرة والمعرفة التقنية. ولعل هذا هو الذي يفسر لنا ـ وعلى سبيل المثال ـ لماذا يذهب الجزء الأكبر من القيمة عند تقدير ثمن المنتج إلى المعرفة والتكنولوجيا المستخدمة وليس إلى المواد الخام التي استخدمت في عملية تصنيع هذا المنتج.

جـ ـ ولأن العقل البشري هو الذي أصبح ينظر إليه باعتباره قوام الثورة التكنولوجية الراهنة، لذا فقد بات من المقبول بصفة عامة أن مواكبة هذا التطور الجديد الحادث في طبيعة العمليات الإنتاجية إنما تستلزم بالدرجة الأولى استثمارا رئيسيا في نوعيات معينة من المجالات، وبالذات تلك التي تتعلق بأمور التعليم وتطوير المهارات البشرية وتنمية كوادر وقدرات تستطيع التعامل مع مخرجات هذه الثورة والتكيف مع نتائجها. ولاشك أن ذلك قد بات أمرا مطلوباً من الدول كافة أن تعيه وتعد نفسها لمواجهته، وخاصة تلك التي تبغي تحقيق خطوات واسعة على طريق حل مشكلاتها الاقتصادية والاجتماعية.

د- وأما السمة الفرعية الرابعة للثورة التكنولوجية المعاصرة فتتمثل في حقيقة أنه أضحى في حكم المسلم به اليوم أن ثمة مجالات معينة بالذات ينبغي علينا أن نتابعها وذلك لصلتها الوثيقة بأي تقديم يرجى تحقيقه في سبيل حل مشكلاتنا الاقتصادية والاجتماعية والبيئية. وتتمثل هذه المجالات بالأساس في الآتي استغلال الطاقات البديلة، والإفادة من الطاقة الشمسية، واقتحام مجال الهندسة الوراثية وتكنولوجيا إنتاج الطعام الرخيص وبكميات وفيرة، ومجال إحلال الآلة محل الإنسان في كل ما يتصل بأمور الميكنة Automization[9].

٣- وهناك، من ناحية ثالثة، ما أصبح يشار إليه في بعض الكتابات المعاصرة بظاهرة الاعتماد الدولي المتبادل International Interdependence أو التقسيم الدولي الجديد للعمل The New International Division Of Labour، وخاصة بعد التزايد الملحوظ في أعداد وأنواع الشركات متعددة الجنسية Multi-national Corporations بالأحرى الشركات دولية النشاط والتي تمتد بأنشطتها إلى ماوراء الحدود السياسية للدول. وقد ظهر أثر ذلك واضحا في طبيعة المنتج الصناعي، حيث لم يعد في إمكان دولة واحدة - مهما كانت قدرتها الذاتية - أن تستقل بمفردها بصنع هذا المنتج، وإنما أصبح من الشائع اليوم أن نجد العديد من المنتجات الصناعية (سيارات، أجهزة إلكترونية، حاسبات آلية،...) يتم تجميع مكوناتها في أكثر من دولة بحيث تقوم كل واحدة منها بالتركيز على/ أو بالتخصص في صنع أحد هذه المكونات فقط.

٤- كذلك، فإن من السمات الأخرى المميزة للنظام الدولي في تطوره الراهن كون أن المشكلات والقضايا التي يواجهها قد أضحت ذات طابع دولي غالب ولم تعد مشكلات محلية أو حتى إقليمية. وبعبارة أخرى، فإن مشكلات كتلك المتعلقة بالجفاف أو التضخم أو نقص الغذاء أو الإرهاب أو تلوث البيئة،... لم تعد تقتصر من حيث آثارها ونتائجها - وكذا من حيث القدرة على التصدي لها ومواجهتها على النطاق الإقليمي لمجموعة من الدول بذواتها، وإنما امتدت هذه الآثار وتلك النتائج إلى دول أخرى متباعدة جغرافيا. ومن هنا نستطيع أن نفهم مثلا لماذا تبدو دولة كاليابان معنية كثيرا بموضوع التلوث البيئي في منطقة الخليج - على نحو ما حدث إبان أزمة الاحتلال العراقي للكويت (أغسطس ١٩٩٠-فبراير ١٩٩١)، وذلك على الرغم من المسافة الجغرافية الشاسعة التي تفصل بينها وهذه المنطقة. كما أن هذه السمة العالمية أو الكونية Global للمشكلات الدولية الراهنة هي التي حدت بالبعض لأن يقرر صراحة أن مشكلة كتلك الناجمة عن التلوث البيئي مثلا قد أضحت تمثل تهديداً للسلم والاستقرار في العالم الأمر الذي يستدعي جهودا دولية مشتركة لمواجهتها سواء من أجل ضبط الانفجار السكاني أو لكفالة نوع من التوزيع العادل لموارد الغذاء بين الدول الغنية والدول الفقيرة أو لمنع تجريف الأراضي الزراعية ووقف الاعتداء على البيئة (تدمير الغابات، دفن النفايات النووية في مناطق مأهولة أو قريبة منها...).

٥- والواقع، أن الحديث عن الملامح الرئيسية لتطور النظام الدولي في مرحلته الراهنة ربما لا يكون مكتملا من دون الإشارة إلى ذلك التبدل الكبير الذي طرأ على مبدأ السيادة الوطنية في مفهومه التقليدي. فالمشاهد، أنه كنتيجة للتحولات النوعية العديدة التي شهدها هذا النظام ليس فقط منذ منتصف الثمانينات وأوائل التسعينيات وإنما أيضا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، ترتبت آثار عديدة فيما يتعلق بالمبدأ المذكور أدت إلى

التضييق من نطاق وحدود سلطات واختصاصات الدولة القومية. وقد كان ذلك لصالح توسيع مادة الاهتمام الدولي بالمسائل التي ظل ينظر إليها دوما وبحسب معايير القانون الدولي التقليدي باعتبارها من الأمور التي تندرج ضمن نطاق الاختصاص الداخلي Domestic Jurisdiction للدولة أو ضمن نطاق مجالها المحجوز Reserved Domain[10]. وليس ثمة شك في أن التطور الحاصل الآن في مجال الحماية الدولية لحقوق الإنسان، يشكل مثالا نموذجيا يمكن الإشارة إليه في معرض التدليل على درجة التغير التي أصابت مبدأ السيادة الوطنية لمصلحة المجتمع الدولي.

ولئن كان الاهتمام الدولي المتزايد بحقوق الإنسان والحريات الأساسية تعود بدايته الحقيقية إلى تاريخ إنشاء الأمم المتحدة عام ١٩٤٥، إلا أن المشاهد أن السنوات الأخيرة من تطور النظام الدولي ـ وبالذات منذ نشوب أزمة/ حرب الخليج عامي ١٩٩٠/ ١٩٩١ ـ قد عمقت من هذا الاهتمام وذلك من خلال إعادة طرح ما اصطلح على تسميته «بمبدأ التدخل الدولي الإنساني Humanitarian Intervention أو «التدخل الدولي لأغراض إنسانية»[11].

ولعل المثالين الأكثر دلالة في هذا الخصوص هما اللذان نجدهما في حالتي التدخل الدولي ضد العراق لحماية الأكراد والشيعة في شمال البلاد وفي جنوبها وذلك في أعقاب انتهاء حرب تحرير الكويت في ٢٦ فبراير ١٩٩١، والتدخل الدولي في الصومال منذ أوائل عام ١٩٩٣ والذي تم تحت شعار «إعادة الأمل» وإنقاذ الشعب الصومالي من خطر المجاعات التي أخذت تفتك به كنتيجة لانهيار الدولة، وعجزها عن القيام بمجمل الوظائف المنوطة بها في مثل هذه الأحوال[12].

وبصفة عامة، فإنه مما لاشك فيه أن التبدل الذي طرأ على مفهوم السيادة الوطنية لا يمكن فهمه بمعزل عن حقيقة أن الدول القومية ـ وعلى الرغم من التزايد المطرد في أعدادها وبشكل تدريجي منذ عام ١٩٤٥ ـ لم تعد هي الفاعل الوحيد في نطاق العلاقات الدولية، وذلك على خلاف الحال خلال الفترة السابقة على هذا التاريخ. فإلى جانب الدول، أضحت هناك كيانات دولية عديدة تضطلع اليوم بدور كبير ـ يفوق دور الدول ذاتها في بعض الأحيان ـ في توجيه مسار حركة الأحداث على امتداد الساحة الدولية. فهناك، على سبيل المثال، المنظمات الدولية على اختلاف أنواعها من حكومية وغير حكومية، عالمية وإقليمية، عامة ومتخصصة. وهناك، أيضا، الشركات دولية النشاط والتي أضحت اليوم تمثل إحدى الظواهر الأساسية المميزة للعلاقات الدولية المعاصرة[13]. وكلنا يعلم كيف تضخمت نشاطات بعض هذه الشركات الدولية وإلى الحد الذي تتجاوز فيه ميزانية الواحدة منها ميزانيات العديد من الدول مجتمعة، وخاصة دول الجنوب.

ونتساءل الآن عن مدى إمكانية القول باستمرار هذه السمات كملامح مميزة للنظام الدولي فليس في مرحلته الراهنة ومنذ أوائل عقد التسعينيات، أم يصح لنا القول ـ من جهة أخرى ـ بأن التحولات التي طرأت على بنية النظام الدولي منذ أزمة/ حرب الخليج الثانية أو على أقصى تقدير منذ انهيار الاتحاد السوفييتي هي بسبيلها اليوم لأن تضفي على هذا النظام الدولي خصائص وسمات من نوع جديد تماما.

مرة أخرى، ليس بوسع أي محلل سياسي أن يتجاهل حقيقة أن انتهاء الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ـ والتي استمرت قرابة أربعة عقود ـ قد خلق إطاراً جديداً للسياسة الدولية يتسم بالتغير السريع، إطار ذو سمات خاصة ومميزة حيث أنه لا يقتصر على القضايا السياسية وإنما يمتد ليغطي مجالا رحبا للتنظيم الاجتماعي والإنساني أيضا. وكما سلف القول، فإن التطورات التكنولوجية العميقة التي يشهدها العالم في الوقت الحاضر صارت تؤثر على الوزن النسبي لعناصر الإنتاج، بمعنى أنها زادت من قيمة وأهمية دور المعرفة والمعلومات بالمقارنة بقيم العناصر الأخرى المعروفة في نطاق علم الاقتصاد التقليدي كالأرض والعمل ورأس المال، وهكذا، نمت صناعات جديدة تنحصر أنشطتها في جمع المعلومات وتنظيمها وتخزينها واسترجاعها، وظهر اصطلاح «مجتمع المعلومات» للدلالة على هذا التطور النوعي الجديد. ولعلنا لا نبالغ إذا خلصنا، في هذا المقام، إلى القول بأن انهيار دولة الاتحاد السوفييتي إنما كان في أحد جوانبه تعبيرا عن عدم قدرة مؤسساتها العلمية والاقتصادية على الاستجابة لمتطلبات التغير التكنولوجي السريعة هذه.

والحق، أنه مع اعترافنا بالآثار الضخمة التي نجمت عن انتهاء عصر الحرب الباردة بين قطبيّ النظام الدولي، إلا أن القول بأن هذا النظام سيشهد خلال المستقبل المنظور توجهات سياسية جديدة تقوم على إحلال مبدأ التعاون محل مبدأ الصراع والمواجهة ليس مقطوعا بصحته تماما فلايزال هناك من ينظر إلى العالم منذ نهاية عام ١٩٩١ من خلال مفاهيم الحرب الباردة، حيث يرى هؤلاء أن روسيا الاتحادية ـ وهي الوريث الأكبر والأقوى للاتحاد السوفييتي السابق ـ مازالت تمتلك القدرة الكافية التي تمكنها من شن الحرب ضد الولايات المتحدة الأمريكية، ومن ثم فإن التهديدات الاستراتيجية للغرب عموماً وللولايات المتحدة على وجه الخصوص لا تزال قائمة على الرغم من الاختفاء الرسمي لدولة الاتحاد السوفييتي. وواضح، أن هذا الفريق من المحللين لا يعول كثيراً على النوايا أو على الإعلانات السياسية، وإنما يركز بالأساس على الحقائق الحادثة فعلا، فما يهم هو مصير ترسانات السلاح ونظم التسلح المتوفرة لدى ورثة الاتحاد السوفييتي.

كما ينطلق أنصار هذا الرأي من مقولة أن التأثير الواضح لانتهاء الحرب الباردة ربما يظهر في بعض مناطق العالم ـ كأوروبا الشرقية ـ دون البعض الآخر. فعلى سبيل المثال، لم يؤد انتهاء هذه الحرب إلى إحلال فوري للسلام في منطقة مهمة كمنطقة الشرق الأوسط، وذلك على الرغم من استمرار المباحثات الثنائية منها والمتعددة الأطراف، بل لعلنا لا نبالغ إذا قلنا بأن السباق المحموم على التسلح فيما بين دول المنطقة مازال مستمراً فوفقاً للكتاب السنوي الذي يصدره معهد «سيبرى» الشهير في السويد، يلاحظ أن الإنفاق العسكري للمملكة العربية السعودية قد زاد من ١٤,٨٨٧ مليون دولار في عام ١٩٨٨ إلى ٢٦,٢٢٧ مليون دولار في عام ١٩٩١، وزاد بالنسبة لدولة إسرائيل وخلال الفترة نفسها من ٣,٨١١ مليون دولار إلى ٣,٩٠٩ مليون دولار، وزاد في سوريا من ١,٤٨٢ مليون دولار إلى ٣,٣٠٤ مليون دولار، وأما في تركيا فقد زاد من ٢,٦٦٤ مليون دولار إلى ٣,٨٧٠ مليون دولار [١٤].

وإضافة إلى ما تقدم، فإن نهاية الحرب الباردة لم يصاحبها أي تحسن ملحوظ لبعض بؤر التوتر في العالم. فمثلا لم يطرأ على العلاقات الهندية-الباكستانية أي تطور إيجابي وخاصة فيما يتعلق بمشكلة كشمير، كما لم يؤد انتهاء الحرب الباردة إلى الإقلال من سعي باكستان الدءوب من أجل تصنيع وامتلاك السلاح النووي. كما أنه

أي انتهاء الحرب الباردة ـ لم يؤد إلى مزيد من الاستقرار في شبه الجزيرة الكورية، بل على العكس فالملاحظ هو أن حدة التوتر بين دولتي كوريا قد زادت في عام ١٩٩٣ مما حمل كوريا الجنوبية على القيام بمناورات عسكرية مع الولايات المتحدة، وخاصة بعد رفض كوريا الشمالية إخضاع مفاعلاتها ومنشآتها النووية للتفتيش من جانب الوكالة الدولية للطاقة الذرية.

وعلى الإجمال، فإنه أياً كان تقويمنا للنتائج المترتبة على انتهاء الحرب الباردة، فإن الأمر الذي لا سبيل إلى انكاره في هذا الخصوص هو أن التفاعل بين ما يمكن وصفه «بقوى التكامل» «وقوى التمايز» في إطار العلاقات الدولية سوف يستمر، وستكون النتيجة المحققة هي بلا شك محصلة بين هذين النقيضين في تركيب جديد ذي ملامح خاصة ستبرز بوضوح في اتجاهات رئيسية خمسة هي:

١- التطور نحو المزيد من الثورة العلمية والتكنولوجية

من المتوقع أن يشهد النظام الدولي في تطوره الراهن وخلال سنواته القليلة القادمة تعميقاً مكثفاً للثورة العلمية والتكنولوجية في جوانبها المتعددة، وعلى الأخص فيما يتصل بالمحاور الأساسية الآتية: المعلوماتية Informatiques ودورها المتزايد في مجالات الحياة المختلفة، والتقنيات الحيوية، وتخليق المواد أو استنباط مواد جديدة وخاصة في مجال الغذاء، والإدارة العلمية، والاعتماد على ما يسمى خطأ في أدوات الإعلام الإنسان الآلي (الروبوت) أو الإحلال التدريجي للآلة محل الإنسان في بعض الأنشطة.

وطبقا لما هو مشاهد، فإن هذا التطور نحو المزيد من الثورة العلمية والتكنولوجية، يتصف ـ بدوره ـ بعدد من السمات:

أ- فهو، أولاً، تطور يحدث بمعدلات متسارعة للغاية وإلى الحد الذي ضاقت فيه الفجوة الزمنية التي تفصل بين تاريخ الاكتشاف العلمي وبداية تطبيقه عملياً.

ب- ومن ناحية ثانية، توصف هذه الثورة العلمية بأنها ستؤدي ـ من بين أمور أخرى عديدة ـ إلى مزيد من الارتباط والتداخل بين مختلف مناطق العالم، وإلى مزيد من الاعتماد المتبادل بين الأطراف الرئيسية لهذه الثورة التكنولوجية حتى ليصح لنا القول بأنه إذا كان الإنسان قد ظل يعيش على هذا الكوكب منذ ملايين السنين، إلا أنه لم يقدر له إلا خلال حقبة الثمانينيات فقط أن يعيش في مجتمع عالمي Global بالمعنى الحقيقي للاصطلاح. وباختصار، يمكن القول بأن هذه الثورة التكنولوجية العلمية هي التي ستمثل الايديولوجية الجديدة التي سيتنافس حولها المتنافسون، وذلك بعد أن تراجعت الخلافات الايديولوجية التقليدية والتي عرفها العالم بشكل خاص خلال الفترة التالية على انتهاء الحرب العالمية الثانية وحتى سقوط دولة الاتحاد السوفيتي [١٥].

جـ- كذلك، توصف هذه الثورة العلمية والتكنولوجية من ناحية ثالثة، بأنها أدت وستؤدي إلى مزيد من التركيز على أهمية عامل المعرفة في نطاق العلاقات الدولية المتبادلة. فالسمة الرئيسية لهذه الثورة هي ـ وكما هو مشاهد حتى الآن ـ اعتمادها على المعلومات، بما يعنيه ذلك من كونها تؤسس على مصدر متجدد ولا نهائي قوامه هو العقل الإنساني ذاته. ومؤدى ذلك، أن الاستثمار الصناعي في الدول

عموماً يتوقع له ـ بل ويجب أن يتجه من التركيز على مجالات البناء والآلات إلى الاستثمار في مجالات المعرفة والبحث العلمي.

٢ - التطور نحو المزيد من الاعتماد الاقتصادي المتبادل

أشار التحليل، فيما سبق، إلى حقيقة أن الثورة العلمية والتكنولوجية المعاصرة قد رتبت نتائج عديدة تمثلت بالأساس في انهيار حاجز المسافات بين الدول والقارات مع ما يعنيه ذلك من تزايد إمكانيات التأثير والتأثر المتبادلين وإيجاد نوع جديد من التقسيم الدولي للعمل الذي يتم بمقتضاه توزيع العملية الإنتاجية الصناعية بين أكثر من دولة بحيث يتم تصنيع مكونات أي منتج نهائي في أكثر من مكان واحد. وقد انعكس كل ذلك ولاشك في تراجع بعض مفاهيم علم الاقتصاد التقليدي ونظرياته، وتضاؤل دور الدولة من خلال سياسات الاقتصاد المخطط وإحلال دور القطاع الخاص محل القطاع العام في العديد من الدول.

كذلك، فإن من المشاهد اليوم أن هذه الثورة العلمية والتكنولوجية، وما ارتبط بها من تقسيم جديد للعمل الدولي، قد غيرت كثيرا من موازين القوة الاقتصادية وطرحت معايير جديدة لهذه القوة وصفها البعض وبحق «بالميزة التنافسية للأمم في التسعينيات»[١٦]. فمن المؤكد أنه لأول مرة في التاريخ، يلاحظ أن الموارد الطبيعية لم تعد هي الركيزة الأساسية للقدرة الاقتصادية للدولة على المنافسة في المجال الدولي. وليس أدل على ذلك من حقيقة أن معدلات النمو الاقتصادي العالية قد تحققت في دول فقيرة نسبياً في مواردها الطبيعية كاليابان وكوريا الجنوبية وبعض الدول الأخرى في منطقة جنوب شرق آسيا، في حين أن معدلات النمو المنخفضة قد وجدت في العديد من الدول التي تتوافر لديها ــ بمعايير علم الاقتصاد التقليدي ــ موارد طبيعية كبيرة ومتنوعة كالأرجنتين وباكستان والسودان بل وحتى الاتحاد السوفييتي قبل انهياره.

وعليه، فقد أضحى من المسلمات الآن القول بأن الدول لا ترث رخاءها وإنما تخلقه بأيدي أبنائها من خلال التجديد والابتكار والتطوير المستمر، وبأن هذا الرخاء لا ينهض فقط على توافر الموارد الطبيعية للدولة، وإنما ينهض قبل ذلك كله على قدرة المؤسسات الاجتماعية على تنظيم هذه الموارد وتعبئتها، وتبنى السياسات القادرة على التعامل مع الضغوط التي تولدها المنافسة في الأسواق الدولية والعمل لكي يتميز إنتاجها الصناعي بالتجديد والابتكار.

والواقع، أنه لا يخالجنا أدنى شك في أن الأمر المثير بالنسبة لقدرة أية دولة على تحقيق مثل هذه الميزة التنافسية الدولية، إنما يكمن في كون أن نجاحها ــ في التحليل الأخير ــ يتناسب طرديا مع حجم المنافسة المحلية القائمة بين مؤسساتها الإنتاجية. فحدة المنافسة المحلية يصير إذاً، هو المحك الأكبر للقدرة على المنافسة العالمية، ولعل النموذج الياباني هو الذي يقدم لنا دليلاً أكيداً في هذا الخصوص. ففي اليابان على سبيل المثال تتنافس ١١٢ شركة تعمل في مجال صناعة العدد والآلات، و٢٤ شركة تعمل في مجال صناعة أدوات الاتصال وأشباه المواصلات، و٢٥ شركة تعمل في مجال صناعة أجهزة التصوير والكاميرات. ولاشك أنه كلما تركزت المنافسة جغرافيا وازدادت حدتها، أصبحت الصناعة أكثر قوة لاقتحام ميدان المنافسة العالمية.

٣- التطور نحو المزيد من التكتلات الاقتصادية العملاقة

ليس ثمة خلاف بين جمهور الباحثين والمحللين حول أن العالم يشهد الآن اتجاها واضحا وقويا يدفع في طريق التكامل الاقتصادي وإيجاد الأسواق الكبيرة. ولعل من أبرز الأمثلة التي يمكن الإشارة إليها في هذا الخصوص: مشروع أوربا الموحدة الذي خطا بخطوات واسعة نحو التكامل الأوربي منذ اتفاقية روما لعام ١٩٥٧ وما أعقبها من خطوات أسفرت عن توقيع معاهدة ماستريخت. وهناك، أيضا، جماعة الباسيفيك الاقتصادية، وكذا منطقة التجارة الحرة التي تجمع بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك... والواقع أن هذا الاتجاه العالمي نحو التكتل أو التكامل الإقليمي، إنما يفسر في جانب منه في ضوء طبيعة القضايا والمشكلات التي أصبحت تواجه العالم المعاصر، والتي تتجاوز آثارها ونتائجها الحدود السياسية للدول فرادى[١٧].

٤- الاتجاه نحو المزيد من التطور الديمقراطي[١٨]

لاشك أن ثمة حالة غير مسبوقة من التطور الديمقراطي على المستوى العالمي أخذت تجد تطبيقات متعددة لها في الدول المختلفة، بما في ذلك بعض دول العالم الثالث. ولعل من أهم مظاهر هذه الحالة ما نراه الآن من تزايد ملحوظ في درجة المشاركة السياسية للشعوب في تقرير مصيرها، وذلك على نحو ما حدث مثلا في الجمهوريات الخمسة عشر التي انبثقت عن دولة الاتحاد السوفيتي في أعقاب انهيارها، وكذا ما حدث بالنسبة لحالة انفصال إقليم اريتريا عن اثيوبيا وتكوين دولة مستقلة. كما لا ينبغي في هذا السياق تجاهل التطورات الديمقراطية التي جرت في دول أوربا الشرقية منذ نهاية عقد الثمانينيات، وهي التطورات التي أتت على نظم الحكم الشيوعية لتجتثها من جذورها وبشكل دموي في بعض الحالات على نحو ما حدث في رومانيا.

وهكذا، فقد بات أمراً ضروريا الآن ـ وكما عبر البعض عن ذلك متهكماً ـ أن النظام الدولي «الجديد» يسعى إلى إتاحة الفرصة الكاملة للشعوب للتعبير عن إرادتها بحرية، وأن تصدر قراراتها بنفسها.

٥- تطور النظام الدولي ومزيد من الوفاق في مرحلة ما بعد الحرب الباردة

غني عن البيان أن احتدام الصراع بين قطبي النظام الدولي خلال مرحلة الحرب الباردة قد أدى إلى إرهاق متبادل لكل منهما، وذلك بالنظر إلى الأعباء العسكرية الناجمة عن سباق التسلح الرهيب طيلة الفترة السابقة على منتصف الثمانينيات. ومن هنا، فقد كانت مبادرة الرئيس السوفيتي السابق جورباتشوف في أعقاب وصوله إلى قمة السلطة في الاتحاد السوفيتي بشأن ضرورة صياغة أفكار جديدة في هذا الخصوص، أمراً طبيعياً فرضه الإدراك بمدى ثقل هذه الأعباء العسكرية. وقد تأسست هذه الأفكار الجديدة للرئيس جورباتشوف على مقولة أساسية مفادها أن العالم أصبح يشكل الآن وحدة واحدة بفعل تأثير الثورة التكنولوجية والتقدم الرهيب في أسلحة الدمار الشامل.

وقد استتبع ذلك تبلور أربعة مبادىء رئيسية في هذا الإطار هي:

أ - أن الاعتماد المتبادل صار هو القانون الأساسي للعلاقات الدولية.

ب- أن التناقض بين الرأسمالية والاشتراكية لم يعد هو التناقض الرئيسي في النظام الدولي، وإنما توارى ليحل عله تناقض أهم وهو التناقض بين دول الشمال الصناعية المتقدمة ودول الجنوب ذات الأوضاع الاقتصادية المتدنية. كما أن اختفاء هذا التناقض بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي قد ساعد في تكتيل الجهود الدولية من أجل التصدي للمشكلات المشتركة كمشكلات: الإرهاب، والتلوث، والانفجار السكاني، وتزايد معدلات البطالة، . . .

جـ- أن المبدأ الذي أضحى يحكم العلاقات الدولية الآن أصبح يتمثل في توازن المصالح وليس في توازن القوى على نحو ما حدث طيلة الفترة السابقة على انتهاء عصر الحرب الباردة.

د- بروز نظام إعلامي دولي جديد(١٩). ومن المتصور أن يتحدد الدور الذي سيلعبه هذا النظام الإعلامي الدولي الجديد في العديد من المجالات مثلا: إحداث ثورة إدراكية ونفسية ستؤدي ولا شك إلى إعادة صياغة القيم والأفكار فضلا عن إعادة تأهيل البشر بما يتناسب والتحولات التقنية للعالم في تطوره الراهن، التأثير على أنظمة التربية والتعليم وعلى التفاعلات الاجتماعية وعلى نحو يحتمل معه أن يقود إلى تحطيم التوازنات التاريخية في الشمال والجنوب معاً، تدهور مكانة المثقف التقليدي في مقابل المثقف الجديد الذي يستمد معارفه وأفكاره من أجهزة الإعلام المرئي (التليفزيون) وشيوع ما اصطلح على تسميته بالكتاب المسموع والمرئي وحلوله على الكتاب التقليدي، وصياغة نمط جديد وبديل للرأسمال الرمزي والمعنوي أو ما أسماه البعض مثل ماكس توايه بالرأسمال الإدراكي - الإعلامي والذي ينطوي على قدر كبير من التقنية، الأمر الذي سيجعله قادرا على الهدم والتجديد بسرعة فائقة، وصياغة ذاكرة جماعية وإنسانية جديدة وعقل ووعي سياسي وإدراكات عابرة للقوميات والحدود السياسية، وانهيار التقسيم التقليدي للمجالين العام والخاص في النظام الاجتماعي مع تحول الجهاز الإعلامي ليصير هو الأداة الأساسية في تشكيل الاتجاهات السياسية وتوجيه السلوك التصويتي وهو ما سيؤدي في التحليل الأخير إلى إضعاف دور الأحزاب السياسية في نطاق هذه الهيمنة المرئية.

ثالثا: احتمالات المستقبل بالنسبة لشكل النظام الدولي

في ضوء الملامح العامة للنظام الدولي الراهن والتي سلفت الإشارة إليها، ثمة سؤالان مهمان مطروحان الآن في أوساط الباحثين والمحللين: أما السؤال الأول، فيتعلق بماهية التصورات المستقبلية المحتملة لشكل النظام الدولي في مرحلته القادمة. وأما السؤال الثاني، فيركز على أهم المجالات التي ينبغي إيلاؤها الأهمية الواجبة باعتبارها تمثل المداخل الصحيحة لتشكيل بنية العلاقات الدولية ومنظومتها خلال المستقبل المنظور.

وقد يكون مفيداً أن نعرض، فيما يلي، لكل واحد من هذين السؤالين على حدة:

١- فيما يتعلق بالتصورات المستقبلية لشكل النظام الدولي

يسود الفكر السياسي المعاصر عدة اتجاهات فيما يتعلق بهذا الموضوع، الاتجاه الأول، ويذهب أنصاره إلى التمسك بمقولة أساسية مفادها أن العالم بسبيله الآن إلى التمركز حول الولايات المتحدة، التي ستصير هي

القطب الأوحد في نطاق النظام الدولي «الجديد». وبحسب رأي هذا الفريق من الباحثين، فإن الولايات المتحدة ستمارس دورها العالمي دون أن يكون هناك أي عنصر دولي آخر موازن لهذا الدور. وعليه، فمن المتصور أن يحدث نوع من الازدواجية في المعايير وفي تفسير القواعد القانونية الدولية حسبما يتفق أو يتعارض مع المصالح الأمريكية الوطنية وموقعها في نطاق السياسات الكونية الجديدة(٢٠).

الاتجاه الثاني، ويميل أنصاره إلى القول بأن ثمة تكتلاً غربياً رأسمالياً ـ تمثل ركيزته الأساسية في الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي واليابان ـ هو الذي سيشكل وبحق القوة الضاربة تكنولوجيا واقتصادياً في نطاق النظام الدولي الجديد.

ويستند هذا الرأي إلى عدد من المقولات منها: أولاً أن ما حققته الولايات المتحدة من إنجازات في حرب الخليج الثانية ما كان ليتحقق لولا تلك المواقف المبدئية لعدد كبير من دول العالم ومنها الدول العربية. ومنها ـ ثانياً ـ أن العالم أصبح الآن من التعقد والتركيب والتفاعل بحيث لم يعد ممكنا معه القول بإمكان أن تقوم دولة واحدة بالتحكم فيه بمفردها. وثالثاً، هناك حقيقة أن الاقتصاد الأمريكي صار مجهداً إلى حد كبير نتيجة لأعباء الحرب الباردة ونفقات سباق التسلح مع الاتحاد السوفييتي طيلة فترة امتدت إلى ما يقرب من أربعة عقود(٢١).

أما الاتجاه الثالث، فينطلق أنصاره من مقولة أنه يجب التمييز بين مستويين من التحليل للنظام الدولي: المستوى الأول، وهو المستوى الاستراتيجي والعسكري. فهنا يرى هؤلاء أن روسيا الاتحادية والولايات المتحدة ستظلان متمتعتين بموقعهما المتميز على مستوى العالم بحكم تفوقهما العسكري بالمقارنة بباقي الدول الكبرى الأخرى، أما اليابان ودول الاتحاد الأوروبي فمن غير المتوقع ـ في نظر أصحاب هذا الرأي ـ أن تتحول أي واحدة منها إلى قوة عسكرية منافسة بالمقدار للقوة الأمريكية أو الروسية. وعلى ذلك، فإن القطبية الثنائية سوف تتجه إلى الاستمرار على هذا المستوى العسكري والاستراتيجي وإن تغيرت الأوضاع النسبية لكل قوة من هاتين القوتين المشار إليهما: أي القوة العسكرية الأمريكية والقوة العسكرية الروسية.

وأما المستوى الثاني للتحليل فيما يتعلق بمستقبل التطورات الحاصلة في النظام الدولي ـ لدى أنصار هذا الاتجاه الثالث ـ فهو المستوى الاقتصادي والمالي. وهنا يرى هؤلاء أن العالم هو بسبيله لأن يشهد نوعاً من تعددية الأقطاب Multi - Polar System الذي ستحتل فيه اليابان وألمانيا خاصة موقعاً متقدماً ومتميزاً. وتقديرنا، أن هذا الرأي إنما يبنى على افتراض أساسي مؤداه أن أياً من هاتين الدولتين لن تفكر في بناء قوتها العسكرية، وهو افتراض قد يكون من الصعب قبوله حيث من المحتمل جداً ـ وخاصة بعد انهيار دولة الاتحاد السوفييتي ـ أن تبادر كل منهما إلى ذلك، وهو أمر تؤكده حقيقة أن ثمة انفاقاً عسكرياً متزايداً لكل منهما وخاصة اليابان منذ النصف الثاني من عقد الثمانينيات، كما تؤكده مشاركة الدولتين بإرسال قوات عسكرية أو بدعم للعمليات العسكرية في بعض مناطق العالم كما حدث بالنسبة لإرسال ألمانيا بعضاً من وحداتها العسكرية إلى الصومال في إطار ما سمي بالتدخل الدولي من أجل «إعادة الأمل» في هذه الدولة المنهارة.

وأما الاتجاه الرابع والأخير في هذا الخصوص، فتقوم فكرته الأساسية على مقولة أنه ربما يكون من المبكر جداً أو من السابق تماماً لأوانه الحديث عن تصور معين لشكل النظام الدولي في تطوراته الراهنة، وذلك بالنظر إلى ضخامة حجم التغيرات التي باتت تحدث في العالم وسرعتها الفائقة وتلاحقها المستمر. ولذلك، فإنه من الأرجح - وفقاً لرأي هذا الفريق من الباحثين - أن يمر العالم في حالة سيولة أو ربما نوع من الفوضى Anarchy الدولية ولو لفترة معينة. ومؤدى ذلك - في عبارة أخرى - أن النصف الثاني من عقد التسعينيات قد لا يمثل بالضرورة فترة زمنية متجانسة بالنسبة لتطور النظام الدولي، خاصة وأن قوى التغير وآلياته ستظل على الأرجح وربما حتى نهاية هذا العقد في حالة تشكل وتبلور وقد لا تتبلور بشكل نهائي إلا مع أوائل القرن القادم.

٢- وأما فيما يتعلق بالمجالات التي ينبغي إيلاؤها أهمية خاصة من الآن وخلال السنوات القليلة القادمة، فالمرجح - وكما أشار التحليل فيما سبق - أنها ستتركز في محور أساسي ألا وهو محور المعلومات والاتصالات بوسائلها المختلفة وخاصة المرئية منها والمسموعة.

وإذا كنا قد تحدثنا سلفا عن دور المعرفة وما يرتبط بها ويبنى عليها من ثورة علمية وتكنولوجية تؤثر في تشكيل بنية النظام الدولي ومنظومة العلاقات الدولية، فإننا نعيد التأكيد هنا على حقيقة أن المنافسة الاقتصادية - والتي ستكون هي أساس كل المعارك والصراعات في المستقبل بين الدول الكبرى والفاعلة في إطار النظام الدولي - ستستند ولاشك إلى قدرة المعرفة البشرية على الإنتاج والخلق والإبداع، وكذا القدرة على الدخول إلى مجالات العلم المتطورة.

ولذلك، فقد صار من الضروري اليوم التأكيد على أهمية التعليم. كما أنه لم يعد بالأمر الغريب أو غير المألوف أن تتردد في الأدبيات المتعلقة بالتعليم مقولات تحذر من مغبة فشل المؤسسات التعليمية في بعض الدول وعجزها عن مواكبة التطورات العالمية ذات الصلة، فضلا عن التركيز على إبراز خطورة عدم الاتساق بين مضمون العملية التعليمية واحتياجات المجتمع، الأمر الذي يعني ضرورة المبادرة إلى إعادة النظر في شكل النظام التعليمي ووسائله ومؤسساته بحيث يصير قادرا في النهاية على الاستجابة للظروف والمعطيات الدولية والمحلية المستجدة. وكل ذلك يحتاج ولا ريب إلى معرفة العلماء وجهود الباحثين، وخاصة فيما يتصل بقضايا المستقبل وعملية إعادة ترتيب الأولويات والاهتمامات.

الهوامش

(١) راجع على سبيل المثال فيما يتعلق بمفهوم النظام الدولي الجديد:
مارسيل ميرل، أزمة الخليج والنظام العالمي الجديد (ترجمة د. حسن نافعة)، القاهرة: دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ص ٤٧ وما بعدها، د. حسنين توفيق إبراهيم، النظام الدولي الجديد: قضايا وتساؤلات، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ودار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ص١ -٨، ص ص ٥٤-٥٦.
(٢) مارسيل ميرل، المرجع السابق، وأيضاً:
Lewis John, Toward The Post Cold War, Foreign Affairs, NO. 2, 1991.
(٣) انظر مثلاً: د. علي الدين هلال وجميل مطر، النظام الإقليمي العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨.
(٤) راجع على سبيل المثال: محمد سيد أحمد، التحول إلى القطب الواحد، الأهرام، ١٦/١/١٩٩٢
(٥) راجع فيما يتعلق بنظرة الرئيس السوفيتي السابق جورباتشوف حول النظام الدولي الجديد:
ميخائيل جورباتشوف، البيروسترويكا، (ترجمة حمدي عبد الجواد)، القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٨، د. نازلي معوض أحمد، النظرة السوفيتية الجديدة للصراع والتوازن في العالم المعاصر، مجلة السياسة الدولية، عدد٩٤، أكتوبر ١٩٨٨
(٦) انظر بصفة عامة في الملامح الأساسية للنظام الدولي خلال الفترة من نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى منتصف الثمانينيات تقريباً:
د. اسماعيل صبري مقلد، العلاقات السياسية الدولية، الكويت: مطبعة جامعة الكويت، ١٩٨٤، ص ص٤٧-٥٢
(٧) راجع لمزيد من التفصيل فيما يتعلق بأبرز هذه الملامح:
د. أنور عبد الملك، تغير العالم، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، عدد٩٤، أكتوبر١٩٨٥، د. محمد السيد سعيد، آفاق النظام الدولي في التسعينيات، القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، سلسلة بحوث سياسية، أغسطس ١٩٨٩
(٨) انظر مثلاً: السيد ياسين، جريدة الاتحاد ٥/١٠/١٩٩٢، د. حسنين توفيق إبراهيم، مرجع سابق، ص ص ١٩٥-١٩٦
(٩) د. إبراهيم حلمي عبد الرحمن، التطورات الدولية الجارية: فرص ومخاطر، القاهرة: كتاب الأهرام الاقتصادي، مارس١٩٩٢، يوجين ب. سكولنيكوف، التكنولوجيا وعالم الغد، (ترجمة مركز التخطيط)، منظمة التحرير الفلسطينية ـ شئون استراتيجية، عدد ٩، ١٩٨٩
(١٠) انظر بصفة عامة في موضوع الحماية الدولية لحقوق الإنسان:
Carey, J., International Protection of Human Rights, New York: Dobbs Ferry, 1968 Joyce, J. The New Politics of Human Rights, London: The Macmillan Press, 1978.

(١١) Joyce, J., op. cit.
(١٢) د. نيفين أمين الفوال، انهيار الدولة في الصومال، مجلة السياسة الدولية، عدد يناير ١٩٩٣
(١٣) انظر مثلاً في بروز ظاهرة الشركات متعددة الجنسية:
د. صلاح الدين عامر، قانون التنظيم الدولي: النظرية العامة، القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٨٤، ص ص ٤٠-٤٨، ٥٩-٧٢، ١٠٠-١٦٣
(١٤) راجع مثلاً في نفس الموضوع:
Lewis, L, Toward The Post Cold War, op. cit.
(١٥) محمد سيد أحمد، التحول إلى القطب الواحد، الأهرام١٦/١/١٩٩٢.
(١٦) عبد العزيز الشربيني، الأهرام ١٦/٤/١٩٩٠
(١٧) راجع لمزيد من التفاصيل بالنسبة لأسس نشأة بعض التكتلات الاقتصادية الدولية: د. اسماعيل صبري عبد الله، نحو نظام اقتصادي دولي جديد، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧.
(١٨) راجع في هذا المعنى: د. حسن نافعة، النظام العالمي الجديد ومستقبل الديمقراطية في الوطن العربي، ورقة بحثية مقدمة إلى ندوة: التطور الديمقراطي في الوطن العربي، القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية (٢٩/٩-١/١٠/١٩٩٠)، د. حسنين توفيق إبراهيم، مرجع سابق، ص ص١٩٤ ـ ١٩٥.
(١٩) راجع حول معالم هذا النظام الإعلامي الدولي الجديد:
د. خليل صابات، النظام الجديد للإعلام الدولي، مجلة عالم الفكر، عدد يناير-مارس ١٩٨٤، د. محمد المصمودي، النظام الإعلامي الجديد، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، عدد٩٤، أكتوبر ١٩٨٥.
(٢٠) محمد سيد أحمد، التحول إلى القطب الواحد الأهرام ١٦/١/١٩٩٢
(٢١) حول بعض المشكلات الداخلية في الولايات المتحدة والتي قد تعوق إمكانية قيامها بالانفراد بزعامة العالم، راجع مثلاً:
Kennedy, P., The Rise and Fall of Great Powers, London, Unwin, 1988.
وأيضاً: جميل مطر، قيادة العالم والنظام الدولي الجديد، الأهرام، ٢/٥/١٩٩٢.

مفهوم النظام العالمي الجديد في الأدبيات الأمريكية

(دراسة مسحية)

د. ودودة بدران

اهتم عدد كبير من الباحثين في مجال العلاقات الدولية بتحليل المرحلة التالية للحرب الباردة، وبينما استخدم البعض اصطلاح نهاية التاريخ [١] لوصف هذه المرحلة الجديدة التي شهدت وفقاً لهم انتهاء آخر المعارك الكبرى في التاريخ الإنساني في ظل مرحلة سيادة الأيديولوجية الليبرالية والنظام الرأسمالي. اتجه الغالبية العظمى من الباحثين لاستخدام اصطلاح النظام العالمي الجديد New World Order لوصف التطورات التي شهدها وقد يشهدها العالم في أعقاب الحرب الباردة. وأوضحوا في هذا الصدد أن التحول الذي يشهده العالم بعد انتهاء هذه الحرب يمثل استمرارية في الأنماط التاريخية حيث تلى نهاية الحروب الكبرى في العالم ظهور تحولات رئيسية في هيكل توزيع القوة والقواعد التي تحكم التفاعلات الدولية. فلقد شهد العالم مثل هذا التحول خلال القرن العشرين في ١٩١٩ و١٩٤٥ ونهاية الحرب الباردة لاتمثل استثناء لهذا النمط [٢]، وإن اختلفت القوة الدافعة لهذا التحول ومظاهره. فإذا كان التحول الأول الذي شهده هذا القرن في أعقاب الحرب العالمية الأولى قد جاء نتيجة للتطلعات القومية داخل أوروبا التي كانت غير قادرة في هذه الفترة على السيطرة على العالم وإن استمرت تتمتع بالقدرة على إثارة عدم الاستقرار فيه، فإن التحول الثاني في أعقاب الحرب العالمية الثانية تضمن صراعاً أيديولوجياً عالمياً بين قوتين عظميين. أما روح وهيكل التحول الثالث الذي شهده هذا القرن فيتم تشكيله في إطار التأثير السياسي لانتصار التحالف الغربي في الحرب الباردة [٣].

وإذا كان هؤلاء الباحثون يتفقون على المفهوم العام للنظام العالمي الجديد بمعنى تغير هرم السلطة والقوة والقواعد التي تحتم العلاقات بين الدول في نظام توجد فيه العديد من الوحدات الدولية إلى جانب الدول. إلا أنهم يختلفون في توصيف المقصود بالجديد في هذا النظام، فبينما يستخدم البعض هذا الاصلاح ليعكس مفهوماً قيمياً متفائلاً حول ظهور عالم يسوده السلام والأمن، يتجه البعض الآخر لإبراز الفروق الجوهرية مع النظام السابق بصرف النظر عن وصفه بأنه وضع أفضل أو أسوأ، ويتجه فريق ثالث إلى الإشارة إلى أنه بينما يتضمن النظام العالمي الجديد تحولات في هذا النظام، إلا أنه يحمل معه أيضاً بعض ملامح وخصائص ما سبق [٤]. كذلك يختلف الباحثون في تركيزهم على الأبعاد المختلفة للنظام العالمي الجديد وفي رؤيتهم لهذه الأبعاد. فبينما اهتم البعض بهيكل النظام اتجه فريق ثانٍ للاهتمام بمصادر التهديد في هذا النظام، واهتم فريق ثالث بتوجهات التفاعلات داخل هذا النظام. واتجه فريق رابع للتركيز على إمكانيات التحرك الجماعي على المستوى العالمي، وأخيراً اتجه فريق خامس للتركيز على وضع الدول النامية في هذا النظام*. إن محور اهتمام هذه الورقة هو مراجعة هذه الرؤى للأبعاد المختلفة للنظام العالمي الجديد، كما جاءت في بعض الدوريات الأمريكية التي نشرت منذ ١٩٨٩ وحتى ١٩٩٣ [٥] أو بعبارة أخرى فإن هذه الدراسة هدفها تقديم مسح لبعض وجهات النظر التي نشرت في الولايات المتحدة حول بعض أبعاد النظام العالمي الجديد. ومن ثم تنقسم الدراسة إلى خمسة أقسام يتناول كل منها وجهات النظر المختلفة حول الأبعاد السابق الإشارة إليها.

١ـ النظام العالمي الجديد: هيكل النظام

يقصد بهيكل النظام توزيع القدرات في هذا النظام وبالتالي ترتيب الوحدات المكونة له بالنسبة لبعضها البعض، ويهتم الباحثون بتحليل هذا البعد بالنظر لانعكاسات مثل هذا التوزيع على سلوك الوحدات الدولية [٦]، وقدرة أحدها أو البعض منها على السيطرة على توجهات الفاعلين الآخرين ومراجعة نظرة الباحثين للبعد الهيكلي في النظام العالمي الجديد يمكن أن نفرق بين توجهين الأول يعطي لهيكل النظام دوراً رئيسياً في توجيه التفاعلات ومن ثم يركز أنصار هذا الاتجاه على مفهوم القوة في النظام العالمي، وما إذا كان هذا النظام يمكن أن يوصف بأنه نظام قطب واحد أم تعدد قوى. أما التوجه الثاني فيعمل على التقليل من مدلول هيكل النظام في توجيه السياسة الخارجية للوحدات الدولية، ويشير أنصار هذا الاتجاه إلى أن أنصار المدرسة الهيكلية يغفلون عاملين رئيسيين وهما دور القيادة والعوامل الداخلية في توجيه السياسة الخارجية للدول ونتناول في هذا الجزء من الورقة عرضاً لوجهتي النظر السابق الإشارة إليها.

يهتم أنصار إعطاء دور لهيكل النظام في توجيه التفاعلات الدولية بدور القوة في هذا النظام. والواقع أن مفهوم القوة في أدبيات العلاقات الدولية ارتبط بمفهومين، حيث استخدم البعض مفهوم القوة بمعنى عناصر القوة (عسكرية، اقتصادية)، بينما استخدمه البعض الآخر بمعنى القدرة على تغيير سلوك الآخرين. مثل هذا الاستخدام المزدوج دفع بعض الباحثين مثل Rosenau إلى التأكيد على ضرورة التفرقة بين هذين البعدين، وبالتالي اقترح استخدام اصطلاح القدرة Capability ليشير إلى عناصر القوة، واصطلاح التأثير influence ليشير إلى

* بعض الباحثين الذي تطرق هذه الورقة لعرض أعمالهم ركزوا على هذه الأبعاد بينما اتجه البعض الآخر للتركيز على أكثر من بعد واحد من الأبعاد المشار إليها.

القدرة على تغيير سلوك الآخرين [٧]. وفي إطار تناول الباحثين للبعد الهيكلي في النظام العالمي الجديد اهتموا بهذين البعدين للقوة، حيث اهتموا بتحديد ماهية عناصر القوة التي تمتلكها القوى الرئيسية في النظام ودلالة هذا بالنسبة لقدرتها على التأثير على سلوك الوحدات في هذا النظام. وفي هذا الصدد يمكن أن نفرق بين توجهين لرؤية الباحثين للنظام العالمي الجديد. فالباحثون الذين أعطوا للقوة العسكرية دوراً هاماً في توجيه التفاعلات الدولية اعتقدوا أن الولايات المتحدة الأمريكية يمكن أن تمارس دور القطب الواحد المسيطر على الأحداث الدولية. أما الباحثين اللذين اهتموا أيضاً بالعناصر الأخرى للقوة سواء أكانت اقتصادية أم غير اقتصادية فتحدثوا عن نظام تعدد القوى الذي تنتفي فيه إمكانية سيطرة أي منهم منفرداً على مجمل التفاعلات الدولية.

ويرى أنصار الاتجاه الأول أنه بانهيار الاتحاد السوفيتي أصبحت الولايات المتحدة هي القوة العظمى الوحيدة القادرة على تنظيم الأوضاع العالمية دون أن تخشى أي معارضة فعالة. وفي هذا الصدد يوضح Krau thammer [٨] أن عالم ما بعد الحرب الباردة ليس عالماً متعدد الأقطاب بل عالم القطب الواحد. فإن مركز القوة العالمية هي القوى العظمى التي لا تواجه أي تحدٍ وهي الولايات المتحدة التي يؤيدها حلفاؤها الغربيون. ويعتقد Krau thammer أن دور القوى الغربية بما في ذلك القوى الاقتصادية مثل اليابان وألمانيا لا يتعدى قيامها بتنفيذ التوجهات الأمريكية ـ هذه السيادة الأمريكية مرجعها وفقاً لوجهة النظر هذه هي أنها الدولة الوحيدة التي تتمتع بالقدرة التي تمكنها من القيام بدور حاسم في أي صراع تختار أن تشارك فيه في أي مكان في العالم، ووفقاً لهذا الاتجاه فإن الولايات المتحدة تستطيع إذا أرادت استخدام عناصر قوتها المختلفة لإرساء قواعد النظام العالمي وتنفيذها. وفي ظل هذا التوجه الذي يعكس وجهة نظر بعض المسئولين الأمريكيين في أول التسعينيات فإن الولايات المتحدة كان عليها مسئولية المحافظة على الاستقرار الدولي وقيادة تحرك عالمي نحو تحقيق الديمقراطية [٩].

إلا أن مثل هذا المنظور تعرض للنقد من جانب الباحثين اللذين تشككوا في إمكانية وجود ذلك القطب الواحد القادر على تنظيم العالم، واستندوا في هذا الصدد على عدد من العوامل التي تؤيد وجهة نظرهم بأن نمط توزيع عناصر القوة والقدرة على التأثير تشير إلى أن هيكل النظام العالمي الجديد هو هيكل يتسم بتعدد القوى، وإن اختلف هذا الهيكل عن هيكل تعدد القوى في ظل نظام توازن القوى الذي عرفه العالم في القرن ١٩. فما هي الأبعاد التي أسس عليها بعض الباحثين رفضهم لوصف هيكل النظام العالمي بأنه نظام القطب الواحد، وماهي مظاهر اختلاف نظام تعدد القوى الذي وصفوا به هيكل النظام عن ذلك الذي ساد في القرن ١٩؟

ركز الباحثون على عدد من العوامل في رفضهم وصف هيكل النظام العالمي بأنه هيكل القطب الواحد وفي هذا الصدد عمدوا إلى إبراز حدود تمتع الولايات المتحدة بالقوة بمعنى القدرة (مصادر القوة) والقوة بمعنى القدرة على التأثير. وفي إطار تناول حدود القوة الأمريكية بمعنى عناصر القوة عمدوا إلى بيان حدود القوة العسكرية في توجيه التفاعلات الدولية وتعدد مصادر القوة التي يجب أن تمتلكها الدولة لتتمتع بدور القطب المسيطر على التفاعلات الدولية. فيرى Roberts [١٠] أن التغيرات التي يشهدها العالم في ظل زيادة ظاهرة الاعتماد المتبادل تشير إلى أن احتمال استخدام القدرات العسكرية لتوجيه التفاعلات الدولية أصبح احتمالاً محدوداً وفي نطاق عدد محدود من القضايا. فهناك أنواع أخرى من القدرات التي يجب أن تتمتع بها الدول إذا

كان لها أن تسيطر على مجرى الأحداث الدولية [١١]. وفي هذا الصدد أشار waltz في تحليله للقوة الأمريكية في فترات سابقة أن تحقيق الولايات المتحدة لزيادة قدرها ٥٪ في معدل النمو الاقتصادي لمدة ٣ سنوات يضيف إلى الولايات المتحدة قوة تفوق تلك التي يمكن أن تتمتع بها في حالة تحالفها مع بريطانيا [١٢].

كذلك أشار Nye أن القدرات المادية ليست القدرات الوحيدة التي يمكن أن تتمتع بها الدول وأشار في هذا الصدد إلى ما أطلق عليه Coptive power الذي يعتمد على جاذبية أفكار الدولة والذي يمكنها من التأثير على الأولويات السياسية للوحدات الأخرى فإن ممارسة مثل هذا النوع من التأثير يعتمد على مصادر غير مادية للقوة مثل الثقافة والأيديولوجية والمؤسسات التي تسود في وحدة معينة [١٣].

ويشير أنصار تعدد مراكز القوى في هيكل النظام العالمي الجديد إلى أن مراجعة توزيع عناصر القوة بين الوحدات الرئيسية في هذا النظام (الولايات المتحدة، اليابان، أوربا) يوضح أنه لا يوجد دولة واحدة تتمتع بتفوق في جميع عناصر القوة، حتى أن Pfaff في توصيفه للنظام العالمي الجديد أوضح غياب فئة القوى العظمى من هذا النظام [١٤]. كما أشار Buzan إلى أن اصطلاح القوى العظمى أصبح اصطلاحاً غير ملائم في ظل نظام تعدد مراكز القوى [١٥]. ويوضح أنصار هذا الاتجاه أن الولايات المتحدة وإن كانت تتمتع بتفوق كبير في بعض عناصر القوة العسكرية (التفوق التكنولوجي والقدرة على نشر القوات) والأيديولوجي (جاذبية الأفكار الاقتصادية والسياسية) والدبلوماسية (علاقات صداقة مع العديد من الوحدات الدولية) والثقافية (انتشار Jeans Rock, coca cola)، إلا أنها في المجال الاقتصادي تعاني من مشاكل، فلأول مرة تواجه الولايات المتحدة تهديداً اقتصادياً في إطار تدهور أدائها في هذا المجال، وهو ما يتضح بمقارنة أدائها بالأداء الأوربي والياباني حول عدد من المؤشرات مثل نمو الناتج الإجمالي ونمو الإنتاج والتجديد التكنولوجي ومعدلات الادخار ومستويات الاستثمار وتوجيه التعليم والموارد التي تخصص للبحث والتنمية Rand D [١٦]. فضلاً عن هذا، فإن اليابان والجماعات الأوربية تساهمان في تمويل العجز الأمريكي وكذلك فإن مراجعة الهيكل التجاري للولايات المتحدة في علاقتها باليابان توضح أن الواردات اليابانية من الولايات المتحدة تتضمن أساساً المواد الغذائية والمواد الأولية بينما تستورد الولايات المتحدة من اليابان السلع التي تتسم بالتكنولوجيا المتقدمة الأمر الذي يزيد من المزايا التي تتمتع بها اليابان في مواجهة الولايات المتحدة [١٧].

ومن ناحية أخرى فإن مراكز القوى الأخرى في النظام العالمي الجديد لا تتمتع منفردة أيضاً بعناصر القوة اللازمة لقيادة العالم. فعلى الرغم من أن الجماعة الأوربية تمثل تجمعاً تجارياً وصناعياً هاماً إلا أنها لم تصبح بعد فاعلاً سياسيا بل يتشكك البعض في إمكانية تحقيقها لذلك، وفي هذا الصدد أوضحت أزمة الخليج عدم تمتعها بسياسة خارجية موحدة. أما اليابان فبالرغم من قوتها الاقتصادية إلا أنها غير مؤهلة للقيام بدور قيادي في النظام العالمي بالنظر إلى ضعفها العسكري وعدم سيادة ثقافتها وحضارتها في النظام العالمي [١٨].

كذلك فإن أنصار وصف هيكل النظام العالمي بأنه نظام تعدد القوى يشككون في احتمال قيام الولايات المتحدة بدور القطب الواحد بالنظر إلى عدم تمتعها بالقوى بمعنى القدرة على التأثير على جميع التفاعلات الدولية. ويشير Nye في هذا الصدد إلى أن الحديث عن وجود قطب واحد مسيطر في النظام العالمي يتطلب التعرض لمدى السيطرة التي يمارسها هذا القطب، ففي العالم المعاصر من النادر أن نجد موقفاً استطاعت في ظله دولة واحدة إملاء الترتيبات السياسية والاقتصادية على مستوى العالم. في أوربا الشرقية والنفوذ الأمريكي

في منطقة الكاريبي. كذلك يوضح الباحث في هذا الصدد أن مراجعة التاريخ المعاصر توضح وجود حالات استطاعت فيها دولة واحدة أن تسيطر على القواعد والترتيبات التي تحكم قضايا محددة دون الأخرى، ومن ذلك الدور الأمريكي في مجالات التجارة والنقد في أوائل الفترة التالية للحرب العالمية الثانية [19].

وفي إطار مثل هذا النمط من التحليل يوضح أنصار تعدد القوى أنه من الصعوبة بمكان تصور إمكانية قيام الولايات المتحدة بدور حاسم في مجال تحقيق الاستقرار العالمي والديمقراطية في العالم. فإذا كانت الولايات المتحدة قد اتبعت سياسة تدخلية فعالة في حالة أزمة الخليج فإن هذه الأزمة اتسمت ببعض الخصائص الفريدة التي قد تجعل احتمال تكرارها احتمالاً محدوداً. فهناك عدد من العوامل ساهمت في دعم فعالية التدخل الأمريكي سواء على المستوى الداخلي أو الدولي. فقد تعلقت القضية بمصالح الغرب في البترول، كما وأن شخصية صدام حسين كان من السهولة بمكان تصويرها على أنه مناهض للمصالح الغربية في إطار تهديداته باستخدام الأسلحة الكيماوية كذلك فإنه من الصعوبة بمكان تصور أن يقف أحد الأطراف الذي يتعرض لاحتمال هجوم موقف المتفرج كما فعل صدام حسين في الوقت الذي اتجهت فيه الولايات المتحدة لدعم قوتها العسكرية في مواجهته. وكذلك فإن الإشارة إلى سابقة تدخل الولايات المتحدة في جرانادا وبنما كأحد السوابق التي تشير إلى نجاح الولايات المتحدة في فرض رؤيتها في النظام العالمي الجديد بمساندة وجود الأنظمة الديمقراطية في العالم مقولة مردود عليها بأن ظروف التدخل الأمريكي في هاتين الدولتين قد يصعب تكراره، فكلا الدولتين كانت دولاً صغيرة وذات موقع جغرافي تستطيع بصدده الولايات المتحدة أن تدعم قوتها العسكرية بأقل جهد وأكبر فعالية ممكنة [20]، ومن ناحية أخرى فإنه حتى ولو تدخلت الولايات المتحدة للإطاحة بنظم حكم شمولية أو سلطوية فإن هذا قد لا يترتب عليه بالضرورة وجود نظم ديمقراطية في هذه الدول فالإطاحة بالنظم الشمولية والسلطوية في الثورة الشيوعية في روسيا والشاه في إيران والنظم الحاكمة في العديد من دول أمريكا اللاتينية لم يترتب عليه ظهور نظم ديمقراطية [21].

وفي إطار الحديث عن هيكل النظام العالمي الجديد على أنه نظام تعدد القوى يوضح بعض الباحثين أن مثل هذا النظام يختلف عن نظام تعدد القوى الذي ساد في القرن ١٩. فإن مراكز القوى في النظام العالمي الجديد تمثل ما أطلق عليه Deutsch [22] المجتمع الأمني المتعدد Pluralistic Security Community أي أن هذه المراكز المتعددة ذات التوجه الرأسمالي تمثل مجموعة يتلاشى فيها توقع أو استعداد أي منهم لاستخدام القوة العسكرية في علاقاتهم ببعضهم البعض. إن المخاطر التي كانت تواجه نظام تعدد القوى في الماضي كانت احتمال تغير توازن القوى بسبب النزعات العدائية أو المشاكل الأمنية التي قد يترتب عليها ظهور أنماط غير مستقرة من التحالفات واندلاع الحروب بين القوى الكبرى، إلا أنه في ظل نظام تعدد القوى الذي يشهده النظام العالمي الجديد والذي تكون فيه القوى الثلاث الرئيسية في هذا النظام (الولايات المتحدة وأوروبا واليابان) مجتمعاً أمنياً، فإن هذا يمثل وضعاً مختلفاً تماماً عن نظام تعدد القوى السابق. وفي هذا الصدد يشير Buzan إلى أنه على الرغم من أنه يمكن وصف هيكل النظام العالمي بأنه نظام تعدد قوى بمعنى وجود عدد من القوى الكبرى التي تتحرك في هذا النظام، إلا أنه يمكن أيضاً استخدام اصطلاح القطب الواحد لوصف النظام الدولي بمعنى وجود تحالف مسيطر من الدول يؤثر على توجهات التفاعل الدولي [23].

بينما اتجهت المجموعة السابقة من الباحثين (سواء المؤيدين لمقولة القطب الواحد أو لتعدد القوى) إلى إبراز أهمية هيكل النظام العالمي في توجيه التفاعلات الدولية، اتجه Hoffmann إلى نقد الاعتماد على المنظور الهيكلي في تحليل النظام العالمي الجديد، حيث أشار إلى أن المنظور الهيكلي يغفل عاملين من العوامل التي تلعب الدور الرئيسي في توجيه الأحداث الدولية: القيادة والعوامل الداخلية وبالرغم من أن دراسته ركزت على دور هذين العاملين في إحداث التغيرات التي شهدتها أوروبا في أواخر الثمانينيات إلا أنه أشار في مثل هذا التحليل إلى حدود مساهمة المنظور الهيكلي في فهم التفاعلات الدولية في النظام العالمي الجديد وأوضح في هذا الصدد أن النظرية الهيكلية تلائم ذلك العالم الذي توجد فيه الدول بصفتها فاعلة مستقلة تسعى للحصول على القوة أو توازن القوة في ظل لعبة تتضمن احتمال اللجوء للحرب، وفي هذا الوضع يحد من أهمية التغير في سلوك الدول بسبب النظام الداخلي أو السياسة الداخلية، أما إذا انتفى احتمال اندلاع الحرب أو قل فإن طبيعة قواعد اللعبة ستتغير، ولا يعني هذا أن الفاعلين سيتوقفون عن البحث عن القوة والنفوذ، وإنما يعني ذلك أن طريقة الحصول على المكاسب، وطبيعة المكاسب التي تسعى إليها الوحدات والطرق التي يمكن من خلالها إحداث التغير الدولي ستتغير جميعاً. ففي ظل السياسة الدولية التقليدية كانت الحرب أوضح وأسرع أدوات التغير. أما إذا لم يكن هناك احتمال للحرب فإن التغير في الشئون الدولية غالباً ما سيأتي نتيجة للثورات أو تغير أهداف وقوة الدولة نتيجة لعوامل داخلية (٢٤).

٢ـ النظام العالمي الجديد: مصادر التهديد

إن مراجعة عدد من الكتابات التي تناولت النظام العالمي الجديد توضح اهتمام بعض الباحثين بالتركيز على مصادر التهديد التي تواجه هذا النظام في مجال السلم والأمن والرفاهية الاقتصادية، ويركز أغلب الباحثين في هذا الصدد على الجنوب كمصدر لكل هذه التهديدات وإن عمد البعض أيضاً على إبراز الشمال كمصدر لهذه التهديدات وعلى بعض القضايا التي تتسم بطابع عالمي وتمثل تهديداً للنظام العالمي ككل. وفي إطار التركيز على الجنوب كمصدر للتهديدات يتطرق الباحثون إلى ظاهرة استمرار الصراعات في دول العالم الثالث وغياب دور القوى العظمى الذي ساد خلال الحرب الباردة، واستمرار تسليح هذه الدول، وفشل الديمقراطية، والفقر، والهجرة، والمخدرات، والإسلام، فيوضح Carpenter (٢٥) أن العديد من الصراعات التي تتعرض لها دول الجنوب لن تختفي بانتهاء الحرب الباردة، فعدد من هذه الصراعات يرتبط بالحدود التي فرضتها الدول الاستعمارية على هذه الدول بصرف النظر عن الاعتبارات الإثنية أو السلطوية أو الاقتصادية، وهي الحدود التي قد تسعى بعض دول الجنوب إلى تغييرها. وفي هذا الصدد يشير الباحث إلى أن المطالب العراقية الموجهة للكويت ترجع إلى سنوات سابقة لتولي صدام حسين السلطة في العراق، فهي ترجع في الواقع إلى أوائل العشرينات من هذا القرن حينما قامت بريطانيا بفرض حدود تحافظ على المحمية البريطانية في الكويت. وبالتالي فإن فشل العراق في فرض مطالبه في حرب الخليج لا يعني أن مثل هذه المطالب ستختفي، بل يرى الباحث أن الاحتمال الأكبر من أن يضاف مثل هذا الصراع إلى قائمة الصراعات التي تشهدها المنطقة.

إن الصراعات التي يشهدها الجنوب قد تتسم بدرجة أكبر من التصاعد في ظل ما أشار إليه Roberts وTucker (٢٦) بانتفاء قيام القوى العظمى بدور في تهدئة الصراعات الإقليمية. فبالرغم من أن تدخل القوتين الأعظم خلال الحرب الباردة ترتب عليه في بعض الأحيان تصاعد هذه الصراعات، إلا أنه ترتب على سلوكها

أيضاً ضبط سلوك الدول التابعة لكلا القوتين، إذا ما بدى أن الصراع الإقليمي سيؤدي إلى مواجهة بينهما، (مثال ذلك دور القوتين في ضبط سلوك أطراف الصراع في الشرق الأوسط). إن قدرة الاتحاد السوفيتي السابق على القيام بهذا الدور انتفت بنهاية الحرب الباردة. بل يرى هؤلاء الباحثون أن استعداد الولايات المتحدة للقيام بمثل هذا الدور اتجه للانخفاض، أو بعبارة أخرى فإن القوى الإقليمية قد تتمتع الآن بحرية أكبر في التحرك على النحو الذي قد يؤدي إلى تصاعد حدة الصراع بينها.

كذلك فإن احتمال تصاعد حدة الصراع بين دول الجنوب يرتبط باستمرار تسليح هذه الدول، فإنه في ظل تحقيق بعض هذه الدول لتقدم في التصنيع كما حدث في دول مثل العراق والهند أصبحت هذه الدول تتمتع بالقدرة على إنتاج أسلحة الدمار الشامل [٢٧] فضلاً عن ذلك فإن زيادة القدرات الاقتصادية لبعض دول الجنوب يسمح لها بشراء الأسلحة من الدول الكبرى [٢٨]، إن استمرار اهتمام دول الجنوب بالتسليح لا يرتبط بحاجة هذه الدول لمواجهة التحديات الخارجية وإنما قد يكون الدافع الأساسي للحصول على مثل هذه الأسلحة هو مواجهة بعض المشاكل الداخلية [٢٩].

إن فشل الديمقراطية في الجنوب يمكن أن يكون أيضاً مصدراً للتهديدات التي قد تواجه النظام العالمي الجديد. فإنه في إطار المواجهة بين الدولة والشعب قد لا يكون الانتصار الشعبي ضماناً لسلوك معتدل خارجياً، فإن الانتصارات الشعبية يمكن أن تطيح بحقوق الأقليات كما قد يترتب عليها تفجير النزعات القومية. كذلك فإن الثورات الديمقراطية يمكن أن تختفي إذا ركزت النظم الحاكمة على الصراعات الحزبية أو إذا واجهت ضغوطاً خارجية وعدم رضاء داخلي، وبالتالي يثار احتمال إحلالها بقيادات عسكرية أو شمولية الأمر الذي قد تكون له تداعيات سلبية على السلام الإقليمي وحقوق الإنسان [٣٠].

وبالإضافة إلى القضايا العسكرية والسياسية التي قد تمثل تهديداً للنظام العالمي الجديد من جانب الجنوب، يشير الباحثون أيضاً إلى عدد آخر من التهديدات التي قد يفرضها الجنوب على هذا النظام فيشير Galbraith [٣١] إلى الفقر بصفته المصدر الرئيسي للفوضى العالمية. ويهتم Pfaff [٣٢] بظاهرة زيادة الهجرة من الجنوب إلى الشمال وما يرتبط بها من توترات سياسية واجتماعية في الشمال، وبالرغم من إشادة الباحث إلى تعرض أوروبا الغربية للهجرة من جانب دول أوروبا الشرقية إلا أنه يوضح أن مثل هذه الهجرة غالباً ستتجه إلى الانخفاض بتحسن الأوضاع الاقتصادية في الدول الشيوعية السابقة، أو بعبارة أخرى فإن الجنوب سيظل مصدر التهديد الرئيسي في المستقبل فيما يتعلق بقضية الهجرة. ويشير Hoffmann [٣٣] إلى مشاكل المخدرات والبيئة والتي قد تؤدي إلى مواجهات بين الدول المتقدمة التي تسعى لحماية الصحة وبعض دول الجنوب (بعض دول أمريكا اللاتينية) التي قد تحتاج لزراعة المخدرات، أو التي قد تحتاج إلى التغاضي عن حماية البيئة حتى يمكنها أن تحقق التنمية. وأخيرا يشير Gaddis [٣٤] إلى ظاهرة الصحوة الإسلامية والتي بالرغم من أنها قد تمثل قوة تدفع نحو اندماج بعض دول الجنوب (الشرق الأوسط)، إلا أنه يعتبرها أيضاً بمثابة قوى للتفكك في النظام العالمي الجديد حيث إنها تعمل على فصل منطقة معينة عن باقي العالم.

وفي إطار تعرضهم لمصادر التهديدات التي قد تنشأ من الشمال أشار الباحثون إلى الحاجة لوجود مفاهيم أمنية جديدة، والنزعات القومية، ومصير أسلحة الاتحاد السوفيتي السابق بالإضافة إلى بعض التحديات ذات الطبيعة الاقتصادية، فإن انهيار الاتحاد السوفيتي صاحبه موقف جديد في القارة الأوربية وهو موقف Zielonka [٣٥] لا يمكن التعامل معه في إطار المفاهيم الأمنية القديمة. وبالتالي يشهد

النظام العالمي الجديد ضرورة الاتفاق على مفاهيم أمنية جديدة تتلاءم مع طبيعة هذا الموقف، فبنهاية الحرب الباردة فقدت السياسة الخارجية الغربية إلى جانب عدوها الرئيسي أحد العوامل التي كانت توجه سياستها الخارجية منذ ١٩٤٥ [٣٦].

كذلك تمثل النزعات القومية أحد مصادر التهديد للنظام العالمي الجديد وتأتي مثل هذه التحديات من جانب الدول الاشتراكية السابقة كما تأتي أيضاً من جانب الدول الغربية. فبالرغم من تحرك المجموعة الأولى من الدول نحو الديمقراطية إلا أن مدى الشمولية لم يتم القضاء عليها تماماً ويعتبر Millar [٣٧] هذه النظم نظم هشة تواجه العديد من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية مما يجعل من الصعوبة بمكان مواجهة انفجار النزاعات القومية بطريقة فعالة. ويضاف إلى المشكلة بصفة خاصة في حالة الاتحاد السوفيتي السابق أن انهيار هذه الدول ترك الترسانة النووية السوفيتية السابقة في يد مجموعة من الجمهوريات المتصارعة. وهنا يشير Gaddis [٣٨] أن التحديات التي تواجه النظام العالمي الجديد بسبب النزعات القومية لن يكون مصدرها سيادة مثل هذه النزعات في الدول الاشتراكية السابقة فحسب فإن الدول الغربية تعاني أيضاً من مشاكل قومية. ومن ذلك استمرار المشكلة الايرلندية ومشاكل Basque في إسبانيا والعداء بين Flemings and walloons في بلجيكا، والمشاكل القومية في كندا، بل يرى الباحث أن قضية القومية أصبحت محل نظر أيضاً في اليابان.

وفي المجال الاقتصادي قد يفرض الشمال تحديات على النظام العالمي الجديد بالنظر إلى تبني الدول المتقدمة لاستراتيجيات مختلفة في سبيل الحصول على جزء من الأسواق العالمية، وبالتالي تحقيق الرفاهية لدولها. إن هذا الاختلاف بين الدول المتقدمة قد يؤدي إلى تناقض فيما بينها إذا ترتب على مثل هذه الاستراتيجيات اختلال دائم في التوازن بين هذه الدول. ولعل هذا هو جوهر ما ركز عليه نقاد السياسة اليابانية نظراً لتركيزها على تبني استراتيجية تؤدي إلى تسلمها دوراً قيادياً في مجال التكنولوجيا المتقدمة والتي قد يترتب عليها تمتع اليابان بمزايا على حساب الدول المتقدمة الأخرى [٣٩].

أما القضايا ذات الطابع العالمي والتي تمثل تهديداً للنظام العالمي الجديد فتشمل نقص رأس المال على المستوى العالمي، وظاهرة التدويل وضعف الدولة القومية وزيادة الفجوة بين الشمال والجنوب وتدهور الأوضاع البيئية وتشير Hartland - Thunberg [٤٠] إلى أن هناك احتمالاً كبيراً أن يواجه المجتمع الدولي نقصاً كبيراً في رأس المال في العقد القادم. وهذا النقص له أهميته بالنظر إلى دلالته لمعدلات الفائدة والتضخم. فإن زيادة الطلب على رأس المال قد يترتب عليه إما رفع معدلات الفائدة الحقيقية وبالتالي تقليل النمو الاقتصادي أو تعمد المحافظة على معدل سعر الفائدة منخفض من خلال السياسات النقدية وهو ما يترتب عليه تضخم. إن مثل هذه النتائج لها أهميتها بالنسبة لمستقبل النمو الاقتصادي العالمي وتحقيق التنمية وتشير Thunberg أن هناك أدلة تؤيد هذا المصدر للتهديد والمتمثل في نقص رأس المال، وهي الأدلة المتعلقة بالتحولات في تدفق رأس المال الدولي منذ أواخر الثمانينيات والتي تعتقد أنها من المتوقع أن تستمر خلال التسعينيات. وتتضمن هذه التحولات. تغير وضع بعض دول العالم من مصدر صافي لرأس المال إلى مستورد صافي لرأس المال (أوروبا وأمريكا اللاتينية)، كما يتضمن التحول من وضع يتسم بتوازن تدفق رأس المال لمستورد صافي لرأس المال (الشرق الأوسط). والتحول إلى درجة أعلى من الاستيراد الصافي لرأس المال (آسيا

باستثناء اليابان)، والتحول إلى درجة أقل من تصدير رأس المال (اليابان) أما الولايات المتحدة فمن المتوقع أن تظل مستورداً لرأس المال.

كذلك يهتم الباحثون بتحليل التهديدات المترتبة على ظاهرة التدويل التي يشهدها العالم اليوم. فخلال الحرب الباردة كانت الدولة تسيطر على العوامل السياسية والعسكرية التي تمكنها من حشد مواردها من أجل تحقيق أهدافها الداخلية والخارجية، أما العالم الذي نعيش فيه اليوم فيشهد تدهوراً نسبياً في دور الدولة. فبالرغم من أن الدولة مازالت هي الفاعل الرئيسي في النظام الدولي إلا أن قدرتها على تعبئة مواردها يحد منها سيادة ظاهرة التدويل، في النظام العالمي الجديد، فالشركات المتعددة الجنسية والمؤسسات المالية الدولية تتمتع بقوة هائلة تمكنها من الحد من قدرة الدولة على توظيف مواردها لمواجهة التهديدات التي تؤثر على استقرار النظام العالمي الجديد، فعلى سبيل المثال يشير الباحثون في هذا الصدد إلى تدهور قوة الدولة في ظل ظاهرة التدويل في نفس الوقت الذي تتزايد فيه تطلعات الشعوب التي تنتمي إلى هذه الدول. ويوضح Hoffmann في هذا الصدد أن القوى الشعبية تتطلع إلى الدولة للمحافظة على مستوى معيشة مرتفع، في نفس الوقت الذي قلّت فيه سيطرتها على اقتصادها بالمقارنة بالماضي. إن فشل الدولة في تحقيق مثل هذه التطلعات يترتب عليه ثورات شعبية قد تعبر عن نفسها من خلال قنوات الانتخاب أو المظاهرات أو الحروب الأهلية(٤١).

ويعتقد الباحثون أن اتساع الفجوة بين الشمال والجنوب يمثل أيضاً مصدراً هاماً لعدم الاستقرار في النظام العالمي الجديد. فبالرغم من أن بعض الدول النامية في آسيا نجحت في إحراز تقدم هائل في مجال التنمية الاقتصادية، إلا أن الغالبية العظمى من دول العالم الثالث في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية شهدت اتساعاً في الفجوة التي تفصل بينها وبين الدول المتقدمة. هذا الاتساع في الفجوة في مستويات المعيشة يتم في فترة يشهد فيها العالم انتشاراً هائلاً للثقافة الغربية وأنماط الاستهلاك السائدة في الغرب من خلال وسائل الإعلام. ولقد ترتب على هذا الوضع ارتفاع تطلعات الشعوب الفقيرة، الأمر الذي أدى بدوره إلى زيادة حدة التوتر بين الشمال والجنوب والذي انعكس في زيادة الحركات المعادية للغرب في دول العالم الثالث وزيادة في تدفق المخدرات من الجنوب إلى الشمال(٤٢).

وأخيراً يشير الباحثون إلى التهديدات التي يواجهها النظام العالمي الجديد نتيجة لقضايا البيئة، فإن هذه القضايا تؤدي إلى تدهور الظروف التي يعيش فيها الإنسان، ومن ذلك القضايا المتعلقة بارتفاع الحرارة في العالم ومشاكل طبقة الأوزون والآثار المترتبة على هذه التطورات بالنسبة للإنسان والحيوان والنبات. ويشار في هذا الصدد إلى أنه بالرغم من أنه لا توجد أبحاث كثيرة تركز على انعكاسات تدهور البيئة على العلاقات والتفاعلات داخل الدول ونتائجها، إلا أن بعض البحوث الأولية توضح أن تدهور أوضاع البيئة، وبصفة خاصة في المناطق الفقيرة، سيترتب عليه تصعيد المنافسة والصراع بين الجماعات المختلفة، وسيدفع أعداداً متزايدة إلى الهجرة إلى المدن التي تتسم بندرة فرص العمل وعدم الاستقرار الاجتماعي(٤٣).

٣ ـ النظام العالمي الجديد: توجهات التفاعلات الدولية

يتناول هذا القسم من الورقة عرضاً لبعض الاتجاهات حول موقف الباحثين من توجهات التفاعل في النظام العالمي الجديد فبينما اهتم بعض الباحثين بالتركيز على التكتلات الاقتصادية الإقليمية في النظام العالمي

الجديد اهتم البعض الآخر بظاهرة الاعتماد المتبادل كأحد الخصائص التي تميز هذا النظام. وفي هذا الصدد ناقش كلا الفريقين إمكانية مساهمة مثل هذه التفاعلات في تحقيق السلام في النظام العالمي الجديد.

اهتم الباحثون الذين تعرضوا للتكتلات الاقتصادية في النظام العالمي الجديد بثلاث قضايا أولها تتعلق بالعناصر التي قد تساعد على دفع ظاهرة التكتلات الإقليمية، أما ثانيها فتتعلق بإمكانية مساهمة هذه التكتلات في دفع السلام العالمي، وأخيراً تعرضوا لبعض المشاكل التي قد تعترض تحقيق مثل هذه التكتلات في النظام العالمي الجديد. فيعتبر بعض الباحثين ومن ذلك Rostow (٤٤) أن ظهور التكتلات الإقليمية هي أحد الخصائص الهامة التي تميز النظام العالمي الجديد. ويرى أنصار هذا الاتجاه أن نهاية الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتي قلل من دوافع القوى الكبرى للتدخل في الأقاليم المختلفة، كما ساهم انتهاء هذه الحرب أيضاً في نهاية التحالفات التي كانت تؤدي إلى تقسيم الأقاليم إلى مناطق تابعة لإحدى القوتين الأعظم، أو بعبارة أخرى فإن انتهاء هذه الحرب وفقاً لهذا الاتجاه سمح بظهور مجال أوسع للتحرك على نطاق الإقليم الجغرافي. ومن ناحية أخرى فإن التدهور النسبي في القدرات الأمريكية في المجال الاقتصادي يترك مجالاً أكبر لنمو قوة التكتلات الإقليمية في أوربا حول السوق الأوروبية وفي آسيا حول اليابان. وأخيراً يشير أنصار هذا الاتجاه إلى أن بعض الاعتبارات الاقتصادية بما في ذلك تحركات الجماعة الأوروبية نحو السوق الموحدة، والصعوبات المستمرة التي تواجهها جولات أورجواي والتغيرات الهيكلية في الاقتصاد العالمي تدفع كلاً من الدول والشركات نحو درجة أعلى من التعاون داخل الأقاليم الجغرافية (٤٥).

ولقد اختلف الباحثون في تقييمهم لانعكاسات ظاهرة التكتلات الإقليمية على فرص تحقيق السلام ويستند أنصار التفاؤل من وجود علاقة إيجابية بين هذين المتغيرين إلى التحليلات التي قدمها Nye (٤٦)، حيث اعتقد أنصار هذا الاتجاه أن التكتلات الإقليمية يمكن أن تساهم في تحقيق الاستقرار والنظام على كل من المستويين الإقليمي والدولي. فعلى المستوى الإقليمي فإن الإطار الإقليمي قد يكون أكثر الأطر فعالية في تحقيق النظام والاستقرار في الأقاليم المختلفة فضلاً عن هذا يشير أنصار هذا الاتجاه إلى أن هذه التكتلات تساهم في تدعيم النظام على المستوى الدولي ويشيرون في هذا الصدد أنه لو تصورنا أن النظام الدولي يتكون من وحدات إقليمية فإن هذا سيساهم في إرساء قواعد واضحة حول الحدود المقبولة لدرجة العداء السياسي والتنافس الاقتصادي. فضلاً عن هذا فإنه في ظل نظام تسود فيه التكتلات الإقليمية فإن التوصل إلى الاتفاقيات الدولية وتطبيقها سواء تعلقت هذه الاتفاقيات بقضايا الأمن أو البيئة أو الاقتصاد العالمي ستكون أسهل لو أبرمت بين عدد محدود من التكتلات عما لو أبرمت مثل هذه الاتفاقيات بين حوالي ١٧٠ دولة.

إلا أن هناك باحثين آخرين يعتقدون أن ظهور التكتلات الإقليمية قد يكون له تأثير سلبي على الاستقرار، حيث يتخوف البعض من انهيار نظام التجارة المتعدد الأطراف وما يترتب عليه من ظهور تكتلات دولية تسيطر عليها اليابان والولايات المتحدة والجماعة الأوروبية، وفي ظل انتفاء بعض القيود التي يفرضها نظام الجات في هذه الحالة فإن هذه التكتلات غالباً ما ستتبع سياسات حمائية ضد الوحدات الخارجة عن التكتل نظراً لاهتمامها بدعم التجارة فيما بين الدول الأعضاء، الأمر الذي قد يترتب عليه توترات وصراعات بين التكتلات الاقتصادية التي قد توجد في النظام العالمي. وقد تنعكس مثل هذه التوترات على المجال السياسي بصفة خاصة في نظام يشهد انخفاض استعداد وقدرة الولايات المتحدة على إدارة النظام الدولي وانخفاض اعتماد أوربا واليابان على الولايات المتحدة في المجالات الأمنية (٤٧).

وفي إطار اهتمام بعض الباحثين بظاهرة التكتلات الإقليمية عملوا على توضيح بعض المشاكل التي قد تواجه احتمال تبلور مثل هذه الظاهرة. ويركز الباحثون في هذا الصدد على احتمالات تطور الجماعة الأوروبية بصفتها التكتل الاقتصادي الذي حقق درجة أكبر من التقدم بالمقارنة باحتمالات نجاح التكتلات الأخرى في شرق آسيا وأمريكا الشمالية. فيشار إلى اختلاف مصالح الدول الأعضاء، وإلى المشكلات والعقبات التي تتعلق بالهدف النهائي لمشروع أوروبا ١٩٩٢ فبينما يرى البعض أن الجماعة الأوروبية مجرد تجمع اقتصادي لدول مستقلة، فإن البعض الآخر يعتبرها طريقاً للوحدة السياسية وتحقيق سياسة خارجية موحدة تجاه العالم الخارجي وهو ما يواجه العديد من الصعوبات كما ظهر خلال أزمة الخليج. أما في شرق آسيا فإنه على الرغم من أن هذه المنطقة تحتل مركزاً هاماً للاقتصاد العالمي إلا أنها تفتقد الهيكل الأمني، ويرى بعض الباحثين أن غياب هذا الهيكل لم يكن يمثل مشكلة طالما كان محور القضية الأمنية هو الصراع الأمريكي السوفيتي، كذلك فإن ظهور الصين كمنافس في ظل النجاح الاقتصادي الذي أحرزته أخيراً يمكن أن يكون له آثار سلبية على احتمالات بناء تكتل في هذه المنطقة، وأخيراً فإن نجاح هذا التكتل قد يعوق من إمكانية تحقيقه الصراعات بين الدول الآسيوية والتي تفوق كثيراً تلك الصراعات التي توجد في أوروبا. أما حالة التكتل الثالث المحتمل في أمريكا الشمالية فيرى الباحثون أن إمكانية التوصل إلى اتفاقية تجارة حرة مع المكسيك واجهت عدداً من المشاكل نظرا لمعارضة بعض القوى الأمريكية ومنهم المهتمين بالبيئة والاتحادات العمالية وبعض الشركات المنتجة للغزل والملابس الجاهزة، والمزارعين الأمر الذي يشير أيضاً إلى المشاكل التي قد تعترض ظهور تكتل يجمع بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك وحوض الكاريبي [٤٨]. وأخيراً يرى بعض الباحثين أن وجود التكتلات الإقليمية يحول دون تحقيقه بعض الاتجاهات التي تميز الاقتصاد العالمي المعاصر، فإن هيكل الاقتصاد الاعتماد المتبادل في النظام العالمي والذي نشأ منذ الحرب العالمية الثانية يعتمد على المحافظة على الأسواق العالمية والإنتاج العالمي في ظل شبكة معقدة ومكثفة قد يصعب تغييرها بدون تحمل تكاليف باهظة. فإن هذه التكتلات الإقليمية يمكن أن تعترض اتفاقيات الإنتاج التي تمتد عبر أكثر من إقليم واحد والتي تم إبرامها داخل وبين الشركات المختلفة [٤٩].

إن هذه النقطة الأخيرة تنقلنا إلى النوع الثاني من التفاعلات التي يهتم بها الباحثون في إطار تحليلهم للنظام العالمي الجديد. وهي ظاهرة الاعتماد المتبادل، وهنا يشير الباحثون إلى أن العالم يتجه نحو زيادة اعتماد الوحدات الدولية الواحدة منهم على الأخرى. إن ظاهرة الاعتماد المتبادل لا تقتصر على زيادة حجم التجارة والسياسة والاتصالات والعرضة للاختراق العسكري، وإنما تتعلق هذه الظاهرة أيضا بإدراك أن الضرورة في النظام العالمي الجديد تقتضي أن يكون هناك درجة كبيرة من التعاون العالمي في استخدام الموارد وحماية البيئة. ويرى أنصار هذا الاتجاه أن مثل هذه القضايا لا يمكن أن تواجهها أي من الوحدات الدولية منفردة، وأنه يتعين على هذه الوحدات أن تخلق المؤسسات الملائمة للتعامل مع هذه القضايا [٥٠]، أي بعبارة أخرى فإن الاعتماد المتبادل وإدراك الحاجة للتعاون يمكن أن يؤدي إلى زيادة احتمال السلم في النظام العالمي.

إلا أن هناك باحثين آخرين يحذرون من أن هذا الاعتماد المتبادل لن يترتب عليه تحولات شاملة في النظام العالمي الجديد، ويشيرون في هذا الصدد أنه حتى لو سلمنا أن الاعتماد المتبادل يمكن أن يترتب عليه التقليل من الاختلافات القومية إلا أن هذا لا يترتب عليه بالضرورة انتفاء الصراع، بل ان الاعتماد المتبادل قد يكون ذاته مصدراً للصراع بين الوحدات الدولية [٥١]. كذلك يشير أنصار هذا الاتجاه، أن المدافعين عن قدرة

الاعتماد المتبادل في إحداث تحول في العلاقات بين الوحدات الدولية أو أنه يساهم في خلق البيئة الملائمة لانتفاء الحرب، نادراً ما يشيرون إلى ظاهرة الحروب الأهلية، فإن العديد من الباحثين ينظرون إلى الحرب كظاهرة دولية ولا يولون سوى انتباه محدود للحرب الأهلية (٥٢) وهي حروب قد لا تتأثر بحجم الاعتماد المتبادل السائد في النظام العالمي.

٤ـ النظام العالمي الجديد: التحرك الجماعي على المستوى العالمي

يهتم فريق رابع من الباحثين بتحليل تداعيات انتهاء الحرب الباردة على إمكانية العمل الجماعي في النظام العالمي. ويشيرون في هذا الصدد إلى تأثير انتهاء الصراع بين الشرق والغرب على إمكانية استخدام الأمم المتحدة للقوة العسكرية وإمكانية التوصل لضبط الأسلحة على المستوى العالمي، وإمكانية تغير طبيعة بعض المؤسسات الغربية لتصبح مؤسسات عالمية. وإلى إمكانية التحرك الجماعي لمواجهة القضايا ذات الطبيعة العالمية (البيئة ـ حقوق الإنسان). وفي إطار تناولهم لإمكانية استخدام الأمم المتحدة للقوة العسكرية يشيرون إلى الأساس القانوني لكل هذا الاستخدام ومجالات استخدام هذه القوة والمشاكل التي قد تعترض إمكانية استخدامها فيري Russett and Sutterlin (٥٣) أن النظام العالمي الجديد تم إرساؤه على أساس حكم القانون ومبدأ الأمن الجماعي، ومثل هذا المبدأ يفترض بالضرورة احتمال استخدام الأمم المتحدة للقوة العسكرية، فإن الميثاق يعطي لمجلس الأمن سلطة المحافظة على السلم والأمن الدولي وأن يفرض إرادة المجلس على الدولة التي تخرق السلم (٥٤).

إن استخدام القوة العسكرية بواسطة الأمم المتحدة لتحقيق حفظ السلام والإجبار يعد من وجهة نظر أنصار هذا الاتجاه ضرورة أساسية لتحقيق النظام العالمي الذي يعتمد فيه الأمن الدولي بدرجة كبيرة على مجلس الأمن. ويشيرون في هذا الصدد إلى أنه لا يوجد في ميثاق الأمم المتحدة ما يمنع نشر مجلس الأمن لقوات حفظ السلام بدون موافقة كل الأطراف المعنية، وإن أوضحوا أن عدداً من الدول قد تعترض على هذا المبدأ نظراً لتخوفهم من أن مثل هذا المبدأ قد يفتح الباب أمام إمكانية تبني تحرك يتعارض مع مصالحهم القومية. إلا أن أنصار هذا الاتجاه يشيرون إلى أن حرب الخليج ساهمت في زيادة الاهتمام بتحقيق ردع فعال من خلال استخدام الأساليب الجماعية بدلاً من أن يتم مثل هذا الردع من خلال أحد أو عدد قليل من أعضاء الأمم المتحدة. أو بعبارة أخرى يشير الباحثون إلى أنه يوجد الآن اعتراف بأن وجود أساليب ملائمة للردع ستكون جوهرية لتحقيق السلام في النظام العالمي الجديد (٥٥).

أما الهدف الثاني لاستخدام القوة العسكرية فيقع في إطار الإجبار بدلاً من الاقتصار على الردع ويشير الباحثون في هذا الصدد إلى أن مثل هذا التحرك من جانب مجلس الأمن يمكن أن يعتمد على الفصل السابع المواد ٣٩ ـ ٤٦ من الميثاق، حيث يكون على الأعضاء أن يوفروا لمجلس الأمن بناء على طلبه وبناء على اتفاقية أو اتفاقيات خاصة، القوات المسلحة والمساعدات والتسهيلات بما في ذلك من المرونة الضرورية لتحقيق هدف المحافظة على الأمن والسلم. وحيث إنه لم يتم التوصل إلى أي من هذه الاتفاقيات، لم يتوفر لمجلس الأمن القوات للقيام بهذه المهمة. وبالتالي اعتمد مجلس الأمن على استخدام قوات مؤقتة لإعادة السلم في كوريا والخليج. ويشير المهتمون بتحليل هذا البعد للعمل الجماعي في النظام العالمي الجديد، أن هناك بدائل يمكن أن يتبعها مجلس الأمن في المستقبل فمثل هذه البدائل تقدم احتمال الاستخدام الفعال لوظيفة الإجبار

دون أن تعاني من المشاكل التي ترتبت على إعطاء مسئولية هذا الإجبار لأحد الدول الأعضاء منفردة. أحد البدائل المطروحة في هذا الصدد هو اتباع نمط معدل كما اتبع في كوريا حيث يتم وضع القوات القومية بطريقة مؤقتة تحت قيادة موحدة للأمم المتحدة. ويتم تحديد القيادة بواسطة أكبر الدول المساهمة في هذه القوات. وفي هذه الحالة يمكن تفادي بعض المشاكل التي شهدتها حالة كوريا، بأن يفرض على القيادة. أن تتشاور مع مجلس الأمن أو السلطة العسكرية التي يعينها المجلس حول مهمة العمليات العسكرية والاستراتيجية الأساسية التي سيتم اتباعها. ويرى الباحثون أن الدول التي تقدم أجزاء مساهمة في هذه القوات قد تعترض أو تقاوم مثل هذا الإجراء على أساس أنه يحد من حريتها في التحرك وأنه يعرض قواتها لدرجة أكبر من عنصر عدم التأكد من وجهة نظرها[٥٦].

أما البديل الثاني الذي يشير إليه الباحثون فيتفق مع الإجراء الذي تم تحديده في المادة ٤٢ و٤٣ مع ميثاق الأمم المتحدة والذي وفقاً له يكون على أعضاء الأمم المتحدة أن يوفروا لمجلس الأمن بناء على طلبه ووفقاً لاتفاقية أو اتفاقيات خاصة القوات المسلحة والتسهيلات والمساعدة. ولقد كانت علاقات العداء بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي أحد العقبات الرئيسية أمام تحقيق هذا، وبانهيار الاتحاد السوفيتي أزيلت هذه العقبة.

ويشير الباحثون إلى أن مثل هذه القوة ستتشابه مع قوة الأمم المتحدة في مجال حفظ السلام وإن اختلفت من حيث المهمة المسندة إليها ونوعية تسليحها وتشكيلها وقيادتها. إلا أن مثل هذا التوجه يواجهه عدد من المشاكل. فيشير الباحثون في هذا الصدد، أنه ليس من الواضح ما هو عدد الدول التي ستكون على استعداد لإبرام الاتفاقيات التي أشار إليها ميثاق الأمم المتحدة وماهي الفترة التي ستستغرقها إمكانية التوصل إلى مثل هذه الاتفاقيات، كل ما يشيرون إليه في هذا الصدد هو أن الظروف الدولية بعد حرب الخليج تبدو أكثر ملاءمة عن أي فترة منذ ١٩٤٥ للتوصل لمثل هذه الاتفاقيات. كذلك فإن الوقت الذي يتطلبه تنظيم وانتشار القوة المتعددة الأطراف بواسطة مجلس الأمن غالباً ما يستغرق وقتاً أطول مما إذا عهد إلى دولة أو أكثر من الدول الأعضاء بالقيام بمهمة الإجبار، خاصة إذا كانت هذه العملية تتسم باتساع نطاقها. كذلك يثار تساؤل حول احتمال نجاح التحرك العسكري في ظل قيادة متعددة الأطراف عما لو تم مثل هذا التحرك في ظل قيادة قومية. وأخيرا تثار هناك تساؤلات حول تمويل هذه التحركات العسكرية، فإن تاريخ تمويل قوات حفظ السلام ليس تاريخاً مشجعاً، أما عملية الخليج فاعتمدت على استعداد وقدرة الدول المشاركة على دفع الأعباء المترتبة على هذه العملية وهو استعداد ارتبط بقدرتهم على السيطرة على توجهات العمليات العسكرية[٥٧].

وفي إطار الاهتمام بالتحرك الجماعي على المستوى الدولي اهتم باحثون آخرون بمستقبل ضبط التسلح في أعقاب الحرب الباردة. حيث أوضحوا أن ميكانزمات ضبط التسلح على المستوى الدولي ستزداد أهميتها بنهاية نظام الاستقطاب وفي ظل تحقيق بعض الدول النامية لتقدم في المجال الصناعي والعلاقة الوثيقة بين التصنيع والقدرة على إنتاج الأسلحة، خاصة وأن العالم يشهد ارتباطاً وثيقا بين التكنولوجياالمدنية والعسكرية في مجالات الذرة والأسلحة الكيمياوية[٥٨]، وبالتالي يشهد العالم انتشاراً لتكنولوجيا التسلح والقدرات العسكرية وبصفة خاصة في مجال الأسلحة غير التقليدية ويهتم الباحثون هنا بالتركيز على احتمالات استمرار اتفاقية الحد من انتشار الأسلحة النووية وبميثاق الأسلحة البيولوجية وإمكانية التوصل إلى اتفاقية لنزع السلاح في مجال الأسلحة الكيمياوية.

ويشار في هذا الصدد إلى أن اتفاقية حظر انتشار الأسلحة النووية تواجه اختبارات في أوائل التسعينيات في إطار الأحداث التي شهدتها منطقة الشرق الأوسط وجنوب آسيا والاتحاد السوفيتي السابقة، فإن اكتشاف المجتمع الدولي لاتجاه العراق لاتباع برنامج للتسلح النووي حتى في ظل الرقابة التي تفرضها الوكالة الدولية للطاقة الذرية أدى إلى زيادة الاهتمام بالإجراءات التي ترتبط بالتحقق والالتزام باتفاقية حظر انتشار الأسلحة النووية (٥٩). كما يهتم الباحثون في إطار مناقشة هذه الاتفاقية كأحد أطر العمل الجماعي على المستوى الدولي باحتمالات مد العمل بالاتفاقية في ١٩٩٥. ويشيرون هنا إلى احتمال لجوء الدول المعارضة للحقوق التي تتمتع بها الدول النووية السابقة الـ١٩٦٧ إلى التحرك على النحو الذي يثير تشككا حول احتمال استمرار العمل بمثل هذه الاتفاقية (٦٠). إلا أنهم يشيرون أيضاً أن الغرب يرى أن مثل هذا الاحتمال احتمال ضعيف حيث يعتقد أن أغلب دول العالم سترى أن أمنها يمكن أن يتحقق على نحو أفضل في ظل الاتفاقية حتى وإن لم تكن هذه الاتفاقية اتفاقية مثالية. ويشير الباحثون إلى أن قضايا أخرى قد تظهر في الجدل العالمي حول الأسلحة النووية في السنوات القادمة وبالتالي قد يصعب الآن التوصل إلى رأي مؤكد حول نتيجة الجدل حول مدّ العمل بهذه الاتفاقية في ١٩٩٥ (٦١).

كذلك يشير الباحثون إلى أن التسعينيات ستشهد اهتماماً بضبط الأسلحة البيولوجية والكيمياوية. فهناك اهتمام بميثاق الأسلحة البيولوجية Biological and Toxic weapons Convention الذي أبرم في ١٩٧٢. حيث يوجد تشكك حول مدى التزام الدول بمثل هذا الميثاق فيوجد ما بين ١٠ — ١٥ دولة تمتلك قدرات حربية بيولوجية هجومية. أي بعبارة أخرى أن هذه الاتفاقية تفتقد آليات التحقق والإلزام وبالتالي يتعين تقوية دور هذه الاتفاقية في التسعينيات. إلا أنهم يشيرون إلى أن هناك مشاكل أمام إمكانية أن تتضمن هذه الاتفاقية ميكانزمات التحقق التي قد تضمنتها الاتفاقيات الدولية الأخرى نظراً لخصائص التكنولوجيا المستخدمة في هذه الأسلحة. وفي إطار تناول الأسلحة الكيمياوية يشار إلى أن التسعينيات شهدت اهتماماً بالتوصل إلى اتفاقية شاملة لنزع السلاح في هذا المجال. على أن تتضمن هذه الاتفاقية ميكانزمات للتحقق والإلزام وأن تُطبّق هذه الاتفاقية على جميع الدول سواء الدول المتقدمة أو النامية (٦٢).

ويوضح الباحثون أن أهمية التحرك الجماعي لضبط التسلح لا ترتبط فقط بدورها في الحد من انتشار الأسلحة غير التقليدية ولكن لها أهميتها أيضاً في إرساء قيم تحكم سلوك الدول في النظام العالمي الجديد، إلا أن مستقبل هذه الجهود سيتوقف على إمكانية نجاح هذه الإجراءات في التزام الدول بتنفيذ الاتفاقيات التي يتم التوصل إليها. وهذا الإلزام يتوقف بدوره على الإطار السياسي الذي يتم فيه هذا الالتزام حيث سيكون أكبر في حالة سيادة علاقات سلمية بين الدول عنه في حالة سيادة علاقات عدائية بينها. كما يعتمد أيضاً على مدى اهتمام تلك الدول التي تتمتع بالقوة السياسية والاقتصادية والعسكرية بضرورة تطبيق مثل هذا الإلزام (٦٣).

ويهتم الباحثون في تناولهم لإمكانيات التحرك الجماعي على المستوى الدولي بإمكانية التحرك الجماعي في إطار المؤسسات التي كانت مقصورة على العالم الغربي. فخلال الحرب الباردة أقامت الدول الغربية شبكة من المؤسسات لتحقيق الأوضاع الاقتصادية والمجتمعية التي كانوا يبغون تأسيسها في النظام الدولي وتضمنت هذه المؤسسات مثلاً صندوق النقد الدولي. البنك الدولي، الجات، مجموعة الدول السبع. إن إقامة مؤسسات عالمية في هذه المجالات عرقل من إمكانية تحقيقه وجود الحرب الباردة، وبالتالي فإن انتهاء هذه الحرب وانتصار الغرب يطرح إمكانية اتساع مثل هذه المؤسسات لتأخذ شكل مؤسسات عالمية، ويشار في هذا الصدد، أن

اهتمام الدول الاشتراكية السابقة بالمشاركة في مثل هذه المؤسسات دليل على تدعيم السيطرة الغربية على توجهات العمل الجماعي على المستوى الدولي [٦٤].

وأخيراً يهتم الباحثون في إطار تناولهم لإمكانيات التحرك الجماعي على المستوى العالمي. بإمكانيات التحرك الجماعي لمواجهة القضايا التي تتعدى الحدود القومية للدولة ومنها قضايا البيئة وحقوق الإنسان. فيوضح Falk [٦٥] أن كثيرا من الكتابات التي تناولت نهاية الحرب الباردة والمشاكل التي ترتبت عليها تتجاهل مدلول الاتجاهات العالمية في الحياة الدولية. فإن هناك تحديات اقتصادية وأخرى تتعلق بالبيئة تتعدى الحدود الإقليمية للدولة، فتقدم وسائل الاتصال وقوى السوق يربط ما بين شعوب العالم على نحو غير مسبوق. وفي هذا الإطار يشهد العالم تحركاً جماعياً في إطار العديد من المنظمات والجماعات، ويشار في هذا الصدد إلى تحرك الجماعات المهتمة بالبيئة في «Earth Summit» الذي عقد في ريدي في ١٩٩٢، كما شهد مجال حقوق الإنسان تحركاً جماعيا يتعدى الحدود القومية والعنصرية التي تفصل ما بين شعوب العالم. فإن منظمات مثل Omnesty و Human International Helsinki Citizens Assembly Rights watch Groups توضح تعاوناً ما بين الشعوب المختلفة، أو بعبارة أخرى فإن القضايا التي يتعرض لها النظام العالمي الجديد تفرض الاهتمام بأنماط جديدة من التحرك الجماعي على المستوى العالمي.

هـ- النظام العالمي الجديد: وضع الدول النامية

اهتم بعض الباحثين بتحليل وضع الدول النامية في ظل نظام عالمي يتسم بتعدد مراكز القوى وإمكانيات التحرك الجماعي على المستوى العالمي. وبينما اعتقد البعض أن النظام العالمي الجديد مازال يطرح فرصاً أمام الدول النامية اتجه البعض الآخر لإبراز الآثار السلبية للنظام العالمي الجديد على وضعية هذه الدول في هذا النظام.

ففي إطار تناول Moritan [٦٦] لوضع الدول النامية في النظام العالمي الجديد أوضح أنه لا يوجد إجابة واضحة حول أثر ظهور الجماعة الأوربية واليابان كقوى اقتصادية هامة في النظام الدولي على مستقبل حركة عدم الانحياز فبالرغم من تأكيده أن دول عدم الانحياز لم يعد بإمكانها استغلال المنافسة بين القوى العظمى للحصول على موارد والتزامات من هذه الدول، إلا أن هذا لا يعني من وجهة نظره أن حركة عدم الانحياز فقدت قدرتها على المناورة في الهيكل الدولي السائد حيث اعتقد أنه يمكن لهذه الدول أن تحصل على مزايا اقتصادية وسياسية. فلا يوجد من وجهة نظره ما يمنع دول عدم الانحياز من أن تأخذ وضعها بين الأقطاب الجديدة في النظام العالمي. كذلك يوضح الباحث في هذا الصدد أن النظام العالمي الجديد بما يتضمنه من إمكانيات التحرك الجماعي على المستوى العالمي جعل الوقت مناسباً لإحداث تقدم في إقامة ميكانزمات متعددة الأطراف لنزع السلاح وتحقيق الأمن في الأقاليم التي تسودها الصراعات، ومن ناحية أخرى يسمح مثل هذا الوضع بتخطي الانقسامات التي سادت بين الشرق والغرب والشمال والجنوب.

أما الفريق الثاني من الباحثين فيرى أن النظام العالمي الجديد له تداعيات سلبية على الدول النامية سواء في علاقاتها بالدول المتقدمة أو في علاقاتها ببعضها البعض، ويشار في هذا الصدد إلى انعكاسات النظام العالمي الجديد بما يتضمنه من تعدد مراكز القوى التي تمثل مجتمعاً أمنياً متعدداً وإمكانيات التحرك الجماعي على المستوى العالمي على الأمن السياسي والعسكري والاقتصادي والبيئة بالنسبة للدول النامية ففي المجال السياسي

يهتم الباحثون بأربعة تداعيات سلبية فأولاً ـ يشار إلى أن انتهاء الصراع الأيديولوجي بين الشرق والغرب ترتب عليه التقليل من الأهمية الاستراتيجية لبعض الدول النامية . ففي ظل النظام العالمي الجديد لا يوجد هناك حوافز أيديولوجية أو استراتيجية تدفع بالقوى الكبرى في النظام إلى التنافس للحصول على تأييد أحد الدول النامية، وبالتالي فقدت هذه الدول أحد وسائل التأثير التي كان بإمكانها استخدامها في ظل الحروب الباردة . وثانيا ـ يشير أنصار هذا الاتجاه إلى إمكانية فقدان حركة عدم الانحياز لصفتها كمتبر سياسي للدول النامية . ففي أعقاب الحرب الباردة لا يوجد هناك انقسام بين الدول المسيطرة يستدعي تبني مثل هذه السياسة . وثالثاً يوضح أنصار هذا الاتجاه أن وجود الاتحاد السوفيتي كقوة عظمى في النظام الدولي جعل من السيطرة المركزية للدولة نموذجا شرعياً للحكم في المناطق الأخرى من العالم، كذلك فإنه وفر للدول النامية المعادية للغرب قوى عظمى لمساندتها . إلا أنه مع تسليم هذه القوة العظمى السابقة بمزايا التعددية والسوق العالمي، قلت مجالات التحرك المفتوحة أمام الدول النامية . وأخيراً يشير أنصار هذا الاتجاه إلى أنه بالرغم من أنه لا يوجد علاقة واضحة بين الحرب الباردة واستمرار التمسك بالحدود التي فرضها الاستعمار على الدول النامية . إلا أن نهاية هذه الحرب تثير قضية الحدود بطريقة مختلفة . فبانتهاء الحرب تم توحيد ألمانيا وبالتالي تم تغيير أحد الحدود التي فرضتها الحرب الباردة، كذلك تشهد الدول الاشتراكية السابقة بعض الضغوط من أجل إعادة رسم الحدود . وبالرغم من أن هذه التغيرات في الشمال ليس لها علاقة مباشرة بدول الجنوب إلا أن لها تداعيات كرمز لإمكانية تغيير الحدود، فإذا كان من المقبول إجراء تغييرات في الحدود في دول الشمال فما الذي يمنع من إمكانية تحقيق ذلك في الدول النامية ومثل هذه الإمكانية تثير احتمالات لتصاعد الصراع بين الدول النامية حول قضايا الحدود (٦٧) .

وفي مجال تحليل التداعيات العسكرية يشير أنصار هذا الاتجاه إلى أن التغيرات التي شهدها النظام العالمي بانتهاء الحرب الباردة قد تدفع إلى الاعتقاد بأن انتهاء الصراع الأيديولوجي بين مراكز القوة سيترتب عليه تقليل دوافعهم للتنافس حول إمداد الدول النامية بالأسلحة . إلا أن أنصار هذا الاتجاه يشيرون إلى تجارة السلاح بصفتها أحد العوامل التي قد يترتب عليها استمرار تدفق السلاح للدول النامية فإن عالم ما بعد الحرب الباردة سيشهد استمرار تطلع عدد من الدول لبيع منتجاتها من الأسلحة، ففي ظل المنافسة التجارية الهائلة التي ستشهدها هذه الفترة فإن تصدير السلاح سيكون أحد المجالات القليلة التي يتمتع فيها الاتحاد السوفيتي السابق والصين وتشيكوسلوفاكيا مثلاً بمزايا في ظل هذه المنافسة . وبالرغم من أن مثل هذا المنطق قد يكون أقل دلالة بالنسبة لدول مثل بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة، إلا أن هذه الدول الثلاث عليها أن تخوض منافسة حادة مع ألمانيا واليابان في مجال الصناعات المدنية وهي منافسة لا تواجهها في مجال سوق السلاح، كذلك فإن الدول الكبرى تواجه احتمال انخفاض الطلب الداخلي على السلاح في ظل انتهاء الحرب الباردة وبالتالي سيكون لديها حاجة لتصدير الأسلحة للمحافظة على صناعتها فى هذا المجال فضلاً عن هذا فإن دولاً أخرى مثل إسرائيل والبرازيل والهند وكوريا الجنوبية لديها القدرة والاستعداد للمنافسة في سوق السلاح وبالتالي فإنه في ظل تعدد مصادر السلاح والتنافس بين موردي السلاح وزيادة الطلب على التسليح من جانب الدول النامية يرى أنصار هذا الاتجاه أنه من الصعوبة الحديث عن ضبط عملية تجارة السلاح (٦٨) .

كذلك يشير أنصار وجود التداعيات السلبية الاقتصادية للنظام العالمي الجديد على الدول النامية إلى ثلاثة

أنواع من التداعيات. فيشيرون أولاً إلى أن هذه الدول ستستمر في معاناتها من المشاكل الاقتصادية التي تتمثل في عدم القدرة على توفير الاحتياجات الأساسية للسكان كما هو الحال بالنسبة للسودان وبنجلاديش. كما ستستمر تعاني من آثار تغير أسعار المواد الأولية كما هو الوضع في زامبيا وبيرو، وعدم القدرة على مقاومة الضغوط التي قد توجهها المؤسسات الخارجية كما هو الحال بالنسبة للأرجنتين وتنزانيا. أي يشير أنصار هذا الاتجاه أنه لا يوجد أي سبب يدعو إلى الاعتقاد بأنه في ظل النظام العالمي الجديد سيحدث تغير جوهري لتخطي المشاكل التي تواجهها الدول النامية. بل يرون أن وضع الدول النامية قد يتجه إلى التدهور في ظل انخفاض أسعار السلع الأولية، ووجود علاقات هائلة بين مصالح الدول النامية، ونجاح الدول المتقدمة في التفرقة بين هذه الدول وأزمة الديون (٦٩). وبالرغم من ان النظام العالمي الجديد قد يتحرك نحو وجود تكتلات إقليمية في ظل سيطرة أوربا واليابان والولايات المتحدة، إلا أنه لا يوجد ما يشير في ظل هذا الوضع أن احتلال موقف هامش في نظام عالمي يختلف عن احتلال وضع هامش في ظل أحد التكتلات الإقليمية.

وثانيا يشير أنصار هذا الاتجاه إلى احتمال انخفاض المساعدات الخارجية الموجهة للدول النامية في ظل انتفاء الدوافع السياسية التي حكمت هذه المساعدات خلال الصراع بين الشرق والغرب. إلا أن هؤلاء الباحثين يشيرون إلى أن قضايا البيئة وتخوف الدول المتقدمة من الهجرة من جانب الدول النامية قد يدفعها نحو استمرار تقديم مساعدات للدول النامية. وثالثاً يشير الباحثون إلى أنه في ظل انخفاض حساسية الدول النامية للارتباط بالخارج في فترة ما بعد الاستقلال وفي ظل المشاكل الاقتصادية التي تواجه هذه الدول وزيادة دور المؤسسات الدولية الغربية في توجيه اقتصاديات البعض منها، فإن الدول النامية قد تعاني من درجة أكبر من فقدان القدرة على تحديد مسارها الاقتصادي (٧٠).

وأخيرا يشير الباحثون إلى قضايا البيئة في النظام العالمي الجديد وانعكاساتها على الدول النامية ويشيرون في هذا الصدد، أن مثل هذه القضايا أصبحت جزءاً من الحوار بين الشمال والجنوب، حيث يتهم الجنوب الشمال بأنه السبب في مثل هذه القضايا. وهنا يهتم الباحثون بالإشارة إلى أن قضايا البيئة لن تكون محور صراع بين الشمال والجنوب فحسب، بل ستكون أيضاً محور صراع فيما بين دول الجنوب. ويشير البعض في هذا الصدد إلى أن قضايا البيئة وما يتعلق منها بالسيطرة على موارد المياه يبدو أنه سيترتب عليها صراعات بين الدول النامية (٧١).

الخاتمة

إن هذه المراجعة للأدبيات التي نشرت في بعض الدوريات الأمريكية توضح أن محور اهتمام هذه الأدبيات لا يتطرق للقضايا التي تهم عالمنا العربي. فإن اهتمامها الأساسي ينصب على توصيف هيكل النظام العالمي، واتجاه التفاعلات الدولية وإمكانية التحرك الجماعي على المستوى العالمي ومصادر التهديد التي تواجه النظام العالمي الجديد وكيفية التعامل معها على النحو الذي يخدم مصالح الدول المسيطرة في هذا النظام. وبالرغم من تناول بعض الباحثين للوضع المتدهور للدول النامية في النظام العالمي الجديد إلا أنهم لا يتطرقون للبدائل المطروحة أمام هذه الدول للتغلب على القيود السياسية والاقتصادية والعسكرية التي تواجهها. وبالتالي فإن هذه المراجعة لبعض الأدبيات الأمريكية تثير عددا من الأسئلة بصفتنا باحثين عرب ننتمي إلى الدول النامية، وهي أسئلة تدور أساساً حول أين نحن من تداعيات هذه القيود؟، وماهي بعض الاستراتيجيات التي يجب علينا اتباعها للتقليل من مدلول هذه القيود؟ وبالتالي لتحسين وضعنا في هذا النظام العالمي الجديد.

الهوامش

(١) Francis Fukuyama, "The End of History?, The National Interest (Summer, 1989). Adam Roberts, "A NewAge in International Relations?" International Affairs, 67,3 (1991).

(٢) Laurence Martin, "National Security in a New Order," The world Today (February, 1992).

(٣) Zbigniew Brzezinski, "Selective Global Commitment," Foreign Affairs (Fall, 1991).

(٤) عبد المنعم سعيد «حرب الخليج والنظام العالمي الجديد»، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد الأول (ربيع/ صيف ١٩٩١).

(٥) تمت في هذا الصدد مراجعة الدوريات التالية:
The National Interest, International Affairs. The world Today, Foreign Affairs, Foreign Policy, Political Science Quarterly, Washington Quarterly, Encounter, Journal of International Affairs, Current History.

(٦) محمد السيد سليم، تحليل السياسة الخارجية (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٩).

(٧) James Rosenau, "Capabilities and Control in an Interdependent World," in R. Matthews, A. Rubinoff and J. Stein (eds), International Conflict Management (Ontario/ Prentice Hall, 1989).

(٨) تحليل Krauthammer وارد في Ted Galen Carpenter, "The New World Disorder," Foreign Policy, No. 8 (Fall, 1991).

(٩) المرجع السابق

(١٠) Roberts, op cit

(١١) Rosenau, op., cit.

(١٢) Kenneth Waltz, Theory of International Politics (Reading, Mass: Addison Wesley, 1979).
وارد في Joseph Nye, "The Changing Nature of World Power," Political Science Quarterly, vol. 105 No. 2 (1990)

(١٣) المرجع السابق

(١٤) William Pfaff, "Redefining World Power," Foreign Affairs, vol. 70, No. 1 (1991).

(١٥) Barry Buzan, New Patterns of Global Security in the Twenty First Century, International Affairs, vol. 67, No. 3 (July 1991).

(١٦) Samuel Huntington, "The Economic Renewal of America," The National Interest (Spring 1992).

(١٧) Pfaff, op., cit.

(١٨) المرجع السابق.

(١٩) Nye, op. cit.

(٢٠) Carpenter, op. cit.

(٢١) Dan Kwart A. Rustow, "Democracy: A Global Revolution?," Foreign Affairs, vol. 61, No. 4 (Fall, 1990).

(٢٢) Karl Deutsch and S.A. Burrell, Political Community and the North Atlantic Area (Princeton, N.J., Princeton University Press, 1957).

(٢٣) Buzan, op. cit.

(٢٤) Stanely Hoffman, "The Case for Leadership, "Foreign policy, N0. 81 (Winter 1990 - 91).

(٢٥) Carpenter, op, cit.

(٢٦) الإشارة إلى Tucker واردة في Stanely Hoffman, «A New World and Its Troubles,» Foreign. Affairs, vol. 69, No. 4 (1990)

(٢٧) Pfaff, op. cit.

(٢٨) Joseph Nye, Bound to Lead (New York: Basic Books, 1990).

(٢٩) Roberto Garica Moriton, "The Developing World and the New World Order," The Washington Quarterly (Autumn, 1990).

(٣٠) John Lewis, Gaddis, "Toward the Post - Cold War World, "Foreign Affairs, vol. 70, No. 2 spring 1991).

(٣١) الإشارة إلى Galbraith واردة في (J.B. Miller. «A New World Order?», The World Today January, 192).

(٣٢) Pfaff, op. cit.

(٣٣) Hoffomann, N New, op. cit.

(٣٤) Gaddis, op. cit.

(٣٥) Jan Zielonka, "Europes Security: A Great Confusion," International Affairs, 67. 1 (1991).

(٣٦) Pfaff, op. cit.

(٣٧) Miller, op. cit.

(٣٨) Gaddis, op. cit.

(٣٩) Haffmann, A New, op. cit.

(٤٠) Penelope Hartland - Thunberg, "A capital - Starved New World Order: Geopolitical Implications of a Global Capital," The Washington Quarterly (Autumn, 1991).

(٤١) أنظر Haffmann وارد في Michael J. Klare, "The New Challenges to Global Security" Current History (April 1993).

(٤٢) المرجع السابق.

(٤٣) المرجع السابق.

(٤٤) وارد في Walt Rostow, "The Coming of Age of Regionalism," Encounter (June, 1990)

Andrew Hurrell, "Latin America in the New World Order: A Regional bloc of Americas," International Affairs, 68 (1992).

(٤٥) المرجع السابق.

(٤٦) Joseph Nye, Peace in Parts: Integration and Conflict in Regional Organizations (Boston: Little brown, 1971).

(٤٧) Hurrell, op. cit.

(٤٨) المرجع السابق.

(٤٩) المرجع السابق وانظر بعض هذه الاتجاهات في:

De Anne Julius, Global Companies and Public Policy, the Growing Challenges of Foreign Direct Investment (London: Pinter/RIIA: 1990)

(٥٠) Theodore C. Sorensen, "America's President," Foreign Affairs (Fall 1992)

(٥١) Roberts, op. cit.

انظر أيضاً عدم قبول مقولة أن زيادة تدفق الأفراد والسلع والتكنولوجيا عبر الحدود القومية سيترتب عليها عالم يتسم بدرجة أكبر من الأمن في Gaddis, op cit.

(٥٢) Roberts, op. cit

(٥٣) Bruce Russett and James Sutterlin, "The U.N. in a New World Order, "Foreign Affairs", vol 70, No. 2 (Spring 1991).

(٥٤) راجع مفهوم الأمن الجماعي في أعقاب الحرب الباردة في:

Andrew Bennett and Joseph Lepgold, "Reinventing Collective Security after the Cold War and Gulf Conflict" Political science quarterly (Summer 1993).

(٥٥) Russett and Sutterlin, op. cit

وراجع دور الأمم المتحدة في مجال حفظ السلام والآثار المترتبة على هذا الدور في

Kim R. Holmes, New World Disorder: A Critique of the United Nations, Journal of International Affairs (Winter 1993).

(٥٦) Russett and Sutterlin, op. cit

(٥٧) المرجع السابق.

(٥٨) Buzan, op cit.

(٥٩) Brad Roberts, "Arms Control and the End of the Cold War, "The Washington Quarterly (Autumn 1992).

(٦٠) راجع فرص وعقبات مد العمل بالاتفاقية حظر انتشار الأسلحة النووية في Buzan, op cit

(٦١) Brad Roberts, op. cit.

(٦٢) المرجع السابق.

(٦٣) المرجع السابق.

(٦٤) Buzan, op. cit

(٦٥) Richard Falk, "In Search of a New World Model," Current History (April 1993)

(٦٦) Mозlan, op. cit

(٦٧) Buzan, op cit

(٦٨) المرجع السابق.

(٦٩) John Ravenhill, "The North - South Balance of Power," International Affairs, 66/4 (1990).

وارد في Buzan, op. cit.

(٧٠) المرجع السابق.

(٧١) المرجع السابق.

النظام الدولي الجديد في الفكر العربي

د. حسنين توفيق إبراهيم

مقدمة :

لا شك في أن مفهوم «النظام الدولي الجديد» ، يعتبر من أكثر المفاهيم التي لاقت ذيوعاً وانتشاراً في الأوساط السياسية والإعلامية والأكاديمية ، العربية والأجنبية أثناء أزمة ـ أو بالأحرى ـ كارثة الخليج الثانية وفي أعقابها . وقد شاع هذا المفهوم بعد أن بدأ الرئيس الأمريكي السابق «جورج بوش» في طرحه منذ الأيام الأولى لحدوث الكارثة ، حيث راح يؤكد في خطبه وتصريحاته على أن هدف إرساء نظام دولي جديد ، يقوم على الالتزام بقواعد الشرعية الدولية واحترام القانون الدولي ومبدأ الأمن الجماعي وتوفير ضمانات الحرية والديمقراطية والتنمية وحقوق الإنسان وحل المنازعات بالطرق السلمية . . . إلخ ، يعتبر أحد الأهداف الرئيسية لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه أزمة الخليج الثانية . وقد استمر الرئيس الأمريكي السابق «بوش» وغيره من المسئولين الأمريكيين وأجهزة الإعلام الأمريكي في التأكيد على هذه المعاني بعد انتهاء أزمة الخليج الثانية [١] .

ومع شيوع المفهوم وانتشاره تعددت الرؤى والتصورات والتقييمات بشأنه ، بل وقد وصلت إلى حد التضارب والتناقض . ولم يكن المفكرون والباحثون ورجال الإعلام والساسة العرب بمعزل عن الجدل الذي أثير حول مقولة «النظام الدولي الجديد» . فكيف يكون ذلك وكارثة الخليج الثانية التي حدثت على أرض العرب شكلت أول محك حقيقي لما يُعرف بالنظام الدولي الجديد ، كما مثلت في الوقت نفسه مدخلا رئيسياً لإرساء بعض أسس وقواعد هذا النظام حسبما تتصورها القوة أو القوى الدولية الفاعلة والمؤثرة فيه؟! .

والهدف من هذه الدراسة هو رصد رؤى الفكر العربي وتصوراته لمقولة «النظام الدولي الجديد»، مع تحليل هذه الرؤى وتقييمها والمقارنة بينها. ومن هذا المنطلق، فإن الدراسة تسعى للبحث في إجابات الفكر العربي على عدد من القضايا والتساؤلات المرتبطة بإشكالية النظام الدولي الجديد. ويمكن إيجاز أهمها فيما يلي:

١ - هل هناك فعلاً نظام دولي جديد؟. بلغة أخرى، هل يمكن الحديث عن نظام دولي جديد في هذه المرحلة من تطور العالم؟.

٢ - وإذا كانت الإجابة على السؤال السابق بـ«نعم» فما هي العوامل التي ساهمت ـ وتساهم ـ في خلق هذا النظام وتشكيله؟. وما هي طبيعة هذا النظام التي تميزه عن النظام القديم؟، أي ما هو الجديد فيه؟. وما هي ملامح بنية أو هيكل هذا النظام من حيث نمط أو أنماط توزيع مصادر القوة والنفوذ بين وحداته؟. وما هي القيم والقواعد والأخلاقيات الجديدة التي يستند إليها هذا النظام؟. وما هي أنماط العلاقات والتفاعلات بين الوحدات المكونة له؟. وما هي القضايا الرئيسية في هذا النظام والتي تشكل أجندة الاهتمامات الدولية إذا جاز التعبير؟. وما هو مصير القضايا المرتبطة بالنظام القديم؟. وما هو موقع بلدان الجنوب على خريطة النظام الدولي الجديد؟. وما هي آثاره وتداعياته على الوطن العربي من زاوية القيود والفرص؟.

٣ - وفي حالة نفي وجود نظام دولي في الوقت الراهن، فما هو إذن التوصيف أو التوصيفات المطروحة للتحولات والتغيرات الكبرى التي حدثت ـ وتحدث ـ في البيئة الدولية؟. وهل هناك مقولات أو مفاهيم أخرى أكثر دلالة في التعبير عن فحوى هذه التحولات والتغيرات من مفهوم النظام الدولي الجديد؟.

٤ - ما هي انعكاسات المتغيرات والتحولات الدولية الجديدة وتأثيراتها على الوطن العربي، وذلك بغض النظر عما إذا كانت هذه المتغيرات تشكل نظاما دوليا جديدا أم لا؟. وما هي الإمكانات والآليات المتاحة للدول العربية للتعامل معها من زاوية تعظيم الإيجابيات (الفرص) وتقليص السلبيات (القيود) من ناحية، وتمكين العرب من المساهمة بدور مؤثر وفعّال في تشكيل وصياغة الأوضاع الدولية الجديدة من ناحية أخرى.

وتأسيساً على ما سبق، فإن هذه الدراسة ستتناول النقاط التالية:

أولاً: في المصادر والمنهج.

ثانياً: الجدل حول مفهوم النظام الدولي الجديد: هل هناك نظام دولي جديد؟.

ثالثاً: مصادر التغيير في النظام الدولي: عوامل التحول إلى نظام دولي جديد.

رابعاً: كارثة الخليج الثانية وتدشين مقولة النظام الدولي الجديد.

خامساً: الجدل حول هيكل أو بنية النظام الدولي الجديد.

سادساً: الجدل حول القيم التي يستند إليها النظام الدولي الجديد.

سابعاً: مناقشة بعض قضايا النظام الدولي الجديد وإشكالياته.

ثامناً: انعكاسات النظام الدولي الجديد على الوطن العربي والعالم الإسلامي: موقع العرب والمسلمين في النظام الدولي الجديد.

تاسعاً: كيف يتعامل العرب مع النظام الدولي الجديد؟: الإمكانات والخيارات.

وتعرض الدراسة لكلٍ من النقاط السابقة بشيء من التفصيل.

أولاً: في المصادر والمنهج

تستخدم هذه الدراسة مفهوم الفكر العربي بمعنى مجموعة الأفكار والرؤى والتصورات والانتقادات التي طرحها بعض المفكرين والباحثين والكتاب العرب حول موضوع النظام الدولي الجديد. وقد توزع النتاج الفكري العربي المرتبط بموضوع الدراسة والمسجل في هوامشها بين أربعة أنواع من المصادر:

أولها، بعض الكتب والدراسات التي عالجت موضوع النظام الدولي الجديد بشكل مباشر، أو تعرضت لبعض جوانبه ومتغيراته. وهي تعتبر بصفة عامة قليلة العدد عند مقارنتها بالدراسات والبحوث والمقالات المنشورة عن نفس الموضوع في الدوريات والصحف العربية[٢].

وثانيها، البحوث والدراسات المنشورة في عدد من الدوريات العربية. ومن أهمها: مجلة العلوم الاجتماعية (جامعة الكويت ـ الكويت)، والمستقبل العربي (مركز دراسات الوحدة العربية ـ لبنان)، والوحدة (المجلس القومي للثقافة العربية ـ المغرب)، وشؤون عربية (جامعة الدول العربية ـ مصر)، والتعاون (مجلس التعاون لدول الخليج العربية ـ السعودية)، والفكر الاستراتيجي العربي (معهد الإنماء العربي ـ لبنان ـ توقفت عن الصدور في نهاية عام ١٩٩٢)، والباحث العربي (مركز الدراسات العربية ـ لندن)، ومنبر الحوار (دار الكوثر ـ لبنان)، والمجلة العربية للدراسات الدولية (الجمعية العربية للدراسات الدولية ـ واشنطن)، والسياسة الدولية (مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ـ مصر)، والشاهد (شركة الشاهد للنشر ـ قبرص)، والفكر العربي (معهد الإنماء العربي ـ لبنان)، وقراءات سياسية (مركز دراسات الإسلام والعالم ـ الولايات المتحدة الأمريكية)، ومستقبل العالم الإسلامي (مركز دراسات العالم الإسلامي ـ مالطا)، والعربي (وزارة الإعلام ـ الكويت)[٣].

وثالثها، الأوراق البحثية التي قُدمت إلى بعض الندوات وحلقات النقاش العلمية، التي نظمها عدد من المراكز البحثية والجامعات والمؤسسات السياسية في بعض البلاد العربية، وذلك لمناقشة ودراسة موضوع النظام الدولي الجديد[٤].

ورابعهـا، بعض المقالات المنشورة في عدد من الصحف العربية مثل الحياة والأهرام والشرق الأوسط والاتحاد.

ومع التسليم الكامل بتعدد الموضوعات والقضايا التي قد ترد في إطار دراسة واحدة، ومع الاقتناع بوجود درجة من التداخل بين الموضوعات التي تتناولها دراسات مختلفة، إلا أنه وبقدر من التعميم يمكن تصنيف الدراسات العربية في موضوع النظام الدولي الجديد على النحو التالي:

فهناك أولاً، دراسات تناولت التطور التاريخي للنظام الدولي، وناقشت إرهاصات بروز ما يعرف بالنظام الدولي الجديد. بلغة أخرى عالجت هذه الدراسات التطورات الدولية الراهنة في إطار سياق تاريخي مرتبط بنشأة النظام الدولي وتطوره[٥].

وهناك ثانياً: دراسات ركزت على تحليل مقولة النظام الدولي الجديد ونقدها بقصد الكشف عن عناصرها البنائية، ومواطن التحيز فيها، والمحددات القيمية والأيديولوجية التي تقف خلفها[٦].

وهناك ثالثاً، دراسات انصبت على تحليل بنية أو هيكل ما يُعرف بالنظام الدولي الجديد، مع مناقشة موقع الولايات المتحدة الأمريكية، وغيرها من القوى الكبرى الفاعلة والمؤثرة في تشكيل هذا النظام وتحديد توجهاته[٧].

وهناك رابعاً، دراسات رصدت بعض الرؤى والتصورات إزاء ما يعرف بالنظام الدولي الجديد، وقامت بتحليل هذه الرؤى ونقدها. ومن ذلك على سبيل المثال: الرؤى الأمريكية والغربية لهذا النظام، وكذلك رؤى بعض المفكرين الإسلاميين والحركات الإسلامية له. وهناك من طرح رؤى معرفية للبحث في القيم الفلسفية والأسس المعرفية التي يستند إليها ما يعرف بالنظام الدولي الجديد[٨].

وهناك خامساً، دراسات اهتمت برصد انعكاسات المتغيرات الدولية الجديدة أو النظام الدولي الجديد على الوطن العربي ككيان متميز أو على العالم الإسلامي أو إفريقيا أو دول الجنوب (العالم الثالث) بصفة عامة. وفي هذا السياق أيضا فإن هناك دراسات رصدت تأثير تطورات أو متغيرات دولية بعينها على الوطن العربي. ومن هذه التطورات على سبيل المثال: التحولات في الكتلة الاشتراكية (سابقا)، وتفكك الاتحاد السوفييتي، والتطورات في المجموعة الأوربية، والثورة الصناعية الثالثة . . . إلخ[٩].

وهناك سادساً، دراسات ركزت على فهم وتحليل انعكاسات النظام الدولي أو المتغيرات الدولية الجديدة على قضايا عربية أو إسلامية أو عالمثالثية بعينها مثل: التطور الديمقراطي، والنفط العربي، والوحدة العربية، والثقافة العربية، والإعلام العربي، والقومية العربية، وأزمة لوكربي، والأزمة الصومالية، وحركة عدم الانحياز، ومستقبل العالم الثالث، والعلاقات الإسرائيلية الأمريكية . . . إلخ[١٠].

وهناك سابعا، دراسات عالجت قضايا محددة في إطار ما يعرف بالنظام الدولي الجديد مثل: أزمة الخليج الثانية وعلاقتها بالنظام الدولي الجديد وظواهر التفكك والاندماج، والاستقرار وعدم الاستقرار في ظل هذا النظام وموقع استخدام القوة العسكرية في النظام الدولي الجديد، وطبيعة دور الأمم المتحدة والشرعية الدولية فيه. وقضايا الحد من التسلح ومنع انتشار أسلحة الدمار الشامل وقضايا الإرهاب والبيئة، وتسوية الصراع العربي ـ الإسرائيلي ومقولة نهاية التاريخ[١١].

وهناك ثامناً، دراسات حاولت الإجابة على السؤال: كيف يتعامل العرب والمسلمون مع النظام الدولي أو المتغيرات الدولية الجديدة وما تفرضه عليهم من تحديات ومخاطر؟[١٢].

هذا، وقد راعت الدراسة ـ قدر الإمكان ـ اعتبارين أساسيين في اختيار الدراسات والبحوث التي تعكس رؤى الفكر العربي إزاء ما يعرف بالنظام الدولي الجديد. أولهما، الحرص على تمثيل المناطق الجغرافية الرئيسية في

الوطن العربي (وادي النيل، المغرب العربي، المشرق العربي، الخليج والجزيرة العربية). وثانيها، تمثيل التيارات الفكرية الرئيسية في الوطن العربي. وهي تتمثل في: التيارات القومية والإسلامية والليبرالية واليسارية.

ومن الملاحظات الجديرة بالتسجيل أن حجم الاهتمام الفكري والأكاديمي بموضوع النظام الدولي الجديد من قبل المفكرين والباحثين العرب بدأ يتراجع بشكل ملحوظ خلال عام ١٩٩٣، عما كان عليه الحال خلال العامين السابقين له ١٩٩١ و١٩٩٢. ولذلك يُلاحظ أن أغلب البحوث والدراسات التي اعتمدنا عليها قد أنجز خلال هذين العامين. وربما يمكن تفسير هذا الوضع بأسباب ثلاثة:

أولها، لقد سبق القول بأن مقولة النظام الدولي الجديد شاعت وانتشرت أثناء كارثة الخليج الثانية وفي أعقابها. ومن ثم كان من الطبيعي أن يتزايد اهتمام الفكر العربي بهذا الموضوع في زخم الآثار والتداعيات التي ترتبت على كارثة الخليج الثانية من ناحية. وفي زخم تزايد الاهتمام العالمي بإشكالية النظام الدولي الجديد من ناحية ثانية.

وثانيها، أن شيوع المفهوم ارتبط في جانب منه بالإدارة الأمريكية في عهد الرئيس الأمريكي السابق «جورج بوش». فقد حرصت على أن تروج تصوراً معيناً للنظام الدولي الجديد. وهو تصور ربط مقولة النظام الدولي الجديد بمجموعة من القيم والمبادىء الإنسانية والأخلاقية العليا مثل الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان واحترام قواعد القانون الدولي والشرعية الدولية وتجنب العنف في إدارة العلاقات بين الدول، وتسوية المنازعات بالطرق السلمية.. إلخ. وبعد أن خسر «بوش» انتخابات الرئاسة التي جرت في نوفمبر ١٩٩٢، تراجعت قوة الدفع التي كانت تمنحها إدارته لمقولة النظام الدولي الجديد، خاصة وأن إدارة «كلينتون» التي أعقبت إدارة «بوش» لم تولِ هذا الموضوع اهتماماً كبيراً على مستوى الخطاب السياسي والإعلامي مثلما كان الحال في عهد الإدارة السابقة(١٣).

وثالثها، أنه مع مرور الوقت بدأت الفجوة تتسع تدريجيا بين مجموعة القيم والمبادىء السامية التي يستند إليها النظام الدولي الجديد حسبما روجت له إدارة «بوش»، وبين الحقائق والممارسات على أرض الواقع. ففي أعقاب كارثة الخليج الثانية وتفكك الاتحاد السوفيتي شهد العالم ـ ولايزال ـ موجات من التوتر وعدم الاستقرار والحروب والصراعات. ويُلاحظ أن هذه الظواهر تتركز في الجنوب، وفي منطقة البلقان، وكذلك في ورثة الاتحاد السوفيتي وبعض بلدان أوروبا الشرقية. ومن هنا بدأ يتراجع مفهوم النظام الدولي الجديد، بل بدأ البعض يتحدث عن «اللانظام الدولي الجديد» أو «الفوضى الدولية الجديدة»(١٤).

وتعتمد الدراسة على عدد من الأساليب المنهجية لرصد وتحليل رؤى الفكر العربي إزاء مقولة النظام الدولي الجديد، أهمها ما يلي:ـ

١ ـ أسلوب تحليل المضمون الكيفي لعدد من البحوث والدراسات والمقالات المرتبطة بموضوع الدراسة. ويركز هذا الأسلوب على رصد الملامح والاتجاهات العامة لرؤى الفكر العربي وتصوراته إزاء النظام الدولي الجديد، دون أن ينخرط في الأساليب والتعقيدات الخاصة بتحليل المضمون الكمي.

٢ ـ الأسلوب المقارن. حيث تقارن الدراسة كلما أمكن بين رؤى وتصورات التيارات الفكرية المختلفة إزاء القضية الرئيسية والقضايا الفرعية التي يعالجها البحث.

٣ - مقاربة الفكر بالواقع. وذلك لمعرفة إلى أي مدى يستند الفكر العربي في مواقفه حيال ما يُعرف بالنظام الدولي الجديد إلى حقائق وتطورات واقعية. فإذا كانت هناك تيارات في الفكر العربي ترفض مقولة النظام الدولي الجديد أو تتحفظ بشأنها، فهل هذا رفض لمجرد الرفض أو تحفظ لمجرد إثبات الموقف، أم أن مبررات واقعية تدعم من حجية هذا الموقف أو ذاك؟.

ثانياً: الجدل حول مفهوم النظام الدولي الجديد: هل هناك نظام دولي جديد؟

قد يكون من المفيد قبل التطرق إلى رصد وتحليل الجدل الفكري والأكاديمي حول مفهوم «النظام الدولي الجديد» إلقاء الضوء على الجذور التاريخية لهذا المفهوم. فعلى الرغم من شيوع استخدام مفهوم «النظام الدولي الجديد» أثناء كارثة الخليج الثانية وفي أعقابها على نحو ما سبق ذكره، إلا أن هذا لايعني أن المفهوم جديد تماماً أو هو نتاج مباشر للكارثة، بل الجديد في الأمر كان الاستخدام الأمريكي لهذا المفهوم وتحديد دلالاته وصياغة معانيه. ومرد ذلك أنه يمكن تتبع جذور هذا المفهوم منذ مطلع السبعينيات من هذا القرن على الأقل، حين بدأت حركة عدم الانحياز تطالب بقيام نظام اقتصادي عالمي جديد يحقق قدراً من العدالة في توزيع الموارد والثروات بين دول الشمال المتقدم ودول الجنوب المتخلف، ويحد من مظاهر استغلال ثروات دول الجنوب لحساب الشمال، ويسمح بتوظيف موارد هذه الدول من أجل تنميتها وتدعيم قدرتها في الاعتماد الفردي والجماعي على الذات(١٥). وبعد ذلك بدأت بلدان الجنوب تطرح مطلب إقامة «نظام إعلامي عالمي جديد» يحد من ظاهرة احتكار الدول الغربية لمصادر المعلومات ولوسائل الاتصال، ويحقق درجة أكبر من الديمقراطية والتوازن في تدفق المعلومات بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة(١٦).

هذا وقد تزايد استخدام مفهوم «النظام الدولي الجديد» منذ أن تولى جورباتشوف السلطة في الاتحاد السوفيتي (السابق) في عام ١٩٨٥، وتبنيه للبيريسترويكا (إعادة البناء) والجلاسنوست (المصارحة والمكاشفة). وقد استندت البيريسترويكا إلى رؤية معينة للنظام الدولي والعلاقات الدولية مفادها: المطالبة بإقامة تأسيس نظام دولي جديد يقوم على القيم الإنسانية العامة وليس على المواجهات والصراعات الأيديولوجية. وإعطاء الأولوية للتحديات المشتركة التي تواجه البشرية مثل مشكلات البيئة والتلوث وغيرها، وذلك بقصد الحفاظ على الجنس البشري وسلامة البيئة. وتدعيم مجالات الحوار والتعاون الدولي والاعتماد المتبادل بين الدول والمنظمات الدولية وذلك لبناء مجتمع دولي أفضل. وتجنب استخدام القوة لفض المنازعات بين الدول. وإحلال مبدأ توازن المصالح محل توازن القوى. ووقف سباق التسلح على المستوى العالمي. وقبول مبدأ التعدد والاختلاف في الأنظمة السياسية والاجتماعية واحترام حق كل شعب في اختيار الطريق الذي يلائمه(١٧).

وقد كان لتطبيق الجلاسنوست والبيريسترويكا دور هام في تحريك التحولات الكبرى التي جرت في الاتحاد السوفيتي السابق وبقية بلدان أوربا الشرقية - داخلياً وخارجياً - خلال النصف الثاني من الثمانينيات. وقد كان لهذه التحولات التي انتهت بانهيار الاتحاد السوفيتي وتفككه تأثيراتها وانعكاساتها المدوية على الصعيد العالمي.

وتأسيساً على ما سبق، يتضح أن مفهوم «النظام الدولي الجديد» قد ظهر إلى حيز الوجود في إطار مطالبة دول الجنوب بتصحيح الاختلالات والتفاوتات بين الشمال والجنوب على الصعيدين الاقتصادي والإعلامي. كما برز المفهوم أيضاً في إطار حركة الإصلاح والتغيير التي شهدها الاتحاد السوفيتي (السابق) منذ وصول جورباتشوف إلى

الحكم. ولذلك فإن الجديد الذي حدث مع بداية أزمة الخليج الثانية هو تبني الولايات المتحدة الأمريكية للمفهوم وإعطائه معان ودلالات تتضمن قيماً ومبادئ سامية من ناحية، وشيوعه على نطاق واسع من ناحية ثانية. وهكذا بعد أن كانت دول الجنوب هي التي تطالب بنظام دولي جديد، أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية هي التي تسعى لإرساء أسس هذا النظام وقواعده. وقد حددها الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش في خطاب ألقاه في قاعدة مونتغمري الجوية في ألاباما في ١٣/ ٤/ ١٩٩٢، حيث جاء في هذا الخطاب «إن النظام العالمي الجديد لايعني تنازلاً عن سيادتنا الوطنية أو تخلياً عن مصالحنا. إنه ينم عن مسئولية أملتها علينا نجاحاتنا. وهو يعبر عن وسائل جديدة للعمل مع الأمم الأخرى من أجل ردع العدوان وتحقيق الاستقرار والازدهار، وفوق كل شيء تحقيق السلام. إنه ينبع من التطلع إلى عالم يقوم على التزام مشترك بين الأمم، كبارها وصغارها، بمجموعة من المبادئ التي يجب أن تستند عليها علاقاتنا، ومنها: التسوية السلمية للمنازعات، والتضامن في وجه العدوان، وتخفيف ترسانات الأسلحة ومراقبتها، والتعامل العادل مع كل الشعوب... هذا النظام الذي يتسم بالقدرة على العمل المشترك اجتاز الامتحان الحقيقي في حرب الخليج».

وعلى الرغم من أن هذه المعاني مثلت ـ بعد انتهاء كارثة الخليج الثانية ـ أحد ملامح الخطاب الرسمي الأمريكي المتعلق بالنظام الدولي الجديد، إلا أن التساؤل الجوهري الذي يطرح نفسه هو: إلى أي مدى تم ترجمة هذه المبادئ والشعارات إلى سياسات وممارسات عملية في حركة الولايات المتحدة الأمريكية على المستوى الدولي؟. وإلى أي مدى يلتقي التصور الأمريكي للنظام الدولي الجديد ـ على مستوى الفكر والممارسة ـ مع طموحات وآمال بلدان الجنوب التي ضمنتها في الدعوة إلى «نظام اقتصادي عالمي جديد» و «نظام» إعلامي عالمي جديد»؟.

وجدير بالذكر أن اهتمام الفكر العربي بالتطورات والتحولات الدولية سابق على كارثة الخليج الثانية. حيث ظهرت خلال حقبة الثمانينيات مجموعة من الكتابات العربية عالجت بعض متغيرات النظام الدولي، وسعى بعضها إلى استشراف مستقبل هذا النظام[١٨]. ولكن كارثة الخليج وما ترتب عليها من آثار وتداعيات أدت إلى تزايد اهتمام الباحثين والمفكرين العرب بإشكالية النظام الدولي من الناحية الكمية والكيفية.

ويستخدم المفكرون والباحثون العرب مجموعة من المفاهيم والمقولات لتوصيف التحولات والتغيرات التي تجري على الساحة الدولية، منها على سبيل المثال: النظام العالمي الجديد والنظام (نظام) دولي جديد، والوضع الدولي الجديد، والتحولات الدولية الجديدة، والمتغيرات الدولية الجديدة، وعالم متغير، وتغير العالم، وبيئة دولية متغيرة، ومرحلة ما بعد الحرب الباردة، ومرحلة ما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، والعولمة، وتحديات نهاية القرن، وترتيبات دولية جديدة، وعصر عالمي جديد، وظواهر عالمية جديدة.

وتدل كافة المفاهيم والتعبيرات السابقة على أن هناك اتفاقاً بين الباحثين والمفكرين العرب بشأن وجود تغيرات وتحولات كبرى تجرى على الصعيد الدولي، تجم ـ وينجم ـ عنها بروز مجموعة من الظواهر والتحديات العالمية الجديدة، إلا أن الاختلاف بينهم يكمن في تكييف طبيعة هذه التحولات، وعما إذا كانت تشكل في الوقت الراهن نظاماً دولياً جديداً أم لا؟. ولعل تفضيل بعض الباحثين العرب استخدام تعبيرات من قبيل: بيئة دولية متغيرة، وعالم متغير، وتحولات دولية جديدة...، إنما يدل على تحفظه بشأن استخدام

مفهومي «النظام العالمي الجديد» و«النظام الدولي الجديد» باعتبار أن كلاهما لا يزال موضع شد وجذب ولم يستقر بعد.

وهناك ثلاثة اتجاهات بخصوص الإجابة على التساؤل: هل هناك نظام دولي جديد في الوقت الراهن؟ أولها، يقول بوجود نظام دولي جديد. وثانيها، ينفي وجود ما يعرف بالنظام الدولي الجديد. وثالثها، يرى أنه من السابق لأوانه الحديث عن نظام دولي جديد في الوقت الراهن. وأن هذا النظام لايزال تحت التكوين أو قيد التشكل والتبلور، ومن ثم لم يستقر معالمه بصورة نهائية بعد.

وتعرض الدراسة لكل من الاتجاهات السابقة بشيء من التفصيل.

الاتجاه الأول: الإقرار بوجود نظام دولي جديد

قبل التطرق إلى رصد وتحليل المعطيات التي يستند إليها أنصار هذا الاتجاه، هناك مسألتان منهجيتان جديرتان بالانتباه. أولاهما، التمييز بين مفهومي «النظام الدولي الجديد» و«النظام العالمي الجديد» فكثير من الكتابات العربية يخلط بين هذين المفهومين ويستخدمهما كمترادفين. وثانيتهما، أن التسليم بوجود نظام دولي جديد من قبل بعض المفكرين والباحثين العرب لا يعني الاتفاق بينهم بشأن تكييف هذا النظام من حيث طبيعته وأهدافه ومقاصده وآفاقه.

وفيما يتعلق بالتمييز بين مفهومي «النظام الدولي» و«النظام العالمي» يؤكد البعض أن الأول يقوم على أساس العلاقات والتفاعلات وأنماط توزيع مصادر القوة والنفوذ بين الدول القومية التي يتكون منها النظام، فالدولة القومية هي وحدة العلاقات والتفاعلات في النظام الدولي. أما النظام العالمي، فهو أكثر شمولا من ذلك، حيث يضم إلى جانب الدولة القومية فاعلين آخرين مثل الشركات الدولية النشاط. والمنظمات الدولية غير الحكومية، والحركات أو الظواهر العابرة للقومية، وكل ما هو خارج عن سيطرة الدولة وله تأثير خارج حدودها، وبهذا المعنى يعتبر النظام الدولي جزءا من النظام العالمي. ولعل شيوع استخدام مفهوم «النظام العالمي الجديد» إنما يشير إلى زيادة العوامل والمتغيرات والظواهر التي تتخطى حدود القومية في الوقت الراهن [١٩]. وعموما فإن أغلب الكتابات العربية لم تميز بشكل حاسم بين المفهومين، بل جرى العمل على استخدامهما كمترادفين في كثير من الحالات، وهو الأمر الذي جعل من الصعوبة بمكان التمييز بشكل واضح بين الكتابات العربية الخاصة بالنظام الدولي الجديد، خاصة وأن الأول يشكل جزءا من الثاني.

ويحدد أنصار هذا الاتجاه أهم خصائص النظام الدولي الجديد في: انتهاء الحرب الباردة. وزوال الاتحاد السوفيتي. وبروز دور الولايات المتحدة الأمريكية كقوة عظمى وحيدة في عالم ما بعد انتهاء الحرب الباردة. وتدعيم دور الأمم المتحدة باعتبارها تجسد الشرعية الدولية. وتنامي مجموعة من المشكلات والتحديات الدولية الجديدة التي تتطلب تعاونا دوليا من أجل مواجهتها. منها وعلى سبيل المثال: مشكلات تلوث البيئة والإرهاب والمخدرات والأمراض العابرة للحدود. وتراجع مكانة القوة العسكرية في إدارة العلاقات الدولية. وتزايدمكانة القضايا الاقتصادية على أجندة الاهتمامات الدولية. واتساع نطاق التحول الديمقراطي على الصعيد العالمي. وتزايد حدة الاستقطاب بين الشمال والجنوب [٢٠].

وهناك وجهتا نظر بين الباحثين والمفكرين العرب بخصوص تكييف طبيعة النظام الدولي الجديد. تركز وجهة النظر الأولى، على بعض الجوانب والخصائص الإيجابية للنظام الدولي الجديد. يقول الدكتور محمد الرميحي «يتخلق اليوم نظام عالمي جديد له قواعد ونظم ومؤسسات وأهداف. ويصر العرب على التخلف عن هذا النظام... هذا النظام الجديد له قوانين مازال بعضنا يرفضها بعنف... وعشية حرب تحرير الكويت وما بعدها نجد أن مجموعة من المفاهيم قد ولدت من بينها سقوط الأيديولوجية بأشكالها المختلفة وخاصة الشمولية واندحارها وبزوغ النظام العالمي الجديد والاعتراف بالتعددية وعصر حقوق الإنسان وانتصار الليبرالية والديمقراطية على الشمولية والقطعية وصعود مفاهيم العلم والتقنية والاتصال»[21].

ويلاحظ أن وجهة النظر هذه برزت في إطار الزخم السياسي والإعلامي الذي ارتبط بحرب تحرير الكويت. وكانت أكثر تمشيا مع الطرح الأمريكي الرسمي لمفهوم النظام الدولي الجديد. وقد بدأت وجهة النظر هذه تتراجع أمام تزايد المشكلات والتحديات التي واجهت الطرح المثالي لمقولة النظام الدولي الجديد وشككت في مصداقيته[22].

أما وجهة النظر الثانية، فتقر بوجود نظام دولي جديد. إلا أن أنصارها ينتقدون المبادىء والأسس التي يستند إليها هذا النظام. فهو نظام دولي جديد ليس لأن مختلف دول العالم شاركت في صياغته بإرادتها الحرة، أو لأنه يأخذ مصالحها بعين الاعتبار، ولكن نظرا لأن قلة من الدول الغربية المسيطرة. صاحبة المصالح الدولية أو الكونية، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية هي التي صاغت هذا النظام وتسعى لفرضه على دول العالم الأخرى. وهناك من يؤكد على أن الولايات المتحدة الأمريكية قد صممت النظام الدولي الجديد قياسا على مصالحها وأهدافها، وطرحته كشعار ضخم لخدمة سياستها في مناطق العالم المختلفة، خاصة بعد أن احتلت مكانة القوة العظمى الوحيدة بعد الانتصار الضخم الذي تحقق في حرب الخليج الثانية من ناحية، وانهيار الاتحاد السوفيتي من ناحية ثانية، كما يؤكد أنصار وجهة النظر هذه على أن النظام الدولي الجديد الذي تم الترويج له أثناء كارثة الخليج الثانية وفي أعقابها هو نظام استعماري، إمبريالي عدواني يسعى إلى إحكام عملية استغلال دول الجنوب واستبعادها وفرض الهيمنة والسيطرة عليها. وهو ما يغطي توجهاته الحقيقية تحت شعارات الشرعية الدولية وحقوق الإنسان والأهداف الإنسانية. وهناك من يؤكد على أن النظام الدولي الجديد يعادي الإسلام والمسلمين، ويتحكم إلى غطرسة القوة، وأن الهدف منه هو وأد مطالب شعوب دول الجنوب بإقامة نظام دولي جديد حقيقي يأخذ مصالحها وأهدافها بعين الاعتبار، ويضمن تحقيق العدالة والاستقرار والتوازن في العلاقات بين الدول.

وتجد وجهة النظر هذه أنصارا كثيرين لها بين المفكرين والباحثين الإسلاميين والقوميين واليساريين[23].

وعموماً، فإن وجهة النظر الثانية هي التي أصبحت أكثر رواجاً، خاصة بعد أن بدأت الفجوة تتسع تدريجيا بين القيم والمبادىء والشعارات التي طرحها مروجو النظام الدولي الجديد ودعاته من ناحية، وبين الممارسات والحقائق على أرض الواقع من ناحية أخرى.

الاتجاه الثاني: رفض مقولة النظام الدولي الجديد

ويضم هذا الاتجاه رافدين. أولهما، يقول بعدم وجود نظام دولي جديد، استناداً إلى حالة الفوضى وعدم الاستقرار والصراعات التي انتابت العالم في أعقاب انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتي، وهي لاتزال

مستمرة ويصعب معها الحديث عن نظام دولي بالمعنى المتعارف عليه لمفهوم النظام الدولي. فإذا كانت جملة التحولات الدولية الكبرى التي شهدها العالم منذ منتصف الثمانينيات قد قادت إلى انهيار النظام الدولي القديم أو بعض أركانه، فإن النظام الدولي الجديد لم يولد بعد. وأن ما يحدث في العالم الآن هو أقرب إلى حالة من «الفوضى الدولية الجديدة» أو «اللانظام الدولي الجديد» الذي سوف يلازم البشرية لبعض الوقت حتى يتم التوصل إلى ترتيبات دولية جديدة وترسيخها في صيغة نظام دولي جديد [٢٤].

أما الرافد الثاني، فينظر إلى ما يعرف بالنظام الدولي الجديد على أنه نوع من الخديعة والوهم. فعلى الرغم من وجود متغيرات دولية جديدة، إلا أن ما يعرف بالنظام الدولي الجديد ليس جديداً في مضمونه أو أهدافه [٢٥]. يقول أحد الباحثين: «أكدنا علاقة التماثل والاستمرارية بين النظام الدولي الإمبريالي القديم والنظام الدولي الإمبريالي الجديد.. ورغم أنه (أي النظام الجديد) يشكل استمراراً للقديم، إلا أنه استمرار في عصر جديد له متطلبات جديدة» [٢٦].

ويقول باحث آخر: «إن تعبير النظام الدولي الجديد هو وهم آخر مفتعل. فالتعبير في حقيقته يطابق حالة سيطرة حلف آحادي أوروبي أمريكي على مجريات اتخاذ القرار بشكل انتقائي وتطبيقه بشكل انتقائي في الهيئة الدولية، وذلك عوضاً عن السيرة متعددة الأطراف... هذا النظام الدولي لا يختلف عن النظم السابقة من حيث آلية اتخاذ القرار وإنما يختلف بعدم وجود تلك التعددية ذات المفارقات المتباينة بحكم وجود الاتحاد السوفيتي.. فهو ليس جديداً من ناحية النظام أو آلية القرار، وليس جديداً من ناحية هيمنة الكبار. فالكبار كانوا يهيمنون بمن فيهم الاتحاد السوفيتي. إنه جديد فقط من ناحية الهيمنة الآحادية (الحلف الأوروبي/الأمريكي) وهي هيمنة تحمل بذور فنائها من داخلها» [٢٧]. ويضيف باحث ثالث، إن هذا النظام الدولي الجديد ليس إلا تقنيناً للأوضاع الدولية الموروثة عن الحرب العالمية الثانية مطروحاً منها شيئين هامين هما: الثورات الوطنية وحركات التحرر في العالم الثالث. غياب دور الاتحاد السوفيتي كطرف مؤثر في الصراع [٢٨].

وفي إطار هذا الاتجاه هناك من يرفض مقولة النظام الدولي الجديد ليس استناداً إلى حالة الفوضى واللانظام التي تسود العالم في مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة، وليس انطلاقاً من النظر إلى النظام الدولي الجديد باعتباره نوعاً من الوهم والخديعة، ولكن اقتناعاً بعدم وجود نظام عالمي جديد وآخر قديم، فحقيقة الأمر تكمن في «ذلك التحول الذي يطرأ على الخريطة السياسية للعالم في فترة معينة ليترجم على الواقع طبيعة التغير الذي حدث في مراكز القوى واستتبع بالضرورة إعادة ترتيب الأوضاع الدولية وفقاً لذلك» [٢٩]. وأشار كاتب آخر إلى أن «ما ظهر بعد انتهاء الحرب الباردة لم يكن نظاماً عالمياً جديداً، وإنما كان أقرب إلى ترتيبات جديدة يستحدثها نظام عالمي قديم يعيد بها تأكيد دوره في ظروف متغيرة» [٣٠].

الاتجاه الثالث: النظام الدولي الجديد لايزال قيد التشكيل

يؤكد أنصار هذا الاتجاه على أنه من السابق لأوانه الحديث عن نظام دولي جديد بالمعنى العلمي في الوقت الراهن. فهذا النظام لا يزال تحت التكوين، حيث لم تستقر معالمه بصورة واضحة بعد. وسوف يكون هذا النظام من حيث شكله وطبيعته محصلة لجملة التحولات والتغيرات الدولية الكبرى التي شهدها العالم منذ مطلع الثمانينيات من هذا القرن.

ويصف أنصار هذا الاتجاه المرحلة الراهنة من تطور النظام الدولي بأنها مرحلة انتقالية تشهد اندثار بعض أسس وقواعد النظام الدولي القديم الذي تبلور في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية من ناحية، وبزوغ أسس وقواعد النظام الدولي الجديد من ناحية ثانية. وأن هذه المرحلة الانتقالية قد تستغرق بقية سنوات القرن العشرين، وربما بعض سنوات القرن الحادي والعشرين. ولذلك يفضل أنصار هذا الاتجاه استخدام تعبيرات من قبيل: نظام دولي متغير، وبيئة دولية متغيرة، وترتيبات دولية جديدة، وضع عالمي جديد، عالم متغير، والنظام العالمي المراوغ... إلخ، (٣١).

وتتسم المرحلة الانتقالية التي يمر بها النظام الدولي في الوقت الراهن بحالة من السيولة الدولية، ومايكتنفها من غموض واضطراب ومظاهر لعدم الاستقرار. فهناك أولاً، السيولة الفكرية التي نجمت عن انهيار الأنظمة الاشتراكية في أوروبا الشرقية، وما ترتب على ذلك من قضايا وتساؤلات حول إشكالية هزيمة الاشتراكية والشيوعية وانتصار الليبرالية والرأسمالية. وهناك ثانيا، حالة السيولة العرقية التي تشهدها مناطق عديدة من العالم وقد كانت إحدى النتائج التي ارتبطت بالتحولات الدولية الجديدة، وبخاصة في الاتحاد السوفيتي (السابق) وبقية بلدان أوروبا الشرقية. وهناك ثالثاً، حالة السيولة المرتبطة بآلام التفكك والاندماج في العالم المعاصر من ناحية، وبروز أنماط جديدة من الصراعات في الشرق والجنوب في ظل التغيرات الدولية الجديدة من ناحية ثانية (٣٢).

ولذلك، يركز أنصار هذا الاتجاه في الغالب على رصد المتغيرات الدولية الجديدة التي تمثل الأساس لقيام نظام دولي جديد وتحليلها ومحاولة استشراف تطوراتها المستقبلية، ويتحفظ بعضهم كثيراً بخصوص إطلاق مقولة النظام الدولي الجديد على عواهنها.

وينطلق أغلب أنصار هذا الاتجاه من نظرة واقعية إلى عمق التحولات التي حدثت ـ وتحدث ـ على الصعيد الدولي. وهي تحولات ألقت ـ وستلقي ـ بتأثيراتها على العرب شاءوا أم أبوا، ومن ثم يتعين عليهم التعامل معها. وهي كما تفرض تحديات ومخاطر على العرب، فإن بعضها يتضمن فرصاً بالنسبة لهم ولو في حدود معينة. ومن هنا يركز أنصار هذا الاتجاه على أهمية الفهم الواعي للتحولات الدولية الجارية مع العمل على بلورة تصورات واستراتيجيات عربية واقعية وفعالة للتعامل معها من منطلق درء المخاطر وتقليص القيود من ناحية، وتعظيم الفرص التي يمكن أن تتيحها هذه التحولات للعرب من ناحية ثانية.

وتأسيساً على ما سبق يمكن بلورة عدداً من الملاحظات العامة:

أولاها، أن الفكر العربي يعاني من الحيرة والاضطراب في فهم المتغيرات الدولية الجارية وتحليلها وطرح تصورات لكيفية التعامل معها. وللإنصاف فإن هذه السمة ليست حكراً على الفكر العربي أو لصيقة به، بل ويعاني منها الفكر الغربي، الأوربي والأمريكي، أيضاً. وكما أن هناك رؤى وتصورات عربية متعددة ومتضاربة بشأن ما يعرف بالنظام الدولي الجديد، فإن هناك أيضاً رؤى غربية متعددة ومتضاربة بشأنه (٣٣). ولعل ذلك يرجع إلى عدة عوامل من بينها: عمق التحولات الدولية وسرعة حدوثها وتداخلها. وهو الأمر الذي جعل بعض الباحثين أسرى للأحداث المتحركة، والتفاعلات الآنية غير المستقرة.

وثانيتها، على الرغم من تعدد اتجاهات الفكر العربي بخصوص مقولة النظام الدولي الجديد على نحو ماسبق ذكره، إلا أن هناك اتفاقاً عاماً بين الباحثين والمفكرين العرب على وجود متغيرات وتحولات دولية جديدة، جعلت العالم يبتعد تدريجيا عن النظام الدولي السابق الذي تبلور في أعقاب الحرب العالمية الثانية. بل ان هذا النظام الذي استند إلى القطبية الثنائية قد انهار مع انهيار الاتحاد السوفيتي، وبذلك دخل العالم مرحلة جديدة، وهي التي يختلف المفكرون العرب حول توصيفها وتحديد ملامحها.

وثالثها، أن الاتجاه الغالب في الفكر العربي يقوم على رفض مقولة النظام الدولي الجديد أو التحفظ بشأنها، وذلك من منطلقات مختلفة. فهناك من يرى أن النظام الجديد ما هو إلا استمراراً للنظام القديم ولكن في ظل ظروف دولية جديدة. وهناك من يقول بأن النظام الدولي الجديد يعادي العرب والمسلمين، بل وبلدان الجنوب عامة. وهناك أخيراً من يرى أنه من الصعوبة بمكان الحديث عن نظام دولي جديد في الوقت الراهن، فهو نظام لا يزال تحت التكوين. وعموما، فإن هذا الطرح الأخير يلقى قبولاً من قبل قطاع يعتد به من الباحثين والمفكرين العرب.

ثالثاً: مصادر التغيير في النظام الدولي: عوامل التحول إلى نظام دولي جديد

لقد اهتم الفكر العربي برصد وتحليل المتغيرات والتحولات الدولية الكبرى التي مثلت مقدمات لتداعي النظام الدولي القديم، كما تمثل إرهاصات لبروز النظام الدولي الجديد، الذي لايزال قيد التشكيل والتبلور. وسوف تركز الدراسة على سبعة متغيرات وتحولات كبرى هي: الثورة الصناعية الثالثة. والتحولات في الاتحاد السوفيتي السابق وبقية بلدان أوربا الشرقية منذ عام ١٩٨٥. وانهيار الاتحاد السوفيتي وتفككه. والاتجاه نحو إقامة التكتلات الاقتصادية الكبرى على الصعيد العالمي. وتفاقم الأزمات في دول الجنوب. وزيادة حدة المشكلات ذات الطابع العالمي. وكارثة الخليج الثانية. ونظراً لأن كارثة الخليج الثانية مثلت منعطفاً هاماً في تطور النظام الدولي، فسوف تفرد لها الدراسة جزءاً خاصاً.

وقبل رصد وتحليل رؤى الفكر العربي وتصوراته لكل من المتغيرات الدولية السابقة بشيء من التفصيل، هناك مجموعة من الملاحظات المنهاجية التي يطرحها بعض الباحثين والمفكرين العرب للتعامل مع هذه المتغيرات [٣٤].

أولى هذه الملاحظات، أن التغيير في النظام الدولي لا يحدث فجأة أو بلا مقدمات. بل أن التحول الذي يبدو على السطح فجائياً عادة ما يكون محصلة لسلسلة من التركمات والتغيرات الجزئية التي حدثت عبر فترة زمنية طويلة نسبياً. وعلى سبيل المثال، فإنه يمكن تتبع جذور التحولات في الاتحاد السوفيتي السابق وبقية بلدان أوربا الشرقية منذ منتصف الستينيات على الأقل. كما أن الثورة الصناعية الثالثة ولدت في رحم الثورة الصناعية الثانية... إلخ. ومن هنا تبدو أهمية النظرة المتعمقة في التحولات الدولية الجديدة بقصد الكشف عن جذورها، والعوامل المحركة لها، وآفاقها المستقبلية.

وثانيتها، أن المتغيرات أو التحولات الدولية الجديدة تشير إلى ظواهر معقدة ومتداخلة، لها أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والقانونية. ومن هنا تبدو أهمية تناول هذه المتغيرات وتحليلها من منظور شامل يراعي حقيقة التداخل والترابط والتأثيرات المتبادلة فيما بينها من ناحية، وديناميات كل منها وخصوصياتها من ناحية ثانية.

وثالثها، أن بعض الظواهر والمتغيرات الدولية لم تستقر بصورة نهائية بعد، فهي لاتزال متحركة وتؤتي تأثيراتها وتفاعلاتها في سياق العملية التاريخية الكبرى التي تجرى في الوقت الراهن والتي تشهد انهيار النظام الدولي القديم وبروز نظام دولي جديد. ولذلك يجب التحوط بشأن إطلاق أحكام عامة على هذه الظواهر.

١ـ الثورة الصناعية الثالثة وانعكاساتها على النظام الدولي (٣٥)

لاشك في أن كافة المتغيرات والتحولات الدولية الكبرى التي تجرى في الوقت الراهن، والتي تمهد الطريق لبروز نظام دولي جديد تتم في إطار ثورة صناعية ثالثة، تعتبر من المدخلات الهامة لتحديد طبيعة هيكل أو بنية النظام الدولي الجديد. وتتمثل بعض مظاهر هذه الثورة في: التقدم التكنولوجي الهائل في مجالات الاتصالات والفضاء والمعلومات والحاسب الآلي بأجياله المختلفة والإلكترونيات الدقيقة والهندسة الوراثية. . . إلخ.

وتستند هذه الثورة إلى إنتاج العقل البشري المتدفق واللانهائي من الأفكار والمعرفة المكثفة، ولذلك فإن الاستثمار في أنشطة البحث والتطوير يعتبر من دعائمها الأساسية. وتأتي كل من اليابان والولايات المتحدة الأمريكية على قمة الدول الممسكة بزمام تلك الثورة، ويليها في هذا المضمار بعض دول أوروبا الغربية، وإلى حد ما بعض الدول الصناعية الجديدة في شرق آسيا.

ولاشك في أن هذه الثورة ـ بإنجازاتها ـ يمكن أن تؤدي إلى إعادة تعريف عناصر قوة الدولة، فضلا عن إعادة تعريف بعض المفاهيم الرئيسية مثل: السيادة والأمن والحدود الدولية . . . إلخ. كما أنها سوف تعيد تشكيل بعض التوازنات الدولية القائمة، لما قد يترتب عليها من آثار متداخلة. وعلى سبيل المثال، فإنه في إطار الثورة الصناعية الثالثة هناك إمكانات لتخليق واستحداث مواد جديدة تحل محل المواد الخام الطبيعية التي تستخدم في الصناعة، واستحداث محاصيل جديدة، وبدائل جديدة للطاقة، وكل ذلك يمكن أن يؤثر في القيمة الاستراتيجية لبعض الموارد الطبيعية التي تمتلكها بعض بلدان الجنوب. وهو الأمر الذي لابد وأن ينعكس في بعض جوانب العلاقات بين الشمال والجنوب. كما أنه قد ينجم عن هذه الثورة تدعيم سيطرة الدول الرأسمالية الغربية واليابان على النظام العالمي، باعتبارها الدول القائدة في هذه المجالات. هذا بالإضافة إلى احتمالات فتح آفاق جديدة للتعاون أو مجالات للتنافس بين تلك الدول.

ولما كانت الثورة الهائلة في مجالات الاتصالات والمعلومات تمثل بعداً هاماً في سياق الثورة الصناعية الثالثة، فإنه بدون شك سوف يكون لهذه الثورة تأثيراتها على صعيد نشر القيم والأفكار، وعدوى الأحداث والتطورات من مكان إلى آخر في مختلف أرجاء المعمورة، وبذلك تستطيع الدول التي تمسك بزمام هذه الثورة أن تنشر قيمها وأطرها الفكرية وتسبغ عليها طابعا عالميا، وهذا الأمر يثير العديد من التساؤلات حول الخصوصيات الثقافية والحضارية للشعوب ذات الهويات غير الغربية.

وبإيجاز، فإن الثورة الصناعية الثالثة سوف تؤدي إلى اتساع الهوة بين الشمال والجنوب، من ثم المساهمة في زيادة تهميش دول الجنوب، وبخاصة في ضوء عجز هذه الدول عن استيعاب تلك الثورة أو ملاحقتها أو التكيف مع مخرجاتها وتداعياتها. كما أنها قد تساهم في إعادة صياغة العلاقات بين الدول الرأسمالية الكبرى على أسس جديدة من التعاون والتنافس، وأكثر من هذا فإن هذه الثورة ستعيد تشكيل خريطة

العلاقات السياسية والاجتماعية داخل بعض الدول، ومن هذا المنطلق فسر البعض الأحداث الشهيرة التي شهدتها لوس أنجلوس ومدن أمريكية أخرى في نهاية إبريل ومطلع مايو ١٩٩٢، بزيادة معاناة السود من جراء الأزمة الاقتصادية التي يعاني منها الاقتصاد الأمريكي، وذلك نظراً لانعدام أو ضعف قدرة نسبة كبيرة منهم على الانخراط في الأنشطة الاقتصادية المرتبطة بالثورة الصناعية الثالثة لما تتطلبه من مهارات وقدرات عالية لاتتوافر لديهم.

٢ـ التحولات في الاتحاد السوفيتي (السابق) وبقية بلدان أوربا الشرقية

لا يتسع المجال للدخول في تفصيلات عن جذور هذه التحولات وديناميا‌تها. فهي وإن كانت قد بدأت بصورة متسارعة مع تولي «جورباتشوف» السلطة في الاتحاد السوفيتي (السابق) عام ١٩٨٥، إلا أنه يمكن تتبع جذورها في فترات تاريخية سابقة عن ذلك. وقد مثلت سياستا «البيريسترويكا» و«الجلاسنوست» اللتين طرحهما «جورباتشوف» قوة الدفع للتحولات في بقية بلدان أوربا الشرقية على المستويين الداخلي والخارجي[٣٦].

وجدير بالذكر أن تبني جورباتشوف للبيريسترويكا قد جاء كمحاولة لمواجهة الأزمة البنائية التي بدأ الاتحاد السوفيتي (السابق) يواجهها منذ منتصف السبعينيات على الأقل. وهي أزمة شاملة ذات أبعاد سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية. وجسدت هذه الأزمة ضعف قدرة النظام الاشتراكي على التكيف مع المتغيرات المستجدة على الصعيدين الداخلي والخارجي. وقد عرض «جورباتشوف» في مؤلفه الشهير «البيريسترويكا» لبعض مظاهر هذه الأزمة بصورة تفصيلية. ونظراً لطبيعة الارتباط التاريخي والسياسي والأيديولوجي بين الاتحاد السوفيتي السابق وبقية بلدان أوربا الشرقية من ناحية، ونظرا لأن مظاهر الأزمة في بلدان أوربا الشرقية كانت قريبة من تلك التي كانت قائمة في الاتحاد السوفيتي عشية تولي جورباتشوف السلطة، فإن تطبيق البيريسترويكا في الاتحاد السوفيتي قد ساهم في تسريع التحولات السياسية والاقتصادية في بقية بلدان أوربا الشرقية.

وقد ترتب على التحولات السياسية والاقتصادية والثقافية التي جرت في الاتحاد السوفيتي وبقية دول أوربا الشرقية منذ منتصف الثمانينيات انهيار الأنظمة الشيوعية في هذه الدول ـ وهي أنظمة كانت تتمحور حول الحزب الواحد والأيديولوجية المغلقة والدور المركزي للدولة ـ واتجاهها إلى تبني أشكالاً من التعددية السياسية والاقتصاد الحر. وبذلك دخلت الأنظمة الشيوعية في هذه الدول حيز التاريخ. كما ترتب على هذه التحولات تحلل الهياكل التنظيمية للكتلة الاشتراكية سابقاً، وهي الكوميكون وحلف وارسو. وعلى الصعيد الخارجي اتجهت هذه البلدان إلى الاندماج في النظام الرأسمالي العالمي والسعي إلى الاشتراك في المؤسسات الاقتصادية والمالية الدولية[٣٧].

كما أدت التحولات في الاتحاد السوفيتي السابق وبقية بلدان أوربا الشرقية إلى انتهاء المواجهة الاستراتيجية بين القوتين العظميين، وبالتالي تم وضع نهاية للحرب الباردة بمعناها التقليدي. وقد تجلى ذلك في سلسلة المحادثات والاتفاقيات التي عقدت بين الجانبين بشأن ضبط السلاح والحد من التسلح. فضلاً عن الاتفاق بينهما بشأن تهدئة بعض الصراعات الإقليمية وتسوية بعضها الآخر[٣٨]. ومن المؤكد أن هذه الترتيبات قد

تمت بتقديم تنازلات سوفيتية في معظم الحالات. وهو الأمر الذي بدأ يجسد حقيقة تراجع دور الاتحاد السوفيتي كقوة عظمى على الصعيد العالمي لحساب تصاعد دور الولايات المتحدة الأمريكية.

وعلى الرغم من اتجاه بلدان أوروبا الشرقية إلى تبني أشكالاً من الديمقراطية الليبرالية والاقتصاد الحر، إلا أن الأوضاع في هذه الدول لم تستقر بعد[٣٩]. فهي تسعى لإنجاز التحول السياسي والاقتصادي وسط مجموعة من التحديات الكبرى على الصعيدين الداخلي والخارجي. فالديمقراطية لم تتجذر بعد في هذه الدول، بل ان إمكانات التراجع عن الديمقراطية في بعضها لاتزال مفتوحة. وتعتبر المشكلات الاقتصادية من التحديات الأساسية التي تواجه هذه الدول وهي في مرحلة التحول. فهي تعاني من ضعف مقومات الانتقال نحو اقتصاد السوق، خاصة وأن معظمها لم يحقق تقدماً ملموساً على صعيد مواجهة المشكلات الاقتصادية القائمة منذ عام ١٩٨٥. كما أنها غير قادرة على إقامة التوازن بين تبني آليات السوق من ناحية وخفض برامج الضمان الاجتماعي من ناحية أخرى.

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن التحولات في الاتحاد السوفيتي (السابق) وبقية بلدان أوروبا الشرقية قد ساهمت في انبعاث مشكلة القوميات داخل بعض هذه الدول من ناحية وفيما بينها من ناحية أخرى. وقد كانت هذه المشكلة أحد العوامل التي ساهمت في تفتيت الاتحاد السوفيتي (السابق)، ويوغسلافيا (سابقاً)، وهناك دول أخرى مهددة بالتفتت الداخلي. كما كانت هذه المشكلة عاملاً لتفجر صراعات إقليمية بين بعض هذه الدول[٤٠].

٣ـ انهيار الاتحاد السوفيتي وتفككه

في أعقاب انقلاب أغسطس ١٩٩١ الفاشل ضد جورباتشوف دخل الاتحاد السوفيتي كدولة وككيان سياسي مرحلة التفكك والانهيار بصورة سريعة، وذلك على أثر اتجاه جمهورياته نحو الاستقلال وقيامها بتشكيل رابطة الكومنولث الجديد على انقاض الدولة القديمة.

هذا وقد فسر بعض الباحثين والكتاب عملية انهيار الاتحاد السوفيتي بعدد من العوامل منها: وجود بعض المشكلات وجوانب القصور التي شابت إدارة جورباتشوف لعملية التحول السياسي والاقتصادي في الاتحاد السوفيتي، وقد ترتب عليها استمرار شبح الأزمة الاقتصادية مخيماً على الاتحاد السوفيتي من ناحية، واختلال الصيغة التوازنية الداخلية التي اتبعها جورباتشوف حيال التيار المحافظ الذي ظهر على يساره وبدأ يعارض إصلاحاته من ناحية، والتيار الليبرالي الذي ظهر على يمينه، وطالبه بإدخال إصلاحات جذرية في زمن قياسي من ناحية أخرى، حيث عبر جورباتشوف عن تيار ثالث بين هذين التيارين وهو التيار الإصلاحي المعتدل. وعندما سعى جورباتشوف لتوجيه ضربة للجناح المحافظ الذي كان بعض رموزه يتولى قيادة الجيش والداخلية والمخابرات العامة، وقع الانقلاب الفاشل الذي عجل بانهيار الاتحاد السوفيتي[٤١].

ولاشك في أن تفاقم مشكلة القوميات في الاتحاد السوفيتي كان من العوامل الهامة التي سهلت عملية تفككه وانهياره. فالاتحاد السوفيتي السابق كان يشكل إمبراطورية مترامية الأطراف تضم العديد من القوميات واللغات والأجناس التي لم تكن متشابهة من حيث التاريخ والثقافة واللغة والأوضاع الاجتماعية. وقد ضمت بعض هذه القوميات أو أجزاء واسعة منها للامبراطورية الروسية قسرا في القرن الثامن عشر. وقد شهدت

الثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن عمليات واسعة للتهجير القسري للسكان من مناطقهم الأصلية إلى مناطق أخرى، فضلا عن عمليات الاقتطاع الأخرى من بعض الأقاليم وضمها إلى أقاليم أخرى في عهد ستالين، علاوة على السعي لفرض سياسات «الترويس» بقصد نشر الثقافة واللغة الروسيتين على حساب الثقافات واللغات الأخرى.

ومع تولي «جورباتشوف» السلطة في الاتحاد السوفييتي واتجاهه لتطبيق الجلاسنوست والبيريسترويكا، بدأت صحوة القوميات في الاتحاد السوفييتي. وقد بدأت هذه الصحوة بالمطالبة من قبل بعض الجمهوريات الاتحادية بتغليب اللغات القومية على لغة الاتحاد، وتطورت إلى المطالبة بضرورة إخراج الروس وأبناء القوميات الأخرى، وانتهت بتحقيق الاستقلال والسيادة (٤٢).

هذا وتواجه رابطة الدول المستقلة منذ تأسيسها على أنقاض الاتحاد السوفييتي السابق، مجموعة من المشكلات والتحديات الكبرى التي تجعل منها كيانا هشا غير مستقر. فهناك أولاً، مشكلة عدم وضوح طريق التطور السياسي والاقتصادي أمام دول الرابطة في المستقبل. فباستثناء بعض المقولات والشعارات العامة حول الديمقراطية الليبرالية والتعددية السياسية، فإن البرامج المطروحة لبناء نظم ديمقراطية واقتصادات حرة تبدو ضعيفة وهشة. وهناك ثانيا، جملة من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية وما يترتب عليها من توترات سياسية. وهناك ثالثا، تفاقم في مشكلة القوميات داخل بعض دول الرابطة وذلك بالدرجة التي أصبحت تهدد كيانات الدول في بعض الحالات. كما أن ضعف المساعدات الاقتصادية التي تقدمها الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية إلى ورثة الاتحاد السوفييتي ساهم في تفاقم مشكلات هذه الدول. وهناك رابعا، الاختلافات والتناقضات القائمة بين دول الرابطة، وقد وصلت في بعض الحالات إلى حد الاقتتال المسلح كما هو الحال بالنسبة للصراع بين أرمينيا وأذربيجان حول إقليم ناجورنو ـ كاراباخ. كما أن بعض دول الرابطة تتخوف من احتمالات السيطرة الروسية.

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن هناك مشكلات أخرى تواجه دول الرابطة منها: مشكلة الوحدة والتعدد في القوات المسلحة لهذه الدول. ومشكلة التداخل والترابط بين اقتصادات هذه الدول ومرافقها. فضلا عن بعض مشكلات الحدود التي يمكن أن تتفجر في المستقبل.... إلخ (٤٣).

وهكذا، تبدو رابطة الدول المستقلة كياناً هشاً لم تستقر مؤسساته ودعائمه بعد، بل هي تواجه العديد من المشكلات والتناقضات القائمة والمحتملة بين أعضائها، وهو الأمر الذي يهدد بنشوب حروب بين بعض الدول الأعضاء في المستقبل. ولذلك فمن غير المتوقع أن تصمد الرابطة طويلا، وإن صمدت لبعض الوقت فمن غير المتوقع أن تتسم بالفعالية.

وقد كان للانهيار الحاد والسريع للاتحاد السوفييتي تأثيراته البالغة على صعيد التوازن الدولي والتوازنات الإقليمية في مناطق عديدة من العالم. فعلى الصعيد الدولي أدى الانهيار السريع للاتحاد السوفييتي إلى تدشين مركز الولايات المتحدة الأمريكية كقوة عظمى وحيدة في عالم ما بعد الحرب الباردة. ومن ثم أخذت على عاتقها مهمة إعادة صياغة النظام الدولي بالشكل الذي يضمن مصالحها في المقام الأول.

أما على المستويات الإقليمية، فقد فقدت بعض دول الجنوب الدعم الاستراتيجي والمساندة السياسية التي

كانت تتلقاها من الاتحاد السوفيتي كقوة عظمى موازنة للولايات المتحدة الأمريكية، وبالتالي أصبح هامش المناورة وحرية الحركة أمام هذه الدول محدوداً. كما أن غياب الاتحاد السوفيتي كمصدر للخطر والتهديد أفسح المجال أمام بعض دول المجموعة الأوروبية واليابان لإعادة صياغة علاقاتها بالولايات المتحدة على أسس جديدة. فحاجة هذه الدول إلى مظلة الحماية النووية الأمريكية لم تعد قائمة كما كان الحال في ظل وجود الاتحاد السوفيتي كمصدر للخطر والتهديد.

٤ ـ الاتجاه نحو إقامة التكتلات الاقتصادية الكبرى

ويعتبر تنامي هذه التكتلات من الظواهر الهامة على الصعيد الدولي لما يمكن أن تتركه من تأثيرات على مستقبل الاقتصاد العالمي من ناحية. وعلى العلاقات والتفاعلات فيما بين الدول الرأسمالية من ناحية ثالثة. ومن أبرز هذه التكتلات [٤٤]: مشروع أوربا ١٩٩٢ وما يرتبط به من تطورات على صعيد تحقيق الوحدة الاقتصادية والسياسية بين دول المجموعة الأوروبية في المستقبل. وقد شكلت معاهدة ماستريخت نقطة تحول هامة في تطور الجماعة الأوروبية. وهناك أيضا التجمع الاقتصادي الباسيفيكي الذي تقوم اليابان بالدور الرئيسي في تشكيله. أضف إلى ذلك منطقة شمال أمريكا للتجارة الحرة، وهي تضم إلى جانب الولايات المتحدة الأمريكية كلاً من كندا والمكسيك.

وتعكس هذه التكتلات درجة عالية من كثافة الاعتماد المتبادل وتقسيم العمل والاستثمارات والتجارة وأنواع التبادل الأخرى. وعلى الرغم من وجود مجالات للتنافس بينها، إلا أن البعض يؤكد على أنه من غير المتوقع أن تكون بينها صراعات حادة نظرا لمنظومة القيم الرأسمالية التي تستند إليها هذه التكتلات، إلى جانب ارتباطها معا بشبكة معقدة من علاقات التبادل التجاري والمالي والاستثماري. فضلا عن الروابط التي أوجدتها الشركات متعددة الجنسية بين هذه التكتلات.

وقد اهتم بعض الباحثين والمفكرين العرب بدراسة ظاهرة التكتلات الاقتصادية والبحث في مشكلاتها الداخلية وأنماط العلاقات والتفاعلات فيما بينها، وآفاقها المستقبلية. وفي هذا يلاحظ أن هناك تركيزاً واضحاً على مشروع أوربا ١٩٩٢، نظرا لاعتبارات عديدة منها: القرب الجغرافي بين الوطن العربي وأوربا. وعمق الروابط التاريخية والسياسية بين الجانبين. فضلا عن أن مشروع أوربا ١٩٩٢ سيكون في حالة اكتماله هو الأكثر تأثيرا على العرب من الناحية الاقتصادية والمالية والاستثمارية وحركة العمالة... إلخ.

٥ ـ تفاقم الأزمات في دول الجنوب

لقد كانت تجارب ومحاولات التنمية في أغلب دول الجنوب خلال عقد الثمانينيات متعثرة، بل إنه في بعض الحالات حدث تراجع عن بعض الإنجازات التي تحققت خلال فترات تاريخية سابقة [٤٥]. ومن أبرز المشكلات والأزمات التي تصاعدت في دول الجنوب خلال عقد الثمانينيات: مشكلة الهوية والتكامل القومي. وقد ترتب عليها تصاعد الصراعات ذات الطابع القومي والعرقي والإثني في عديد من الدول. بل ان هناك دولا أصبحت مهددة بالتفتت من الداخل. وهناك أيضا أزمة التنمية الاقتصادية وسوء الأداء الاقتصادي. وقد عرفت بعض الدول المجاعات وظلت دول أخرى قريبة منها. أضف إلى

ذلك مشكلات عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي بفضل تزايد حدة التناقضات والاختلالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية داخل بعض الدول من ناحية، وانخراط دول أخرى في مواجهات مسلحة ضد بعضها البعض من ناحية ثانية. كما أن الهياكل والمؤسسات التنظيمية لدول الجنوب عانت بصفة عامة من الهشاشة وضعف الفاعلية.

وفي ضوء كافة الأزمات والمشكلات التي تعاني منها دول الجنوب، والتي تجسد عمق الفجوة التي تفصل الجنوب المتخلف عن الشمال المتقدم، يصبح من المشروع التساؤل عن موقع دول الجنوب في ظل ترتيبات مايعرف بالنظام الدولي الجديد.

٦ـ زيادة حدة المشكلات ذات الطابع العالمي

وقد برز أغلب هذه المشكلات كآثار جانبية لاتساع الفجوة بين دول الشمال ودول الجنوب من ناحية، وللتقدم التكنولوجي والصناعي الهائل من ناحية أخرى. وهي في معظمها مشكلات عابرة للحدود القومية، أي ذات طابع عالمي وبالتالي لا يمكن مواجهتها إلا من خلال التعاون والتنسيق بين مختلف دول العالم. ومن هذه المشكلات على سبيل المثال: مشكلة التلوث التي امتدت إلى مختلف عناصر البيئة، ومشكلات الإشعاع الذري ومخاطره، ومشكلة احتمال نضوب الموارد الطبيعية، ومشكلات الإرهاب والمخدرات، وبعض الأمراض المنتشرة كالإيدز وخلافه. . . إلخ. وهكذا، فإن هذه المشكلات تشكل أو يجب أن تشكل مجالات للتعاون الدولي في ظل الأوضاع العالمية المتغيرة. فليس بمقدور دولة ـ أو عدد محدود من الدول ـ أن تواجه هذه المشكلات بمفردها.

رابعاً: كارثة الخليج الثانية وتدشين مقولة النظام الدولي الجديد

لقد تباينت مواقف المثقفين العرب تجاه أزمة الخليج الثانية. وقد ظهرت في هذا الإطار عدة دراسات رصدت هذه الظاهرة وحللت خلفياتها وأبعادها [٤٦]. وقد امتدت ظاهرة الانقسام بين الباحثين والمفكرين العرب لتشمل علاقة أزمة الخليج بما يعرف بالنظام الدولي الجديد. وفي هذا السياق، تبلور اتجاهان بارزان في الفكر العربي. نظر أولهما، إلى الأزمة باعتبارها مدخلا لخلق نظام عالمي جديد يقوم على أساس احترام قواعد الشرعية الدولية، وتدعيم دور الأمم المتحدة في إدارة العلاقات بين الدول، والالتزام بمبادىء احترام السيادة الإقليمية للدول، وعدم التدخل في الشئون الداخلية، وتسوية المنازعات بالطرق السلمية. والالتزام بالديمقراطية كنظام سياسي واحترام حقوق الإنسان [٤٧].

أما ثانيهما، فقد نظر إلى الأزمة باعتبارها مدخلا لتمكين الولايات المتحدة الأمريكية من فرض سيطرتها على العالم، وذلك من خلال إحكام سيطرتها على النفط العربي، وإجهاض كافة عناصر القوة التي تمتلكها بعض الدول العربية والتي قد تمكنها من تحقيق التوازن الاستراتيجي مع إسرائيل. كما أن هذه الأزمة جسدت معاني سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على الأمم المتحدة وتوظيفها لحساب ومصالح حلفائها [٤٨].

وبغض النظر عن الجدل بين أنصار كل من الاتجاهين السابقين، فقد سبق القول بأن أزمة الخليج الثانية التي تفجرت في الثاني من أغسطس ١٩٩٠ على أثر احتلال العراق لدولة الكويت وما ترتب على ذلك من

آثار، مثلت أول تحدٍ حقيقي لبعض مقولات وأسس النظام الدولي الجديد حسبما تتصوره الولايات المتحدة الأمريكية، كما مثلت في الوقت نفسه مدخلاً لتثبيت بعض أسس وقواعد هذا النظام. فقد تفجرت الأزمة في فترة الوفاق الدولي بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، كما أنها حدثت في سياق تحولات وتغيرات كبرى على صعيد أوربا الشرقية وأوربا الغربية، وكذلك على صعيد الوطن العربي. ومن هنا، مثلت محكا لاختبار علاقات الوفاق بين الشرق والغرب من ناحية، ولقدرة دول الجماعة الأوربية على ممارسة دور سياسي أكثر استقلالية عن الولايات المتحدة الأمريكية من ناحية ثانية. كما أنها مثلت مدخلاً لتعميق اعتماد بعض الأقطار العربية على الخارج من ناحية ثالثة.

وليس الهدف من هذا الجزء هو رصد وتحليل مواقف الأطراف الدولية الأساسية من الأزمة، حيث إن هناك العديد من الدراسات التي قامت برصد هذه المواقف وتحليلها[٤٩]، لكن الهدف هو تحليل دلالات أزمة الخليج الثانية وانعكاساتها على النظام الدولي من منظور تلاشي النظام القديم وبروز النظام الدولي الجديد.

وفي هذا الإطار أثار الفكر العربي مجموعة من النقاط الهامة: أولاها، أن الأزمة وضعت النظام الإقليمي العربي في مواجهة النظام الدولي، وقد تمكن الأخير، بفضل التحرك النشط من قبل الولايات المتحدة الأمريكية في تشكيل التحالف العسكري والسياسي الدولي المضاد للعراق، من تثبيت دعائمه، بينما عانى الثاني من الانقسام والفوضى والتبعثر، حتى أن البعض راح يتحدث عن نهاية النظام الإقليمي العربي.

وثانيتها، أن الأزمة وضعت الدولة الساعية لممارسة دور قيادي على المستوى العالمي (الولايات المتحدة الأمريكية) في مواجهة الدولة الساعية لممارسة دور قيادي على المستوى الإقليمي (العراق). وقد مكنت نتائج المواجهة السياسية والعسكرية مع العراق، الولايات المتحدة من الترويج لدورها باعتبارها القوة العظمى الوحيدة القادرة على صياغة النظام الدولي الجديد وحمايته[٥٠].

وثالثتها، أن الانتصار الكاسح الذي حققته قوات التحالف على العراق أدى إلى تدعيم مركز الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها القوة العظمى الوحيدة بالمعنى الاستراتيجي في عالم ما بعد الحرب الباردة. فهي من ناحية أولى، تخلصت من عقدة فيتنام. ومن ناحية ثانية، دعمت نفوذها في منطقة الخليج، وهو الأمر الذي يدعم من مركزها في مواجهة أية قوى كبرى منافسة أو قد تكون كذلك في المستقبل، وبخاصة أوربا الغربية واليابان. ومن ناحية ثالثة، فإن الأزمة كشفت عن استمرار علاقات الوفاق بين الشرق والغرب من جانب، حيث اتفقت الدولتان العظميان بشأن إدانة العراق والتأكيد على ضرورة انسحابه من الكويت دون قيد أو شرط. كما أن الأزمة أكدت استمرار تراجع دور الاتحاد السوفيتي كقوة عظمى على الصعيد العالمي من جانب آخر، فعلى الرغم من بروز اختلافات بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة بصدد بعض جوانب الأزمة في بعض مراحلها، إلا أنه لم يستطع في نهاية الأمر إملاء موقف مخالف للتصور الأمريكي[٥١].

كذلك فإنه على الرغم من وجود بعض الاختلافات في وجهات النظر فيما بين عدد من دول الجماعة الأوربية بشأن بعض أبعاد الأزمة، وكذلك وجود جوانب للخلاف بين بعض هذه الدول والولايات المتحدة الأمريكية، وبالذات فيما يتعلق باستخدام القوة المسلحة لإنهاء الأزمة، إلا أن الأزمة كشفت عن محدودية قدرة دول الجماعة على ممارسة دور دولي مستقل على صعيد السياسة الخارجية، وذلك نتيجة للاختلافات فيما

بينها من ناحية، ونتيجة للقيود التي فرضتها الولايات المتحدة على الدول الأوربية من ناحية ثانية. وهكذا يبدو أن الولايات المتحدة الأمريكية لعبت دوراً هاماً في تحديد مواقف الدول الأخرى وأدوارها، وقد استخدمت في سبيل ذلك العديد من أساليب الضغط والتأثير على هذه القوى، وهو الأمر الذي دعم من مكانة الولايات المتحدة كقطب واحد على المستوى الاستراتيجي [٥٢].

ورابعتها، أن الأزمة ارتبطت بمتغير حساس وهام، وبالذات في ضوء المتغيرات الدافعة إلى قيام نظام دولي جديد، وهو النفط. ومن المؤكد أن أحد مبررات التحرك السريع للولايات المتحدة حيال الأزمة هو الحيلولة دون هيمنة العراق على نفط الخليج، لأن هذا معناه زعزعة استمرار تدفق النفط إلى الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوربية واليابان، خاصة وأن المنطقة العربية تحتوي على حوالي ٦٢٪ من الاحتياطي العالمي للنفط. ولاشك في أن بروز الدور الأمريكي في منطقة الخليج من شأنه تدعيم مركز الولايات المتحدة كقطب واحد على الصعيد الدولي في المستقبل المنظور، فدورها في الخليج وسيطرتها ولو غير المباشرة على النفط تمثل أحد المداخل لإعادة صياغة علاقاتها بأوربا الغربية واليابان على أسس جديدة.

وخامستها، ما ظهر خلال أزمة الخليج الثانية من بروز لدور الأمم المتحدة، وقد تجسد ذلك في سلسلة القرارات التي أصدرها مجلس الأمن، والتي أعطت الشرعية الدولية لتحرك التحالف الدولي ضد العراق، ومن هذا المنطلق أصبح من المشروع التساؤل عن حدود فعالية دور الأمم المتحدة في مواجهة الحالات والأزمات الأخرى التي تتضمن خرقاً للشرعية الدولية.

وسادستها، أن الأزمة كشفت عن بعض جوانب الضعف الداخلي في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي تثير العديد من التساؤلات حول قدرتها على تحمل تبعات دور عالمي نشط. ومن أبرز هذه الجوانب: أزمة الاقتصاد الأمريكي، وهو الأمر الذي دفع الولايات المتحدة الأمريكية إلى البحث عن مساهمات عينية ومالية من الدول الأخرى لتمويل الحرب في الخليج، وقد استخدمت العديد من الأساليب لتحقيق هذا الهدف.

وسابعتها، أن أزمة الخليج مثلت مناسبة لإشهار الثورة الصناعية الثالثة وتجسيد بعض تطبيقاتها، وبخاصة في مجالات التسلح والمراقبة والإنذار، وكذلك في مجالات المعلومات والاتصالات، حيث استطاعت شبكة CNN أن تغطي وقائع الحرب بصورة حية ومباشرة. هذا وقد ساهم الاستخدام الكثيف لتكنولوجيا الثورة الصناعية الثالثة في تقليص زمن الحرب، وتخفيض الخسائر البشرية إلى أقصى حد ممكن. وفضلاً عن ذلك فقد تفجرت في أعقاب الحرب قضية هامة، كانت مثارة من قبل على أجندة العمل الدولي وهي قضية البيئة ومشكلاتها، وبخاصة في ضوء كارثة آبار النفط في الكويت [٥٣].

خامسا: الجدل حول هيكل أو بنية النظام الدولي الجديد *

ثمة شبه اتفاق بين قطاع يعتد به بين الباحثين المثقفين العرب على أن النظام الدولي يمر في الوقت الراهن بمرحلة انتقالية، تعتبر حالة السيولة الدولية سمتها الرئيسية. كما تتسم هذه المرحلة الانتقالية ببروز دور

* اعتمد الباحث في إعداد هذا الجزء على دراسة سابقة له بعنوان: «النظام الدولي الجديد ومستقبل الصراعات في العالم الثالث». وقد نُشرت الدراسة على ثلاث حلقات في صحيفة البيان بتواريخ ٢١، ٢٢، ٢٨ إبريل ١٩٩٢.

الولايات المتحدة الأمريكية كقوة عظمى وحيدة في العالم. وثمة خلاف في الرأي حول حدود الاستمرارية الزمنية لهذا الدور وإن كان التيار الغالب هو الذي يرجح بأن هذا الدور مؤقت ولن يستمر طويلا.

ويقصد ببنية أو هيكل النظام الدولي الجديد تراتبية العلاقات بين الدول الرئيسية في النظام الدولي، طبقاً لنمط توزيع الموارد والقدرات الاقتصادية والعسكرية والتكنولوجية بينها، وقد عرفت الإنسانية في العصر الحديث عدة نماذج لقيادة النظام الدولي هي: نظام القطب الواحد، ونظام القطبية الثنائية، ونظام تعدد الأقطاب وبخصوص الهيكل المتوقع للنظام الدولي الجديد هناك ثلاثة اتجاهات رئيسية في الفكر العربي:

الاتجاه الأول، ومحوره الانتقال نحو نظام القطب الواحد بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، ويقدم أنصار هذا الاتجاه مجموعة من الحجج والمسوغات لتأكيد وجهة نظرهم، أهمها مايلي [٥٤]:

١ـ أن انهيار الاتحاد السوفيتي وتفككه، وانغماس دول «رابطة الكومنولث» بما فيها روسيا الاتحادية في همومها ومشكلاتها الداخلية من ناحية، وفي الصراعات الإقليمية فيما بينها من ناحية أخرى، كل ذلك أفسح المجال أمام الولايات المتحدة الأمريكية لتمارس دورها كقوة عظمى وحيدة على الصعيد الدولي، وبخاصة في ضوء احتفاظها بالتفوق العسكري النووي على هذا الصعيد.

٢ـ أن أياً من القوى المؤهلة للعب أدوار أساسية في النظام الدولي الجديد، وأهمها اليابان والجماعة الأوروبية، لا تمتلك في الوقت الراهن كل مقومات القطب الدولي الاقتصادية والعسكرية والتكنولوجية، فضلاً عن التصور الاستراتيجي العالمي والسياسة الكونية، كما أنه من غير المتوقع امتلاكها لكل هذه المقومات في المستقبل المنظور، فكل من اليابان والجماعة الأوروبية قوة عظمى بالمعيار الاقتصادي (على الرغم من أن مشروع أوروبا ١٩٩٢ لم يكتمل بصورة نهائية بعد)، أما من حيث القدرة العسكرية التي تعتبر مقوماً أساسياً للقطب الدولي فالمعروف أن اليابان لا تنتج الأسلحة النووية ولا تسمح بدخولها إلى الأراضي اليابانية، كما أن هناك قيوداً دستورية على إنفاقها الدفاعي، أما القدرات النووية لدول أوروبا الغربية مجتمعة فتعتبر محدودة عند مقارنتها بقدرات الولايات المتحدة الأمريكية في هذا المجال.

٣ـ أن الدور السياسي والعسكري والاستراتيجي الذي قامت به الولايات المتحدة في أزمة الخليج الثانية، قدم حجة قوية لأنصار هذا الاتجاه حيث ظهرت الولايات المتحدة الأمريكية خلال الأزمة وما بعدها باعتبارها الدولة القادرة على صياغة وترسيخ النظام الدولي الجديد، والأكثر قدرة على الفعل والحركة وممارسة الضغط والتأثير. ومن هذا المنطلق اتخذت الولايات المتحدة الأمريكية أزمة الخليج كبوابة لتثبيت بعض دعائم النظام الدولي حسبما تراه، ولتقليص احتمالات تبلور نظام متعدد الأقطاب تكون فيه الولايات المتحدة الأمريكية قطباً مساوياً لغيره، وليست قطباً وحيداً مسيطراً [٥٥]. فهي من ناحية أولى، أظهرت لحلفائها الغربيين أهمية القدرة العسكرية في حماية مصالح هذه الدول، كما أن سيطرتها ـ ولو غير المباشرة ـ على النفط في المنطقة تدعم من مركزها إزاء الدول الكبرى التي تشكل منافسة لها في الوقت الراهن أو في المستقبل. ومن ناحية ثانية، قدمت درساً لكيفية التعامل مع القوى الإقليمية التي قد تسعى للهيمنة في بعض النظم الإقليمية وتتحدى قواعد النظام الدولي الجديد. ومن ناحية ثالثة، دفعت بروح الفاعلية في الأمم المتحدة باعتبارها إطاراً للشرعية الدولية وأثبتت أن الأمم المتحدة تصبح فاعلة، عندما تريد لها الولايات المتحدة الأمريكية أن تكون كذلك.

وفي إطار هذا الاتجاه رجح البعض احتمال اتجاه النظام الدولي ليأخذ شكل النظام الهرمي، بحيث تقف الولايات المتحدة الأمريكية متفردة على قمة الهرم، لفترة مقبلة، وتتلوها أوربا واليابان ثم بعض المراكز العالمية الأخرى. «ويقوم جوهر التكوين الهرمي لهذا النظام على القدرة على السيطرة على التناقضات وتوجيهها لصالح التوسع العالمي المطرد للرأسمالية عابرة القومية. ويقبل هذا النظام بالتغيير ويتأقلم معه. ولكن في حدود محكومة، وبشرط عدم تعارضه مع مصالح جوهرية لقمم هرم القوة والسيطرة»(٥٦).

الاتجاه الثاني: التحول نحو نظام دولي متعدد الأقطاب، والمقولة الأساسية لهذا الاتجاه هي أن النظام الدولي الذي يتشكل في خلال المرحلة الانتقالية الراهنة سوف يكون متعدد الأقطاب(٥٧). وينطلق أنصار هذا الاتجاه من عدة منطلقات تحكم تفكيرهم، منها: النظرة التاريخية للتغير والتطور في شكل وبنية النظام الدولي، فالخبرات التاريخية السابقة تقدم إجابات على بعض الأسئلة من قبيل: ماهي العوامل الرئيسية التي تحدد هيكل النظام الدولي؟ وكيف يحدث الانتقال من نظام إلى آخر؟ وبالإضافة إلى النظرة التاريخية يؤكد أنصار هذا الاتجاه على أهمية تحليل واستشراف مستقبل النظام الدولي في الأجل الطويل اعتماداً على نظرة كلية تشمل كافة المتغيرات دون الاقتصار على التحليل في الأجل القصير، ودون الانطلاق من حدث معين (حرب الخليج) أو تطور بذاته (انهيار الاتحاد السوفيتي وتفككه) للوصول إلى أحكام نهائية بشأن هيكل وطبيعة النظام الدولي.

ويستند أنصار هذا الاتجاه إلى عدة اعتبارات:

أولها، حتمية الارتباط بين القدرة العسكرية والقدرة الاقتصادية، فتوافر إحداهما فقط لدولة ما لا يكفل لها القدرة على ممارسة دور عالمي فترة طويلة نسبياً. ومن هنا فإن المشكلات الاقتصادية التي يعاني منها الاقتصاد الأمريكي مثل المديونية الخارجية، والعجز في الميزان التجاري، وتراجع الدولار أمام الين، وضعف القدرة التنافسية في الأسواق الخارجية، فضلاً عن المشكلات الاجتماعية المرتبطة بالاندماج القومي، وبارتفاع معدلات العنف والجريمة... إلخ، كل هذه المشكلات لابد وأن تلقي بتأثيراتها السلبية على القدرة العسكرية للولايات المتحدة في المستقبل، فالاقتصاد لا يستطيع تحمل أعباء وتبعات دور عالمي كبير. ومن ناحية أخرى فإن القدرات الاقتصادية الضخمة لكل من اليابان ودول الجماعة الأوربية مجتمعة، والتي تجعل منهما عملاقين اقتصاديين، تسمح لكل منهما بتدعيم قدرته العسكرية في المستقبل، بالشكل الذي يدعم من مركزهما في النظام الدولي، ويسمح لهما بالوصول إلى مصاف القوى العظمى متى تم التخطيط لهذا الهدف. وهكذا فإن التلازم بين القدرة العسكرية والقدرة الاقتصادية يفتح المجال لتراجع دور الولايات المتحدة الأمريكية كقوة عظمى، ولتزايد دور كل من الجماعة الأوربية الموحدة واليابان كقوتين كبيرتين في النظام الدولي، بحيث تصعدان إلى مرتبة القطب الدولي، وعندئذ يستقر النظام الدولي على شكل لتعدد الأقطاب.

وثانيها، أنه مع التسليم الكامل بمحورية الدور الذي قامت به الولايات المتحدة الأمريكية في حرب الخليج، إلا أنها لم تنجز النصر في الخليج بمفردها وإن كانت قد أعلنته، بل تم ذلك في إطار تحالف دولي، شاركت فيه العديد من الدول العربية، عسكريا وماليا، بل إن العبء الأكبر في تمويل حرب الخليج لم تقم به الولايات المتحدة، وفي بعض الأحيان مارست ضغوطاً على دول أخرى من أجل المساهمة في التمويل. وإذا

كانت هناك مجموعة من العوامل والاعتبارات الإقليمية والدولية التي أحاطت بأزمة الخليج وساهمت في خلق تكتل دولي ضد العراق، فهل سيكون باستطاعة الولايات المتحدة الأمريكية أن تحشد مثل هذا التحالف إذا وقعت أحداث أخرى مشابهة في مناطق أخرى في المستقبل؟

وثالثها، أنه على الرغم من انهيار الاتحاد السوفيتي وتفككه، وعلى الرغم من المشكلات والتحديات الداخلية والإقليمية والدولية الكبرى التي تجابه دول «رابطة الكومنولث»، فإنه لا يجب الاستهانة بالقدرات النووية لدول الرابطة، فروسيا بمفردها قادرة على خوض حرب نووية كبرى، كما لا يمكن استبعاد احتمالات انتكاسة التطورات نحو الديمقراطية واقتصاد السوق في دول رابطة الكومنولث أو في بعضها، وقد تبرز دكتاتورية جديدة تعيد تجميع أشلاء الاتحاد السوفيتي السابق أو على الأقل تعيد بناء روسيا بمعدل سريع.

ورابعها، أن العمليات الاندماجية والتكاملية التي تحدث على المستوى الدولي، سوف يكون من شأنها تدعيم نظام تعدد الأقطاب، فهناك مشروع أوربا الموحدة، والتجمع الأمريكي ـ الكندي ـ المكسيكي، والتجمع الاقتصادي الباسيفيكي، وهناك العديد من الأفكار والتساؤلات المطروحة حول مستقبل العلاقات بين شطري أوربا (البيت الأوربي المشترك) وحول مستقبل العلاقات الصينية اليابانية، بحيث يحدث نوع من التلاحم بين القدرة التكنولوجية لليابان والقدرات العسكرية والبشرية للصين.

ويطرح أنصار هذا الاتجاه عدة أنماط للعلاقات المحتملة بين الأقطاب المتعددة، فهناك من يرجح احتمالات التنافس بين هذه الأقطاب، خاصة وأن هناك عوامل موضوعية مشجعة على ذلك. وهناك من يرجح احتمالات التعاون أو التنافس المحكوم بإطار الانتماء إلى تكتل رأسمالي غربي واحد، خاصة وأن هناك متغيرات موضوعية يمكن أن تساعد على ذلك مثل منظومة القيم الرأسمالية، وتداخل اقتصادات هذه الدول، وارتباطها بشبكة معقدة من الشركات دولية النشاط التي اتجهت نحو المزيد من الاندماج فيما بينها. ومن الممكن أن تكون العلاقات بين الأقطاب الرأسمالية الكبرى مزيجاً من سياسات وممارسات التعاون والتنافس.

الاتجاه الثالث، ويقوم هذا الاتجاه على أساس التمييز بين مستويين للنظام الدولي، المستوى الاستراتيجي ـ العسكري، والمستوى الاقتصادي [٥٨]. فعلى المستوى الأول سوف يظل النظام الدولي في الأجلين القصير والمتوسط (من ٥ ـ ١٠ سنوات) آحادي القطبية، وذلك باعتبار أن الولايات المتحدة الأمريكية هي القوة العظمى الوحيدة على هذا المستوى، أما على المستوى الاقتصادي، فإن النظام الدولي خلال هذه الفترة هو نظام متعدد الأقطاب، وذلك باعتبار أن كلاً من اليابان والجماعة الأوربية تمثل قوة اقتصادية عظمى بالمعيار الاقتصادي. أما في الأجل الطويل، فإن النظام الدولي قد يتحول إلى نظام متعدد الأقطاب سياسياً واقتصادياً وعسكرياً. وسيبقى ذلك رهناً بالتحولات والتغيرات التي تجري في القوى الكبرى الرئيسية في النظام الدولي. وترجح الدراسة هذا الاتجاه، حيث يبدو من السابق لأوانه في الوقت الراهن القطع بطبيعة هيكل النظام الدولي، وإن كانت الدراسة أميل إلى ترجيح أن التطورات الجارية في القوى الدولية الكبرى سوف تفرز بعد فترة انتقالية قد تستغرق ما يتبقى من سنوات القرن العشرين، وربما تمتد إلى بضع سنوات في القرن الحادي

والعشرين تعددية قطبية كاملة، تربط بين الأقطاب الأساسيين فيها قضايا تعاونية وأخرى تنافسية، وربما ثالثة صراعية.

سادساً: الجدل حول قيم النظام الدولي الجديد

نظراً لأن ما يعرف بالنظام الدولي الجديد لم يستقر بصورة نهائية بعد، حيث لا يزال في مرحلة التشكيل والتبلور، فإن هناك جدلاً عميقاً حول منظومة القيم التي يستند إليها هذا النظام. وهناك اتجاهان أساسيان في الفكر العربي بخصوص هذا الموضوع.

الاتجاه الأول، ويؤكد أنصاره على أن قيم النظام الدولي القديم ستظل هي الأساس الذي يستند إليه مايعرف بالنظام الدولي الجديد[٥٩]. فهو نظام إمبريالي يسعى لفرض الهيمنة والسيطرة على بلدان الجنوب واستغلال ثرواتها والتدخل في شئونها الداخلية تحت دعاوى مختلفة. كما أنه نظام عدواني يعتمد ـ ضمن أدوات عديدة ـ على القوة العسكرية كأداة لتحقيق أهدافه. وبذلك فهو نظام يقوم على غطرسة القوة والاستكبار وتدمير إنسانية الإنسان.

كما أنه نظام يعادي العرب والمسلمين، بل وبلدان الجنوب عامة. وفي هذا الإطار فإن الشعارات البراقة التي يطرحها دعاة النظام كأساس معنوي له، مثل التأكيد على سيادة الشرعية الدولية والالتزام بالقانون الدولي، وحقوق الإنسان والديمقراطية الليبرالية ما هي إلا نوعاً من الخداع السياسي لإضفاء مسحة أخلاقية على النظام الدولي الجديد، وذلك بهدف التغطية على الأهداف الحقيقية للقوى المهيمنة في هذا النظام.

أما الاتجاه الثاني، فيؤكد على أن هناك قيماً إيجابية يستند إليها النظام الدولي الجديد (الذي هو تحت التكوين). ومن هذه القيم[٦٠]: تدعيم الاتجاه نحو الليبرالية السياسية والاقتصاد الحر كتوجه سياسي واجتماعي على الصعيد العالمي. فضلاً عن قيم الاعتماد المتبادل والأمن الجماعي وحل المنازعات بالطرق السلمية واحترام الشرعية الدولية وعالمية حقوق الإنسان. وهناك من يشير إلى وجود قيم ثقافية يستند إليها النظام الدولي الجديد، أهمها[٦١]: التسامح الثقافي (النسبية الثقافية)، والإطلاقية الإنسانية التي تتضمن القواسم المشتركة بين الثقافات المختلفة، والتوفيقية الثقافية، ومبدأ التكاملية، والتوازن بين القيم الروحية والقيم المادية، وإطلاق الطاقات الخلاقة للإنسان في سياقات ديمقراطية، والعودة إلى إحياء المجتمعات المحلية، وتقليص مركزية الدولة. وعموماً فإن القيم ذات الطابع الثقافي التي سبق ذكرها هي أكثر ارتباطاً بمقولة النظام العالمي الجديد، باعتباره أوسع وأشمل من مفهوم النظام الدولي الجديد على نحو ما سبق ذكره.

وتمثل بعض القيم الإيجابية للنظام الدولي الجديد شعارات كبرى طرحتها الإدارة الأمريكية، وبصفة خاصة خلال أزمة الخليج وفي أعقابها. وهي تمثل في الوقت نفسه طموحات وآمال لبلدان الجنوب ومنها البلدان العربية. وإذا كانت هذه القيم تمثل إطاراً مثالياً وأخلاقياً مقبولاً للنظام الدولي الجديد فإن العبرة ليست بطرح الشعارات أو بالإعلان عن الأمنيات والنوايا فحسب، ولكن بالممارسة على أرض الواقع. فإلى أي مدى حكمت ـ وسوف تحكم ـ هذه القيم سلوكيات الفاعلين الأساسيين في النظام الدولي؟ ومن واقع رصد وتحليل بعض جوانب خبرة التعامل الدولي في مرحلة ما بعد كارثة الخليج الثانية، اتضح أن هناك فجوة واسعة بين القيم والشعارات المعلنة من ناحية، والسياسات والممارسات من ناحية أخرى وسيتضح ذلك على دراسة قضايا النظام الدولي الجديد وإشكالياته.

سابعاً: مناقشة بعض قضايا النظام الدولي الجديد وإشكالياته (*)

لقد اتجه الفكر العربي إلى مناقشة بعض قضايا ما يعرف بالنظام الدولي الجديد وإشكالياته، وذلك من خلال مقاربة المقولات والشعارات التي طرحتها - وتطرحها - الولايات المتحدة الأمريكية - وغيرها من الدول - باعتبارها القوة العظمى الوحيدة التي تأخذ على عاتقها مهمة صياغة هذا النظام وحمايته، بالواقع. وذلك للكشف عن مدى ترجمة هذه الشعارات إلى حقائق على الأرض. فهدف النظام الدولي الجديد من وجهة نظر المروجين له هو تحقيق الاستقرار الدولي والأمن العالمي، وذلك من خلال أدوات عديدة منها: نزع السلاح، والحد من التسلح، وتدعيم دور الأمم المتحدة، واحترام الشرعية الدولية، ونبذ استخدام القوة في حل المنازعات بين الدول، وتسويتها بالطرق السلمية.

وفي هذا الإطار فقد ناقش الباحثون والمفكرون العرب مجموعة من القضايا والإشكاليات المرتبطة بما يعرف بالنظام الدولي الجديد، من أهمها: ظاهرة عدم الاستقرار في النظام الدولي الجديد، والتناقض بين المبادىء المعلنة والممارسات الفعلية فيما يتعلق بضبط التسلح في دول الجنوب، وطبيعة دور الأمم المتحدة في هذا النظام، وموقع دول الجنوب فيه، وإشكالية الانتصار النهائي للرأسمالية ونهاية التاريخ.

وفيما يلي كلمة موجزة عن كل من القضايا السابقة.

١ - ظاهرة عدم الاستقرار في النظام الدولي الجديد

على مستوى الخطاب السياسي، يعتبر عنصر الاستقرار السياسي من العناصر الأساسية لما يعرف «بالنظام الدولي الجديد». وعادة ما يقصد به غياب الصراعات والتوترات الحادة في المجتمع الدولي وهو يقوم على أساس تسوية المنازعات بالطرق السلمية ونبذ استخدام العنف، واحترام القانون الدولي، وتحقيق التوازن في العلاقات الدولية. وعلى الرغم من التوصل إلى تسوية لبعض المشكلات الإقليمية القائمة وتهدئة لبعضها الآخر خلال عقد الثمانينيات، كما هو الحال بالنسبة لمشكلات افغانستان، وناميبيا، وكمبوتشيا، ونيكاراجوا، وشبه الجزيرة الكورية، والحرب العراقية - الإيرانية، وعلى الرغم من انتهاء الحرب الباردة بمعناها التقليدي وتفكك الاتحاد السوفيتي، وما يمثله هذا من ضعف احتمالات حدوث حرب عالمية إلى حد كبير، فإن ذلك لم يحقق الاستقرار على الصعيد الدولي ولم يمنع من حدوث صراعات إقليمية وداخلية جديدة (٦٢). وهناك مجموعة من الشواهد الواقعية التي تؤكد ذلك، أهمها ما يلي:

أ - تفجر العديد من الصراعات والمشكلات الداخلية الجديدة وتصعيد بعض المشكلات التي كانت قائمة في العديد من مناطق العالم، وذلك في ظل التحولات الدولية الجديدة. فهناك دول عديدة في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية وأوروبا الشرقية تواجه في الوقت الراهن صراعات داخلية مرتبطة بعوامل قومية وعرقية ودينية، وتهدد هذه الصراعات في بعض الأحيان كيان الدولة ذاته، وما يجري في الصومال وأثيوبيا وأفغانستان والسودان وبعض أعضاء «رابطة الدول المستقلة» وغيرها خير شاهد على ذلك.

(*) اعتمد الباحث في إعداد هذا الجزء على دراسة سابقة له بعنوان: النظام الدولي الجديد: قضايا وتساؤلات (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ط ١، ١٩٩٢).

ب ـ نشوب صراعات إقليمية جديدة وتصعيد صراعات كان لها جذورها السابقة، وبخاصة بين بعض الدول الأعضاء في «رابطة الدول المستقلة» وأشهرها هو الصراع بين أرمينيا وأذربيجان حول إقليم ناجورنو ـ كاراباخ، بالإضافة إلى الصراعات المسلحة في مناطق أخرى من العالم مثل الصراع الدامي في البوسنة والهرسك، إلى جانب استمرار الصراع العربي ـ الإسرائيلي، وإن كانت هناك جهود جارية لتسويته، انطلقت منذ مؤتمر مدريد (أكتوبر ١٩٩١). وهناك أيضا مصادر قائمة ومحتملة للصراع والتوتر بين العديد من بلدان الجنوب، ومنها مشكلات الحدود، وقضايا الأقليات، والتدخل في الشئون الداخلية.

جـ ـ أن استمرار تردي الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في دول الجنوب من ناحية، واستمرار اتساع الفجوة بين الشمال والجنوب من ناحية ثانية، من شأنه أن يجعل الجنوب مصدرا للتوتر وعدم الاستقرار على المستوى الدولي نظرا لتراكم الضغوط والإحباطات لقطاعات واسعة من مواطني دول الجنوب لأنها ستجد نفسها في تناقض موضوعي مع القواعد السياسية والاقتصادية والمالية والاستراتيجية التي تستمد منها الولايات المتحدة الأمريكية سيطرتها العالمية أو محاولاتها للسيطرة ويمكن أن يأخذ التوتر القادم من الجنوب أشكالا عديدة منها استمرار أعمال العنف في الجنوب سواء على المستوى الداخلي في العديد من الدول أو على المستوى الإقليمي، فضلا عن تصاعد الأعمال الإرهابية الناجمة عن الإحباطات المزمنة، ناهيك عن استمرار تدفق موجات الهجرة إلى الشمال، وما يمكن أن تخلقه من مشكلات لهذه الدول.

وخلاصة القول: إن المجتمع الدولي يشهد في الوقت الراهن حالة من الفوضى والانفلات، وربما تكون أحد أهم ملامح المرحلة الانتقالية التي يمر بها النظام الدولي. وبذلك فإن مقولة الاستقرار السياسي التي طرحت كأحد مقومات النظام الدولي الجديد لا أساس لها على أرض الواقع، حيث يوجد العديد من مظاهر عدم الاستقرار القائمة، كما أن هناك مصادر محتملة لعدم الاستقرار في المستقبل، ويؤكد هذا الوضع أن عنصر استخدام القوة في إدارة العلاقات الدولية لم يتقلص بل لا يزال هو العنصر الحاكم، ومن ثم فإن شعار نبذ استخدام العنف في العلاقات الدولية في ظل النظام الدولي الجديد يفتقد إلى المصداقية. ويتمثل التحدي الحقيقي في مدى قدرة ترتيبات النظام الدولي الجديد على تصفية أو تحجيم مصادر التوتر والصراع القائمة والمحتملة في دول الجنوب من ناحية، وفي العلاقات بين الشمال والجنوب من ناحية أخرى بصورة فعالة ومؤثرة.

٢ ـ ضبط التسلح في دول الجنوب: التناقض بين المبادىء والممارسات وافتقاد وحدة المعيار.

في إطار سعيها لترسيخ بعض قواعد النظام الدولي الجديد حسبما تراه طرحت الولايات المتحدة الأمريكية تصورا لضبط التسلح في دول الجنوب باعتبار أن ذلك مدخل لضبط الصراعات الإقليمية وتحقيق الاستقرار، وقد تجسد هذا التصور في المبادرة التي طرحها الرئيس «بوش» في يوليو ١٩٩١ لضبط صادرات السلاح العالمية إلى دول الجنوب، ووقف انتشار أسلحة الدمار الشامل وبخاصة في منطقة الشرق الأوسط. وقد عقدت عدة اجتماعات بين الدول الخمس الكبرى المصدرة للسلاح وهي الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن لبحث هذا الموضوع، إلا أنها لم تتفق على سياسات وإجراءات فعلية بهذا الخصوص، ويلاحظ أن هناك مجموعة من التناقضات قد شابت التصورات والمساعي الأمريكية بهذا الخصوص [٦٣].

أولها: أن الرؤية الأمريكية الخاصة بضبط صادرات السلاح إلى دول الجنوب لم تهدف في المقام الأول إلى

تحقيق السلام العالمي، وذلك من خلال حجب السلاح عن مناطق التوتر والصراع في الجنوب بصورة شاملة ومتوازنة، وخلق الظروف الملائمة للبحث عن حلول جذرية للقضايا والمشكلات التي تمثل مصادر قائمة ومحتملة للصراع، بل كان الهدف هو تكوين كارتل عالمي لتجارة السلاح بين الدول الخمس الكبرى التي تساهم بالنصيب الأعظم ـ بنسب متفاوتة ـ في التجارة الدولية للسلاح.

وثانيها، أنه في الوقت الذي تطرح فيه الولايات المتحدة هذه الأفكار، فإن مبيعاتها للأسلحة لبعض دول الجنوب لم تتوقف، أو حتى تنخفض، بل والأكثر من ذلك أنها تقوم بتخزين أنواع من الأسلحة الأمريكية في بعض بلدان الشرق الأوسط. وكذلك الحال بالنسبة لمبيعات الدول الكبرى الأخرى المصدرة للسلاح. وهكذا فإن وقف سباق التسلح بين الدول الكبرى لم يساعد على وقف سباق التسلح في مناطق التوتر في الجنوب، بل زاده حدة. ومن بين المشكلات المعقدة في هذا المجال مشكلة ارتباط التجارة الدولية للسلاح ببعض التوازنات السياسية والاقتصادية الداخلية في الدول المصدرة للسلاح، حيث إن شركات السلاح تعتبر من مراكز التأثير السياسي والاقتصادي في هذه الدول، فضلاً عن المشكلات المرتبطة بتحويل بعض الصناعات العسكرية إلى صناعات مدنية.

وثالثها، أن سياسة الولايات المتحدة الأمريكية بهذا الخصوص لا تقوم على معايير واحدة تطبق على جميع الدول، بل هي سياسة انتقائية يتم في إطارها ممارسة التمييز بين الدول طبقاً لطبيعة علاقاتها القائمة والمحتملة مع الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى سبيل المثال يظهر هذا التناقض بوضوح في السياسة الأمريكية تجاه إسرائيل من ناحية، وتجاه كل من سوريا وإيران من ناحية أخرى، ففي الحالة الأولى لم تشر الولايات المتحدة الأمريكية من قريب أو بعيد إلى مخزون إسرائيل من الأسلحة النووية، وذلك في إطار مبادرة بوش لجعل الشرق الأوسط منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل، كما أنها مستمرة في تزويد إسرائيل بالأسلحة، وتقوم بتخزين أسلحة أمريكية فيها، كما أعطتها حق إنتاج وتطوير بعض أنظمة الصواريخ الأمريكية مثل «الباتريوت» و«آرو»، وتساهم في تمويل هذه العملية. أما بالنسبة لكل من سوريا وإيران فإن الولايات المتحدة تفرض قيوداً شديدة على صادرات الأسلحة التقليدية لكل من البلدين. ويقوم أسطولها بمطاردة السفن التي يشتبه في أنها تحمل أسلحة لأي من الدولتين.

وهكذا، فإن التصورات والممارسات الأمريكية بخصوص ضبط التسلح في دول الجنوب، وبالذات في مناطق التوتر والنزاع تتسم بالانتقائية والتناقض، ومن ثم فإن وقف سباق التسلح بين الدول الكبرى لم يترجم إلى نتائج إيجابية على مستوى مناطق التوتر والنزاع، وهو الأمر الذي يثير العديد من التساؤلات حول مستقبل ظاهرة الاستقرار في الجنوب، ومن ثم في النظام الدولي بصفة عامة.

٣ـ دور الأمم المتحدة في «النظام الدولي الجديد»

لقد كان تدعيم الأمم المتحدة، حتى تقوم بدور أكثر فاعلية في تحقيق الأمن الجماعي، والحفاظ على السلام العالمي، وتسوية المنازعات بالطرق السلمية إحدى الركائز الأساسية للنظام الدولي الجديد، كما طرحته الولايات المتحدة الأمريكية أثناء أزمة الخليج وبعدها. ولقد برز دور الأمم المتحدة، وبالتحديد دور مجلس الأمن في أزمة الخليج، حيث أصدر مجموعة من القرارات السريعة والمتتالية التي مثلت إطار الشرعية الدولية

للعمل السياسي والعسكري الذي قامت به دول التحالف ضد العراق. إلا أنه بعد انتهاء أزمة الخليج بدأت تبرز بعض السلبيات المرتبطة بدور الأمم المتحدة في ظل النظام الدولي الجديد، فالولايات المتحدة أصبحت هي القوة الرئيسية المحركة للمنظمة الدولية، ولذلك راحت تطوع دورها لحساب المصالح الأمريكية بصفة خاصة والمصالح الغربية بصفة عامة، وعادة ما يشير بعض الباحثين والمفكرين العرب إلى العديد من الظواهر الواقعية التي تؤكد هذا المعنى، ومنها على سبيل المثال مايلي (٦٤):

أ ـ إعادة هيكلة دور الأمم المتحدة بالشكل الذي أدى إلى تعظيم دور مجلس الأمن على حساب دور الجمعية العامة وبقية أجهزة المنظمة الأخرى، ونظرا لغياب الفيتو السوفيتي، بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وتفككه فإن قدرة الولايات المتحدة على تحريك مجلس الأمن بالشكل الذي يخدم مصالحها أصبحت كبيرة وهكذا تم تطويع القانون الدولي لحساب السياسة.

ب ـ قيام الولايات المتحدة بتطبيق الشرعية الدولية بصورة انتقائية، وبالشكل الذي يتفق والمصالح الأمريكية في المقام الأول والغربية في المقام الثاني، فهذه الشرعية كانت فعالة ونشطة إزاء مواجهة العراق على أثر احتلاله لدولة الكويت في الثاني من أغسطس ١٩٩٠، كما كانت فعالة بخصوص «أزمة لوكربي» بين ليبيا من ناحية وكل من الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا من ناحية أخرى، حيث اتهمت الدول الثلاث النظام الليبي بالتورط في تفجير طائرة ركاب أمريكية فوق لوكربي عام ١٩٨٨ وطائرة فرنسية في أجواء النيجر عام ١٩٨٩. كما تحركت الشرعية الدولية بسرعة تجاه الأزمة الصومالية، وإن كان دور المنظمة الدولية والولايات المتحدة الأمريكية، قد أضاف تعقيدات جديدة إلى الأزمة. وفي الوقت نفسه فإن هذه الشرعية لم تكن فعالة، أو لم يرد لها أن تكون كذلك بصدد قضايا أخرى مثل الصراع العربي ـ الإسرائيلي، حيث إن إسرائيل تتحدى الشرعية الدولية بصورة سافرة، وتمارس انتهاكات بشعة ضد حقوق السكان العرب في الأراضي المحتلة بصورة يومية. كما أن المنظمة الدولية تحركت بصورة متأخرة ومحدودة الفاعلية بشأن أحداث البوسنة والهرسك، وينطبق نفس الشيء على مواقف الولايات المتحدة الأمريكية ودول الجماعة الأوربية بدرجات متفاوتة.

وهكذا، فإن فاعلية المنظمة الدولية أصبحت رهينة مصالح الولايات المتحدة الأمريكية في المقام الأول، فدورها كإطار للشرعية الدولية يتم إبرازه في بعض القضايا وتغييبه بصورة تدعو إلى التساؤل في قضايا أخرى. أليس من الملفت للنظر حقاً أن يتم تغييب الأمم المتحدة عن محادثات السلام التي انطلقت من مؤتمر مدريد لتسوية الصراع العربي الإسرائيلي؟ وبذلك أصبحت الشرعية الدولية بمثابة غطاء لتبرير السياسات والممارسات الأمريكية، وبخاصة تلك المتعلقة بتصفية الحسابات المعلقة مع دول أخرى في الجنوب.

ج ـ أصدرت المحكمة العليا الأمريكية في يونيو ١٩٩٢ حكماً غريباً وشاذاً مفاده السماح للحكومة الأمريكية باختطاف مواطني الدول الأخرى المشتبه فيهم، وتقديمهم للمحاكمة في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد تم استهجان هذا القرار ورفضه من قبل العديد من دول العالم: فهو من ناحية أولى، يعتبر سابقة خطيرة تمثل تجاوزاً للقواعد القانونية الدولية التي تنظم عمليات تسليم المجرمين والمشتبه فيهم بين الدول، وهو من ناحية ثانية، ينطوي على احتمالات استخدام القوة ضد دولة ما بقصد القبض على بعض مواطنيها لمحاكمتهم في الولايات المتحدة، وذلك على غرار غزو الولايات المتحدة لبنما بهدف

اعتقال الرئيس نوريجا ومحاكمته. وهو من ناحية ثالثة، قد يفتح الباب أمام دول أخرى لتصدر قرارات مماثلة، وبذلك ينخرط النظام العالمي في حالة من الفوضى وعدم الاستقرار وتدخل الدول في الشئون الداخلية لبعضها البعض (٦٥).

وخلاصة القول، إن الممارسات الأمريكية المرتبطة ببناء نظام جديد تناقض الشعارات والمبادئ المطروحة في هذا الصدد وبخاصة فيما يتعلق باحترام الشرعية الدولية، وتدعيم دور الأمم المتحدة، ومن هنا ارتفعت الأصوات التي تطالب بإصلاح نظام الأمم المتحدة.

٤ـ موقع بلدان الجنوب في النظام الدولي الجديد: المزيد من التهميش

هناك العديد من المؤشرات التي تدل على أن مصير أغلب دول الجنوب ومنها الدول العربية في ظل المتغيرات الدولية الجديدة سوف يكون «المزيد من التهميش»، وبالذات تلك الدول التي تعاني من عدم أو ضعف القدرة على التكيف مع هذه المتغيرات خاصة وأن أغلب هذه الدول خرجت من عقد الثمانينيات وهي تعاني من مشكلات متفاقمة، اقتصادية واجتماعية وسياسية (٦٦). ولذلك يؤكد البعض انتهاء التناقض بين الشرق والغرب سوف يكون على حساب تعميق التناقض بين الشمال والجنوب، ويمكن بلورة أهم المؤشرات التي تكشف عن تزايد احتمالات تهميش أغلب بلدان الجنوب في ظل أوضاع النظام الدولي الجديد فيما يلي:

أـ وجود مجموعة من الاختلالات والتباينات التي تكشف عن غياب العدالة فيما يتعلق بالعلاقات الاقتصادية بين الشمال والجنوب، وقد كشف التقرير الثالث عن «التنمية البشرية ١٩٩٢» الذي أصدره البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة في منتصف عام ١٩٩٣، عن حقائق خطيرة ومذهلة بهذا الخصوص أهمها مايلي (٦٧):

ـ أن (٢٠٪) من سكان العالم يحصلون على (٨٢,٧٪) من مجموع دخل العالم، بينما الـ(٢٠٪) من سكان العالم الأكثر فقرا يحصلون على (١,٤٪) من دخل العالم والـ(٢٠٪) الأقل فقرا يحصلون على (١,٩٪) من دخل العالم، وهناك (٢٠٪) ثالثة فقيرة تحصل على (٢,٣٪) من دخل العالم، وهذا يعني أن (٦٠٪) من سكان العالم يحصلون على (٥,٦٪) من إجمالي دخل العالم، ويكشف هذا عن الفجوة الواسعة بين أغنياء العالم وفقرائه.

ـ أن الدول الغنية تستهلك حوالي (٧٠٪) من الطاقة العالمية، و(٧٥٪) من معادن العالم، و(٨٠٪) من أخشابه، و(٦٠٪) من طعامه، وفي الوقت نفسه يوجد في الوقت الراهن حوالي (٢٣٠٠) مليون من البشر يفتقدون إلى خدمات الصرف الصحي، و(١٣٠٠) مليون لا يستطيعون الحصول على مياه الشرب الصالحة، ناهيك عن انتشار المجاعات في العديد من الدول الإفريقية في الوقت الذي تعاني فيه بعض دول الشمال من التخمة.

ـ أن خسارة دول الجنوب نتيجة الأوضاع غير المتكافئة في العلاقات التجارية والمعاملات المالية الدولية تمثل أضعاف ما تحصل عليه هذه الدول من معونات خارجية، إذ تكلف دول الجنوب حوالي (٥٠٠) مليار دولار سنويا.

ـ يشير التقرير إلى أن فوارق الغنى والفقر تتسع معدلاتها بصورة كبيرة. ففي عام ١٩٦٠ كان دخل الفرد بالنسبة للعشرين في المائة من سكان العالم الذين يعيشون في الدول المتقدمة أكثر من دخل الفرد بالنسبة للعشرين في المائة الذين يعيشون في الدول الأكثر فقراً بحوالي (٣٠) ضعفاً. وفي عام ١٩٨٩ تزايدت الفجوة ليصبح الفارق بين دخل الفرد في المجموعتين حوالي (٦٠) ضعفاً.

ـ ذكر التقرير أيضاً أن تخفيض الإنفاق العسكري بنسبة (٣٪) فقط خلال عقد التسعينيات يمكن أن يوفر لجهود التنمية (١٥٠٠) مليار دولار منها (١٢٠٠) مليار دولار للدول المتقدمة و(٣٠٠) مليار للدول المتخلفة، ومن المفارقات أنه في الوقت الذي تذهب فيه بعض الدول المتقدمة إلى خفض الإنفاق على التسلح، فإن الدول النامية تتجه إلى زيادته، إذ إن حوالي (٧٥٪) من تجارة السلاح في العالم تذهب إلى الدول النامية.

وجدير بالذكر أن استمرار هذه الفجوات والاختلالات بين الشمال والجنوب كفيلة بأن تجعل من الجنوب مصدراً للتوتر وعدم الاستقرار في النظام العالمي، فالاستقرار الدولي رهين بتحقيق تنمية عالمية متوازنة، وبمواجهة جذور المشكلات التي تمثل مصادر للقلق والتوتر في الجنوب. فالشمال لا يمكن أن ينعم بالاستقرار مع وجود جنوب يعاني من مظاهر عدم الاستقرار، لأن هذه الوضعية سوف تساعد على زيادة موجات الهجرة من الجنوب إلى الشمال، فضلاً عن خلق بيئة ملائمة لزيادة أعمال العنف وأشكال الرفض المضادة للشمال، وتقليص قدرة أسواق الجنوب ـ المتردية أصلاً ـ على استيعاب قدر أكبر من صادرات الشمال.

ب ـ أن انتهاء الحرب الباردة بمعناها التقليدي سوف يقلل من الأهمية الاستراتيجية لبعض الدول، كما أن تفكك الاتحاد السوفييتي وانهياره يفسح المجال أمام الولايات المتحدة الأمريكية للتدخل في شئون دول الجنوب بالشكل الذي يخدم مصالحها، ويمكن أن تستخدم العديد من الأدوات لتحقيق هذا الهدف بما فيها الأداة العسكرية.

ج ـ أن انتهاء نظام القطبية الثنائية من شأنه تضييق مجال حرية الحركة أمام دول الجنوب، لأن هذا النظام كان يوفر لبعضها مجالاً لممارسة المناورة السياسية، واللعب على التوازنات والتناقضات بين القوتين العظميين. وإذا كان ما يعرف بالنظام الدولي الجديد يقوم ـ من وجهة نظر المروجين له ـ على مبادىء الأمن الجماعي والشرعية الدولية والاعتماد المتبادل وتسوية المنازعات بالطرق السلمية، فالأرجح أن هذه المبادىء سوف تطبق فيما بين دول الشمال فقط، وعلى هذا الأساس فإن الصراع بين الشمال والجنوب سيحل محل الصراع بين الشرق والغرب. وفي هذا الإطار، فمن المتوقع أن يظل الجنوب يموج بالصراعات الاجتماعية الممتدة والحروب الأهلية الداخلية والصراعات الإقليمية، وكل ذلك من شأنه تهميش موقع بلدان الجنوب أو معظمها على خريطة النظام الدولي الجديد [٦٨].

د ـ أن انخراط الدول المتقدمة بدرجات متفاوتة في مجالات الثورة الصناعية الثالثة، وما يمكن أن يترتب على ذلك من تخليق لمواد خام بديلة، كفيل بأن يؤدي إلى تقليص الأهمية الاستراتيجية لبعض المواد الخام التي تمتلكها بعض دول الجنوب.

هـ ـ أن هناك عوامل موضوعية تحد من دور دول الجنوب في عملية تشكيل النظام الدولي الجديد أهمها: زيادة حدة التفاوت الاقتصادي والاجتماعي بين دول الجنوب، وغياب الحد الأدنى من الاتفاق حول الأولويات الاستراتيجية بين هذه الدول، ناهيك عن ضعف هياكل ومؤسسات التعاون والتنسيق التي تمثل إطاراً للحركة الجماعية لدول الجنوب، فضلا عن وجود بعض السياسات والأدوات التي تستخدمها بعض الدول الرأسمالية المتقدمة للحيلولة دون تبلور حركة جماعية فاعلة ومؤثرة على مستوى الجنوب أو حتى على مستوى بعض أقاليمه الأساسية

٥ ـ الاضطراب في رؤية الولايات المتحدة الأمريكية لدورها في النظام الدولي الجديد

على الرغم من أن الولايات المتحدة الأمريكية تمثل القوة العظمى الوحيدة في العالم في مرحلة ما بعد أزمة الخليج الثانية وانهيار الاتحاد السوفيتي، وهي التي تأخذ على عاتقها مهمة إرساء أسس وقواعد النظام الدولي الجديد حسبما تتصوره، فإن رؤيتها لحقيقة دورها العالمي في ظل أوضاع ما بعد الحرب الباردة تتسم بنوع من الاضطراب وعدم الوضوح، ويظهر ذلك على نحو جلي في الاختلافات بين الوثائق الأمريكية المتتالية التي تتناول هذا الموضوع.

ففي ٩ مارس ١٩٩٢، نشرت صحيفتا النيويورك تايمز والهيرالد تربيون مقتطفات مطولة من وثيقة أعدها البنتاجون حول الاستراتيجية الأمريكية خلال التسعينيات، ودور الولايات المتحدة في ظل النظام العالمي الجديد (هذه الوثيقة لم تعرض على الكونجرس). ومن أبرز العناصر التي وردت في هذه الوثيقة ما يلي [٦٩]:

أ ـ التأكيد على دور الولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة في العالم، والحيلولة دون تمكن قوى أخرى من منافستها على هذه المكانة، بما في ذلك الحلفاء التقليديين أي دول أوربا الغربية ـ وبخاصة ألمانيا ـ واليابان.

ب ـ استمرار احتكار الولايات المتحدة للتفوق العسكري النووي في العالم، مع الاحتفاظ بقوات أمريكية في المراكز المتقدمة في أوربا وإفريقيا وآسيا والخليج والشرق الأوسط، حتى تكون قادرة على التحرك بسرعة لتأمين المصالح الأمريكية في النفط والممرات المائية وخلافه، ومنع تحدي الهيمنة الأمريكية من جانب أي طرف محتمل، وتدمير أي قوة عدوانية تمثل تهديداً للمصالح الأمريكية.

ج ـ يمكن للولايات المتحدة استخدام القوة العسكرية عند الضرورة لتدمير أسلحة الدمار الشامل في بلاد مثل العراق وكوريا الشمالية والجمهوريات الأعضاء في «رابطة الدول المستقلة» والهند وباكستان. وسوف تتحرك الولايات المتحدة بمفردها عندما يكون التحرك الجماعي صعباً.

د ـ خلق ترتيبات أمن أوربية واحدة في إطار الأطلنطي وعدم السماح لأوربا بالاستقلال في مجال الأمن.

وقد أحدثت هذه الوثيقة ردود أفعال حادة من قبل عديد من الدول، باعتبارها تجسد ما يمكن تسميته «بغطرسة القوة الأمريكية» بعد الإنجاز الكبير الذي حققته في أزمة الخليج، وبعد انهيار القوة العظمى الأخرى وتفككها. ولقد كانت وطأة هذه الوثيقة على حلفاء الولايات المتحدة الأوربيين ثقيلة، ولذلك انتقدها وزير الخارجية الفرنسي «رولان دوما» نقداً حاداً، على أساس أن الولايات المتحدة لا تمتلك القدرة على القيادة

المنفردة للعالم من وجهة نظره وفي أعقاب صدور هذه الوثيقة حدثت تطورات هامة على الصعيد الأوربي وعلى الصعيد الأمريكي . أما على الصعيد الأوربي فقد وقعت كل من فرنسا وألمانيا اتفاقية بتشكيل فيلق عسكري مشترك كنواة لجيش أوربي موحد . وعلى الصعيد الأمريكي وقعت أحداث لوس أنجلوس التي كانت أحد العوامل التي دفعت الولايات المتحدة لإعادة النظر في تقييم دورها العالمي ، ونتيجة لهذه التطورات أصدرت وزارة الدفاع الأمريكية وثيقة أخرى وقعها تشيني وزير الدفاع الأمريكي في ٢٣/ ٥/ ١٩٩٢ ، وقد مثلت هذه الوثيقة تراجعاً عن بعض التوجهات الأمريكية التي تضمنتها وثيقة مارس ١٩٩٢ ، ومن أهم ما جاء فيها الإشارة إلى تخلي الولايات المتحدة عن احتفاظها بالهيمنة العسكرية على العالم ، والتزامها بدرجة أكبر بالعمل العسكري الجماعي ، وتخفيض استثماراتها في المجالات العسكرية ، كما أكدت الولايات المتحدة على عدم وقوفها في وجه كل من ألمانيا واليابان لتصبح كل منهما القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية الأولى في منطقتها ، كما أكدت الوثيقة على استمرار الترتيبات الدفاعية التي تربط الولايات المتحدة بالدول الديمقراطية . والتزام الولايات المتحدة بالدفاع عن شرق أوربا ضد أي عدوان محتمل من روسيا ، واحتفاظها بدور قيادي في الردع الاستراتيجي والتحالفات الإقليمية [٧٠] .

وهكذا ، يتضح أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تمتلك في الوقت الراهن تصوراً استراتيجياً واضحاً لأبعاد دورها في عالم ما بعد انتهاء الحرب الباردة ، فضلاً عن عدم امتلاكها لكافة إمكانيات القيام بدور عالمي واسع ونشط بمفردها . وقد كشفت سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه أزمتي البوسنة والهرسك والصومال عن مدى حالة الاضطراب والتردد ، التي تعتبر سمة أساسية للسياسة الخارجية الأمريكية في عهد إدارة كلينتون [٧١] . ومن العوامل التي تساهم في اضطراب الرؤية الأمريكية بهذا الخصوص تنامي تيار انعزالي داخل الولايات المتحدة الأمريكية ، يؤكد على مقولة «أمريكا للأمريكيين» ، وهذا يعني أنه يتعين على الولايات المتحدة أن تنفض يدها عن مشاكل العالم كله ، ولقد جاءت أحداث لوس أنجلوس الشهيرة لتغذي هذا التيار وتدعم من قوته . فهذه الأحداث أكدت على معنى هام مفاده أن الدولة التي تسعى لترتيب أوضاع العالم ، عليها أن ترتب بيتها من الداخل أولاً . كما أن تورط الولايات المتحدة الأمريكية في الأزمة الصومالية ، وما ترتب على ذلك من تداعيات عسكرية وسياسية كان عاملاً آخر لتغذية هذا التيار .

٦ـ الانتصار النهائي للرأسمالية والليبرالية ونفي أحد مبادىء النظرية الديمقراطية

في إطار التحولات السياسية والاقتصادية التي حدثت في الاتحاد السوفيتي (السابق) وبلدان أوربا الشرقية ، والمتمثلة في انهيار النظم الشيوعية والاتجاه نحو تبني أشكالاً من الديمقراطية الليبرالية والاقتصاد الحر من ناحية ، ونتيجة للانهيار المدوي للاتحاد السوفيتي كدولة وتفككه من ناحية أخرى ، راح بعض منظري النظام الدولي الجديد يطرحون مقولة الانتصار النهائي للرأسمالية والليبرالية ، وأن هذا الانتصار يشكل نهاية للأيديولوجيات ، بل ونهاية للتاريخ ذاته ، وقد كتب (فرانسيس فوكوياما» ، وهو باحث أمريكي من أصل ياباني كتابا شهيراً تحت هذا العنوان . أكد فيه أن الإنسانية تشهد الآن آخر محطة في الثورة الأيديولوجية للبشر ، ألا وهي عالمية الرأسمالية والديمقراطية الليبرالية الغربية ، التي تمثل آخر أشكال الحكومات الإنسانية ، وأكد على أن الأنظمة القابلة للتطبيق والبديلة لليبرالية الغربية قد استنزفت تماماً [٧٢] . وثمة عدة ملاحظات طرحها

باحثون ومفكرون عرب حول مقولتي «نهاية الأيديولوجية» «ونهاية التاريخ»، وهي ملاحظات تبين أبعاد إحدى الإشكاليات المرتبطة بعملية تكون النظام الدولي الجديد [٧٣].

أولاها، أن أحد المبادىء الهامة للنظرية الديمقراطية هو القبول بالتعددية السياسية والفكرية والتسامح السياسي، وبالتالي فإن الحديث عن انتصار نهائي للرأسمالية والليبرالية معناه التسليم بوجود أيديولوجية لايمكن تخطيها، تمتلك التفوق على ما عداها من أطر فكرية وأيديولوجية في الحاضر والمستقبل (هناك حديث وتساؤلات عن الإسلام والقومية كبدائل أيديولوجية في المستقبل)، ومن ثم يتعين على جميع دول العالم أن تأخذ بها، إن لم يكن طواعية فيجب أن تفرض عليها فرضاً من خلال أدوات ومسالك عديدة (القروض والمعونات، ضغوط مؤسسات التمويل الدولية). ومثل هذا الطرح يعد نفيا لمبدأ هام في النظرية الديمقراطية وهو القبول بالتعدد الفكري والسياسي، كما أن القول بالانتصار النهائي للرأسمالية والليبرالية معناه إغلاق الباب أمام احتمالات ظهور أية أيديولوجيات أخرى ذات طابع كوني قد تمثل تحديا بشكل أو بآخر للرأسمالية والليبرالية في المستقبل، فضلا عن أن هذا الطرح يتناقض صراحة مع ما يطرحه البعض من أن إحدى السمات الأساسية للنظام الدولي الجديد على المستوى الثقافي والفكري هي النسبية الثقافية التي تقوم على احترام الخصوصيات الثقافية والحضارية للمجتمعات الإنسانية، وما يمكن أن تطرحه من محددات لأشكال النظم السياسية والاجتماعية التي تلائم هذه المجتمعات. وخلاصة القول إن الحديث عن نهاية الأيديولوجيا ونهاية التاريخ» هو في حد ذاته طرح أيديولوجي، يتضمن في جوهره نفيا لواحد من أهم مبادىء النظرية الديمقراطية وهو مبدأ احترام التعددية السياسية والفكرية، وهذا الطرح في حد ذاته طرح شمولي، إذ يقوم على اعتبار أن هناك أفكاراً بشرية نهائية لا تحتمل التخطئة.

وثانيتها، أن وجود الاتحاد السوفيتي (السابق) كمصدر للخطر والتهديد مثل أحد عوامل التماسك داخل المعسكر الغربي سواء على مستوى النظم الداخلية أو على مستوى العلاقات بين الدول الرأسمالية الكبرى، ولذلك فإنه من المحتمل أن تشهد الحياة السياسية في دول أوروبا الغربية تحولات هامة على صعيد الخيارات والتوجهات. [٧٤]، أما على صعيد العلاقات بين الدول الرأسمالية الكبرى فإن من أهم نتائج انهيار الاتحاد السوفيتي وتفككه زيادة احتمالات التنافس بينها. ومرد ذلك تحرر اليابان ودول الجماعة الأوروبية من حاجتها إلى مظلة الحماية النووية الأمريكية، وسوف تزداد إمكانات هذا التنافس في ظل ما سبق ذكره عن صعود ظاهرة التكتلات الاقتصادية بين اليابان والولايات المتحدة الأمريكية، وبين اليابان ودول الجماعة الأوروبية، وبين هذه الأخيرة والولايات المتحدة [٧٥]. ولاشك في أن هذه المنافسات سوف تلقي بتأثيراتها السلبية على طبيعة العلاقات بين الشمال والجنوب، ولذلك راح البعض يتحدث عن ضرورات «السلام العالمي الاقتصادي». ولم يقتصر التنافس بين دول الجماعة الأوروبية أو بعضها والولايات المتحدة الأمريكية على المستوى الاقتصادي فقط، بل امتد إلى المجال العسكري.

وفي هذا الإطار تسعى بعض دول الجماعة الأوروبية لتحقيق درجة أكبر من الاستقلال الذاتي في مجال الأمن والدفاع، وقد تجسد ذلك بشكل واضح في الاتفاق الذي أبرمته كل من فرنسا وألمانيا في مايو ١٩٩٢ لتشكيل فيلق فرنسي ـ ألماني مشترك قوامه من ٣٥ ـ ٤٠ ألف جندي يكون نواة لقوة دفاع أوروبية، وقد وجهتا الدعوة لدول أوروبية أخرى للاشتراك في هذه القوة. وقد أحدث هذا القرار ردود أفعال قوية من قبل كل من الولايات

المتحدة وبريطانيا، حيث هاجما الاتفاق صراحة، لما يمكن أن يحدثه من آثار سلبية على حلف الأطلنطي، إذ سيترتب عليه ازدواجية في الاختصاصات، وهذا من شأنه تعقيد عملية اتخاذ القرار العسكري في أوروبا، خاصة وأن فرنسا رفضت وضع الفيلق تحت قيادة حلف الأطلنطي، بل ان الاتفاق أحدث انقساما بين الدول الأوربية الأعضاء في الأطلنطي، فانضمت إلى بريطانيا في رفضها للاتفاق كل من هولندا والبرتغال وإيطاليا، بينما أبدت كل من بلجيكا ولكسمبورج واسبانيا استعدادها للانضمام إلى الاتفاق [٧٦]. ويجسد الاتفاق الفرنسي الألماني رغبة البلدين في بناء أوروبا كقوة عظمى، ولكي يتحقق هذا لابد وأن تتمتع بدرجة أكبر من الاستقلالية عن الولايات المتحدة الأمريكية سياسيا واقتصاديا وعسكريا.

وثالثها، أن انهيار التجارب الاقتصادية التي كانت قائمة على التخطيط المركزي في دول الكتلة الاشتراكية في أوروبا وفي بعض بلدان العالم الثالث التي سلكت نفس الطريق، لا يعني أن اقتصاد السوق وحده هو القادر على تقديم حلول ناجحة للمشكلات الاقتصادية الهيكلية على المستوى العالمي من ناحية، وبخاصة فيما يتعلق باتساع الفجوة بين دول الشمال ودول الجنوب، أو للمشكلات الاقتصادية الداخلية في دول الجنوب من ناحية ثانية. وقد صدر في منتصف عام ١٩٩٢ تقرير دولي أعدته هيئة التقرير الاقتصادي العالمي «التابعة للأمم المتحدة» [٧٧]. وقد خلص التقرير إلى أنه ليس بالسوق الحرة وحدها يحيا الاقتصاد العالمي، وأنه من الأهمية بمكان عدم تجاهل أو إهمال دور الدولة في الحياة الاقتصادية، فثمة مهام ووظائف لا يمكن أن تقوم بها سوى الدولة مثل: تحديد الإطار العام لاستراتيجية التنمية وأولوياتها، والرقابة على التزام القطاع الخاص والقطاع التعاوني بهذه الاستراتيجية، وإقامة مشروعات البنية التحتية مثل الطرق والكباري والمشآت، وبناء الصناعات الثقيلة التي لا يستطيع القطاع الخاص وبخاصة خلال المراحل الأولى أن يقوم بها، وتوفير أساسيات التعليم والصحة، وتحقيق العدالة في توزيع الدخول والثروات.

ورابعها، أن الحديث عن الانتصار النهائي للرأسمالية والليبرالية السياسية، بما يعنيه ذلك من رفض بروز أية أيديولوجيات ذات توجه عالمي، بل والترويج من قبل بعض الدوائر الغربية لفكرة العدو البديل، والإشارة إلى الإسلام في بعض الأحيان باعتباره هذا العدو [٧٨]. قد خلق ردود أفعال مضادة في العالم الإسلامي، إذ ساهم في إذكاء ظاهرة بروز بعض الجماعات والحركات الإسلامية المسيسة التي تطرح الإسلام كبديل حضاري عالمي، وبعضها يرفض الغرب جملة وتفصيلاً كما يرفض النظم الحاكمة في الدول الإسلامية، بل أن بعض هذه الجماعات يتخذ من العنف استراتيجية له للإطاحة بهذه النظم. ولا يتسع المقام هنا لتقييم هذه الظاهرة والبحث عن جذورها واستشراف مستقبلها [٧٩]، ولكن المؤكد أنها من أخطر التحديات التي تواجه النظم الحاكمة في الدول العربية والإسلامية، كما أن مواقف بعضها إزاء رفض الغرب لاشك فيها.

وإلى جانب الإسلام السياسي فإن مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتي، شهدت تصاعدا ملحوظا للظاهرة القومية في العديد من مناطق العالم [٨٠]. حيث راحت بعض الجماعات داخل بعض الدول تبحث عن هوياتها القومية وخصوصياتها الذاتية، وهناك دول تفككت بالفعل (الاتحاد السوفيتي، يوغسلافيا) على أسس دينية وقومية وعرقية، ودول أخرى مهددة بالتفتت تحت ضغوط نفس العوامل، وما يجري في بعض دول أوروبا الشرقية، وبعض دول الجنوب في الوقت

الراهن ليس بعيدا عن الأذهان. وهنا يبدو التناقض واضحاً بين الدعوة إلى نظام دولي جديد أو نظام عالمي جديد يشمل دول العالم قاطبة، وبين اتجاه بعض المجتمعات إلى التفكك الداخلي [٨١].

وبإيجاز، فإن الإسلام والقومية يشكلان بدرجات متفاوتة تحديا من قبل بعض القوى السياسية والاجتماعية في بعض دول الجنوب، وكذلك في دول رابطة الكومنولث وبعض دول أوروبا الشرقية، تشكلان تحدياً للطرح الأمريكي للنظام العالمي الجديد. وهكذا، فإن نظرة الغرب إلى قيمه باعتبارها تمثل الإطار المرجعي العالمي والوحيد، غالبا ما أدت - وستؤدي - إلى تنامي ظواهر للرفض والاحتجاج في المجتمعات ذات الهويات غير الغربية، إذ أن بعض القوى الاجتماعية والسياسية داخلها ستعتبر دعوة الغرب هذه بمثابة عدوان صامت على خصوصياتها الثقافية والحضارية. وعلى الرغم من وجود توجه عالمي نحو الديمقراطية حيث شملت رياح الديمقراطية ورثة الاتحاد السوفيتي وبقية بلدان أوروبا الشرقية، فضلا عن العديد من بلدان آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، إلا أن هذا الاتجاه لا يدعم مقولة الانتصار النهائي للديمقراطية الليبرالية، وذلك نظرا لأن الديمقراطية لم تستقر في هذه الدول لعدم توافر متطلباتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية من ناحية، ونظرا لوجود بعض المشكلات والتحديات التي تجابه عمليات بناء الديمقراطية في العديد من هذه الدول من ناحية ثانية. ولذلك، فإنه لا يمكن استبعاد احتمالات حدوث ردة أو انتكاسة عن هذا الاتجاه في بعض الدول التي أخذت به، وقد تظهر ديكتاتوريات ذات طابع ديني أو عسكري أو قومي أو طائفي [٨٢].

وخلاصة القول: إن انهيار الشيوعية لا يعني أن الرأسمالية والديمقراطية الليبرالية قد انتصرتا بصورة نهائية، وبذلك يكون التاريخ قد انتهى حسبما يتصور فوكوياما، بل إن نماذج التطبيق الرأسمالي تواجه مشكلات حادة في دول الأصل، كما أن تفكك الاتحاد السوفيتي قد أوجد مجالات جديدة للتنافس بين الدول الرأسمالية الكبيرة، فضلا عن بروز التحديات الأيديولوجية ذات الطابع الديني والقومي، وذلك كردود أفعال لسياسات إضفاء الطابع العالمي على أيديولوجية ظهرت وتبلورت في سياق التاريخ الغربي وهو الرأسمالية على المستوى الاقتصادي والديمقراطية الليبرالية على المستوى السياسي، وقيم الثقافة الغربية على المستوى الثقافي.

ثامناً: انعكاسات النظام الدولي الجديد على العالم العربي والإسلامي: موقع العرب والمسلمين في النظام الدولي الجديد

اهتم الفكر العربي برصد تأثيرات ما يعرف بالنظام الدولي الجديد على العالم العربي والإسلامي. وفي هذا الإطار، فإن هناك نوعين من الدراسات. دراسات ركزت على تناول تأثيرات ما يعرف بالنظام الدولي الجديد على العالم العربي والإسلامي بصفة عامة، [٨٣]. ودراسات أخرى ركزت على رصد تأثيرات متغيرات دولية بعينها على الوطن العربي. ومن ذلك على سبيل المثال: التحولات في أوربا الشرقية، وانهيار الاتحاد السوفيتي، وحركة الوحدة والاندماج في أوربا الغربية، والثورة الصناعية الثالثة [٨٤].

وثمة اتجاه غالب في الفكر العربي يؤكد على أن الآثار السلبية المتوقعة لما يعرف بالنظام الدولي الجديد على العالم العربي والإسلامي تفوق آثاره الإيجابية المتوقعة في هذا المضمار. فالمتغيرات الدولية الجديدة تفرض مزيداً من القيود على العرب والمسلمين، ولكن هذا لا يمنع من أنها قد تتيح لهم بعض الفرص. والفارق في الحالتين

أن الآثار السلبية مؤكدة أو شبه مؤكدة، وبدأت تؤتي تأثيراتها بالفعل، بينما الآثار الإيجابية احتمالية، ومشروطة بقدرة العرب على تبني الإستراتيجيات اللازمة لتعظيم الإيجابيات وتقليص السلبيات. وهناك من يؤكد على أن النظام الدولي الجديد يعادي العرب والمسلمين وأن الدول المهيمنة على هذا النظام لا تستخدم القوة العسكرية إلا ضد العرب. كما أنها تستهدف السيطرة على النفط العربي، وضرب الفكر القومي العربي، وتشويه الثقافة العربية، والحيلولة دون قيام الوحدة العربية. ولذلك فقد ناقش باحثون ومفكرون عرب تأثيرات النظام الدولي على قضايا عربية عديدة مثل: القومية العربية، والوحدة العربية، وقضية الديمقراطية في الوطن العربي، ودور إسرائيل في المنطقة، ودور النفط العربي في الاقتصاد العالمي والثقافة العربية... الخ [٨٥].

وفيما يتعلق بتأثيرات التحولات في أوربا الشرقية وانهيار الاتحاد السوفيتي على الوطن العربي، ركز الفكر العربي على عدد من الأمور في هذا السياق أهمها: فتح باب هجرة اليهود السوفيت إلى فلسطين المحتلة، ومايمكن أن يترتب على ذلك من آثار وتداعيات مستقبلية على التوازن الديموجرافي بين إسرائيل والفلسطينيين في الأراضي المحتلة. واتجاه دول أوربا الشرقية لاستئناف علاقاتها مع إسرائيل. [٨٦] كما ترتب على انهيار الاتحاد السوفيتي وتفككه فقدان التأييد الاستراتيجي لبعض الدول العربية من قبل قوة عظمى كانت توازن الولايات المتحدة الأمريكية. وبذلك تم تضييق هامش حرية الحركة الذي كان متاحاً لهذه الدول في ظل نظام القطبية الثنائية. وهو الأمر الذي أفسح المجال أمام الولايات المتحدة الأمريكية لتقوم بإعادة ترتيب أوضاع المنطقة على النحو الذي يخدم مصالحها ومصالح حلفائها. وهناك من المفكرين العرب من يرى أن انهيار الاتحاد السوفيتي قد أدى إلى تراجع مكانة إسرائيل في الاستراتيجية الأمريكية في المنطقة. ولكن الذي حدث في مرحلة ما بعد أزمة الخليج الثانية هو تدعيم التحالف الاستراتيجي بين إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، وخاصة في ظل الإدارة الأمريكية الحالية، وذلك نظراً لعوامل عديدة ليس هنا مجال الخوض فيها. وأكثر من هذا، فقد ألقت تحولات أوربا الشرقية بتأثيراتها السلبية على القوى اليسارية في الوطن العربي. ومن المعروف أن اليسار العربي كان يعاني من أزمة متعددة الأبعاد، حتى قبل أن تحدث التحولات في أوربا الشرقية [٨٧].

أما بخصوص انعكاسات مشروع «أوربا ١٩٩٢» وآفاقه الوحدوية والاندماجية على الوطن العربي، فالملاحظ أن الباحثين والمفكرين العرب قد أولوا هذا الموضوع أهمية أكبر بكثير من تلك التي أولوها للتحولات في أوربا الشرقية.

ويرجع ذلك إلى اعتبارات عديدة، منها: عامل القرب الجغرافي من ناحية، واتساع حجم العلاقات الاقتصادية والتجارية بين العرب وأوربا من ناحية ثانية. وفي هذا الإطار ناقش باحثون عرب - تأثيرات «مشروع أوربا ١٩٩٢» على الوطن العربي بخصوص قضايا عديدة تتعلق بالتجارة والاستثمارات والنفط والمساعدات الاقتصادية وحركة الهجرة، وخاصة من بلدان شمال إفريقيا إلى أوربا. والنتيجة الأساسية التي خلص إليها الفكر العربي في هذا الصدد هي أن «مشروع أوربا ١٩٩٢» في حالة اكتماله سوف يطرح على العرب تحديات جديدة، ويضع عليهم قيوداً جديدة كما ناقشوا سياسة الجماعة الأوربية تجاه عدد من قضايا المنطقة العربية ذات الطابع السياسي مثل عملية تسوية الصراع العربي - الإسرائيلي، والأمن في الخليج، والظاهرة الإسلامية في بعض البلاد العربية. وقد أثبتت خبرة كارثة الخليج الثانية محدودية الدور الأوربي في التأثير على القضايا العربية مقارنة بالدور الأمريكي فيها [٨٨]. وربما يرجع ذلك إلى أسباب عديدة منها:

انشغال دول الجماعة الأوروبية بهمومها الداخلية وبالمشكلات الناجمة عن مشروعها التوحيدي، فضلاً عن انشغالها بالتحولات في أوروبا الشرقية. كما أن عدم تبلور سياسة خارجية موحدة للجماعة الأوروبية يعتبر عاملاً هاماً في التأثير على فاعلية دورها تجاه القضايا العربية.

كما تناولت بعض الدراسات العربية التطورات الجارية في اليابان والصين ورصدت إمكانات تأثيرها على المنطقة العربية. وقد أوصت هذه الدراسات بضرورة انفتاح العرب على كل من اليابان والصين، باعتبارهما من القوى الصاعدة في النظام الدولي. ومن ثم فإن مزيداً من الانفتاح عليهما يمكن أن يوسع من هامش حرية الحركة المتاح للدول العربية على الصعيد الدولي (٨٩).

أما بخصوص تأثير ما يعرف بالنظام الدولي الجديد على قضية التطور الديمقراطي في الوطن العربي «فقد أكد الفكر العربي على أن بعض المتغيرات الدولية الجديدة تساهم في خلق بيئة ملائمة للتطور نحو الديمقراطية في الوطن العربي. ومن هذه المتغيرات على سبيل المثال (٩٠): انهيار النظم الشيوعية القائمة على الأنساق السياسية المغلقة في أوروبا الشرقية، وبذلك فقد نظام الحزب الواحد حجته التاريخية ومصداقيته السياسية. كما أن انهيار الاتحاد السوفيتي حرر الولايات المتحدة الأمريكية من دعم ومساندة النظم الاستبدادية على غرار ما كانت تفعل في ظل نظام الحرب الباردة. وفي هذا الإطار فإن الولايات المتحدة الأمريكية يمكن أن تستخدم نفوذها الدولي لدعم التحولات الديمقراطية على الصعيد العالمي. ولكن على الجانب الآخر هناك بعض المتغيرات الدولية الجديدة يمكن أن تصب في اتجاه عرقلة التطور الديمقراطي في الوطن العربي. فما يعرف بالنظام الدولي الجديد يتسم باللاديمقراطية في بنية وأنماط العلاقات بين وحداته على نحو ما سبق ذكره. كما أن الثورة الصناعية الثالثة تساهم في تعميق الفجوة بين الجنوب والشمال وهو الأمر الذي سيؤدي إلى تفاقم المشكلات بين الجنوب والشمال، وما يمكن أن يترتب على ذلك من تداعيات سلبية على قضية الديمقراطية في الوطن العربي. والأهم من هذا كله أن الديمقراطية في الوطن العربي لا تأتي ضمن أولويات الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة. وهناك العديد من الظواهر والمؤشرات الدالة على ذلك (٩١).

وهناك من يرى أن المتغيرات الدولية الجديدة تتضمن بعض الإيجابيات التي يمكن للعرب استثمارها لتدعيم دورهم في صياغة النظام الدولي الجديد. ومن هذه الإيجابيات على سبيل المثال: أن الثورة الصناعية الثالثة ساهمت في شيوع الخبرة والمعرفة وتستطيع الدول العربية أن تستفيد منها. كما أن تنامي ظاهرة التكتلات الاقتصادية الكبرى يسمح للعرب بالمزيد من حرية الحركة والمناورة للحصول على شروط أفضل فيما يتعلق بالعلاقة بين هذه التكتلات. ويرى البعض أن انهيار الاتحاد السوفيتي قد ساهم في تراجع أهمية إسرائيل كحليف استراتيجي للغرب (٩٢).

وقد اهتم بعض الباحثين والمفكرين العرب بدراسة تأثيرات المتغيرات الدولية الجديدة على بعض مفاهيم ونظريات علم السياسة. فهناك مفاهيم بدأت تذبل وتتراجع مثل مفهوم الحزب الواحد ومفهوم العالم الثالث. وهناك مفاهيم وظواهر بدأت معانيها تتغير، ومن ذلك على سبيل المثال مفاهيم: القوة والحدود والأحلاف والسيادة الوطنية والأمن الجماعي والسلام العالمي. وهكذا، فإن تأثيرات التغيرات الجارية في النظام الدولي لن تقتصر على العلاقات والتوازنات بين الدول فحسب، ولكنها سوف تحدث تغيرات ولو جزئية في البنية المفاهيمية لعلم السياسة وبخاصة فرع العلاقات الدولية (٩٣).

تاسعاً: كيف يتعامل العرب مع النظام العالمي الجديد: الإمكانيات والخيارات

لقد طرح الفكر العربي بعض الرؤى والتصورات لكيفية التعامل مع ما يُعرف بالنظام الدولي الجديد أو المتغيرات الدولية الجديدة على مستويين. أولهما، جزئي، حيث ركز بعض الباحثين والمفكرين العرب على طرح بعض التصورات والأساليب التي يتعين على العرب أن يتعاملوا بها مع متغيرات دولية بعينها. وثانيهما، كلّي حيث كان التركيز على تقديم رؤى وتصورات كلية وشاملة لكيفية تعامل العرب مع ما يُعرف بالنظام الدولي الجديد. وعادة ما تتسم هذه الرؤى بدرجة أكبر من العمومية.

أما فيما يتعلق بكيفية تعامل العرب مع متغيرات دولية بعينها، فقد ركز بعض الباحثين العرب على طرح بعض الأفكار والرؤى التي من شأنها تمكين العرب من التعامل بفاعلية مع أوروبا الموحدة، والثورة الصناعية الثالثة، ووراثة الاتحاد السوفيتي، والولايات المتحدة الأمريكية في ظل إدارة كلينتون، فضلاً عن بعض القوى الدولية الصاعدة مثل ألمانيا واليابان والصين (٩٤).

وعلى الرغم من تشعب الأفكار والرؤى التي طرحها باحثون عرب للتعامل مع هذه المتغيرات والقوى الدولية، إلا أنه كان يتهم شبه اتفاق على عدد من الأمور العامة التي تعتبر بمثابة مقدمات ضرورية للتعامل العربي مع هذه المتغيرات. ومن أهم هذه المقدمات: إعادة ترتيب البيت العربي من الداخل أولاً، وذلك بإعادة صياغة العلاقات العربية ـ العربية على أسس جديدة تقوم على المصارحة والمكاشفة وتصفية مصادر الصراع والتوتر بين بعض الأقطار العربية والاتفاق على أسس وقواعد لإدارة هذه الصراعات وحلها. يرتبط بذلك ضرورة التقييم الموضوعي والجاد لخبرة العمل العربي المشترك خلال العقود الخمسة المنصرمة، بقصد الوقوف على الأسباب الجوهرية لتعثر العمل العربي المشترك وطرح بعض الرؤى والأفكار الواقعية للتغلب على هذه المعوقات؛ بالإضافة إلى تطوير استراتيجيات وبرامج عربية للتعامل مع كل من المتغيرات الدولية التي سبق ذكرها على حدة، وذلك بقصد تدعيم قدرة العرب على التكيف مع المتغيرات الدولية الجديدة من ناحية. وتعظيم الفرص التي تتيحها لهم بعض هذه المتغيرات من ناحية ثانية، وتقليص السلبيات والقيود التي تفرضها عليهم متغيرات دولية أخرى من ناحية ثالثة. ومثل هذه الاستراتيجيات لا يمكن تطويرها إلا في إطار المؤسسة العربية الأم وهي الجامعة العربية بمؤسساتها وأجهزتها المختلفة. ومن هنا تبدو أهمية تطوير الجامعة العربية وإحياء دورها حتى تستطيع أن تنهض بمسئولياتها في دعم العمل العربي المشترك وتفعل دور العرب في النظام الدولي الذي يمر بمرحلة تحول وإعادة صياغة الوقت الراهن. وفي هذا الإطار أكد بعض الباحثين والمفكرين العرب على صياغة استراتيجية عربية للتعامل مع العلم والتكنولوجيا الحديثة. وثانية للتعامل مع التكتلات الاقتصادية الدولية. وثالثة لتوثيق علاقات العرب بالقوى الدولية الصاعدة، ورابعة للحوار مع الثقافات الأخرى. ويسبق كل ذلك استراتيجية عربية لتحقيق التكامل العربي وتدعيم الديمقراطية وحقوق الإنسان في الأقطار العربية، فضلاً عن تعميق الأصالة الثقافية والحضارية، وتحقيق التنمية والعدل الاجتماعي.

أما الرؤى الكلية لكيفية التعامل مع ما يُعرف بالنظام الدولي الجديد فقد طرحت بصفة أساسية من قبل بعض رموز قوى التيار الإسلامي والتيار القومي في الوطن العربي. وفي هذا الإطار فقد أكد مفكرون

قوميون على عدة مدخلات للتعامل العربي مع النظام الدولي الجديد منها [٩٥]: إحياء القومية العربية والسعي لتحقيق الوحدة العربية، وإحياء النظام العربي، وإحياء دور الجامعة العربية، وتدعيم سياسات التنمية المستقلة والاعتماد الفردي والجماعي على الذات في الوطن العربي وتحقيق التعايش والتفاعل الموضوعي بين مختلف التيارات السياسية في الوطن العربي وبخاصة التيارات القومية والتيارات الإسلامية. وتأكيد الروابط النضالية مع دول الجنوب والحركات السياسية والاجتماعية فيها، وإسقاط الدعاوى التي تحاول ترسيخ مقولة نهاية حركة عدم الانحياز، وتدعيم التعاون العربي ـ الإفريقي، وتهيئة الأقطار العربية للانفتاح على القارة الآسيوية لتقليل الاعتماد العربي على الدول الغربية وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، ونشر الوعي بين دول الجنوب كافة بأهمية حماية حقوقها في المنظمة الدولية وتعزيز التعاون بين المنظمة الدولية والمنظمات الإقليمية.

أما بعض رموز التيارات الإسلامية فقد طرح رؤى عامة لكيفية تعامل العرب والمسلمين مع ما يعرف بالنظام الدولي الجديد. وقد تمحورت هذه الرؤى حول عدد من الأفكار منها [٩٦]: إحياء المشروع الحضاري الإسلامي باعتباره يمتلك القدرة على طرح بديل للنموذج الحضاري الغربي، ووضع الإسلام موضع التطبيق في الدول الإسلامية، ومقاومة النظم السياسية التسلطية والعميلة في البلدان الإسلامية. فالعودة إلى الله والإيمان والعمل، تلك أمور تمثل أسساً للعزة والكرامة في التعامل الدولي. والتحريض على مواجهة ومجاهدة أمم الكفر والضلال. هذا وقد أكد بعض المفكرين الإسلاميين على ضرورة إقامة سوق اقتصادية إسلامية مشتركة، وتدعيم أسس التعاون والتكامل بين الدول الإسلامية في مختلف المجالات، وترشيد حركة الإحياء الإسلامي، وتدعيم الروابط بين القوى والحركات الإسلامية في مختلف بلدان المسلمين. فالقوى الإسلامية المسلحة بالعقيدة هي القادرة على رفض كافة صور الهيمنة والاستغلال التي يفرضها النظام الدولي الجديد على المسلمين وتحديها.

وهكذا، تقوم رؤى وتصورات التيارات القومية والإسلامية للتعامل مع ما يعرف بالنظام الدولي الجديد على أساس مواجهة هذا النظام ورفض إمكانات التعايش أو التكيف معه.

ومرد ذلك طبيعة وخصوصية رؤية أو رؤى قوى كل من التيارين لماهية النظام الدولي الجديد وتأثيراته القائمة والمحتملة على العرب والمسلمين. فمن وجهة نظر التيارات القومية هو يعادي فكرة القومية العربية والوحدة العربية والتنمية المستقلة ويكرس علاقات السيطرة والهيمنة على العرب من قبل القوى صاحبة السيطرة في هذا النظام وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية. أما من وجهة نظر التيارات الإسلامية، فإن مايعرف بالنظام الدولي الجديد يناصب الإسلام العداء، بل ويشن حربا صليبية جديدة على المسلمين. وفي هذا الإطار، ترتكز فكرة المواجهة لدى قوى التيار القومي على مقولة إحياء المشروع القومي العربي، بينما ترتكز فكرة المواجهة لدى قوى التيار الإسلامي على مقولة إحياء النموذج الحضاري الإسلامي. وهناك بعض الأصوات التي تطالب بضرورة التحالف بين قوى التيار القومي وقوى التيار الإسلامي لمواجهة التحديات والمخاطر التي تستهدف العرب والمسلمين من قبل النظام الدولي.

هذا وقد اتسمت مقولات ورؤى قوى التيار القومي وكذلك التيار الإسلامي فيما يتعلق بكيفية التعامل

مع النظام الدولي الجديد بطابع العمومية والتجريد. حيث طرح بعض رموز التيارين أهدافا وأفكارا عامة - بعضها مطروح منذ عدة سنوات سابقة - وهي أقرب إلى منطق التفكير بالأماني، خاصة وأن القائلين بها لم يناقشوا بصورة جادة كيفية تحقيق هذه الأهداف أو بالأحرى كيفية إيجاد الشروط الموضوعية اللازمة لتحقيق هذه الأهداف. كما أنهم لم يطرحوا تصورات محددة لما يجب عمله إلى حين أن يتم إحياء المشروع القومي العربي أو المشروع الحضاري الإسلامي. ناهيك عن المسحة الأيديولوجية والعاطفية الفجة التي ميزت طروحات بعض المفكرين المنتمين إلى قوى التيارين المذكورين.

ملاحظات ختامية

وفي ختام هذا البحث يمكن التأكيد على عدد من الاستنتاجات التي تلخص أبرز خصائص الفكر العربي بصدد تعامله مع المتغيرات الدولية الجديدة أو ما يعرف بالنظام الدولي الجديد (٩٧).

أولى هذه الملاحظات، غلبة النظرة الحدية على رؤى وتصورات بعض المفكرين والباحثين العرب المتعلقة بفهم التطورات والمتغيرات التي تجري على الصعيد الدولي في الوقت الراهن. فهناك فريق يسلم بوجود نظام دولي جديد، ويشير إلى هذا النظام معرفا، فيستخدم تعبير النظام الدولي الجديد. وهناك فريق آخر ينفي وجود نظام دولي جديد. وما بين هذين الفريقين يوجد فريق ثالث يؤكد على أن هناك نظاما دوليا جديدا لكنه لايزال تحت التكوين أو قيد التشكيل. وداخل معسكر القائلين بوجود نظام دولي جديد، هناك من يؤكد أنه نظام آحادي القطبية، وهناك من يقول بأنه نظام متعدد الأقطاب، وهناك من يشير إلى أنه نظام آحادي على الصعيد الاستراتيجي ومتعدد على الصعيد الاقتصادي والمالي.

وتعكس هذه النظرة الحدية من قبل بعض المفكرين العرب في رؤيتهم للنظام الدولي الجديد عدة دلالات منها: غلبة الانحيازات القيمية والأيديولوجية المسبقة في فهم المتغيرات الدولية، والخلط بين التحليل العلمي والتعبير عن الموقف السياسي، فضلا عن غلبة النظرة الآنية في تحليل الأحداث والتطورات الدولية وإصدار أحكام نهائية بشأنها. فالمعروف أن التغير في النظام الدولي لا يكون وليد حدث بعينه، ولكنه عادة ما يكون نتاجا لجملة من التطورات والتغيرات الجزئية التي تحدث على فترة ممتدة من الزمن، وتحدث تراكمات يترتب عليها حدوث تغير نوعي في طبيعة النظام. وقد تأتي بعض الأحداث الدولية الكبرى لتعلن أو تكشف عن طبيعة هذا التغير وحجمه.

وثانيتها، غلبة طابع الوصف على الكثير من الدراسات العربية التي تناولت موضوع النظام الدولي الجديد. حيث ركزت هذه الدراسات على رصد بعض المتغيرات الدولية الجديدة دون التعمق في فهمها وتحليلها وتفسيرها.

وثالثتها، غياب المنهاجية التاريخية المقارنة عن جل البحوث والدراسات العربية التي عالجت القضية موضع البحث. ومن المؤكد أن هذه المنهاجية هي الأكثر ملاءمة لتقديم إجابات على بعض التساؤلات الهامة مثل: متى يحدث التغير في هيكل النظام الدولي؟. وكيف يحدث هذا التغير؟. فمن خلال هذا المدخل يمكن التعمق في تحليل العوامل الأساسية المحركة للتغير في النظام الدولي الراهن، وديناميات هذا التغير.

ورابعتها، ضعف اهتمام الفكر العربي بتحليل ورصد واستشراف دور بعض القوى الدولية الصاعدة في النظام الدولي الجديد، وهي بالتحديد اليابان والصين وألمانيا. فضلا عن بعض القوى الإقليمية الأخرى الهامة في القارات الثلاث. فاهتمامات الباحثين والمفكرين العرب بهذه القوى تعتبر محدودة من حيث الكم والكيف عند مقارنتها بطبيعة اهتمامهم بالولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي (السابق) وأوروبا الغربية. وقد أصبح من المؤكد أهمية وضرورة التركيز على فهم القوى الصاعدة في النظام الدولي، وتحليل رؤى وتصورات النخب الحاكمة فيها لماهية النظام الدولي الجديد، وطرح بعض الاستراتيجيات والخطط التي من شأنها توثيق علاقات العرب بهذه القوى، لأن هذا من شأنه منح العرب قدرا من حرية الحركة والمناورة في التعامل على الصعيد الدولي.

وخامستها، أن الفكر العربي لم يطرح في الغالب أفكارا وتصورات محددة لكيفية التعامل مع ما يعرف بالنظام الدولي الجديد. وقد جاءت أغلب الرؤى والطروحات في هذا المجال عامة جدا وفضفاضة، أي لم تتضمن اقتراحات عملية في شكل سيناريوهات وبدائل مشروطة لكيفية التعامل العربي الفعال مع المتغيرات الدولية الجديدة بالشكل الذي يدعم من موقع العرب في النظام الدولي الجديد الذي لا يزال تحت التشكيل، والذي قد تستغرق عملية تكوينه بقية سنوات القرن العشرين وربما بعض سنوات القرن الحادي والعشرين.

وهكذا، يتعين على الفكر العربي القيام بعملية مراجعة نقدية جادة لمختلف الأفكار والطروحات التي أنتجها حول النظام الدولي الجديد، وذلك بقصد التوصل إلى فهم أعمق لماهية العوامل الدافعة إلى التغيير في النظام الدولي، وديناميات هذا التغيير وآفاقه المستقبلية وانعكاساته القائمة والمحتملة على الوطن العربي، فضلا عن بلورة بعض التصورات والمقترحات العملية التي تمكن العرب من التعامل بفاعلية مع التغيرات الدولية الجديدة.

الهوامش

(١) لمزيد من التفاصيل حول تحليل الرؤية الأمريكية الرسمية وغير الرسمية للنظام الدولي الجديد انظر:
أحمد عبد الرزاق شكارة، «الفكر الاستراتيجي الأمريكي والشرق الأوسط في النظام الدولي الجديد»، المستقبل العربي، عدد ١٧٠ (إبريل ١٩٩٣)، ص ٥٢ ـ ٥٧، الصغير الرحالي، «النظام العالمي الجديد: رؤية نقدية»، المجلة العربية للدراسات الدولية، عدد ٣ ـ ٤ (ربيع ـ صيف ١٩٩٢)، ص ٥ ـ ٢٢، د. نادية مصطفى، «النظام الدولي»، في: الأمة في عام (تقرير حولي) (القاهرة: مركز الدراسات الحضارية، ١٩٩١/١٩٩٢)، ص ٩١ ـ ٧٧.

(٢) انظر على سبيل المثال:
د. إبراهيم حلمي عبد الرحمن (محرر)، عالم الغد... عالم واحد أم عوالم متعددة (القاهرة: كتاب الأهرام الاقتصادي، عدد ٤٤، أكتوبر ١٩٩١)، ونفس المؤلف، التطورات الدولية الجارية... فرص ومخاطر (القاهرة: كتاب الأهرام الاقتصادي، عدد ٣٧، مارس ١٩٩١)، السيد يسين، التغيرات العالمية وحوار الحضارات في عالم متغير (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، كراسات استراتيجية، عدد ١٤، مارس ١٩٩٣)، أنور عبد الملك، تغيير العالم (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عدد ٩٥، نوفمبر ١٩٨٥)، د. حسن نافعة، الأمم المتحدة بعد نهاية الحرب الباردة، (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، كراسات استراتيجية، عدد ١٠، يوليو ١٩٩٢)، أحمد شرف، محنة النظام الدولي قبل وبعد حرب الخليج (القاهرة: دار الثقافة الجديدة، ١٩٩٢)، أحمد الموصللي، الأصولية الإسلامية والنظام العالمي (بيروت: مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، ط ١، ١٩٩٢) الصادق المهدي، الإسلام والنظام العالمي الجديد (دائرة الإعلام الخارجي - حزب الأمة، د. ت)، حلقتي حسن النقيب ومبارك المدولي، تيارات التسعينيات: العالم العربي وصراعات نهاية القرن (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١، ١٩٩١)، د. سعد الدين إبراهيم (محرر)، مستقبل النظام العالمي وتجارب تطوير التعليم (عمان: منتدى الفكر العربي، ط ١، ١٩٩٢) د. سعد الدين إبراهيم ود. حسن وجيه (محرران)، أزمة الخليج ومستقبل الشرق الأوسط: رؤى عربية وأمريكية (القاهرة: مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية، ط ١، ١٩٩٢)، د. سيف الدين عبد الفتاح، طلعة البوهي: دراسة لأزمة الخليج: رؤية لقضية الواقع العربي في ضوء النظام العالمي الجديد (القاهرة: دار البشير، العربية، ط ١، ١٩٩١)، د. علي الدين هلال (محرر)، العرب والعالم (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ١٩٨٨)، عبد الوارث سعيد، العالم والنظام العالمي الجديد (القاهرة: أمة برس للإعلام والنشر، ١٩٩١)، د. عبد المنعم سعيد، مصر والنظام الدولي في التسعينيات (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، سلسلة بحوث سياسية، عدد ٨، أغسطس ١٩٨٨)، ونفس المؤلف، العرب ومستقبل النظام العالمي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ١٩٨٧)، ونفس المؤلف، العرب والنظام العالمي الجديد: الخيارات المطروحة (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، كراسات استراتيجية، عدد ٣، مايو ١٩٩١)، د. عبد الخالق عبد الله، العالم المعاصر والصراعات الدولية (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٩)، عمرو موسى، التحولات في النظام الدولي وانعكاسها على العالم الثالث: نظرة مستقبلية (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية: سلسلة بحوث سياسية، عدد ٥، مايو ١٩٨٨)، جهاد فوزي شعيبي، النظام السياسي العالمي الجديد (دمشق: دار الأهالي، ١٩٩١)، مجموعة من الباحثين، آفاق الديمقراطية في الوطن العربي في ضوء التطورات الدولية (القاهرة: دار المستقبل العربي، ط ١، ١٩٩١)، د. محمد السيد سعيد، آفاق النظام الدولي في التسعينيات (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، سلسلة بحوث سياسية، عدد ٨١، أغسطس ١٩٨٩)، ونفس المؤلف، (محرر)، الوطن العربي والمتغيرات العالمية (القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ط ١، ١٩٩١)، ونفس المؤلف، مستقبل النظام العربي بعد أزمة الخليج (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط ١ فبراير ١٩٩٢)، د. نازلي معوض أحمد (محرر)، الوطن العربي في عالم متغير (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ط ١، ١٩٩١).

(٣) جدير بالذكر أن أكثر الدوريات العربية اهتماما بموضوع النظام الدولي الجديد خلال الأعوام الثلاثة المنصرمة هي: الوحدة، والمستقبل العربي، وشئون عربية، والسياسة الدولية.

(٤) من هذه الندوات على سبيل المثال ما يلي:
ندوة «العرب ونظام عالمي جديد» التي نظمتها الجمعية العربية للعلوم السياسية في القاهرة خلال فترة ١٣ ـ ١٤/ ٩/ ١٩٩٢، وندوة «مفهوم وآليات النظام العالمي الجديد» التي نظمها مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة خلال الفترة ٢٤ ـ ٢٧/ ١٢/ ١٩٩٢، وندوة «العرب في عالم متغير» التي نظمتها اللجنة المصرية للتضامن في القاهرة خلال الفترة ١٦ ـ ١٧/ ١/ ١٩٩٣، وندوة «العالم العربي وتحدياته في ظل النظام الجديد» التي نظمها مركز الدراسات العربي ـ الأوربي بباريس خلال الفترة ٢٥ ـ ٢٧/ ١/ ١٩٩٣، وندوة «الوضع الدولي الجديد» التي نظمتها كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة الفاتح طرابلس ـ ليبيا خلال الفترة ٥ ـ ٧/ ٤/ ١٩٩٣.

(٥) انظر على سبيل المثال:
جهاد فوزي شعيبي، «من عولمة النظام العالمي الجديد إلى تاريخيته»، شئون دولية، عدد ١ (صيف ١٩٩٢)، ص ١١ ـ ١٣، محمد الأطرش، «تطور النظام الدولي»، المستقبل العربي، عدد ١٧١ (مايو ١٩٩٣)، ص ٢٥ ـ ٥٦.

(٦) انظر على سبيل المثال:

حسن سيد سليمان، «تكييف طبيعة الأوضاع العالمية الجديدة»، ورقة قدمت إلى ندوة «العرب ونظام عالمي جديد»، مرجع سبق ذكره، د. سليم الحص، «أي نظام عالمي جديد»، الفكر العربي، عدد ٦٦ (أكتوبر ـ ديسمبر ١٩٩١)، ص ١٢ ـ ٣٥، د. سيف الدين عبدالفتاح، «حول التحيز في مفهوم النظام العالمي الجديد»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٨ (خريف ١٩٩٢)، ص ٧ ـ ٨٠، محمد السيد سعيد، «أطروحة النظام العالمي الجديد بين الاستبداد والمشاركة»، العربي، عدد ٤٠٣ (يونيو ١٩٩٢)، محمد تاج الدين الحسيني، «النظام الدولي الجديد بين الوهم والواقع»، الوحدة، عدد ٩٠ (مارس ١٩٩٢)، ص ٦٨ ـ ٧٤.

(٧) انظر على سبيل المثال:

سمير أمين، «الترعة العسكرية الأمريكية في النظام الدولي الجديد»، الوحدة، عدد ٩٠ (مارس ١٩٩٢)، ص ٣١ ـ ٥٠، ولنفس المؤلف «بعد حرب الخليج... الهيمنة الأمريكية... إلى أين؟»، المستقبل العربي، عدد ١٧٠ (أبريل ١٩٩٣)، ص ٤ ـ ٢٢، حزت سيد أحمد، «هل بدأ عصر الهيمنة الأمريكية»، الوحدة، عدد ٩٨ (نوفمبر ١٩٩٢)، ص ٩٦ ـ ١٠٧، د. عبدالمنعم المشاط، «هيكل النظام العالمي الجديد» ورقة قدمت إلى ندوة «مفهوم وآليات النظام العالمي الجديد» مرجع سبق ذكره، د. طه عبدالعليم، الدور الروسي في النظام العالمي الجديد، ورقة قدمت إلى ندوة «مفهوم وآليات النظام العالمي الجديد» مرجع سبق ذكره، د. محمد السيد سعيد، «احتمالات التطور المستقبلي للنظام الدولي»، ورقة قدمت إلى ندوة «مفهوم وآليات النظام العالمي الجديد» مرجع سبق ذكره، د. نها المكاوي، «الدور الأمريكي في النظام العالمي الجديد»، ورقة قدمت إلى ندوة «مفهوم وآليات النظام العالمي الجديد» مرجع سبق ذكره، د. هالة مسعودي، «القوى الصاعدة في النظام العالمي الجديد: أوروبا واليابان»، ورقة قدمت إلى ندوة «مفهوم وآليات النظام العالمي» مرجع سبق ذكره.

(٨) انظر على سبيل المثال:

إبراهيم البيومي غانم «الحركة الإسلامية المصرية والنظام الدولي الجديد»، في د. مصطفى كامل السيد (محرر)، حتى لا تنشب حرب عربية ـ عربية (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ط ١، ١٩٩٢)، ص ٢٣ ـ ٦٢، أحمد موصللي، «الإسلام والنظام العالمي الجديد من وجهة نظر الأصولية الإسلامية»، منبر الحوار، عدد ١٨ (صيف ١٩٩٠)، أحمد بن بلة، «الإسلام والنظام العالمي»، منبر الحوار، عدد ١٨ (صيف ١٩٩٠)، ص ١٤٣ ـ ١٥٥، الصغير الرحماني، مرجع سبق ذكره، د. حسنين توفيق إبراهيم، «الفكر العربي وإشكالية النظام العالمي الجديد»، شئون عربية، عدد ٦٩ (مارس ١٩٩٢)، ص ٤٩ ـ ٦٩، زكي أحمد «النظام العالمي الجديد في تصور الإسلاميين العرب»، المستقبل العربي، عدد ١٥٧ (مارس ١٩٩٢)، ص ١٣٦ ـ ١٤٢، د. عبدالوهاب المسيري، «النظام العالمي الجديد ونهاية التاريخ والإنسان: رؤية معرفية»، في:

الأمة في عام (تقرير حولي)، مرجع سبق ذكره، ص ٨٠ ـ ١٩٩٣، عماد جاد، «رؤية العرب للنظام الدولي»، رؤية، العدد ١ (يوليو ١٩٩١)، ص ٨ ـ ١٤، د. ودودة بدران، «الرؤى المختلفة للنظام العالمي الجديد»، ورقة قدمت إلى ندوة «مفهوم وآليات النظام العالمي الجديد»، مرجع سبق ذكره.

(٩) انظر على سبيل المثال:

المختار المطيع، «محاولة في تفسير طبيعة النظام الدولي الجديد وموقع العرب منه»، الوحدة، عدد ٩٠ (مارس ١٩٩٢)، أحمد ثابت، «أوروبا الموحدة والعرب وتحولات نهاية القرن»، الفكر العربي، عدد ٦٨ (إبريل ـ يونيو ١٩٩٢)، ص ٢٠ ـ ٢٧، أحمد طه، قضايا إفريقيا والنظام العالمي الجديد، السياسة الدولية، عدد ١١٣ (يوليو ١٩٩٣)، ص ٥٠ ـ ٦٩، جاسم محمد عبد الغني، «التغيرات العالمية وانعكاساتها على الوطن العربي»، المستقبل العربي، عدد ١٣٩ (سبتمبر ١٩٩٠)، د. حسنين توفيق إبراهيم، «التحولات الراهنة في أوروبا الشرقية وانعكاساتها على الوطن العربي»، الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٣٤ (أكتوبر ١٩٩٠)، ص ١٦٩ ـ ٢١٢، طه عبدالعليم (محرر)، انهيار الاتحاد السوفيتي وتأثيراته على الوطن العربي (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ط ١ ـ ١٩٩٢)، د. رجاء سليم، «النظام العالمي الجديد وانعكاساته على إفريقيا»، السياسة الدولية، عدد ١٠٧ (يناير ١٩٩٢)، ص ١٨٣ ـ ١٨٨، عبدالله عبد الدايم، «هل يقدر أبناء العالم الثالث البزيرة الجدد في النظام الدولي الجديد»، المستقبل العربي، عدد ١٦٠ (يونيو ١٩٩٢)، عبد الإله بلقزيز، «العرب والنظام الدولي الجديد»، شئون عربية، عدد ٦٥ (إبريل ١٩٩١)، ص ١٠٣ ـ ١١٢، محمد شوقي عبد العال حافظ، «موقع العرب في النظام العالمي الجديد»، شئون عربية، عدد ٥٧ (سبتمبر ١٩٩٣) ص ٦٧ ـ ٩٨ د. ناصيف يوسف حتي، «التحولات في النظام العالمي والمناخ الفكري الجديد وانعكاسه على النظام الإقليمي العربي»، المستقبل العربي، عدد ١٦٥ (نوفمبر ١٩٩٢)، ص ٩٢ ـ ٥٢، نصير نوري محمد، «العالم الثالث والنظام العالمي الجديد: قضايا تنتظر التحليل الاستراتيجي»، الوحدة، عدد ٩٩ (ديسمبر ١٩٩٢)، د. ياسين سويد، «موقع الوطن العربي في النظام الدولي الجديد»، الوحدة، عدد ١٠٠ (يناير ١٩٩٣)، ص ٧٢ ـ ٧٩، وحيد عبد المجيد، «تأثير تفكك الاتحاد السوفيتي على العالم العربي والإسلامي»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٥ (شتاء ١٩٩٢)، ص ٢١٢ ـ ٢٣٦، ياسين العيوطي، «إفريقيا في عالم ما بعد الحرب الباردة»، السياسة الدولية، عدد ١٠٦ (أكتوبر ١٩٩١)، ص ٢٦ ـ ٣٥.

(١٠) انظر على سبيل المثال:

د. إبراهيم سعد الدين، «التنمية المستقلة والتغيرات الدولية المعاصرة»، المستقبل العربي، عدد ١٥٧ (مارس ١٩٩٢)، ص ١٧ ـ ٢٧، المختار المطيع، «قضية الصومال والنظام العالمي الجديد» الوحدة، عدد ١٠١ ـ ١٠٢ (فبراير ـ مارس ١٩٩٣)، ص ٩٩ ـ ١٠٤، د. برهان غليون، «النظام الدولي الجديد ومستقبل الوطن العربي»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ١ (شتاء ١٩٩١)، ص ٧٣ ـ ٨٦، د. حسنين توفيق إبراهيم، النظام الدولي الجديد وإشكالية التطور الديمقراطي في الوطن العربي: قضايا وتساؤلات (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب ودار سعاد الصباح، ط ١ ـ ١٩٩٢)، خليل أحمد خليل، «الخيار الوحدوي العربي في ظل النظام الدولي الجديد»، الوحدة،

عدد ٩٠ (مارس ١٩٩٢)، ص ٨ ـ ١٥، ولنفس المؤلف، «المشروع القومي العربي في مواجهة التغيرات العالمية الجديدة»، الوحدة عدد ١٠٠ (يناير ١٩٩٣)، ص ٢٥ ـ ٣٢، د. عبد المنعم سعيد، «الديمقراطية والنظام العالمي الجديد»، الديمقراطية ـ الكتاب الرابع (أغسطس ١٩٩٢)، ص ٥ ـ ١٥، عبدالله عبد الدايم، «القومية العربية ومستقبل النظام العالمي»، شئون عربية، عدد ٧٤ (يونيو ١٩٩٣)، ولنفس المؤلف، القومية العربية ومستقبل النظام العالمي الجديد، شئون عربية، عدد ٦٩ (مارس ١٩٩٢)، ص ٢٢ ـ ٣٤، عبد الإله بلقزيز، مستقبل العمل الوطني في الوطن العربي في ضوء التحولات الدولية «المستقبل العربي، عدد ١٤٥ (مارس ١٩٩١)، عبداللطيف الشواف، «التغيرات في النظام الدولي وقضية الوحدة»، المستقبل العربي، عدد ١٣٣ (مارس ١٩٩٠)، ص ٤ ـ ٢٣، ولنفس المؤلف، التغيرات في النظام الدولي وقضية الوحدة . . . أيضا، «المستقبل العربي، عدد ١٤٤ (فبراير ١٩٩٢)، ص ٤ ـ ٢٠، عمر الخامدي»، الثقافة العربية والنظام العالمي الجديد، «الوحدة، عدد ٩٩ (ديسمبر ١٩٩٢)، ص ١٠١ ـ ١٠٨، د. غالي شكري، «الثقافة والمتغيرات العالمية»، مجلة القاهرة، عدد ١٢٩ (أغسطس ١٩٩٣)، ص ٥٢ ـ ٧٧، مدير الويس، «التغيرات الجارية في النظام الدولي وأثرها على مستقبل الوحدة العربية»، الوحدة، عدد ٨٩ (فبراير ١٩٩٢)، ص ٥٥ ـ ٧٢، محمد رشاد الشريف، «العلاقات الأمريكية ـ الإسرائيلية والنظام الدولي الجديد»، الوحدة، عدد ٩٠ (مارس ١٩٩٢)، ص ٥١ ـ ٦٣، ميلود المهدي، «قراءة مغايرة لمصطلحات معاصرة، النظام العالمي الجديد والشرعية الدولية وقضية لوكربي»، المستقبل العربي، عدد ١٦١ (يوليو ١٩٩٢)، ص ٢٩ ـ ٤٦.

(١١) انظر على سبيل المثال:

إسماعيل الشروي «مسألة الخليج: جذور التدخل الأمريكي في الوطن العربي»، الوحدة، ٧٧ ـ ٧٨ (فبراير ـ مارس ١٩٩١)، أحمد طه، «التفكك الدولي والنظام العالمي الجديد»، السياسة الدولية، عدد ١٠٩ (يوليو ١٩٩٢)، ص ٩٦ ـ ١٠٤، أحمد إبراهيم محمود، «ظاهرة الفوضى والعنف المسلح في النظام الدولي الجديد»، السياسة الدولية، عدد ١٠٨ (إبريل ١٩٩٢)، ص ٢٧٧ ـ ٢٨٠، ولنفس المؤلف، «ظاهرة الصراع الدولي وعالم ما بعد الحرب الباردة»، السياسة الدولية، عدد ١٠٩ (يوليو ١٩٩٢)، أمين هويدي، «فن إدارة الأزمات في ظل النظام العالمي الجديد»، المستقبل العربي، عدد ١٧٢ (يوليو ١٩٩٣)، ص ١٣ ـ ٢٣، ولنفس المؤلف، «مفهوم استخدام القوة في النظام العالمي الجديد»، العربي، عدد ٣٩٧ (ديسمبر ١٩٩١)، ص ٢٠ ـ ٢٥، د. جمال زهران، «أزمة الخليج في مواجهة النظام العالمي الجديد»، السياسة الدولية، عدد ١٠٣ (يناير ١٩٩١)، ص ٨٠ ـ ١٨٥، د. حسن بكر أحمد، «النظام الدولي الجديد بعد أزمة الخليج»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٣ (صيف ١٩٩١)، ص ٧ ـ ٢٩، ولنفس المؤلف، «مطارحة نقدية لنظرية فوكوياما. نهاية التاريخ أم أيديولوجية الرجل الأخير؟» مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٩ (شتاء ١٩٩٣)، ص ١٥١ ـ ١٥٩، د. عبد المنعم سعيد، «حرب الخليج والنظام العالمي الجديد»، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد الأول/ الثاني (ربيع ـ صيف ١٩٩١)، ص ص ١٥٣ ـ ١٧٤، د. عصام الدين جلال، «قضايا البيئة والنظام العالمي الجديد»، السياسة الدولية، عدد ١١٠ (أكتوبر ١٩٩٢)، ص ص ٧٥ ـ ٧٨، د. علاء الحديدي، «قمة الأرض والعلاقة بين الشمال والجنوب» السياسة الدولية، عدد ١١٠ (أكتوبر ١٩٩٢)، ص ص ٨٩ ـ ٩٧، د. غسان سلامة، «العرب إسرائيل»، أمريكا والمفاوضات، المستقبل العربي، عدد ١٧٢ (يونيو ١٩٩٣)، ص ص ٤ ـ ١٢، محمد عاشور مهدي، «ميثاق الأمم المتحدة بين التأويل والتسخير»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٦ (ربيع ١٩٩٢) ص ص ٥٧ ـ ٧١، محمد الخضري، «الحملة الأمريكية ضد الجماهيرية الليبية في ضوء أحكام القانون الدولي»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٦ (ربيع ١٩٩٢)، ص ٢٠٧ ـ ٢٤٦، د. محمد عصفور، كارثة الخليج وأزمة الشرعية في العصر الأمريكي (القاهرة: دار القارئ العربي، ١٩٩١)، محمد شوملي، «حرب الخليج تكشف عن زيف وعنصرية الدعوة إلى نهاية التاريخ»، الجهاد، عدد ٩٨ (إبريل ١٩٩١)، محمد الرميحي، «هل من دور جديد للأمم المتحدة»، العربي، عدد ٤١٢ (مارس ١٩٩٣)، ص ص ١٢ ـ ١٨، د. هيثم الكيلاني، «السياسة والحرب في زمن التغير»، العربي، عدد ٤٠٩ (ديسمبر ١٩٩٢)، ص ص ٢٤، ٢٨، ولنفس المؤلف، «منزلة القوة في النظام العالمي الجديد»، العربي، عدد ٤٠٤ (يوليو ١٩٩٢)، ص ص ٢٧ ـ ٣١، ولنفس المؤلف، «عسكرة الأمم المتحدة»، العربي، عدد ٤٠٧ (أكتوبر ١٩٩٢) ص ص ٢٤ ـ ٢٩، وائل علي، «أكذوبة نهاية التاريخ»، مجلة القاهرة، عدد ١١٧ (أغسطس ١٩٩٢).

(١٢) انظر على سبيل المثال:

د. أحمد كمال أبو المجد، «المسلمون والنظام العالمي المتغير»، العربي، عدد ٣٩٩ (فبراير ١٩٩٢)، ولنفس المؤلف، «تأملات في مستقبل العالم ومكاننا فيه»، العربي، عدد ٤٠٥ (أغسطس ١٩٩٢)، ص ص ٤٤ ـ ٤٧، عبد الإله بلقزيز، «بعد انهيار الاتحاد السوفيتي: ما العمل؟»، المستقبل العربي، عدد ١٥٤ (ديسمبر ١٩٩١)، ص ص ٤ ـ ٢٥، د. عصام نعمان، «العرب والعصر، رؤية قومية للخروج من الهزيمة»، المستقبل العربي، عدد ١٥٨ (إبريل ١٩٩٢)، ص ص ٢٢ ـ ٣٩، د. محمد سعد أبو عامود، «شروط تعامل العرب الناجح مع المتغيرات العالمية الجديدة»، ورقة قدمت إلى ندوة «العرب ونظام عالمي جديد»، مرجع سبق ذكره، مركز دراسات العالم الإسلامي، «ما هو دورنا في صنع السياسات الدولية، مستقبل العالم الإسلامي»، عدد ٣ (١٩٩١)، ص ص ٢ ـ ٦.

(١٣) الصغير الرحالي، مرجع سبق ذكره، ص ١١.

(١٤) ـ انظر على سبيل المثال:

صلاح الدين حافظ، «فوضى النظام الدولي»، الأهرام، ٢٣/٦/١٩٩٣، عاطف الغمري، «هذه السنوات الخطيرة في اللانظام الدولي»، الأهرام، ١٤/٤/١٩٩٣، عصام الدين جلال «العدالة في اللانظام العالمي الجديد»، الأهرام ١٨/٣/١٩٩٣.

(١٥) انظر تأصيلاً لتطور مفهوم النظام الاقتصادي العالمي الجديد في د. إسماعيل صبري عبدالله، نحو نظام اقتصادي عالمي جديد (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧).

(١٦) لمزيد من التفاصيل انظر:
د. خليل صابات، «النظام الجديد للإعلام الدولي»، عالم الفكر، عدد ١ (إبريل ـ مايو ١٩٨٤)، د. عواطف عبدالرحمن، قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٧٨، يونيو ١٩٨٤)، د. مصطفى المصمودي، النظام الإعلامي الجديد (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٩٤، أكتوبر ١٩٨٥)، د. نائلة حسن سالم، «النظام الإعلامي العالمي الجديد مع دراسة تطبيقية على الصحافة المصرية»، ورقة قدمت إلى ندوة «النظام الإعلامي العالمي الجديد: رؤية موضوعية من وجهة نظر الدول النامية»، القاهرة ٢٢ ـ ٢٤.

(١٧) لمزيد من التفاصيل انظر:
إبراهيم عرفات، «الإصلاح وحدود التغير في الاتحاد السوفيتي»، السياسة الدولية، عدد ٨٩ (يوليو ١٩٨٧)، ميخائيل جورباتشوف، البيريسترويكا: تفكير جديد لبلادنا والعالم، ترجمة حمدي عبدالجواد (القاهرة، دار الشروق، ط١ ـ ١٩٨٨)، رشيد شقير، «أيديولوجية البيريسترويكا: الديمقراطية والسلام»، الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٣٤ (أكتوبر ١٩٩٠)، د. نازلي معوض أحمد، «إصلاحات جورباتشوف الداخلية والتغير في السياسة الخارجية»، السياسة الدولية، عدد ٨٩ (يوليو ١٩٨٧)، ولنفس المؤلفة، «النظرة السوفيتية الجديدة للصراع والتوازن في العالم المعاصر»، السياسة الدولية، عدد ٩٤ (أكتوبر ١٩٨٨).

(١٨) من هذه الكتابات على سبيل المثال مايلي:
د. أحمد عباس عبدالبديع، «أبعاد ومظاهر التغير في عالمنا المعاصر وتأثير ذلك على السياسة الخارجية بصفة عامة»، في: د. أحمد يوسف أحمد (محرر)، سياسة مصر الخارجية في عالم متغير (القاهرة، مركز البحوث والدراسات السياسية، ط١، ١٩٩٠)، د. إسماعيل صبري مقلد، الاستراتيجية الدولية في عالم متغير (الكويت: شركة كاظمة، ١٩٨٣)، د. أنور عبد الملك تغيير العالم، مرجع سبق ذكره، د. سلوى شعراوي جمعة، «مصر والنظام الدولي "سيناريو التسعينيات"»، في د. علي الدين هلال ود. عبدالمنعم سعيد (محرران)، مصر وتحديات التسعينيات (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ط١، ١٩٩١)، د. عبدالمنعم سعيد، العرب ومستقبل النظام العالمي، مرجع سبق ذكره، ولنفس المؤلف، مصر والنظام الدولي في التسعينيات، مرجع سبق ذكره، د. علي الدين هلال (محرر)، العرب والعالم، مرجع سبق ذكره، عمرو موسى، مرجع سبق ذكره، د. محمد السيد سعيد، آفاق النظام الدولي في التسعينيات، مرجع سبق ذكره.

(١٩) لمزيد من التفاصيل انظر:
د. سميحة السيد فوزي، «النظام العالمي الجديد وانعكاساته على منطقة الشرق الأوسط: رؤية اقتصادية»، أوراق الشرق الأوسط، عدد ٨ (مارس ١٩٩٣)، ص ص ٥ ـ ٤٩، د. عبدالمنعم سعيد، «حرب الخليج والنظام العالمي الجديد»، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد الأول/ الثاني (ربيع/ صيف ١٩٩١)، ص ص ١٥٣ ـ ١٧٤.

(٢٠) انظر على سبيل المثال:
بكر مصباح تنيرة، «جامعة الدول العربية في ضوء النظام العالمي الجديد»، شئون عربية، عدد ٦٩ (مارس ١٩٩٢)، ص ص ٣٥ ـ ٤٨، د. حسن بكر أحمد «النظام الدولي الجديد بعد أزمة الخليج»، مرجع سبق ذكره، د. سيد عليوة، «وظيفة الأمم المتحدة في النظام الدولي الجديد: قاطرة أم مقطورة»، الباحث العربي، عدد ٢٣ (يوليو ـ أكتوبر ١٩٩٢)، ص ص ٤٢ ـ ٥٢، د. عبد الباقي الهرماسي، تساؤلات حول دلالة النظام الدولي الجديد، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٦ (ربيع ١٩٩٢)، ص ٤٩ ـ ٥٥، عبد الإله بلقزيز، «العرب والنظام الدولي الجديد»، شئون عربية، عدد ٦٥ (إبريل ١٩٩١)، ص ص ١٠٣ ـ ١١٢، د. هيثم الكيلاني، «منزلة القوة في النظام العالمي الجديد»، مرجع سبق ذكره.

(٢١) د. محمد الرميحي، «سقوط الأوهام»، العربي، عدد ٣٩٥ (أكتوبر ١٩٩١)، ص ص ٨ ـ ١٣.

(٢٢) لمزيد من التفاصيل انظر:
حوار مع د. نبيل العربي (مندوب مصر الدائم في الأمم المتحدة)، المصور، عدد ٣٥٩١ (٦/ ٨/ ١٩٩٣)، ص ص ٢٢ ـ ٢٣، د. سعد الدين إبراهيم، «لماذا لا تتحرك أمريكا عسكريا إلا ضد العرب»، المصور، عدد ٣٥٨٩ (٢٣/ ٧/ ١٩٩٣).

(٢٣) انظر على سبيل المثال:
- أحمد صدقي الدجاني، «وجهة نظر عربية في النظام العالمي الجديد»، شئون عربية، عدد ٧٤ (يونيو ١٩٩٣)، ص ص ٣٨ ـ ٥٥.
- برهان غليون، «النظام الدولي الجديد ومستقبل الوطن العربي»، مرجع سبق ذكره، جواد البشيتي، «النظام العالمي الجديد... الحلقة المفرغة»، الشاهد، عدد ٧٧ (يناير ١٩٩٢)، ص ص ٥٦ ـ ٥٧ راشد الغنوشي، «الحركة الإسلامية والنظام الدولي»، الغدير، الأعداد (١٤، ١٥، ١٦) (يونيو ١٩٩١)، ص ص ٨٠ ـ ٨٩، عادل عبدالمهدي، «النظام الدولي الجديد وأثره على الوضعين العربي والإسلامي»، الغدير الأعداد (١٤، ١٥، ١٦) (يونيو ١٩٩١، ص ص ٥٢ ـ ٦٣، د. عبد الباقي الهرماسي، مرجع سبق ذكره، علي الصراف، «نظام جديد.. قديم للهيمنة وحفظ التخلف»، الشاهد، عدد ٨٢ (يونيو ١٩٩٢)، ص ص ٣٦ ـ ٣٧، د. محمد عمارة، «العالم الإسلامي والمتغيرات الدولية الراهنة»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٦ (ربيع ١٩٩٢)، ص ص ٧ ـ ٢٥.

(٢٤) انظر على سبيل المثال:
تحسين بشير، «ظاهرة نظام الفوضى الدولية الجديدة»، الحياة، ٤/ ٧/ ١٩٩٣، حسان الدين، «كل هذا النظام وكل هذا التصدع»، الشاهد، عدد ٨٩ (يناير ١٩٩٣)، ص ص ٢ ـ ٧، عبد الله النفيسي، «اللانظام القانون الدولي: هل بدء عصر شرعية التدخل»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٦ (ربيع ١٩٩٢)، ص ٥٧ ـ ٧١، قسطنطين زريق، «الملتقى العالمي»، الحياة، ٦/ ٩/ ١٩٩١، ميشيل كليو، «اللانظام الدولي الجديد: هبوط إلى المرتبة الثانية»، الشاهد، عدد ٧٥ (سبتمبر ١٩٩٢)، ص ص ٣٧ ـ ٣٩.

(٢٥) انظر على سبيل المثال:
حسين فهمي، «سقطت الأقنعة عن وجه النظام العالمي الجديد»، الأخبار القاهرية، ٤/٥/١٩٩٢، د. عبدالوهاب المسيري، «سحر النظام العالمي الجديد»، الشعب القاهرية، ١٦/٨/١٩٩١، ولنفس المؤلف «انتفاضة غزة ـ أريحا والنظام العالمي الجديد»، الشعب القاهرية، ٥/١٠/١٩٩٣، محمود رياض، «النظام العالمي الجديد: حقيقة أم وهم»، الحياة، ٥/٣/١٩٩١، ولنفس المؤلف، «وهم اسمه النظام العالمي الجديد»، الحياة، ١٧/١/١٩٩٢، محمد زكريا إسماعيل، «النظام الدولي الجديد بين الوهم والحقيقة»، المستقبل العربي، ع. ١٤٣ (يناير ١٩٩١)، د. محمد عصفور، «خديعة النظام العالمي الجديد»، الوفد، ١٠/٦/١٩٩٢، محمد تاج الدين الحسيني، «النظام الدولي الجديد بين الوهم والواقع»، مرجع سبق ذكره.
(٢٦) د. عبدالوهاب المسيري، «النظام العالمي الجديد ونهاية التاريخ والإنسان: رؤية معرفية»، مرجع سبق ذكره، ص ٨٨.
(٢٧) محمد أبو القاسم حاج محمد، «معركة الجماهيرية والنظام الدولي القديم»، الشاهد ـ القربال، عدد ١٧ (مايو ١٩٩٢).
(٢٨) سعيد حربي حفيانة، «الوطن العربي وحركات التحرر في ظل المتغيرات الدولية الجديدة»، الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٣٥ (يناير ١٩٩١)، ص ص ١٤٩ ـ ١٦٦.
(٢٩) د. مصطفى الفقي، الإسلام في عالم متغير (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ط ١، ١٩٩٣)، ص ص ١٠٣ ـ ١٠٥.
(٣٠) محمد حسنين هيكل، حرب الخليج: أوهام القوة والنصر (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط ١، ١٩٩٢)، ص ٥٥، وانظر أيضا: عبدالله الجاسر، «الإعلام العربي والنظام العالمي الجديد»، التعاون، عدد ٢٩ (مارس ١٩٩٣).
(٣١) انظر على سبيل المثال:
د/ أحمد كمال أبو المجد، «المسلمون والنظام العالمي المتغير»، العربي، عدد ٣٣٩ (فبراير ١٩٩٢)، أمين هويدي، «إدارة الأزمات في ظل النظام العالمي الراهن»، السياسة الدولية، عدد ١١٢ (أبريل ١٩٩٣)، ص ص ١٧٧ ـ ١٨٠، تحسين بشير، «تأثير أزمة الخليج على النظام العالمي الجديد» في: د. سعد الدين إبراهيم ود. حسن وجيه (محرران) مرجع سبق ذكره، ص ص ١٣ ـ ٢٧، جميل مطر، «النظام الدولي تحت التكوين»، الأهرام، ٢/٨/١٩٩١، ولنفس المؤلف، «النظام الدولي والنظام العربي ـ توأم يولد وتوأم يحتضر» في د. نازلي معوض أحمد (محرر)، الوطن العربي في عالم متغير، مرجع سبق ذكره ولنفس المؤلف، «الصراع بين النظام الدولي الجديد والنظام العربي المحتمل»، الأهرام الاقتصادي، عدد ١١٣٢ (٢٤/٩/١٩٩٠)، د. سعد الدين إبراهيم، «الأبعاد الثقافية للنظام العالمي الجديد» في: د. إبراهيم حلمي عبدالرحمن (محرر)، عالم الغد... عالم واحد أم عوالم متعددة، مرجع سبق ذكره، صدقة يحيى فاضل، «النظام العالمي الحالي والمستقبل»، شئون دولية، العدد الأول (صيف ١٩٩٢)، ص ص ٤ ـ ١٠، محمد سيد أحمد، «حول إشكالية النظام الدولي الجديد»، السياسة الدولية، عدد ١٠٤ (إبريل ١٩٩١)، ص ص ٢٤ ـ ٢٨، ولنفس الكاتب، «النظام الدولي الجديد: حقيقة ومواقع البلدان العربية فيه تأثيرا وتأثرا»، في مطبوعات المنتدى، العالم العربي والمتغيرات الدولية (القاهرة: ط ١، ١٩٩١)، ص ص ٢٩ ـ ٣٦، محمد السيد سعيد، «النظام العربي بعد أزمة الخليج»، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢١، د. علي الدين هلال، «حول مستقبل النظام الدولي»، في د. إبراهيم حلمي عبدالرحمن (محرر)، عالم الغد: عالم واحد أم عوالم متعددة، مرجع سبق ذكره.

(٣٢) لمزيد من التفاصيل انظر:
د. أسامة الغزالي حرب، «١٩٩٢ ـ ١٩٩٣: آلام التفكك والاندماج»، السياسة الدولية، عدد ١١١ (يناير ١٩٩٣)، ص ٤ ـ ٥، د. غالي شكري، «الثقافة العربية والمتغيرات العالمية»، القاهرة، عدد ١٢٩ (أغسطس ١٩٩٣)، ص ٥٢ ـ ٧٧.
(٣٣) د. ودودة بدران، «الرؤى المختلفة للنظام العالمي الجديد»، مرجع سبق ذكره.
(٣٤) د. علي الدين هلال، «حول مستقبل النظام العالمي»، في: د. إبراهيم حلمي عبدالرحمن (محرر)، عالم الغد: عالم واحد أم عوالم متعددة، مرجع سبق ذكره، ص ص ١٢٨ ـ ١٣٨.
(٣٥) لمزيد من التفاصيل انظر:
أسامة أمين الخولي، «ثورة المعلومات ومجتمع ما بعد الصناعة»، الهلال (يناير ١٩٩٠)، ص ص ٢٦ ـ ٥١، د. السيد نصر، «ثورة المعلومات والمنظومة القومية للمعرفة»، الهلال (سبتمبر ١٩٩٢)، د. حازم الببلاوي، بعد أن يهدأ الغبار (القاهرة: دار الشروق، ط ١، ١٩٩٠)، ص ص ٥٢ ـ ٦٣، د. عبد المنعم سعيد، «العرب ومستقبل النظام العالمي»، مرجع سبق ذكره، ولنفس المؤلف «العرب والتكنولوجيا العالمية»، المجلة العربية للدراسات الدولية عدد (شتاء ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨) ص ص ٤٠ ـ ٦٣، د. علي الدين هلال، «الثورة التكنولوجية والنظام الدولي المعاصر»، ورقة قدمت إلى ندوة «الآثار السياسية والاجتماعية للثورة التكنولوجية المعاصرة» التي نظمها قسم العلوم السياسية بجامعة قاريونس بليبيا خلال الفترة ٧ ـ ٩/١/١٩٩٢، د. مصطفى عبدالله خشيم، «آثار الثورة التكنولوجية على نظام توازن القوى المعاصر» ورقة قدمت إلى نفس الندوة السابقة.
(٣٦) انظر على سبيل المثال:
إبراهيم عرفات، «الإصلاح وحدود التغيير في الاتحاد السوفيتي»، السياسة الدولية، عدد ٨٩ (يوليو ١٩٨٧)، د. طه عبدالعليم، «الإصلاح بين الرومانسية والواقعية في الاتحاد السوفيتي»، السياسة الدولية، عدد ٨٩ (يوليو ١٩٨٧)، ص ٦٦ ـ ٧٠، محمود عزمي، «الاتحاد السوفيتي تحت قيادة جورباتشوف: هزيمة بلا حرب» الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٣٨ (أكتوبر ١٩٩١)، ص ص ٥ ـ ٢٦.
(٣٧) انظر على سبيل المثال:
د. السيد أمين شلبي، «في محاولات التجديد ومستقبل أوروبا الشرقية»، السياسة الدولية، عدد ٩٨ (أكتوبر ١٩٨٩)، أماني محمود فهمي، «تجربة أوروبا الشرقية» السياسة الدولية، عدد ٨٩ (يوليو ١٩٨٧)، ص ص ٩١ ـ ١٠٠، ملف «الاتحاد السوفيتي من الداخل»

السياسة الدولية، عدد ٩٤ (أكتوبر ١٩٨٨)، د. محمد عبدالشفيع عيسى، «الأزمة الاقتصادية في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي حتى أحداث ١٩٨٩، الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٣٤ (أكتوبر ١٩٩٠)، ص ١٠٥ - ١٣٤، وليد محمود عبد الناصر، «التغيرات الاقتصادية في أوروبا الشرقية وانعكاساتها على الدول النامية»، السياسة الدولية، عدد ١٠٢ (أكتوبر ١٩٩٠)، ص ٢٢٤-٢٢٩، د. رزق رزق، «الصراع السياسي المحوري في العالم المعاصر والتحول العاصف في أوروبا الشرقية: جذور الصراع التاريخية وأبعاد التحول الاستراتيجية»، الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٣٢ (يناير ١٩٩١)، ص ١٦٧ - ١٧٧.

(٣٨) انظر على سبيل المثال:

د. محمد السيد سعيد، «تحليل مقارن لتجارب التسوية الإقليمية»، السياسة الدولية، عدد ٩٥ (يناير ١٩٨٩)، د. نازلي معوض أحمد، «التصالحية في العلاقات الأمريكية - السوفيتية»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٥ (شتاء ١٩٩٢)، ص ٦٣ - ٩٤، التقرير الاستراتيجي العربي لعام ١٩٩٠ (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٩١)، ص ص ١٥ - ٧٤.

(٣٩) د. إسماعيل صبري مقلد، «التغيرات في أوروبا الشرقية... إلى أين؟» مجلة العلوم الاجتماعية، (شتاء ١٩٨٩)، ص ص ٣٠٥ - ٣٢٤.

(٤٠) شاهر بشارة، «القوميات تتصارع لفرض الأمر الواقع وتظاهر القرن كان ذاهبه»، الشاهد، عدد ٧٧ (يناير ١٩٩٢)، ص ص ٤٦ - ٥٧.

(٤١) لمزيد من التفاصيل انظر:

صلاح بسيوني، «المراحل الأخيرة لنهاية الإمبراطورية السوفيتية»، القرصان - الكتاب السنوي (١٩٩١)، سلام سالم، «الاتحاد السوفيتي. امبراطورية في طريق الزوال»، القرصان - الكتاب السنوي (١٩٩١). د. طه عبدالعليم (محرر)، انهيار الاتحاد السوفيتي وتأثيراته على الوطن العربي (القاهرة. مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ط١، ١٩٩٢)، ملف الانقلاب السوفيتي وتداعياته «السياسة الدولية، عدد ١٠٦ (أكتوبر ١٩٩١)، نبيل زكي»، أحداث الاتحاد السوفيتي وأثرها على الخريطة السياسية العالمية، «مستقبل العالم الإسلامي، عدد (شتاء ١٩٩٢)، ص ص ١٥ - ٦٢.

(٤٢) لمزيد من التفاصيل انظر:

محمد سيد أحمد «لماذا انهار الاتحاد السوفيتي»، في: د. طه عبدالعليم (محرر)، مرجع سبق ذكره، «انهيار الاتحاد السوفيتي وآثاره الإقليمية والعالمية» مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٥ (شتاء ١٩٩٢)، ص ص ١٥ - ٦٢.

(٤٣) انظر على سبيل المثال:

د. سامي عمارة، «الحرب الباردة تعود من جديد بين دول الكومنولث الجديد المصور (٢٤/ ١/ ١٩٩٢)، ص ص ٢٠ - ٢١، د. طه عبد العليم، «وراثة الاتحاد السوفيتي ومصير الكومنولث»، في د. طه عبد العليم (محرر)، مرجع سبق ذكره، ص ص ١٠٩ - ١٢٥، عبد الحليم قنديل، بعد امبراطورية الأيديولوجيا: كومنولث العملة المشتركة، «الشاهد، عدد ٨٠ (إبريل ١٩٩٢)، ص ص ٤٠ - ٤٥، د. محمد السيد سليم)، نحو استراتيجية عربية للتعامل مع ورثة الاتحاد السوفيتي، ورقة قدمت إلى ندوة «العرب ونظام عالمي جديد» التي نظمتها الجمعية العربية للعلوم السياسية (القاهرة ١٣ - ١٤/ ٩/ ١٩٩٢).

(٤٤) انظر على سبيل المثال:

أحمد طه محمد «تحول التكتلات الاقتصادية المعاصرة»، السياسة الدولية، عدد ١١٠ (أكتوبر ١٩٩٢)، ص ٢٢٨ - ٢٣٣، د. أحمد يوسف ود. هناء خير الدين (محرر)، مصر والمباراة الاقتصادية الأوروبية ١٩٩٢ (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ١٩٩١)، ثناء فؤاد عبدالله، «مستقبل الوحدة الأوروبية وأزمة الخليج»، السياسة الدولية، عدد ١٠٦ (أكتوبر ١٩٩١)، د. محمد السيد سعيد، «التكتل التجارية وانعكاساتها على الوطن العربي»، في د. محمد السيد سعيد (محرر)، الوطن العربي والتغيرات العالمية، مرجع سبق ذكره، ملف «العرب وأوروبا ١٩٩٢»، الباحث العربي، عدد ٢٠ (يوليو - سبتمبر ١٩٨٩)، ملف (المجموعة الأوروبية ١٩٩٢ «السياسة الدولية، عدد ٩٩ (يناير ١٩٩٠)، د. عبد المنعم سعيد علي»، أوروبا ١٩٩٢ وتأثيراتها الاقتصادية والتكنولوجية والسياسية على العالم العربي، «الفكر العربي، عدد ٦٦ (أكتوبر - ديسمبر (١٩٩١)، د. نادر فرجاني، «العرب وأوروبا في نهاية القرن العشرين»، الهلال (سبتمبر ١٩٩٢).

(٤٥) انظر على سبيل المثال:

د. بطرس لبكي، «الوضع الراهن ومستقبل التحول الاقتصادي في الدول العربية»، الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٤٢ (أكتوبر ١٩٩٢)، د. منى البرادعي، «القيم تحاول التنمية في العالم الثالث في الثمانينيات»، الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٣٦ (إبريل ١٩٩١)، ص ١٨٣ - ٢١٤.

(٤٦) انظر على سبيل المثال:

السيد يسين، التحليل الثقافي لأزمة الخليج، في: التقرير الاستراتيجي العربي لعام ١٩٩١ (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٩٢)، د. حسن وجيه، أزمة الخليج ولغة الحوار السياسي (القاهرة: دار ابن خلدون، ١٩٩٢)، د. سعد الدين إبراهيم وعبد الحميد صفوت إبراهيم، «دور المثقفين العرب في أزمة الخليج»، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد الثالث/ الرابع (خريف - شتاء ١٩٩١)، ص ص ٢٩ - ٥٠، كمال عبد اللطيف، «على هامش قراءة المثقفين العرب لأزمة الخليج»، الوحدة، عدد ٧٧، ٧٨ (فبراير - مارس ١٩٩١)، ص ص ٣٠ - ٣٤.

(٤٧) انظر على سبيل المثال:

أشرف غربال، «الولايات المتحدة الأمريكية وقضايا الشرق الأوسط في النظام الدولي الجديد»، الباحث العربي، عدد ٢٨ (يناير - فبراير ١٩٩٢).

(٤٨) انظر على سبيل المثال:
د. أحمد صدقي الدجاني، «وجهة نظر عربية في النظام العالمي الجديد»، مرجع سبق ذكره، وليد الصلح، «الولايات المتحدة الأمريكية وقضايا الشرق الأوسط في إطار النظام الدولي الجديد»، الباحث العربي، عدد ٢٨ (يناير ـ فبراير ١٩٩٢)، ص ص ٢٣ ـ ٢٧، عبد الحليم محمد عبد الحليم، «الأمم المتحدة وحرب الخليج: السياسة تعلو على القانون»، قراءات سياسية، عدد ٢ (ربيع ١٩٩٢)، ص ص ١٠١ ـ ١١٩، مختار عزيز بوجيه كوزالي، «القطبية العالمية والهيمنة على منابع النفط»، مستقبل العالم الإسلامي، (شتاء ١٩٩١)، ص ص ١١١ ـ ١٤٠، منير شفيق، «الاستراتيجية الأمريكية وآثار النظام العالمي الجديد»، قراءات سياسية، السنة الثانية، العدد الأول (شتاء ١٩٩٢)، نبيل عبد الكريم، «دور النفط في تحريك أزمة الخليج»، مستقبل العالم الإسلامي، (شتاء ١٩٩١)، ص ص ١٤١ ـ ١٥٤.

(٤٩) انظر على سبيل المثال:
د. أحمد حسن الرشيدي (محرر)، الانعكاسات الدولية والإقليمية لأزمة الخليج (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ط١، ١٩٩١)، مجموعة من الباحثين، أزمة الخليج وتداعياتها على الوطن العربي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٩١)، ملف «الغزو العراقي للكويت: الأبعاد والنتائج» السياسة الدولية، عدد ١٠٢ (أكتوبر ١٩٩٠)، ملف «أزمة الخليج: التطورات والاحتمالات»، السياسة الدولية، عدد ١٠٣ (يناير ١٩٩١)، مجموعة البحوث التي تعالج بعض جوانب الأزمة والتي نشرت في الأعداد الأول والثاني والثالث والرابع (ربيع، صيف، خريف، شتاء ١٩٩١) من مجلة العلوم الاجتماعية.

(٥٠) د. علي الدين هلال، حول مستقبل النظام الدولي، مرجع سبق ذكره.

(٥١) انظر:
الجزء الخاص بـ «النظام الدولي وأزمة الخليج»، التقرير الاستراتيجي العربي لعام ١٩٩٠ (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ١٩٩١)، د. حسن بكر أحمد، «دور القوتين الأعظم في إدارة أزمة الخليج»، في: د. نازلي معوض أحمد (محرر)، الوطن العربي في عالم متغير، (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ١٩٩١)، ص ص ٢٦٧ ـ ٣١٨، د. وديعة بطرس، «أزمة الخليج والنظام الدولي»، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد الأول والثاني (ربيع ـ صيف ١٩٩١)، ص ص ٤٥ ـ ٧٢.

(٥٢) لمزيد من التفاصيل انظر:
د. حالمة شلبي، «الموقف الأوروبي الغربي إزاء أزمة الخليج: الأبعاد ـ المحددات ـ النتائج»، في: د. نازلي معوض أحمد (محرر)، الوطن العربي في عالم متغير، مرجع سبق ذكره، ص ص ٣١٩ ـ ٣٨١.

(٥٣) د. عبد المنعم سعيد علي، «حرب الخليج والنظام العالمي الجديد» مجلة العلوم الاجتماعية، عدد ١، ٢ (ربيع ـ صيف ١٩٩١)، ص ص ١٥٣ ـ ١٧٤.

(٥٤) انظر على سبيل المثال:
أشرف غربال، مرجع سبق ذكره؛ المختار المطيع، «النظام العربي بعد حرب الخليج: الواقع والآفاق»، الوحدة، عدد ١٠٠ (يناير ١٩٩٣)، ص ص ٣٢ ـ ٤٣، سمير أمين، «النزعة العسكرية الأمريكية في النظام الدولي الجديد»، الوحدة، عدد ٩٠ (مارس ١٩٩١)، ص ص ٣٤ ـ ٥٠، عوض خليل، «النظام الدولي الجديد: قطب واحد أم تعددية؟»، الشاهد، عدد ٧٠ (يونيو ١٩٩١)، ص ص ٤٣ ـ ٤٧، محمد نور الدين أفاية، «الواحدية في النظام الدولي»، الفرسان، عدد ٢٠٠ (٨/٧/١٩٩١)، يوسف الحسن، «٦٥ أسئلة و ٦ إجابات حول النظام الدولي الجديد»، الشروق، عدد ٩ (١٠/٦/١٩٩٢)، ص ص ٣٤ ـ ٣٥، د. ياسين سويد، مرجع سبق ذكره، عبد الحميد غانم، «الهيمنة الأمريكية في ظل النظام العالمي الجديد»، الوحدة، عدد ٩٩ (ديسمبر ١٩٩٢)، ص ص ١٠٩ ـ ١١٣، د. محمد عابد الجابري، «آفاق المستقبل العربي»، المستقبل العربي، عدد ١٥٦ (فبراير ١٩٩٢)، ص ص ٤ ـ ١٥، واصف منصور، «محمد عابد على مؤتمر مدريد... أين نحن من السلام؟»، الوحدة، عدد ٩٩ (ديسمبر ١٩٩٢)، ص ص ٧ ـ ١٧.

(٥٥) د. برهان غليون، حرب الخليج والمواجهة الاستراتيجية في المنطقة العربية، في: مجموعة من الباحثين، أزمة الخليج وتداعياتها على الوطن العربي، مرجع سبق ذكره، ص ١٧ ـ ٣٧.

(٥٦) انظر على سبيل المثال:
د. محمد السيد سعيد، «احتمالات التطور المستقبلي للنظام الدولي»، ورقة قدمت إلى ندوة (مفهوم وآليات النظام العالمي الجديد) التي نظمها مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة خلال الفترة ٢٤ ـ ٢٧/ ١٢/ ١٩٩٢، ص ١٠.

(٥٧) انظر على سبيل المثال:
د. أسامة الباز، «مقولة القطب الواحد بين الوهم والحقيقة»، الفرسان، ١٦/٩/١٩٩١، د. أنور عبد الملك، «الدول الكبرى الجديدة في مرحلة تغيير العالم وصياغة العالم الجديد»، في: د. أحمد يوسف أحمد (محرر)، مرجع سبق ذكره، د. أحمد عباس عبد البديع، «القوى السياسية الصاعدة في النظام العالمي الجديد»، السياسة الدولية، عدد ١١٠ (أكتوبر ١٩٩٢)، ص ص ١٦٢ ـ ١٦٦، حسين معلوم، «القطب الأمريكي... مقولات الانطلاق ومعوقات الانتهاء»، السياسة الدولية، عدد ١١٢ (أبريل ١٩٩٣)، ص ص ١٧٠ ـ ١٧٤، رمزي زكي، «هل انتهت قيادة أمريكا للمنظومة الرأسمالية العالمية المقبلة»، المستقبل العربي، عدد ١٣٨ (أغسطس ١٩٩٠)، ص ٤ ـ ٣٤، صدقة يحيى فاضل، مرجع سبق ذكره، عبد اللطيف الشواف، «التغيرات في النظام الدولي وقضية الوحدة»، مرجع سبق ذكره، د. عبد المنعم المشاط «هيكل النظام العالمي الجديد»، ورقة قدمت إلى ندوة «مفهوم وآليات النظام العالمي الجديد» التي نظمها مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة خلال الفترة ٢٤ ـ ٢٧/ ١٢/ ١٩٩٢، عماد فوزي شعيبي، «من مقولة النظام العالمي الجديد إلى تاريخيته»، شئون دولية، عدد ١ (صيف ١٩٩٢)، ص ١١ ـ ١٣، نهى المكاوي، «الدور الأمريكي في النظام العالمي الجديد»، ورقة قدمت إلى ندوة مفهوم وآليات النظام العالمي الجديد، مرجع سبق ذكره، د. هالة سعودي «القوى الصاعدة في النظام العالمي الجديد: أوروبا واليابان»، مرجع سبق ذكره.

(٥٨) د. مصطفى علوي، «مصر والتوازنات العظميات في التسعينيات»، في: د. علي الدين هلال ود. عبدالمنعم سعيد (محرران)، مرجع سبق ذكره، د. وليد عبدالحي، «أثر التغيرات في النظام الدولي المعاصر على مستقبل الوظيفة الإقليمية للكيان الإسرائيلي»، شئون عربية، عدد ٦٥ (إبريل ١٩٩١)، ص ٨٠ ـ ٩٠.

(٥٩) انظر على سبيل المثال:

د. المختار المطيع، «محاولة في تفسير النظام الدولي الجديد وموقع العرب منه»، الوحدة، عدد ٩٠ (مارس ١٩٩٠)، د. سمير أمين، «بعد حرب الخليج... الهيمنة الأمريكية إلى أين؟»، المستقبل العربي، عدد ١٧٠ (إبريل ١٩٩٣)، ص ٤ ـ ٢٢، د. عادل عبد المهدي، «النظام الدولي الجديد وأثره على الوطنين العربي والإسلامي»، الغدير، الأعداد ١٤، ١٥، ١٦ (يونيو ١٩٩١)، ص ص ٥٢ ـ ٦٣، عبدالله عبد الدايم، «البربرية الجديدة: هل يغدو أبناء العالم الثالث البرابرة الجدد في النظام الدولي الجديد»، المستقبل العربي، عدد ١٦٠ (يونيو ١٩٩٢)، د. غانم هنا، «عودة الاستعمار»، الوحدة، عدد ٧٧ ـ ٧٨ (فبراير ـ مارس ١٩٩١)، ص ص ٦٦ ـ ٧٠.

(٦٠) انظر على سبيل المثال:

أشرف عربال، مرجع سبق ذكره، د. سعد الدين إبراهيم، «الأبعاد الثقافية للنظام العالمي الجديد»، مرجع سبق ذكره.

(٦١) انظر على سبيل المثال:

السيد يسين، التغيرات العالمية وحوار الحضارات في عالم متغير (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، كراسات استراتيجية، عدد ١٤، مارس ١٩٩٣).

(٦٢) انظر على سبيل المثال:

د. أسامة الغزالي حرب، «١٩٩٢ ـ ١٩٩٣: آلام التفكك والاندماج»، السياسة الدولية، عدد ١١١ (يناير ١٩٩٣)، ص ص ٤ ـ ٥، د. حسنين توفيق إبراهيم، «النظام الدولي الجديد ومستقبل الصراعات في العالم الثالث»، البيان، بتواريخ ٢١/ ٤/ ١٩٩٢، ٢٢/ ٤/ ١٩٩٢، د. حليم بركات، «زمن التفكك الداخلي في ظل النظام العالمي الواحد»، الوسط، عدد ١٩ (٨ ـ ١٤/ ٦/ ١٩٩٢)، د. سعد الدين إبراهيم، «حروب الصغار في النظام العالمي الجديد»، المصور، عدد ٣٥٥٥، ٢٧/ ١١/ ١٩٩٢.

(٦٣) انظر على سبيل المثال:

أحمد إبراهيم محمود، «الولايات المتحدة الأمريكية وضبط التسلح في الشرق الأوسط»، الأهرام، ٩/ ٤/ ١٩٩٣، أشرف راضي، «النظام الدولي لتجارة السلاح والرقابة على التسلح في الشرق الأوسط»، ورقة غير منشورة، رشاد شريف، «العلاقات الأمريكية ـ الإسرائيلية والنظام الدولي الجديد»، الوحدة، عدد ٩٠ (مارس ١٩٩٢)، ص ص ٥١ ـ ٦٢، فيصل جلول، «الهلال الإسرائيلي ـ الحزام العربي»، الشاهد، عدد ٧٧ (يناير ١٩٩٢)، ص ٢٥ ـ ٣١، د. محمد السيد سعيد، «أطروحة النظام الدولي الجديد بين الاستبداد والمشاركة»، العربي، عدد ٤٠٣ (يونيو ١٩٩٢)، ص ص ٢٣ ـ ٢٧، محمد سيد أحمد، «حول إشكالية النظام الدولي الجديد»، السياسة الدولية، عدد ١٠٤ (إبريل ١٩٩١)، ص ص ٢٤ ـ ٢٨، د. علا السعودي، «الولايات المتحدة الأمريكية وأوضاع العالم العربي: من أزمة الخليج حتى إبريل ١٩٩١»، بحوث ودراسات عربية، المركز القومي لدراسات الشرق الأوسط (أغسطس ١٩٩٠).

(٦٤) انظر على سبيل المثال:

أحمد السالم، قراءة أولية لقرار مجلس الأمن رقم ٧٣٠، الوحدة، عدد ٩٠ (مارس ١٩٩١)، ص ص ٩٧ ـ ١٠٠، أماني عبد الرحمن صالح، «الأزمة الليبية ـ الغربية بين القوة الأمريكية ومعضلة البناء العربي»، الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٤٢ (أكتوبر ١٩٩٢)، ص ١٣ ـ ٤٨، ونفس المؤلف، «الأمم المتحدة بعد نهاية الحرب الباردة»، مرجع سبق ذكره، د. حسن نافعة، «الأمم المتحدة والقضايا العربية»، المستقبل العربي، عدد ١٧٥ (سبتمبر ١٩٩٣)، ص ص ٤ ـ ٢٨، د. سيد عليوة، «وظيفة الأمم المتحدة في النظام الدولي الجديد»، مرجع سبق ذكره، د. سامي منصور، «الشرعية الدولية المفترى عليها في الوضع الدولي الجديد»، صوت الكويت الدولي، ٣١/ ٣/ ١٩٩٢، عمر محمد علي، «العرب والأمم المتحدة»، ورقة قدمت إلى ندوة «العرب ونظام عالمي جديد» التي نظمتها الجمعية العربية للعلوم السياسية بالقاهرة خلال الفترة ١٣ ـ ١٤ سبتمبر ١٩٩٢، ميلود المهذبي، «الشرعية الدولية من قوة القانون إلى قانون القوة»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٤ (خريف ١٩٩١)، ص ص ٧ ـ ١٤، لطفي الخولي، «قراءة في ملف الأزمة الليبية ـ الغربية»، الأهرام، ١٨/ ٣/ ١٩٩٢، مرسي عطاالله، «نظام عالمي جديد أم نظام يفتش القرصنة»، الأهرام، ١٢/ ٣/ ١٩٩٢، محمد مهدي عاشور، «ميثاق الأمم المتحدة بين التأويل والتفسير»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٦ (ربيع ١٩٩٢)، ص ص ١٧٩ ـ ٢٠٥، د. نبيل العربي، «الأمم المتحدة والنظام العالمي الجديد»، السياسة الدولية، عدد ١٤، (أكتوبر ١٩٩٣)، ص ١٤٩ ـ ١٥٥، حوار مع د. نبيل العربي مندوب مصر الدائم في الأمم المتحدة، المصور، عدد ٣٥٩١، ٦/ ٨/ ١٩٩٣، ص ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٦٥) الأهرام ١/ ٦/ ١٩٩٢، ٢٠/ ٦/ ١٩٩٢.

(٦٦) د. حسن البرادعي، مرجع سبق ذكره.

(٦٧) صلاح الدين حافظ، «كيف تتعادى الحرب القادمة بين الأثنياء والفقراء»، الأهرام، ٤/ ٥/ ١٩٩٢.

(٦٨) انظر على سبيل المثال:

د. أسامة الغزالي حرب، «تهميش العالم الثالث واحتمالات تهميش الوطن العربي»، في: د. محمد السيد سعيد (محرر)، الوطن العربي والمتغيرات العالمية، مرجع سبق ذكره، د. سعد الدين إبراهيم، «إفريقيا من الاستقلال إلى الإهمال»، المصور، عدد ٣٥٦٢ (١٥/ ١/ ١٩٩٣)، محمد صلاح الإدريسي، «الوطن العربي بين الفاعلية والتهميش في عالم متغير»، الوحدة، عدد ٨٦ (نوفمبر ١٩٩١).

(٦٩) انظر مقتطفات مطولة من هذه الوثيقة في:

Herald tribune, march 9, 1992

(٧٠) لمزيد من التفاصيل انظر:

شريف الشوباشي، «فرنسا: أمريكا لا تملك القدرة على القيادة المنفردة للعالم»، الأهرام، ١٦/ ٣/ ١٩٩٢، محمد وهبي، «استراتيجية واشنطن الجديدة: أمريكا تتخلى عن القيمة العسكرية على العالم وتلتزم بالعمل الجماعي»، المصور، عدد ٣٠، ٣ (٥/ ٦/ ١٩٩٢).

(٧١) انظر على سبيل المثال:

حسن صبري، كلينتون: تراجعات في الداخل وتردد في الخارج، المصور، عدد ٣٥٦٧ (١٩/ ٢/ ١٩٩٣)، سعد الدين إبراهيم، «لماذا لا تتحرك أمريكا عسكريا إلا ضد العرب»، المصور، عدد ٣٥٨٩ (٢٣/ ٧/ ١٩٩٣)، محمد وهبي، «إدارة كلينتون المهلهلة وهل يمكن إنقاذها»، المصور، عدد ٣٥٨٣ (١١/ ٦/ ١٩٩٣)، ولنفس الكاتب، «تراجع كلينتون في البوسنة والهرسك، فهل سيهمل الفلسطينيون»، المصور، عدد ٣٥٦٧ (١٩/ ٢/ ١٩٩٣)، محمد الفاتح عبد السلام، «التدخل الدولي في الصومال: الأبعاد والتحديات»، شئون دولية، العدد الثاني (شتاء ١٩٩٣).

(٧٢) فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشرية، ترجمة حسين أحمد أمين (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط١، ١٩٩٣).

(٧٣) لمزيد من التفاصيل انظر:

د. حسن بكر، «مطارحة نقدية لنظرية فوكوياما. . .»، مرجع سبق ذكره، د. فؤاد زكريا، «هل كسبت أمريكا الحرب الباردة»، الهلال (ديسمبر ١٩٩٢)، عبدالإله بلقزيز، «أيديولوجيا نهاية الأيديولوجيا»، الفكر العربي، عدد ٦٨ (إبريل - يونيو ١٩٩٢)، محمد سيد أحمد، «قضايا فكرية يطرحها الوفاق الدولي في التسعينيات»، الفكر العربي، عدد ٦٦ (ديسمبر ١٩٩١)، ص ص ٥٤ ـ ٦٣.

(٧٤) انظر ملف «الانتخابات الأوربية: الظواهر السياسية الجديدة والتساؤلات المستقبلية»، السياسة الدولية، عدد ١٠٩ (يونيو ١٩٩٢).

(٧٥) انظر على سبيل المثال:

جواد البشيتي، «عالم الأقطاب الاقتصادية»، الشاهد، عدد ٨٦ (أكتوبر ١٩٩٢)، ص ص ٥٠ ـ ٥٥، حسن أبو طالب، «علاقات اليابان والجماعة الأوربية»، السياسة الدولية، عدد ٩٩ (يناير ١٩٩٠)، وليد عبود عبد الناصر، «أوربا ١٩٩٢ وتأثيراتها المحتملة على الأطراف الخارجية»، السياسة الدولية، عدد ٩٩ (يناير ١٩٩٠)، د. سامي منصور، «الحرب التجارية الحالية: البديل الجديد للحرب الباردة»، العربي، عدد ٤١٤ (مايو ١٩٩٣)، ص ص ٥٨ ـ ٦١.

(٧٦) سلوى حبيب، «هل جاء الدور على حلف الأطلنطي كي يتفكك»، الأهرام ٥/ ٦/ ١٩٩٢.

(٧٧) الأهرام، ٢٩/ ٦/ ١٩٩٢.

(٧٨) انظر ملف مجلة الـ Time بعنوان:

The Sword of Islam, Time, June 15, 1992, pp.18 - 28.

وانظر أيضاً:

محمد الرميحي، «هل يخاف الغرب المسلمين»، العربي، عدد ٤٠٦ (سبتمبر ١٩٩٢) ص ص ١٢ ـ ٢٣.

(٧٩) انظر على سبيل المثال:

د. سعد الدين إبراهيم (محرر)، الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي (عمان: منتدى الفكر العربي، ط١، ١٩٨٨).

(٨٠) د. محمد السيد سعيد، مستقبل النظام العربي بعد أزمة الخليج، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٥ وما بعدها.

(٨١) د. حليم بركات، مرجع سبق ذكره.

(٨٢) د. محمد السيد سعيد، مستقبل النظام العربي بعد أزمة الخليج، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤٢ وما بعدها.

(٨٣) انظر على سبيل المثال:

أحمد شوقي الحفني، «العالم الإسلامي والاستراتيجيات الدولية»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد (شتاء ١٩٩١)، ص ٨٧ ـ ١٠٩، برهان غليون، «النظام الدولي الجديد ومستقبل الوطن العربي»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ١ (شتاء ١٩٩١)، ص ص ٧٣ ـ ٨١، جاسم محمد عبد الغني، «المتغيرات العالمية وانعكاساتها على الوطن العربي»، المستقبل العربي، عدد ١٣٩ (سبتمبر ١٩٩٠)، د. سميحة السيد فوزي، «النظام العالمي الجديد وانعكاساته على منطقة الشرق الأوسط»، مرجع سبق ذكره، عبد القادر عراي، «المجتمع العربي والدولي في ضوء المتغيرات الدولية»، المستقبل العربي، عدد ١٤٧ (مايو ١٩٩١)، ص ص ٤ ـ ٢٢٠، عبد الرحمن شاكر، «نحن والنظام الدولي»، الهلال، (مارس ١٩٩١)، ص ص ٤١ ـ ٤٩، د. ناصيف يوسف حتي، «التحولات في النظام العالمي. . .»، مرجع سبق ذكره، ندوة «الغرب العربي والنظام العالمي الجديد»، المستقبل العربي، عدد ١٦٨ (فبراير ١٩٩٣)، ص ص ١٢٤ ـ ١٤٣.

(٨٤) انظر على سبيل المثال:

طه عبد العليم (محرر)، انهيار الاتحاد السوفيتي وتأثيره على الوطن العربي، مرجع سبق ذكره، د. عبد المنعم سعيد، «العرب والنظام العالمي الجديد: الخيارات المطروحة»، مرجع سبق ذكره.

(٨٥) خليل أحمد خليل، «المشروع القومي في مواجهة المتغيرات العالمية الجديدة»، الوحدة، عدد ١٠٠ (يناير ١٩٩٣)، ص ص ٢٥ ـ ٣٢، عمر الحامدي، «الثقافة العربية والنظام العالمي الجديد»، مرجع سبق ذكره، د. عطا زهرة، «أثر النظام الدولي الجديد على الأمن القومي العربي»، ورقة قدمت إلى ندوة «الوضع الدولي الجديد»، التي نظمتها كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة الفاتح بليبيا خلال الفترة ٥ ـ ٧/ ٤/ ١٩٩٣، د. عبد المنعم سعيد، «الديمقراطية والنظام العالمي الجديد»، الديمقراطية، الكتاب الرابع (أغسطس ١٩٩٢)، ص ص ٥ ـ ١٥، د. ميلود المهذبي، «المتغيرات الجارية في النظام الدولي وأثرها على مستقبل الوحدة العربية»، مرجع سبق ذكره.

(٨٦) انظر على سبيل المثال:

د. أحمد صدقي الدجاني، «مواجهة عربية شاملة للتهجير الصهيوني لليهود من أوطانهم»، شئون عربية، عدد ٦٢ (يونيو ١٩٩٠)، ص ص ٧ ـ ١٦، د. دياب مخادمة، «هجرة اليهود السوفيات: خلفية تاريخية ونظرة مستقبلية»، شئون عربية، عدد ٦٢ (يونيو ١٩٩٠)، ص ص ١٧ ـ ٢٢، عبد الحفيظ عارف، «هجرة اليهود السوفيات: مرحلة جديدة تستدعي موقفاً جديداً»، الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٣٤ (أكتوبر ١٩٩٠)، ص ص ٢١٣ ـ ٢٣٠، علاء سالم، «الهجرة اليهودية السوفيتية والصراع الديموجرافي الصامت»، الرابطة العربية، عدد ٦ (يونيو ١٩٩٠)، ص ص ٣٨ ـ ٥٥، عزالدين سطاس، «موجة الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفيتي إلى فلسطين المحتلة: منظور عام»، شئون عربية، عدد ٦٩ (مارس ١٩٩٢)، ص ١٦٩ ـ ١٧٦.

(٨٧) انظر على سبيل المثال:

أحمد الخيامي، «آثار الانكفاء السوفيتي على الوضع العربي: الأسباب والنتائج والتحديات»، الوحدة، عدد ٩٠ (مارس ١٩٩٢)، ص ص ٢٥ ـ ٣٣، الحسان بوقنطار، «تحولات الكتلة الاشتراكية والحركة الشيوعية العربية»، المستقبل العربي، عدد ١٣٩ (سبتمبر ١٩٩٠)، ص ص ٥٩ ـ ٦٩، د. جلال أمين، «أحداث أوروبا الشرقية ومستقبل العالم الثالث»، الهلال (يناير ١٩٩٠)، حسنين توفيق إبراهيم، «التحولات الراهنة في أوروبا الشرقية وانعكاساتها على الوطن العربي»، الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٣٤ (أكتوبر ١٩٩٠)، ص ص ١٦٩ ـ ٢١٢، عبد الإله بلقزيز، «ماذا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي؟ ما العمل؟»، المستقبل العربي، عدد ١٥٤ (ديسمبر ١٩٩١)، د. جهاد الكبيسي، «تأثير انهيار الاتحاد السوفيتي على النظام الدولي الجديد»، ورقة قدمت إلى ندوة «الوضع الدولي الجديد»، مرجع سبق ذكره، عبد المجيد فريد، «العرب والتغيرات الجديدة في الكتلة الاشتراكية»، الباحث العربي، عدد ٢٣ (إبريل ـ يونيو ١٩٩٠)، ص ص ٣٤ ـ ٣٧، ندوة «تأثير التطورات الجديدة في الكتلة الاشتراكية على الوطن العربي»، المستقبل العربي، عدد ١٣٢ (فبراير ١٩٩٠)، ص ص ١١٢ ـ ١٣٢، يوسف صايغ، «دلالات التحولات الجذرية في مجموعة البلدان الاشتراكية بالنسبة إلى الوطن العربي»، المستقبل العربي، عدد ١٥٠ (أغسطس ١٩٩١)، ص ص ٤ ـ ١٨.

(٨٨) انظر على سبيل المثال:

أحمد ثابت، «أوروبا الموحدة والعرب»، مرجع سبق ذكره، د. أحمد عبد الونيس شتا و د. أحمد الرشيدي، «في دلالات الوحدة الأوروبية وآثارها المحتملة بالنسبة إلى مستقبل التكامل الإقليمي العربي»، شئون عربية، عدد ٦٩ (مارس ١٩٩٢)، ص ص ١٠٠ ـ ١١٦، المختار المطيع، «أوروبا الاثنا عشر وتأثيراتها المحتملة على الأقطار العربية»، الوحدة، عدد ٨٦ (نوفمبر ١٩٩١)، ص ص ٦٥ ـ ٧٦، د. حازم الببلاوي، «أوروبا ١٩٩٢ والعرب»، الباحث العربي، عدد ٢٠ (يوليو ـ سبتمبر ١٩٨٩)، ص ص ٤٨ ـ ٦١، عزالدين شكري، «الغرب العربي ـ أوروبا ١٩٩٢: إعادة صياغة»، السياسة الدولية، عدد ٩٩ (يناير ١٩٩٠)، جمال الدين محمد علي، «أوروبا الموحدة ومستقبل الحوار العربي ـ الأوربي»، السياسة الدولية، عدد ١٠٠ (إبريل ١٩٩٠)، د. هبة أحمد نصار، أثر قيام السوق الأوروبية الموحدة بعد عام ١٩٩٢ على العلاقات الاقتصادية العربية (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، سلسلة بحوث سياسية، عدد ٦١ مكرر، يناير ١٩٩٣).

(٨٩) انظر على سبيل المثال:

د. جمال زهران، «العلاقات العربية ـ الصينية في ظل أوضاع عالمية جديدة»، ورقة قدمت إلى ندوة «العرب ونظام عالمي جديد»، مرجع سبق ذكره، حسنين توفيق إبراهيم، «اليابان والنظام الدولي في التسعينيات»، السياسة الدولية، عدد ١٠١ (يوليو ١٩٩٠)، د. خليل درويش، «اليابان والعرب في ظل الأوضاع العالمية الجديدة»، ورقة قدمت إلى ندوة «العرب ونظام عالمي جديد»، مرجع سبق ذكره، د. سعد الدين إبراهيم، «الصينيون قادمون»، المصور، عدد ٣٥٥٩ (٢٥/ ١٢/ ١٩٩٢)، ص ص ٦٠ ـ ٦١، د. عبد المنعم سعيد، «الأخوة الأعداء: اليابان والقوى الكبرى»، السياسة الدولية، عدد ١٠١ (يوليو ١٩٩٠)، محمد محمود العشماوي، «اليابان والتغيرات الدولية الجديدة»، السياسة الدولية، عدد ١٠٨ (إبريل ١٩٩٢)، ص ص ٢٥٣ ـ ٢٥٥.

(٩٠) انظر على سبيل المثال:

حسنين توفيق إبراهيم، النظام الدولي الجديد. قضايا وتساؤلات (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٢)، عبد المنعم سعيد، «الديمقراطية والنظام العالمي الجديد»، مرجع سبق ذكره.

(٩١) انظر على سبيل المثال:

د. حسن نافعة، «النظام الدولي الجديد ومستقبل الديمقراطية في العالم العربي»، في: د. نيفين عبدالمنعم مسعد (تحرير)، التحولات الديمقراطية في الوطن العربي (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ط ١، ١٩٩٣)، ميلود المهذبي، «إشكاليات في الديمقراطيات المعاصرة والتغيرات الدولية»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٩ (شتاء ١٩٩٣)، ص ١٥١ ـ ١٥٩.

Dr. Walid Kazziha, "The First anniversary of the new world order", Jime Review: Areview of middle East and Eurasy affairs, No. 16 (spring, 1992) pp. 5 - 7.

(٩٢) انظر على سبيل المثال:

د. عبدالمنعم سعيد، «العرب والنظام العالمي الجديد... الخيارات المطروحة»، مرجع سبق ذكره.

(٩٣) انظر على سبيل المثال:

أسامة المجدوب، «المتغيرات الدولية ومستقبل مفهوم السيادة المطلقة»، السياسة الدولية، عدد ١٠٩ (يوليو ١٩٩٢)، بسام السيطة، «إشكالية مفاهيم العالم الثالث في ضوء انهيار العالم الثاني وانبثاق النظام العالمي الجديد»، المستقبل العربي، عدد ١٥٧ (مارس ١٩٩٢)، ـ ١٣٥، جرجي مطر، «التنظير والتفكير في مشكلات ما بعد الحرب الباردة»، الحياة، ١٢/ ٧/ ١٩٩٣، سمير أمين، «ملاحظات حول

لمرتقة»، الفكر العربي، عدد ٦٦ (أكتوبر ـ ديسمبر ١٩٩١)، ص ٣٦ ـ ٥٣، عبد القادر عرابي، «التغيرات الدولية الراهنة: أبعادها المنهجية وانعكاساتها في مستقبل الخطاب المنهجي العربي»، المستقبل العربي، عدد ١٦٩ (مارس ١٩٩٣)، ص ص ٤ ـ ٢٠، د. نابل معوض أحمد، «الأحلاف العسكرية والتطورات الدولية المعاصرة»، المجلة العربية للدراسات الدولية، العدد الأول والثاني، السنة الرابعة (شتاء ـ ربيع ١٩٩٣).

Ali E. Hillal Dessouki, Globalization and the two spheres of security.

مركز البحوث والدراسات السياسية، جامعة القاهرة، سلسلة بحوث سياسية، عدد ٦٣ (مارس ١٩٩٣).

(٩٤) انظر على سبيل المثال:

د. جمال زهران، العلاقات العربية ـ الصينية . . ، مرجع سبق ذكره، د. خليل درويش، «آفاق العلاقات العربية ـ اليابانية: الحدود والإمكانيات»، في: د. مصطفى كامل السيد (محرر)، حتى لا تنشب حرب عربية عربية، مرجع سبق ذكره، د. خالدة شادي، «القوة الألمانية الصاعدة: المعطيات والهواجس في إطار النظام الدولي الراهن»، الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٤١ (يوليو ١٩٩٢)، ص ٢٩ ـ ٥٤، د. طه عبد العليم، «الدور الروسي في النظام العالمي الجديد»، ورقة قدمت إلى ندوة «مفهوم وآليات النظام العالمي الجديد»، مرجع سبق ذكره، ولنفس المؤلف، مصر والكومنولث الروسي (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ـ كراسات استراتيجية)، عدد ١٣، (يناير ١٩٩٣)، عفاف عمران، «العلاقات العربية ـ الأوروبية في ظل التطورات الراهنة»، المستقبل العربي، عدد ١٤٠ (أكتوبر ١٩٩٠)، كاظم حبيب، «العلاقات العربية ـ الأوروبية في ضوء الصراع المحتدم بين الشرق والغرب»، المستقبل العربي، عدد ١٦٩ (مارس ١٩٩٣)، د. محمد عبد الشفيع عيسى، «العرب والعالم والتكنولوجيا المتقدمة»، الوحدة، عدد ٨٦ (نوفمبر ١٩٩١)، ص ٤ ـ ٥١، د. محمد سعد أبو عامود، «شروط تعامل العرب الناجح مع المتغيرات العالمية الجديدة»، مرجع سبق ذكره، ولنفس المؤلف، «الاستجابة العربية الإسلامية الحضارية المطلوبة للتحدي الحضاري الغربي» مستقبل العالم الإسلامي، عدد (شتاء ١٩٩٣)، ص ص ٧ ـ ٣٢، منار الشوربجي، إدارة كلينتون والقضايا العربية (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، كراسات استراتيجية، عدد ١٢، نوفمبر ١٩٩٣)، د. هالة سعودي (محرر)، الإدارة الأمريكية الجديدة والشرق الأوسط (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ط١، ١٩٩٣)، د. ودودة بدران، «العالم العربي وإمكانية التأثير على الجماعة الأوروبية»، في: د. مصطفى كامل السيد (محرر)، حتى لا تنشب حرب عربية عربية، مرجع سبق ذكره، يوسف حلباوي، «السياسات العربية في عالم الثلاثة الجديدة»، شئون عربية، عدد ٦٩ (مارس ١٩٩٢)، ص ١٣٠ ـ ١٤٢.

(٩٥) انظر على سبيل المثال:

سعد عبد المجيد، «العرب: حسابات الربح والخسارة في ظل ما يسمى بالنظام العالمي الجديد»، ورقة قدمت إلى ندوة «العرب ونظام عالمي جديد»، مرجع سبق ذكره، د. حسنين توفيق، «العرب والمصير: رؤية ثورية للخروج من الأزمة»، مرجع سبق ذكره، عبدالإله بلقزيز، بعد انهيار الاتحاد السوفياتي: ما العمل؟ مرجع سبق ذكره، وانظر أيضا بيان المؤتمر القومي الرابع، المستقبل العربي، عدد ١٧٢ (يونيو ١٩٩٣).

(٩٦) انظر على سبيل المثال:

زكي أحمد، مرجع سبق ذكره، راشد الغنوشي، «الحركة الإسلامية والنظام الدولي»، مرجع سبق ذكره، ولنفس المؤلف، «العلاقة بين أمة الإسلام والغرب»، الغدير، العددان ١٠ و١١ (جمادى الأول، جمادى الثاني ١٩٩٠)، ص ص ٢٤ ـ ٣٨، عادل المهدي، مرجع سبق ذكره، محمد عمارة، «العالم الإسلامي والمتغيرات الدولية الراهنة»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٦ (ربيع ١٩٩٢)، ص ص ٧ ـ ٢٥.

(٩٧) انظر أيضا:

د. حسنين توفيق إبراهيم، «الفكر العربي وإشكالية النظام الدولي الجديد: دراسة تحليلية نقدية»، شئون عربية، عدد ٦٩ (مارس ١٩٩٢)، ص ص ٤٩ ـ ٦٩.

أي هيكل للنظام الدولي الجديد؟

د. ناصيف يوسف حتّي

مقدمة

أول ما يطالع المراقب للأوضاع الدولية غداة انتهاء الحرب الباردة، وجود عدد من المفارقات المثيرة بعضها على الصعيد الهيكلي وبعضها الآخر على الصعيد القيمي أو السلوكي. فمن الملاحظ أنه في حين سقطت الإمبراطوريات التي قامت على القوة العسكرية أو استمرت بالقوة العسكرية، أخذت تقوم امبراطوريات على أساس القوة الاقتصادية. ومن الملاحظ أيضا أنه بقدر ما يتبلور اتجاه يتخطى الدولة نحو بناء تكتلات اقتصادية كبرى عاكسا بذلك من جهة ازدياد عالمية الاقتصاد (Mondialization de l'économie) واندماجه وعدم قدرة الدولة الوطنية على التناول بشكل منفرد عديد من القضايا الدولية، من جهة أخرى، بقدر ما تتعرض الدولة القائمة إلى مخاطر التفتيت من الداخل، وهي مخاطر مصدرها انتعاش أو ثورة الولاءات الأصلية من اثنية ومذهبية ودينية وقومية. ويبدو وكأن العالم يتجاذب تيارات، أحدهما يمثل الانشداد إلى المجال الاقتصادي والآخر يمثل الانجذاب إلى المجال الثقافي. وفي حين يسقط جدار برلين الاستراتيجي، تبقى المخاطر موجودة في قيام جدران «برلين»، على أسس ثقافية قد يحدث التفاعل الإيجابي أو التوتر عبرها، وهي بأي حال تميز «النحن» عن «الهم».

وأخيرا هنالك عدد من الإشكاليات في نوع الثنائيات التي أخذت تستقر على الأجندة الدولية وهي: حقوق الإنسان مقابل حقوق الشعوب، وحقوق الجماعة مقابل حقوق الدولة التي تأخذ أحيانا طابع المواجهة بين الشرعي (Legitimate) والقانوني (Legal)». والديمقراطية الداخلية أو ديمقراطية الدولة التي يرفعها «الشمال» مقابل الديمقراطية الخارجية أو ديمقراطية العلاقات الدولية التي ينادي بها «الجنوب» كما حصل مثلا في القمة العاشرة لدول عدم الانحياز التي عقدت في جاكرتا، اندونيسيا في الأسبوع الأول من سبتمبر ١٩٩٢.[١]

إذن، غداة انتهاء الاتحاد السوفيتي بالمفهومين القانوني والجيو سياسي في ٨ ديسمبر ١٩٩١، بدا العالم منقسما بين المتفائلين بفجر جديد وبين أصحاب «النوستلجيا» إلى عصر كانت قواعد إدارة العلاقات الدولية فيه معروفة وشبه مبرمجة وتسهل استكشاف موقف الآخر. وكان أصحاب التفاؤل نتاج مدرسة النيس، عندها بداية تكون نظام جديد مع الاعتبار بأن هذا النظام قد قام بقواعده وأنماطه. وقد علمنا التاريخ أن إقامة نظم جديدة تأخذ فترة من الزمن قد تكون عشرية مثلا أو عشريتين[٢]. ويعتبر زبغنيو بريجنسكي أنه لا يوجد نظام عالمي جديد من حولنا ونشأة هذا النظام قد تستغرق عشرات السنين.[٣]

فالنظام لا يقوم بالضربة القاضية بل يترسخ في أنماط وقواعد وهيكل جديد نتيجة تفاعلات حادة حينا ومبتكرة أحيانا. فعلى سبيل المثال لم يقم نظام الثنائية القطبية مباشرة غداة انتهاء الحرب العالمية الثانية بل أخذ سنوات حتى تم ضبط بريطانيا وفرنسا في إطار حلف بزعامة الولايات المتحدة واستكمل الاتحاد السوفيتي ترسيخ سيطرته في مناطق نفوذه وتبلورت قواعد اللعبة وتأسست مناطق النفوذ المطلق والمناطق الرمادية أو مناطق التنافس، وقبل ذلك في القرن الماضي مرت عشريتان ونيف من الحروب والتوترات التي أطلقتها الثورة الفرنسية قبل أن يتأسس نظام جديد في مؤتمر فيينا. ونحن حاليا نواجه عقدا من التحديات. ويقول بيار هستر إن كلا من نظام يالطا (الثنائية) ونظام فرساي (الحدود والدول التي قامت بعد الحرب العالمية الأولى) وكذلك نظام وستفاليا (سيادة الدول والوحدة الترابية) كل هذه النظم موضوع تساؤل الآن.[٤]

إذن، ما يمكن الجزم به حاليا هو أن النظام «الجديد» لم يتأسس بعد وقد يقوم لاحقا على فوضى عالمية[٥] أوقد يكون بمثابة العودة إلى الماضي بسلوكيات أعضائه، إلى «العصور الوسطى» مثلا[٦] ويحذر الاقتصادي الأمريكي جون كينيث جالبريث من أن الفقر سيكون المصدر الأول للفوضى العالمية وأن المآسي البشرية سيكون مصدرها النزاعات الداخلية أكثر منها النزاعات الخارجية.[٧]

وما نعرفه أيضا أن النظام الجديد سيكون عالميا وليس دوليا إذ أن دور الدولة ولو بقي رئيسيا، إنما صار يشاركه أطراف أخرى غير الدولة من شركات ومؤسسات اقتصادية ومالية وتجمعات مصالح قطاعية في النوع «عبر الدولة» وكذلك نسق وظيفية. كل هذه الأطراف تؤثر بشكل فعال في قرارات الدولة وكذلك في ترتيب الأجندة الدولية.

وما نعرفه أيضا أن كثيرا من القواعد الدولية قد سقطت وسقط معها عدد من المفاهيم أو التوصيفات القائمة وسقوط هذه أو إفراغها من مضامينها يدل على حجم التحول الحاصل وعلى السيولة التي تطبع الوضع العالمي حاليا. وفي هذا السياق نتساءل عن ماهو «الغرب» بعد أن زال الشرق الذي كان يعطيه معناه

السياسي. [٨] وإذا انتهى الغرب بالمفهوم الاستراتيجي وهو كذلك فهل يشكل وحدة بالمفهوم الثقافي حتى يستمر بشكل آخر بنفس قوة الدفع. فهل اليابان مثلا جزء من الغرب الأطلسي بشقيه الأمريكي والأوربي بهذا المعنى، ثم أيضا ماهو عدم الانحياز بعد انتهاء الثنائية القطبية والتجاذب الذي أوجدته أو ليس بحاجة حتى يستمر بالفعل وليس بالمفهوم الشكلي أن يعاد تعريفه وإعطاؤه مضمونا جديدا أو مشروعا جديدا. وهل نستطيع أن نتحدث عن عالم ثالث يكون في عداده كل من البرازيل وأندونيسيا من جهة والصومال وسريلانكا من جهة أخرى مثلا وخاصة بعد أن زال «العالم الثاني». وقد ينطبق الشيء ذاته على مجموعة الدول السبع مع تزايد خلافاتها، وحسب افتتاحية للفاينتشل تايمز، فإن المذهب الجديد لمجموعة السبع هو مذهب سيناترا (على اسم المغني الأمريكي) وأغنيته كل على طريقه [٩]. ويبدو أن تعريف الشيء كان بواسطة نقيضه، وبسقوط النقيض، سقطت «وحدانية الآخر» واندثرت حدوده.

المحددات: مصادر القوة والضعف

إن وجود عوامل جديدة طرأت على بعض المتغيرات الدولية في مرحلة ما بعد الحرب الباردة يعيد طرح موضوع مصادر القوة والضعف عند قياس إمكانات القوى المرشحة للعب دور قطب دولي في النظام الذي يتكون. ومن ثم الولوج إلى محاولة استشراف النماذج الممكنة لهيكل هذا النظام. زد على ذلك أن الأجندة التي تحوي هذه المتغيرات تحدد بشكل كبير أطر وطبيعة التفاعلات عبر الدولة بين هذه القوى الأقطاب وبينها وبين دول العالم وتؤثر بالتالي بموقع هذه القوى وقدرتها على الاحتفاظ أو على تجميع أكبر حجم ممكن من الإمكانات بشكل مطلق أو بواسطة بسط نفوذها عبر إحداث شبكة كثيفة من الروابط غير المتكافئة في العالم وفيما يلي قراءة في هذه المتغيرات.

الدولـــة:

تبرز تحت هذا العنوان مستجدات ثلاثة: أولها التغيير الحاصل في طبيعة السيادة المحدودة التي كان مصدرها استراتيجي أيام الحرب الباردة وأبرز مثال على ذلك كان مذهب بريجنيف الذي نشأ في ربيع براغ عام ١٩٦٨ وكرس حق التدخل لحماية الاشتراكية وكذلك التدخل الذي كانت تمارسه الولايات المتحدة في شئون بعض الجمهوريات في أمريكا الوسطى «جمهوريات الموز» كلما شعرت أن هنالك مخاطر تهدد مصالحها في «الحديقة الخلفية» حسب مذهب مونرو.

ولئن تراجع العامل الاستراتيجي في هذا المجال، فلقد حل محله العامل الاقتصادي في صياغة مفهوم السيادة المحدودة، وساهم في هذا ثورة المواصلات والاتصالات والاختراقات العلمية المتتابعة في هذه الحقول، وازدياد الاندماج الاقتصادي العالمي والاختناقات التي تعيشها اقتصاديات الدول النامية بحيث صارت السياسة النقدية أو الاقتصادية لإحدى الدول المدينة تخضع بشكل دوري لامتحان حسن سلوك من قبل نادي باريس أو نادي لندن للدائنين إلى جانب اضطرار هذه الدول على التجاوب مع المقترحات ـ الضغوطات ـ التي يقدمها صندوق النقد الدولي. وإذا كان هذا العامل الاقتصادي بغير جديد كمصدر تقييد للسيادة، ولو أن وزنه قد زاد إلى جانب ازدياد انتشاره، فإن الاتجاه الحاصل حاليا هو نحو تقنين السيادة المحدودة أو إضفاء شرعية لفرضها بشكل مباشر بواسطة محاولة بلورة حق أو واجب التدخل الإنساني. ويقول برنار كوشنر في

هذا الخصوص. إنه من الصعب جدا إيقاف حرب في وسط تطورها، فلابد من اللجوء إلى التدخل الوقائي، وهو أهل مرحلة في تطور مفهوم التدخل. وصحيح أن هذا المفهوم لم يتم تقنينه بعد وخاصة أنه يلاقي معارضة قوية من مصدرين مختلفين ومتقاطعين أحيانا أحدهما المدرسة الكلاسيكية في القانون الدولي التي تقدس حرمة الدولة وتحذر من مغبة فتح «صندوق العجائب» فيما لو تم تكريس هذا المبدأ، الأمر الذي يؤدي إلى تعميم الفوضى الدولية وخلق مشاكل أكثر من إيجاد حلول لمشاكل قائمة أو محتملة، وثانيهما التخوف الرسمي من أن تكريس المبدأ بإعطائه طابعا عالميا قد يؤدي أحيانا إلى فرض قيود ذاتية، وتفضل القوى التي تدعم هذا المبدأ العمل به بشكل انتقائي.

ولكن مقاومة التقنين الناجحة حاليا لا تلغي الإشكاليات والتناقضات التي يثيرها هذا الموضوع ومنها وضع القانون الدولي أحيانا في مواجهة الأخلاقية الدولية، ووضع العاطفة في وجه النص، وأيضا وضع الفرد أو الجماعة في مواجهة حق الدولة، ويفتح هذا كله الباب أمام تساؤلات تحمل تداخلا بين الفلسفي والواقعي وبين السياسي والقانوني من نوع التساؤل حول التدخل لحماية شعب يتعرض للفناء واعتباره بمثابة حماية حقه في تقرير المصير أو اعتبار أن هذا الحق ينتهي عند قيام الدولة. كما يفتح الباب أمام بلورة حقوق تدخل لقضايا «مشروعة» من منظور عالمي وجديدة مثل حق التدخل البيئي.[10]

وتأتي هذه المستجدات التي تهدد المفهوم التقليدي لسيادة الدولة تنبع من ما أسميه بالعمالتالية المعكوسة التي تحمل تلقها ودعوة من قبل مجتمعات أو قطاعات واسعة في مجتمعات الدول النامية، إلى الدول المتقدمة لتدخل هذه الدول بغية حماية مجتمع من دولته النامية.

ومرد هذا التلهف أسباب عديدة منها انتهاء عصر الاستعمار منذ فترة بعيدة نسبيا ودخول صوره السلبية في عالم النسيان خاصة عند الأجيال التي ولدت في المرحلة الاستقلالية للدول النامية. وكذلك الفشل الذريع للعديد من الدول المستقلة حديثا في عملية البناء الوطني والأزمات الاقتصادية مع تداعياتها الاجتماعية والمأساوية أحيانا وازدياد سياسات التهميش الاجتماعي والقهر وغياب النموذج الأصيل بعد سقوط النموذج البديل عن النموذج الغربي إلى جانب الحاجة في حالات معينة مثل الصومال وكامبوديا إلى بناء السلام الذي يعني عمليا بناء الدولة من اللاشيء مما يستدعي إقامة نظام من الحماية أو الانتداب الجديد تحت مظلة الأمم المتحدة أو المؤسسات الدولية التي يسيطر عليها «الشمال».

فحالة التعب والشعور بالانهيار التي أصيب بها عدد من مجتمعات الدول النامية نتيجة تراكم الصدمات ولو بدرجات متفاوتة أوجدت التربة الخصبة للنظر إلى الشمال الراعي بانتصاراته، كأنه «المخلص» من هذه الأوضاع.[11] فالتغييب المستمر للمجال السياسي الفاقد مصداقيته بعد مصادرته من قبل الدولة في العديد من مجتمعات الجنوب وضع هذه الأخيرة ضد دولتها، متقبلة عن يأس دور المنقذ القادم من بعيد دون التوقف عند المعنى السياسي لهذا الدور.

وثالث هذه المستجدات سقوط محرمات الدولة وتحديدا الوحدة الترابية للدولة حيث إن القواعد التي كانت تحصن الدولة ضد الانهيار وتحمي حدودها انهارت وشاهدنا سقوط امبراطوريات من دول متعددة القوميات وولادة دول جديدة ونعيش انفجارا ضخما في عدد الدول وصار مقبولا إعادة رسم حدود دولة أو تقسيم أخرى

بعدما كانت موازين وقواعد معينة تحمي دولا هشة من هذا المصير. ومع سقوط قدسية الدولة ككيان سقط بالطبع ما هو أسهل من ذلك وهو قدسية السيادة وصارت هنالك جرأة أكبر مع المعطيات الجديدة للتدخل تحت عناوين كثيرة أو لتبرير التدخل وتقييد سيادة الدولة. (١٢)

النزاعـات

أول ما يلاحظ عند مقارنة نزاعات الحرب الباردة بتلك المتفجرة والمنتشرة حاليا والمحتمل تفجرها أيضا في مرحلة ما بعد الحرب الباردة، إن النزاعات الأولى كان مصدرها الرئيسي استراتيجي أي تنتمي إلى دائرة المواجهة بين الشرق والغرب والتنافس بين القطبين المعظميين وحتى تلك النزاعات التي كانت مستقلة في مصدرها عن العامل الاستراتيجي فإن استمرارها وتطورها وإدارتها وحتى تسويتها كانت متأثرة بشكل كبير بالعامل الاستراتيجي ذاته. فكنا نلاحظ وجود قواعد للعبة إدارة النزاعات تعمل على ضبطها عند حد معين أو في وقت معين والملاحظ الآن أن النزاعات الجديدة أو المتجددة مصدرها التي بالمعنى العام للكلمة إذ تتعلق بهوية أصلية تواجه أو تنتقض على أخرى وأن بعض هذه النزاعات من النوع المعروف بالنزاعات الاجتماعية الممتدة Protracted Social Conflict أي التي تتغذى على ذاتها وتعيد إنتاج نفسها بسبب قدرتها التعبوية نظرا للقيم التي تدافع عنها أو تعمل على تحقيقها وخاطر هذه النزاعات من منظور احتمالات تسويتها أن بعضها يتضمن مواقف تقوم على نفي الآخر وبالتالي لا تحتمل المساومة.

ومن المفارقات الكبيرة في هذا الخصوص أن بعض النزاعات التي انتهت نتيجة توقف أو تغير في مصدرها الاستراتيجي مثل حالتي أفغانستان وأنغولا قد انتعشت مجددا بواسطة قوة المحرك الاثني. زد على ذلك أنه لم تتبلور بعد قواعد لإدارة هذه النزاعات ولن تتبلور تلك القواعد طالما لم يرس النظام الدولي على هيكل جديد. ويرى البعض أنه من شبه المؤكد أن يكون النزاع الاثني المشكلة الرئيسية في السياسة في القرن الواحد والعشرين. (١٣) ومرد ذلك العوامل التالية:

ـ ثورة حق تقرير المصير المتفجرة من جديد بعد سقوط الاتحاد السوفيتي فالقومية ربما تكون أكبر قوة سياسية في القرن الواحد والعشرين. (١٤) وسواء كانت مشكلة أو قوة فانفجارها يعود في الأساس ولو بدرجات متفاوتة إلى فشل الدولة في بناء المجتمع الذي يستوعب ولا يلغى أو يطمس الهويات المتعددة إذا وجدت. وفي غياب الاستيعاب الخلاق يهدد المجتمع Gesellchaft الجماعة Gemeinschaft ويحصل التوتر والانقطاع اللذان سرعان ما يتحولان إلى صدام مفتوح إذا سمحت الظروف السياسية الدولية والمحلية بذلك. وهذا ما يهدد وحدة الدولة عندما تنتصب الحدود الثقافية للجماعة في مواجهة الحدود الجغرافية للدولة ولا يعني ذلك بالضرورة أن الانفصال هو التعبير الوحيد الممكن عن الهوية الثائرة ولكن الأجوبة على التساؤلات التي تطرحها ثورة حق تقرير المصير لم تنضج بعد فلم نشهد باستثناء المعايير التي بلورتها بخجل وعجل الجماعة الأوربية «معايير عالمية» للاعتراف بدولة جديدة أو رفض ذلك. ويقول وزير الخارجية الأمريكي وارن كريستوفر في هذا الخصوص إنه إذا لم نجد طريقة ما لتعايش المجموعات الاثنية المختلفة في دولة فقد يصبح عندنا خمسة آلاف دولة. (١٥) فانتشار ثورة حق تقرير المصير من أهم السمات الدولية المعاصرة.

ـ العامل الثاني الهام في هذا الصدد، يتمثل في إشكالية العلاقة بين الديمقراطية والنزعات الاثنية، خاصة

انه في المرحلة الأولى من تأسيس اللعبة الديمقراطية في بعض الدول المتعددة الاثنيات، قد تتكون الأحزاب أو التكتلات السياسية على أساس الولاءات الأصلية مما يهدد الوحدة الترابية للدولة فيها لو اتخذ العمل السياسي هذا المنحى إذ تتحول أي أزمة سياسية وهذا شيء طبيعي في الإطار الديمقراطي إلى أزمة وطنية. فالديمقراطية قد تؤدي أحيانا وفي بدايتها إلى تأجيج النزاعات الاثنية خاصة إذا كانت هنالك توترات اثنية مقموعة رفع عنها الغطاء فجأة أو إذا كان النظام السابق مرتبط بجماعة اثنية معينة أو إذا كان يحافظ على استمراريته من خلال اتباع سياسة اللعب على الاثنيات [١٦] والأمثلة على ذلك عديدة.

ـ العامل الثالث يتمثل في الأثر التظاهري للنجاحات التي حققتها بعض الجماعات الصغيرة نسبيا في الانتصار لأهدافها القصوى في الانفصال أو إقامة الدولة المستقلة وهو ما يشجع جماعات تعتقد أنها تعيش أوضاع مشابهة للمضي في رفع أقصى مطالبها داخلة في نزاع مع الدولة المركزية.

ـ العامل الرابع يتمثل في غياب الآليات المؤسسية في إطار الأمم المتحدة أو المنظمات الدولية الإقليمية للتعاطي مع نزاعات ذات وجه داخلي، وكذلك غياب الآليات السياسية أو القواعد العرفية التي تحترمها مثلا القوى الكبرى والقادرة بحيث تصلح هذه الآليات كسقف يمنع تفجر النزاعات أو كأداة أحيانا لاحتوائها وإيقافها ولو دون تسويتها.

الديمغرافيا

مشكلتان مترابطتان هما الانفجار السكاني والهجرة مرشحتان بالتفاقم نتيجة الزيادة النسبية المرتفعة في عدد السكان في المناطق النامية في العالم، فعدد السكان في العالم اليوم وصل إلى خمسة مليارات إنسان، ومن المرجح أن يصل هذا العدد عام ٢٠٢٥ إلى حوالي ٨ مليارات علما بأن ٩٥٪ من الزيادة تقع في العالم الثالث. [١٧]

فالانفجار السكاني والنمو البشري الذي لا يخضع لتخطيط أو لأن التقاليد والظروف الاجتماعية المترسخة أقوى من محاولات التخطيط، ويؤدي إلى هجرتين الأولى داخلية باتجاه المدينة التي تزداد اكتظاظا. ويشير تقرير لنادي روما إلى تقديرات للأمم المتحدة تقول بأن ٦٠٪ من سكان العالم سوف يعيشون في المدن بحلول نهاية هذا القرن. [١٨] والهجرة الثانية خارجية وقد تأتي عن طريق المدنية أو بشكل مباشر ويرى أحد الباحثين أن هنالك ثلاثة خطوط رئيسية للهجرة تقع على نقاط تماس بين الشمال والجنوب في آسيا والمتوسط وإفريقيا وكذلك في الريو غراندي أو الحدود المكسيكية الأمريكية. [١٩]

وتثير هذه الهجرة جملة من المشاكل أولها تفاقم الأزمة الاقتصادية الاجتماعية في المدينة فالانبهار بأضواء المدينة وأحلامها وغياب عوامل التشجيع على التمسك بالأرض يؤدي إلى إفراغ الريف وتهميش القطاع الزراعي. ومن ثم يؤدي إلى ترييف المدينة مع ما يحمله ذلك من توترات اجتماعية. وتثير الهجرة الخارجية مشكلة مزدوجة، فإقفال باب «الشمال» قد يؤدي إلى انفجار في دول «الجنوب» يطال بتداعياته الشمال وعدم إقفال الباب واستمرار الهجرة مع ما تفجره من تناقضات اجتماعية في التقاليد والعادات مع الدول المستوعبة يؤدي إلى خلق توترات تهدد السلم الاجتماعي وتستعر التيارات المتطرفة وتهدد بالتحول إلى صراعات عبر الحدود. ويقول بول كينيدي إن التحدي الرئيسي المطروح في هذا الشأن هو كيفية تغليب قوة التكنولوجيا على قوة السكان. [٢٠]

وخلاصة القول، إن النمو السكاني السريع والهجرة الناتجة عنه سيزيدان من اختلال العلاقات بين الدول «الطاردة» والدول المستقبلة، إن لم يكن لأسباب اقتصادية فلأسباب استراتيجية، وسيؤدي هذا الوضع إلى زيادة الاعتماد المتبادل بين الطرفين وتعقيد العلاقات بحيث تنتفي العلاقة بين الخارجي والداخلي في التفاعلات بينهما. ويسمح ذلك الوضع للدولة المستقبلية بأن تكرس وتوسع مجال نفوذها بالدول المصدرة خاصة إذا كانت هذه الهجرة مستقرة عبر الزمن.

سباق التسلح

يشكل الانتشار النووي وفقدان السيطرة على الترسانة النووية السوفييتية خطرا بسبب الفوضى والوضع السائد في روسيا بالخصوص إلى جانب المشاكل الناتجة عن تحويل القطاع العسكري إلى القطاع المدني وهو ما يعني كساداً اقتصادياً له تداعيات سياسية على قطاع قوي وعنده القدرة على المقاومة أو المساومة، ويزيد من مخاطر الانتشار النووي استقرار هذا السلاح في مناطق تشهد نزاعات إقليمية مستمرة أو قد تشهد نزاعات محتملة. والتحدي الأساسي كما ذكرنا هو كيفية ضبط أو تقييد حوالي ١٥ ألف سلاح نووي تكتيكي و١٢ ألف استراتيجي على أراضي الاتحاد السوفييتي سابقا.[٢١]

ولئن كان ميزان الرعب القائم على قدرة التدمير المتبادل هو الحافظ الرئيسي أو الرادع الفعلي طيلة الحرب الباردة من اللجوء إلى استخدام السلاح النووي في بعض الأزمات، فإن الرعب الحالي مرده ديمقراطية الانتشار النووي واحتمال حصول حوادث وكذلك غياب تقاليد لعبة الردع من التخاطب بالإشارات وضبط النفس والتصعيد عند القوى الإقليمية مع ما كان عليه الوضع في التفاعل الذي كان قائما بين القوتين العظميين. ويقول روبرت ماكنمار وزير الدفاع الأمريكي في عهدي كينيدي وجونسون إنه من الممكن التنبؤ بثقة أن مزيجا من الخطأ الإنساني والسلاح النووي لابد أن يؤديا إلى الدمار النووي. ويضيف قائلا أن هنالك عشرين دولة على الأقل تملك نوعين من أسلحة الدمار الشامل من نووي أو كيمياوي أو بيولوجي.[٢٢]

ملاحظتان أخريتان لابد من الإشارة إليهما أيضا أولا أن النزاع الاستراتيجي يبقى من الأسهل تقييده وإدارته من نزاع اثني إذ أنه أكثر «عقلانية» بطبيعته في حين أنه في النزاع الاثني قد يجد طرفا «نفسه» مهددا «بوجوده» أو إحدى قيمه الحيوية وليس فقط ببعض مصالحه، وثانيا أن استمرار سباق التسلح يشكل مصدرا غير مباشر للتوتر من حيث استهلاكه لحجم كبير من القدرات المادية والبشرية كان يمكن توفيرها للتنمية وعلى سبيل المثال يؤكد تقرير للأمم المتحدة أنه لو تم خفض نسبة ١٠٪ من نفقات الدفاع في العالم على أساس نفقات عام ١٩٩٠ وهي نسبة متواضعة لأمكن توفير ٩٥ مليار دولار أمريكي[٢٣]. وكان يمكن استعمال هذه الأموال للتنمية.

خط الشمال ـ الجنوب

أيا كان الشكل الذي سيرسو عليه النظام العالمي، فإن الخط الرئيسي في السياسة العالمية الذي يرتسم «يقف عند طرفيه» واحد في مواجهة الآخر «الشمال» و«الجنوب» وهذا الخط الذي كان بمثابة دعوة أيديولوجية لردم الفجوة أو تضييقها بين الدول المتقدمة والدول النامية يأخذ حاليا مكان خط شرق غرب الذي طبع التفاعلات

الدولية في مرحلة الحرب الباردة، والجديد في «الشمال ـ جنوب» حاليا أنه يتخطى الاقتصاد ليشمل المجالين السياسي والاجتماعي في تفاعلاته.

وفي حين صار الغرب شمالا وسقط الشرق ليصبح جنوبا، يقف الأول مزهوا بانتصاره الاستراتيجي كغرب وثم انتصاره الأيديولوجي كنموذج للحكم يقوم على ثنائية اقتصاد السوق والديمقراطية. ويعيش هذا النموذج أقصى درجات الجاذبية أو لنقل أن هذه قد بلغت أقصى درجاتها ودخلنا دائرة التحدي الكبير وهو تحدي تطبيق هذا النموذج بأقصى سرعة ممكنة في بيئات غير مهيأة أساسا أو بحاجة لإيجاد شروط موضوعية معينة تستغرق وقتا و«تضحيات» صعبة سياسيا لإجراء هذا التحول الذي يفترض أن يتم ليس على الصعيد الهيكلي فحسب بل على الصعيد القيمي أيضا. ونحن نشهد التخبطات في التطبيق في دول أوروبا الشرقية سابقا وما تنتجه من تطورات في روسيا مثلا.

ولكن الشمال ليس موحدا بالطبع بل يعيش تنافسا اقتصاديا متزايدا بين أقطابه يدور جزء منه في الجنوب وكذلك تنازعا بين هذه الأقطاب كما تذكرنا بذلك دائما قمم مجموعة الدول السبع التي من الصعب أن يخفي دائما بيانها الشامل للسياسة والاقتصاد بصياغته العمومية والغامضة وجود خلافات حيوية وتضارب في المصالح الاقتصادية بين دوله. وخير دليل على ذلك المحاولات المستمرة لإنعاش جولة الأوروغواي والخلاف الفرنسي الأمريكي على اتفاقية «بلير هاوس».

ولكن لهذا التنافس قواعده وآليات إدارته ومن ينظر إلى الشمال من بعيد يجد نفسه أمام منطقة سلام وهدوء تحيط بها وتهددها منطقة اضطرابات [24] تقع في الجنوب الذي يعيش مشاكل كبيرة ومترابطة عناوينها الانفجار السكاني حيث تسبق الديمغرافيا دائما التنمية الاقتصادية وازدياد الفقر ومعه المديونية وكذلك ثورة تقرير المصير وسقوط دول وتفتت أخرى ومحاولات إنشاء أو إعادة بناء دول وسقوط نماذج اعتاد عليها، وتعامله مع النموذج الغربي على الصعيد العملي بشكل متردد ومتخبط وما يحمله هذا الوضع من تداعيات وخاصة على صعيد زيادة اختراق الشمال لهذا الجنوب فالتفكك هو عنوان الدينامية السياسية في الجنوب إن كان على المستوى الإقليمي أو الوطني. ويزيد من ذلك الوضع هروب الثروات من بيئة نزاعية إلى منطقة السلام ويقدر البعض أن التحويل المالي الصافي (NFT) سيخسر الدول النامية حوالي ٢٦٣ مليار دولار في التسعينيات. [25]

يجري ذلك كله ويواكبه نزف فكري وعلمي واستمرار ضغوطات الهجرة أو الهروب من محيط الاضطرابات في حين تزداد الإجراءات الحمائية من قبل الشمال مما يهدد بشكل أكبر الأوضاع الداخلية لعدد كبير من دول الجنوب. ويطرح أحد خبراء برنامج الأمم المتحدة للتنمية مقولة مثيرة لوصف هذا الوضع وكيفية الخروج منه فيرى أن الجنوب يقول «إما بضاعتنا في أسواق الشمال أو مواطنينا على أرضه» [26] ويدل ذلك على درجة الاعتماد المتبادل بين الطرفين مع اختلاله الحاد لمصلحة الشمال ولو أن ذلك لا يعفي الشمال من المسئولية. ليس من زاوية أخلاقية فحسب بل من زاوية استراتيجية حتى لا يتحول الشمال إلى جزيرة في محيط مضطرب. ويساهم ذلك كله في ازدياد التنافس بين أقطاب الشمال في محاولات زيادة اختراقها للجنوب وإقامة مناطق نفوذ فيه وفي زيادة ضغوطه ومطالبه تجاه الجنوب الذي يقف دون أي قدرة على المناورة أو المقاومة.

إعادة ترتيب عناصر القوة

للمرة الأولى في تاريخ النظم الدولية المتتالية، يحتل عنصر القدرات الاقتصادية مكانة مميزة في قياس قدرات الدول والقوى الكبرى. فالمراقب لمختلف التفاعلات الدولية حاليا لابد أن يلحظ الدور الذي تحتله الدبلوماسية الاقتصادية الثنائية والمتعددة الأطراف كأداة تأثير وبناء نفوذ أو كأداة ردع أو تدخل في سياسات دول والتأثير قد يكون بواسطة القطاع الخاص أو موجهة إلى القطاع الخاص بحيث يأتي التأثير من الداخل ولو أن مصدره ومحركه خارجي فالدور الذي يقوم به نادي باريس أو نادي لندن للدول الدائنة ودور الصناديق الدولية التي عادة ما يكون قرارها «الاقتصادي» ذات مصدر سياسي وسيطرة المؤسسات المالية الكبرى على أسواق المال كل ذلك يقدم الأمثلة على كثافة التفاعلات الحاصلة بالنسبة للدبلوماسية الاقتصادية. ومرد هذا الوضع الجديد جملة من العوامل أهمها.

- تدني منفعة (Diminishing utility) القوة العسكرية بعد انتهاء الحرب الباردة. فالقدرات العسكرية للولايات المتحدة صارت تفوق بشدة ما تحتاجه كقوة ردعية أو ما قد يحتاجه حلفاؤها، فانتهاء الثنائية القطبية أنهى مركزية لعبة الردع النووي أو التقليدي المكثف في التفاعلات الدولية، فيما حصل صعود في دور القوة الاقتصادية وللدلالة على تزايد أهمية الملف الاقتصادي تشير إلى الدعوة التي أطلقها رئيس المفوضية الأوروبية جاك ديلور من أجل إنشاء مجلس أمن اقتصادي.(٢٧)

وفي السياق ذاته يمكن الملاحظة، أن قمة الدول السبع صارت بديلا عن القمة الثنائية التي كانت تضم الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي خلال الحرب الباردة كأعلى إطار ممكن للتشاور في المسائل الدولية.

- أنواع النزاعات الجديدة التي لا يمكن إدارتها أو ردع أحد أطرافها بواسطة القدرات العسكرية الضخمة بل قد يكون المطلوب مزيجا من عناصر الردع السياسي والعسكري التقليدي والاقتصادي.

- التحولات التي حصلت أطلقت عمليتين متلازمتين ومتداخلتين تحتاجان بشكل كبير إلى قدرات اقتصادية هائلة وهما عملية البناء الوطني أو إعادة البناء الوطني عند ولادة دولة جديدة أو قيام نظام جديد والعملية الثانية متعلقة بإعادة صياغة علاقات إقليمية أو تأسيس نظم إقليمية إن كان في جنوب شرق آسيا أو في أوروبا أو في الشرق الأوسط ودول التركة السوفيتية.

وقد يكون من المفيد، التذكير بأن القوة العسكرية، تبقى بالطبع رئيسية وأساسية وما حصل هو نوع من إعادة التوازن بين دور القوتين في السياسة العالمية. ويفتح ذلك الباب كليا أمام جملة من الأنماط الجديدة في العلاقات الدولية منها مثلا تغييب «الانضباط» والتقيد بسياسة القوة العظمى أو الولايات المتحدة فيما يتعلق بالحلف الغربي بعد فقدان العدو الذي كان يدفع بواسطة المخاطر التي يشكلها إلى عملية الانضباط وراء زعيم الغرب، مما يعيد خلط الأوراق، ومنها أيضا أن عنصر القوة المعنوية وفي هذا السياق النموذج الاقتصادي الجذاب يصبح أحد مصادر القوة الرئيسية إذ يجعل من يملك هذا النموذج في موقع يسمح له بممارسة النفوذ دون الحاجة للقوة «No power influence» على دول كثيرة نتيجة انجذابها إلى هذا النموذج وأخيرا يسمح ذلك كله بزيادة «التدخل» غير المنظور بعكس التدخل العسكري في شئون الدول الصغيرة أو ذات الاقتصاد المنكشف من قبل الدول الكبرى وبوسائل مختلفة ويصعب لمسها مباشرة.

سقوط الأيديولوجي وبروز الثقافي

إحدى المفارقات التي حملها انتهاء الحرب الباردة كان سقوط العامل الأيديولوجي كمحدد للسياسة العالمية وذلك بسقوط الفكر الماركسي اللينيني ومعه النموذج الذي يبشر به. ورأى فوكويا ما إن ذلك يشكل نهاية التاريخ [٢٨]، وفي تقديرنا أن ذلك الانتصار كان جزئيا لأن الصراع الدائر كان في إطار مفهومي واحد من حيث مصدره الثقافي الغربي الذي يركز على القيم المنفعية. ولم يكن شموليا فرأينا تصاعد العامل الثقافي بالمفهوم الحضاري، مجددا في السياسة العالمية بما يحمله من نسق قيم أصلية ومختلفة وبعضها غريب عن نسق القيم الغربية الذي نشأ في إطاره كلٌ من الفكر الليبرالي والفكر الماركسي. والعنوان الثقافي يعيد خلط الأوراق في السياسة العالمية ويعطيها أبعادا جديدة إذ قد يقطع الثقافي عبر الدولة أو يضم دولاً عديدة ويملك ديناميته الخاصة من حيث تأثيره الاندماجي أو التعبوي من جهة أو التفكيكي من جهة أخرى على مستوى الدولة وكذلك على مستوى العلاقات الدولية خاصة إذا نشأ توتر أو مواجهة بين ثقافتين. [٢٩]

ومرد صعود هذا العامل أن الاندماج العالمي الذي خلقه الاقتصاد نشط عملية التفاعل أو التلاقح الثقافي وأحدث توترا نتيجة عدم استيعاب قيم ورموز الآخر حينا وتحميله مسئولية ما يصيبنا أحيانا ونتيجة أيضا لعدم التكافؤ في العلاقة أو لوجود توتر ذات مصدر سياسي أو اقتصادي سرعان ما يعبر عن ذاته في المجال الثقافي وتتأسس على هذا التوتر ثنائية النحن والهم التي تعود بدورها لتؤثر في المجال السياسي. وليس من الضروري أن يحصل ذلك في إطار علاقات سياسية متوترة بل قد يحصل أيضا بين أهل البيت السياسي ذاته ونشير في هذا الصدد إلى الحملة الفرنسية المتصاعدة حول الغزو الثقافي الأمريكي وإلى التوتر الحاصل بين بعض المجتمعات الآسيوية والمجتمع الأمريكي [٣٠]. وفي حين اتسم الصراع الأيديولوجي الذي أنشأ ثنائية الشرق والغرب بمرونة معينة من حيث تأثيره المجتمعي، فإن الاختلاف الثقافي لا يخضع لهذه المرونة وهو بالتالي أكثر قدرة على التعبئة بسبب انغراسه في قيم أصلية بعضها قائم في حال اللاوعي عند الإنسان. فالشعور بالانتماء للثقافة الإفريقية على سبيل المثال لا يخضع لمد وجزر مثل ما هو الانتماء إلى الاشتراكية الإفريقية أو الليبرالية. فاللعبة الدائرة في هذا المجال لا تتعلق بتنافس مصالح بل بطريقة حياة أو وجود. فشمولية مادة التمايز وعمقها تزيد من مخاطر التوترات على الخط الثقافي. وتقف دينامية التفاعلات الثقافية في وجه محاولات فرض بعض القيم باعتبارها عالمية وإسقاطها على مجتمعات أخرى مثل قيم الديمقراطية الغربية أو التنمية أو حقوق الإنسان [٣١] وتعيد هذه الدينامية على المستوى الثقافي طرح «الخصوصية» في مواجهة العالمية، أو خصوصية الطرف الأقوى عالميا، ولئن تخفى هذه الدينامية في كثير من الأحيان توترات على المستوى السياسي يراد التعبير عنها على المستوى الثقافي بغية تحصين المواقع الدفاعية للبعض إلا أنها ليست انعكاسا للسياسي كما يحاول أصحاب المدرسة «العالمية» تصويرها، ونشير في هذا الخصوص إلى المواجهة التي حصلت في إطار المؤتمر العالمي لحقوق الإنسان الذي نظمته الأمم المتحدة في الأسبوع الأول من يونيو ١٩٩٣ في فيينا بين من رفع شعار عالمية بعض القيم وأولويتها وبين من رفع شعار النسبية الثقافية أو الخصوصية الثقافية التي لها أولويات أخرى.

الأشكال الممكنة أو المحتملة: أي نموذج للنظام الذي يتكون؟

بعد استعراض مصادر القوة والضعف التي تطبع التفاعلات الدولية في مرحلة ما بعد الحرب الباردة ويشكل بعضها حافزا أو قناة لبناء نفوذ لإحدى الأقطاب الدولية فيما قد يشكل بعضها الآخر عوامل طاردة للنفوذ يمكن إدراج أربعة نماذج للنظام العالمي المستقبلي هي:

النظام الأحادي القطبية

تنطلق المدرسة التي تعتنق أو تبشر بهذا النموذج من فرضية تبدو بسيطة ومفادها أن الولايات المتحدة خرجت منتصرة من المواجهة الحادة التي شكلت السمة البارزة لعلاقاتها مع الاتحاد السوفيتي طيلة أكثر من أربعة عقود. وزاد من هالة هذا الانتصار أنه كان بمثابة الضربة القاضية التي أخرجت الاتحاد السوفيتي من الملعب. إذن بقيت الولايات المتحدة وحيدة [٣٢] بالقوة العسكرية التي تملكها إلى جانب الطاقات الاقتصادية الهائلة التي عندها والتي، كما يعترف أصحاب هذه المدرسة قد لا تكون مستغلة أحسن استغلال. ويستدل هؤلاء على أحادية هذا النظام من حدثين هامين أولهما قيادة الولايات المتحدة للتحالف الذي نشأ غداة غزو العراق للكويت وثانيهما موقع الولايات المتحدة في عملية السلام العربية الإسرائيلية. وبالطبع يمكن الرد على هذين المثلين بالتأكيد على أن الأزمة التي نشأت باحتلال القوات العراقية للكويت هي فريدة من نوعها من حيث طبيعة وحجم الحدث ولا تندرج في إحدى أنماط العلاقات الدولية القائمة وأن موقع الولايات المتحدة أصلا في الخليج مقارنة مع الأطراف الخارجية الأخرى إلى جانب ردود الفعل التي أحدثتها هذه الصدمة على الصعيد الدولي، كل ذلك ساهم في صياغة أطياف التحالف وكذلك دوره وتدعيمه بقيادة الولايات المتحدة ولا يمكن التأسيس على هذه الأزمة بغية التعميم حول السلوكية الدولية مستقبلا نظرا لفرادتها [٣٣]. ومن جهة أخرى فإن الخاصية الأمريكية في عملية السلام مردها علاقاتها المميزة مع أحد طرفي الصراع وتحديدا الطرف الأقوى والرهان الكلي من الطرف الآخر على الدور الأمريكي بسبب هذه العلاقة المميزة. وهذا أيضا لايمكن التعميم فيه. فالسياسة العالمية تتشكل من شبكات معقدة ومتداخلة من التفاعلات تندرج في أنساق مختلفة كل منها له أنماطه وتحالفاته وأطرافه الفاعلة من دول وغير دول وقواعده وكذلك قيمه التي تحكم أيضا هذه القواعد. والولايات المتحدة ليست موجودة بالقوة ذاتها في كافة هذه الأنساق أو على الأقل ليست موجودة بهذه القوة في الأنساق الرئيسية.

والجدير بالذكر أن الحديث عن النموذج الهرمي جاء في خضم حوارين شهدتهما الولايات المتحدة، وازداد حدة بسبب التطورات المتعلقة بالدور الأمريكي المستقبلي. وهذان الحواران أحدهما أكاديمي المصدر وثانيهما سياسي، ولو أنهما يصبان سوية في التساؤل حول الموقع المستقبلي للولايات المتحدة.

فالحوار الأول قائم بين الذين يقولون بصعود قوة الولايات المتحدة وهم أصحاب النموذج الهرمي أو الذين يلامسون هذا النموذج دون أن يتبنوه كلياً وبين الذين يقولون بسقوط الولايات المتحدة وهو سقوط تتسم به كل الامبراطوريات في لحظة معينة من تاريخها بعدما تتسع الفجوة بين التزاماتها الكونية من جهة، وإمكاناتها المتقلصة أو التي لم تواكب توسع الالتزامات من جهة أخرى وعادة ما ينعكس هذا التقلص في تراجع القدرة على الإنتاجية وعلى التنافس الاقتصادي [٣٤] ويذهب البعض مثل ادوارد لتواك، والذي كان من أهم مستشاري رونالد ريجان إلى التساؤل «في أي تاريخ تصبح الولايات المتحدة دولة من العالم الثالث؟»[٣٥].

وإلى الحوارين، يقوم بين أصحاب المدرسة التدخلية الذين يريدون من الولايات المتحدة أن تقوم بدور شرطي العالم وبين الاتجاه الانعزالي الداعي إلى انسحاب الولايات المتحدة من هذه المسئوليات العالمية المكلفة دون مردود، وبالطبع هنالك اتجاه وسطي أميل إلى التدخل، وبالتالي أكثر تكيفاً مع الواقع السياسي الذي يفرض على الولايات المتحدة مسئوليات عالمية دون أن يطرح هذه المسئوليات بالمطلق. ويبدو أن الإداريين الأمريكيين بعد الحرب الباردة تعتنقان هذا المذهب الذي تفرضه ظروف موضوعية متعلقة بالثوابت التي تحكم السياسة الخارجية لأي قوة كبرى، ولو أن «الحوار» قائم ضمن هذا المقترب حول حجم الدور التدخلي نسبيا أو حجم الانكماش. وهذا لا يعني بالطبع الانسحاب، إنما التدخل غير المباشر أو بالكلفة الأدنى في قضية معينة بواسطة الأمم المتحدة أو تأييد قيام سياسة متعددة الأطراف. وينقل عن وارن كريستوفر، وزير الخارجية، قوله إن في القضايا التي تتعلق بمصالح حيوية نلجأ إلى مقترب آحادي إذا كان ذلك ضروريا أما المصالح فنتعامل معها بمقترب متعدد الأطراف[٣٦].

ويتحدث البعض عن «مذهب كليتون» أو «التدخل المحدود» ونشأ ذلك بعد كلام بيتر تارنوف نائب وزير الخارجية عن قواعد التدخل الأمريكي وعن طبيعة الالتزام ومداه وضرورة أن يتناسب ذلك مع حقائق القدرات الأمريكية ولو أن هذا حسب تارنوف، يبقى أقل أحيانا مما يريده البعض ويتمناه البعض الآخر[٣٧].
وينشأ عن هذه القيود الواقعية، مبدأ التدخل الانتقائي الذي يتحدث عنه وزير الدفاع لي اسبين[٣٨] وذلك بواسطة تحديد ماهو حيوي وما هو غير حيوي. وينتقد بعض أصحاب الاتجاه المحافظ الاعتماد الأمريكي على الدفاع عن مصالح الولايات المتحدة بواسطة السياسة المتعددة الأطراف باعتبار أن ذلك يؤثر سلبا على المصالح الأمريكية وعلى الدور الأمريكي في العالم[٣٩].

وفي معرض استقراء الأهداف الأمريكية والقدرة على ترجمتها عمليا في ثلاثة مجالات استراتيجية يمكن التوصل إلى فهم صعوبة قيام النظام الهرمي. ففي المجال الاستراتيجي الأمني يبرز الاهتمام الأمريكي بإقامة الاستقرار في روسيا بشكل خاص لأسباب بالطبع تتعدى روسيا لتصل إلى المسرح الأوروبي والاستقرار العالمي. وتبدو الولايات المتحدة غير قادرة على التحكم بالتطورات هنالك بالرغم من خصوصية علاقاتها مع القيادة الروسية نظرا لمحدودية الإمكانات الأمريكية للمساعدة المالية وكذلك لعدم قدرة الولايات المتحدة على الإمساك بالأوراق الرئيسية كلها في روسيا. وعلى الصعيد الاستراتيجي الأمني أيضا لم تستطع الولايات المتحدة حتى الآن بلورة مفهوم جديد للحلف الأطلسي أو للتحالف عبر الأطلسي والمقصود مع أوروبا «الغربية»[٤٠]. كما أنها لم تستطع أن تبلور وحدها من منظور النظام الهرمي هيكلا أمنيا جديدا في منطقة آسيا ـ الهادي».

وعلى الصعيد الاستراتيجي الاقتصادي لا تستطيع الولايات المتحدة فرض توجهاتها في مفاوضات الأوروغواي.. كما لا تستطيع أن تدير أعمال مجموعة الدول السبع بشكل يعبر عن مصالحها. وكذلك الأمر على الصعيد الاستراتيجي السياسي حيث أن رفع شعار «كومنولث الديمقراطيات» والتعبير لوزير الخارجية السابق جيمس بيكر[٤١] أو مذهب التوسيع للرئيس الأمريكي كليتون وهوالمذهب الذي يحمل تقريبا المعنى ذاته، يواجه العديد من العثرات والعوائق في طريق التطبيق بغية توثيق العلاقات حول الولايات المتحدة بين الدول الديمقراطية وزيادة هذه الدول أيضا ومرد عدم النجاح أن التحول من مجتمعات اقتصاد موجه إلى

مجتمعات ديمقراطية يحتاج إلى كثير من الإمكانات المالية والفنية والبشرية إلى جانب وجود القرار السياسي الضروري بغية الإقلاع بعملية التنمية لتأسيس الأرضية الضرورية لأعمال الديمقراطية وهو هدف يتطلب قدرات أكبر من طاقة الولايات المتحدة. ولا يكفي الانبهار بالنموذج الأمريكي أو ربط المساعدات الأمريكية التي تبقى محدودة نسبيا بتنفيذ سياسات معينة حتى يتم التحول بنجاح.

ويمكن تعداد جملة من الأسباب تقف حائلا دون قيام هذا النظام الأحادي الذي يتطلب أن يكون القطب المتربع على قمة الهرم المحور الأساسي في الأنساق الرئيسية للتفاعلات وهذا ليس حال الولايات المتحدة للأسباب التالية:

١ـ افتقاد الإمكانات الاقتصادية لذلك ويبدو الاقتصاد بمثابة «كعب أخيل» في القوة الأمريكية. ويقول الرئيس كليتون حول القيود الاقتصادية وذلك قبل أن ينتخب رئيسا للجمهورية مايلي: «إن السياسة الخارجية والسياسة الداخلية لا يمكن فصلها في عالم اليوم، فإذا لم نكن أقوياء في الداخل، فلا يمكننا أن نقود العالم الذي فعلنا الكثير لصنعه [٤٢]، والمشكلة الاقتصادية تندرج تحت عناوين تراجع الإنتاجية والقدرة على التنافس في الأسواق الدولية. كما ينعكس ذلك في الميزان التجاري وازدياد تمركز الثروة في الداخل وزيادة الفروقات الاجتماعية. [٤٣]

٢ـ هنالك حالة من التعب تصيب القوى الكبرى إذا فقدت القدرة على التمسك بهدف استراتيجي يعمل بمثابة محرك لتنشيط وتعبئة مختلف القدرات المجتمعية وتأتي هذه الحالة أيضا إذا اختفى عدو حقيقي كان يهدد هذه القوة وفي كلا الحالتين يشكل ذلك حافزا لتوظيف الإمكانات في إطار مشروع استراتيجي موجه للخارج. ويبدو أن الولايات المتحدة تعيش حاليا مرحلة تخبط تشهد لحظات خروج إلى العالم ولحظات تساؤل حول الأولويات الوطنية [٤٤] ويشير بعض النقاد إلى حالة التعب هذا والانكفاء للداخل ومحاولة الانسحاب من مسئولية صياغة العلاقات الدولية كقوة عظمى وكذلك تخفيض الموازنة العسكرية وهو ما يعطي رسالة سلبية للعالم حول مستقبل الدور الأمريكي [٤٥].. ويشير هنري كيسنجر إلى إشكالية مهمة في هذا الصدد قوامها أنه في الوقت الذي تود فيه الإدارة الأمريكية تركيز جهودها على إعادة الهيكلة الداخلية فإنها تعيش في مرحلة فوضى دولية كبرى [٤٦] يصعب بالتالي تلافي التدخل فيها.

٣ـ لئن كان هنالك بريق للنموذج السياسي الأمريكي، فإن النموذج المجتمعي الأمريكي بسلبياته وتفككه وانهياره الخلقي وبؤسه الثقافي غير قادر أن يشكل عامل جذب، وبالتالي بناء نفوذ. فالثقافة الأمريكية تبدو غريبة في قيمها وتقاليدها وتساعها عن الكثير من المجتمعات، وتشكل تهديدا لقيم ومفاهيم وأنساق تفكير مترسخة في العديد من المجتمعات. وفيما ينتقد جون كينيث غالبريت ما يسميه «الاكتفاء» (Contentment Culture)[٤٧] يرى زبغنيو بريجنسكي أن الانكشاف الرئيسي لأمريكا يكمن في الخطر غير الملموس الذي تشكله ثقافتها [٤٨].

٤ـ إن القوة العسكرية كما أشرنا سابقا في ترتيب عناصر القوة ليست كافية في أن تؤسس لدور القطب الرئيسي فكل التفاعلات لا تخضع لمنطق الردع العسكري أو لا تتطلب حجم الردع العسكري الموجود في الولايات المتحدة وبالتالي تكلفته.

النموذج الهرمي

يقترب هذا النموذج من الوضع الذي كان سائدا في العشرية الأخيرة من الحرب الباردة عندما اتسم النظام الثنائي القطبية بالمرونة وشهد صعود القوة الاقتصادية لليابان وبداية تبلور الوزن الأوربي وقيام مسافة سياسية بين الحلفاء الغربيين وانفتاح الاتحاد السوفيتي وتجاوبه مع الضغوطات و الإغراءات الغربية نظرا لاحتياجاته وضعفه الاقتصادي وتصاعد قوة الصين الشعبية. وقد أدى تراجع إمكانات القطبين الرئيسيين مقابل ازدياد إمكانات القوى الكبرى إلى وضع صار يتسم بهيكل قوى مركب حيث يبرز على المستوى الاستراتيجي الأمني والعسكري الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يليهما على المستوى الاستراتيجي السياسي والاقتصادي كل من اليابان والجماعة الأوربية ومعهما الصين الشعبية. وكان هنالك أحيانا تقاطع في المواقف يؤدي إلى تحالفات غير ثابتة وأخرى في قضايا أو مسائل معينة.

وتتطلب العودة إلى هذا الوضع الذي كان يتبلور في الثمانينيات تحقيق بعض الشروط غير المتوفرة حاليا مثل النهوض السريع والقوي لروسيا بدرجة أولى أو للصين الشعبية بدرجة ثانية فأحدهما يجب أن يكون شريك الولايات المتحدة على المستوى الأعلى في هيكل القوى لتشكيل الثنائية القطبية التي ليس بالضرورة بالطبع أن تقوم على انقسام أيديولوجي. فالصين الشعبية بعيدة عن تحقيق وضع الشريك الاستراتيجي للولايات المتحدة أو المرجعية التحالفية الأخرى غير الولايات المتحدة بالنسبة للقوى الكبرى، وبالطبع تبقى روسيا أبعد بكثير من الصين عن تحقيق هذا الوضع في المدى المنظور.

النظام المتعدد الأقطاب

يشبه هذا النظام ما كان قائما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية من حيث وجود عدد من القوى الكبرى الرئيسية المتنافسة بين بعضها البعض. وقد يتسم النظام فيما لو استقر على هذا الشكل بغياب العامل الأيديولوجي كصانع ومحصن للتحالفات حتى لو استمرت الصين الشعبية في ايديولوجية مختلفة إذ كان يلعب هذا العامل دورا فاعلا أو حادا في التفاعلات الدولية. وقد يترسخ هذا النظام بشكل مشابه للنظام الذي قام في أوروبا بعد المرحلة النابليونية.. منذ مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ من حيث بلورة قواعد لإدارة العلاقات بين أطرافه وقيم مشتركة أو توافقية يجري احترامها والعمل بها دون أن تقنن بالضرورة وهذه تتعلق عادة باحترام مصالح الغير ومنع قيام نظام هيمنة قد يهدد الاستقرار وشروط قيام هذا النظام غير مستبعدة وبعضها قائم أو في طريق التبلور ومنها الانتشار واللامركزية التي تتسم بها السياسة العالمية ويساهمان في دعم الاستقرار من حيث غياب احتمال حصول حرب شاملة على المستوى العالمي وبقاء النزاعات على مستوى محلي غير قادر على الانتشار.[٤٩]

ويتطلب ترسيخ هذا النظام مايلي:

- مزيد من تراجع دور القوة العسكرية الأمريكية مع سياسة تخفيض التسلح الأمريكي ليصبح حجم قدراتها أكثر انسجاما مع قدرات الأطراف الأخرى ولو بقيت في المقدمة.

- تثبيت المسافة السياسية إلى حد معين بين الأطراف «الغربية» بحيث يعمل كل منها كقطب وكمرجعية

ولا يعني ذلك بالطبع غياب احتمال التحالف فيما بينها ويكون ذلك مرتبط بنسق معين ومتغير ولا يكون التحالف هو الأساس والاختلاف أو التمايز هو الاستثناء بحيث تقوم العلاقات بين الأقطاب الرئيسية على دينامية التعاون والتنافس.

ـ تعافي روسيا وتطبيع وضعها وعودتها إلى لعب دور متناسب مع قدراتها الكامنة.

ـ استقرار الدور الصيني في التحول الذي يجرى بحيث لاتحدث خضات قد تربك الصين وتشغلها داخليا.

ـ يعتمد بالطبع عدد الأقطاب على المسار الاندماجي للجماعة الأوربية فيما لو تعطل ذلك وهو مستبعد في الأفق المنظور، وقد تظهر أقطاب أوربية عندئذ فرنسية وبريطانية وألمانية كل منها يعمل في إطار مجال إقليمي معين ليس بالضرورة أن يكون مجازا جغرافيا.

ويضيف هذا النموذج قدرة الولايات المتحدة الأمريكية على محاولة فرض مفاهيمها الثقافية باعتبارها مفاهيم عالمية وشمولية، إذ قد يؤدي فيما لو ذهبت الولايات المتحدة هذا المنحى في نظام يتسم بالطبع بتنوع الثقافات وتعددها إلى خلق توترات ثقافية قد تنعكس في تداعيات سياسية سلبية حتى في ظل غياب عامل الاختلاف الايديولوجي وتأسس العلاقات بين الأقطاب على نوع من التوازن الدينامي. . . وإلى جانب الولايات المتحدة، نستعرض فيما يلي القوى المهيئة للعب دور قطب في هذا النظام والتمخضات التي تعيش هذه القوى.

الجماعة الأوربية

لا عجب أن مسيرة اندماج الجماعة الأوربية التي انطلقت مع اتفاقية ماستريشت بعد التوقيع النهائي عليها في السابع من فبراير ١٩٩٢ والتي ترمي إلى إنشاء وحدة اقتصادية ونقدية ومصرف مركزي أوربي وعملة موحدة في بداية عام ١٩٩٩ إلى جانب بلورة سياسة أمنية وخارجية مشتركة لا عجب أن تواجه هذه المسيرة لمجموعة إقليمية تعتبر عن حق سباقة في التعاون الإقليمي، جملة من التعقيدات والعوائق. فعملية الاندماج التي اطلقتها ماستريشت تأتي في خضم تحولات هيكلية انطلقت من أوربا وأصابت تداعياتها العالم أجمع. فالزلزال كان مصدره موسكو ومر في برلين وتحول إلى بون ووصل إلى سراييفو، فكيف لا تتأثر بروكسل عاصمة الجماعة وهي في وسط هذا الزلزال. فكثير من المسلمات التي تأسست عليها سياسات أوربية صارت جزءا من ماضي يبتعد. وعاد تاريخ أوربا« ما قبل الحرب الباردة »مع ما يحمله من مخاوف عند البعض وفرص وأحلام عند البعض الآخر يلقي بظلاله على المستقبل الأوربي. ولذلك تبرز إشكاليات غنية بالتحديات تشكل في مجموعها أجندة أوربية ستحكم مسيرة الجماعة كقطب دولي منها.

الإشكالية المؤسسية

تبرز مسافة واضحة بين طموحات المفوضية الأوربية حول حجم العملية الاندماجية وسرعتها من جهة وبين مقاومة وحذر الدول الوطنية من جهة أخرى. ويختصر شعار «العجز الديمقراطي» مخاوف المعارضة من أن تحكم الجماعة الأوربية بواسطة جهاز بيروقراطي في بروكسل لا يخضع لآلية مساءلة على الصعيدين الوطني والأوربي. وتحاول المفوضية الأوربية حل هذا التناقض بواسطة مبدأ (Subsidiarité) الذي يقول بتوزيع

صلاحيات اتخاذ القرار بين بروكسل والدول والأقاليم على أساس معيار الموقع الأنسب للقرار فلا داعي مثلا لنقل موقع القرار إذا كان مناسباً حيث هو حاليا. وقد يكون الحل سهلا على الصعيد النظري. إنما سيلاقي صعابا جمة على الصعيد العملي حيث إن الفكرة الأوروبية قائمة على صعيد النخب السياسية أكثر مما هي منتشرة على صعيد المجتمعات ككل ويزيد تعقيدات تنفيذها ازدهار القوميات مجددا في أوروبا. ولا عجب إذا استمرت الجماعة في مسيرتها ولكن بسرعات مختلفة.

إشكالية تحصين البيت

من ينظر إلى الصورة الأوروبية في بروكسل يبدو له مشهد يغيب عنه التفاؤل، فالانكماش الاقتصادي والبطالة التي وصلت إلى ١٨ مليون شخص هذا العام وبروز التيارات المتطرفة التي تهدد السلم الاجتماعي كلها عوامل رئيسية على الأجندة الأوروبية ويزيد الوضع تعقيدا بعد حسم ثنائية التوسيع مقابل التعميق لصالحة الثانية، بروز توتر في محرك القاطرة الأوروبي المتمثل بمحور فرنسا ألمانيا لأسباب أهمها ازدياد القوة الاقتصادية الألمانية وإعادة توجيه أولوياتها نحو البناء الداخلي والبناء في محيطها الوسط أوروبي التقليدي وهو ما يقلق فرنسا نتيجة هذه الاستقلالية في الأولويات الألمانية وهذه القوة الصاعدة، هذه كلها عوامل تحاول القمم الأوروبية معالجتها من أجل إصلاح الداخل قبل بلورة العلاقات مع الجوار وعلى الصعيد العالمي.

إشكالية السياسة الأمنية الدفاعية

من أهم مظاهرها الفشل في بلورة سياسات فعالة تجاه أزمة تعصف في وسط أوروبا وهي أزمة البوسنة والهرسك. ومن أهم أمثلة القلق والتخبط الأوروبي عدم النجاح في بلورة دور اتحاد أوروبا الغربية الذي يفترض أن يكون الذراع الدفاعي لأوروبا واستمرار الاختلاف بين الاتجاه الأطلسي والاتجاه الأوروبي أو استمرار الارتباط الدفاعي مع الولايات المتحدة في إطار الحلف الأطلسي مقابل بلورة استقلالية أوروبية على الصعيد العسكري وبشكل نسبي وليس بالمطلق.

إشكالية السياسة الخارجية

بدأ يظهر على الساحة الأوروبية عملية تجاذب بين الأطراف الرئيسية في الجماعة مع عودة نوع من لعبة ميزان القوى كانت دائما سائدة في المسرح الأوروبي حتى بداية الحرب الباردة التي يبدو أنها شكلت استثناء.. فبعض القوى الأوروبية تحاول إعادة صياغة تحالفات، بعد انفتاح المجال الأوروبي الشرقي، لها أرضيتها التاريخية وهو ما يحدث بعض التوترات المقيدة بين الأطراف الرئيسية في الجماعة.

وبالرغم من هذه الإشكاليات تبقى حقيقة أساسية وهو أن الجماعة الأوروبية تشكل قطباً مغناطيسيا لدول أوروبا من الأطلسي إلى الأورال، وتملك من إمكانات هائلة ورصيد علاقات متراكمة مع محيطها المباشر الإفريقي والآسيوي وتحديدا العربي ما يسمح لها أن تؤسس لدور عالمي ذات وزن.

الصين الشعبية

يصف البعض نظام الصين الشعبية «بالرأسمالية الكلية»[٥٠] للدلالة على التغيرات التي حصلت والتي

تؤسس لكثير من التناقضات يتم استيعابها حاليا ولو أنه من غير المؤكد تلافي انفجارها مستقبلا. فالصين استفادت من التجربة الغورباتشوفية بأن عكستها فهي بدأت بالبريسترويكا على أن تأتي الغلاسنوست (الشفافية) لاحقا أو قد تفرض ذاتها في المستقبل. فمن جهة يجرى التخلي عن التخطيط المركزي وتحويل مدن ومناطق إلى «جزر اقتصاد حر» تشكل مختبرة ونموذجا للتحول الذي يعيشه المجتمع الصيني بشكل عام نظرا للقيم الاجتماعية الجديدة التي تنتجها هذه الجزر. ويجري هذا التحول في إطار الحفاظ على ما يسميه الصينيون «باشتراكية السوق» التي هي مزيج من اقتصاد السوق مع الحفاظ على دور تدخلي وتوجيهي للدولة في حين مازال القطاع العام بالطبع قويا. فالدولة مثلا تحث المصدرين على زيادة مبيعاتهم في الخارج وتعمل على تحقيق زيادة ٨,١١٪ بنسبة الصادرات عام ١٩٩٣.[٥١] وتشهد الصين أسرع نمو اقتصادي في العالم فالناتج الداخلي الإجمالي يتمو بنسبة ٩٪ سنويا في السنوات الثلاث عشرة الأخيرة[٥٢]. ولكن هذا كله وبالرغم من وهن العامل الايديولوجي لم يمنع أن تستمر المؤسسات التي قامت على الايديولوجيا في الدفاع عن مصالحها ومكاسبها ويبقى الحزب قويا بين تلك المؤسسات ولو أنه فقد زخمه العقائدي وبريقه التعبوي.

والصين المشغلة بالتحولات الداخلية وصراعات السلطة مهتمة أيضا بالمشاركة في صياغة النظام العالمي الذي يتكون بشكل يتناسب مع وزنها. ويمكن إدراج عدد من الملاحظات التي ستحكم عملية التطور في الصين كما يلي:

- إلى أي مدى يستطيع الحزب بعد السقوط الايديولوجي والحاجة إلى إيجاد خطاب جديد، أن يحافظ على قوته من خلال العمل على الإصلاح الاقتصادي، دون أن يشوش ذلك الإصلاح بواسطة القوى الاجتماعية الجديدة التي يفرزها سلطة الحزب مستقبلا. فالقيادة الصينية أسيرة هذه المفارقة.

- ازدياد الفروقات الاقتصادية بشكل كبير على الصعيد الداخلي بين المدن المحلية مثل شانغهي وغوانغزو من جهة والداخل الفلاحي من جهة أخرى، ويزيد في تسعير التوتر الاجتماعي عاملا التضخم وبروز طبقة رأسمالية.

- قد تكون الأهمية الاستراتيجية للصين الشعبية بالنسبة للولايات المتحدة قد تراجعت كموازن للاتحاد السوفيتي بعد انهيار هذا الأخير. ولكن الصين صارت القوة العسكرية الرئيسية في أي ميزان قوى في آسيا. والمطلوب إما إحداث توازن من الخارج مع الصين أو اتباع سياسة تهدئة وتوثيق العلاقات معها بغية التأثير في ميزان القوى الإقليمي وحفظ استقراره.

- إن مصدر تهديد الاستقرار الداخلي في الصين قد يأتي من ازدياد الفروقات الاقتصادية في ظل بقاء مناطق خارج عملية التنمية أكثر مما يتأتى هذا التهديد من غياب الديمقراطية أو وجود قوى تطالب بالديمقراطية.

- التوجه الناشط لبناء الصين الكبرى التي تضم تايوان وهونغ كونغ وهذه ستعود إلى الصين عام ١٩٩٧ مع الحفاظ على خصوصية معينة في حين تعمل الصين بواسطة سياسة «العصا والجزرة» على محاولة استيعاب تايوان. ويلاحظ ازدياد الاعتماد المتبادل على الصعيد الاقتصادي بين هذه الأطراف الثلاثة.[٥٣]

- وبالرغم من غياب الحدة الايديولوجية التي طبعت الخلافات الصينية الغربية في الماضي واختزال الصراع على الصعيد الفلسفي إلى قضايا حقوق الإنسان، فإن هنالك خلافات مستمرة مع الولايات

المتحدة ازدادت تعقيدا مؤخرا بسبب النشاط النووي الصيني . ومجالات الخلاف كبيرة وتعكس حسابات المصالح الاستراتيجية الصينية ، التي لا يمكن إخضاعها للتوجه الأمريكي ومن هذه المجالات كامبوديا وتسليح كوريا الشمالية وسياسة بيع السلاح إلى كل من إيران وباكستان مثلا والعمل على الحصول على تكنولوجيا عسكرية متقدمة من روسيا وإسرائيل . فعملية بناء القوة العسكرية الصينية مازالت مستمرة . وتقول مصادر المخابرات الأمريكية أن الإنفاق العسكري زاد بنسبة ٦٠٪ منذ عام ١٩٨٨ في الصين وهي تصطدم بالسياسة الأمريكية كما تصطدم بها أيضا على الصعيد الإقليمي في نطاق إقامة (٥٤) تحالفات معينة تشكل مصدر قلق للولايات المتحدة .

ـ وتحاول الصين جاهدة تنويع علاقاتها الاقتصادية مع دول العالم ومحاولة صياغة علاقات دولية جديدة على أساس المصالح الاقتصادية مع الدول التي كانت ترتبط معها بعلاقات ايديولوجية أو تسليحية من منطلقات ايديولوجية أيضا .

ـ وتحاول الصين أيضا أن تقدم نفسها كنموذج ناجح للتنمية لدول الجنوب وأن تكون قطبا لهذه المجموعة بغية بلورة سياسة تعاون اقتصادي تساعد في تحسين التفاوض مع دول الشمال .

ـ وخلاصة القول أن الديمغرافيا والصين تعد حاليا أكثر من مليار ومائتين مليون إنسان والقدرات النووية وبرنامج التسلح النشط والعضوية الدائمة في مجلس الأمن والنجاح الاقتصادي الداخلي ، كلها عوامل تسمح للصين بأن تكون قطبا عالميا فاعلا في صياغة نظام جديد .

اليابان

تعيش اليابان أزمة البحث عن دور يتناسب مع قدراتها الاقتصادية الكبيرة مع تصاعد أهمية الدبلوماسية الاقتصادية في صياغة العلاقات الدولية . فسياسة الانكفاء والوقوف وراء الولايات المتحدة وتمويل سياسات هذه الأخيرة في الأزمات الدولية وهي السياسة التي انتهجتها اليابان خلال الحرب الباردة صارت عرضة للانتقاد في أوساط المؤسسة الحاكمة . وأخذ الحوار يدور حول ضرورة بلورة «سياسة سلمية ناشطة وإيجابية» . والتوصيف هو ما توصل إليه تقرير أعدته مجموعة من الشخصيات وعرف بتقرير «أوزاوا» . نسبة إلى رئيس المجموعة الذي كان الأمين العام للحزب الحاكم . ويطرح التقرير للمرة الأولى إمكانية تعديل المادة التاسعة من الدستور أو إعادة تفسيرها للسماح باشتراك القوات اليابانية في عمليات حفظ سلام دولية ، وقد أثار التقرير جدلا حول بعض المحرمات في السياسة اليابانية مثل مستوى التسلح ودور القوات العسكرية وكذلك البحث عن دور دولي دون التخوف من الاتهام بإعادة عسكرة المجتمع الياباني ، وهو اتهام يوجه دائما إلى اليابان في محيطها المباشر المثقل بالتاريخ الامبراطوري الياباني ويقول ياسوهيرو ناكاسون رئيس وزراء اليابان السابق إن علينا أن نتخطى العوائق القانونية ونهيىء للاشتراك بشكل كلي في الجهود الدولية المستقبلية للحفاظ على السلام . (٥٥)

وفي هذا السياق يظهر الإصرار الياباني على الحصول على عضوية دائمة في مجلس الأمن للمشاركة في شكل أكثر تناسبا مع وزن اليابان في صناعة القرارات الدولية كما يظهر أيضا التوتر الحاصل في إطار العلاقة الاستراتيجية التي تربط اليابان بالولايات المتحدة . وما يسمح لليابان بهذه «الجرأة» الجديدة هو غياب الخطر السوفيتي والعلاقات الجيدة التي استطاعت اليابان أن تبلورها مع الصين الشعبية .

ويأتي انتهاء الحرب الباردة وسقوط المفاهيم التي كانت سائدة في إطارها ليعيد طرح مفهوم الانتماء إلى الغرب في اليابان خاصة بعد سقوط المفهوم الاستراتيجي لهذا الغرب. وأمام استمرار المفهوم الثقافي الأوربي النشأة لهذا الغرب يصبح الحديث جائزا عن يابان خارج هذا الغرب الثقافي بقيمها ومفاهيمها ويعود التركيز على النموذج الياباني المختلف والقائم على القدرة على التحديث والتكيف مع متطلباته من جهة، مع الحفاظ على التقاليد اليابانية التي تثمن الجماعة على حساب الفرد من جهة، وهو ما يميز النظام الرأسمالي الياباني عن النظام الغربي والأمريكي بشكل خاص.

وتواجه اليابان إشكالية ذات مصدر أمريكي. فاليابان تحركت في الماضي لزيادة نسبة موازنتها العسكرية والقيام بدور أكثر فاعلية وظهورا في محيطها المباشر حفاظا على خطوط الملاحة أو خطوط نقل النفط وذلك بناء على تشجيع الولايات المتحدة لتولي هذه المسئولية في محيطها المباشر وتقف اليابان اليوم في مواجهة قلق أمريكي من توجه يهدف إلى زيادة هذا الدور وتخطي المستوى الإقليمي ليصل إلى المستوى العالمي.

كما أن اليابان التي أنشأت علاقات اقتصادية وثيقة مع النمور الأربع والدول الواقعة في محيطها المباشر كما يدل على ذلك حجم الاستثمارات اليابانية في هذه الدول وكذلك حجم التبادل التجاري معها تشعر من جهة أخرى بمخاوف هذه الدول من تصاعد الدور الياباني.

ويأتي الاعتذار الرسمي الذي قدمه رئيس وزراء اليابان الجديد موريهيروهوسوكاوا عن السياسة العدوانية لبلاده خلال الحرب العالمية الثانية ليساعد في تخفيف التوتر والحذر القائمين في المحيط الأسيوي لليابان تجاه هذه الأخيرة. ويبقى هنالك مصدر إقليمي رئيسي وراء اهتمام اليابان بتطوير قدراتها ويتمثل في السياسة النووية لكوريا الشمالية وانعدام الاستقرار في روسيا وبداية تخفيف الالتزام العسكري في تلك المنطقة من آسيا وهو ما يلقي على اليابان أعباء دفاعية كبيرة في ظل اختلال التوازن الإقليمي. ويأتي تردد اليابان في إعطاء التزام غير مشروط في التوقيع على اتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية التي سيجرى تجديدها عام ١٩٩٥ ليلقي الشك على النوايا اليابانية خاصة وأن وزير الخارجية الياباني السابق كابون موتو قد صرح بأن على اليابان أن تكون مستعدة للنظر في تطوير أسلحة نووية إذا فعلت كوريا الشمالية ذلك[٥٦].

ولكن كما استطاعت اليابان أن تتخطى عقدة المكان، المتمثلة بصغر المساحة والبعد، لتركز على الصناعة التكنولوجية المتقدمة وسياسة تصدير هجومية فلابد أن تتغلب مع الوقت على عقدة الزمان ومعالجة الرواسب العالقة في محيطها تجاهها ويدعو رئيس الوزراء الجديد في هذا السياق إلى ما يشبه ثورة فكرية فيما يتعلق بالمفاهيم «السياسية والاقتصادية والتعليمية والثقافية» السائدة، ويقول إن اليابان بحاجة إلى انفتاح ثالث[٥٧].

وإذا كان غياب الخبرة التاريخية بمثابة عامل سلبي في علاقات اليابان مع المناطق المختلفة في العالم، فإن غياب الصورة الاستعمارية لليابان في تلك المناطق البعيدة عن المحيط المباشر لطوكيو وبروز صورة الدولة المانحة للمساعدات وكذلك صورة نموذج التحديث الناجح والخلاق، يشكل هذا كله عوامل جذب لبناء علاقات قوية على أساس التعاون والتبادل الاقتصادي بين اليابان وهذه المناطق. وتستطيع اليابان بالطبع من أجل تدعيم وجودها في هذه المناطق وتوظيفه سياسيا واقتصاديا استخدام نفوذها المتزايد في مؤسسات التنمية والاقراض الدولية.

روسيا :

تشكل روسيا التي يصلح تسميتها «برجل العالم المريض» العقدة الرئيسية في إعادة بناء نظام عالمي جديد. فإذا كان سقوط الاتحاد السوفيتي شكل نقطة التحول بين نظامين فإن الشكل الذي سترسو عليه روسيا بعد انتهاء التمخضات التي تعيشها وسرعة الخروج من هذا الوضع الانتقالي يحكمان بدرجة كبيرة الشكل الذي سيتخذه النظام العالمي الجديد.

فروسيا تعيش وضعا وصفه رئيس الحكومة في أغسطس الماضي بأنه توازن غير مستقر[٥٨] وحجم المساعدات التي أقرتها «الدول السبع» في طوكيو في إبريل الماضي والتي بلغت ٤٣,٤ مليار دولار[٥٩] تدل على ضخامة المشكلة وحيوية المصلحة التي يمثلها الاستقرار في روسيا لدول الشمال.. ولو أن هذه المساعدات لاتدل قطعا على الفترة الزمنية الضرورية للوصول إلى هذا الاستقرار إذ بالرغم من أهمية المساعدات المالية فإن هنالك أبعادا أخرى للمسألة الروسية مطلوب معالجتها للولوج إلى الاستقرار ومن غير المستبعد أن تأخذ الأزمة ذات الأبعاد المختلفة والمتشابكة في روسيا عنوانا معينا في كل مرحلة من مراحل تطورها. إذ قد يطغى في مرحلة معينة وجه خاص مثل الصراع الدستوري يخفي ولا يلغي الأوجه الأخرى كما حصل في الأسبوع الأول من أكتوبر عندما انفجر صراع دستوري في مظهره ومتشعب في مصادره ومضامينه بين الرئيس والبرلمان..

ويمكن إدراج التحولات الروسية تحت عناوين خمسة[٦٠]:

أولا: التحول من نظام شمولي إلى نظام ديمقراطي على الطريقة الغربية وإلى جانب مقاومة هذا التوجه من قوى لها مصلحة في الحفاظ على الأمر القائم ومنع التغيير فإن الصعوبة في التغيير تعود إلى سببين أساسيين أولهما غياب ثقافة ديمقراطية في مجتمع انتقل من نظام قيصري سلطوي إلى نظام الحزب الواحد، وثانيهما الانشغال من مخاطر الدخول في فوضى سياسية تشهد صراعات على السلطة وتشل قدرة القيادة السياسية على إيلاء الاهتمام لأمر حيوي وهو إصلاح الاقتصاد.

ثانيا: التحول من نظام اقتصادي موجه إلى نظام اقتصاد السوق. والمطروح في هذا السياق بين الذين يؤيدون التحول هو السرعة التي يجب أن يجري بها ذلك والبعض يدعو إلى سياسة الصدمات ذات الأكلاف الاجتماعية والمخاطر السياسية الجمة والبعض الآخر يدعو إلى سياسة تدريجية في حين أن قلة الموارد المتوفرة لمواكبة التحول والمسائل الضاغطة في هذه المرحلة تخلق هذا الاضطراب والتخبط[٦١].

ثالثا: التحول من العقلية الامبراطورية أو منطق الهيمنة كوريث شرعي لروسيا القيصرية وللاتحاد السوفيتي الشيوعي إلى محاولة بلورة منطق «دولة كبرى أخرى» والمطلوب نوع من التطبيع النفسي للمؤسسة السياسية الجديدة للقبول بدور يتناسب مع الواقع الروسي المتغير ويشكل هذا الوضع المتأزم وضرورة التكيف مع المعطيات الجديدة مصدرا أساسيا لتفجير المشاعر الوطنية الحادة وهو ما يؤدي إلى سياسات قد تحمل توترا في العلاقات مع دول التركة السوفيتية بشكل خاص أو مع المحيط الدولي بشكل عام. ويغذي هذا التوتر الشعور بأن المصالح الروسية التقليدية لا تؤخذ بعين الاعتبار وقد ظهر ذلك بالخصوص في الموقف الروسي من أزمة البوسنة والهرسك نتيجة التأييد التلقائي الروسي للصرب والذي يجد أساسه في علاقات استراتيجية

تاريخية، كما ظهر في معارضة توسيع الحلف الأطلسي ليضم دول أوروبا الشرقية سابقا وهو موقف يدعمه العسكر في موسكو ولكن له أساسه الجيوسياسي في التراث الروسي.

رابعا: التحول من الاقتصاد العسكري مع ما أفرزه من قوى اجتماعية مسيطرة في الداخل ووضع مميز في العلاقات مع الخارج إلى بناء الاقتصاد المدني. ويثير هذا التحول مخاوف المؤسسة العسكرية التي قد تجد لها حليفا موضوعيا في التيار القومي. زد على ذلك أن روسيا بالرغم من برنامج الدعم الأمريكي للمساعدة في هذا التحول مازالت تتبع سياسة ناشطة في بيع السلاح ويقترح أحد مستشاري الرئيس يلتسن في هذا الصدد أن يجري تخفيض سعر السلاح وبيعه بكميات أكبر وهو ما يعطي مردودا يصل من ١٠ إلى ١٢ مليار دولار سنويا في تقديره[٦٢].

خامسا: التحول من القطب العالمي الآخر في نظام ثنائي القطبية إلى قوة كبرى أخرى ويبدو أن سياسة اللحاق بالولايات المتحدة وما لقيته من معارضة في الداخل بعضها مبدئي وبعضها الآخر مصدره «قومي» أو استراتيجي أخذت تخفف من مرعتها وبدأت موسكو بمحاولة إعادة رسم سياستها الخارجية من منطلقات لاتلتقي كلها بالضرورة مع الموقف الأمريكي مثليدل على ذلك مثلا معارضة فرض العقوبات على ليبيا، التميز عن الغرب، في موقف حديد من العراق. سياسة بيع السلاح إلى إيران والصين الشعبية. فهنالك محاولة لرسم مسار لسياسة خارجية يبدو أنه يخضع لتجاذب بين «الأمريكية» و«الاستقلالية».

ومن غير المستبعد قبل أن يستقر الوضع في روسيا أن تمر هذه الأخيرة أيضا بمزيد من التوتر ومحاولات التفتيت من الداخل ولكن مستقبل روسيا يجد أمامه ثلاثة احتمالات أولها: القيام بلعبة الموازن Balancer في إطار دول التركة السوفييتية ويعطيها ذلك العديد من المكاسب في محيطها المباشر ويتطلب هذا الدور التدخل لوقف نزاعات بين هذه الدول الجديدة ولوقف نزاعات داخلية تواجهها. وثانيها: إقامة حلف بقيادة روسيا للدول السلافية يكون ذات وزن أساسي على الساحة الأوروبية إذ قد يضم لاحقا صربيا وثالثا وهو الاحتمال الأبعد ويقوم على إعادة صياغة علاقات كونفيدرالية على أساس تعاون اقتصادي وأمني بين روسيا ودول التركة السوفييتية وذلك بعد أن يهدأ تيار التفجر الوطني والاستقلالي ليكون حافزه الرئيسي عدم القدرة على معالجة المشاكل الاقتصادية المستعصية بشكل منفرد والحاجة بالتالي إلى انتهاج سياسة تعاون إقليمي قد تبدو طبيعية مع الاطمئنان إلى ترسيخ الدول الجديدة واستقرار علاقاتها الخارجية ووضعها الداخلي.

والحديث عن نظام متعدد الأقطاب يقودنا إلى إدراج الملاحظات التالية:

- إن هذا النظام الذي يبدو أنه خماسي الأقطاب قد يتحول في المستقبل إلى سداسي القطبية مثلا في حال انضمت إليه الهند.

- في ظل غياب العامل الإيديولوجي الحاد، لن تكون هنالك تحالفات ثابتة أو قوى مسيطرة بل سيقوم هذا النظام على تشابك المصالح وتقاطعها مما يحدث تحالفات حسب القضايا أو الأنساق الوظيفية القائمة.

- يبقى المسرح الرئيسي لنشاط هذه القوى في محيطها الإقليمي المباشر حيث قد تحاول أن تقفل هذا المحيط تجاه الخارج وذلك لمصلحتها ثم تتجه للتنافس مع القوى الأخرى في الأنظمة الإقليمية «الحرة» أو التي لاترتبط كليا بقوى كبرى.

- بقدر ما تستطيع هذه الأقطاب من توثيق علاقاتها مع الأطر الإقليمية الناشئة أو المتجددة بقدر ماتستطيع أن تتقدم في التنافس على الأقطاب الأخرى.

- يبقى ان هذا النظام مرشح للتحول إلى نظام ثلاثي الأقطاب القارية فيما لو تحققت جملة من العوامل يبدو أن بعضها أخذ في التبلور وفي دفع النظام في ذلك الاتجاه.

النظام الثلاثي الأقطاب القارية

إن نظرة سريعة إلى العلاقات الاقتصادية والتجارية الدولية وهيكل تمركزها واتجاهاتها خاصة من حيث حجم هذه الاتجاهات تقود إلى ملاحظتين أولهما أن هنالك بداية لنظام هيمنة مثلث PAXTRIADICA وهو حسب البعض يأتي في السياق التاريخي لنظم الهيمنة البريطانية ثم الأوروبية والأمريكية. فعلى سبيل المثال هنالك ٩٢٪ من أصل ٤٢٠٠ تحالف استراتيجي بين الشركات العالمية في الثمانينيات عقد بين أطراف «المثلث»[٦٣]، وثانيهما ازدياد حجم المبادلات التجارية ضمن كل مجموعة ينتمي إليها كل قطب.

ومرد هذه، التوجه لقيام كل من الولايات المتحدة واليابان والجماعة الأوروبية بدور القطب القاري، عوامل عديدة يمكن إدراجها كما يلي:

- بروز الإقليمية الجديدة كمستوى ناشط وفعال في السياسة العالمية «ما بعد الحرب الباردة» وتشمل ورشات البناء الإقليمي الاقتصادي والأمني الجارية في العالم ويشجع هذا الاتجاه غياب الثنائية القطبية، التي كانت تضغط لمنع تبلور هذه الأطر، إذا لم تكن مرتبطة بها أو تدور حولها. كما يدفع في هذا الاتجاه أيضا ازدياد السياسات الحمائية حدة وبروزا والتعثر الذي أصاب مفاوضات جولة الأوروغواي وعدم حصول نتائج ملموسة لقمم الدول الصناعية. ويدفع بالاتجاه ذاته أيضا قناعة تبلورت عند الدولة الوطنية، حيث إن حل كثير من مشاكلها يجب أن يتم على مستوى أشمل من المستوى الوطني.

- محاولة كل من هذه القوى تحصين ذاتها في محيطها المباشر. فالجماعة الأوروبية مثلا نجحت في إقامة أكبر منطقة تجارة حرة مع انضمام «الافتا» بدولها السبع إذ تمثل هذه المنطقة ٤٦٪ من التجارة العالمية كما أن الجماعة على أهبة استقبال أعضاء جدد بشكل تدريجي وعدد المرشحين للدخول يزداد حتى انه قد يشمل في المستقبل كل الدول الأوروبية ولو أن ذلك لا يعني بالطبع الاستعداد لقبولها إذا لم تتوفر شروط معينة. ويمكن قول الشيء ذاته عن تبلور منطقة التجارة الحرة في أمريكا «النافتا» حتى يلاحظ ازدياد حجم التجارة بين الولايات المتحدة وكل من كندا والمكسيك ثم تحول الولايات المتحدة إلى محاولة إحداث علاقات اعتماد متبادل أكثر وثوقا مع دول أمريكا الوسطى وأمريكا اللاتينية ويساعد على ذلك التحولات السياسية والاقتصادية الحاصلة في هذه الدول والتي تشجعها الولايات المتحدة وكأنها الأخيرة تلبس مبدأ مونرو ثوبا اقتصاديا. وفي آسيا يلاحظ ازدياد حجم الاستثمارات اليابانية في دول منظمة دول جنوب شرق آسيا وكذلك ازدياد حجم التبادل التجاري الياباني مع هذه الدول ومع الصين الشعبية وأيضا مع النمور الأربعة، ويذكر تقرير للبنك الدولي أن اليابان أخذت تحتل مكان الولايات المتحدة كالشريك الأساسي في تنمية شرق آسيا.[٦٤]

ـ ما أشرنا إليه سابقا من أن سقوط العدو الاستراتيجي لحلفاء الأمس الاستراتيجيين قد رفع الضغط عنهم وغير مجرى اللعبة السياسية وديناميتها وبرز التنافس الاقتصادي ليحل مكان التلازم الاستراتيجي بينهم وهو ما أوجد نوعا من الحرب الباردة الاقتصادية.

ـ استمرار المسائل العالقة والتي تشكل مصدر توتر بين هذه الأقطاب وهي مشاكل هيكلية قبل موضوع العجز التجاري الأمريكي في العلاقات مع اليابان والحواجز الجمركية اليابانية في العلاقات بين هذه الأخيرة والجماعة الأوروبية وفتح الأسواق والسياسة الزراعية رغم الاتفاق الأخير بين الولايات المتحدة والجماعة الأوروبية وقد أدى هذا كله إلى إعطاء حوافز لكل طرف لتحصين مواقعه الإقليمية.

وفي تقديرنا أنه بقدر ما يحدث تقارب ياباني صيني، وتندمج الصين في الاقتصاد العالمي، وبقدر ما يحسم الموقف في روسيا وتتجه هذه إلى أوروبا، بقدر ما قد يشتد التنافس مستقبلا على كافة الأصعدة بين هذه الأقطاب القارية الثلاثة ويزداد التنافس على إقامة مناطق نفوذ اقتصادية فيما بينها في المناطق النامية. ويزيد من احتمال تحول النظام من التعددية القطبية إلى الثلاثية القطبية، إن كلاً من الولايات المتحدة في القارة الأمريكية والثنائي الألماني الفرنسي في أوروبا وكذلك الثنائي الياباني الصيني مستقبلا، يتمتعون كأقطاب قارية بقدرات هائلة وديناميكية كبيرة للتعبئة على الصعيد الإقليمي وللتنافس على الصعيد العالمي.

الهوامش

(١) The Jakarta Message. A Call for Collective Action and the Democratisation of International Relations, Jakarta: Nac 10, Dec 12, 1992.

(٢) Interaction Council, The Search for Global Order: The problems of Survival (Petersberg, 7-8 January 1992), p. 1.

(٣) Zbigniew Brzezinski, "Order, Disorder and U.S. Leadership", Washington Quarterly, Spring 1992, pp. 5-13.

(٤) Pierre Hassner «Beyond Nationalism and Internationalism : Ethnicity and World Order » Survival, vol. 35,No 2, Summer 1993, p. 53.

(٥) من أهم ما كتب في هذا الخصوص الكتاب التالي:

Jean-Yves Carfantan, Le Grand Desordre du Monde, Paris, Seuil, 1993.

(٦) Un Entretien avec Pierre Hassner, Le Monde, 27 Octobre, 1992, p. 2

(٧) The Guardian , 27 March, 1991, p.3

(٨) Owen Harries, "With the cold war over, West is no longer west", International Herald Tribune, (IHT), 1st September, 1993, p. 6.

(٩) "New Doctrine for the G7", Financial Times, 26 September, 1993, p. 11.

(١٠) Carfantan, op. cit., pp. 54-55.

(١١) Buzan, "New patterns of Global Security in the Twenty First Century" International Affairs, Vol. 67, 3, July 1991, p. 440.

وكذلك

Paul Johnson, Colonialism's Back and Not a Moment Too Soon, the New York Times, April, 18, 1993

(١٢) حول هذا الموضوع انظر مقالة:
ناصيف حتي «الدولة القومية بعد انتهاء الحرب الباردة» الحياة، ١٠ يناير ١٩٩٢، ص ١١.

(١٣) IHT, 20 August, 1992, p. 5

(١٤) William pfaff, The Wrath of Nations (New York, Simon and Shuster, 1993), p. 13.

(١٥) The New York Times, 7 February, 1993.

(١٦) Renée de Nevers, "Democratization and Ethnic Conflict," Survival, Vol. 35, N. 2, Summer 1993, pp. 31-48.

(١٧) Anthony Lewis, Where will we put the Next Three Billion" IHT, 20-21, February, 1993, p. 4

(١٨) القرية العالمية الأولى: تقرير نادي روما ص ٥٠ (بيروت: ترجمة مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٢).

(١٩) Carfantan, op. cit., pp. 61-68

(٢٠) Paul Kennedy, Preparing for the Twenty First Century (London: Harper Collins, 1993), p. 12.

(٢١) Interaction Council, op. cit. p. 4

(٢٢) Robert S. McNamara, Yes, Do our Best to Return to a Nonnuclear World, IHT, 24, February 1993, p. 6.

(٢٣) Aspects Economiques du Désarmement: le Desarmement en tant qu Investissement (New York: UNIDIR, 1993), p. 83.

(٢٤) Max Singer, Zones of Peace, Zones of Turmoil: A new Order of Hope, IHT, 2 September, 1993, p. 4.

(٢٥) Richard E. Feinberg, et al, Debt Reduction and North-South Resource Transfers to the Year 2000 (Washington D.C.: Overseas Development Council, 1992, p. 11

(٢٦) Le Salut sans le FMI (Interview), Jeune Afrique N1646, 23-29 Juillet 1992, pp. 30-33.

(٢٧) IHT, 30 August, 1993, pp. 1 and 9.

(٢٨) Francis Fukuyama, The End of History and the last Man. New York: The Free Press, 1992.

(٢٩) Samuel Huntington, The Clash of Civilizations? Foreign Affairs, Summer 1993, pp. 22-49.

وأيضا George Yong-Boon Yeo, «Cultures in Competition» IHT, 18 February 1993, p. 4

(٣٠) James Walsh, «Asia's Different Drum» Time, 14 June, 1993, pp. 48-51

(٣١) يقول رئيس وزراء سنغافورة السابق لي كوان يو في رده على سؤال حول نموذج آسيوي للتنمية إن لنا أرضية مشتركة، وثقافتنا تركز على المصلحة العامة وتضعها فوق مصلحة الفرد ويقول إن لنا وضعا سيكولوجيا مختلفا أيضا. le Monde, 12Juin, 1993, p4.

(٣٢) Charles Krauthammer, The Unipolar Moment' in Rethinking America's Security Beyond the Cold War eds. Graham Allison and Gregory, F. Treverton (N.Y., W.W. Norton and Company, 1992), pp. 295-306.

Joseph Nye, La Guerre du Golfe et l intérêt national Américain, Liberation, 2 Aout, 1991, p. 5 (٣٣)

Joseph Nye, Bound to Lead: The Changing Nature of American Power, N.Y.: Basic Books, 1990 Paul Kennedy, The (٣٤) Rise and Fall of the Great Powers: Economic Changes and Military Conflict from 1500 to 2000 N.Y., Random House, 1987.

Commentary, March 1992. (٣٥)

Stephen Rosenfeld, «Multilateralism as a Dodge» The Washington Post, 18 June 1993. (٣٦)

Heinz A. J. Kern The Clinton Doctrine: A New Foreign Policy, The Christian Science Monitor, June 18, 1993 pp 19-20. (٣٧)

The Washington Post, 20 June, 1993. (٣٨)

Jeane Kirkpatrick, «Clinton does have a Clear Foreign Policy: Just Ask Burton Ghali» IHT, 28-29 August, 1993, p6. (٣٩)

Ronald Asmus, Richard Kugler and F. Stephen Larrabee. It's time for a New US European Strategic Bargain IHT, (٤٠) 28-29 August 1993, p. 6.

William Pfaff, Bakers Commonwealth of Democracies IHT, 26 June, 1991, p. 8. (٤١)

United States Information Agency, Wireless File, November 12, 1992, p. 6. (٤٢)

Marie-France Toinet, «Comment les Etats-Unis ont perdu les moyens de leur hegemonie», Le Monde Diplomatique, (٤٣) Juin 1992, pp 14-15.

Adrian Karatnycky, America is turning inward, IHT, 24 August, 1993, p. 4. (٤٤)

Alan Tonelson, «Superpower without a sword», Foreign Affairs Vol. 72, No. 3, Summer 1993, pp 166-180. (٤٥)

Henry Kissinger, Clinton and the World, Newsweek, 1 February 1993, pp 12-14 (٤٦)

John Kenneth Galbraith, The Culture of Contentment New York: Houghton Mifflin Co., 1992. (٤٧)

Zbigniew Brzezinski, Out of Control (N.Y.: Charles Scribner's Sons, 1993) p. 106 (٤٨)

Philip Cerny «Parliamentarism Structural Differentiation and Functional Conflict in the Post-Cold war World Order», (٤٩) Millennium, Vol. 22, No. 1, 1993, pp 27-51.

Nicholas D. Kristof, «Deng's Pattern Takes Shape», IHT, 20 October 1992, p. 1. (٥٠)

IHT, 28 July, 1993, p. 14. (٥١)

USIA, World Bank [illegible] about Chinas progress. Wireless File, 25 March 1993, pp 9-10. (٥٢)

Barber Conable J.R. and David Lampton «China: The Coming Power», Foreign Affairs Winter 1992/93 pp 142 and after (٥٣)

IHT, 31 July - 1st August 1993, p4 (٥٤)

Yoshiro Nakayama, Japan Must End its «One Nation Pacifism», Jerusalem Post, 22 April, 1991, p. 4 (٥٥)

IHT, 31 July - 1 August, 1993, p.4. (٥٦)

(٥٧) موريهيرو هوسوكاوا «البابان مطالبة بالانفتاح ثالث على العالم»، الشرق الأوسط ٨ أغسطس ١٩٩٣، ص٩.

(٥٨) الحياة، ٧ أغسطس، ١٩٩٣، ص٧.

(٥٩) الحياة، ١٦ إبريل، ١٩٩٣، ص٩.

(٦٠) يعتمد هذا الجزء بشكل كبير على مقالتنا التالية:

ناصيف حتي، «أوروبا: صراع على السلطة وعلى المستقبل»، الحياة ٢٦ مايو، ١٩٩٣، ص١٧.

Jude Wanniski, "Go-GO Globalism", The New York Times, 1st October, 1993, PA 31. (٦١)

Quoted in Alexander N. Rossillone «Post-Soviet Nuclear Threats are even Bigger», IHT, 15-16 June, 1993, p. 6. (٦٢)

Ricardo Petrella, «PAX TRIADICA...» Le Monde Diplomatique, November 1992, p. 32. (٦٣)

IHT, 20-21 February, 1993, p.35. (٦٤)

الأدب والعلوم الإنسانية

د. شكري محمد عياد*

تمهيد

مهمة «المحرر الضيف» تنحصر في أنه يقترح الموضوعات والكتاب ويتابع إنجازها ثم يكتب لها «تمهيدا» ما.

مهمة تبدو هينة، وهي كذلك حقا إذا لم يواجه «المحرر الضيف» باعتذار متأخر عن أوانه، فيكون عليه أن يعتذر بدوره لرئيس التحرير، وقد يضطر أيضا إلى أن يعدل خطة العدد. ولكن الأمور تستقر أخيرا على أي حال، وعندما يجلس «المحرر الضيف» ليكتب التمهيد، يجد نفسه إنسانا سعيد الحظ، لأن أمامه مجموعة ثمينة من المواد التي اشتاق إلى أن يقرأها من أقلام هؤلاء الكتاب باللذات، وكأنها كتبت خصيصا له! وهذه الأنانية أو النرجسية لا يغفرها إلا شيء واحد: أن يكون قد تمثل في نفسه، حين دعا هؤلاء الكرام الكاتبين، شوق جميع القراء المهتمين.

ولعل المهتمين بالأدب أكثر عددا من المهتمين بالعلوم الإنسانية. فالأدب في ثقافتنا ينصرف إلى كل كتابة من شأنها جمال النفس، أو إمتاع العقل، هكذا تدل الكلمة باشتقاقها وبقبولها العام، ونظيرتها في اللغات الأوروبية مشتقة من «الحرف» ومرتبطة، صوتا ومعنى، بفعل القراءة، وفعل القراءة لذات القراءة لا يقصد به إلا جمال النفس أو إمتاع العقل. أما «العلوم الإنسانية» فحديثة الميلاد، لم تبزغ من دوحة الفلسفة ـ أم العلوم ـ إلا منذ قرن ونصف القرن تقريبا. وقد سلكت مسلك العلوم الطبيعية في الابتعاد عن كنف الأم، ولم تكتف بمحاولة الفهم. أو الضرب في جنبات المجهول في الأرض والسماء، بل توخت أغراضا عملية في علاقة الإنسان بالإنسان، واصطنعت من الوسائل لتعيين الظاهرات الاجتماعية وتحليلها وقياسها واكتشاف العلاقات بينها إجراءات شبيهة بتلك المتبعة في العلوم الطبيعية. وطبيعي أن يكون المشتغلون بهذه العلوم الإنسانية فئات من المتخصصين.

* أستاذ سابق بآداب القاهرة، صاحب مؤلفات هامة في النقد، وحاصل على جائزة الدولة التقديرية للآداب عام١٩٨٨.

ولكن الإمساك بـ «الإنسان» ليس بالأمر السهل، وآية ذلك أن التنبؤ بسلوك فرد ما، أو جماعة ما، ينطوي ــ إذا تحدثنا بلغة العلم ــ على نسبة عالية من احتمال الخطأ. أما إذا نظرنا إلى المسألة بمنظار التأمل الفلسفي فقد يمكننا القول بأن مشكلة الحضارة المعاصرة هي الاختيار بين طريقين لـ «صنع القرار» (ذلك على جميع المستويات: من مستوى الفرد العادي إلى مستوى الدولة العظمى): فإما أن يتخذ القرار بناء على «تقديرات علمية» خالصة، وإما أن توضع مع هذه التقديرات، أو قبلها، معايير مطلقة قد نسميها الحق أو العدل أو الأخلاق أو الدين. وقد يقول «العلميون» الخلّص: إن العلوم الإنسانية بوسائلها في القياس والتحليل لا تزال في طور النشأة، وإنها حرية أن تبلغ ــ يوما ما ــ ما بلغته العلوم الطبيعية من دقة وإحكام. وهذه حجة وجيهة، ولكن قبولها ينطوي على مخاطرة كبرى، قد تكون نتيجتها فناء البشرية، فلا أحد يجهل أن الخيار الذي أشرنا إليه لن يدوم طويلا. فإذا تكررت القرارات الخاطئة، اعتمادا على «العلم» المظنون، فقد يعجز «العلم» عن إصلاح أخطائه. وما أظنني أبالغ إذا قلت إن العالم يزداد اقترابا من هذه «اللحظة الحرجة» يوما بعد يوم. والأمثلة واضحة للعيان، ابتداء من مرض «الايدز» إلى فظائع الحروب المحلية والأعمال الإرهابية التي أوجدها التقدم العلمي بما استلزمه من تناقضات، وغذاها بما ابتكره من أسلحة، ثم هو اليوم عاجز عن كبح جماحها إلا بأعمال تفوقها فظاعة. وقد لا «يوفق» إلى ذلك دائما.

هذا أشعر، ولعل الكثيرين يشاركونني في هذا الشعور، أن استئثار «العلم» بتوجيه الحياة البشرية لم يعد في مصلحة البشر. ولا شك أن العلوم الإنسانية، بموقعها المتوسط بين عالم الشعور والوجدان والقيم من ناحية، وعالم التجربة العلمية والإنتاج المادي من ناحية أخرى، قد أصبحت ــ حتى ولو لم يشعر أصحابها ــ هي المنطقة التي يجب أن تتقرر فيها نتيجة هذا الخيار. ولا أعني ــ بطبيعة الحال ــ أن العلوم الإنسانية ينبغي ــ أو يمكن ــ أن تتخلى عن طموحها العلمي نحو دراسة السلوك الإنساني دراسة منضبطة، ولكنني أعني أنها قد تجد من الضروري أن تعدل مناهجها، وأهم من ذلك ــ في نظري ــ أن تقلل من ادعائها الذي يتجلى في اسمها نفسه، وهو أنها السبيل الوحيد الموثوق لمعرفة الإنسان بنفسه.

وثمة موقف لبعض المشتغلين بالعلوم الإنسانية وبعض دارسي الأدب أيضا، يرى أن الدراسة العلمية للأديب يجب أن تستقل عن الأدب نفسه، أي عن الشعر والنثر الفنيين، ومعهما الكتابة التي تتناولهما مباشرة، والتي نسميها النقد. وبعض هؤلاء يسقط الحواجز بين النقد والكتابة الفنية، وبذلك تزداد الهوة بين الأدب ودراسة الأدب اتساعا، لتصبح دراسة الأدب قسما من العلوم الإنسانية: فأما أصحاب العلوم الإنسانية الأخرى، ولا سيما علم الاجتماع وعلم النفس، فكلاهما يخضع دراسة الشعر والنثر لمناهجه، باعتبارهما نتاجا اجتماعيا تارة، أو تعبيرا عن كيفيات نفسية تارة أخرى. وأما أصحاب «علم الأدب» فيحصرون أنفسهم في دائرة المادة الأدبية، باعتبارها تركيبات لغوية، يقصدونها بالتصنيف تارة، وبالتحليل تارة أخرى.

ولكننا إذا أخذنا «العلم» بمعناه الواسع، الذي يتجاوز المعرفة المنضبطة عن طريق التجريب ووسائل القياس، إلى «المعرفة» عموما، فهل يسعنا أن ننكر أن مجرد «قراءة» الأدب من أجل متعة العقل وجمال النفس، تتضمن نوعا من «المعرفة»، معرفة الإنسان بذاته وبمكانه في الكون؟ وإذا كانت

هذه «المعرفة» غير قابلة لأن تصاغ في نتائج محددة، من حيث إنها لا تشير إلى «موضوع» محدد، كما تشير الدراسة العلمية للأدب إلى موضوع محدد وهو الأدب، فهل يسمح لنا هذا الفرق بأن نستبعد هذه المعرفة من حقل «العلم» بمعناه الموسّع، لمجرد أن وسائلنا العلمية لاتستطيع الإحاطة بها؟ بعبارة أخرى: إذا كانت خاصية الأدب هي أنه يشير إلى شيء وراء حدود اللغة، أي وراء حدود العالم الممسوك باللغة، فهل يستطيع دارسو الأدب بل عامة قراء الأدب، أن يتجاهلوا هذه الخاصية؟ وأي قيمة تبقى للأدب إذا هم تجاهلوها؟ أليس المنتظر، في هذه الحالة، أن ينحدر الأدب إلى إنتاج شكلي محض، أو أن تختزل «المعرفة» الأدبية الكلية التي تتجاوز حدود اللغة وحدود العالم، إلى مضمون محدد يمكن أن يكشف عنه علم النفس أو علم الاجتماع، أو أن تكون الدراسة الأدبية مزيجا من هذين المنصرين، ومن ثم يصبح الإبداع الأدبي نفسه محصورا في حدود فهمنا القاصر للأدب؟

كانت هذه الأسئلة المقلقة تساورني عندما أتيحت لي الفرصة لأن أستكتب عددا من الباحثين حول موضوع الأدب والعلوم الإنسانية. وأحسب ـ بناء على تجربتي في النقد ـ أن مثل هذه الأسئلة تشغل الكثيرين من قراء الأدب أيضا. قد لا يوافقنا الكثيرون ـ بالطبع ـ على تعريفنا للأدب هنا بأنه نوع من استعمال اللغة يتجاوز حدود اللغة، وهو تعريف متواضع لأنه تعريف بالخاصة، وليس تعريفا بالماهية، ولكننا نقول إنه تعريف علمي لأنه مبني على خبرة واقعية بالمادة الأدبية، خبرة عبر عنها بلاغيونا القدماء حين تحدثوا عن نوع من التشبيه سموه «التشبيه الوهمي» ومثلوا له بالآية: «طلعها كأنه رؤوس الشياطين» ويقول امرىء القيس في وصف السهام: «ومسنونة زرق كأنياب أغوال»، وحام حولها رتشاردز نفسه، وهو الناقد المتأثر بالوضعية المنطقية، حين تحدث عن الاستعارة بأنها اختراع أو اختراق معنوي يتجاوز دلالة المستعار منه والمستعار له، وذهب بها السيرياليون إلى أقصى مداها حين قصروا فنهم على تحطيم العلاقات «الطبيعية» بين الأشياء والعلاقات النحوية بين الألفاظ.

ولذلك فالسؤال الذي يطرحه دارسو الأدب اليوم، أو ينبغي أن يطرحوه، هو: هل يمكن أن يبنى على هذه الخبرة «علم»؟ إذا كان العلم عبارة عن صيغ، تمثل علاقات، ويمكن أن تأخذ شكل قوانين، مستقرأة من هذه الخبرة، فإن معرفة نوع «الخبرة» وكيفيتها أو كفاياتها ووسائل تحسينها، هي الشرط الضروري لاستخلاص النتائج منها، وهذه المعرفة هي ماتسميه المنهج. وقد كانت دراسة الخبرة الأدبية، أو الفنية عموما، أو الخبرة الجمالية بتعبير أشمل وأدق، ولا تزال، موضوعا من موضوعات الفلسفة، أي أنها كانت تقوم على التأمل في ذاتها، أو الاستبطان المقترن بملاحظة الموضوع الخارجي، ولكننا في هذا العصر الذي تتراجع فيه الفلسفة أمام العلم، أو تراجع نفسها طبقا لمعطياته، نتساءل: ماذا تستطيع العلوم الإنسانية أن تعطينا لتساعدنا على فهم هذه الخبرة؟ ولاننسى مع ذلك أن «الخبرة» أوسع وأعمق وأغمض وأشد تنوعا من كل محاولة لفهمها. وإذا كنا نولي وجوهنا ـ مؤقتا ـ عن الفلسفة القائمة على الملاحظة والتأمل، لنتوجه بأسئلتنا إلى العلوم الإنسانية التي تصطنع وسائل التجريب والقياس، فليس السبب في هذا أن فلسفة الفن «فشلت» في مهمتها، وإن كانت قد قدمت تفسيرات كثيرة، ومتعارضة أحيانا، للخبرة الفنية، فمن الطبيعي أن يكون هذا شأنها إذا لاحظنا خصائص هذه الخبرة، ولكن لأن الفلسفات الفنية على اختلافها تقوم بمغامرة كبرى: وهي البحث عن «جوهر»

الخبرة الفنية، وهذه المغامرة تنطوي على خطرين: فهي من جهة تفرد خاصة واحدة بمكان الامتياز (المحاكاة أو التعبير مثلا) ومهما حاولت بعد ذلك أن تخضع سائر الخواص لهذه الخاصة المتميزة فإن الصورة العامة تظل متأثرة بمزاج الفيلسوف أو بأحوال عصره، وهي من جهة أخرى، وفي سبيل تأكيد هذه الصفة المتميزة، تنفي من دائرة الخبرة الفنية ألوانا أو أحوالا كثيرة يمكن القول إنها تقع على الدرجات الدنيا من سلم القيمة، ولكنها تصنف تحت هذا الجنس من الخبرة. فالعلوم الإنسانية، كفيلة بسد هذا النقص، نظرا لأنها تبنى على ظواهر عامة لا على تأملات فردية. فعلم النفس ـ على سبيل المثال ـ يمكنه أن يدرس بوسائله المعملية تأثير الإيقاع أو المشاكلة اللفظية، باعتبارهما عنصرين في الخبرة الفنية، مع أن الخبرة الفنية لا تتم بهما، وكذلك تختلف طبيعة الخبرة الفنية ـ أو التذوق ـ باختلاف الأنواع الأدبية: فتذوق الرواية الواقعية يختلف عن تذوق الشعر الغنائي: الأول أشبه بجولة في نهار مشمس، والثاني أشبه بهزة باطنية لمنظر برق يلمع، أو بضوء ساطع في ليلة حالكة الظلام، وقد تجعل الفلسفة الفنية إحدى الخبرتين مقدمة على الأخرى، أما علم الاجتماع فإنه يعني بالنوعين على قدم المساواة، مركزا جهده في البحث عن العوامل التي أدت ـ مثلا ـ إلى رواج أحدهما أكثر من الآخر، أو الوظيفة التي يقوم بها أحدهما أو كلاهما في مجتمع ما.

وبفضل هذه النظرة الواسعة إلى الخبرة الأدبية بمختلف أنواعها يمكن أن تساعد العلوم الإنسانية «علم الأدب» على بناء منهجه، وسيكون من أول مهام هذا المنهج ملاحظة الارتباط بين الخبرة الأدبية ومعرفة الحياة الإنسانية، أي أن «علم الأدب» سيحاول بدوره أن يمتد إلى العلوم الإنسانية، ولكن من منطلق الخبرة الأدبية. وليس هذا بالشيء الجديد، فقد كان سنت بيف، رائد الدراسة العلمية للأدب، يقول إن هدفه من هذه الدراسة هو كتابة «تاريخ طبيعي للأرواح»، وفي ذلك الوقت (أواسط القرن التاسع عشر) لم يكن علم النفس أو علم الاجتماع قد وجدا كعلمين مستقلين بموضوعاتهما ومناهجهما عن الفلسفة. فإذا كانت الدراسة الأدبية لم تأخذ شكل العلم حتى اليوم، بينما الذي يلوّح لنا بإمكان معرفته دون أن نستطيع القول في وقت من الأوقات إننا عرفناه.

وإذا كانت هذه هي الصفة المميزة للخبرة الأدبية، فهل يمكن أن يبنى عليها علم؟ وهل ثمة ضرورة لمثل هذا العلم؟

أعيد القارىء إلى صدر هذه الكلمة

وقد رأينا أن رؤية فلسفية لنص أدبي قد تلقي بعض الضوء على هذه المشكلة الأخيرة. والنص هو رواية «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ، وصاحب الرؤية هو الدكتور حسن حنفي. وقد أراد أن يجرد مقاله تجريدا تاما من كل ما عدا المشكلة الفلسفية، وهي في نظره مشكلة «السقوط والخلاص» (وعندي أنها وجه من وجوه الجزئي والمطلق).

ولا غبار على مسلكه هذا لولا تعليله إياه بأن «الأسلوب الروائي عند نجيب محفوظ أسلوب واضح وسهل وخال من التراكيب المفتعلة. فهل يظن أن التحليل الأسلوبي لا يعرف إلا «التراكيب المفتعلة»، ولا شأن له بالأفكار؟ الواقع أن الدكتور حسن حنفي قام فعلا بنوع من التحليل الأسلوبي الإحصائي

ليدعم فكرته عن وجود أكثر من مفهوم واحد لله في الرواية. وهو ينعي على بعض نماذج «النقد الأدبي المهني» أنها تشغل بتقنيات العمل الأدبي عن مضمونه. وهو محق في ذلك، ولكن هل يكون العلاج بنقد فلسفي تكون مهمته ـ حسب رأيه ـ «تحليل المضمون مباشرة دون الوقوف على تحليل الألفاظ، والكشف عن الموضوع وراء اللغة والتراكيب اللغوية بالعودة إلى الأشياء ذاتها. . . «إلى آخر ما قاله في المقدمة؟

لقد حاول الدكتور حسن حنفي جاهدا أن يقدم عرضا سميوطيقيا لرواية نجيب محفوظ، فقرأها في ضوء عدد كبير من النصوص التي تناولت الموضوعات نفسها، وحلل بنيتها الفكرية ـ لا بنيتها الروائية ـ على أساس الإثنيات البنيوية المعروفة: فهناك السقوط والخلاص، وهناك الدين والعلم، وهناك الدين والسلطة السياسية. ثم حاول في ختام مقاله أن يبين أن هذه التقابلات ظاهرية فقط، وأن هناك تقابلا واحداً أساسيا: الحياة (الحارة) والموت الذي يضع نهاية لكل شيء (ولكن الدكتور حنفي لا يصرح بهذا التقابل تحديدا).

إن الذي يزعجنا أكثر من تدفق الأسلوب في هذه المقالة هو رؤية الدكتور حسن حنفي لمهمة النقد الفلسفي على أنها «العودة إلى الأشياء ذاتها» وأنها «الفهم والتطوير والتغيير» والمشاركة الروائي في الهدف وبالتالي إعطاء أبعاد جديدة للنص الأدبي». فهذا المزيج من الفلسفة البنيوية وفلسفة الظواهر يقهر النص الأدبي حتى يعبر عن أفكار الناقد ونظرته إلى «موضوع» النص، أو إلى «الأشياء ذاتها» لا إلى النص كموضوع للمعرفة من ناحية، وكطريق إلى المعرفة من ناحية أخرى.

ولعل الدكتور حسن حنفي قد نجح في إظهار أن «أولاد حارتنا» لا تهاجم الدين كما اتهمها المتشددون، ولكنه وضعنا أمام مشكلة جديدة، وهي أن بعض النقد الفلسفي لا يبحث عن حقيقة الأدب، بل يبحث عن نفسه في الأدب.

أخذ علما النفس والاجتماع يتباعدان عن المناهج النظرية ويحاولان أن يلحقا بالعلوم الطبيعية التجريبية، فلا يبعد، إذا نجح علم الأدب في تطوير مناهجه، أن يصبح له نوع من التأثير في هذين العلمين، يحقق توازنا واعتدالا في العلوم الإنسانية بوجه عام، بين النظر والتجريب.

وقد تكون التجربة الفنية في تاريخ شعرنا العربي أقرب إلى الخطفة الماجئة، بينما هي في الثقافة الغربية أقرب إلى الرؤية الممتدة. ولكننا يجب ألا نبالغ في تأكيد الفروق، كما يجب ألا ننسى أن إلحاح المنظرين العرب على بلاغة البيت قد ألهاهم عن النظر في بلاغة القصيدة ككل، أو ـ من باب أولى ـ بلاغة القصة أو الرسالة النثرية. ولهذين السببين مجتمعين يجب أن يشمل المنهج الأدبي هذين النوعين من الخبرة.

ونحن نعرف ـ مثلا ـ أن الرواية الواقعية الأوروبية في القرن التاسع عشر قد اقتربت كثيرا من الكتابة العلمية، إذا اعتبرنا التاريخ، بأسلوبه في تقرير الوقائع وتحليلها، والتاريخ الطبيعي، بطريقته في وصف الأحياء، والتمييز بينها، وبيان تأثير العوامل البيئية فيها، النموذجين الأساسيين للكتابة العلمية في الموضوعات الإنسانية في ذلك العصر. إن الرواية البلزاكية يمكن أن تعد تاريخا اجتماعيا لعصرها، والكثير مما كتبه زولا يمكن أن يعد وصفا أنثروبولوجيا ـ قبل أن يوجد علم الأنثروبولوجيا ـ

لفئات من قاع المجتمع. على أن النماذج البشرية التي يصورها كل منهما، بين ضغوط اللحظة التاريخية والرغبات الإنسانية الطبيعية، تترك في النفس انطباعا بأن حياة الإنسان على الأرض ليست إلا مزيجا تراجيديا كوميديا من الاندفاع والجشع والغرور والقهر. ولهذا فإن نوع «الرواية الواقعية» يقوم أساسا، في إبداعه وتلقيه، على الخبرة الأدبية.

وفي مقابل هذا نرى الكتابات الأنثروبولوجية، من بذورها الأولى قبل تأسيس هذا العلم إلى أحدث اتجاهاته المنهجية، شديدة القرب من الأدب. فنحن نجد متعة أدبية في قراءة «تحقيق ما للهند» أو «رحلة ابن بطوطة»، لأن الخروج من عاداتنا الفكرية والاجتماعية لنجرب بعض الوقت حياة الآخرين تجربة تهز نفوسنا بالدهشة، وتفتح عيوننا على الداخل حين تدفعنا إلى المقارنة بيننا وبين الآخرين، وهذه حالات شعورية شديدة الالتصاق بالخبرة الأدبية. إن المبدأ المرعي لدى الأنثروبولوجيين الإنجليز على وجه الخصوص من ضرورة الاندماج في حياة الجماعة البشرية التي يدرسها الباحث، هو في الحقيقة جزء من الخبرة الأدبية، لا يمكن تصورها بدونه، وكأن الأنثروبولوجيين استعاروها من هذه الخبرة، كشرط ضروري للمعرفة. ولكن هذه المعرفة الصميمية، في إطارها الأدبي، ليست «معرفة» مجردة، بل هي بالدرجة الأولى «فعل» تفني غايته التواصل بين الذات والغير. وهنا تكشف لنا الروايات الأنثروبولوجية التي حللها الدكتور أحمد أبو زيد عن موقفين مختلفين: تأكيد الذات في مواجهة الآخر، وتجاوز الذات لرؤية الآخر. على أن هذه المواقف لا تخضع لتقسيمات سهلة وفاصلة. فـ«الآخر» ليس نمطا واحدا، و«الذات» أيضا ليست صنفا واحدا، وتبادل المواقف أمر ممكن بل طبيعي، فالذات «آخر» بالنسبة للآخر، والآخر - على العكس - ذات لها موقفها من الآخرين. والنماذج القليلة المتنقلة التي يحللها الدكتور أحمد أبو زيد تشير إلى هذا التنوع، وربما كانت رواية «القمر الفتى ذي الدثار»، وهي لكاتب من جنوب إفريقيا، عملا نموذجيا في تصويره لموقف إنسان منتم إلى حضارة بدائية من حضارة الرجل الأبيض، على عكس ما كرسته عقود كثيرة من الدراسات الأنثروبولوجية التي قام بها غربيون لحضارات بدائية. لاشك أن لمثل هذا العمل أهمية علمية كبيرة في دراسة التغير الحضاري من وجهة نظر إنسان يعاني هذا التغير، ولكن له أيضا قيمة فنية لا تقل عن هذه لأن هذه المعاناة في ذاتها، أي بصرف النظر عن نتيجتها، هي تجربة إنسانية عميقة لما تنطوي عليه من مشاعر «الاتصال والانفصال» التي نعدها من خواص الخبرة الأدبية. وإذا كان لهذه المجموعة من الخبرات دلالات مهمة أيضا على مستوى التحول التاريخي الشامل في عالم اليوم، من الهيمنة (المركزية الأوربية) إلى المشاركة (الوحدة العالمية) فإن لها أيضا انعكاساتها على مستوى المنهج، في كل من الأنثروبولوجيا والأدب المقارن.

وليس من السهل وضع الحدود بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، وإن كان من الممكن أن يقال إن الفرد يدرس ممثلا لحضارة، أي لمجموعة من القيم الفكرية والسلوكية التي يتمسك بها مجتمع ما، كما يدرس بما هو وحدة داخلية في مجموعة من المؤسسات التي ينظم بها المجتمع حياته. فالوضع الأول هو الغالب على الدراسات الأنثروبولوجية، والوضع الثاني هو الغالب على الدراسات الاجتماعية. وبما أن الأدب، من وجهة النظر الاجتماعية، هو إحدى هذه المؤسسات (يعرف ذلك من وجود الجمعيات الأدبية، ودور النشر والصحافة الأدبية، والسلاسل التي تجمع التراث الأدبي المعتبر في لغة ما، إلخ).

فطبيعي أن يدرس علم الاجتماع الأدبي علاقة المبدع الفرد بالمؤسسة الأدبية، كما يدرس علاقة هذه المؤسسات بسائر المؤسسات الاجتماعية. وفي المجتمع المعاصر بالذات، الذي تتحدد فيه علاقة المبدع بقرائه طبقا لقوانين عامة تربط بين المنتجين والمستهلكين، نجد علم الاجتماع نفسه ملزما بدراسة تأثير «نظام السوق» في شكل الإنتاج الأدبي ومحتواه.

وفي مجال علاقة كل من الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع بالأدب، يمكن القول إن الأولى مبنية على التناظر، والثانية على التشابك. فكل من الأنثروبولوجيا والأدب موضوعه الإنسان، وكلاهما يحاول أن «يفسر» الحياة الإنسانية، ولكن الأولى تستخدم الوصف بطريقة مقننة بناء على الخبرة الموضوعية (العقلية)، والثاني يستخدم الوصف بطريقة مقننة بناء على الخبرة الجمالية. ومن ثم لا يزعم أحدهما أنه يقنن للآخر، بينما يمكن أن يستفيد أحدهما من الآخر. وأوضح ما يظهر ذلك في موضوع الأساطير، حيث يدرسها لفي ستروس ـ مثلا ـ باعتبارها نصوصا أدبية، لأنها محملة بنفس الدلالة الكثيفة التي لهذه النصوص، وفي الوقت نفسه يمكن أن يتخذ تحليل للأسطورة نموذجا لتحليل قصيدة مثلا.

اتفاق الأنثروبولوجيا والأدب في الموضوع، وهو «الإنسان» بمطلق معنى الكلمة، مع اختلافهما في طريقة التناول، يترتب عليه إمكان التعاون بينهما، حيث يستفيد أحدهما من طريقة الآخر، أو من النتائج التي تحققت بفضل هذه الطريقة: فيتخذ العالم الأنثروبولوجي النص الأدبي، بشروط خاصة، مصدرا من مصادر الدراسة، ويستفيد الأديب المبدع من الدراسات الأنثروبولوجية في تصوره للعالم، وبذلك تزداد «الخبرة الأدبية» لديه عمقا وغنى، كما تستفيد الدراسة الأنثروبولوجية، في جانبها النظري التفسيري، من الدراسة الأدبية لتفسير تلك الجوانب من التراث الفكري للمجتمع، التي لا ترتبط بغايات عملية واضحة، بل تعبر عن موقف من الكون، وفي الوقت نفسه تستفيد الدراسة العلمية للأدب من الدراسة الأنثروبولوجية لهذه الجوانب بالذات، فتقتبس منها المنهج العلمي الذي طور من خلال النماذج الإبداعية الأساسية.

أما علم الاجتماع فرغم قربه من الأنثروبولوجيا إلى درجة عدم إمكان الفصل بينهما أحيانا فإن علاقته بالأدب مختلفة لأنهما لا يعملان في نفس المادة. نعم، كلاهما مشغول بحياة الفرد في المجتمع، ولكن المجتمع هنا، وهو المجتمع المدني، أصبحت له كينونته الخاصة، ولم يعد الفرد ممثلا لهذه الكينونة، بل أصبحت له كينونته الخاصة كذلك، ومن ثم فالظواهر الاجتماعية في هذا المجتمع المدني، وهي موضوع علم الاجتماع (وهي غالبا «مشكلات» تتطلب الحل، مثل: الطلاق ـ جناح الأحداث، إلخ) إنما تدرس بمعزل عن معاناة الفرد التي هي مادة الأدب. والاختلاف أوضح فيما يتعلق بالدراسة العلمية للأدب، فعلم الأدب يدرس نصوصا متشكلة، في حين أن علم الاجتماع يدرس ظواهر متداخلة، عليه أن يميز بينها ويعطيها شكلا علميا بواسطة التحليل والقياس والإحصاء.

ولهذا نقرأ في مقالة الدكتور فتحي أبو العينين كلاما مهما حول الخبرة الاجتماعية والخبرة الأدبية، والمراد بالأولى رؤية الباحث الاجتماعي للظواهر التي يدرسها وطريقته في التعامل معها، وبالثانية تعبير مبدع الأدب أو تفسير قارئه لتأثير هذه الظواهر في حياة الأفراد. ويقرر الدكتور أبو العينين أن الخبرتين

متمايزتان، وإن كانت الدراسة العلمية للمجتمع يمكن أن تساعد الروائي، كما أن الشواهد الأدبية يمكن أن تزيد البحث الاجتماعي ثراء. ولكننا إذا سلمنا باختلاف الخبرتين فقد نلاحظ أيضا أن العكس يمكن أن يحدث: فتكون الدراسة العلمية للمجتمع عاملا في جفاف العمل الروائي من حيث هو رواية، ويكون الاعتماد على الشواهد الأدبية سببا في ابتعاد البحث الاجتماعي عن الدقة العلمية، وإذا كان في مقدور عالم الاجتماع أن يضع الضوابط لاستخدام النصوص الأدبية في أبحاثه، فإن الإشكال يظل قائما بالنسبة إلى مبدع الأدب، لا يمكنه أن يحله إلا بالحدس الفني وحده، فعلم الاجتماع الأدبي لم يجعله أكثر وعيا بما تعنيه «الخبرة الأدبية» وهل يمكن أن تكون لها علاقة جوهرية بالخبرة العلمية بالمجتمع.

والعلاقة بين علم الاجتماع والدراسة العلمية للأدب، كما يجب أن نتوقع، أقل غموضا، فقد يكون من الضروري أن نبحث عن علل الظواهر الأدبية ـ سواء ما يتعلق بالمضمون أو الشكل ـ في الظروف الاجتماعية، ولكن السؤال الجوهري يظل قائما، أعني: ما قيمة المعرفة بالعلل الاجتماعية في تطوير الخبرة الأدبية لدى الناقد؟ إن وجود فرع من علم الاجتماع يسمى «علم الاجتماع الأدبي» (مثل «علم الاجتماع القانوني»، و«علم الاجتماع الديني» إلخ). لا يستتبع بالضرورة أن يكون لهذا الفرع جدواه على الدراسة الأدبية، فقد تظل ثمرته مقصورة على أغراض علم الاجتماع، كما أنه مقيد في أدواته وإجراءاته بما يتبع في سائر فروع هذا العلم، وإن كانت مادته مأخوذة من النصوص الأدبية. لذلك نجد ذلك الفريق من علماء الاجتماع الذين يتمسكون بالمنهج التجريبي رافضين أن يكون لعلم الاجتماع الأدبي علاقة ما بالنقد الأدبي، كما نجد النقاد المتمسكين بمقولة «استقلالية الأدب» رافضين هذه العلاقة أيضا. ونجد الفريق الثالث الذي يقول بتكامل الدرسين (وفي مقدمتهم لوكاتش وتلميذه جولدمان) ينهجون منهجا نظريا، متأثرا بالتحليل الماركسي للمجتمع، ويبتعدون عن المنهج التجريبي باختباراته وقياساته وإحصاءاته، معتمدين على التحليل الفني للأعمال الأدبية (الموضوعات والشخصيات والأسلوب إلخ.) ليصلوا من خلاله إلى «الرؤية» التي تصل إبداع الأديب الفرد بتوجهات فئة اجتماعية ما. ولكن «نقطة الوصل» هذه هي التي تحتاج إلى إيضاح أكثر، وهي لب الخبرة الأدبية التي لا يمكن حصرها في الشكل الفني وحده، حتى لا يكون الشكل خالياً من المعنى، وهذا، منطقيا، محال.

وإذا كانت الأسئلة الأساسية التي يجب طرحها ليقوم عليها فرع من فروع المعرفة نسميه «علم الأدب» متعلقة كلها بالخبرة الأدبية، فمن الطبيعي أن نتجه إلى علم النفس لتفهم هذه الخبرة. وسنجد من رواد مذهب «الجشطالت» من قاموا بتجارب على الحاسة الفنية، ولكن تجاربهم ظلت منحصرة فيما يمكن اختباره بالوسائل المعملية، فلم تتجاوز أشياء أولية مثل الألوان والأصوات المجردة. ثم استأنف علم النفس التجريبي حياة جديدة متوسعا في معنى «التجريبي» بحيث يشمل أداتين مهمتين من الأدوات المستخدمة في علم الاجتماع وهما «الاستبار» و«تحليل المحتوى»، واستطاع بفضل هذا التوسع في أدوات البحث مع تطويعها لأغراضه أن يتناول الأشكال الفنية الراقية (الشعر، الرواية، المسرحية، القصة القصيرة) وأن يلقي أضواء كاشفة مهمة على «الخبرة الأدبية» في كل منها (بما تشتمل عليه هذه

الخبرة من عناصر مشتركة وعناصر نوعية). وقد استطاع الدكتور مصطفى سويف، بمجهود شاق، أن يرسي دعائم هذه المدرسة في مصر وأن يتوصل هو وتلاميذه، ومنهم الدكتور شاكر عبد الحميد كاتب مقالة «الدراسات النفسية والأدب» إلى نتائج مهمة حول النشاط الإبداعي بوجه خاص، وقد يكون من أهمها دور المخزون النفسي في عملية الإبداع، وتأثير الإطار الثقافي، ووظيفة العمل الفني في إعادة الاستقرار بين الفرد ومجتمعه.

إن حصيلة هذه الدراسات ـ وقد تقيدت تقيدا تاما بالمنهج النفسي ولم تحاول الدخول في تحليل الأعمال الأدبية بوصفها تركيبات لغوية فنية ـ يمكن أن تساعد الناقد الأدبي ـ بل والمبدع أيضا ـ على فهم النشاط الذي يقوم به، وبذلك يكون أقدر على تحليله بوسائله الخاصة. على أن هناك قسما آخر من الدراسات النفسية التي تتناول الأدب، لا يمكن الاستهانة به لا كما ولا كيفا، وأعني ما تقوم به مدارس التحليل النفسي المختلفة. وهناك شبه إجماع على أن نظرية فرويد كان لها تأثير مباشر في نشأة السيريالية، وأن نظرية يونج كان لها مثل هذا التأثير في نشأة التفسير الأسطوري للأدب. ومع أن النظريتين تقومان على «اختزال» للنشاط الإبداعي، مرة إلى عمليات تعويضية شبيهة بما يجري في الأحلام أو أحلام اليقظة، ومرة إلى «نماذج أصلية» مفترضة، فإن كثيرا من الدراسات التي تناولت نصوصا أدبية كبرى، في محاولة لتفسيرها على ضوء إحدى هاتين النظريتين، يمكن أن تؤدي إلى اكتشافات مهمة حول اقتران «الخبرة الأدبية» بنوع من المعرفة الحدسية التي استطاع علم النفس، في مرحلة تالية، أن يثبت صحتها بوسائله الأقرب إلى الموضوعية. وفي الوقت نفسه توحي آراء «لاكان» حول التوترات النفسية الناشئة عن استعمال اللغة بإمكانية استخدامها لتفسير «الخبرة الأدبية» كمحاولة لاستعادة التوازن بين الذات والخارج.

وهنا ننتهي، كما انتهت العلوم الإنسانية في الوقت الحاضر، إلى اللغة كعنصر مشترك، أو «مفتاح أستاذ» يجمع بين هذه العلوم كلها.

وقد جاء تمركز العلوم الإنسانية حول اللغة نتيجة لعوامل كثيرة مشتركة، في مقدمتها الدراسات الأنثروبولوجية اللغوية (مدرسة بواس وسابير)، ونظرية سوسير في البناء التزامني للغة، ونظرية الظواهر (أو الظاهراتية كما تسمى أحيانا) في رد المدركات بمختلف أنواعها إلى الذات المدركة، بدلاً من القول بأن لها وجودا في ذاتها. ووراء ذلك كله فلسفة هيجل في وحدة الثقافة. فاللغة هي أساس هذه الوحدة. وهي الجهاز الذي تدخل فيه كل أنواع النشاط البشري، لتخرج «مصنعة» في شكل لغة. هي أداتنا للتحليل والتركيب ووسيلتنا لتحديد قيم الأشياء. وعلى ضوء اللغة وقوانينها يمكننا أن نفهم سائر الوسائل التي تقوم بدور مشابه، وإن يكن أقل شمولا. ومجموع هذه القوانين هو ما نسميه السميولوجيا، أو علم الأدلة.

ويبّن أن هذا العلم الذي يبحث في نظم العلاقات لا شأن له بكيفية ظهور هذه النظم أو ابتداعها ولكن يصفها، ليضع في أيدينا أداة صالحة لفهم كل عمل فردي أنتج وفقا لها. وطبقا للمنهج الظاهراتي لا يكون لهذا العمل المنتج أو المخلوق أو القائم خارج ذواتنا قيمة أو معنى إلا حين تقوم

نحن، القراء أو المستقبلين، بإنتاجه. ولذلك فإن السميولوجيا قد جاءت في ركابها بعلم آخر، وهو علم التفسير أو الهيرمينوطيقا، أو على الأصح أحيته من تراث العصور الوسطى، حيث كان فهم النص الديني مسئولية المفسر.

لا يخفى تأثير هذين العلمين في النقد الأدبي المعاصر، الذي نقل مركز الثقل في دورة العمل الأدبي من المبدع إلى القارىء/ الناقد، مع أن نشاط هذا الأخير يمكن تحديده بـ «حل شفرة» العمل الأدبي، ولابد له من الاستعانة بنصوص أخرى مشابهة لأنه لا يوجد ـ في الحقيقة ـ نص قائم بذاته، فكل نص جديد هو إعادة تركيب لشفرات سابقة، وهذا هو ما يعبرون عنه بـ «التناصّ» أو تداخل النصوص. وهكذا يصبح النقد عملا ذهنيا محضا مثل حل الكلمات المتقاطعة، وتصبح «التجربة النقدية»، وهي كما قلنا مركز الثقل الآن، نموذجا للإبداع، وأحسب أن السميولوجيا لو أرادت أن تختار نموذجا للإبداع الأدبي لما وجدت أفضل من الرواية البوليسية. ولعل أومبرتو إكو، وهو واحد من أعلام السميولوجيين، قد أراد أن يرشدنا إلى إمكان استخدام النموذج البوليسي في كل أنواع الكتابة الروائية، حتى الرواية التاريخية، حين كتب روايته «اسم الوردة».

لقد خاضت الدكتورة سيزا قاسم في خضم كبير من الدراسات الشارحة لما هي السميولوجيا وما هي الهيرمينوطيقا. ولكننا إذا رجعنا إلى سؤالنا الأساسي وهو: أي جديد استفدناه عن الخبرة الأدبية، وجدنا أن هذين العلمين بدورهما يختزلانها إلى مهارة عقلية محضة، بل يمكن أن تكون عبثية أيضا، طالما أن القارىء أو الناقد لا يعترفان بوجود شيء اسمه الحقيقة.

نحن لا ندعي أن هذه المقالات الأربع قد استوفت كل ما يمكن أن تضيفه العلوم الإنسانية إلى الدراسات الأدبية، كما أننا لا نهون من قيمة الإيضاحات التي قدمتها لفهم الخبرة الأدبية. ولكننا نعود إلى ما بدأنا به من أن خاصة التجربة الأدبية هي أنها تستخدم اللغة لتتجاوز حدود اللغة والعالم المعروف الذي تدل عليه اللغة. وقد أقمنا الدليل على ذلك من اللغة الأدبية نفسها. ونزيد الآن أن اعتراف الهيرمينوطيقا بتعدد القراءات للنص الأدبي الواحد يعني ضمنا أنه لا توجد قراءة واحدة تستوعب معنى النص، وهذا يستوجب أحد أمرين: إما أن لا يكون للنص معنى، ونحن نستبعد ذلك بداهة. وإما أن يكون للنص معنى فوق المعاني ولا تحيط به المعاني التي نعرفها. ونحن لا نتكلم هنا، بالطبع، عن كل نص يسمى في التصنيفات الببليوجرافية أدبا، بل عن التجربة الأدبية التي لا تتحقق إلا في عدد قليل من النصوص.

فإذا كان هذا هو المعنى الذي تختص به النصوص الأدبية العليا، فهو بالضرورة معنى مطلق، بل هو «المطلق» الذي يستوعب كل المعاني الجزئية. ونحن ـ مرة أخرى ـ بين إحدى اثنتين: إما أن نقول إنه «الشيء في ذاته» وإنه خارج عن حدود معرفتنا، ومن ثم فلا شغل لنا به، وإما أن نقول إنه متحقق ـ بصور ودرجات مختلفة ـ في جزئيات المعاني، ومن ثم يظل هو المجهول.

الرواية الأنثربولوجية

بين الواقع الاثنوجرافي والخيال الإبداعي

د. أحمد أبو زيد

على الرغم مما قد يبدو من تعارض بل وتناقض بين مجالي الكتابات الأنثربولوجية والرواية على أساس أن الأنثربولوجيا في بعض أبعادها على الأقل تنتمي إلى العلوم الدقيقة المضبوطة التي تحكمها محكات ومعايير وقواعد ومناهج وقوانين صارمة ، بينما تعتبر الرواية شكلاً من أشكال الإبداع الفني الذي يدخله كثير من الخيال والعوامل العاطفية والانفعالية الذاتية ، فإن ثمة منطقة مشتركة بين المجالين ، تتمثل في اهتمام كل منهما بإعادة بناء «العالم الإنساني» الذي يدور حوله البحث الأنثربولوجي أو العمل الروائي ، وإن اختلفت أساليب كل منهما في فهم ذلك العالم والتعبير عن ذلك الفهم . ومع أن كلاً من العالم الأنثربولوجي والكاتب الروائي يستمد المادة الأولية التي يصوغ منها عمله وإنتاجه العلمي أو الأدبي من عالم الواقع الذي يعيش فيه ، أو من الأحداث التاريخية التي وقعت في هذا العالم في فترة زمنية سابقة فإن كلاً منهما ينظم بطريقته الخاصة تلك الأحداث والوقائع ، ويحدد لنفسه المساحات الزمانية والمكانية التي يختار منها تلك العناصر الأولية ، سواء أكانت هذه العناصر هم الأشخاص أو الموضوعات أو الأشياء التي يتناولها بالوصف أو التحليل .

يظهر هذا التقارب بشكل واضح في بعض الأعمال الأنثربولوجية الضخمة الرائدة في القرن التاسع عشر، وأهمها على الإطلاق من هذه الناحية كتاب سير جيمس فريزر Sir James Frazer الغصن الذهبي The Golden Bough فالكتاب في جوهره دراسة عميقة عن السحر والدين ويضم قدراً كبيراً من المعلومات الاثنوجرافية التي عكف على جمعها خلال ما يقرب من عشرين سنة واستمدها من عدد كبير جداً من المجتمعات والثقافات في مختلف العصور. ولكن طريقة القص أو الحكي وأسلوب الكتابة الأدبية الرفيع والخيال المبدع الذي يتمتع به فريزر والذي جعله يربط بين مختلف العناصر والموضوعات والقصص والأساطير والعادات والتقاليد جعلت من هذه المدرسة العلمية العميقة الصعبة رواية ضخمة شائقة، تدور رغم تعقد الأحداث وتشعبها حول موضوع رئيسي واحد هو قصة الصراع على السلطة بين الأجيال المتعاقبة، وجمع حول هذا المحور الأساسي مئات القصص والحكايات التي قد تختلف في التفاصيل ولكن يربطها كلها خيط واحد. وأفلح فريزر في صياغة هذا كله في قالب روائي على مستوى عال جداً من دقة الصنعة وإجادة العرض بحيث تحول أبطال هذه القصص الأسطوريون، إلى شخصيات حية تنبض بالحياة وتتفاعل فيما بينها، بكل ما يحمله هذا التفاعل من انفعالات وصراعات ومؤامرات ورغبات سامية أو مشاعر دينية. ويكاد قارئ هذا العمل الأنثربولوجي الضخم ينسى أنه أمام دراسة علمية معقدة وعميقة لولا مئات الهوامش والمراجع والتعليقات التي يحرص فريزر على تسجيلها حتى يتذكر القارئ، أن ما يقرأه هو في الحقيقة عمل إثنوجرافي جاد يدور حول موضوع إنساني أصيل وخطير.

وليس من شك في أن فريزر هو الذي حدد لنفسه «العالم الإنساني» الذي يتحرك فيه ويحاول اكتشافه من جديد من زاوية خاصة هو الذي اختارها وعمل على عرض تلك المعلومات وتحليلها باستخدام «مناهج وطرق هو الذي حددها أيضاً كما أنه هو الذي اختار أسلوب العرض وطريقة الكتابة الأدبية المحكمة. وهذه كلها جوانب ذاتية إبداعية تقوم على مزيج من الجهد الذهني والخيال الخصب الطليق الذي لا تقف دون انطلاقه أية قيود أو عوائق أو حدود سوى تلك التي وضعها هو نفسه لنفسه. وكانت نتيجة هذا كله ذلك الكتاب الضخم الرائع الذي تتآلف فيه آلاف العناصر وتتماسك في وحدة كلية متكاملة كما هو الحال تماماً بالنسبة لحبكة روايات القرن التاسع عشر، وهو العصر الذي ازدهر فيه فن الرواية في الغرب، وبخاصة في بريطانيا (١) التي هي مهد الدراسات الأنثربولوجية، بالمعنى الذي نفهم به كلمة «أنثربولوجيا» هنا والتي تشمل الدراسة العميقة المتكاملة للأنساق والنظم الاجتماعية والثقافية في المجتمع الإنساني بشكل عام، والمجتمعات التقليدية والنامية التي تؤلف العالم الثالث بشكل خاص.

فالقص أو الحكي عنصر هام في العمل الأنثربولوجي والعمل الروائي على السواء، وفيه يتمثل الجانب الإبداعي الذاتي الذي يلعب فيه الخيال دوراً لايستهان به حتى في البحوث الأنثربولوجية على الرغم من كل ما يُقال عن (موضوعية) هذه البحوث وعن (وصفية) الأنثربولوجية كعلم. وهذا أمر يمكن رصده وملاحظته في كثير من الكتابات الأنثربولوجية التي تحتل مكاناً رفيعاً في تاريخ هذا العلم، كما هو الحال مثلاً في كتابات مارجريت ميد Margaret Mead وبالذات كتابها عن البلوغ في جزر ساموا، الذي يصفه الأستاذ إيفانز بريتشارد E.E.Evans - Pritchard بأنه «كتاب أنثوي بمعنى الكلمة، فيه كثير من الجدل والاستطراد اللذين يبلغان حد الثرثرة، كما ينزع إلى تصوير الأشياء في صورة زاهية خلابة، ومن هذه الناحية ينتمي الكتاب إلى ذلك

النوع الخفيف الهين من الكتابات الأنثربولوجية التي كان مالينوفسكي أول من بشر بها»[٢]. بل إن بعض أعمال مالينوفسكي نفسه يظهر فيها فن القص والحكي على درجة عالية من الإتقان كما هو الشأن في كتابه المهم عن سكان جزر التروبرياند[٣] وهو كتاب. يقول عنه إيفانز بريتشارد أيضاً «إن مالينوفسكي يرسم لنا لوحة واقعية نابضة بالحياة لمجتمع التروبرياند تعيد إلى الأذهان روايات إميل زولا»[٤]. بل إن بعض أعمال إيفانز بريتشارد نفسه وكتابات غيره من العلماء الذين اشتهر عنهم الدقة بل والمبالغة في التمسك بالمنهج العلمي الوضعي في كتاباتهم والذين يعتبرون الأنثربولوجيا تخصصاً (علمياً) بالمعنى الدقيق للكلمة يظهر في كتاباتهم ذلك الميل القوي للقص والحكي بحيث يكاد المرء يشعر في بعض الأحيان أنه أمام عمل روائي شائق وجذاب[٥].

يعتمد القص أو الحكي في كل من العمل الأنثربولوجي والرواية على وجود «حبكة Plot» في كل منهما وإن كان ذلك أكثر ظهوراً بطبيعة الحال في العمل الروائي. ولكن بدون هذه «الحبكة» في العمل الأنثربولوجي يهبط ذلك العمل إلى مستوى السرد الإثنوجرافي البسيط الساذج الذي يكاد يخلو من التحليل القائم على الفهم والذي يؤدي أيضاً إلى مزيد من الفهم. فالعمل الأنثربولوجي الحق يشترط أن تكون فيه نقطة محورية أو موضوع رئيسي تدور حوله كل الوقائع والظواهر التي يتناولها الباحث الأنثربولوجي بالدراسة والتحليل بحيث يربط بين كل تلك الوقائع والظواهر والمعلومات ويقدم في ضوئها وبالإشارة إليها صورة متكاملة عن المجتمع الذي يدرسه. وهذه (الحبكة) الأنثربولوجية هي التي يهدف العمل الأنثربولوجي إلى إبرازها، كما أنها هي التي تتحكم في عملية الوصف والتحليل وإن كانت تظهر في الدراسات الأنثربولوجية تحت أسماء مختلفة مثل «التساؤل الرئيسي» أو حتى «الفرض». وبصرف النظر عن اختلاف التسميات فالمهم هو أن ثمة في العمل الروائي والعمل الأنثربولوجي المحكم الدقيق (الموضوعي) نقطة محورية تربط بين أحداث الرواية أو المعلومات الإثنوجرافية التي يقوم الباحث بجمعها من المجتمع موضوع الدراسة ويضمنها بحثه[٦] فالأحداث محكومة إذن بتصور كل من الأنثربولوجي والروائي للعمل الذي يقوم بإنجازه، وذلك إذا استثنينا بعض الاتجاهات الحديثة في الرواية من ناحية والعرض الإثنوجرافي السردي من ناحية أخرى. وهذا هو ما نقصده حين نقول إن كلاً من الرواية والدراسة الأنثربولوجية تحاول تفسير جانب من التجربة الإنسانية أو إعادة تركيب العالم الإنساني وعرضه وتفسيره من وجهة النظر الخاصة بكل منها وضمن الإطار العام الذي يحدده كل منها لنفسه منذ البداية. فالعالم الذي يقيمه الروائي أو الأنثربولوجي عالم متمايز وقائم بذاته بحيث نجد الباحث الأنثربولوجي الميداني مثلاً يقتطع لنفسه في العادة مجتمعاً محلياً محدداً ومحدوداً وواضح المعالم ويركز فيه بحثه، دون أن يسقط من الاعتبار العلاقات المتبادلة بين هذا «العالم الجزئي الخاص» والعالم الخارجي ككل.

ويهتم الباحث الأنثربولوجي بدراسة الواقع المعاش ويسجل الوقائع والظواهر كما يلاحظها بنفسه أو كما يشارك في صنعها، ولكنه في أحيان أخرى كثيرة يدرس الواقع كما سجلته الوثائق أو المصادر في فترات تاريخية سابقة ويقوم في هذه الحالة بدور المؤرخ ولكن مع اتساع النظرة وشمولها بحيث يلم بكل جوانب الحياة الاجتماعية أو الثقافية. ولكن هذا التسجيل للأحداث لا يلبث أن يتحرر من قيود الزمان والمكان المفروضة على تلك الأحداث الجزئية التي يشاهدها ويعاينها بحيث يرتفع البحث إلى مستوى أعلى من التجريد الذي لا يرتبط بشخص معين أو بظرف محدد، وبذلك تكتسب تلك الأحداث أو المعلومات الإثنوجرافية المحسوسة طابعاً عاماً كلياً شاملاً. وهذا هو ما كان يقصده رولان بارت Roland Bartlig في الأغلب حين يقول في كتابه

«الكتابة عند درجة الصفر» إن القص أو الحكي يقلص التجربة الإنسانية ويركزها في نقطة زمانية ترتفع عن الوجود المحسوس الملموس المقيد بالعوامل والقيود المادية[٧]. فهو يرتفع إذن عن الأحداث الجزئية المشخصة العيانية ولكنه لايفصلها تماماً عن المجتمع الإنساني، فمن الصعب جداً أن يدرك المرء مختلف العلاقات والارتباطات إذا لم يرتفع بتفكيره عن مستوى الوقائع العيانية المحسوسة. وهذا يصدق ـ في رأينا ـ على الرواية التي تضفي على الواقع المعين المحسوس غلالة أو قناعاً رقيقاً شفافاً من الخيال لايكاد يخفي ما تحته. فالخيال لايرتبط بالواقع أو يستمد عناصره منه فحسب، وإنما هو يكشف في الوقت ذاته عن ذلك الواقع ولكن بأسلوب فيه قدر من الذاتية قد لاتتوفر بنفس الدرجة في العمل الأنثربولوجي. وإذا كان بول ريكير Paul Ricoeur يقول في معرض حديثه عن الرواية والتاريخ إنه إذا كان التاريخ يوصلنا إلى معرفة الممكن ويفتح أمامنا أبواب هذه المعرفة ومجالاتها، فإن الرواية الخيالية حين تعرض علينا ما هو غير واقعي أو غير حقيقي تكشف لنا في الوقت ذاته عما هو جوهري من ذلك الواقع أو تلك الحقيقة[٨]، فإن هذا القول يصدق تماماً على العلاقة بين الأنثربولوجيا والرواية.

وعلى أي حال، فالذي يهمنا هنا هو أن نقرر أن القص أو الحكي هو عنصر أساسي في كل من العمل الروائي والعمل الأنثربولوجي الأكاديمي وأن كلاً منهما هو قصة في آخر الأمر وإن كانا يمثلان شكلين متميزين من القص أو الحكي، على أساس أن لكل منهما طريقته الخاصة في تصوير الواقع وفي اختيار وترتيب العناصر التي تساعد على إبراز هذا التصور، وهذا هو القدر الذاتي في الأنثربولوجيا على وجه الخصوص.

ويحاول إيفانز بريتشارد أن يبين ذلك القدر، أو الجانب الذاتي (الإبداعي) في الدراسة الأنثربولوجية الميدانية فيقول (وأنا أنقل هذا النص الطويل لأهميته).

«يتعين على الأنثربولوجي الذي يريد أن يفهم المجتمع البدائي أن يتمثل ذلك المجتمع في نفسه هو ولايكتفي بتسجيل ظاهراته ووقائعه في مذكراته، ولو أن من الصعب أن يستطيع الإنسان أن يفكر ويحس مثلما يفعل الرجل البدائي أو الرجل الأوربي بحسب الظروف، إن أمكنه أن يكتسب تلك القدرة على الإطلاق.

ولكي ينجح الباحث في ذلك لابد أن يكون قادراً على أن ينسى نفسه ويتخلى عن مقومات شخصيته بغير تحفظ، كما يكون متمتعاً بقدرة فائقة على الحدس. . . . . وحين يصل الأمر إلى محاولة معرفة ما إذا كان مثل هذا الباحث يستطيع الوصول بدراسته إلى مستوى من الفهم والإدراك أعمق من مجرد الوصف، فإن أشياء أخرى تدخل في الاعتبار غير مجرد الكفاية العقلية والتدريب الفني اللذين لايمكنهما وحدهما خلق العالم الأنثربولوجي الكفء، كما لايمكنهما وحدهما أيضاً خلق المؤرخ الماهر. فالنتائج التي يصل إليها الباحث من دراسة أحد الشعوب البدائية لاتتوقف فقط على انطباعاته الفعلية عن الحياة البدائية، بل تتوقف كذلك على تأثير هذه الحياة في شخصيته كلها، أي في الملاحظ من حيث هو إنسان كامل. . ولكن لكي يحقق ذلك النجاح يجب أن يشعر أولاً بالاهتمام والانعطاف نحو موضوع دراسته. . . .»[٩].

وقد يعترض بعض الوصفيين على هذه النظرة، ولكن الأستاذ إيفانز بريتشارد يعطي «للمزاج الملائم» أهمية كبرى في نجاح الدراسة الأنثربولوجية باعتبارها إحدى الإنسانيات. «فالأنثربولوجي لاينقل ما يلاحظه نقلاً حرفياً أميناً، وإنما يحاول أن يبين معنى الظاهرات التي يلاحظها، وأن يبرز هذا المعنى بوضوح في ضوء تجاربه

الأخرى. وهذا يقتضي منه القدرة على إدراك وتمييز الصيغ والنماذج، بل وأن يكون على خط معين من النبوغ» (صفحة ١٢٥).

ثم يقول بعد ذلك:

«إن كل الأنثربولوجيين يتفقون على أن جانباً كبيراً من الدراسة الحقلية الأنثربولوجية يتوقف على نفس الشخص الذي يقوم بها. ولكن هذا يثير السؤال - بحق - عمّا إذا كان اختلاف شخص الباحث يترتب عليه أي اختلاف في نتائج البحث. وهذا سؤال صعب للغاية، ولكنني أعتقد أن الجواب الصحيح الذي تؤيده كل الدلائل والشواهد هو أنه لن يكون هناك اختلاف جوهري في الحقائق الواقعية التي يقوم الباحثون المختلفون بتسجيلها، وإن كان هذا لايمنع بالطبع من وجود بعض الاختلافات الفردية في مستوى الإدراك الحسي» (صفحتا ١٢٥_١٢٦).

ثم يقول مستدركاً:

«ولكن إذا كانت الحقائق التي يقوم العلماء المختلفون بملاحظتها وتسجيلها عن مجتمع معين بالذات تأتي على درجة عالية من التشابه والاتفاق. فالأغلب أن تأتي كتاباتهم عن هذا المجتمع المعين على درجة كبيرة أيضا من الاختلاف. إذ رغم خضوعهم جميعاً للقيود التي تفرضها قواعد العلم ذاته وإمكانيات الثقافة التي يدرسونها، فإن تعيين البحث أو الموضوع وانتقاء الوقائع واختيار الأمثلة التوضيحية وترتيبها والحكم على بعض المسائل بأنها تتصل - أو لاتتصل - بالبحث أو الموضوع تتأثر كلها بعوامل ذاتية تختلف من باحث لآخر تبعاً لاختلاف شخصياتهم وتفاوت تعليمهم وتباين مراكزهم الاجتماعي وآرائهم السياسية ومعتقداتهم الدينية. وغير ذلك.

ولايستطيع المرء تأويل الأشياء التي يراها إلا في حدود تجربته الخاصة وتكوينه الشخصي. . . . فشخصية الأنثربولوجي تؤثر بالضرورة في عمله كما تؤثر شخصية المؤرخ في عمله سواء بسواء. فالدراسة الأنثربولوجية الاجتماعية ليست مجرد وصف دقيق أمين للحياة الاجتماعية في مجتمع معين، وإنما هي في نفس الوقت انعكاس لشخصية صاحبها نفسه» (صفحة ١٢٦_١٢٧).

وواضح من هذا النص الطويل الذي نقلناه بأكمله عمداً أن نتائج الدراسة الأنثربولوجية (الموضوعية) تتوقف إلى حد كبير على بعض العناصر والعوامل الذاتية التي يشير إليها إفانز بريتشارد. فإذا أضفنا ذلك كله إلى ماسبق أن ذكرناه من أن الكتابة الأنثربولوجية هي شكل من أشكال القص أو الحكي وأنه لابد من وجود مايقابل الحبكة الروائية بها، أمكن تقريب ماأتصوره عن الأرض المشتركة بين العمل الروائي والعمل الأنثربولوجي بوجه عام، وأن هذه الأرض المشتركة أوسع في الحقيقة مما يظنه الكثيرون، وإن الباحث الأنثربولوجي هو قاص تماماً مثل الكاتب الروائي وإن اختلفت نقطة الانطلاق والمناهج والأساليب وطريقة العرض.

(١)

ربما كان وجود هذه الأرض المشتركة بين العمل الروائي والكتابة الأنثربولوجية هو أحد العوامل التي شجعت عدداً من الأنثربولوجيين على ارتياد مجال الرواية والتأليف القصصي وبالتالي ظهور ما نسميه هنا بالرواية الأنثربولوجية، التي احتل بعضها مكانة طيبة - بل ومرموقة في أحيان قليلة - في فن القص الروائي في التأليف الأدبي بشكل عام.

وهذه الروايات الأنثربولوجية هي دراسات أنثربولوجية في المحل الأول، صدرت في الأغلب عن باحثين أو أساتذة ومتخصصين في الأنثربولوجيا، ولكنهم يملكون إلى جانب الإعداد العلمي الحس الأدبي والفني والقدرة على التخيل الإبداعي اللازم للإنتاج الروائي الراقي، وتسخير هذه القدرات والمواهب لتشكيل معلوماتهم الإثنوجرافية وصياغتها في قالب روائي شائق بحيث تجري الأحداث والوقائع في المجتمعات التي يدرسونها، وهي في الأغلب مجتمعات قبلية (بدائية) ـ أو كما تقول مؤلفة إحدى هذه الروايات ـ شعوب (متوحشة Savage)، وإن كان علماء الأنثربولوجيا يرفضون الآن استخدام مثل هذه الألفاظ والمصطلحات التي كانت شائعة في القرن الماضي وحتى الثلث الأول من هذا القرن بحيث استخدمها مالينوفسكي نفسه في عناوين بعض كتبه [١٠]. وإذا نحن أغفلنا أسماء شخوص هذه الروايات وتغاضينا عن أسلوب الحكي وعن القصة ذاتها والجانب الخيالي فيها، فإن هذه الروايات كلها تصلح لأن تكون مراجع أنثربولوجية على درجة عالية جداً من الدقة عن المجتمعات والثقافات التي دارت فيها أحداث هذه الروايات، وإن تفاوتت قدرات هؤلاء المؤلفين الأنثربولوجيين الروائيين بطبيعة الحال في مزج الجانبين معاً، أعني جانب الوقائع الأثنوجرافية المشخصة العيانية التي يقوم الباحث الأنثربولوجي بجمعها من المجتمع (أو من الوثائق والمصادر التاريخية) وجانب الحكاية المتخيلة التي تصاغ حول هذه المعلومات الأثنوجرافية، وبقول آخر فإن الوقائع والظاهرات، التي تقوم عليها الرواية الأنثربولوجية هي مادة أثنوجرافية صحيحة ودقيقة ويمكن الاستشهاد بها في الأعمال العلمية الأكاديمية، وإن كانت الأحداث وتتابعها والشخصيات التي توصف خلالهم هذه المعلومات الأثنوجرافية أحداث وشخصيات متخيلة وإن كانت عناصرها الأولية مستمدة هي أيضاً من الواقع الأثنوجرافي، أو أنه تم تركيبها من معلومات واقعية وحقيقية. وهنا هو ـ كما ذكرنا من قبل ـ القدر من الخيال الإبداعي في تلك الروايات الأنثربولوجية.

وحضور الباحث نفسه طيلة الوقت في هذه الروايات الأنثربولوجية ـ أو معظمها ـ أمر ملموس وله أهميته ومغزاه. فالباحث المؤلف هو الذي يرى ويلاحظ ويجمع المعلومات ويسجلها كما أنه هو الذي تدور حوله معظم الأحداث أو يشارك فيها بشكل أو بآخر وهو الذي يتولى قصها وحكايتها حسب مخطط تصوري ذهني معين وقلما يتوارى وراء الأحداث. ولذا فإن هذا الباحث الكاتب الأنثربولوجي الروائي يقوم في معظم الأحيان بدور بطل الرواية أو على الأقل أحد شخصياتها الرئيسية. وقد انتبه رولان بارت إلى هذه الحقيقة ويذهب في ذلك إلى أن الرواية التي يقوم فيها المتكلم بدور أساسي أي تكتب بصيغة المتكلم ليست مجرد تجربة أدبية، وإنما هي فعل إنساني عميق ويربط عملية الخلق والإبداع بالتاريخ أو بالوجود[١١].

ورواية مثل «العودة إلى الضحك Return to Laughter» التي كتبتها أستاذة الأنثربولوجيا في إحدى جامعات أمريكا وهي الدكتورة لورا بوهانان Laura Bohannan وأصدرتها أول الأمر تحت اسم مستعار هو إلينور سميث باون Elenore Smith Bowen دارسة أنثربولوجية جيدة لنظام ممارسات السحر والشعوذة والمعتقدات التي تدور حولها، وموقف الإنسان (المتوحش) منها وخوفه من السحر ومن العين الشريرة، في ضوء البناء الاجتماعي والثقافي الكلي السائد في ذلك المجتمع القبلي الذي درسته والذي لاتشير إليه صراحة، وإن كان المتخصصون يعرفون أنه مجتمع التيف Tiv في نيجيريا في الخمسينيات. وربما كان إغفال اسم القبيلة عن عمد يوضح لنا ما نعنيه حين قلنا إن الكتابة الأنثربولوجية الروائية تتم (رغم إشاراتها إلى شخصيات

وأحداث بعينها) على مستوى من التجريد يلخص التجربة الإنسانية حول (ذلك الموضوع المعين بالذات. فثمة أوجه شبه كبيرة بين عقائد وممارسات النيف حول السحر والشعوذة والعين الشريرة وبين كثير مما ورد في كتاب الغصن الذهبي بل وأيضا موقف ونظرة قبائل الأزاندي مثلاً في الجنوب الغربي من السودان كما يظهر من دراسة إيفانز بريتشارد لهذا الموضوع في كتابه القيم «الشعوذة والمتنبئون والسحر عند الأزاندي» Witchcraft, Oracles and Magic among the Azande.

وقد تتخذ بعض الروايات الأنثربولوجية شكل اليوميات أو المذكرات أو على الأصح سرد الذكريات مادامت عناصرها الأولية تعتمد على المادة التي تم جمعها أثناء البحث الميداني القائم على المعيشة في المجتمع ومعايشة الأهالي ومشاركتهم في مختلف أوجه النشاط اليومي. وقد يفتقر بعض كتاب هذه «الروايات» إلى فن الصنعة في التأليف الروائي المتماسك المتسق، ولذا تأتي «رواياتهم» أقرب إلى اللوحات الفنية المتفرقة وإن كان يجمعها كلها مع ذلك إطار واحد من وحدة المكان والزمان. وقلما تدور هذه الروايات حول موضوع أو محور خيالي أو متخيل تماماً، وإنما هي ترتبط بالواقع ارتباطاً شديداً، سواء أكان هذا الواقع هو الواقع المعاصر أو المعاش أو الواقع التاريخي كما تسجله الوثائق والمراجع والمصادر التاريخية. ولذا نجد بعض الروايات ذات العمق التاريخي والتي تهتم بسرد أحداث ماضية تحيل القارئ إلى بعض الوثائق أو حتى المخطوطات القديمة أو تستشهد بآراء بعض العلماء والمؤرخين الذين كتبوا عن الوقائع والأحداث التي تتناولها هذه الروايات. ويتمثل الجانب الإبداعي في هذه الحالة في القدرة على تصنيف المعلومات وتبويبها وترتيبها حسب نسق ذهني متصور قد يختلف كثيراً أو قليلاً عن التسلسل الحقيقي لتلك الأحداث كما وقعت بالفعل وإعطائها أبعاداً غير تلك التي كانت عليها في الحقيقة والواقع. بل قد يذهب بعض الأنثربولوجيين الروائيين في مثل هذه الحالات إلى أبعد من ذلك بكثير فيضيفون إلى رواياتهم صفحات مطولة من المذكرات والتعليقات والتوضيحات والهوامش والتذييلات كما هو الشأن مثلاً في رواية الأنثربولوجي الروائي الهندي أميتاب غوش Amitav Ghosh عن «في بلاد عتيقة In an Antigue Land» حيث اضطر ـ كما سنرى فيما بعد ـ إلى الرجوع إلى المحفوظات والمخطوطات اليهودية التي تعرف باسم (الجنيزة) والتي يوجد معظمها الآن في جامعة كيمبردج. ولم ينس الكاتب أنه باحث أنثربولوجي، ولذا فإنه ينظر إلى الرواية، ليس على أنها عمل من أعمال الخيال الصرف ولكن على أنها تعبير عن علاقة حقيقية وصادقة بين أشخاص الرواية من ناحية وبينه وبين هؤلاء الأشخاص أو تلك الشخصيات من الناحية الأخرى، وأنه حتى في المواقف التي تتراجع فيها عناصر الحقيقة والواقع فإنه يتعين عليه أن يلبس الأمور الخيالية أو المتخيلة ثوب الحقيقة بحيث تبدو الأمور كما لو كانت واقعية أو استمدها من الواقع بحذافيرها.

وعلى أي حال فإن الأعمال الروائية لهؤلاء الكتاب الأنثربولوجيين الروائيين التي سوف نعرض لبعض منها هنا تكشف عن أنهم يجمعون بين الإعداد العلمي والأكاديمي بكل ما يفرضه ذلك الإعداد من قيود وقواعد ومبادىء منهجية صارمة، وبين القدرة والموهبة على تصور أحداث يستمدون عناصرها الأولية من الواقع دون أن توجد هي ذاتها برمتها في ذلك الواقع وإن يكن ثمة احتمال لوجودها. فهي بذلك أشباه حقائق Pseudo - Racts لو استعرنا التعبير الذي يستخدمه أيفور إيفانز لذلك (صفحة ١٣٨). كذلك تتمثل قدراتهم الإبداعية في تنظيم المادة الأثنوجرافية وعرضها في شكل قصصي جذاب ومحكم، ومع الاهتمام في الوقت ذاته

بالتفاصيل وحسن الأسلوب ورشاقة العبارة وصياغة الحقائق الواقعية المحسوسة الملموسة في قالب فني جميل، وإن كان بعض هؤلاء الكتاب يقع في خطأ محاولة الوعظ والنصح والإرشاد والدعوة من طرف خفي ـ ولكنه مفضوح على أية حال ـ إلى محاسن الأخلاق والقيم الدينية والأخلاقية السامية التي ينبغي للمجتمعات والشعوب التي يدرسونها والتي تدور حولها رواياتهم أن يعتنقوها لأنها قيم المجتمع الغربي الذي ينتمي إليه هؤلاء الكتاب.

(٢)

فكرة «العودة إلى الضحك» هي السخرية من كل شيء نظراً لما بين مواقف الحياة المختلفة من تعارض وتباين وتناقض، سواء فيما يتعلق بتقابل الثقافات وتعارضها، أو تقابل الشخصيات وتصارعها، أو صعوبة التفاهم حين تنعدم أداة التواصل الرئيسية وهي اللغة وحين تختلف المفاهيم التي تكمن وراء اللغة ووراء الثقافة ككل وما ينشأ عن ذلك من توتر أو تنازع الناس من أجل إثبات الوجود والاحتفاظ بالكيان والمكانة والهيبة الزائفة، أو تعارض الناس واستعلائهم بعضهم على بعض بسبب اختلاف الألوان وتمايز الأعراق والأصول وتفاوت درجات التعليم وتباين الانتماءات إلى الحضارات والمدنيات. وما ينشأ عن كل هذه الاختلافات من مواقف متناقضة ومن مفارقات كثيراً ما تثير السخرية وتدفع الأطراف المتصارعة وهي في قمة التوتر إلى إدراك ما في مواقفهم وأوضاعهم من عبث يدعو إلى الضحك. وعلى الرغم من كل ما تمر به المجتمعات الإفريقية (المتوحشة) من ظروف مؤلمة ومن فقر وبؤس وأمراض وأوبئة، فإن الضحك هو الطابع الغالب على حياة الناس، وهو ضحك يثور وينطلق من كل شيء ومن لاشيء، ثم هو ضحك صاخب فيه سذاجة وفجاجة وكثيراً ما يكون فيه قسوة بالغة ـ على الأقل في نظر الإنسان الغربي الغريب عن هذه المجتمعات والثقافات. فليس من الضروري ألا يكون الضحك صادراً عن الشعور بالسعادة أو الراحة أو الأمن والاطمئنان، وإنما هو ضحك هستيري أبله في كثير من الأحيان ولذا ينتشر وينتقل كالعدوى من شخص لآخر مثلما ينتقل وباء الجدري الذي يلعب دوراً هاماً في هذه الرواية.

وربما كانت «العودة إلى الضحك» هي الرواية الوحيدة التي ينص عنوانها على أنها «رواية أنثربولوجية An Anthropological Novel»، كما أنها في الأغلب هي الرواية الوحيدة التي تصدر إحدى طبعاتها عن مؤسسة علمية محترمة لها مكانتها بالنسبة لعلوم الإنسان وهي «المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي the American Museum of natural History» إذ يشرف على إصدارها ضمن مجموعته المعروفة باسم «مكتبة التاريخ الطبيعي the Natural History Library»، كما يكتب لها مقدمة أحد كبار علماء العلوم الاجتماعية وهو الأستاذ ديفيد ريسمان David Riesman الذي كان يشغل كرسي هنري فورد للعلم الاجتماعي بجامعة هارفارد ومؤلف واحد من أهم وأشهر كتب علم الاجتماع وهو كتاب the Lonely Crowd.

وقد ظهرت الرواية عام ١٩٥٣ حين كانت لورا بوهانان تدرس مع زوجها بول بوهانان الأنثربولوجيا في جامعة أكسفورد، وأتيح لي معرفتها عن كثب أثناء دراستي هناك وتعتبر «العودة إلى الضحك» من أكثر الروايات الأنثربولوجية نضوجاً وانتشاراً حتى بين الأنثربولوجيين المتخصصين نظراً لذلك القدر الهائل من المعلومات الإثنوجرافية عن المجتمع وعن الناس والأحداث والظواهر الاجتماعية والثقافية المحلية، وذلك

فضلاً عن وجود حبكة روائية أو موضوع محوري يعتبر من أهم موضوعات الأنثربولوجيا، وهو الخوف الشديد من السحر والعين الشريرة اللذين يسيطران على حياة الناس هناك، بعكس المجتمع الغربي الحديث، ثم للإتقان البالغ في القص والحكي والأسلوب الأدبي الرفيع الجذاب. وربما كان لصلة لورا بوهانان وزوجها بالكاتب الأمريكي الزنجي الشهير ريتشارد رايت Richard Wright صاحب اثنين من أهم الروايات عن زنوج أمريكا وهما رواية ابن البلد Native Son ورواية الفتى الأسود the Black Boy دخل كبير في صقل مواهبها الفنية الأصيلة وشحذ قدراتها على الكتابة الأدبية وعلى التحليق في الخيال الأدبي وإتقان الصنعة إلى حد غير مألوف في معظم الروايات الأنثربولوجية.

ولقد عاشت لورا بوهانان بين التيف جانباً كبيراً من الفترة بين عامي ١٩٤٩، ١٩٥٣ كما تجري بحوثها الميدانية المركزة، تبعاً للتقاليد الأنثربولوجية الرصينة التي تتمسك بها المدرسة البريطانية في الأنثربولوجيا. ووراء هذه الإقامة الطويلة للعمل الميداني ــ والتي لاتقل عن سنة بأي حال ـ حكمة بالغة بغير شك، وهي إتاحة الفرصة أمام الباحث الأنثربولوجي الغريب للتعمق في فهم المجتمع والثقافة موضوع الدراسة، وذلك عن طريق الاتصال المباشر والملاحظة والمعايشة والمشاركة في مختلف أوجه النشاط اليومي، وتوطيد العلاقات الحميمة بينه وبين أعضاء المجتمع المحلي بحيث يتقبلون إقامته بينهم كعضو في مجتمعهم. والإحاطة الشاملة العميقة بأحوال وظروف المجتمع ونظمه وثقافته وعاداته وأساطيره وأوهامه وتخيلاته وآماله ونظرته إلى ذاته وإلى الآخرين هي التي تساعد الباحث الأنثربولوجي على إنجاز دراسته التفصيلية التي تعطي صورة متكاملة عن ذلك المجتمع، كما أنها هي التي تتيح له الفرصة إذا كانت لديه الموهبة الأدبية والفنية الخلاقة وكانت تتوفر لديه في الوقت ذاته الرغبة والإرادة لاستغلال هذه الموهبة في صياغة عمل أدبي فني من هذه المعلومات أو بعضها يقدم لنا فيه صورة جديدة لذلك المجتمع أو بعض أحداثه وشخوصه تجمع بين الحقيقة والخيال. ومن هنا يمكن اعتبار الرواية الأنثربولوجية ـ بهذا المعنى ـ امتداداً بل واستمراراً واتصالاً للكتابة الأنثربولوجية العملية الدقيقة، أو هي صورة أخرى من الكتابة الأنثربولوجية بعد تغليف الظواهر والحقائق الاجتماعية والثقافية بغلاف رقيق من الخيال لايخفي حقيقة تلك الوقائع وبذلك تكون الرواية الأنثربولوجية ـ من زاوية معينة ـ وسيلة للتعريف بذلك المجتمع أو تلك الثقافة.

وفي المقدمة التي كتبها ديفيد ريسمان للرواية يقول إن عدداً كبيراً من العلماء الاجتماعيين هم في الحقيقة كتاب روايات دون أن يدروا، كما أن عدداً كبيرا من الروائيين يلتصقون التصاقاً وثيقاً بالوثائق والمستندات بحيث يكادون يصبحون ـ هم وقراؤهم ــ عبيداً لتلك الوثائق والمستندات، ويحرص هؤلاء الروائيون على أن يملأوا رواياتهم بكثير جداً من التفاصيل المتداخلة المتشابكلة مثلما يفعل العلماء الأكاديميون تماماً، ويعترف بأن «العودة إلى الضحك» كتاب يأخذ شكل الرواية وأن شخصياتها ــ كما تقول الكاتبة نفسها ـ تم تركيبها بمعرفتها هي، أي أنها لاتوجد في واقع الحياة على تلك الصورة التي تبرز بها في الرواية، كما أن أحداثها ووقائعها أمكن أيضا تصورها من خلال المخيلة التي اعتمدت رغم ذلك على المذكرات واليوميات الخاصة بالدراسة الميدانية ـ (١٢). كذلك يلاحظ ــ ريسمان أن هذا الكتاب ـ من حيث هو رواية ـ يشير بشيء من الرقة والرفق إلى أسلوب الحكم غير المباشر الذي كان يعتمد عليه الإنجليز في إدارة مستعمراتهم، ولهذا فإنه يعتبرها من الروايات الاستعمارية، وأنه إذا كانت لورا بوهانان ركزت على نيجيريا وغرب إفريقيا بدرجة أقل من

تركيزها على ذاتها وعلى مشاعرها ووجداناتها وآرائها الخاصة ونظرتها الذاتية إلى المجتمع الذي درسته فإن هذا الموقف هو الذي يمثل الجانب الإبداعي الحقيقي في هذا العمل الأنثربولوجي الروائي خاصة وأنه نابع من التجربة الذاتية القاسية التي مرت بها في أول عهدها بذلك المجتمع، وهي تجربة يمر بها على أية حال كل الباحثين الأنثربولوجيين حين ينزلون إلى مجتمع غريب للإقامة فيه ودراسته عن قرب. وسوف نرى كيف أن أميتاب غوش مر بتجربة مماثلة إلى حد كبير حين جاء إلى مصر ليدرس بعض المجتمعات القروية المحلية ويتابع تاريخ بعض اليهود الذين عاشوا في مصر في القرن الثاني عشر وتركوا وراءهم بعض رسائلهم التي تم العثور عليها ضمن مخطوطات وثائق الجنيزة.

والواقع أن كثيراً من مواقف «العودة إلى الضحك» تفضح نوايا وأفكار ومشاعر الكاتبة إزاء المجتمع الذي تدور فيه أحداث الرواية، وهي مشاعر لاتخلو من الإحساس بالاستعلاء وازدراء الأفارقة الذين عاشت بينهم والذين تفترض أصول البحث الأنثربولوجي التعاطف معهم وإقامة تلك العلاقة الحميمة Rapport التي يعطيها المنهج الأنثربولوجي أهمية قصوى لنجاح الدراسة والتغلغل إلى أعماق المجتمع والثقافة.

يظهر هذا الشعور بالاستعلاء في أكثر من موقف . . . فالذين يعرفون المجتمع القبلي في إفريقيا يدركون تماماً أنه بمجرد أن تتقبل إحدى الجماعات القبلية الشخص الغريب بينهم بعد أن تزول الشكوك والتحفظات الأولى إزاءه يسقطون كل الحواجز الاجتماعية وكل مظاهر الكلفة في المعاملات اليومية معه باعتباره أصبح عضواً في تلك الجماعة، وكثيراً ما يكون ذلك على حساب «الخصوصية» والفردية والحرية الشخصية التي يحرص الإنسان الغربي عليها أشد الحرص. فليس لدى معظم هذه الجماعات القبلية ما يمكن اعتباره حياة شخصية أو شئوناً خاصة بالمعنى الدقيق للكلمة؟ كما أن فكرة الانعزال عن الجماعة والرغبة في الانطواء بالنفس أو الانفراد بالذات أمور غير واردة أصلاً. وقد عانت لورا بوهانان ـ كما عانى غيرها من الأنثربولوجيين الآخرين ـ من ذلك أشد المعاناة، وإن اختلفت استجاباتهم باختلاف شخصياتهم. ولكنها هي لم تستطع أبداً أن تتقبل هذه الحقائق على أنها جزء من ثقافة المجتمع الذي تدرسه وتحاول فهمه. وربما كان من أهم مظاهر ـ وفي الوقت ذاته دلائل ومؤشرات ـ انعدام فكرة الخصوصية لديهم هو عدم وجود أبواب للأكواخ يمكن إغلاقها بإحكام بحيث ينعزل من في داخل الكوخ تماماً عمن في الخارج، وإنما كل ما يغطي مدخل الكوخ هو ساتر رقيع خفيف يمكن إزاحته بسهولة. وقد يكون ذلك رمزاً أيضاً على قوة العلاقات الاجتماعية أو الحياة الجمعية على حساب الحرية الفردية. وقبول هذا الوضع يعني في آخر الأمر تنازل الباحث الأنثربولوجي ـ ولو مؤقتاً ـ عن جانب من قيمه الأصلية وأنماط السلوك التي اعتاد عليها في مجتمعه الأصلي وأساليب التفكير التي نشأ عليها وإن كان يشير في الوقت ذاته إلى توحده مع المجتمع القبلي، أو على الأقل اندماجه فيه.

ويبدو أن لورا بوهانان، على الأقل كما يظهر من الرواية ـ لم تفلح في تحقيق ذلك الاندماج على الرغم من أنه من المطالب الأساسية للعمل الأنثربولوجي الميداني. ويكفي أن نشير هنا إلى حادثة واحدة ذكرتها في الرواية، وتدور حول سلوك أهل القرية إزاء شخص أعمى وردود الفعل التي كانت تصدر منه إزاء ذلك السلوك فقد شاهدت ذات مرة عدداً كبيراً من الأهالي يلتفون حول ذلك الرجل الفقير الضرير وهم يتجاذبونه في كل الاتجاهات ويضحكون من حركاته ويثيرون في نفسه الرعب والفزع بأن يحذروه مثلاً بأن تحت قدميه أفعى فيقفز إلى أعلى في رعب وعدم اتزان وخوف وهلع. كانت تثير في نفسها الأسى والإشفاق بينما تثير في

نفوسهم البهجة والسرور والضحك، ووجدت نفسها تثور وتغضب لضحك الأهالي من ذلك البؤس البشري والتعاسة الآدمية وأخذت تقارن بين قسوة هؤلاء (المتوحشين) وبين الشفقة والرأفة. والحنو التي يأخذ الغربيون بها أنفسهم إزاء (الحيوان).

إلا أن لورا بوهانان كانت تدرك مع ذلك طبيعة الدور الذي يقوم به الأنثربولوجي، إلا الذي ينبغي أن يقوم به في الدراسة الأنثربولوجية العلمية ـ وليس الرواية، وتناولت ذلك في الفصل الرابع عشر من الرواية حيث تتكلم عن التمزق النفسي الذي يعانيه الباحث الأنثربولوجي في بعض المواقف حين يصعب عليه الملاءمة والتوفيق بين متطلبات النظرة الموضوعية وبين عواطفه ووجداناته الخاصة، وعرضت لبعض المواقف التي لعب الخيال الإبداعي والأسلوب الرشيق دورا كبيراً فيها، كما هو الحال مثلا في وصفها لمشهد احتضار إحدى صديقاتها من الأهالي واسمها (أمارا) وكانت حاملاً وعلى وشك الوضع حين جاءها الموت، وتقول في ذلك:

«لقد وقفت عند رأس أمارا، وحاولت هي أن تبتسم لي ولكنها كانت أضعف من أن تفعل ذلك بسبب شدة المرض. وكنت على ثقة من أن هؤلاء النسوة لن يستطعن مساعدتها وأنها سوف تموت ولابد. لقد كانت صديقتي. ومع ذلك فإن كل ما سجلته عنها في مذكراتي لم يتعد بعض ملاحظات لا شخصية ومحايدة كتبتها بسرعة في كراستي، وبذلك ظلت محفوظة في أرشيف الأنثربولوجي، وتقول هذه الكلمات: الموت أثناء الوضع/ السبب: الشعوذة/ حالة أمارا (صفحة ١٨٤).

وتلخص لورا بوهانان حالة التمزق هذه التي يعاني منها الأنثربولوجي حين يدرس مجتمعا له ثقافة مغايرة تماما لثقافة مجتمعه هو فتقول:

«لقد جئت من عالم غير هذا العالم لكي أعيش فيه، وهما عالمان مختلفان كل الاختلاف وبكل المقاييس بحيث يستحيل اللقاء والتفاهم في كثير من الأحيان. وقد ترتب على ذلك، وكذلك بسبب عملي ومهنتي، أنه كان يتحتم عليّ أحياناً أن أتظاهر بقبول ما يحدث بينما الحقيقة غير ذلك. إذ لن يستطيع الباحث أن يقوم بدراسته الميدانية إذا هو صارح الشخص الذي يعتقد نفسه ساحراً أن من المستحيل أن يحول المرء نفسه إلى حيوان. . . . فأي تشكك في أن مثل هذه المعتقدات هي موضع سخرية (من الباحث) سوف تدفع ذلك الشخص إلى الصمت، تماما وإلى الأبد» (صفحة ٢٣١).

«العودة إلى الضحك» في ظاهرها تسجيل لرحلة باحثة أنثربولوجية أمريكية ناشئة وتجربتها الأولى وانطباعاتها المبدئية عن المجتمع الذي تدرسه، وفي هذه الرواية أو هذا (التسجيل) تمزج ذكرياتها وملاحظاتها بما تعلمته على أيدي أساتذتها في أكسفورد عن قواعد المنهج الأنثربولوجي وأصول البحث الميداني، وتخلط هذا بإحساساتها وانفعالاتها وآرائها الخاصة ثم تترجم ذلك إلى مجموعة من الأحداث التي تقع لعدد من أعضاء ذلك المجتمع وتعبر عن ذلك في عبارات رشيقة وأسلوب شائق على مراعاة أن تكون هذه الأحداث والشخصيات مستمدة ـ على ما تقول ـ من الخبرة الواقعية وأن يربطها كلها خيط واحد أو على الأصح موضوع واحد من أهم موضوعات الأنثربولوجيا وهو السحر والشعوذة والخوف من العين الشريرة، وكيف يؤثر هذا الثلاثي في حياة الناس بحيث يتخذون منها أساساً لتفسير كل ما يلحق بهم من أذى وضرر، وهذا كله من وجهة نظر الباحثة الأمريكية، أي من وجهة نظر ثقافة أخرى مختلفة تقوم

على أسس ومبادىء عقلية مغايرة تماماً لتلك التي تسود في ذلك المجتمع الإفريقي الذي يوصف بأنه مجتمع متوحش. ولابد إزاء هذا كله أن يتوقع القارىء أن يسيطر على أحداث الرواية جو من التشاؤم والغموض ورائحة الموت والمرض والأوبئة، ولكن أثناء ذلك تقوم بعض المفارقات الغريبة التي تدعو إلى الضحك الهستيري الخالي من المعنى في كثير من الأحيان.

من خلال هذا المناخ الغامض الغريب تحاول الكاتبة أن تعبر عن نظرتها الخاصة إلى الفوارق بين الحضارة الغربية والأمريكية من ناحية، وهي الحضارة التي تقوم على التفكير العقلاني العلمي الوضعي، وبين الثقافة الإفريقية التقليدية التي يغلب عليها التفكير الغيبي بكل ما يتعلق به من أوهام وخرافات.. فحين تمرض أمارا أو تواجه الموت مثلاً تحاول الباحثة نقلها إلى المستشفى في المدينة بينما يرفض الجميع ذلك، ويرون أن مرضها ناجم عن السحر والعين الشريرة ويرسلون في طلب ساحر يفك الطلاسم ويقدم العلاج. وحين تموت أمارا يردون ذلك إلى أن سحر العين الشريرة كان أقوى من سحر الساحر المطبب المعالج... وحين ينتشر وباء الجدري أو (الماء) كما يسمونه، يفرون أمامه من مكان لآخر خشية أن تصيبهم اللعنة التي جاءت من العين الشريرة، ويعتقدون أن عدم خوف الباحثة الأمريكية من المرض لايرجع إلى أنها سبق تحصينها بالتطعيم ضد المرض منذ صغرها، ولكن لأنها ساحرة، ذات قوة فعالة ونافذة... وحين تهاجم أسراب البوم القرية يرون في ذلك نذر الشر والموت والخراب بينما ترى الباحثة أن البوم هي مجرد طيور كغيرها من الطيور وأنه يمكن إخافتها وطردها بعيداً عن القرية، وحين تفلح بالفعل في ذلك باللجوء إلى حيلة بسيطة وسهلة بل وساذجة كانت تلجأ إليها وهي طفلة لطرد الطيور بإصدار بعض الأصوات العالية من قطع من المعدن (الصفيح) التي تعلق بفروع الأشجار، كان الناس يردون ذلك إلى قوة وفاعلية تأثير سحرها ويرفعونها بذلك إلى مصاف كبار السحرة والمشعوذين، وهكذا.

وسط هذا الجو المشحون بالتشاؤم والسواد ورائحة الموت ومظاهر البؤس والفاقة تقوم أحداث ومواقف وملاقات تبعث الضحك العالي الصاخب الذي لايخلو في بعض الأحيان من قسوة... ففي ليلة مطيرة عاصفة - مثلا - هاجت الأبقار في القرية وخرجت من حظائرها المكشوفة واقتحم بعضها أكواخ الأهالي للاحتماء. واستيقظت الباحثة من نومها على أنفاس بقرة تلفح وجهها وقد دست رأسها داخل (الناموسية) التي تغطي فراشها. ولكنها سمعت في الوقت ذاته هرجا شديدا في القرية فخرجت تستطلع الأمر، ووجدت جموعاً غفيرة من الأهالي يقفون حول أحد الأكواخ وهم يتصايحون ويصرخون ويضحكون في آن واحد. وعرفت أن بقرة أحد شيوخ القرية اقتحمت أحد الأكواخ، ولكن مدخل الكوخ كان أضيق من أن يسمح لجسمها بالمرور، و(انحشرت) في المدخل لاتستطيع الدخول أو الخروج والأهالي يسحبونها إلى الخارج من ذيلها وهي تقاوم بشدة. ولكن المفارقة القاسية في الموقف هي أن البقرة اقتحمت ذلك الكوخ في الوقت غير المناسب، فقد كانت الزوجة تستقبل في الكوخ عشيقها فقطعت البقرة على العاشقين خلوتهما ولقاءهما العاطفي والجنسي. وبينما كان الزوج المخدوع الذي خرج على الأصوات من كوخ إحدى زوجاته الأخريات يهدد بقتل العشيق ويرفع سلاحه استعداداً لقتله، كان صاحب البقرة يصرخ ويولول خشية أن يصيب السلاح بقرته بدلا من العشيق أو الزوجة الخائنة، وبينما كان بقية الجموع يتضاحكون ويتصايحون ويشدون ذيل البقرة وهي تقاوم وترفس، كان العاشقان يرتجفان من الخوف ومن الفضيحة لانكشاف أمرهما بهذا الشكل البالغ القسوة،

وكانت الباحثة ذاتها تعجب لتصاريف القدر التي تجعل من مصائب بعض الناس مصدر مرح وتندر وابتهاج للآخرين، وتتساءل لماذا إذا كان من نصيب المرء أن يقاسي ألا يسمح له القدر بأن يقاسي بطريقة مأساوية محترمة بدلا من هذه الطريقة الهزلية التي تزيد من قسوة المأساة.

بطلة رواية «العودة إلى الضحك» هي الكاتبة الباحثة ذاتها، وبذلك جاءت الرواية في صيغة المتكلم، شأنها في ذلك شأن معظم الروايات الأنثربولوجية، وتجري أحداث الرواية في مجتمع محلي إفريقي متخلف أيام سيطرة الاستعمار البريطاني، وبالذات في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، وهي فترة شاهدت بوادر احتضار ذلك الاستعمار وتراجعه.

حين تصل الباحثة بطلة الرواية بالطائرة إلى عاصمة الإقليم يقابلها الحاكم الإداري للمنطقة، وهو نموذج للشخصية الإنجليزية الاستعمارية التي تجمع بين الغطرسة والتحفظ والقدرة العملية على التصرف بسرعة وبرود وحزم، فيزود الباحثة بنصائحه ويختار لها من بين الأهالي الذين جاءوا لاستقبال الطائرة الأشخاص الذين سوف يتولون خدمتها ومعاونتها أثناء فترة الدراسة، ثم يقدم لها سائق السيارة التي سوف تنقلها بأمتعتها وخيامها وخدمها إلى القرية التي اختارها لها لأنه يعرف زعيمها القبلي، ولم يستغرق ذلك كله سوى وقت قصير ثم يتركها لشأنها وينصرف لعمله. وتنطلق السيارة المتهالكة بالباحثة عبر الغابات والمستنقعات مع الخدم والمساعدين، ولم يكن فيهم من يعرف الإنجليزية سوى واحد يعرف كلمات قليلة متفرقة. وتصل السيارة إلى القرية، وتقيم خيمتها، ويأتي من يعلن وصول الزعيم كاكو Kako لزيارتها والترحيب بها، ويصل موكب الزعيم الذي يضم مجموعة من الشيوخ شبه العراة إلا من دثار يتدلى من أحد الكتفين كما يضم بعض النسوة اللاتي يحملن شيئاً من الطعام ودجاجتين وصبيا صغير الحجم يحمل كرسياً أكبر من جسمه ليجلس عليه الزعيم بينما يجلس الجميع على الأرض. ولم تكن هناك وسيلة للتفاهم والتواصل سوى تبادل الابتسامات وفجأة ينهض الزعيم ورجاله وينصرفون بنفس الطريقة التي جاءوا بها، ولكن بعد أن أفهمها بالإشارات وبعض الكلمات المتفرقة أنه سوف يهيء لها كوخاً خاصا بالقرب من مساكنه حتى تكون تحت رعايته وفي حمايته وكان هذا اللقاء أول فرصة لظهور التعارض والتفاوت والاختلاف ومن بعدها الصدام والصراع لأن الفتاة الأمريكية الصغيرة لم تكن مستعدة لأن تكون تحت وصاية أو حماية زعيم إفريقي متخلف.

ولا تخرج أحداث الرواية بعد ذلك عن محاولات الفتاة الباحثة ارتياد أكبر قدر من الأماكن والتعرف على أكبر عدد من الأهالي وجمع أكبر كمية من المعلومات الإثنوجرافية عن أكبر عدد من الموضوعات، وبخاصة المعتقدات المتعلقة بالعالم الغيبي، ثم محاولات الزعيم كاكو السيطرة عليها وإخضاعها لإشرافه وحجبها عن الناس بحيث يكون هو حلقة الوصل والاتصال الوحيدة بينها وبين المجتمع ومحاولات الفتاة التخلص منه ومن سطوته وسلطته (الأبوية) وفي إطار هذا الصراع بين الشخصيتين اللتين تمثلان ثقافتين متباينتين كل التباين تعرض الفتاة الباحثة لعدد من الشخصيات الأخرى الذين يمثلون نماذج بشرية مختلفة والذين ارتبطت بهم بروابط قوية لم تكن تخلو مع ذلك من الشعور بالاستعلاء والازدراء والترفع عن كثير من تصرفاتهم وقيمهم.

كانت هناك مثلاً الفتاة أتاكبا Atakapa ابنة يابو Yabo، وهما يمثلان شخصيتين متنافرتين تماماً، فالأب سليط اللسان لاذع السخرية وشديد الامتهان للآخرين بما فيهم الزعيم كاكو نفسه، وبذلك فهو يمثل الشخصية الكريهة المكروهة المنبوذة من الجميع مما جعله يعيش في شبه عزلة، وانعكس ذلك في إهماله لنفسه وبيته الذي كان يلك أقذر بيت في القرية القذرة، واتهمه الناس لعزلته وقسوته وسخريته بممارسة السحر والشعوذة والعين الشريرة، وزاد ذلك من خوف الجميع منه وابتعادهم عنه، كما كانوا ينسبون إليه كل الشرور والأذى والمصائب التي تحل بهم وبالقرية. وعلى العكس من ذلك كانت أتاكبا ذات شخصية مرحة ومنطلقة ومتحررة من قيود المجتمع القبلي وثائرة على أبيها نفسه وعلى كثير من التقاليد وبخاصة فيما يتعلق بحياتها العاطفية والجنسية بحيث إنها خرجت من تقاليد المجتمع وهربت مع الرجل الذي أحبته وتزوجته رغم معارضة الأب. وهذه الروح المتحررة الطليقة هي التي جعلتها قريبة إلى قلب الفتاة الأمريكية.

وكانت هناك أمارا Amara ابنة عمّ أتاكبا، وقد ذهبت الفتاة الأمريكية بطلة الرواية لزيارتها في مرضها وكانت ذات شخصية رقيقة وناعمة ووديعة بحيث تصفها الفتاة الأمريكية بأنها ألطف إنسان قابلته في إفريقيا خاصة وأنها كانت دائما تراعي مشاعر الآخرين، وهو أمر كان يبدو غريبا في نظر الفتاة الأمريكية باعتباره سلوكاً مهذباً وراقياً وغير مألوف بين الأفارقة، أو حسب تعبيرها: «إنه أمر نادر الحدوث في ذلك العالم» وكانت أمارا حاملا في ثلاثة شهور حين أصيبت بمرض عضال كان من شأنه أن تضخم الثديان بدرجة كبيرة جدا بحيث كانا يتدليان إلى ما تحت الخصر. وكان الجميع يدركون أن ذلك المرض سوف يودي بحياة الأم والجنين معاً، لذا قرر الزوج أن يرسلها إلى بيت عمها يابو حيث تلقى عناية السحر والطب الشعبي، وإن كان هناك من الناس من اتهموا يابو نفسه بأنه كان السبب في مرض أمارا وموتها وأنه هو الذي استخدم السحر والعين الشريرة لإيذائها.

كذلك كانت هناك أحداث ذات أثر بالغ وخطير في حياة المجتمع، ولكن ربما كان أهم هذه الأحداث هو انتشار وباء الجدري الذي فتك بالناس ودفعهم إلى الهروب فراراً من اللعنة دون أن يدركوا أنهم يساعدون بذلك على انتشار الوباء في مناطق أوسع وبين عدد أكبر من الناس، ولكنهم كانوا يعتقدون أن المرض لم يكن لينتشر على هذا النطاق الواسع إلا بفعل السحر الأسود وأنه لن ينحسر إلا إذا تم العثور على صاحب هذه العين الشريرة ووقع عليه العقاب.

«فالسحر الأسود كان أكبر مصدر للرعب والفزع. ولكن السحرة مع ذلك كانوا مجرد أشخاص من عامة الناس. وكان لابد لكل شخص أن يصارع من أجل البقاء والحياة. وهناك قدر من القلق والشعور بالخطر وعدم الأمان في كل المجتمعات. وقد يخيل إلينا أن من السهل أن تتقبل الهزيمة على يد القدر أو قهره. أما حين يعتقد المرء أن الخطر يأتي من غيره من بني البشر فلن يكون ثمة مفر من العمل على هزيمة هؤلاء الآخرين. ومن هنا لاينبغي للمرء أن يفقد الأمل. ولقد ساعدتني مخيلتي المتعبة المكدودة على أن أتبين وأدرك أن سيطرة السحرة، إنما تأتي من سيطرة الرعب.

وحين وصلت إلى هذه النتيجة أحسست بالراحة والاطمئنان» (ص١٦٧).

وكان لابد من العثور على شخص يمكن أن يعتبر مسؤولا عن هذه اللعنة. ولم يكن هناك من هو أفضل

من بابو الذي يسخر منهم ويبتعد عنهم في غير قليل من التعالي والاعتداد بالنفس دون أن يهتم بأن يدفع عن نفسه التهمة، بل لعله كان راغباً في أن يؤمن الناس بأن له ميزة القدرة على الإيذاء.

وعلى الرغم من موقف المجتمع من بابو لم تمتنع الفتاة الأمريكية عن زيارته، وهذا في حد ذاته يكشف عن روح التحدي والرغبة في تأكيد الاستقلال الشخصي عن كاكو زعيم القبيلة. وزادت هذه العلاقة ببابو من شكوك الأهالي حول ممارستها للسحر، وقابلت هذا الموقف منهم بنفس السلوك الذي اتخذه بابو من المجتمع والذي تعترف هي ذاتها بأنه كان سلوكاً خاطئاً: «لقد لجأت مثل بابو إلى نوع من العزلة والانطواء الداخلي والاستعلاء على العالم الغبي، وإذن فلتترك الناس يخافونني ويخشونني» وإن كانت تعترف في الوقت ذاته بأن هذا الموقف كان له بعض الفائدة لأنه ساعدها من جهة أخرى على إنجاز بعض الأعمال وعلى الاختلاء بنفسها حين تريد وأنه «طالما لم يكن هناك ما يعوقني عن العمل فلن أهتم بشيء.. لقد تجاوزت حد الضحك» (صفحة ٢٥٠). ولم يكن في استطاعتها على أي حال الابتعاد عن بابو لأنها كانت في حاجة إليه «من الناحية المهنية البحتة» لأنه كان مصدراً جيداً للمعلومات، كما كانت تعتقد أن من الجبن بل ومن النذالة التخلي عنه في الوقت الذي يتعرض فيه لهجوم الناس.

وازداد وضع الفتاة في المجتمع سوءاً حين قبلت من بابو هدية من اللحم ذات يوم بعد أن كانت قد سئمت من أكل الدجاج. ولم تتنبه حينذاك إلى أن الناس يعتقدون أن الساحر لا يأكل لحم البشر وأنها ما دامت قبلت منه تلك الهدية من اللحم فهي إذن ساحرة ويتعين عليها رد الهدية بمثلها وأنه لن يتسنى لها ذلك إلا عن طريق أحد الضحايا الآدمية. والغريب أنها اتخذت إزاء هذا الاعتقاد نفس الموقف وفضلت أن يظل الناس على اعتقادهم في ممارستها للسحر «جزاء لهم على سوء الظن».

ثم جاء اليوم الذي هاجمت فيه أسراب البوم القرية وسكنت أعالي الأشجار وتصدر صرخاتها المرعبة أثناء الليل التي تحمل نذر الموت والخراب. وكان الناس يعتقدون أن تلك البومات ليست سوى ساحرات يناديين الساحرة الأمريكية لكي تقدم لها طعاماً من اللحم الآدمي. حتى كانت الليلة التي ضاقت هي ذاتها بنعيب البوم وداخلها إحساس شديد بالخوف والشؤم يتسرب إلى قلبها وقلوب الخدم. وأرادت أن تتجاهل ذلك النعيب وتلجأ إلى فراشها وقد صممت على النوم ولكنها لم تفلح، فلم تكن تدري «أن التصميم هو أعدى أعداء النوم والنعاس» واستسلمت رغماً عنها للخوف واستقرت إحدى البومات على شجرة المانجو الوحيدة القائمة أمام كوخها وهي تصرخ بصوتها الهائل المخيف كما هي كانت تناديها. ووجدت نفسها تخرج إلى الشجرة وتصرخ في هيسترية «ابتعدي... اذهبي.. أنا لا أدين لك بشيء ولا بأي لحم... أنا لم آكل أحداً من أقاربك فارحلي عني» والغريب أن البومة طارت وابتعدت. وفي الصباح جاء رجالها وأخبروها صراحة أنهم يعرفون تماماً أنها ساحرة، ولكنهم يعتقدون أيضاً أنها سوف تستخدم سحرها لحمايتهم. وما دامت أفلحت في طرد البومة عن بيتها فيجب أن تقنع كاكو الزعيم وبابو الساحر بأن يبعد البوم كله عن القرية. وأحست أن عليها أن تحقق انتصاراً آخر في هذا المجال حتى يتوقف كاكو عن الإساءة إليها والتحريض عليها. ولجأت إلى تلك الحيلة التي تعلمتها منذ الصغر لإبعاد الطيور عن طريق وضع قطع المعدن الرقيق بين أفرع الشجر حتى إذا هزت الرياح الشجرة صدرت الأصوات وأفزعت الطيور، ونجحت الحيلة، وفي الصباح حين كانت قطع المعدن تعكس أشعة الشمس الباهرة كان الأهالي يعتقدون أن ذلك هو ضوء السحر، وأنه ليس من المستغرب أن ما يسمعونه بالليل يمكن رؤيته بالنهار.

ثم جاءت النهاية المأساوية حين وفد إلى القرية أحد المرضى من حاملي الجدري فأشاع فيها الخوف والكراهية وهما من أكبر أعداء الإنسان والإنسانية. ومع عدم خشيتها من انتقال المرض إليها فإنها تحاشت عن زيارة الرجل المريض المنبوذ وابتعدت عنه وتركته مثلهم لوحدته ومرضه ولكنها كانت تدرك طيلة الوقت أنها تتنكر بهذا السلوك للقيم الإنسانية الرفيعة التي نشأت عليها في ثقافتها الغربية الراقية التي تنادي بضرورة مساعدة المحتاج. ولكن ليس هناك على أية حال ما هو أقوى من الخوف.

وعلى الرغم من أن هذه الصور المختلفة تستمد عناصرها من المجتمع الإفريقي المحلي ومن التجربة الذاتية الواقعية فإن الخيال الإبداعي هو الذي أعاد صياغتها وتركيبها في شكل رواية متماسكة. . . ولكن المعلومات الإثنوجرافية التي تضمها هذه الرواية عن الحياة في القرية وعن النظم الاقتصادية والاجتماعية وتوازن العلاقات والخوف من السحر وعن المعتقدات الغيبية التي تسيطر على أذهان الأهالي ومقارنة ذلك كله بالتفكير العلمي العقلاني السائد في المجتمع الغربي، كل ذلك يجعل من هذه الرواية مرجعاً إثنوجرافياً هاماً، بحيث إن بعض الجامعات قامت بتدريسه لطلاب الأنثربولوجيا في مراحل دراستهم الأولى.

(٣)

رواية أميتاب غوش Amitap ghosh «في بلاد عتيقة وعريقة»[١٣] تختلف اختلافا جذريا عن «العودة إلى الضحك» سواء في بناء العمل الروائي ذاته أو في زمن الأحداث أو مكانها. فبينما تجري كل أحداث «العودة إلى الضحك» في مجتمع قروي بدائي محدود المساحة وتتم كلها في فترة زمنية محدودة لاتتعدى المرحلة الأولى من فترة الدراسة الميدانية، تغطي رواية «في بلاد عتيقة وعريقة» مساحات واسعة جداً من المكان والزمان. . . المكان هو مصر برمتها واتساعها، بل إن جانباً من الأحداث يقع في اليمن وبعض بلاد الشرق الأقصى كلها بلاد عتيقة وعريقة، كما تنتقل الأحداث أو بعضها إلى إنجلترا وأمريكا، مما يجعل القارىء يلهث أحياناً في تتبعها ويكاد يفلت الخيط منه في مواضع قليلة. . . أما زمن الرواية فهو أيضا مساحة طويلة جداً يمكن التمييز فيها بين فترتين متمايزتين تفصل بينهما ثمانية قرون كاملة. الفترة الأولى هي السنوات المعاصرة التي زار فيها المؤلف الأنثربولوجي الروائي مصر (في أوائل الثمانينيات) ليقوم بدراسته الميدانية في قرية مصرية ويجمع المعلومات الإثنوجرافية التي سوف تقوم عليها رسالته للدكتوراه من جامعة أكسفورد أيضاً، تماماً كما هو الشأن بالنسبة للورا بوهانان. بينما تمتد الفترة الثانية أو الأولى بحسب مرور الزمن وتسلسله ـ فكانت في القرن الثاني عشر، وإليها يعود المؤلف بمخيلته الإبداعية، كما يرجع بشأنها إلى كثير من المخطوطات والمراجع. ومن هذه الأحداث القديمة والمعاصرة ينسج أميتاب غوش روايته التي تعكس في الوقت ذاته أسلوباً في البحث العلمي الأنثربولوجي ووسائله وتطورت ودخلت عليها بعض التعديلات التي استلزمتها على أية حال الاختلافات بين طبيعة مجتمعي الدراسة الميدانية: القرية الإفريقية البدائية ذات البعد التاريخي الضحل، والقرية المصرية التي يكمن وراءها تاريخ طويل وتراث عريق.

وإذا كانت لورا بوهانان قد اكتسبت شيئا من المهارة والخبرة التي صقلت مواهبها من اتصالها بالكاتب الزنجي الأمريكي ريتشارد رايت، وكانت «العودة إلى الضحك» هي روايتها الأولى ـ ولعلها الوحيدة ـ وتتبعت فيها الأحداث بدقة من واقع مذكراتها الميدانية، فإن أميتاب غوش على الرغم من أنه باحث أنثربولوجي

بالتدريب والتخصص فإنه في الوقت ذاته كاتب روائي متمرس، له خبرة سابقة بالصنعة أو تكتيك الفن الروائي والكتابة الأدبية، وسبق أن صدرت له روايتان هما The Circle of Reason و The Shadow Line، وقد صادفتا قدراً لا بأس به من النجاح والانتشار، بحيث إن شهرته كروائي تفوق شهرته كأنثربولوجي، وذلك على العكس تماماً من لورا بوهانان.

وقد صدرت «في بلاد عتيقة وعريقة» عام ١٩٩٢م، وتقوم على حكاية اثنين من الهنود في مصر. وأحد هذين الهنديين هو الكاتب نفسه الذي جاء إلى مصر عام ١٩٨٠ لإجراء دراسته الإثنوجرافية الميدانية. بينما الشخص الآخر هو عبد هندي جاء إلى مصر مع سيده التاجر اليهودي في وقت ما من القرن الثاني عشر. وصادف أن الباحث الهندي كان قد اطلع على مقال جاء فيه ذكر العبد الهندي فأثار ذلك المقال خياله وعزم على تتبع قصته وبذلك جاء إلى مصر ليقوم بدراسته الإثنوجرافية الميدانية من ناحية ويعرف أصل قصة ذلك العبد المواطن من ناحية أخرى، ويكتب بعد ذلك كل هذه الرواية التي يتنقل فيها القص أو الحكي بشكل رتيب ومنتظم بين أحداث الحاضر والماضي بحيث تسير سلسلتا الأحداث في خطين متوازيين إلى حد كبير دون اتصال، مما يكشف عن قدرة الكاتب على استيعاب الموضوع والتمكن من فن القص.

فالرواية إذن عبارة عن حكايتين يقصها الكاتب الأنثربولوجي الروائي الذي يلعب دور القاص وبذلك يستخدم في القص صيغة المتكلم. وطريقة القص والحكي تكشف عن أسلوبين مختلفين لجمع المعلومات الأنثوجرافية سواء باتباع طريقة الملاحظة المباشرة والمعايشة والمشاركة. وذلك فيما يتعلق بالمادة الخاصة بالمجتمع القروي المصري المعاصر، أو الرجوع إلى المراجع والمصادر بل وبعض المخطوطات القديمة والتنقل وراء هذه المصادر من مجتمع لآخر، بل ومن دولة لأخرى لجمع المادة المتعلقة بالأحداث التاريخية المتصلة بحياة ذلك العبد الهندي الذي عاش في القرن الثاني عشر. وإذا كان الكثيرون يتهمون المنهج الأنثربولوجي بأنه منهج استاتيكي لأن معظم البحوث الأنثربولوجية تجري في مجتمعات صغيرة، ذات تاريخ ضحل وبدائية ولم تعرف كثيرا من التغيرات الجذرية العميقة، فإن دراسة المجتمعات ذات الثقافات العريقة القديمة تقتضي من الباحث الرجوع إلى التاريخ للتحقق من أصول وتطورات هذه الأحداث. وما يفعله الباحث الهندي في تتبعه لحياة العبد الهندي مثال لما يفعله الأنثربولوجيون في تتبعهم للأحداث التاريخية وتطور النظم والأنساق الاجتماعية والثقافية، وإن كان أميتاب غوش يصوغ ذلك في قالب روائي فيه قدر من الخيال الذي يضفيه على الواقع[14] بحيث يبدو ذلك الواقع التاريخي القديم نابضاً بالحياة.

في بحثه عن الحياة المعاصرة في القرية المصرية جاء الباحث الهندي كما قلنا إلى مصر عام ١٩٨٠ واتصل بجامعة الاسكندرية لأنها الجامعة الوحيدة التي بها قسم للأنثربولوجيا مستقل ولأن اثنين من أساتذة القسم وهما المرحوم الأستاذ الدكتور علي أحمد عيسى وكاتب هذه الدراسة الحالية من خريجي معهد الأنثربولوجية الاجتماعية بأكسفورد، وهو المعهد الذي درس فيه الباحث الهندي والباحثة الأمريكية لورا بوهانان. وقام قسم الأنثربولوجيا باتخاذ الخطوات اللازمة لإقامة الباحث واختيار القرية التي تجري فيها الدراسة الميدانية وتقديم الباحث للمجتمع، وذلك على العكس مما فعل الإداري الإنجليزي مع الباحثة الأمريكية، كما كان القسم وأساتذته على اتصال مستمر بالباحث الهندي أثناء فترة الدراسة.

تدور أحداث الرواية الأنثربولوجية المعاصرة في قريتي اللطايفة (نسبة إلى عائلة عبداللطيف) والنشاوي من أعمال دمهور، وهذان اسمان مستعاران لقريتين يعرفهما تماماً الأنثربولوجيون من جامعة الإسكندرية، كما أن أشخاص الرواية أو الحكاية المعاصرة هم من صنع الخيال وإن كانت الملامح الأساسية لشخصياتهم مركبة من عناصر واقعية وحقيقية.

ويواجه الباحث الهندي في هاتين القريتين نفس المشكلات التي صادفتها الباحثة الأمريكية حين وصلت لأول مرة إلى القرية الإفريقية من ارتياب وشكوك وتحفظ وتساؤلات حول سبب وجود هذا الشاب الغريب في قرية بعيدة عن المدن الرئيسية التي تجذب إليها الأجانب في العادة. ولكن العلاقات التي قامت بينه وبين أهالي القريتين كانت مع ذلك على النقيض تماماً من تلك التي كانت بين الباحثة الأمريكية والمجتمع القروي الإفريقي، فقد كانت بطلة ومؤلفة «العودة إلى الضحك» تشعر بالاستعلاء والتمييز إزاء الأهالي الأفارقة، بينما في القريتين المصريتين كان الأهالي هم الذين يشعرون بالتميز وشيء من الاستعلاء. فعلى الرغم من عدم وجود عائق حقيقي يقف ضد التواصل والتفاهم لأن الباحث كان يعرف اللغة العربية التي سبق له دراستها في تونس فإن الفلاحين المصريين كانوا يشعرون طيلة الوقت أنه (هندي) - وهذا تعبير له مغزاه في أوساط معينة من مصر ويرمز إلى أن صاحبه لايعرف كثيراً من شئون الحياة التي يدركها الفلاح المصري البسيط العادي. وقد ساعد الباحث الهندي عمداً على ترسيخ هذا الاعتقاد حول سذاجته وعدم فهمه لكثير من أمور الحياة مثل الحياة الجنسية أو انعكاس ضوء القمر على صفحة الماء في الترعة وما إلى ذلك. وبذا يكون اتخذ نفس الموقف الذي تعمدت أن تأخذه الباحثة الأمريكية حين تركت الأفارقة على اعتقادهم بأنها ساحرة، ولكن مع اختلاف في الأهداف. فبينما يعكس موقف الباحثة الأمريكية اختلاف الثقافة الأمريكية المتسلطة المتغطرسة ويهدف إلى توكيد ارتفاع وسمو مكانتها إزاء هؤلاء الأفارقة المتوحشين وإلى إبراز استقلال شخصيتها وفرديتها، يعكس موقف الباحث الهندي بساطة وسماحة الثقافة الهندية ويهدف إلى الدخول إلى قلوب الأهالي عن طريق النزول إلى ما دون مستواهم الفكري المتواضع واتخاذ موقف التلميذ من الأستاذ والمعلم.

وتتناول أحداث الرواية الأنثربولوجية المعاصرة عدداً من العلاقات اليومية العادية بين الأهالي بالوصف والتحليل وتعرض لما تتضمنه هذه العلاقات من صراع وتعاون وأحقاد ومكائد صغيرة حول أمور تافهة بسيطة بساطة حياة أهل القرى في مصر، ولكن يخيم على الرواية مع ذلك جو من التسامح والطيبة والتفاؤل على الرغم من الفقر الشديد الذي يلف كل شيء. ولم يكن يشغل بال الناس جميعاً إلى جانب فقرهم سوى مشاكل الدين والسياسة وهي المشاكل التي تدور حولها حياة معظم الناس وأفكارهم وهمومهم في العالم الثالث، وبخاصة في البلاد ذات الحضارات العريقة القديمة والتي خضعت للاستعمار الغربي لفترة من تاريخها كما هو شأن مصر والهند. ولكن ربما كان هاجس الدين واختلاف الأديان وما يخلفه ذلك من مرارة وأحقاد ناجمة عن سوء الفهم وانعدام التفاهم والثقة هو أخطر ما يواجه هذه المجتمعات. فالفوارق الدينية والمذهبية هي أهم أسباب العداء بين أبناء الأمة الواحدة الذين يتفقون في اللغة والعادات والتقاليد والتاريخ بل والعرق والتراث. وكان اهتمام الأهالي في القريتين المصريتين بالحديث مع الباحث الهندي عن الدين تثير في نفسه كثيراً من مشاعر الغيظ المكبوت خاصة حين كانوا يتحدثون معه عن عبادة البقر وإحراق الموتى وعدم ختان الهنود ومدى إيمانه بالله وتصوره للكون وفكرة الخلق بطريقة لاتخلو من سذاجة - من وجهة نظره على الأقل - ثم محاولات البعض (هدايته) إلى الإسلام حتى يدخل الجنة.

ويقابل الباحث الهندي نماذج مختلفة من القرويين، وكان له مع كل منهم قصة صغيرة ولكنها تؤلف معاً لوحة فنية متكاملة عن حياة القرية بكل ما فيها من قوة وضعف بشريين.

كان هناك أبو علي التاجر الجشع الضخم الجثة المرتفع الصوت ـ وهو صاحب البيت الذي أقام به بعض الوقت في بداية دراسته الميدانية. وكان أبو علي قد أخذ على نفسه عهداً منذ البداية. بأن يضع يده على كل قرش في جيب الطالب الباحث الهندي وينقله إلى جيبه هو بوسيلة أو بأخرى عن طريق الغش والخداع والفهلوة والمغالاة في تقدير إيجار الحجرة التي يسكنها الطالب فوق سطح البيت والتي كانت تستخدم في الأصل لتربية الدواجن، أو أن يتولى هو بنفسه شراء كل ما يحتاج إليه الباحث الهندي وعدم ترك الفرصة له للنزول إلى السوق حتى لايعرف الأسعار الحقيقية للأشياء، أو عن طريق إقناعه بأن يتناول طعامه مع العائلة على أن يدفع نصيبه في تكاليف الوجبات ويبالغ في تقدير هذه التكاليف وهكذا. وكان الباحث الهندي يدرك أن أبا علي يستغله أسوأ استغلال، ولكنه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً حتى لايؤثر ذلك على علاقته به، فقد كان يدرك تماماً أن أبا علي قادر على وضع العراقيل أمامه وإفساد كل شيء أمام مواصلته البحث.

وكان هناك الشيخ موسى وهو نقيض لأبي علي تماماً، فقد كان يمتاز بالطيبة والسماحة وكرم الضيافة والقناعة، كما كان بيته مفتوحاً في كل وقت للباحث الهندي الذي وجد فيه مثالاً للتماسك العائلي الذي يميز العائلة القروية في مصر. ولكن كان في حياة الشيخ موسى مأساة مزدوجة، نجمت الأولى منهما عن وفاة زوجته وأم أولاده وزواجه من فتاة كانت في عمر أولاده، بل إنها كانت تلعب في طفولتها مع بعض أبنائه من الصبيان فإذا بهم يجدونها في مكانة أمهم، وترتب على ذلك كثير من التوتر والتحفظ وعدم الثقة والارتباك المكبوت مع محاولات الجميع التظاهر بأن الأمور تسير في طريقها الطبيعي من أجل الحفاظ على التماسك العائلي الذي يحرصون عليه، بينما تمثلت المأساة الثانية في موت أحب أبناء الشيخ إليه وأقربهم إلى قلبه وكان الابن مجنداً في الجيش، وقد أدى فقده إلى تدهور صحة الشيخ واعتزاله الناس وإن كان يخفف من لوعته الإيمان القوي الذي يميز عامة المصريين فيما يتعلق بأمور الحياة والموت والعالم الآخر.

وكان هناك الأستاذ مصطفى الذي تلقى دراساته العليا في القانون في الجامعة وأصبح يمثل الصفوة المثقفة المستنيرة في القرية بما تعلمه في الجامعة وما قرأه في مختلف فروع الثقافة، ولكنه كان يبالغ في فهم الدين وتفسيره وتأويله ويأخذ من أموره القشور دون أن يتعمق في الفهم ويحرص على نقاء ثوبه من أن يناله شيء من تراب القرية وحواريها وأزقتها أكثر من حرصه على التعمق في فهم تعاليم الدين على الوجه الصحيح، كما كان يحرص على أن يدعو الباحث الهندي على اعتناق الإسلام حتى يأمن على نفسه من عذاب النار أكثر مما يحرص على فهم تعاليم ومبادىء الهندوكية والحكمة التي يراها الهندوس في إحراق الجثة أو أن يدرك أن ثمة مبادىء عامة تشترك فيها كل الأديان.

وكانت هناك نماذج بشرية أخرى كثيرة لا داعي للتعرض لها هنا ولكنها في مجملها تعطي صورة واضحة عن حياة القرية المتشابكة بين أعضاء القرية التي تبدو هادئة ولكنها تموج في الحقيقة بمختلف المشاعر والأحاسيس التي تعبر عن نفسها في أنماط السلوك والعلاقات المتشابكة بين أعضاء القرية والتي حرص الباحث على تسجيلها بالتفصيل لتغطيته الجانب الإثنوجرافي الذي تقوم عليه أحداث الرواية، أو على الأصح لوحاتها الفنية.

في قرية النشاوي، وهي ثاني القريتين اللتين أقام فيهما الباحث الأنثربولوجي الهندي في الثمانينيات مع فاصل بين الزيارتين قدره سبع سنوات أمضاها الباحث إما في أكسفورد وإما في وطنه، وجد الباحث الهندي أنماطاً جديدة من الحياة لم يكن القرية التقليدية عهد بها من قبل، بل إن بعض التغيرات الجذرية كانت قد طرأت على قرية اللطايفة ذاتها بعد أن عرف شبابها الهجرة إلى بلاد الخليج ودخلت الكهرباء والماء والتليفزيون، كما ظهر إلى جانب الفقر والبؤس التقليديين مظاهر طارئة من الثراء الفج عند بعض الأسر والأفراد الذين لم يكن لهم ذكر أو مكانة محترمة في القرية ووجد في النشاوي عائلتان تتنازعان المكانة الاجتماعية والسياسية على أساس الأصل أو المال وهما عائلة أبو كنكة وعائلة البدوي، وكانت العائلتان قد قدمتا معاً أو في وقت متقارب إلى القرية منذ عهد بعيد، ولكن رئيس عائلة أبو كنكة كان رجلاً ورعاً يعمل بالحلاقة ولاتزال ذريته يمتهنون نفس المهنة ويعتزون بها ولم يكونوا يهتمون بامتلاك الأرض أو تنمية ثروتهم وإنما كانوا دائماً يعطون معظم جهودهم لأمور الدين، وذلك بعكس البدوي الذين يدل اسمهم على أصولهم البدوية ولكنهم استقروا في الأرض وعملوا على امتلاك أكبر مساحة منها وتحولوا إلى الزراعة واكتسبوا مكانة عالية في المجتمع بفضل ثرائهم ولكنهم لم يكونوا يتمتعون مع ذلك بنفس الاحترام أو الهيبة التي يتمتع بها عائلة أبو كنكة. ويعطي الباحث الهندي كثيراً من التفاصيل حول الصراع الخفي أحياناً والعلني في أحيان أخرى بين ما يمكن تسميته - بقدر من التجاوز - السلطة الدينية متمثلة في أولاد أبو كنكة، والسلطة الزمنية متمثلة في أولاد البدوي، ووصف بعض المواقف بحيث يلبس تحليله ثوب الرواية وينسب العلاقات والتصرفات إلى أشخاص بعينهم لكي يتلاءم ذلك مع القص الروائي دون أن يلجأ إلى التجريد الذي يتمسك به الأنثربولوجيون في دراستهم لمثل هذه الموضوعات، فيتعاملون مع علاقات ونظم وأنساق مجردة بعيدة عن الأفراد على الرغم من أن معلوماتهم الإثنوجرافية مستمدة من ملاحظاتهم للسلوك اليومي للشخص العياني الملموس.

وجانب كبير من القص الروائي هنا يدور حول الصراع الديني والسياسي والاختلاف بين الأديان، ويعجب الباحث الهندي لاهتمام الناس الذي لايخلو من المغالاة والمبالغة والتزمت وضيق الأفق بآراء ومعتقدات وعبادات الآخرين ورغبتهم في تغييرها أو تحويل الآخرين عنها إلى مايعتقدون هم فيه، ويذهب في ذلك إلى أن يعتبر الرموز الدينية والتمسك بها والتشيع لها هي من أهم أسباب الفتنة بين الطوائف الدينية وبين الأديان المختلفة مع أن كل هذه الرموز لو فهمت على حقيقتها، تعبر عن الوحدة الإنسانية والتعاطف البشري، وأن هذه الوحدة والتعاطف كثيراً ما يظهران وقت الأزمات ويتغلبان على كل أسباب الفرقة والنزاع. ويقارن بين الموقف في مصر فيما يسمى بالفتنة الطائفية الدينية والموقف في الهند، ويعود بذاكرته إلى الوراء حين كان طفلاً وكان أبوه - وهو من عائلة هندوكية عتيقة ومحترمة - يقيم في ذلك الحين في دكا. ثم حدث الانفصال الكبير أو الانقسام في شبه القارة الهندية وظهرت دولتان هما الهند وباكستان وما ارتبط بذلك من عداءات دامية بين الهندوس والمسلمين. وكانت عائلته تعيش في قصر كبير ويحيط بها آلاف العائلات المسلمة. وشاهد كيف أن عشرات الهندوس كانوا يلجأون إلى بيت عائلته للاحتماء وراء أسوار القصر من القتل. وذات يوم حاصر آلاف المسلمين بيت العائلة وبأيديهم الحراب والمشاعل وكل أدوات التحطيم والهدم والتخريب والقتل والإحراق ومرت أوقات عصيبة ثم فجأة تفرقت هذه الجماهير الغاضبة هاربة، فقد حضرت جموع من الشرطة ورجال الجيش لتفريقهم وحماية الأسرة الهندوكية. وكان بعض المسلمين هم الذين استدعوا هذه القوات لحماية

وإنقاذاً من يخالفونهم في العقيدة، ولكن يشاركونهم في الإنسانية. وفي الوقت ذاته حدث شيء مشابه لذلك تماماً في كلكتا مع اختلاف في الأدوار، فقد حاصر الهندوس مئات من العائلات المسلمة يريدون ذبحهم وإحراقهم وتخريب ديارهم ولم ينقذهم من هذا المصير إلا تدخل بعض الهندوس الذين طلبوا النجدة من الشرطة والجيش لإنقاذ من يخالفونهم في الدين أيضاً ولكن يشاركونهم في الإنسانية. ومن يومها أدرك الفتى الهندي معنى التعاطف الإنساني الذي يعلو ويرتفع فوق كل الفوارق والاختلافات السلالية والدينية وأن الإساءة إلى الرموز الدينية مثل قتل بقرة في معبد هندوكي أو وضع خنزير في مسجد إسلامي كثيراً ما تنجم عنه مذابح بشعة يقتل فيها مئات الأبرياء الطيبين. ولكن الباحث الهندي لايتمالك نفسه مع ذلك حين يقارن هذا الواقع بما يحدث في مصر من أن يحكم لصالح الإنسان المصري في هذه الصراعات ويؤكد طيبة أهل مصر ووداعتهم وتسامحهم وتعاطفهم رغم كل شيء وعلى الرغم من كل مايبدو من قسوة الظروف التي يعيشون تحتها، وعلى الرغم من كل مظاهر التطرف الديني، وإن «عالم المصريين عالم أكثر رقة وإنسانية وأكثر براءة وطهراً من وطني» (صفحة ٢١٠).

ولكن ماذا عن «العبد الهندي» الذي تشغل قصته جانباً كبيرا من هذه الرواية؟

في أثناء دراسته في جامعة أكسفورد اطلع الباحث الهندي بالمصادفة البحتة على مقال قديم نشرته باحثة يهودية اسمها E. Strauss عام ١٩٤٢ في مجلة zien التي كانت تصدر في القدس وكان عنوان المقال «مصادرة جديدة عن تاريخ اليهود في الشرق الأوسط (New Souscrfor He History of Middle Eastarn Jews) أشارت فيه إلى عدد من وثائق القرون الوسطى، وكان من ضمنها خطاب مخطوط يحمل رقم MS. H.6 موجود في مكتبة الجامعة بالقدس، وقد كتبه في صيف عام ١١٤٨ تاجر اسمه خلف بن إسحق كان يعيش في عدن لصديق له اسمه ابراهام بن ييجو كان يعيش في منجالور، وهي ميناء على الساحل الجنوبي الغربي للهند وجاء فيه ذكر العبد الهندي. وعام ١١٤٨ له أهميته في تاريخ المنطقة، إذ يقع في الفترة التي كانت فيها فلسطين مسرحاً ومَمَرّاً للجيوش الصليبية الأوروبية، ولكن وسط هذه الحروب كان خلف بن إسحق يركز كل اهتمامه بأمور التجارة بعيداً عن هموم السياسة والحرب، شأنه في ذلك شأن غيره من المشتغلين بالتجارة مع بلاد الشرق ولذا لم تكن رسائلهم تحمل أية أخبار عن سير الحروب الصليبية رغم أهميتها لمنطقة الشرق الأوسط ككل. وقرب نهاية الرسالة التي أصبحت تحمل رقم MS. H.6 جاءت الإشارة إلى ذلك العبد الهندي حيث يرسل إليه خلف بن إسحق تحياته الكثيرة الخاصة، ولم يكن الخطاب يحمل أية معلومات أخرى عنه. وكانت تلك الإشارة السريعة المقتضبة تحمل بعض المفارقات في نظر الباحث الهندي، إذ ليس من المألوف أن يرسل شخص سلامه وتحياته إلى عبد مملوك وبخاصة في رسالة تدور حول التجارة والعمل، ولذا كان التساؤل عن الأسباب التي تكمن وراء هذه التحيات التي ينفرد بها ذلك العبد دون غيره من عشرات الآلاف من العبيد الهنود الذين كان يمتلكهم التجار اليهود وغيرهم في ذلك الحين، وعن الظروف التي أدت بذلك العبد الهندي دون غيره إلى أن يدخل التاريخ من خلال تلك المخطوطة المحفوظة في مكتبة الجامعة، وبحيث يجد بعد ثمانية قرون من يهتم بشأنه ويبحث عن قصته ويخرجها من الوثائق المحفوظة إلى نور الحياة الواقعية.

ويبدو أنه كان مقدراً لقصة ذلك العبد الهندي أن تطفو على السطح مرة أخرى. فبعد ذلك المقال الأول بإحدى وثلاثين سنة ظهرت القصة للمرة الثانية عام ١٩٧٣، وكان هذا الظهور الثاني، مثل

الظهور الأول، في شكل رسالة أصبحت ضمن مجموعة من الوثائق نشرها الأستاذ جوتين S.D. goitein من جامعة برنستون تحت عنوان Letters of Medieval Jewish Letters. وكان هذا الخطاب موجهاً أيضاً من خلف بن اسحق إلى إبراهام بن اييجو في منجالور ولكنه كان يرجع إلى عام ١١٣٩ (أي قبل الخطاب الذي سبقت الإشارة إليه بتسعة أعوام) وكان مليئاً بأخبار شحنات الحرير والحديد والفلفل والهيهان وغرق إحدى هذه الشحنات في البحر الأحمر، ثم كانت هناك أيضاً عبارات الود والمحبة مع التحيات الخاصة لذلك العبد الهندي الذي يشير إليه الخطاب باسمه ولكن بعض حروف الاسم طمست فلم يبق منه إلا ثلاثة أحرف فقط هي ب م أ B M A ومن هذا الخطاب نعرف أن ابن اييجو كان تاجراً يهودياً من تونس ولكنه رحل إلى الهند عن طريق مصر حيث مكث بها بعض الوقت وأنه كان يتمتع بمواهب وقدرات فذة وكان يهتم بالعمل والشعر ثم عاد إلى مصر مرة أخرى بعد أن أفلح في تكوين ثروة كبيرة من التجارة وعاش بقية حياته في مصر، ووجدت أوراقه طريقها إلى معبد اليهود في القاهرة ثم تم حفظها بعد ذلك ضمن الوثائق الهائلة التي تعرف باسم الجنيزة. . . وحين اطلع الباحث الهندي على هذا العمل الذي نشره الأستاذ جوتين وكان ذلك في مكتبة أكسفورد عام ١٩٧٨ أثار الكتاب خياله وعزم على كشف سر ذلك العبد الهندي، وحمله ذلك العزم إلى مصر عام ١٩٨٠ لجمع المادة الأنثوجرافية الخاصة برسالته للدكتوراه. ومن مصر ظهرت هذه الرواية التي تدور أحداثها حول هذين الهنديين اللذين تفصل بينهما ثمانية قرون.

وكان لابد للباحث الهندي لكي يتتبع قصة العبد الهندي من أن يرحل من مكان لآخر لكي يجمع شتات القصة ويبحث عن حقيقة الاسم الذي لم يبق منه سوى تلك الحروف الثلاثة. وبقية هذا الجزء من الرواية مزيج من البحث العلمي الجاد، والمخاطرات والرحلات ثم محاولة الاستعانة بالخيال لتركيب قصة عتمة توجد بعض عناصرها في تلك المخطوطات، وفي كتب التاريخ والرحلات حول العصر الذي عاش فيه ذلك العبد الهندي.

وتذهب الرواية كما يقصها أميتاب غوش من واقع الوثائق ومن بعض الإبداعات الخاصة به هو كما يتصور سير الأحداث إلى أن حياة ذلك العبد الهندي كانت قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بحياة سيده ابن اييجو الذي يبدو وأنه ذهب إلى اليمن حين غادر مصر وعاش فيها بعض الوقت إلى أن صدرت منه بعض الأعمال التي استوجبت إبعاده من اليمن فرحل إلى منجالور حيث ترك لشهواته العنان إلى أن وقع في حب سيدة. وتذهب الرواية إلى أنها إحدى الجواري الهنديات، فتزوجها وأنجب منها، وأدى ذلك إلى إغفال الناس أمره ووقوفهم ضده. فقد كان في استطاعته أن يتزوج من إحدى اليهوديات أو من أي امرأة حرة أخرى، ولذا كان ابن اييجو يعاني بعض الوحدة الاجتماعية. وتصور الرواية العبد الهندي المخلص لسيده وقد تولى أمر تجارته بل والإشراف على شئون بيته وأولاده، وتصريف أمور مولاه بكثير من التعقل والحكمة حتى وثق فيه وقربه إليه وجعله وكيلاً لأعماله ونداً بذلك يحتل مكانة محترمة ليس فقط في بيت مولاه ولكن في المجتمع كله وبين التجار الذين يتعاملون مع سيده كما يستدل على ذلك من بعض المراسلات التي عثر عليها ضمن وثائق الجنيزة، لدرجة أن بعض تلك المراسلات كانت تذكر ذلك العبد باسم الشيخ ب م أ. وحاول الباحث الهندي أن يحل هذه الرموز ويعرف اسم ذلك العبد بالضبط، فقد تشير هذه الحروف إلى الاسم براهما ولكنه كان يعرف أن ذلك

اسم لايطلق أبداً على العبيد، وكذلك الحال بالنسبة لاحتمالات أخرى، ولم يجد مناصاً من أن يرحل هو نفسه إلى منجالور ليتصل بالأهالي ويجمع قائمة بالأسماء التي يدخل في تكوينها تلك الحروف الثلاثة. وتتخذ الرواية هنا شكل التحقيق العلمي من ناحية والرواية القائمة على الرحلات والمخاطرات من الناحية الأخرى حتى استقر رأيه في آخر الأمر على أن اسم العبد كان يوما Bomma، وهو اسم لايزال موجوداً ولكن إلى حد قليل في بعض المناطق الساحلية النائية والتي تعمل بصيد السمك، ومن مثل هذه الجماعات النائية المنعزلة الفقيرة يمكن أن يقع بعض الأفراد في ربقة العبودية والرق.

وليس ثمة ما يدعو إلى الدخول في تفاصيل الخطوات التي اتبعها الباحث الأنثربولوجي ليتحقق من أصل بطل هذا القسم من الرواية وهو العبد الهندي. فهذه كلها تفاصيل قد تهم الباحث الأنثربولوجي المتخصص وباللغات المتخصص في الأنثربولوجية اللغوية لأنها تشير إلى طريقة التحقق من الاسم وتحريفاته وتفرعاته، كما أن هذا القسم من الرواية يكشف أيضاً عن الأصول والمبادىء المنهجية التي يتبعها الباحثون الأنثربولوجيون حين يتعرضون لبعض المعلومات التاريخية التي حدثت في أزمان سابقة، وبوجه أخص حين تعوزهم بعض التفاصيل، والدور الذي يلعبه الخيال في إكمال هذا النقص وكيف تتم المزاوجة بين الوقائع الأثنوجرافية المشخصة وبين العناصر المتخيلة بحيث تؤلف كلها وحدة متكاملة منطقية لاتتعارض مع إمكان تحققها في الواقع المعاش.

وإذا كانت رواية «العودة إلى الضحك» لها مقدمة كتبها أحد كبار أساتذة العلم الاجتماعي وهو - كما ذكرنا - أمر غير مألوف في الروايات العادية فإن رواية «في بلاد عتيقة وعريقة» لها ملاحق وهوامش وتعليقات تشغل حوالي أربعين صفحة (من صفحة ٣٥٧ - ٣٩٣) وتمتلىء بتعليقات وتوضيحات وإحالات إلى المراجع والمصادر وهي أمور لا تجدها في غير الكتب العلمية الأكاديمية الجادة. وبذلك يمكن القارىء المثقف العادي أن يقرأ الكتاب على أنه رواية تجمع بين الحقيقة والخيال وينظر إليه على أنه عمل روائي أدبي على درجة عالية من طلاوة الأسلوب وجمال التعبير وتنوع الأحداث وتباين الشخصيات التي تعكس جوانب مختلفة من الطبيعة البشرية الخصبة العميقة المعقدة. كما يمكن للباحث الأنثربولوجي المتخصص أن يقرأه على أنه دراسة أنثربولوجية لمجتمع قروي معاصر من ناحية، وتحقيق أنثربولوجي تاريخي لبعض الأحداث التي حدثت في مجتمعات وثقافات مختلفة ويخرج من ذلك بحصيلة وافرة من المعلومات الأثنوجرافية، والأهم من ذلك كله أن هذا القارىء المتخصص يرى بوضوح كيف يمكن تطويع المناهج وطرق البحث الأنثربولوجية المختلفة في دراسة المجتمعات التقليدية ذات التاريخ الطويل والتراث العميق ويخرج بذلك عن تلك الدائرة الضيقة التي حصر كثير من الأنثربولوجيين في الغرب أنفسهم فيها، حين قصروا معظم جهودهم على دارسة المجتمعات البدائية أو (المتوحشة) كما تشير إليها لورا بوهانان.

(٤)

إذا كانت رواية «العودة إلى الضحك» تسجيلا إلى حد كبير للتجربة الذاتية التي خاضتها الباحثة الأمريكية في مجتمع قروي محلي بدائي في إفريقيا، وإذا كانت رواية «في أرض عريقة وعتيقة» عرضا لبعض الصور واللوحات الفنية والجمالية التي تعكس تفاصيل بعض المواقف والشخصيات وبعض أحداث التاريخ

بأسلوب قصصي ممتع يجمع بين الحقيقة والخيال، فإن ثمة نموذجاً آخر للرواية الأنثربولوجية لايعتمد القص أو الحكي فيها على تجربة الباحث الأنثربولوجي الغريب بقدر مايصدر عن أحد الأهالي أنفسهم وبذلك يعكس صورة المجتمع من الداخل كما يراها الناس أنفسهم أو يتخيلونها، وكثيراً ما يصوغون هذه الرؤية في حكاية متخيلة تماماً أو في أسطورة انتقلت إليهم عبر الأجيال ودخلتها كثير من العناصر الخيالية، ومن هنا فإن معظم الروايات التي تتبع هذا النموذج تكون أقرب من النموذجين السابقين إلى الأعمال الروائية بالمعنى الدقيق للكلمة وتقابل معظم متطلبات الفن الروائي في الوقت الذي تعرض فيه لتفاصيل الحياة اليومية ولكثير من القيم وأساليب التفكير التي تحكم سلوك الناس.

والمثال الذي نقدمه هنا لهذا النموذج من الرواية الأنثربولوجية مثال يتسم ببعض الغرابة التي تظهر حتى في عنوان الرواية نفسه وهو «قمر الفتى ذي الدثار» Blanket Boy's Moon وهذا عنوان يحتاج لشيء من التفسير والتوضيح.

فالدثار هو تلك الرقعة من القماش التي يضعها كثير من الأفارقة القبليين فوق أحد الكتفين فيتدلى من الكتف لكي يستر معظم الجسم، وهو يشبه بذلك ملابس الإحرام التي يرتديها المرء أثناء الحج ويميز الدثار الأفارقة الوطنيين الذين لايزالون يحتفظون بطابع الحياة التقليدية ولم تبهرهم حياة المدن والحضارة الغربية ولم يستبدلوا به الثياب الأجنبية الحديثة وقد يكون ارتداء الدثار مقبولاً في المناطق القبلية البعيدة عن الرجل الأبيض حيث يحتفظ الناس بمقومات حياتهم وتقاليدهم، ولكن ارتداءه في المدينة يضع صاحبه تلقائياً في مكانة دنيا على اعتبار أنه رمز للقبلية المتخلفة وبذلك يكون دائماً موضع شك ومحل ازدراء.

وكما تعتقد كثير من الشعوب بوجود علاقة بين النجوم والكواكب من ناحية وحياة الناس ومصائرهم وأقدارهم من الناحية الأخرى، فإن بعض قبائل جنوب إفريقيا بالذات تعتقد أن القمر يلعب دوراً مهماً في حياة المجتمع وحياة الناس على السواء، كما أن حياة الفرد في العادة تمر بنفس المراحل التي يمر بها القمر منذ أن يولد هلالاً ثم يكبر وينمو حتى يكتمل بدراً ثم يبدأ في النقصان حتى يبلغ المحاق والأفول. وقد مرت حياة بطل الرواية بهذه المراحل التي تماثل منازل القمر وأوجهه المختلفة. ومن هنا فإن الرواية، كما يدل عنوانها تدور حول حياة شخص من الأهالي ومصيره وقدره، وهي من هذه الناحية تشبه حياة عشرات الناس من الأهالي وإن اختلفت التفاصيل من شخص لآخر.

تختلف رواية «قمر الفتى ذي الدثار» عن الروايتين السابقتين في عدة نواح. فهي أولا تدور حول بطل من أوساط الناس في إحدى قبائل جنوب إفريقيا، وبذلك فالكاتب يستخدم صيغة الغائب وليس صيغة المتكلم كما هو الحال في الروايتين الأخريين بل وفي معظم الروايات الأنثربولوجية التي لاداعي للتعرض لها هنا. ثم إن لهذه الرواية مؤلفين اثنين وليس مؤلفاً واحداً. وأحد هذين الاثنين، وهو صاحب القصة الأصلية إفريقي وطني من جنوب إفريقيا موبيلي باولوس Mopeli -Paulus وهو سليل الزعيم الإفريقي الكبير موشوشو Mo-shoeshoe زعيم الباسوتو وبذلك فهو يعتبر عضواً في العائلة الحاكمة في باسوتولاند، وقد عهد إلى كاتب محترف هو بيتر لانهام Peter Lanham [١٥] بمهمة الصياغة الأدبية والفنية. ولقد تلقى موبيلي باولوس - مثل الكثيرين من أبناء الزعماء والرؤساء الأفارقة الوطنيين تعليماً عالياً وبذلك فهو يجمع بين الثقافة القومية

التقليدية والثقافة الغربية الحديثة. فقد درس الطب في جامعة Witwatersraud كما أنه يتمتع ببعض المواهب الأدبية والفنية التي ساعدته على تأليف عدد من الكتب بلغته القومية، فضلا عن بعض قصائد الشعر التي من أهمها قصيدة يسجل فيها فاجعة غرق ناقلة الجنود مندي Mendi التي غرقت في الحرب العالمية الأولى وهي متجهة إلى فرنسا وعلى ظهرها ٦٠٠ جندي إفريقي. وقد جعل من بطل روايته ابنا لأحد هؤلاء الجنود الغرقى. وقد شارك موبيلي باولوس نفسه في الحرب العالمية الثانية في شرق إفريقيا ومصر. وظهرت الرواية عام ١٩٥٣ كما أن بها بعض الوقائع والأحداث التي يردها هو نفسه إلى عام ١٩٤٩. أما بيتر لانهام الذي قام بصياغة الرواية ووصفها في صورتها الأخيرة فهو من أصل بريطاني ولكنه عمل في إذاعة جنوب إفريقيا منذ بداية الإرسال عام ١٩٢٥، ولذا فإن له من الخبرة ما ساعده على هذه الصياغة الفنية الرائعة.

هذا معناه أن أحداً من المؤلفين الاثنين لم يتخصص في الأنثربولوجيا على عكس الحال في الروايتين السابقتين، ومع ذلك فإن «قمر الفتى ذي الدثار» تدخل في باب الرواية الأنثربولوجية ليس فقط لأن أحداثها تدور في مجتمع إفريقي قبلي من المجتمعات التي يهتم علماء الأنثربولوجيا بدراستها بل لأن هذه الأحداث تعطي لنا صورة تفصيلية واضحة عن كثير من أنماط الحياة الوطنية بحيث تصلح لأن تكون مرجعاً أنثربولوجيا دقيقاً كما أن صاحب القصة الأصلي هو إفريقي وطني! وإذا لم يكن متخصصاً في الأنثربولوجيا فإنه بحكم نشأته وتكوينه وتعليمه وثقافته على علم ودراية وخبرة بأحوال القبيلة والمجتمع القبلي وظروف الحياة ونظمها وتقاليدها وتراثها وقيمها. كذلك إذا لم يكن صاحب الرواية الأصلي أنثربولوجيا متخصصاً فهو مثال نموذجي لما ينبغي أن يكون عليه الشخص الذي يطلق عليه في الكتابات الأنثربولوجية اسم «الإخباري» Informaut وهو الشخص الذي يتميز بالمعرفة الدقيقة العميقة بأحوال المجتمع والذي يعتمد عليه الباحث الأنثربولوجي الغريب للحصول على كثير من المعلومات الأثنوجرافية، التي يصعب الحصول عليها عن طريق الملاحظة، بل إنه هو الذي يفسر للباحث كثيراً من المظاهر السلوكية التي يصعب عليه فهمها. فدوره الإخباري ليس دوراً سلبياً بل إنه دور المشارك الإيجابي في البحث، ويتوقف نجاح البحث إلى حد كبير على نوع الإخباري ومدى علمه ومعرفته ودرايته وإيجابيته وصدقه وتعاونه. وهذه كلها مبادىء أولية يعرفها الباحثون الأنثربولوجيون. وعلى ذلك فإذا كان القص والحكي في الروايتين السابقتين جاءا على لسان الباحثين الأنثربولوجيين فإن القص والحكي في هذه الرواية يجيء على لسان الإخباري الذي هو المقابل الأكاديمي في البحث الأنثربولوجي للباحث الميداني.

وتحقق رواية «قمر الفتى ذي الدثار» كثيراً من متطلبات الفن الروائي من حيث وجود قصة لها حبكة وبطل وأشخاص ومساعدون يقوم بينهم حوار منطقي ومتصل ويهدف إلى الوصول إلى ذروة العمل الدرامي، كما أن الأحداث ذاتها تقوم على الخيال المبدع الخصب وإن كانت كل عناصرها مستمدة من الثقافة، أو الثقافات السائدة في جنوب إفريقيا بكل تعقيداتها وتنوعها وتباينها.

موضوع «قمر الفتى ذي الدثار» هو بشكل عام وطأة الحضارة الغربية - أو حضارة الرجل الأبيض، على إنسان إفريقي وطني عادي يتعرض أثناء حياته لكل ما في هذه الحضارة من خير وشر. ويعيش هذا الرجل - بطل الرواية مونير Monair في إقليم ليمونتسا Lemontsa في بلاد الباسوتو، ومع أنه كان يتمتع بسمعة طيبة ومكانة محترمة وكان مقرباً من الزعيم وله عائلة صغيرة يرعاها، فقد قرر مثلما فعل غيره من أبناء القرية والقبيلة

وأبناء جيله يوجه عام أن يذهب إلى جوهانسبرج ـ مدينة الذهب ـ ليجرب حظه في الحياة وجمع المال بحيث يستطيع أن يشتري عدداً من الأبقار، على اعتبار أن البقر هي أداة ومعيار المكانة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية معاً، وفي جوهانسبرج يحقق كثيراً من النجاح وقدراً لابأس به من المال ولكنه يعاني في الوقت ذاته من عداء الرجل الأبيض وبالذات رجل الشرطة الذي يختلق ويلفق له بعض التهم ليلقي به في السجن، ولكن الأدلة لم تكن تكفي لإدانته، ويساعده في الإفلات من التهمة وإثبات براءته أحد أصدقاء الطفولة (كوتو Koto) الذي كان قد حقق نجاحاً باهراً في التجارة وأصبح ذا مال وجاه، ويعود مونير إلى موطنه القبلي عازماً على الاستقرار مع أهله وجماعته القبلية بعيداً عن المدينة وعن شرور الرجل الأبيض. ولكن الأقدار تدفعه في السير في طريق غير الذي رسمه لنفسه، إذ يحدث أن يقع عليه اختيار الزعيم للمشاركة مع عدد من رجال القبيلة المهيبة بعض الشعائر والطقوس السحرية الخاصة بوضع أساس قرية جديدة يتولى ابن الزعيم إدارتها، وتتضمن هذه الطقوس قتل شخص غريب من غير أعضاء القبيلة، وذلك فيما يعرف باسم «القتيل الشعائري» اعتقاداً منهم أن هذه الأضحية البشرية سوف تضمن نجاح المشروع وازدهار القرية. وتتضمن عملية القتل الشعائري بعض الطقوس الوحشية مثل قطع شفة الضحية المختارة واقتلاع عينيه وتمزيق بعض أجزاء جسمه الأخرى قبل الإجهاز عليه ودفن الجثة في مكان مجهول بينما تدفن تلك الأجزاء المقتطعة من الضحية في مكان إقامة المشروع. ويلعب (قمر) دوره القاسي، فقد كان الضحية المختارة هو نفس الصديق الذي ساعد مونير على الإفلات من التهمة، ويحاول مونير أن ينقذ صديقه من هذا المصير الرهيب في آخر لحظة ولكن أوامر الزعيم وقوة التقاليد كانت تفرض عليه المشاركة في تلك العملية وتنفيذها على الرغم منه. ويتملكه الأسى والحزن والتشتم ولم يكن أمامه إلا أن يفر من المنطقة كلها ومن جوهانسبرج ذاتها لأنه كان يدرك أن الشرطة لابد أن تعثر في يوم من الأيام على الجثة وتتعرف على الجناة وتتبعهم أينما كانوا، وبذلك يرحل إلى ديربان Durban أو مدينة السكر حيث يعمل في الميناء ضمن عمال الشحن من الزنوج ويصادف مرور أحد رجال الدين المسلمين (الشيخ عبدالواحد) وهو من أصل باكستاني بأحد الأرصفة أثناء عملية شحن السكر فيفلت أحد الأجولة المحملة بالسكر من الرافعة ويكاد يسقط فوق رأس الشيخ لولا يقظة مونير الذي يبعده بقفزة واحدة في آخر لحظة، ويشعر الشيخ أنه مدين له بحياته فيقربه إليه ويقدمه إلى عائلته ويحمل إليه بعض الهدايا من الملابس والطعام من حين لآخر. ثم تقوم بعض الاشتباكات السياسية العنصرية بالمدينة، ويهاجم الزنوج السود السكان الملونين (الآسيويين) ويساعد البيض على اشتعال الموقف، وتهاجم جموع العمال الزنوج بيت الشيخ باعتباره أحد هؤلاء الملونين ولكن مونير يتصدى للدفاع عن صديقه وعائلته ضد أبناء سلالته العرقية وكأن شبح جريمته الأولى كان يطارده، ويفلح في صد هجوم المهاجمين الثائرين حتى يأتي رجال الشرطة فينقذون الشيخ وعائلته، وتشيد الصحافة ببطولة مونير وتنتشر صورته ويكون ذلك نقطة تحول أخرى في حياته، إذ لابد أن تعرف شرطة جوهانسبرج أين يختفي، وتأتي لمطاردته والقبض عليه وتقديمه للمحاكمة بعد أن أفلحت في العثور على جثة كوتو والقبض على معظم الذين اشتركوا في عملية القتل الشعائري، وبذلك يهرب مرة أخرى من ديربان إلى لورنسو ماركيث التابعة للبرتغال، وذلك بمساعدة الشيخ عبدالواحد الذي يدرك تماماً أنه ليس ثمة ما يبرر ارتكاب جريمة قتل ولكنه يدرك في الوقت ذاته مدى سيطرة التقاليد والأفكار الغيبية من قوة تفوق قوة وسلطان القانون والدولة على الإنسان الإفريقي القبلي، ثم هو يدرك أن باب الندم والتوبة مفتوح وأن الله هو الذي يحاسب الناس في آخر الأمر. ولكن قدر مونير أو (قمره) يسوق مرة أخرى

وأخيرة تحت ظروف عائلية قهرية إلى العودة إلى جوهانسبرج وإلى القرية لكي يقع في أيدي الشرطة ويقدم للمحاكمة حيث يحكم عليه بالإعدام، ويجد في ذلك الحكم خلاصه وراحة ضميره.

فهذه إذن رواية محكمة تقوم على قصة أو حكاية خيالية وإن كانت عناصرها مستمدة من الحياة، بل ويمكن أن تحدث كل أحداث الرواية في الحياة الواقعية. ولكن المعلومات الأثنوجرافية التي ترد في سياق الرواية هي تقرير أثنوجرافي على درجة عالية من الدقة والتفاصيل. وهي معلومات يدلي بها «إخباري» إفريقي وطني يعرف خبايا الحياة في موطنه الأصلي ومعنى الأحداث والأسباب الكامنة وراءها والأهداف التي تهدف إليها ويقدم لنا ذلك كله إزاء خلفية اجتماعية مستمدة من واقع الحياة في جنوب إفريقيا بكل مافيها من تشابك وتعقد العلاقات وما يترتب على ذلك من صراع قائم بين السلالات والثقافات المختلفة، يستوي في ذلك الصراع بين البيض والسود الزنوج، وبين السود والملونين المنحدرين من أصل آسيوي والذين يشكلون نسبة لابأس بها في بعض المناطق وبخاصة في المدن، أو الصراع بين البيض المنحدرين من أصل بريطاني والبيض البوير المنحدرين من أصل هولندي والذين يعرفون عموماً باسم الأفريكانرز، والصراع بين هؤلاء جميعاً وبين (البيض) الخلاسيين الذين تجري في عروقهم بعض الدماء الزنجية نتيجة للاتصالات الجنسية غير المشروعة وموقف هؤلاء الخلاسيين من المجتمع ككل حيث يحتلون مكانة هامشية يشعرون فيها بالخزي والعار بالنسبة للبيض بينما يشعرون بالاستعلاء المشبوب بشيء من القسوة والخجل إزاء السود، ويودون لو كان في استطاعتهم التخلص من تلك الدماء الزنجية التي تجري في عروقهم. بل إن المعلومات الأثنوجرافية التي ترد في سياق الرواية تتعرض لأمور الحياة اليومية العادية التي قلما نجدها في غير الدراسات الأثنوجرافية الوصفية مثل وصف أنواع المساكن المختلفة وترتيب حجرات البيت وتوزيعها واستخدامها، ومكانة المرأة في المجتمع الوطني المحلي التقليدي والدور الذي تلعبه في حياة الأسرة، وتنشئة الأطفال، بل ومجالس شرب الجعة الوطنية وطريقة صنعها، وذلك فضلاً عن التفاصيل الكثيرة المتعلقة بالخرافات وأنماط التفكير الغيبي وعوامل الانحلال الذي يتسلل إلى جذور وتقاليد المجتمع الإفريقي الوطني بتشجيع من البيض الذين يسلكون في سبيل تحقيق ذلك طرقاً عجيبة وملتوية ليس من أقلها خطراً تسهيل الحصول على المخدرات والعمل على نشرها بين الأفارقة دون أن يقربوها هم أنفسهم. بل إن الرواية تزود القارىء بمعلومات أخرى دقيقة عن الملبس والطعام وطرق تحضيره، وعن أساليب المغازلة والعلاقات الجنسية ومكانة الأبقار في النسق الاقتصادي والاجتماعي، وعن الصراع بين الأديان السماوية وبين الوثنية التي لاتزال مبادئها وعقائدها وشعائرها تختلط بتعاليم هذه الأديان السماوية وبخاصة الإسلام والمسيحية على أساس أن اليهودية قاصرة على بعض اليهود الذين ينتمون في الأصل إلى جنسيات غربية وافدة منذ الاستعمار.

فهذه الرواية/ الدراسة سجل أثنوجرافي دقيق وحافل بالمعلومات التي صيغت في أسلوب أدبي رفيع وفي إطار قصصي جذاب به كثير من الخيال الإبداعي وتدور أحداثه في فترة زمنية حاسمة في تاريخ الشعوب الإفريقية بوجه عام، وهي فترة كانت تموج بالصراعات والعداوات بين الأهالي الأصليين والمستعمرين البيض، وبالتالي بين قيم الحضارة الغربية ونظمها وقوانينها وتصوراتها النابعة من الشعور بالاستعلاء وبين الثقافة الوطنية التقليدية وأعرافها وتقاليدها ومحاولات الأهالي الاحتفاظ بهويتهم الثقافية الأصلية مع ثورتهم على القيود المفروضة عليهم والتي تمنعهم من الاختلاط بل والاتصال في كثير من الأحيان بهذه العناصر الوافدة وحرمتهم من كثير من الحقوق والمزايا التي تتمتع بها هذه العناصر الدخيلة.

كل هذه العوامل الاجتماعية والثقافية تتفاعل معاً وتتصارع في ذهن الإنسان الإفريقي العادي الذي يعتبر (موتير) - في الرواية - نموذجاً له، بحيث يجد هذا الإنسان الإفريقي نفسه موزعاً بين مختلف التيارات المتلاطمة التي تفقده توازنه وتكاد تفقده هويته الثقافية والاجتماعية الإفريقية. إلا أن هذه الرواية/ الدراسة تكشف لنا في الوقت ذاته عن بعض الجوانب الإيجابية الإنسانية الرقيقة التي تتمثل بوجه خاص - في معظم الروايات الأنثربولوجية التي لم نعرض هنا إلا لأمثلة قليلة لها - من رجال الدين ونظرتهم السمحة إلى فكرة الدين وجوهره بعيداً عن الفوارق والاختلافات الشكلية والظاهرية. وربما كان موقف الشيخ «عبدالواحد» في رواية (قمر الفتى ذي الدثار) يوضح لنا هذا الشعور المتسامي وتلك النظرة العميقة إلى الدين والوظيفة السامية التي يضطلع بها رجل الدين في المجتمع والتي تعلو في كثير من الأحيان على القوانين الوضعية. ومثل هذه المواقف تعبر عن عمق وحقيقة التجربة الإنسانية التي تعلو فوق الأحداث الجزئية.

وعلى الرغم من المرض والفقر والبؤس الذي يسيطر على أحداث الرواية / الدراسة والتي تعكس الجو القاتم الذي يخيم على جنوب إفريقيا، وعلى الرغم من الفجوة الحضارية الهائلة التي تفصل بين شرائح السكان المتباينة والشكوك العميقة النابعة من اختلاف المذاهب والأديان والمعتقدات ومن القهر الإنساني المتمثل في طغيان الرجل الأبيض وتسلطه، كانت معظم الروايات الأنثربولوجية تعكس بعض الأمل والرجاء من التطلع إلى المستقبل وتعقد كثيراً من الآمال على رجال الدين بالذات والدور الذي يمكن لهم أن يلعبوه في تنوير أذهانهم وتخليصهم من كثير من الأفكار الغيبية التي تدور في معظمها حول السحر والشعوذة لتحل محلها الأفكار والتعاليم الدينية السماوية التي تدعو إلى الرقي والتقدم وإزالة فوارق اللون والسلالة بين البشر. وهذا عنصر هام تعبر عنه الروايات الثلاث التي عرضنا لها بطرق مختلفة وبدرجات متفاوتة من الوضوح والمعالجة الصريحة أو المستترة.

ففي فقرة مؤثرة وعميقة في رواية «قمر الفتى ذي الدثار» تتلخص كل فلسفة هذه الروايات الأنثربولوجية الثلاث بل وكثيراً من الروايات الأنثربولوجية الأخرى التي لم نعرض لها والتي يدور معظمها على أية حال حول صراع الثقافات والحضارات، وفي هذه الفقرة المعبرة يقول (موتير) وهو يسترجع في ذهنه شريط حياته:

«إذا كان هناك وقت للتذكر، فهناك أيضا وقت للعمل. فالحياة في الماضي ليست هي الحياة في الحاضر، ومن الخير للشخص الذي يموت حاضره أن يدفن تماماً. وإذا كان مذاق (الطبخة) أكثر ملوحة مما يجب فلن يمكن إزالة ما بها من ملح، ولن تكفي كل دموع المرء في أن تخفف من حدة ذلك المذاق اللاذع. ولن يكون ثمة مفر إما من إفراغ الإناء من كل ما فيه وتجهيز (طبخة) جديدة تماماً، وإما إضافة مزيد من اللحم والمرق والخضر الجديدة الطازجة حتى يمكن تقبل الطعم حين تتذوق الشفاه الطعام من جديد». (صفحة ٨٣).

الهوامش

(١) انظر في ذلك على سبيل المثال
C. Ilan Beer, Darwin's, Plots: Evolutionary Narrative in Darwin, George Eliot and Nineteenth century Fiction, Ark. London 1985.

(٢) Margaret Mead, Coming of Age in Samoa, 1929.
وانظر في ذلك كتاب الأستاذ إيفانز بريتشارد Social Anthropology وبالذات الترجمة العربية التي قمنا بها للكتاب وظهرت تحت عنوان: «الأنثروبولوجيا الاجتماعية أو علم الإنسان الاجتماعي»، منشأة المعارف الإسكندرية، الطبعة الأولى ١٩٥٨، صفحة ١٤٣ ثم الطبعات التالية.

(٣) Bronislaw Malinowski, The Argonauts of the Western Pacific, 1922.

(٤) إيفانز بريتشارد، المرجع السابق ذكره، صفحة ١٤٠.

(٥) انظر مثلاً
E.E. Evans - pritchard., Witchcraft, Oracles and Magic among The Azande, Oxford U.P. 1937. Monica Hunter, Reaction to Conquest, London. 1936 etc.

(٦) في معجم مصطلحات، الأدب يقول مجدي وهبه عن «الحبكة».
فيقص أرسطو في كتابه فن الشعر على أن الحبكة هي قلب التراجيديا. فهو يذكر الحبكة في الفصل السادس من كتابه يقول في: «...فالحبكة إذن هي نواة التراجيديا، والتي تنزل منها منزلة الروح، وتليها الأخلاق» (ترجمة الدكتور شكري محمد عياد).
فوحدة الحبكة في نظره ترتبط لعلاقة الضرورة والسببية بين أحداث المسرحية، ولا تعتبر وحدة الشخصية الأساسي في الترابط... وفي الوقت الحالي نجد الرواية والمسرحية تتراوحان بين التزام الحبكة وعدم التزامها لأغراض جمالية. (مجدي وهبة: معجم مصطلحات الأدب، إنجليزي، فرنسي، عربي، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٤، صفحة ٤١١، ٤١٢).

(٧) Roland Barthes, Le Degre Zero de L'ecriture, paris 1953 English Translation, Writing Degree Zero, Jonathan Cape. London. 1967. P. 34

(٨) Paul Ricoeur, Hermeneutics and the Social Sciences (Translated into English by John b. Thompson). Cambridge U.P. 1981, P. 296.

(٩) إيفانز بريتشارد، والأنثروبولوجيا الاجتماعية، مرجع سبق ذكره، صفحة ١٢٤ ـ ١٢٥.

(١٠) من ذلك مثلاً:
Bronislaw Malinowski, Crime and Custom in Savage Society Routledge, London 1926, Sex and Repression in Savage Society, Routledge, london(2nd Printing) 1937.

(١١) Rel and Barthes, Op. Cit. P. 31.
وفي كتابه القصير القيم عن تاريخ الأدب الإنجليزي يقول الأستاذ أيفور إيفانز Ifor Evans: إن فن الرواية فن واسع وعريض يتناول كل جوانب الحياة في كل زمان ومكان، ولا يعتمد على الوصف البحت وحده وإنما كثيراً ما يلجأ إلى الحوار تماماً كما هو الحال في الأعمال الدرامية، لدرجة أن الكثيرين يرون أن الرواية هي الشكل الأدبي الذي تستطيع أن تتغلغل في اكتشاف أعماق حياة الإنسان بطريقة أفضل من غيره من أشكال الأدب الأخرى. ويذهب الأستاذ إيفانز إلى أن الرواية ترى أن حياة الفرد العادي جديرة بأن تكون موضوعاً للعرض والدراسة والتحليل من خلال العمل الروائي، وفي هذا موقف يتفق مع ما نذهب إليه هنا فيما يتعلق بالأنثروبولوجيا انظر في ذلك:
Ifor Evans, A Short History of English Literature, A Pelican Book, London 1953, P. 129.

(١٢) David rieman, Introduction, to Return I to Laughter, Op. cit, P.X

(١٣) Amitav Ghosh, In an Antique Land, Granta, Books, London 1992.

(١٤) John B. Thompson, . Editor,s Introduction. To Paul Ricoeur, op. cit., pp. 15 - 17

(١٥) Peter Lanham and A. S. Mopeli Paulus ; Blanket Boy,s Moon, Collins, London 1953.

التفسير الاجتماعي للظاهرة الأدبية:

التراث وإشكاليات المنهج

د. فتحي أبو العينين

استهلال

لا أعتقد أننا في حاجة إلى أن نستهل دراستنا هذه بالتدليل ـ أو التأكيد ـ على مشروعية التفسير الاجتماعي للظاهرة الأدبية. فأمام الآفاق الرحبة التي كشفت عنها الدراسات الحديثة في هذا المجال، والجهود العلمية المبذولة، والتي لاتزال تبذل، يصبح الحديث عن الطبيعة الاجتماعية للأدب، أو عن أهمية النظرة السوسيولوجية في دراسة الأدب، رجوعا إلى أوليات تجاوزتها الممارسات العلمية منذ فترة ليست بالقصيرة. لقد صار طلاب الأدب وباحثوه — في معظمهم — لا يجادلون في الفكرة التي مؤداها أن الأدب، بوصفه إبداعا فنيا وممارسة إنسانية، لا ينهض على أفكار وقضايا جمالية فحسب، بل يقوم أيضا على أفكار وقضايا، ويستخدم وسائل، ذات صلة بالسياقات التاريخية والاجتماعية التي يظهر فيها. وحتى في حالات الكتاب الذين يخوضون مغامرات وتجارب أدبية جديدة يتمردون فيها على التقاليد الفنية السائدة، ويبتكرون وسائل جديدة (وهي حالات توجد في كل عصر)، فإن فهم التقاليد السائدة والعوامل التي أدت إلى التمرد عليها، والتجليات الفنية ـ الجمالية لهذا التمرد، لا يمكن تحقيقه دون توفر المعرفة العلمية حول الشروط الاجتماعية والثقافية التي تتم فيها هذه المغامرات والتجارب.

إن النظرة الاجتماعية للأدب هي التي تمكننا من أن نفهم ـ مثلا ـ لماذا كتب ثيرفانتيس روايته «دون كيشوت» بالصورة التي كتبت بها؟ ولماذا كانت الرواية هي الجنس الأدبي المرشح للبزوغ والازدهار مع نشأة وتطور المجتمع البورجوازي؟ وما هي الشروط الاجتماعية والثقافية التي لولا توفرها لما ظهرت رواية «زينب» لمحمد حسين هيكل بوصفها أول رواية فنية عرفها الأدب العربي الحديث؟ وبدون النظرة الاجتماعية لن نتمكن من فهم الرواية العربية الجديدة في بعديها، المضموني والشكلي، كتعبير عما يسميه البعض «الحساسية الجديدة»[1]، أو من فهم التغيرات التي طرأت على بنية القصيدة العربية. وبإمكاننا أن نضيف هنا قائمة طويلة بالقضايا والموضوعات المتعلقة بعمليات إبداع الأدب وتلقيه، والتي يصعب طرحها ومعالجتها في غياب النظرة الاجتماعية. ولعل الوعي المتعاظم بأهمية هذه النظرة على مدى القرنين الماضيين هو الذي أسهم في تأسيس علم اجتماع الأدب كنظام معرفي يتحدد مسعاه في فهم طبيعة الصلة التي تربط بين الظاهرة الأدبية وبين المجتمع. ولم تكن مسيرة هذا الميدان العلمي سهلة، بل اكتنفتها صعوبات عديدة، وكثيرا ما كانت الإسهامات الجديدة فيه تواجه بالتحفظ والرفض، وبردود أفعال مضادة. لقد شهد حقل الدراسات الأدبية عدداً من الاتجاهات التي كانت تعلن عدم قبولها تفسير الأدب في ضوء العوامل الاجتماعية، وتشدد على أن فهم الأدب ينبغي أن يتم بالنظر إلى بنيته المكتفية ذاتيا والمغلقة على عناصرها الأدبية والنحوية (مثل الاتجاهات الشكلية والبنيوية والسميولوجية)، بيد أن هذه الاتجاهات كانت تنحو في تطوراتها اللاحقة إلى الاعتراف بعدم عزلة وقائع التعبير الأدبي عن سياقاتها الاجتماعية والتاريخية، ومن ثم كانت تعود لتندرج ـ بصورة أو بأخرى ـ تحت التيار العام، ذي الروافد المتعددة، الساعي إلى تفسير النص في صلته بالمجتمع.

إن هذا لا يعني أن ميدان علم اجتماع الأدب قد اكتملت مقوماته العلمية تماما، أو أنه قد وصل إلى مرحلة النضج التام، فهذا الميدان يشهد قدرا ملحوظا من التباين، وحتى التناقض، في تحديد موضوع الدراسة، وفي التوجهات النظرية والمنهجية، مما يفضي، بالضرورة، إلى اختلافات، عميقة أحيانا، في النتائج التي يتوصل إليها الباحثون، ويكفي أن نشير هنا ـ كمثال ـ إلى الاختلافات البيّنة بين المرجعيات «الاجتماعية» التي يستند إليها الباحثون كأطر تفسيرية في دراساتهم. فـ«الاجتماعي» قد يعني بنية المجتمع ككل، وقد يعني الطبقات الاجتماعية، أو انتماءات وأصول الكتاب، وقد يعني أشكال الاتصال في المجتمع، أو تكنولوجيا وآليات إنتاج الكتب وتوزيعها، أو جماهير القراء، أو الأيديولوجيا.. إلخ، وبسبب وجود هذه الاختلافات وغيرها، فإن المجال لا يزال محملا بإشكاليات نظرية ومنهجية.

والهدف المحوري لهذه الدراسة هو تتبع أهم هذه الإشكاليات. وقد اخترنا أن نفعل ذلك من خلال تتبعنا للمراحل الهامة والنقلات النوعية في مسيرة هذا العلم. وقبل أن نشرع في ذلك يهمنا الوقوف عند مسألتين، تتعلق أولاهما بطبيعة الصلة بين الأدب من ناحية وعلم الاجتماع من ناحية أخرى، وتتصل الثانية بما يدور من مناقشات حول مهمة كل من الناقد الأدبي وعالم الاجتماع في دراسة الظاهرة الأدبية وتفسيرها.

عالم الأدب وعالم السوسيولوجيا: التشابه والتمايز والتمفصل

فيما ينطوي عالم الأدب ـ كفن ـ على صيغ شتى من التصورات والخيالات والرموز، والتشكيلات اللغوية والجمالية، يتميز عالم السوسيولوجيا ـ كعلم ـ بقدر من الصرامة في المنهج، والدقة في صياغة المفاهيم وأدوات

البحث وأساليب الوصف والتحليل. وبسبب من هذا الاختلاف بين العالمين، يظهر بين الحين والآخر بعض الآراء التي تنكر وجود أية صلة بين الأدب وعلم الاجتماع غير أن هذا الإنكار لا ينبغي أن يعوق الباحث ذا البصيرة النافذة عن سعيه إلى استكناه تلك الصلة. فمثل هذا الباحث ـ كما يقول آلان سوينجوود(٢) ـ يكون قادرا، بما يتوفر لديه من بعد نظر ومنهج علمي وحساسة اجتماعية، على إدراك العلاقات القائمة بين ظواهر وأمور مختلفة، قد يرى البعض من ذوي النظرة الضيقة أنها غير موجودة أصلا.

إن علم الاجتماع والأدب يشتركان ـ على صعيد المحتوى ـ في بعد أساسي يميز كلا منهما، وهو: النظرة العامة الشاملة. فعلم الاجتماع هو في جوهره الدراسة العلمية للإنسان في المجتمع، أي دراسة النظم والعمليات والطرق التي يسعى من خلالها إلى التكيف مع ظروف مجتمعية معينة، والأساليب التي يواجه بها المشكلات الاجتماعية، وكيفية اعتراف الأفراد والجماعات بالسلطة السياسية القائمة في المجتمع، وعوامل نجاح النظم الاجتماعية وفشلها في تنظيم أشكال الصراع أو التعاون بين الجماعات والطبقات الاجتماعية. ويسعى علم الاجتماع كذلك إلى معرفة، ووصف آليات عمليات التنشئة الاجتماعية والتعلم الثقافي وعلاقاتها بالقيم السائدة في المجتمع، أو بتلك التي يسعى المجتمع إلى ترسيخها، وكيفية توزع الأدوار على الأفراد في البناء الاجتماعي، وكيف تصبح هذه الأدوار مقبولة. كما يهتم هذا العلم أيضا بدراسة أنماط الفكر والإبداع، وما يطوره الناس خلال حياتهم وتفاعلاتهم من رؤى للعالم، وأساليب للتعبير عن هذه الرؤى.

ولا يدرس علم الاجتماع كل هذه العمليات والنظم والعلاقات والنتاجات الفكرية والإبداعية في حالة استقرارها وثباتها (التسقي) فحسب بل هو يهتم كذلك، وبصورة أساسية، بالكشف عن العوامل التي تقف وراء تغير المجتمعات وتبدلها، الذي قد يحدث بصورة تدريجية، أو على نحو مفاجىء وعنيف كما في حالة بعض الثورات التي قد تشهدها المجتمعات في مراحل معينة من تاريخها، وما يصاحب هذا التغير أو ينتج عنه من تطورات أو تجديدات في مجالات الحياة المختلفة.

وعلى ذات المستوى، أي مستوى المضمون، يهتم الأدب بالعالم الاجتماعي أيضا، ويصور، على نحو رائع، محاولات الإنسان الدائمة للتكيف مع العالم ورغبته في تغييره، وضروب الفشل والنجاح التي يلاقيها، والسعادة والتعاسة التي يشعر بها، والهموم والهواجس التي تلم به، والآمال والأحلام والطموحات التي يصوغها لنفسه. فلو نظرنا إلى الرواية ـ مثلا ـ كجنس أدبي، فسوف نجدها مجرد محاولة لإعادة خلق العالم الذي تتجسد فيه علاقات الإنسان وأدواره في مختلف النظم والجماعات، وأنماط الصراعات والتوترات بين الأفراد والجماعات والطبقات، وفي حين قد يبدو العالم الاجتماعي بالنسبة لأي شخص مفتتا ومشتتا ولا رابط بين عناصره، فإن الروائي الفنان يتمكن من إدراك العلاقات بين عناصر هذا العالم ولملمة شتاته.

ألا نتبيّن هنا وجه شبه بين علم الاجتماع والأدب؟، ألا يقترب عمل الباحث الاجتماعي من عمل الأديب المبدع؟ إن الباحث الاجتماعي في سعيه إلى فهم واستيعاب ما يدور حوله في العالم الاجتماعي والثقافي، وإلى تنمية قدرته على إدراك العلاقة بين ما هو ذاتي وما هو تاريخي في مجتمعه، لابد وأن يكون في حاجة إلى ما يطلق عليه المفكر وعالم الاجتماع الأمريكي س. رايت ميلز C.W. Mills «الخيال السوسيولوجي» Sociological Imagination، ويعني به نوعا من العقل والفكر يساعد الإنسان عامة والباحث الاجتماعي خاصة على

استخدام المعلومات وتطوير التفسير والاستنباط[٣]. والأديب الفنان يؤسس عمله على الخيال (الأدبي) الذي يكثف الخبرة الإنسانية ويصوغها جماليا من خلال رؤية للعالم (على ما يذهب جولدمان L. Goldmann).

غير أن هذا التشابه يقابله نوع من التمايز والاختلاف على صعيد النظرة والأدوات. فعلم الاجتماع يوظف المنهج العلمي في درسه للظواهر الإنسانية والاجتماعية، ويتوسل بأدوات دقيقة للوصول إلى حقائق العالم الاجتماعي. والباحث الاجتماعي يستخدم في الوصف والتحليل لغة علمية ومفاهيم متعارفا عليها، ويلتزم بقواعد مقننة في الحصول على بياناته وفي عرضها وفي تفسير ما يتوصل إليه من نتائج، أما الأدب فغير ملتزم بالوصف الموضوعي أو التحليل العلمي، ولا يقف عند المظاهر الخارجية للحياة الاجتماعية، بل ينفذ إلى عمق الأشياء والظواهر حين يصور كيفية تشكل خبرة الإنسان بالمجتمع، وطرق تحول هذه الخبرة إلى مشاعر إنسانية، وكيفية نشأة وتطور المواقف والمشكلات الحياتية. وهنا تتجلى قدرة الأدب اللامحدودة على الكشف عن خصوصية وثراء الواقع، وعن تعقد علاقة الإنسان بهذا الواقع. وهنا، بالتحديد، يتفوق الأدب على علم الاجتماع.

إن هذا التمايز لا يؤسس بالضرورة طلاقا بين عالم الإبداع الأدبي وعالم التحليل والفهم الاجتماعي بقدر مايدعو إلى السعي نحو اكتشاف مواقع التمفصل بينهما، درءاً لمحاولات تكريس الحواجز بين الفاعليات الإنسانية، ولدينا في هذا الصدد مجموعة ملاحظات مستمدة من بعض الشواهد، نسوقها باختصار:

١- علم الاجتماع هو أحد العلوم الإنسانية التي أضحت منذ أكثر من قرن ونصف من الزمان تقدم إسهاماتها في فهم المجتمعات البشرية وتطورها، وتوسع من اكتشافاتها في النفس البشرية. وقد مثل، إلى جانب علوم الأنثروبولوجيا والتحليل النفسي والتاريخ رصيدا هائلا من المعرفة التي كان لها أثرها في تنامي وعي المبدعين الأدباء بطبيعة سيكولوجية الأفراد، وطبيعة التحولات الاجتماعية، وحركة التاريخ. ولسنا في حاجة إلى ذكر أثر هذا الوعي في ظهور الاتجاهات الأدبية الحديثة.

٢- إذا كانت للأعمال الأدبية قدرة غير محدودة على الوصف الثري للمشاعر الإنسانية، وإذا كان هذا الوصف يمنح المتلقي العادي خبرة أكثر ثراء بالحياة وبالمجتمع، وفهما أرحب للنفس البشرية بجوانبها المختلفة، فإن الباحث الاجتماعي، الذي يمثل فهم الإنسان والمجتمع واستكناه العلاقة بينهما جوهر عمله، هو أحوج مايكون إلى تلك الخبرة، ولعل ذلك هو ما جعل أحد المفكرين المعاصرين، وهو ريتشارد هوجارت R.Hoggart يؤكد أنه «بدون الشواهد الأدبية الخصبة، يفقد الباحث الاجتماعي شعوره بثراء وخصوبة المجتمع»[٤].

٣- ثمة «حالات» أدبية تجسد، أكثر من غيرها، فرصة لطرح التساؤلات حول مواقع التمفصل بين الأدبي والسوسيولوجي، وأقصد هنا تحديدا حالات بعض المفكرين الاجتماعيين وعلماء الاجتماع الذين يمارسون كتابة الأعمال الأدبية (الروائية خاصة). وكأمثلة على هذه الحالات في أدبنا العربي نذكر حليم بركات وعبد الله العروي ومبارك ربيع وهشام شرابي. ففي التجارب الروائية لهؤلاء المفكرين تتداخل نزعة القص وتوظيف أدوات التعبير الأدبي مع الميل إلى التحليل العلمي الاجتماعي للظواهر المجتمعية. وأيا ما كان حكمنا على هذه التجارب، فهي تشهد على أن الفهم الأدبي والفهم الاجتماعي يمكن أن يقارب كل منهما الآخر.

٤- ضمن الإنجازات الفكرية والعلمية المعاصرة، ثمة مداخل نظرية تؤسس لدراسات بينية Inter-disciplinary في حقل علم اجتماع الأدب، ويسهم في تطوير هذه المداخل منظرون نقديون يجمع بينهم - رغم اختلاف مواقفهم الفلسفية - الاهتمام بالفعاليات المعقدة للغة وسياسات التفسير. والفكرة المحورية في هذه المداخل هي أن الخبرة الأدبية والخبرة السوسيولوجية يمكن النظر إليهما كواقعتين لصياغة معنى Making meaning، وأن الأساس الذي يجعل هاتين الواقعتين قابلتين للمقارنة هو اللغة. وبالتالي فإن البحث ينبغي أن ينصرف إلى تحليل عمليات صنع المعنى النصي بوصفها مناظرا أو مقابلا لعمليات صنع المعنى الاجتماعي. وحسبما يذهب هانز-جورج جادامر Hans-Georg Gadamer، فإن العمليات التفسيرية، ووقائع الفهم كافة، سواء تعلقت بنصوص أدبية، أو بالتفاعل بين أشخاص، أو بمواقف اجتماعية، هي عمليات ووقائع تنهض على اللغة. إن الواقع المجتمعي، بكل مايضمه من قوى ملموسة، يتبدى في وعي متعيّن لغويا، وهو - أي الواقع - لا يحدث «من وراء ظهر» اللغة، بل يحدث «داخل Within اللغة»[٥]. وإذا كان جادامر ينطلق من منهج تأويلي فلسفي، فإن مفكري ما يعرف بما بعد البنيوية Post-Structuralism - ورغم تناقضهم مع التقاليد التأويلية - هم أيضا يعالقون بين فهم العالم الاجتماعي وفهم عالم النصوص، انطلاقا من أهمية اللغة، والطرق التي تقوم من خلالها بإثراء المعنى أو تشويهه. فاللغة عند جاك دريدا J. Derrida نسق من الدوال له إرادته الخاصة، ويتسم بعدم الانغلاق وبالتحدد التاريخي، وبالتالي ثمة دائما إمكانيات للمعاني وتفسيرات إضافية. وعند بول ريكور P.Ricoer يمكن مقارنة الفعل الاجتماعي Social action بالخطاب Discourse، وبالتالي فإن فهم الظواهر الاجتماعية يناظر فهم النص، وفي النظرية المعاصرة عموما تمثل بنية اللغة نموذجا لأي نسق من أنساق المعنى، سواء أكان هذا النسق مجموعة من علامات الطريق، أو مجموعة من الأفعال الاجتماعية، أو تشكيلة من العلامات اللغوية في صورة قصيدة[٦]. ألا تشير هذه الإسهامات الفكرية إلى مساحات واسعة مشتركة ومواقع قوية للتمفصل بين الخبرة الأدبية والخبرة السوسيولوجية؟

الصلة بين علم الاجتماع والنقد الأدبي: عزلة أم تهديد أم تعاون؟

يلاحظ المرء، في بعض الكتابات المتعلقة بالتفسير الاجتماعي للأدب، اهتماما واضحا بمناقشة طبيعة الصلة بين مهمة الباحث الاجتماعي ومهمة الباحث الأدبي في دراستهما للظاهرة الأدبية، وتكشف المتابعة الفاحصة لهذه المناقشات عن وجود ثلاثة اتجاهات.

يميل أصحاب الاتجاه الأول إلى الفصل التام بين عمل الناقد الأدبي وعمل الباحث الاجتماعي. ومن أبرز ممثلي هذا الاتجاه عالم الاجتماع الألماني المعاصر هانز نوربرت فوجن H.N Foegen الذي يشدد على أن لكل من النقد الأدبي وعلم اجتماع الأدب مجاله الخاص والمستقل تماما، وحدوده التي لا ينبغي أن يتجاوزها. ويكرس فوجن فصلا كاملا في أكثر كتبه أهمية وشهرة لترسيم الحدود الفاصلة بين النقد الأدبي وعلم اجتماع الأدب. فمهمة الباحث الاجتماعي هي - حسب فوجن - دراسة ما يتصل بالعلاقات الإنسانية المحيطة بالعمل الأدبي، خاصة علاقة الكاتب - القارىء، وليست دراسة هذا العمل ذاته، لأن دراسة النص وما يحمله من قيم أدبية وجمالية، وإصدار حكم على هذه القيم، هي أمور أو مهمات تدخل في نطاق عمل الناقد الأدبي فحسب وليس للباحث الاجتماعي أن يقترب منها[٧]. ويشترك مع فوجن في هذا المنحى قطاع واسع من

أصحاب النزعة الوضعية الإمبيريقية في مجال سوسيولوجيا الأدب، والتي سنعرض فيما بعد لأهم قضاياها ومناهجها. ويتهض هذا الفصل الحاد بين مجالي النقد وعلم الاجتماع على النظرة التقليدية التي ترى العمل الأدبي بوصفه كيانا مستقلا، لا تربط بين جوانبه الجمالية وبين الواقع الاجتماعي أية صلة، وترى أن معايير الحكم التي تستند إليها الدراسة الأدبية ينبغي أن تستمد من علم الجمال فحسب، ولما كان علم الجمال ـ لدى أصحاب هذه النظرة ـ علما معياريا مستقلا، فإنه لا ينبغي أن يرتبط بعلم الاجتماع، باعتبار أن هذا الأخير علم وصفي دقيق. ولا يدرك أصحاب هذه النظرة أن المعايير الجمالية ذاتها مشروطة اجتماعيا، وأن الأمر الذي صار يلقى اعترافا من علماء الجمال أنفسهم هو أنه من غير الممكن فصل أي «علم جمال خالص» عن الفهم السوسيولوجي للفنون[8].

إن هذا الميل إلى العزل بين الدراسة الأدبية والدراسة الاجتماعية للأدب هو تكريس لقطيعة بينهما، لا تفضي إلا إلى خسائر أبسطها ضياع فرصة الفهم الأعمق لطبيعة الظاهرة الأدبية بكل أبعادها وتعقيداتها.

ويرى أصحاب الاتجاه الثاني أن الصلة بين علم اجتماع الأدب والنقد الأدبي تنطوي على شكوك متبادلة أحيانا، وتعصب أحيانا أخرى. وقد تنطوي هذه الصلة على تهديد يمارسه علم الاجتماع على النقد الأدبي والتعليم الأدبي. فالشكوك المتبادلة تنشأ عن خوف الناقد الأدبي ـ كدارس للإنسانيات ـ من النزعة الكمية لدى عالم الاجتماع، والتي تمحو ما هو جوهري في الأدب وتختزل النص الأدبي أو تفرض عليه تفسيرات تعسفية، ومن خوف عالم الاجتماع واستخفافه ـ من ناحية أخرى ـ بالنزعة الانطباعية لدى الناقد الأدبي. وقد تتصاعد الشكوك المتبادلة وتصل إلى درجة العداء أو الصراع العنيف بين التخصصات الأكاديمية. وينشأ التعصب عن إساءة فهم وتقديم كل طرف للطرف الآخر. فهناك من نقاد الأدب من يشيع تعميما مزعوما مؤداه أن علماء اجتماع الأدب يعتقدون أن الأعمال الأدبية ناشئة عن عوامل حتمية، بيئية أو طبقية، وأنها لا تفسر إلا بهذه العوامل. وهناك علماء اجتماع يتهمون نقاد الأدب التقليديين بأنهم يعزلون الأدب في عالم مغلق من الحقائق الداخلية، وينكرون أية صلة تربطه بالمجتمع وبحياة الإنسان التاريخية. ويرى جيفري سامونز J. L. Sammons أن هذه المزاعم من جانب الطرفين تتسم بخصائص التعصب الأعمى، حيث يقتطع كل طرف بعض المظاهر وأوجه القصور من الطرف الآخر. ويقدمها كأنها تسم الكل. وهذا المسلك يتجاهل القاعدة التي تفرض ضرورة تمحيص المقدمات ومتابعة منطق الطرف الآخر، ويعتمد على الاقتباس من السياق فحسب[9].

أما القول بأن علم الاجتماع يمارس تهديدا إزاء النقد الأدبي، فيرجع ـ في جزء كبير منه ـ إلى قدرة علم الاجتماع على تحدي بعض الأفكار والتقاليد الأدبية التي طالما مثلت أهمية خاصة بالنسبة للمشتغلين بالدراسة الأدبية وبالتعليم الأدبي. ففي المجتمعات (الغربية) الحديثة، يلاحظ أن نسبة كبيرة من المنتج الأدبي تزول بسرعة من الذاكرة وأن النسبة الباقية لاتهم إلا قطاعا ضئيلا فقط من السكان، ويرجع ذلك ـ حسبما يذهب سامونز[10] ـ إلى التفسخ الذي أصاب المجتمع الحديث. وقد قدمت بعض الدراسات السوسيولوجية عددا من الشواهد التي تشير إلى أن كل الأدب الذي يحظى بالتبجيل هو في النهاية سريع الزوال، ويختفي من الذاكرة الثقافية مع اضمحلال السياق الاجتماعي الذي ارتبط به. ويشير سامونز في هذا الصدد إلى أبحاث عالم الاجتماع الفرنسي روبير اسكاربيت R. Escarpit التي كشفت عن أن الناس في أي عصر يعرفون عن كتب عصرهم، القدر نفسه الذي يعرفونه عن كتب الماضي، مما يدل على التراجع المستمر للأعمال الأدبية عن

الذاكرة الثقافية ودخولها في مناطق النسيان، وأن العمل الأدبي يبقى حيا فقط إذا ظل يخاطب شريحة أدبية، وهي عموما شريحة ضيقة تمثل أقلية في المجتمع. كما يشير ساموتز إلى أبحاث عالم الاجتماع السويسري كارل إيريك روزنجرين K. E. Rosengren التي تركزت على الجوانب السوسيولوجية للنسق الأدبي، والتي خلصت إلى نتائج مشابهة لتلك التي توصل إليها إسكاربيت. ويرى ساموتز أن التحدي الذي يمثله علم الاجتماع يتجسد فيما تعنيه هذه النتائج من أن كبار الأدباء في تاريخ الثقافة الغربية هم ـ من وجهة نظر المجتمع ـ غير مهمين، أو أنهم يشكلون موضوعاً للاستحواذ المظهري لدى أقلية من أعضاء المجتمع. ويثير هذا التحدي تساؤلات حول مكانة الأدب وأهميته في الخبرة الإنسانية ككل، وحول جدوى الجهود التي يبذلها نقاد الأدب والقائمون على التعليم الأدبي من أجل ترسيخ الثقافة الأدبية. ويخلص ساموتز إلى أن استجابة النقد الأدبي لهذا التحدي ينبغي ألا تقف عند مجرد ازدراء النزعة السوسيولوجية المفرطة Sociologism التي تمثلها تلك البحوث، أو مجرد الركون إلى «قراءة التعاويذ على استقلال الفن وقيمه السرمدية»[11].

أما الاتجاه الثالث، فيرى أصحابه أن إقامة الفواصل العازلة بين النقد الأدبي وعلم الاجتماع أمر صعب، بل مستحيل، وأن العلاقة بين المجالين لاينبغي أن تنطوي على شكوك أو صراعات أو عداء أو تهديد، بل العكس هو الصحيح تماما، ونحن نميل إلى هذا الرأي. فالأدب إبداع إنساني تصوغه كائنات بشرية تعيش في ظل تأثيرات اجتماعية معينة، وبالتالي فالأعمال الأدبية تكون متجذرة في واقع اجتماعي وثقافي معين، وتتشكل بنيتها ـ جزئيا ـ من خلال التصورات الجمعية التي تميز جماعات أو طبقات معينة أو عصراً محدداً. ولذا، فإن الأثر الأدبي يعد مكانا فريدا تتجلى فيه، على نحو معقد، الصراعات التاريخية الخاصة بعصر ما، ويتجسد ذلك في محتوى الأثر، وفي لغته، وفي أسلوب تشكيله، مما يجعل العلاقة الجدلية بين دراسة الأدب ودراسة المجتمع أمرا ضروريا[12]. فهذه العلاقة الجدلية من شأنها أن تثري المناهج، وتزيد من دقة الأدوات البحثية وكفاءتها. ولا يعني التأكيد على ضرورة وجود هذه العلاقة حلا توفيقيا أو تبسيطا مخلا للأمور أو تمييعا للحدود بين المجالات المعرفية، بقدر مايعني إدراكا لإحدى الحقائق البارزة في عصرنا، والتي تتمثل في التراكم المتسارع للمعرفة، وظهور نظم معرفية جديدة باستمرار، وتحقق تمايزات نظرية ومنهجية داخل النظام المعرفي الواحد. وهذه التمايزات مفيدة بلا شك، لكنها يمكن ـ إذا لم تدرك أبعادها ـ أن تفضي إلى نوع من الفوضى والتشتت في المجالات البحثية، وإلى التجزيء التعسفي للظواهر، وأن تخلق حالات من العزلة والمخاوف والشكوك المتبادلة بين النظم المعرفية المختلفة، خاصة تلك التي تشترك في دراسة ظاهرة أو مجموعة ظواهر معينة. ولعل إدراك هذه الحقيقة هو الذي دفع المفكرين والعلماء المعاصرين إلى الاعتراف بأهمية ما أصبح يعرف بالمداخل البينية (أو التكاملية) Interdisciplinary approaches القائمة على التعاون بين النظم المعرفية المهتمة بموضوع ما.

وإذا كانت الظاهرة الأدبية تمثل مجالا واسعا تتداخل فيه، وبصورة عميقة، دراسة الأدب مع دراسة المجتمع، فإن درس هذه الظاهرة أحوج ما يكون إلى التعاون والإخصاب المتبادل بين النقد الأدبي وعلم الاجتماع بعيدا عن مشاعر الخوف أو العداء أو التهديد من جانب أي طرف. والأجدى هو أن تنصرف الجهود المشتركة إلى التعامل مع الإشكاليات التي برزت عبر مسيرة التفسير الاجتماعي للأدب، وهي الإشكاليات التي سنسعى إلى توضيحها في هذه الدراسة.

التفسير الاجتماعي للأدب: الجذور

للعودة إلى جذور الأفكار والنظريات فوائد جمة، لعل أبسطها التعرف على الدور الذي لعبته الفكرة في الماضي، وما طرحته من قضايا وإشكاليات، ثم معرفة التطورات التي لحقت بها، والسلطات التي مارستها في مجال أو مجالات فكرية أو علمية معينة، وكيف تعامل الباحثون، على مر العصور مع هذه الفكرة، وما أدخلوه عليها من تعديلات أو تحويرات أو إضافات... إلخ، وفي مجال التفسير الاجتماعي للظاهرة الأدبية تبدو العودة إلى فكرة «المحاكاة» Mimesis في الفلسفة اليونانية، خاصة عند كل من أفلاطون Plato (٤٢٧ـ٣٤٧ ق.م) وأرسطو Aristotle (٣٨٤-٣٢٢ق.م) ذات قيمة، لأنها ـ أي الفكرة ـ تمثل جذرا بعيدا لمفهومات ونظريات عديدة، تاريخية ومعاصرة، لها شأنها في حقل الدرس الاجتماعي للأدب.

كان أفلاطون يرى أن كل الفنون تقوم على التقليد، فالفنان أو الشاعر يحاكي وقائع موجودة حوله في العالم الطبيعي المادي المحسوس، وإن كان هذا العالم ذاته هو محاكاة أو صورة شائهة ومزيفة لعالم المثل أو الأفكار أو الحقائق المطلقة. ونحن نعرف أن أفلاطون ـ كفيلسوف مثالي ـ كان يؤمن بأولية العالم المثالي وبأسبقيته على الوجود، وبأن العالم الطبيعي هو صورة ناقصة لعالم المثل الأول الذي هو من صنع الخالق الأول (الله)، لذا، فالشاعر حين يحاكي الواقع، فإنه يقوم بمحاكاة للمحاكاة، ويصبح عمله بمثابة «المرآة» التي «تعكس» الظواهر والأشياء للمحاكاة بصورة حرفية، حتى ولو كانت هذه الظواهر والأشياء مزيفة وغير حقيقية[١٣].

وقد أخذ أرسطو فكرة المحاكاة من أفلاطون، لكنه اتجه في فهمها إتجاها مغايرا، بل لعله مناقض. فهو لم يفهم المحاكاة على أنها تصوير مرآوي لما هو موجود في الطبيعة، بل رأى أن الشاعر أو الأديب أو الفنان حين يحاكي، فإنه يطمح إلى تحقيق شيء لم تستطع الطبيعة إيجاده، وفي طموحه هذا يحاول محاكاة ما يمكن أن توجده الطبيعة فيما لو تمكنت من إنتاجه. وحين ذكر أرسطو عبارته الشهيرة: «الشعر الملاحم وشعر التراجيديا، وكذلك الكوميديا والشعر الديثرمبي، وأكثر ما يكون من الصفر في الناي واللعب بالقيثار ـ كل تلك، بوجه عام، أنواع من المحاكاة»[١٤]، فإنه لم يكن يقصد إلى أن الشاعر أو الموسيقي يقدم فنه في صورة مكررة للطبيعة، وإنما هو يعبر عما كانت الطبيعة ستفعله احتمالا، أي أنه يعيد خلق الواقع وفقا لمفهوم محدد أطلق عليه أرسطو «الرجحان أو الضرورة» الذي يعني تنظيم العمل الفني بصورة تجعله مقبولا من جانب العقل الإنساني. يقول أرسطو إن «عمل الشاعر ليس رواية ما وقع بل ما يجوز وقوعه وما هو ممكن على مقتضى الرجحان أو الضرورة»[١٥].

لم يعتد أرسطو إذن بفهم أفلاطون للمحاكاة بوصفها نقلا مرآويا أو حرفيا للطبيعة، بل نقض هذا الفهم، ومنح الفنان حرية التصرف في النقل، وفقا لمبدأ الضرورة الذي يجعل الفنان ـ كمبدع ـ مكملا ما في الطبيعة من نقص، بشرط أن يكون الفنان قادرا على إقناع الناس بما يقدمه لهم من محاكاة، خاصة أن الفنان أو الشاعر لا يحاكي أشياء محسوسة، بل يحاكي أشياء معنوية أو نفسية تتصل بحياة الناس وعواطفهم. ولكي يتمكن من تحقيق هذا الإقناع، ينبغي له أن يؤثر «استعمال المستحيل المعقول على استعمال الممكن غير المعقول»[١٦].

وهنا يضع أرسطو أول قاعدة في جماليات التلقي، مثلما وضع أول قاعدة منظمة في آليات الإحالة إلى الواقع مؤسسة على فكرة المحاكاة.

وقد مارس مفهوم المحاكاة الأرسطي سلطة واسعة وقوية على عقول المفكرين والفلاسفة ودارسي الأدب لعدة قرون، كما استخدم مفهوم الضرورة (الذي هو من متضمنات المحاكاة) بصورة واسعة في النقد الأدبي الأوربي، خاصة من جانب أصحاب المذهب الكلاسي في فرنسا، واعتبر من المفاهيم الحاكمة لعلاقة الشعر بالواقع، والعمل الأدبي بالطبيعة[١٧]. وشهدت التنظيرات النقدية الأوربية مجموعة من المفاهيم التي كانت تمثل إضافات إلى مفهوم المحاكاة، أو تنويعات عليه، أو إعادة إنتاج له، مثل:

الانعكاس، التمثيل، المفارقة، مشابهة الحقيقة، التوافق، الرؤية، المرآة، الاستعارة الحية، التماثل أو التجانس، الإحالة الاجتماعية[١٨]. ونقل كتاب الشعر لأرسطو إلى العربية في أوائل القرن الرابع الهجري، وتمثله الفلاسفة والبلاغيون، سواء بالتلخيص والتفسير، أو باقتباس بعض القواعد والمبادىء، واستخدامها في جهودهم النقدية التي انصبت غالبا على دراسة الشعر العربي في ضوء قوانين الصنعة الشعرية، بعبارة أخرى، كان تأثر النقد الأدبي العربي القديم بالجوانب المنطقية والفنية أوضح منه بالجوانب النفسية لفكرة المحاكاة، أو للآليات التي تتم من خلالها عملية المحاكاة. ويتضح ذلك في شروح الفارابي وابن سينا وابن رشد لكتاب الشعر، وتعاملهم مع فكرة «التخييل» التي تبنوها كبديل لمفهوم «المحاكاة»، كما يتضح في أعمال نقاد كبار من أمثال قدامة بن جعفر وعبدالقاهر الجرجاني وحازم القرطاجني الذين شغلتهم قضايا اللفظ والمعنى والكذب الفني والنظم وغيرها من القضايا الفنية[١٩]، ولم تشغلهم محاولة فهم تأثير حياة الشعراء الشخصية أو النفسية أو حياة القبائل والجماعات العربية على إبداع الشعراء. صحيح أننا نجد في بعض الآثار النقدية العربية القديمة بعض الإشارات التي توحي بالربط بين الشعر وبين البيئات التي عاش فيها الشعراء، مثل تلك التي وردت في أعمال ابن سلام الجمحي، وعبد الله بن المعتز، والآمدي، إلا أن هذه الإشارات لاترقى إلى مستوى المبادىء أو النظريات إلا إذا حمّلت ما لاتطيق من استنتاجات[٢٠]. ونحن لا نجد في الفكر العربي القديم أو الوسيط من سعى إلى الربط بين الأدب أو الأدباء وبين واقعهم وما يصيب هذا الواقع من تحولات، سوى عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦م) الذي يرى البعض أنه «أعظم ناقد» في عصره، رغم أنه لم يمنح النقد الأدبي من جهده الشيء الكثير[٢١]. إذ أنه كان مشغولا بتطوير نظرية عامة عن «العمران البشري» والقوانين التي تحكم عمليات التغير الاجتماعي والسياسي.

في فكر ابن خلدون نجد جذورا للنظرة الاجتماعية للظاهرة الأدبية، وتمثلت هذه الجذور في أمرين: الأول هو نظرة ابن خلدون للشعر بوصفه نشاطا إنسانيا، يوجد في كل لغة، وله أساليب تخصه وشروط لإحكام صناعته. والمرء يتحصل على الملكة الشعرية ـ أو النثرية ـ من خلال عملية التعلم التي تنمي لديه ما يطلق عليه ابن خلدون «الذوق» والعنصر الأهم في عملية التعلم هو الحفظ. فبحفظ الشعر تنشأ الملكة الشعرية، وبحفظ الأسجاع والترسيل تنشأ ملكة الكتابة، «وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده ثم إجادة الملكة من بعدهما. فبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ترتقي الملكة الحاصلة لأن الطبع إنما ينسج على منوالها. وتنمو قوى الملكة بتغذيتها. وذلك أن النفس وإن كانت في جبلّتها واحدة بالنوع فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الإدراكات. واختلافها إنما هو باختلاف ما يرد عليها من الإدراكات والملكات والألوان التي تكيفها من خارج، فبهذه يتم وجودها، وتخرج من القوة إلى الفعل صورتها»[٢٢]. ومن هنا يفسر ابن خلدون تفوق العرب الإسلاميين في البلاغة على الجاهليين. فالذين «أدركوا الإسلام سمعوا

الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثليهما، لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم، فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها»[٢٣].

الأمر الثاني هو معالقة ابن خلدون بين وضع الأدب والأدباء وبين أطوار الدولة؛ نشأتها وازدهارها ثم اضمحلالها. ففي فصل بعنوان «في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول» يذهب ابن خلدون إلى أن الحاكم يكون أشد حاجة للسيف في كل من المرحلة الأولى والمرحلة الأخيرة من مراحل عمر الدولة، حيث يكون أهل السيف شركاء في المعونة في بداية نشأة الدولة، وشركاء في الحماية في حالة ضعفها وهرمها. وفي المرحلتين يكون للسيف وأهله مزية على القلم وأهله (الأدباء) فيصير أرباب السيف «أوسع جاها، وأكثر نعمة وأسنى إقطاعا». أما في المرحلة الوسطى، حيث يستغني صاحب الدولة بعض الشيء عن السيف، يكون القلم هو المعين له في إرساء دعائم الاستقرار وفي مباهاة الدول، ويكون أرباب القلم هم الأوسع جاها والأعلى رتبة والأعظم ثروة والأقرب إلى السلطان[٢٤]. في هذه الفكرة التي تربط بين النظام الأدبي والنظام السياسي بذور قابلة للتنمية والتطوير، خاصة أن ابن خلدون كان يصوغ أفكاره بالتأسيس على تجربة ميدانية عايشها من خلال حياته ومغامراته في المغرب العربي، ورحلاته إلى المشرق العربي. لكن هذه البذور لم تثمر لأنها لم تجد من بعد ابن خلدون من يتعهدها، إذ كانت المنطقة العربية قد دخلت عصرا من الركود الاجتماعي والثقافي الذي سد الطريق أمام أي إبداع فكري. ولم يشهد التراث الفكري الإنساني ظهورا لبذور جديدة مبشرة في مجال التفسير الاجتماعي للظاهرة الأدبية إلا في عصر النهضة الأوربي.

إرهاصات علمية مبكرة

لم يكن التفكير في الإبداع الأدبي في ظل شروطه الاجتماعية مسألة ممكنة قبل بداية القرن السابع عشر. فالأبنية الاجتماعية الثابتة، والقيم الغيبية التي هيمنت على الحياة في العصور الوسطى لم تكن تسمح للإنسان بالنظرة العقلية تجاه النظم والأشياء. غير أنه مع اضمحلال تلك العصور، وبداية ما عرف بعصر النهضة الأوربية، بدأ وعي الإنسان بالمجتمع ونظمه يتبلور، وبدأت تدور بين المفكرين نقاشات حول مختلف القضايا الاجتماعية والسياسية والثقافية. وكشفت تلك النقاشات، في مجال الأدب والنقد الأدبي، عن أهمية بعض العوامل التاريخية والاجتماعية في صياغة الأدب، وبدأت تظهر بعض المصطلحات النقدية في أوساط المفكرين الذين ازداد اهتمامهم بالمقارنة بين آداب الشعوب المختلفة، وآداب الحقب المتباينة. وقد ساعدتهم هذه المقارنات على تقديم بعض الأفكار العامة التي كانت بمثابة إرهاصات علمية مبكرة لتحليل الأدب في ضوء العوامل الاجتماعية.

ويعد المؤرخ والفيلسوف الإيطالي جامباتيستا فيكو Giambattista Vico (١٦٦٨-١٧٤٤) واحدا من أبرز مفكري القرنين السابع عشر والثامن عشر في أوروبا، حيث أجرى عددا من الدراسات الأدبية والفلسفية واللغوية والقانونية عدت إرهاصا لنظرية كبرى في المجتمع البشري قدمها فيكو فيما بعد في مؤلفه الهام «العلم الجديد» New Science الذي نشر لأول مرة عام ١٧٢٥، لكنه لم يلق الشهرة الجديرة به آنذاك، رغم ما كان يتميز به العصر من انتشار الجهود الساعية إلى بحث العلاقة بين العقل

الإنساني باعتباره أداة التفكير، وبين الكون المادي من حوله، وتقدم في العلوم التجريبية، وتبلور نظرة علمية جديدة في دراسة التاريخ والظواهر الإنسانية[٢٥].

في كتاب «العلم الجديد» يفسر فيكو التاريخ في ضوء فكرة الدورات، ويشدد على ضرورة أن تكون نظرتنا لإبداعات الإنسان في مجالات العلوم والفنون نظرة نسبية تعالق بين هذه الإبداعات وبين الواقع الذي عاش فيه صاحبها، وما يتميز به هذا الواقع من خصائص سكانية وسياسية، كما تعالق بين الإبداعات، وبين الزمن أو الحقبة التاريخية التي ظهرت فيها. وأهم المسلمات التي ينهض عليها العلم الجديد (وعددها مئة وأربع عشرة مسلمة) هي أن الإنسان هو صانع تاريخه، وأن طبيعة التنظيمات الاجتماعية وخصائصها تتحدد وفق أسلوب نشأتها وزمن هذه النشأة وظروفها، وأن العقل الثري لديه ميول فطرية لخلق الأساطير وإبداع الشعر[٢٦].

أما الأطروحة الرئيسية التي تشكل قوام فلسفة فيكو برمتها فهي أطروحة «الحكمة الشعرية» التي مؤداها أن تاريخ الشعوب الأولى قد بدأ بداية شعرية، وأن الشعراء هم أول من تغنى بأحداث التاريخ، ومن ثم كانوا هم مؤسسي الشعوب والنظم البشرية، وكانت حكمتهم، كشعراء، حكمة شعبية عملية.. وهذه الحكمة الشعرية هي البدايات الأولى والفجة للعلوم والفنون، وتطورت مع تطور المجتمعات وتطور العقل البشري جنبا إلى جنب، فبدأت بداية دينية، ثم بطولية، وانتهت إلى حكمة بشرية.. ألا وهي حكمة الفلاسفة.

وفي ضوء هذه الأطروحة درس فيكو حكمة هوميروس الشعرية، وخصص لها كتابا من مؤلفه «العلم الجديد»، كرسه لاكتشاف حقيقة شخصية هذا الشاعر التي كانت تعبيرا عن الشخصية اليونانية، أو هي مثال للعقلية اليونانية، بعبارة أخرى كان هوميروس مترجما لعادات وصفات البيئة اليونانية، التي استمد منها حكمته الشعرية. ولما كان العصر الذي عاش فيه هوميروس عصرا بطوليا له صفات خاصة فإن شعره كان شعرا بطوليا، فالشخصيات في «الإلياذة» تتصرف مدفوعة بعواطفها ولا تفكر تفكيرا عقلانيا، حيث كان العصر مشحونا بالانفعالات السامية وكان الشعب معتدا بنفسه، وكانت قيم الشرف والشجاعة هي السائدة في مجتمع قادر اقتصاديا. أما «الأوديسا» فقد كتبها هوميروس بعد ذلك بوقت طويل، أي في شيخوخته، وبعدما كانت العقلية اليونانية قد تطورت، وكان المجتمع اليوناني قد اكتسب خصائص جديدة، حيث كانت الانفعالات والعواطف قد خمدت إلى حد ما، ولذا جاءت شخصية بطلها «أوديسيوس» مختلفة عن بطل الإلياذة «أخيل» فهذا الأخير هو بطل الشجاعة والعنف والاندفاع، أما أوديسيوس فهو بطل الحكمة المرتبطة بالشيخوخة. وفي كل من العملين (الإلياذة والأوديسا)، كانت أشعار هوميروس تتناول عادات الشعوب الإغريقية، وترتبط في محتواها بالثقافة اليونانية التي كانت تتشكل في ضوء تطور البنى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية[٢٧]. ولم تخل تحليلات فيكو من الربط كذلك بين طبيعة شعر هوميروس وبين سيكولوجية الشعب اليوناني وتطور عقليته ونظمه[٢٨]، مما جعل البعض يرى أن فيكو في إقامته للصلة أو التناظر بين الإبداع الأدبي خاصة والإنجازات الثقافية عامة وبين الأنساق الاجتماعية قد أسهم في وضع الأسس الأولى لما أصبح يعرف فيما بعد بعلم اجتماع المعرفة Sociology of Knowledge[٢٩]، وهو أحد تخصصات علم الاجتماع، يهتم بدراسة النظم المعرفية في صلتها بأطرها الاجتماعية والتاريخية.

كانت تفسيرات فيكو في مؤلفه «العلم الجديد» شيئا جديدا غير مألوف من قبل: قراءة الأدب وتحليل عناصره في ضوء محددات مادية قائمة في البيئة الحضارية، وليس في ضوء مسائل غيبية وميتافيزيقية غير ملموسة. وكانت لتفسيراته آثار فيما جاء بعد ذلك من محاولات، خاصة تلك التي اهتمت بإقامة تناظر بين الصيغ والأشكال الفنية وبين البنى الاجتماعية والسياقات الثقافية التي ظهرت فيها هذه الصيغ والأشكال.

في ألمانيا كان للفيلسوف يوهان جوتفريد هردر J. G. Herder (١٧٤٤-١٨٠٣) أفكار تشبه أفكار فيكو، مما جعل بعض الباحثين يرجحون أن هردر قد تأثر بفيكو، رغم عدم وجود دليل مادي على ذلك، ورغم أن هردرقد ذكر أنه لم يعرف فيكو إلا بعد عشرين عاما من وضعه لفلسفته التاريخية التي ضمنها كتابه «أفكار عن فلسفة تاريخ الجنس البشري» الذي بدأ وضعه عام ١٧٨٤، وصدر عام ١٧٩١ [٣٠]. كانت دراسات هردر متركزة في معظمها على اللغة وفلسفة التاريخ الإنساني وعلم الجمال. وكانت له زيارات متعددة للمدن الأوربية من بينها روما التي مكث فيها حوالي أربعة أشهر، ونابولي - مدينة فيكو - حيث مكث فيها ثمانية أيام [٣١]، وهناك جمع عددا من الوثائق التي أفادته في صياغة أفكاره حول فلسفة التاريخ. وربما كانت رحلته هذه إلى إيطاليا هي التي تدعم الرأي القائل بتأثره بفيكو.

كان اهتمام هردر موجها إلى دراسة اللغة بوصفها الشكل الأولي للتعبير البشري، والشرط الأساسي للإنجاز الثقافي لدى أي شعب، «فأي شعب لن يكون لديه أية فكرة إن لم يكن لديه كلمة يعبر بها عن هذه الفكرة» [٣٢]. ومن خلال تعمقه في دراسة اللغة توصل إلى رفض مقولة القبلية Apriorismus عند كانط (١٧٢٤-١٨٠٤) الذي كان مهتما بالذات العارفة، والذي ذهب إلى أن الجمال والحكم الجمالي يخضعان لملكة مستقلة لدى الإنسان هي مصدر الإحساس والشعور بالجمال، وأسماها «ملكة الحكم» وأن تذوق الإنسان للجميل لا يتم وفقا لاستخدام أية تصورات عقلية ولايرتبط بأي غرض أو منفعة معينة، أو بأي خبرة سابقة على هذا التذوق.

لقد كانت القضية الأساسية عند هردر هي: لماذا تتطور آداب معينة في مناطق معينة، بينما تفشل في تطوير نفسها في مناطق أخرى؟ وفي تعامله مع هذه القضية اهتم بالتشديد على تاريخية الظاهرة الجمالية، وربطها «بالعصر والظروف» وبتنويعه من الشروط الملموسة [٣٣]. فقد رفض النزعة الميتافيزيقية المثالية لدى كانط، كما رفض الفصل بين الفن والواقع والخبرة الإنسانية، وألح على ضرورة تأسيس علم إمبيريقي للجمال ينهض على العلم الطبيعي والتاريخ وعلم النفس، وذهب إلى أننا لسنا في حاجة إلى أحكام قيمية، فكل شيء وجد لأنه ينبغي أن يوجد.

هذه الأفكار تكتسب أهميتها بالنظر إلى كونها كانت جديدة في عصرها، وبالتالي تعد تمهيدات لأفكار أخرى جاءت بعدها لتنمي اتجاها متميزا في دراسة الأدب من حيث علاقته بالواقع وبالتاريخ. لكن هذه الأفكار، من ناحية ثانية، حملت معها أول وأهم الإشكاليات التي واجهت ومازالت تواجه هذا النوع من الدراسة، وأقصد إشكالية المنهج. ولعل ذلك يعزي إلى أن هردر لم يتجاوز - فيما خلص إليه - حدود الوصف (غير المقنع)، والتعميمات المبهمة، رغم اجتهاده في استخدام مفهومات معينة مثل: المناخ المتغير، والظروف السياسية، والعادات. ففي كثير من الأحيان عندما كان يطبق هذه المفهومات، كان يتوصل إلى استنتاجات ذات طابع ميكانيكي مباشر، يعدها كثير من الباحثين مخيبة للآمال [٣٤].

وعلى صلة بأفكار هردر، كانت الكاتبة الفرنسية آن لويس نكر A. L. Necker أو مدام دي ستال Mme De Stael (١٧٦٦-١٨١٧) تؤسس لأول محاولة في فرنسا لجمع مفهومي الأدب والمجتمع في دراسة منهجية واحدة. فقد كتبت في مقدمة مؤلفها المعنون «الأدب من حيث صلاته بالنظم الاجتماعية» De la litterature considérée dans ses rapports avec les institutions sociales. الذي نشر عام ١٨٠٠ ـ كتبت تقول: «أريد أن أدرس تأثير كل من الدين والعادات والقوانين على الأدب، وكذلك تأثير الأدب على الدين والعادات والقوانين» ويبدو أنها كانت تريد البحث في «روح الأدب»، مثلما بحث معلمها الروحي مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩-١٧٥٥) في «روح القوانين»، كما يبدو أنها كانت متأثرة بمفهومي «روح العصر» Zeitgeist و«روح الشعب» Volksgeist اللذين نشأ وتطورا في ذلك الوقت في دوائر المفكرين الألمان الذين كانوا على صلة صداقة بالكاتبة الفرنسية[٣٥].

ربطت مدام دي ستال بين طبيعة الأدب وبين الظروف المناخية فذهبت إلى أن أدب الأمم الشمالية يسوده الحزن الانفعالي أو العاطفي لأن هذه الأمم تتميز بغلبة العبوس والمزاج المتقلب بسبب قسوة التربة وخشونتها، في حين تسود في أدب الأمم الجنوبية مشاهد الحب الممتزج بالظلال الوافرة، لأن تلك الأمم تتميز بالبرودة المعتدلة والنسمات الهوائية اللينة التي تجعل الطقس لطيفا ومحتملا. وإلى جانب عامل الطقس تضيف دي ستال عوامل أخرى جمعتها تحت مفهوم «الطابع القومي» الذي يعد ـ في رأيها ـ نتاجا لتفاعل معقد بين عدد من النظم القانونية والدينية والسياسية. وفي إطار شرحها لهذا المفهوم تبدي دي ستال ملاحظة هامة مؤداها أن الرواية كجنس أدبي تتطور فقط في المجتمعات التي يكون للمرأة فيها مكانة مرموقة ومحترمة من جانب الأفراد والجماعات، والتي تحترم فيها الحياة الخاصة للناس وما تتضمنه هذه الحياة من علاقات اجتماعية وعاطفية. كما لاحظت أيضا أن الطبقة الوسطى تلعب دورا هاما في تطور الأدب، لأنها تفرز الحرية والفضيلة، وهي قيم أخلاقية هامة وتمثل شرطا ضروريا لتقدم الفن.

بهذه الملاحظات والأفكار تجاوزت مدام دي ستال ما قدمه السابقون عليها في مجال التفسير الاجتماعي للأدب، مما يجعل بعض الباحثين يعتبرون دي ستال الرائدة الحقيقية الأولى لسوسيولوجيا الأدب[٣٦] والحق هو أن أفكار هذه الكاتبة الفرنسية لا تخلو من أهمية، وإن كانت لم تتخلص من النزعة السببية المباشرة، كما أن مفهوماتها، وخاصة مفهوم الطابع القومي، لم تكن لها معانٍ واضحة ومحددة.

في نهاية القرن الثامن عشر كانت هناك أفكار أخرى جديدة تنمو في اتجاه مغاير تماما لاتجاه أفكار هردر ومدام دي ستال وغيرهما ممن اتسمت أعمالهم بالطابع الحتمي، وبالبحث عن ارتباطات سببية مادية بين حقائق كالمناخ والجغرافيا وبين الأدب ونهضت تلك الأفكار الأخرى الجديدة على أساس الربط بين تعاظم الاتجاه نحو أشكال متعددة من الانقسام الاجتماعي، وبين التفتت الذي أصاب الآداب والفنون. وقد ارتبط ظهور تلك الأفكار باسم كل من آدم سميث Adam Smith (١٧٢٣-١٧٩٠) وآدم فرجسون Adam Ferg-son (١٧٢٣-١٨١٦). فقد ذهب سميث في أحد كتبه (محاضرات في البلاغة والأدب) إلى أن فنون الشعر والرقص والموسيقى كانت في الأصل كلا موحدا، لا ينفصل أي منها عن الآخر، وكان رؤساء القبائل يجمعون بين ممارسة الفن وممارسة التشريع، أي وضع القواعد المنظمة للعلاقات بين أفراد القبيلة. وذهب فرجسون إلى أن الإنسان كان بطبعه شاعرا، لأن الشعر كان يعبر عن عواطفه العميقة ووجداناته ومشاعره، وأن التاريخ

المبكر للأمم كان موحدا بالنظر إلى وحدة الفنون. لقد كان الكهنة والفلاسفة ورجال الدولة في العصور اليونانية يلقون تعاليمهم وقراراتهم شعراً، وكان التجار يمزجون الشعر بالموسيقى وقصص البطولات الملحمية، باختصار، كان الشعر جزءا من ممارسات الناس وحياتهم، غير أن تلك الوحدة في الفنون أخذت في التلاشي والتبدد تدريجيا تحت وطأة النمو المتزايد للتباين الاقتصادي والاجتماعي الذي بدأت تشهده المجتمعات بعد تلك العصور الأولى، حيث ظهرت التخصصات في النشاطات الاقتصادية والاجتماعية، وفي الممارسات الفنية كذلك، صحيح أن تقسيم العمل أفضى إلى زيادة في الثروة ووفرة في الإنتاج نتيجة للتقدم التكنولوجي في عمليات إنتاج السلع والثروات، لكنه أدى في الوقت نفسه إلى انهيار الوحدة العضوية التي كانت تتميز بها مجتمعات ما قبل الصناعة، التي تحول الناس فيها إلى موضوعات للعملية التاريخية بعدما كانوا هم الذوات الفاعلة في هذه العملية. إن ظهور التمايز والانقسام بين أفراد الجماعة الإنسانية وتعدد الأدوار بينهم قد جعل الإنسان يفقد وحدته، وكنتيجة - غير مقصودة - لتطور تقسيم العمل، صار الأدب وظيفة وعملا متخصصا تمارسه جماعة منفصلة عن بقية الجماعات الأخرى، صار مهنة يحترفها البعض ولا يقومون بعمل آخر سواه. ومع تعاظم التجارة تحول الأدب إلى سلعة تباع وتشترى في السوق، وخضع بالتالي لقوانين التجارة وقواعدها.

إن فكرة تقسيم العمل، وتعاظم دور هذا التقسيم في إحداث الانشطار والتفتت الذي أصاب وحدة الإنسان وكماله الأول، وفي تحول الفن إلى ميدان للتخصص، وفي تعدد أشكال الفنون وأنماطها في مجتمع يزداد فيه الاتجاه نحو الصناعة والتجارة، هذه الفكرة وجدت تعبيرا لها في فلسفة التاريخ عند هيجل G. W. F. Hegel (١٧٧٠-١٨٣١) التي اكتسبت مكانة خاصة في التراث الفكري نظرا لتأثيرها على نظريات تاريخ الفن، فقد ذهب هيجل إلى «أن الفنون والآداب، مثل القوانين والنظم، ماهي إلا تعبير عن المجتمع، ومن ثم فهي مرتبطة ارتباطا لا تنفصم عراه بسائر عناصر التوسع الاجتماعي»[٣٧]، وأنه إذا كانت الملحمة تعبيرا كاملا عن «العصور البطولية»، فإن العالم المعاصر بفرديته وتخصصه قد نزع الإنسان من علاقته الوثيقة بالطبيعة، وهي العلاقة التي كان يقوم عليها الفعل الملحمي، ووجد هذا العالم المعاصر - بما يضمه من نظم بيروقراطية وقوى سياسية، وما يتميز به من تقسيم شديد للعمل - بديلا للملحمة متمثلا في الرواية التي تعد «ملحمة الطبقة الوسطى»، إن وعي العالم المعاصر هو «العقل النثري» Prosaic Mind الذي يعبر عن نفسه في شكل الرواية، ويعكس بصدق تفتت العالم وفقدان الوحدة[٣٨].

إذن، في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر كانت هناك حركتان فكريتان، لكل منهما موقف محدد من طبيعة العلاقة بين الأدب والمجتمع. الحركة الأولى يمثلها فكر هردر ومدام دي ستال، وتسعى إلى إقامة صلات علية بين الأدب وبعض الوقائع المادية، وتحاول إخضاع الأدب - كواقعة - للتحقق العلمي باستخدام مناهج ووسائل تشبه تلك التي تستخدم في العلوم الطبيعية. والحركة الثانية يمثلها فكر سميث وفرجسون، وترى أن الأدب ينبغي النظر إليه ليس بوصفه انعكاسا بسيطا للمجتمع أو لوقائع مادية (مناخية أو جغرافية)، ولكن بوصفه تجسيدا لنضال الإنسان من أجل الأصالة Authenticity، ومحاولة لإدراك معنى عالم أفرغ من القيم الحقيقية بسبب الغزو المتنامي لتقسيم العمل، وطوال القرنين التاسع عشر

والعشرين تنازعت علم اجتماع الأدب هاتان النظرتان: الوضعية التي برزت أسسها بصورة أوضح من خلال أعمال ماركس وإنجلز، ثم أعمال بليخانوف ولوكاتش وغيرهما، وإن كانت كل نظرة منها قد شكلت تيارا واسعا تعددت روافده وتعاقبت أمواجه.

التأسيس على مسلمات وضعية

في منتصف القرن التاسع عشر، كانت الوضعية قد أخذت تهيمن على الكثير من مجالات البحث والعلوم، خاصة العلوم الاجتماعية التي كانت في مرحلة التأسيس آنئذ، ويرجع ذلك إلى التقدم الذي أحرزته العلوم الطبيعية، والدقة التي وصلت إليها أدواتها البحثية، فأراد العلماء الاجتماعيون، في دراستهم لظواهر الإنسان والمجتمع، أن يتبنوا مناهج العلوم الطبيعية وأدواتها في بحوثهم طموحا إلى رفع مستوى الدقة في علومهم تشبها بالعلوم الطبيعية. وكانت أفكار الفيلسوف أوجست كونت (١٧٩٨-١٨٥٧) الذي ارتبطت باسمه نشأة علم الاجتماع، هي التي شجعت علماء التاريخ والأنثروبولوجيا والأخلاق والجمال والفن على توظيف الرؤية الوضعية في دراساتهم.

ولعل الدوافع التي حدت بدارسي الفن والأدب إلى تبني الوضعية هو رغبتهم في التخلص من النزعات المثالية في تفسير الأعمال الأدبية، ومحاولتهم الابتعاد عن الأحكام الأخلاقية وتأسيس بحوثهم على منهج دقيق يمكنهم من الكشف عن القوانين التي تتحكم في النظم الفنية والجمالية. وفي هذا المجال برز عدد من الباحثين منهم سانت بيف Sainte - Beuve (١٨٠٤-١٨٦٩)، وهيبوليت تين H. Taine (١٨٢٨-١٨٩٣)، وجان ماري جويو Jean-Marie Guyau (١٨٥٤-١٨٨٨).

اهتم سانت بيف بجمع الحقائق عن حياة الأدباء وعن خصائصهم (الأسرية والعقلية والأخلاقية.. إلخ)، وعن آرائهم، وحاول أن يصنفهم في أنماط، وأن يقيم علاقات بين خصائص كل مجموعة منهم وبين أعمالهم الأدبية، وكان يرى أن هذه هي الطريقة العلمية لفهم الأدب، وأطلق على هذه الطريقة، طريقة «الصورة الأدبية»[39]. وعلى الرغم من قوله إنه يريد أن يؤسس «تاريخا طبيعيا أدبيا» وفقا للأسلوب العلمي، إلا أن أعماله لم تشكل أهمية واضحة في هذا المجال إذا قورنت بأعمال معاصره تين.

كان تين مشغولا بتحديد العوامل التي تقف وراء ظهور الأدب العظيم والفن الخلاق، وتعتبر محاولته في هذا الصدد أهم محاولة لتأسيس سوسيولوجيا الأدب في القرن التاسع عشر، وذلك في ضوء تأكيده على ضرورة الملاحظة العلمية المنظمة لتقاليد العصر ولتأثيرها على ظهور الفن، وهو تأكيد يدل على الرغبة في تقنين الإجراءات البحثية على غرار العلم الوضعي (الطبيعي) الذي كان تين معجبا بنجاحاته[40]. غير أن تين كان يرى - من ناحية أخرى - أن ظهور الفنان هو نتاج لعمليات «انتقائية»[41]، مما يعكس تأثره بالنزعة التطورية الثقافية التي كانت تتعاظم منذ اكتشافات داروين في علم الحياة. وثمة محاولة في كتابه «فلسفة الفن» لتطبيق قانون الاختيار الطبيعي على الفنون[42]. ومن ناحية ثالثة ثمة شواهد عديدة تشير إلى اقتراب تين من فكر الفيلسوف الألماني هيجل، ورغبته في ترجمة أعمال هذا الفيلسوف إلى «المصطلحات العلمية الحديثة»[43]. كانت هذه الروافد الفكرية الثلاثة (الوضعية التجريبية، والتطورية، والهيجلية) مؤثرة في فكر تين، وإن كان لم يتأثر بها بصورة صرفة وكما هي، بل كان يحاول أن يمزج بينها في معادلة خاصة تميز منهجه. وربما كان ذلك هو ما دفع ناقدا ومؤرخا أدبيا مثل رينيه ويليك إلى القول إنه «ليس من السهولة وضع تين في تاريخ الأفكار»[44].

اقترح تين ثلاثة مفهومات تصور أنها تشكل الأسس التي تشمل كل الأسباب الحقيقية والممكنة للحركات الأدبية والفنية. وهذه المفهومات هي: العنصر (أو العرق) Race، والبيئة Milieu، والزمن (أو العصر) Moment. وذهب إلى أن التفاعل بين هذه العناصر الثلاثة ينتج إما «بناء عقليا عمليا» أو «بناء عقليا تأمليا»، وإذا ما أمكن قياس هذه العناصر والكشف عن معناها بالنسبة لكل حضارة، لأمكننا أن نفهم تطور الأفكار الخلاقة التي تعبر عن نفسها في الفن والأدب العظيم عبر العصور. غير أن الغموض الذي أحاط بهذه المفاهيم، وعدم قدرة تين على تحديد الوزن النسبي لكل منها في الحالات التي درسها، وقد عرض نظريته للنقد، وقلل من قدرتها على الإقناع.

فمفهوم «العنصر» لديه يشير إلى «الاستعدادات الوراثية المتأصلة التي يجيء بها الإنسان معه إلى العالم، والتي تكون أساسا متحدة مع الاختلافات الملحوظة في مزاج الجسم وبنيته»[٤٥]. ويذهب تين إلى القول بأن هذه الاستعدادات الفطرية، رغم اختلافها من شعب لآخر، تتسم بالاستمرارية. ويعطي مثالا على ذلك بالجنس الآري القديم Old Aryans الذي احتفظ بوحدة الدم والفكر التي تربط بين فروعه السلالية، والتي تتجلى في لغاته وآدابه وفلسفاته وديانته، رغم ما تعرض له هذا العرق من توزع وانتشار وتبدل وثورات عبر ثلاثين قرنا. وهذه الاستمرارية ناجمة ـ حسب قوله ـ عن عدة عوامل أهمها أن العنصر يكتسب خصائصه من التربة والفضاء، ومن الأحداث الكبرى، ومن تجدد الحاجات والنشاطات، ومحاولات التكيف المستمرة مع الظروف المتجددة التي تقتضي دائما عادات جديدة، بحيث يمكن القول إن طابع أو شخصية شعب ما هي إلا اختزال أو تكثيف لكل أفعاله وأحاسيسه السابقة[٤٦]. هكذا نلحظ أن مفهوم العنصر قد صار فضفاضا واتسع ليشمل عوامل اجتماعية وجمالية ومناخية. وقد حاول تين تطبيق المفهوم على تاريخ الأدب الإنجليزي وذهب إلى أن هذا الأدب بسماته (الجدية ـ الواقعية ـ النزوع إلى الهجاء السياسي) هو انعكاس لصمود العرق الأصلي للإنجليز ـ الساكسون ضد الثقافة النورماندية التي وفدت على إنجلترا مع الفاتحين الإسكندنافيين ـ الفرنسيين في القرن الحادي عشر الميلادي. غير أن مصطلحاته العنصرية بالصورة التي استخدمها قد جعلت ما كتبه يعاني من الخلط والتشويش[٤٧].

ومفهوم «البيئة» لدى تين هو المفهوم الذي احتفظ بفائدته وظل باقيا، واستخدمه كثيرون ممن جاءوا بعد تين، وإن كانوا ـ حسبما يلاحظ توماس مونرو ـ لم يعترفوا بفضله[٤٨]. وللمفهوم عند تين معنى واسع يضم عناصر عديدة ومختلفة: المناخ ـ التضاريس ـ التربة ـ المواد الخام ـ الطرق، الميراث الثقافي، سياسة الدولة، التصورات والأفكار، وعوامل اجتماعية واقتصادية أخرى[٤٩]. وقد سعى تين في دراسات عديدة له إلى الربط بين ظروف البيئة الطبيعية أو البيئة الثقافية وبين سمات معينة تميزت بها آداب وفنون أمم معينة. فالصحافة في التصوير في بدايات عصر النهضة ترجع إلى طبيعة الجو والضوء والريف الكثير التلال في إيطاليا، والبراعة في استخدام الألوان في فن التصوير في فينيسيا ترتبط بالأضواء والألوان الفعلية في تلك المنطقة المائية، والميراث الفني عمومه جانبا من البيئة لاستيلاد فن جديد، والغزو الآري لآسيا أحدث ظلما لا يحتمل، وأشاع يأسا تاما، مما خلق حالة سيكولوجية أدت إلى نمو الأساطير، وتاريخ النحت اليوناني يدل على تكيف الفن مع الحياة.. إلخ. ومن الجدير بالذكر أن تين قد وضع مصطلحا معينا جعله وسيطا بين البيئة كعامل فاعل وبين الفن كناتج متأثر، وهذا المصطلح هو: «الحالة المعنوية» أو «المناخ السيكولوجي». فالبيئة (الفيزيقية والاجتماعية)

تحقق حالة عامة للعقل هي التي تحدد، وبصورة حتمية، سمات العمل الفني من جهة، والاستعداد لتلقي هذا العمل من جانب الجمهور من جهة ثانية، ورغم وجود هذا المصطلح الوسيط، فإن معظم تفسيرات تين كانت ذات طابع ميكانيكي، رغم محاولته التخلص من هذا الطابع. وهناك ملاحظة يسجلها الآن سوينجوود مفادها أن تحليلات تين تفتقر إلى أية ارتباطات بين أجزاء معينة من النصوص وبين حقائق خارجية محددة. ففي مقالة عن بلزاك، وهي التي يعتبرها ويليك ذروة النقد الأدبي عند تين، يذهب تين إلى أن الأساس الكلي للكوميديا الإنسانية ينهض على فشل بلزاك في تحقيق طموحاته، وتربط المقالة بين بلزاك «رجل الأعمال المثقل بالديون» والجشع، والمنغمس في الشهوات الحسية، والقادر على تحريف العمل، وبين مجتمعه وعالم شخصياته وأسلوبه وفلسفته، لكن الربط يشي بنزعة مادية تعجز عن التخلص من السببية المباشرة، رغم اختلاط طريقة تين بنكهة هيجلية.(٥٠)

أما مفهوم «الزمن» فيعرفه تين بصورة لا تخلو من غموض. فهو يرى أن الزمن هو «الزخم المكتسب» أو «القوة الدافعة المكتسبة» Acquired momentum التي هي نتاج لعمل كل من قوى الداخل وقوى الخارج. وهذه القوة ذاتها هي التي تسهم في إنتاج ما يجيء بعدها. فالطابع القومي والظروف البيئية لا تمارس تأثيراتها على لوح أملس خالٍ من أية انطباعات Tabula rasa، وإنما على أرضية سبق لها أن تلقت علامات، فآثار المرء تختلف حسب مسلكه على الأرض في فترة زمنية أو أخرى. ويبدو أن تين كان يقصد ما تمارسه الحقب التاريخية الماضية، وما يمارسه التراث الفني من تأثير على الفنانين في الحاضر، وما يمكن أن يمارسه الحاضر على فناني المستقبل، أي توالي الأجيال واختلافها بحكم اختلاف اللحظة الزمنية التي يعيشها وينتج فيها كل جيل، وبحكم اختلاف درجة التطور وسرعته. وهو يعطي مثالا على ذلك بعصرين مختلفين من عصور الأدب والفن: التراجيديا الفرنسية لدى كورني Corneille ولدى فولتير Voltaire، والدراما اليونانية لدى إسخيلوس Aeschylus ولدى يوريبيدس Euripides، والتصوير الإيطالي لدى دا فنشي Da Vinci ولدى جيدو Guido، فالفكرة العامة ـ حسبما يذهب تين ـ لم تتغير عند أي من هاتين المرحلتين المختلفتين تماما، حيث النمط الإنساني هو نفسه موضوع التمثيل أو التصوير دائما، وحيث يبقى القالب الشعري، والبناء الدرامي، فيشكل الجسد، إلا أن ثمة اختلافا أساسيا، وهو فإن أحد الفنانين هو السلف أو السابق، والثاني هو الخلف أو اللاحق، وليس لدى الأول نموذج، في حين أن الثاني لديه نموذج، والأول يرى الأشياء أو الموضوعات وجها لوجه، أما الثاني فيراها من خلال الأول، وأن فروعا عظيمة كثيرة من الفن لم تعد تمارس، وتفصيلات عديدة تم إتقانها، وتضاءلت سذاجة الانطباع وفخامته، وتزايدت الأشكال السارة والمصقولة، باختصار مارس العمل الأول تأثيرا على العمل الثاني، فالأمر مع الناس كما هو مع النبات، إذ تنتج العصارة الواحدة، في درجة الحرارة نفسها، وفي التربة ذاتها، وفي مختلف مراحل تطورها المتتالية، تشكيلات وبراعم وزهورا وثمارا وأفلقة بذرية مختلفة، بحيث إن الذي يجيء لاحقا ينبغي أن يكون مسبوقا بسالف، وينبغي أن ينبثق من موته.(٥١)

ويثير هذا المثال التوضيحي مسألة التقاليد الأدبية التي يرثها الكتاب عمن سبقوهم، وهي مسألة حيوية في الدراسة السوسيولوجية للأدب، لأنها تمس قضية العلاقة بين جماليات العمل الأدبي والعصر الذي يتم إبداع هذا العمل فيه، وهي علاقة ذات متضمنات اجتماعية وثقافية وفنية عديدة، وكان لتين الفضل في طرحها حين طرح مفهوم «الزمن»، وإن كان طرحه لها قد اتسم بالغموض تارة وبالتبسيط تارة أخرى.

هكذا نجد أن مفاهيم تين الثلاثة: العنصر والبيئة والزمن قد جمعت بين أسباب عدة، وعوامل متنوعة تؤثر في العمل الأدبي، وهي مسألة تتفق مع طموحات تين العلمية كما أوضحنا من قبل. إلا أنه قد واجه معضلة رئيسية، وهي التناقض بين رغبته في تطبيق نظريته المادية على الفن والأدب من جهة، ورغبته في الاعتراف بالاستقلالية النسبية للروح المبدعة من ناحية أخرى. ولعل وعيه بهذه المعضلة، التي مازالت تمثل إحدى الإشكاليات الأساسية في علم اجتماع الأدب، هو ما دفعه في بعض تحليلاته إلى التخلي عن مخططه المادي والنزوع إلى تفسير سيكولوجي لا يرجع فيه التغيرات الكبرى إلى البناء الاجتماعي، وإنما إلى روح الإنسان. وهنا يتجلى اقترابه من فكر هيجل، وهو اقتراب لا يعني بالضرورة استيعاب تين لجوهر الفلسفة الهيجلية. بل إن مفكرا مثل ليوكوفلر Leo Kofler يرى أن تين قد أساء فهم عالم هيجل الفكري، وإذا كان قد تأثر به، فإن هذا التأثر كان سطحيا أو ظاهريا فقط، لأن استخدام النواحي الوضعية في فكر هيجل هو الذي يتضح في تحليلات تين[٥٢]. لكن يبقى لتين الفضل في أنه قد ابتعد بالدراسة الأدبية عن التصورات أحادية البعد، التي تربط بين الإبداع الأدبي وبين شخصية الفنان فحسب، وتوجه إلى تصور سوسيولوجي ينهض على مسلمات تتصل بالشروط الاجتماعية والثقافية التي تؤثر في الأدب، بصورة تجعلنا نتفق مع ماذهب إليه سوينجوود[٥٣]، من أن تين قد نجح في تطوير نظرية، وإن كان لم ينجح بالقدر نفسه في تطوير منهج لتطبيق هذه النظرية على نحو منظم.

التأسيس على مسلمات ماركسية

اكتسب المدخل السوسيولوجي الذي أسسه تين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على مسلمات وضعية موقعا رئيسيا في مجال دراسة الفن والأدب، وكان الاعتراف به بوصفه المدخل الشرعي في هذا المجال مسألة تناسب المناخ العلمي (الوضعي) السائد في ذلك الوقت غير أن تعدد العوامل الوراثية والبيئية، واختلاطها ببعضها البعض بصورة غامضة، واللبس الذي أحيط به مفهومه للتاريخ أو للزمن، قد أضعف من دعائم نظريته. وفي المقابل، كان هناك تيار جديد يسعى إلى تأسيس نظرة اجتماعية للفن والأدب تنهض على مسلمات مادية ـ تاريخية مستمدة من فكر مؤسسي الماركسية: كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨-١٨٨٣)، وفريدريك إنجلز Frederick Engels (١٨٢٠-١٨٩٠). والواقع أن الماركسية لم تطرح نفسها في بداية ظهورها كاتجاه نقدي أدبي، أو كمشروع في فلسفة الفن، وإنما ظهرت كنموذج بديل لعلم الاجتماع الوضعي، وكنظرية مادية ـ تاريخية تفسر حركة المجتمعات في التاريخ في ضوء الصراع الطبقي. وينهض النموذج المجتمعي الذي قدمت على الأساس Base والبناء الفوقي Superstructure مع ما بينهما من علاقة جدلية. ووفقا لهذا النموذج تبدو ظواهر الوعي والفكر والمعرفة، كما يبدو الإنتاج الثقافي ككل لابوصفه انعكاسا لحقائق خارجية متناثرة، عرقية كانت أم بيئية، وإنما بوصفه انعكاسا لطبيعة القوى والعلاقات الإنتاجية في المرحلة المعينة من تطور المجتمع، والحق أن قراءة أعمال ماركس وإنجلز لا تكشف عن وجود نظرية متماسكة في تفسير الظاهرة الفنية أو الأدبية، لكن هذه الأعمال تضم مجموعة من الإشارات، التي قد لاتتجاوز الانطباعات العامة، عند معنى الفن عموما، أو التعليقات على بعض الأعمال الشعرية والروائية. ويلاحظ على هذه الانطباعات والتعليقات أنها أولا متناثرة في ثنايا مؤلفات وخطابات ماركس وإنجلز[٥٤]، وثانيا، يغلب عليها الاهتمام برسالة الفن والأدب أكثر من الاهتمام بآليات العملية الإبداعية ووسائطها،

وثالثا، التأثر بفكرة آدم سميث وآدم فرجسون ـ التي أشرنا إليها من قبل ـ والتي تتعلق بالآثار الضارة لتقسيم العمل والتوسع فيه على الإنسان الحديث وعلى حالة الفن والأدب، مع التركيز على فكرة الاستلاب Entfremdung (Alienation).

وتعكس كتابات ماركس وإنجلز تأرجحا بين نزعة حتمية وجماطيقية تربط بين البناء الاقتصادي للمجتمع كعامل أساسي ووحيد يحدد طبيعة بنية الفكر والأيديولوجيات والفنون والآداب، ونزعة مرنة تعترف باستقلالية عناصر البناء الفوقي، بما فيها الفن والأدب، وبقدرة هذه العناصر على التمتع بالحرية والتخلص من العلاقة المباشرة مع الأساس المادي للمجتمع، وعلى أية حال، فقد أثارت تعليقاتهما مجموعة من القضايا الهامة، ولفتت الأنظار إلى بعض المفاهيم التي اهتم بها جيل لاحق من النقاد الماركسيين. فماركس، مثلا، يثير في تعليق له (عام ١٨٤٤، نشر في المخطوطات الاقتصادية والفلسفية) على مسرحيتي «فاوست» لجوته، و«تيمون أثينا» لشكسبير، مسألة قدرة الأدب على عكس الدلالة الاجتماعية للنقود كقوة تتحكم في السلوك الاجتماعي للإنسان، رغم أنها ـ أي النقود ـ من صنع الإنسان نفسه الذي أوجدها لخدمته، لكنها، في وقوفها خارج الإنسان وتحكمها في سلوكه، تمثل «القدرة المبعدة (أو المغتربة) للإنسانية Das entaeusserte Vermoegen der Menschheit»[٥٥]. وفي خطاب له إلى إنجلز (عام ١٨٦٩) كتب بعض الملاحظات حول رواية ديدرو «Neveu de Rameau» تبنى فيها الوصف الذي كان هيجل قد قدمه لبطل هذه الرواية، باعتباره يمثل حالة واعية ومعبرة من حالات «تمزق الوعي Zerrissenheit des Bewusstseins»، وحلل ماركس الشخصية الرئيسية في الرواية في ضوء مفهوم «الذات المغتربة» التي تناضل من أجل صيغة للوعي الذاتي[٥٦]، وهو مفهوم سوف يحتله فيما بعد مكانا محوريا في تحليلات جورج لوكاتش.

أما إنجلز، فقد أبرزت تعليقاته مصطلح «الانعكاس»، إذ تتجلى الفكرة المهيمنة في بعض أجزاء كتابه «أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة» (١٨٨٤) هي أن الأدب يصور العلاقات الاجتماعية تصويرا مرآويا. ويستعين إنجلز بأشعار هوميروس اليوناني بوصفها مرآة للظروف السكانية والاقتصادية التي كانت سائدة في العصر الذي ظهرت فيه[٥٧]. وفي خطابه (عام ١٨٨٥) إلى الكاتبة الروائية الألمانية مينا كاوتسكي Minna Kautsky وخطابه (عام ١٨٨٨) إلى الكاتبة البريطانية مارجريت هاركنس Margaret Harkness، يطرح إنجلز مجموعة من الإشكاليات الجوهرية المتصلة بالواقعية في الأدب مثل: القصدية أو الهدف، الصدق الفني، فكرة «النمط» أو «الشخصيات النموذجية» في الأعمال الأدبية[٥٨].

لم يقدم ماركس وإنجلز، إذن، نظرية خاصة في الفن والأدب، وإنما أوضحا، من خلال ملاحظاتهما وتعليقاتهما، إمكانية الرؤية المادية التاريخية، والمنهج الجدلي، في تفسير الظواهر الفنية والأدبية بوصفها تشكل جزءا من عناصر البنية الفوقية للمجتمع. وقد حاول باحثون ماركسيون جاءوا بعد ماركس وانجلز، توظيف تلك الرؤية وذلك المنهج من أجل تأسيس سوسيولوجيا أدبية ماركسية، تقف على النقيض من السوسيولوجيا الأدبية الوضعية، وربما كانت أعمال المفكر الروسي جورج بليخانوف G. Plekhanov (١٨٥٦-١٩١٨) ـ الذي كان ينظر إليه على أنه رائد النظرية الثقافية الماركسية في الفترة الواقعة بين موت ماركس عام ١٨٨٣ وحتى الثورة الروسية عام ١٩١٧ ـ هي أهم هذه المحاولات التأسيسية. صحيح أن تلك الفترة قد شهدت أسماء لامعة لمفكرين ونقاد مثل فرانز ميرنج F. Mehring، وأنطونيو لابريولا A. L. Abriola، وكارل

كاوتسكي K. Kaotsky، وأناتولي لوناتشارسكي A. Lunacharsky ممن أخذوا على عاتقهم بلورة النظرية الثقافية الماركسية، إلا أن تعدد أعمال بليخانوف وكثافتها وطابعها العلمي، جعلت مفكرا وناقدا مثل لوناتشارسكي يطلق على بليخانوف صفة «مؤسس النقد الماركسي»(٥٩).

حين كان بليخانوف يكتب حول قضايا الفن والأدب، لم تكن كتابات ماركس وانجلز حول هذه القضايا قد جمعت بعد، وإنما كانت لا تزال متناثرة في أعمالها وخطاباتها، إلا أن بليخانوف قد ألم بها واستوعبها بصورة مدهشة، حسبما يذهب هانز-ديتريش زاندر، وكان اعتناقه لهذه الأفكار، كاعتناقه للماركسية عموما، اعتناقا علميا، على عكس معاصره لينين Lenin الذي كان اعتناقه لها أيديولوجيا وأداتيا(٦٠). وقد صاغ بليخانوف موقفه من مسألة العلاقة بين الأدب والفن من ناحية وبين المجتمع من ناحية أخرى في عدد من الدراسات التي يكشف محتواها عن نوع من التطور والنضج في أفكاره(٦١)، كما يكشف عن محاولته الإفادة من مفاهيم ومقولات بعض المفكرين مثل هيجل، وبلينسكي، وتين، وداروين، وميخايلوفسكي.

ونقطة الانطلاق عند بليخانوف هي أن الفنون والآداب هي في الأساس تعبير عن ميول المجتمع وأحواله النفسية، وإذا كان المجتمع منقسما إلى طبقات، فإن الفنون والآداب تكون تعبيرا عن الميول والأحوال النفسية لطبقة معينة، وتتمثل مهمة الناقد في ترجمة الأفكار التي يعبر عنها الفنان في إنتاجه من لغة الفن إلى لغة علم الاجتماع، أو-بعبارة أخرى-في تحديد ما يسميه بليخانوف «المعادل السوسيولوجي» Sociological Equivalent للظاهرة الأدبية المعطاة(٦٢). وتحتل ظاهرة «الطبقة» و«الصراع الطبقي» مكاناً محوريا في تحليلات بليخانوف، أو هي بالأحرى جوهر المعادل السوسيولوجي الذي كان يبحث عنه في الأعمال التي درسها. ففي مناقشته للأدب المسرحي في فرنسا في القرن الثامن عشر (١٩٠٥) يذهب إلى أن تفوق المأساة Tragedy على المسرح الهزلي (الفارص) Farce كان تعبيرا عن الهيمنة الثقافية والاقتصادية للطبقات العليا في المجتمع الفرنسي في القرن الثامن عشر، فبينما كانت المهزلة هي الشكل الفني المرتبط بالطبقة الدنيا، كانت المأساة، التي هي من ابتكار الأرستقراطية، تعبيرا عن آراء الطبقات العليا ومطامحها وذوقها، وتتناسب تماما مع رؤيتها الاجتماعية والسياسية. فشكل المأساة القائم على قاعدة الوحدات الثلاث، وطريقة إلقاء الممثلين الذين يجب أن يأخذوا ظاهرا من العظمة والرفعة، والشخصيات الرئيسية في المأساة التي كانت غالبا شخصيات ملوك «أبطال» و«ذوي المقامات الرفيعة» - كل ذلك كان استجابة لحاجات ارستقراطية البلاط الملكي-ولم يكن باستطاعة أي مؤلف لا يضع في أعماله المقدار المطلوب من «الرفعة» الارستقراطية أن يحصل على استحسان الجمهور لأعماله أو تصفيقه له، مهما كانت موهبته وعبقريته. ومن هنا يمكن تفسير الأحكام التي صدرت على شكسبير من جانب النقاد في فرنسا (وفي انجلترا أيضا بتأثير من النقاد الفرنسيين) فبوب Pope يعرب عن أسفه لأن شكسبير «كتب للشعب، لا لعلية القوم»، وهيوم Hume يتوجس خيفة من تضخيم عبقرية شكسبير، حتى فولتير Voltaire، كان يرى شكسبير عبقريا لكنه كان يرى فيه أيضا «بربريا» فظا(٦٣). غير أنه مع نشأة الطبقة البورجوازية في نهاية القرن، بدأ نموذج مسرحي جديد في الظهور، وهو «الكوميديا العاطفية» Sentimental Comedy(٦٤) التي يعتبرها بليخانوف الشكل الدرامي البورجوازي الذي يصور «الإنسان المتوسط الحال»، وليس «الكائن المتفوق».

هكذا يرى بليخانوف أن ظهور شكل درامي ما وأفوله هو مسألة ترتبط بالنضال الطبقي في المجتمع، وبصعود طبقات معينة وتحلل طبقات أخرى. وفي مقالاته حول «الفن والحياة الاجتماعية» (١٩١٢-١٩١٣) - وهي المقالات التي أثرت تأثيرا واضحا على جيل كامل من النقاد الماركسيين الروس، وكانت تمثل بالنسبة لهم النص الماركسي الأصلي حول الفن - حلل بليخانوف الحركة المعروفة باسم «الفن للفن» art for art's sake بوصفها تعبيرا عن حالة من الخصام بين الفنان وبين بيئته، مما يفضي إلى نوع من الاغتراب ينعكس في تصور بعض الكتاب أن الظاهرة الفنية مستقلة كلية ومنفصلة تماما عن الحياة الاجتماعية. ويعطي بليخانوف مثالا على ذلك بحالة بعض الروائيين الفرنسيين مثل فلوبير G. Flaubert (١٨٢١-١٨٨٠)، وإدموند جونكور E. Goncourt (١٨٢٢-١٨٩٦) وجول ألفريد جونكور J. A. Goncourt (١٨٣٠-١٨٧٠) الذين هاجموا الطبقة الوسطى (وهي الطبقة التي ينتمون إليها) بسبب تعصبها ضد الفكر التقدمي، والتقدم عامة، وتزمتها وضيق أفقها، لكنهم في الوقت نفسه لم يكونوا قادرين على التوحد مع الطبقة العاملة. هذا الموقف الموزع بين المعارضة الواعية للبورجوازية والعجز عن تبني الموقف البروليتاري يفضي بصاحبه (الكاتب البورجوازي) إلى رؤية للحياة الاجتماعية ذات نزعة تشاؤمية يائسة. فليس ثمة انسجام مع المجتمع أو الاندماج فيه، وهذا الموقف هو الذي يقف وراء ظهور حركات «الفن للفن»(٦٥). ويذهب ما يناره سولومون M. Solomon(٦٦) إلى أن تحليل بليخانوف يتفق تماما مع إصرار ماركس على النتاجات الفكرية ينبغي أن تفسر بالنظر إلى الانقسامات داخل المجتمع، وإن كان منهج بليخانوف قد غاب عنه الجانب الجدلي الذي يعني أن الوعي نفسه يصبح قوة دافعة تنزع الحجاب الأيديولوجي عما يبدو وكأنه حقيقي في الوجود. وربما كان ذلك هو ما يجعل بعض الكتاب ينظرون إلى تحليلات بليخانوف على أنها ذات نزعة سوسيولوجية اختزالية، أو أن تحليلاته لا ترقى إلى المستوى الذي يجعلها تشكل نسقا متكاملا للبحث الأدبي، غير أن ذلك ينبغي ألا يجعلنا نغفل النواحي الإيجابية البارزة في إسهاماته التأسيسية.

فأولا، لم يعزل بليخانوف البحث الاجتماعي عن البحث الجمالي للنصوص، وإنما اعتبر البحثين بمثابة خطوتين في عملية واحدة هي عملية النقد. وذهب إلى أن «علم الاجتماع لا يجوز أن يغلق الباب في وجه علم الجمال، بل يجب على العكس أن يفتحه أمامه على مصراعيه»، وأن الناقد المادي إذا رفض القيام بتقويم الخصائص الجمالية للأثر موضوع الدراسة، بحجة أنه سبق له العثور على المعادل السوسيولوجي لهذا الأثر، «فسيكون قد أثبت أنه لا يفهم وجهة النظر التي يريد أن يعمل انطلاقا منها. فخصائص الخلق الفني في كل عصر ترتبط على الدوام وثيق الارتباط بالسيكولوجيا الاجتماعية التي يعبر عنها الخلق الفني. والسيكولوجيا لكل عصر مشروطة على الدوام بعلاقات ذلك العصر الاجتماعية. وهذه واقعة، يقيم عليها البرهان تاريخ الفن والآداب برمته»(٦٧) ويمثل هذا القول دليلا على وجود فرق أساسي بين رؤية بليخانوف ومنهجه، وبين رؤية أصحاب المنهج الوضعي والنزعة الإمبيريقية القائمة عليه، والتي لا تعتد بالجوانب الجمالية في العمل الأدبي.

وثانيا، كان بليخانوف ميالاً إلى التقليل من شأن عنصر «الإرادة» في الإبداع الأدبي، وربما يتفق ميله هذا - على ما يذكر سولومون(٦٨) - مع نزعة «الجبن السياسي» Political timidity لديه، وعدم رغبته في الانتقال إلى الفعل التاريخي قبل أن تكون الأرضية ممهدة للملك. ولذا فإن القوة اليوتوبية والترانسندنتالية للأدب والفن كانت بمثابة كتاب مغلق بالنسبة له، فقد ظل أساسا عالم اجتماع فن، قدم حلولا لعدد من القضايا، كما أثار عددا آخر من القضايا التي لم تحل بعد.

وثالثا، كان موقفه واضحا من مشكلات «الأدب الهادف» فقد انتقد كلا من تشرنشفسكي Chernyshev-sky، ودوبروليوبوف Dobroliubov، وبيزاري Pisarey في دعوتهم إلى ضرورة وجود شكل «مساعد» من الفن، كما أدان رواية «الأم» لمكسيم جوركي M. Gorky بسبب هادفيتها، ورفض قبول مبدأ «الالتزام» اللينيني الذي صار فيما بعد واحدا من دعائم «الواقعية الاشتراكية»(٦٩)، وظل ملتزما بالتأكيد على أن وظيفة النقد الأدبي هي أساسا الشرح والتفسير وليس التوصية أو وضع الأهداف للفن أو للفنان.

ورابعا، كان موقفه واضحا لا لبس فيه من مسألة مدى اعتماد الأدب على «البناء الفوقي» أو «أساس» ظروف الإنتاج، فقد كان يرى أنه من النادر ملاحظة تأثير مباشر للاقتصاد على الفن أو على «الايديولوجيات» الأخرى، خاصة في الأشكال المتقدمة من المجتمع، وقد صار بليخانوف ـ برأيه هذا ـ هو المدافع عما يسمى مدرسة البناء الفوقي في النقد الأدبي الماركسي، والتي كان عليها أن تدافع عن نفسها ـ خاصة خلال سنوات العشرينيات ـ ضد النقاد الذين كانوا يصرون على اعتماد الأدب اعتمادا مباشراً على الأساس الاقتصادي(٧٠).

الجدال المنهجي

إذا كان النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد شهد أهم الجهود لتأسيس حقل الدراسة الاجتماعية للظاهرة الأدبية، على مسلمات وضعية من ناحية، ومسلمات ماركسية من جهة أخرى، فإن كلا من الاتجاهين، الوضعي والماركسي، قد أثار من المشكلات بقدر ما أسهم في وضع مسلمات. وكانت المشكلات التي برزت تتصل، في معظمها، بالجوانب المنهجية. كما أثار كلا الاتجاهين ردود أفعال متباينة في الساحات الفكرية عموما، وفي مجالي علم الاجتماع والنقد الأدبي خصوصا، في كل من شرق أوروبا وغربها، وفي روسيا، وفي الولايات المتحدة الأمريكية، وتراوحت ردود الأفعال هذه بين مواقف متعصبة ضد، أو متعاطفة مع، أي من الاتجاهين، أو مواقف تسعى إلى تطوير منهجيات جديدة تجاوز بها أوجه القصور التي عانى منها كل منها. وقد شهدت العقود الثلاثة الأولى، خاصة سنوات العشرينيات من هذا القرن جدالات منهجية على درجة كبيرة من التعارض والحدة، وإن كانت أيضا على درجة كبيرة من الخصوبة، وكانت لها آثارها الهامة في تشكيل ملامح الميدان الناشىء فيما تلا ذلك من عقود، وربما حتى اليوم. ومن هنا، فإن الوقوف على أهم علامات وتجليات ذلك المد المنهجي أمر تقتضيه أهداف دراستنا هذه.

١ - كرد فعل فكري ومنهجي إزاء النزعة الوضعية المهيمنة، سعى بعض علماء الاجتماع الكلاسيكيين، مثل ماكس فيبر M. Weber، وفيلهلم دلتي W. Dilthy، وجورج زيمل G. simmel، إلى التمييز النقدي بين المناهج الملائمة للعلوم الطبيعية، وتلك التي تلائم العلوم الاجتماعية والثقافية، وانتقلت مقولة «الفهم» Verstechen التي كانت غائبة عن النزعة الوضعية في القرن التاسع عشر إلى قلب التحليل السوسيولوجي، ولم يعد التفسير السببي محورا وحيدا للبحث، وبالتالي تولد شعور بأن ظواهر الثقافة والفن والأدب في حاجة إلى منهج جديد يتجاوز التفسيرات الميكانيكية الوضعية.

٢ - في محاولة لتطوير الفكر الماركسي ظهرت بعض الأعمال (مثل أعمال جرامشي A. Gramsci، وروزا لوكسمبرج R. Luxemburg، وتروتسكي L. Trotsky) التي اتجهت إلى إعادة تعريف الثقافة كعملية فعالة تشمل الوعي والإرادة والهدف، وليست كرد فعل أو انعكاس آلي لعوامل اقتصادية، وكان

لتلك المحاولة تأثيرات هامة على نظريات ثقافية ماركسية، ظهرت فيما بعد في أعمال لوكاتش وجولدمان ومدرسة فرانكفورت.

٣- خلال العشرينيات ثارت (في روسيا خاصة) قضية هامة تتصل بالإجراء المناسب لتطوير منهجية سوسيو - أدبية، هل هو الاجراء الاستدلالي Deductive أم الاستقرائي Inductive. ففي عام ١٩١٠ كان روباكين N. A. Rubakin قد أعلن أن الأسلوب الاستدلالي هو أسلوب القرون الوسطى وأن البحث يجب أن ينهض في ممارسته على الأسلوب الاستقرائي الذي يقتضي الجمع المنظم للحقائق الأدبية - الاجتماعية. وفي عام ١٩٢٧ اشتكى أيخنباوم B. M. Eichenbaum من أن علماء اجتماع الأدب مازالوا يشغلون أنفسهم بالبحث الميتافيزيقي عن مصدر وأساس التطور الأدبي والأشكال الأدبية، في حين أنهم يجب أن يقدموا تفسيرات جديدة في ضوء دراسة الوقائع[٧١].

٤- في ارتباط بالنزعة الحتمية في الماركسية ظهرت في روسيا (قبل ثورة ١٩١٧) جماعة أطلق عليها اسم «مدرسة الأساس» The Basis School. ومن أبرز أعضائها الناقد ف. م. شولياتيكوف V. M. Shuliatikov (١٨٧٢-١٩١٢) الذي كان يرى أن الأيديولوجيا تعتمد مباشرة على ظروف الإنتاج والمصالح الطبقية، وأن مهمته كناقد هي السعي إلى «توضيح الزوايا المعتمة لعالم الأيديولوجيات الفنية»، ومصالح المؤلفين الطبقية، عن طريق «تحليل اجتماعي - تكويني» Social-genetic analysis وقد انتقده كل من بليخانوف ولينين. وضمت المدرسة نقادا آخرين مثل فريشه V. M. Friche، وكوجان P. S. Kogan. وبيريفيرزيف V. Pereverzev الذي اهتم بشكل العمل الأدبي، وكان يحلل الشكل في ضوء بيانات عن الكتاب، وفي ضوء الحالة الاقتصادية للمجتمع. ورغم الانتقادات التي وجهت إليه وإلى زملائه، فإنه كان يعلن أن طريقته هي السوسيولوجيا الأدبية الماركسية الوحيدة.

وفي مقابل هذه المدرسة، وجدت «مدرسة البناء الفوقي» Superstructure School التي كان بليخانوف يعتبر المدافع الأول عنها، كما ذكرنا من قبل، وضمت هذه المدرسة نقادا مثل فورونسكي A. Voronsky، وزايتلن A. Zeitlin، وجورباتشيف G. Gorbachev وترونسكي. كما يمكن اعتبار لوناتشارسكي أيضا من أعضائها. وعلى العكس من مدرسة الأساس، كانت هذه المدرسة تقبل القول بأن تطور الأدب يعتمد على الأيديولوجيا، ونادرا ما يعتمد على قوى اقتصادية أو اجتماعية. وكان أصحابها على استعداد لمنح بعض عناصر البناء الفوقي، كتاريخ الفن والبيئة الأدبية، بعض الأهمية في تطور الأشكال الأدبية[٧٢].

٥- ربما كانت أهم التطورات الفكرية - المنهجية في تلك الحقبة هو ظهور الشكلية الروسية Russian Formalism، التي قادها في البداية جاكوبسون R. Jakobson، وشلوفسكي V. Shlovsky، وأيخنباوم، والتي تبلورت في العقد الثاني من هذا القرن كحركة مناهضة لكل اتجاه ينظر إلى الأدب بوصفه وثيقة اجتماعية أو نفسية أو سياسية أو فلسفية أو أيديولوجية أو دينية، وليس في ضوء خصوصيته الجمالية، وفي ضوء كونه استخداما خاصا للغة.

وقد حددت الحركة مسعاها في تشييد علم للأدب له موضوعه الخاص ومفهوماته الخاصة، وكانت القضية المحورية لدى الشكليين الروس هي قضية الخصوصية، أي تمييز الأدب عن اللاأدب. وكتب جاكوبسون،

قائلا إن المجال الحقيقي للعلم الأدبي هو «الأدبية» Literariness التي تجعل عملا معينا أدبيا. ومن هنا استبعد البحث الشكلي أية فروض سابقة عن علاقة الأدب بالفكر أو المجتمع، وتركز أساسا على دراسة المستويات الصوتية والنحوية والدلالية والصورية في العمل الأدبي بوصفه «بنية» تتآلف داخلها هذه المستويات متمحورة حول عنصر أساسي هو الشكل الأدبي(٧٣).

وفي منتصف العشرينيات، كانت الحركة الشكلية مجبرة على تحديد علاقتها بالماركسية، خاصة في ضوء الجدال الذي دار بين التيارين، كانت أطروحة الشكليين الرئيسية ضد الماركسية هي أن هذه الأخيرة قد فشلت في إدراك مبدأ «الأدبية» الجوهري الذي يميز اللغة الشعرية عن اللغة العادية. أما الماركسيون، فقد رد بعضهم ردودا سلبية، إذ وصفوا الشكلية بأنها «راسب ثقافي» من روسيا ما قبل الثورة، وأنها «أيديولوجيا برجوازية منحطة». أما البعض الآخر (الأرثوذكسي) فقد كان رده هو أن الأدب اجتماعي، ومرتبط سببيا بالطبقة وبالسياسة، وبحيد إنتاج «الواقع» التاريخي(٧٤).

وعلى الرغم مما أظهرته المدرسة الشكلية خلال مسيرتها من ديناميكية تجلت في تجاوزها لمفهوم «الشكل» الاستاتيكي الذي ينظر إلى العمل كحاصل جمع أساليبه الأدبية واتجاهها إلى مفهوم تطوري للشكل، كما تجلت في تجاوزها للبحث المنعزل للواقعة الأدبية واتجاهها نحو ربط الأدب بالسلسلة الثقافية المتاخمة له، فإن هذه الديناميكية نادرا ما أخذت بعين الاعتبار من جانب خصوم الحركة الماركسيين خلال سنوات العشرينيات(٧٥). والواقع أن ديناميكية الحركة قد قادتها فيما بين عامي ١٩٢٤ و١٩٢٨ إلى قبول بعض المناهج البحثية السوسيولوجية، مما شكل تحولا حاسما في مسار الحركة، جاء نتيجة لتطور منطقي لمنهجها البحثي من ناحية، وكدفاع ضد الهجوم الماركسي عليها من ناحية ثانية، ففي مقالة بعنوان «في الدفاع عن المنهج السوسيولوجي» (١٩٢٧) طالب شكلوفسكي - وهو أحد رواد الحركة - بضرورة البحث عن طريقة مناسبة لدراسة الأساس الاجتماعي للتغيرات الهامة والسريعة التي تطرأ على التكنولوجيا الأدبية، وعبر أيخنباوم عن اقتناعه بضرورة تطوير نظرية ماركسية أولا ثم القيام باستخدامها بعد ذلك. ووضع مخططا لدراسة ما أطلق عليه «ظروف الحياة الأدبية» أو «السنن الأدبية» Literary Mores. ودعا إلى البحث في موضوعات مثل: نشأة الاحتراف في الأدب الروسي، تأثير الدوريات على الحياة الأدبية، العلاقة بين المؤلف والناشر، وبين المؤلف والقارئ، أي العلاقة بين الوقائع الأدبية وظروف الحياة الأدبية(٧٦).

أما أهم تحولات الشكلية الروسية، فقد بدأ يتحقق من خلال جهود «مدرسة باختين» Bakhtin School التي استهدفت تجاوز عجز الشكليين عن الاعتراف بأن عاملا اجتماعيا خارجيا يمكن أن يصبح عاملا داخليا للأدب، أي عاملا من عوامل تطوره المحايث، من ناحية، وتجاوز تحديد الماركسيين لدور السوسيولوجيا في دراسة البيئة الخارجية، وإنكارهم إمكانية وجود شعرية سوسيولوجية، من ناحية أخرى، وكان مسعى هذه المدرسة هو القضاء على ما اتجه تعارض الموقف الشكلي مع الموقف الماركسي من ثنائية للبنى الداخلية والبنى الخارجية، وبالتالي ثنائية إبستمولوجية. وفي القلب من هذا المسعى كان التأليف بين الشعرية الشكلية والسوسيولوجيا الماركسية. وكانت قناعة باختين هي أن التحليل السوسيولوجي ينبغي أن يكشف عن الطبيعة الاجتماعية للأدب من داخل البناء الشعري الكلي. وهنا يتحول البحث إلى شعرية سوسيولوجية، مهمتها تحليل تحول المادة الاجتماعية التاريخية (أي: الخبرة والأحداث والأفعال) إلى شكل شعري، أي إلى عمل أدبي

من نوع معين. وينظر باختين إلى العمل الأدبي بوصفه بنية من الكلام على درجة عالية من التنظيم ومشبعة بالأيديولوجيا[٧٧]. وقد كانت التحليلات العديدة التي أجراها لنصوص مختلفة بمثابة نماذج عملية لمحاولته التأليفية الإبداعية من أجل إحداث نقلة نوعية هامة في مجال الدرس السوسيولوجي للأدب.

٦- وجدت المدرسة الشكلية الروسية صدى لها في الولايات المتحدة الأمريكية فيما عرف هناك بحركة النقد الجديد New Criticism. وقد بدأ هذا النقد في الظهور ثم التبلور من خلال أعمال كل من ت. س. إليوت T. S. Eliot (الغابة المقدسة ١٩٢٠)، P. P. ، رتشاردز I. A. Richards (مبادىء النقد الأدبي ١٩٢٥)، وليم إمبسون W. Empson (سبعة أنماط من الغموض ١٩٣٠)، بروكس ووارين Brooks and Warren (فهم الشعر ١٩٣٨)، وجون كرو رانسوم J. C. Ransom الذي وضع الاسم لهذه الحركة بعمله المعنون «النقد الجديد» (١٩٤١). وتتمثل إحدى الاستراتيجيات الأساسية للنقد الجديد في أمريكا في التخلص من ثلاثة مجالات كانت موجودة في الدراسة الأدبية، وهي: سيرة المؤلف، محتوى العمل الأدبي، استجابة القارىء. وبدلا من هذه المجالات صار الموضوع المبدئي لهذا التيار النقدي هو: شكل العمل الفني نفسه. وهكذا انصرف البحث إلى الاستغراق في النص بالتركيز على الوحدة الجمالية والتناقض والغموض فيه[٧٨]، مما أفضى إلى إغلاق الطريق أمام نمو تقاليد سوسيولوجية أدبية بمعناها المعروف في غرب أوربا وشرقها، أو في الاتحاد السوفيتي، وإن وجد نوع آخر من البحث السوسيولوجي المعتمد على أسلوب «تحليل المضمون» الذي يتعامل مع النص كوثيقة تحمل معاني أو قيما معينة يتم استخراجها إحصائيا في غالب الأحيان.

٧- مثلما رفضت الشكلية، في بداياتها، كل أشكال التفسير الاجتماعي والنفسي والفلسفي للأدب، وركزت على بنيته الداخلية، كانت هناك نظرية أخرى معاصرة لها تقدم صياغات مشابهة، ولكنها تخص اللغة، وأقصد نظرية عالم اللغة السويسري ف. دي سوسير F. de Saussure الذي ذهب إلى أن اللغة عبارة عن «بنية» شكلية متماسكة، أو هي نسق مكتف ذاتيا ومحكوم بأعراف وقواعد داخلية. وقد شكلت أفكار سوسير نموذجا معرفيا جديدا في حقل اللغة، إلا أن تأثيره امتد إلى علوم إنسانية أخرى ومن بينها النقد الأدبي. وكان هذا النموذج أيضا موضوعا للجدال المنهجي في تلك الحقبة الثرية بالفكر[٧٩].

ونحن نعرف أن كلا من الشكلية الروسية، والنقد الجديد في أمريكا، واكتشاف سوسير لمفهوم «البنية» في علم اللغة كان له تأثيرات ملحوظة على التطورات المنهجية التي شهدها البحث الأدبي لاحقا، إذ شكلت معا روافد تاريخية هامة لما عرف بالبنيوية Structuralism كحركة فكرية مارست سلطة قوية منذ أواخر الخمسينات ولقرابة ربع قرن من الزمان في مجال النقد والعلوم الإنسانية.

٨- شهدت الساحة الألمانية، هي الأخرى، حوارات هامة حول الموضوع والمنهج في علم اجتماع الفن والأدب، ولم تكن تلك الحوارات غريبة على هذه الساحة. فالجدال، العنيف أحيانا، سمة مميزة للحياة الفكرية الألمانية عموما. ومن بين تلك الحوارات ذات الدلالة ذلك الذي دار بين كل من ليوبولدفون فيزه L. Von Wiese من ناحية، وروتهاكر E. Rothacker من ناحية أخرى، وبرز خلال المؤتمر السابع لعلماء الاجتماع الألمان عام ١٩٣٠. كان فون فيزه يرى ضرورة وجود «علم اجتماع خاص» يدرس الفن والأدب ويرتبط في رؤيته ومنهجه بعلم الاجتماع العام، ويكون متميزا عن كل من فلسفة التاريخ وعلم

الثقافة وعلم الأخلاق الاجتماعي، ولا يشغل نفسه بمحتوى العمل الفني أو الأدبي، أو بما يحمله هذا المحتوى من معنى. فالباحث هنا ينبغي أن يبقى في المجال السوسيولوجي الذي هو مجال العلاقات الإنسانية، ولايقحم نفسه في مسائل قيمية ومعيارية، ويقول فون فيزه إن «الفن بالنسبة لنا مجال يرتبط فيه الناس بعضهم بالبعض، أو يفترقون عن بعضهم البعض، وهو يهمنا فقط بالنظر إلى هذه الوظيفة». وهدف عالم اجتماع الفن هو بالتحديد فهم الفن كعلاقة إنسانية معقدة وككيان اجتماعي. ويطرح فون فيزه موضوعات للبحث مثل: دور الفنان في المجتمع، التأثيرات الاجتماعية على دوره، تأثير الفن على المتلقي، العلاقة بين الفن ككيان اجتماعي وبين كيانات أخرى مثل الدولة والكنيسة والاقتصاد والجمعيات والاتحادات.. إلخ، ويرفض أن يكون العمل الفني أو الأدبي نفسه، من حيث جوانبه الشكلية الجمالية ومضمونه موضوعا للبحث في علم الاجتماع.

أما روبهاكر، فقد اتخذ موقفا معاكسا تماما، إذ انطلق من رؤية فلسفية ـ ثقافية، مؤكدا على أن أخصب مدخل للقضايا السوسيولوجية هو ذلك الذي ينظر إلى أساليب الحياة والثقافة والفنون بوصفها متعددة ومختلفة. ومن هنا فإن المسألة التي ينبغي أن تطرحها سوسيولوجيا الفن هي: إلى أي مدى تؤثر العوامل الاجتماعية في نشأة هذه الأساليب وتغيرها. أما موضوع البحث في علم اجتماع الفن فهو «الواقع الفني» Kuenstlerische Wirklichkeit ويعني هذا المفهوم عند روبهاكر «العمل الفني»، وهو يؤكد: «بدون الانطلاق من العمل الفني لا يكون ثمة علم اجتماع فن»[٨٠].

كانت تلك هي أهم التطورات الفكرية والمنهجية التي شهدتها العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن، وقد جاءت الجهود اللاحقة في مجال الدرس الاجتماعي للظاهرة الأدبية حاملة، بصورة أو بأخرى، لآثار تلك التطورات ـ ومازال الميدان يشهد طرحا لمفاهيم وأساليب جديدة، ومحاولات لحل الإشكاليات، ولتحديد مواقف ورؤى ناقدة للتراث أو لعناصر منه، أو متصلة به، أو متجاوزة له. ولا يسمح المقام هنا بعرض تفصيلي أو شامل لتلك الطروحات والمواقف، فهذه مهمة تستلزم عملا مستقلا. لكنا سنحاول تصنيف أهم الجهود وعرضها بإيجاز، ويستند هذا التصنيف على ما لاحظناه من خلال عرضنا للجهود التأسيسية وللمجادلات المنهجية من اختلافات بين الاتجاهات المتعددة في مسألتين هامتين، الأولى هي تحديد موضوع الدراسة، هل هو النص الأدبي معزولا، أم هو النص في علاقته بمتغيرات خارجية، أيا كانت طبيعتها، أم هو وقائع كائنة حول النص، والمسألة الثانية هي طبيعة المنهج أو الإجراء الذي يستخدم في دراسة الموضوع كما حدده هذا الاتجاه أو ذاك.

ويمكننا، بصورة عامة، وبالنظر إلى خصائص أهم الجهود العلمية في مجال التفسير الاجتماعي للظاهرة الأدبية، التمييز بين ثلاثة تيارات أساسية، أولها هو ما يمكن تسميته بالتيار الوثائقي. ويتحدد موضوع الدراسة لديه في النص بوصفه وثيقة تحاكي المجتمع أو جانبا منه. والثاني موجه بمسلمات وضعية ـ إمبيريقية، ويهتم أساساً بمسائل وعلاقات خارج النص الأدبي، والثالث ذو طابع فلسفي ـ تاريخي جدلي ـ أهم سماته هو أنه يتخذ من النص محورا لصياغاته النظرية وتحليلاته التطبيقية.

التيار الوثائقي

تستند الدراسات التي تنتمي إلى التيار الوثائقي إلى فكرة المحاكاة أو فكرة الانعكاس بمعناها التبسيطي الذي صار غير مقبول، أو على الأقل أدخلت عليه تعديلات جوهرية، وثمة نوعان من هذه الدراسات الوثائقية.

النوع الأول تمثله بعض المؤلفات المدرسية Textbooks التي تهدف إلى لفت نظر الطلاب، خاصة طلاب علم الاجتماع، إلى أن الأدب يعد مصدرا هاما للمعرفة السوسيولوجية، لأنه يتميز بالقدرة على عرض العالم من حولنا، وإلى أننا يمكن أن نفيد من الأعمال الأدبية في تشكيل المفهومات وبلورتها في أذهاننا. ولعل من أشهر تلك المؤلفات كتاب لويس كوزر «علم الاجتماع من خلال الأدب»، الذي يقول في مقدمته إن «الأدب ـ رغم أنه قد يكون أشياء أخرى كثيرة ـ هو شهادة أو دليل، وهو تعليق مستمر على العادات والأخلاقيات، يحتفظ لنا بسجل دقيق لأنماط الاستجابات لظروف اجتماعية وثقافية معينة»[٨١]. ويقسم كوزر كتابه إلى ستة عشر قسما، يضم كل منها مجموعة مختارة من النصوص الأدبية (الروائية غالبا) التي تنتمي في معظمها إلى القرنين التاسع عشر والعشرين، والتي يرى كوزر أنها تسهم في توضيح أحد المفاهيم الرئيسية في علم الاجتماع[٨٢]. كما يمكن اعتبار كتاب جين دباجيان Jane Dabaghian المعنون «مرآة الإنسان» مثالا على هذا النوع من الدراسات، حيث تنطلق المؤلفة من فكرة أن النصوص وثائق اجتماعية يتحقق فيها التناغم بين المفاهيم السوسيولوجية وبين العصور، وأن الأدب عموما يعد وسيطا شفافا ينقل العالم الاجتماعي للقراء[٨٣].

والنوع الثاني من دراسات هذا التيار هو الذي يقوم أصحابه باختيار نصوص معينة (قصصية غالبا) وتحليلها باستخدام ما يعرف باسم تحليل المحتوى Content analysis، بهدف الكشف عن جوانب معينة من البناء الاجتماعي أو ظواهر أو مشكلات معينة يفترض أن النص يعكسها، مثل العلاقات الأسرية، أو التمييز العنصري، أو الصراع الطبقي، أو الجرائم والانحرافات... إلخ. وفيما يلي أمثلة ثلاثة على هذا النوع:

١ ـ دراسة بيرلسون وسولتر[٨٤]، التي انطلقت من ملاحظة أن الأمريكيين الأغلبية (أي البيض البروتستانت المنحدرين من أصول ساكسونية والمتحدثين بالإنجليزية) يمارسون تمييزا عنصريا ضد جماعات عديدة كالزنوج الأمريكيين والمكسيكيين واليهود، والأمريكيين ذوي الأصول الإيطالية أو اليابانية أو الأيرلندية. واستهدفت الدراسة الكشف عن طبيعة المعاملة التي يلقاها أعضاء الجماعات السلالية المختلفة كما يصورها الأدب المنشور في المجلات الجماهيرية واسعة الانتشار، وذلك من خلال اختبار مجموعة من الفروض التي تتعلق بمدى تكرار ظهور الجماعات المختلفة في قصص المجلات، وخصائص هذه الجماعات، وإسهاماتها الثقافية، وأوضاع المكانات الخاصة بها، وطبيعة التفاعل بينها، واعتمد البحث على عينة من القصص المنشورة فيما بين عام ١٩٣٧ وعام ١٩٤٣، والتي حللت في ضوء «الشخصية» كوحدة للتحليل، وفي ضوء السياق الكلي للقصة. وانتهت الدراسة إلى مجموعة من النتائج التي جاءت في معظمها مؤيدة للفروض التي انطلق منها الباحثان.

٢ ـ دراسة ميلتون ألبرشت[٨٥]، التي سعت إلى استطلاع الإمكانية التي يعكس بها الأدب القيم والمعايير الثقافية في المجتمع الأمريكي، خاصة القيم الأسرية، وذلك من خلال تحليل القصص القصيرة التي ظهرت

في المجلات واسعة الانتشار التي تمثل الشرائح الاجتماعية الدنيا والوسطى والعليا التي ينتمي إليها القراء في المجتمع الأمريكي. وانطلق البحث من فرض مؤداه أن القصص القصيرة تعبر أساسا عن بعض القيم والمثل الرئيسية السائدة بين الأسر الأمريكية، وقام ألبرشت بتحليل عينة من القصص بلغت ١٥٣ قصة موزعة على مجلات المستويات الثلاثة في ضوء قائمة تحتوي على عشرة قيم للأسرة الأمريكية، باحثا عن مدى القبول المباشر والإيجابي لتلك القيم، مستعينا بعبارات المؤلف، وبسلوك الشخوص، وبالصراع الأساسي كما هو موصوف في القصة، وبالحبكة القصصية. وعرض نتائج بحثه على نحو كمي بالأرقام والنسب المئوية. وقد جاءت هذه النتائج مدعمة الاستخلاص الذي مفاده أن المعايير والقيم السائدة في الأسرة الأمريكية تتأكد بصورة قوية في القصص المنشورة على اختلاف مستويات قرائها.

٣- دراسة بول هولاندر[٨٦]، الموجهة بفكرة أن أدب المجتمعات الشمولية يعد مصدرا رئيسيا للمعلومات حول نظم تلك المجتمعات وأهدافها ومثلها العليا التي لا تسمح الظروف بدراستها موضوعيا. وقد استهدفت هذه الدراسة الكشف عن القيم الرسمية وأساليب الضبط في مجتمعين شموليين هما الاتحاد السوفييتي والمجر، كما يكشف عنها الأدب والنقد الأدبي الذي يجيزه المجتمع رسميا، وذلك بالتركيز على الأنماط الأدبية التي تجسد الخير والشر من خلال نموذجين أدبيين هما: البطل الإيجابي Positive Hero، والبطل السلبي Negative Hero بوصفهما نموذجين للسلوك مرتبطين بنسق القيم الرسمية من خلال الإطار النظري للواقعية الاشتراكية في المجتمع السوفييتي وبلدان أوروبا الشرقية. وحلل هولاندر مجموعة من الأعمال الأدبية المنشورة في الاتحاد السوفييتي خلال الحكم الستاليني (١٩٣٠-١٩٥٣)، ومجموعة أخرى منشورة في المجر في الفترة من ١٩٤٨ إلى عام ١٩٥٣، آخذا في الاعتبار تنوعها بالنظر للأزمنة والأماكن والأنماط الاجتماعية التي تصورها، ومعتمدا على «الشخصية» كوحدة للتحليل. وقد أبرزت نتائج الدراسة أن خصائص البطل الإيجابي هي: الميل إلى الانحياز للحزب، حب الوطن، النشاط، حب العمل، الاستعداد الطبيعي للكراهية، الحذر، الانضباط، التواضع، التفاؤل، النزعة التطهرية، في حين أن خصائص البطل السلبي هي: انعدام الضمير، اللاأخلاقية، الجبن والنفاق، الانسياق وراء اللذة، الفسوق الجنسي، والعمل ضد النظام. وهذه السمات والقيم الإيجابية والسلبية تعكس - على ما يستخلص هولاندر - ما كان مرغوبا فيه وما كان مستهجنا من جانب الجهات الرسمية في ظل النظام السائد في كلا المجتمعين إبان حكم ستالين.

والقاسم المشترك بين دراسات كل من النوع الأول والنوع الثاني هو أنها جميعا تسعى إلى الحصول على أدلة من الأعمال الأدبية تشير إلى قدرة تلك الأعمال على تسجيل الوقائع الاجتماعية والثقافية المختلفة، وتنظر إلى النصوص الأدبية كناقل أمين لظروف المجتمع وحقائق التاريخ، وتصبح مهمة الباحث، خاصة في نظر أصحاب دراسات النوع الثاني، هي تحويل ما يسميه ليولوفنتال L. Lowenthal «المعادلة الخاصة» Private equation إلى «معادلة اجتماعية» Social equation[٨٧]، أي تطويع الموضوعات والطرق والأساليب التي يستخدمها الكاتب لكي تلائم فروضا ونظريات معينة تتصل بمسائل اجتماعية عامة. والمشكلة هنا هي أن مثل تلك الدراسات تغفل تماما العمل الأدبي بوصفه بناء خياليا معقدا قائما على استخدام لغة أدبية، وتنظر إليه باعتباره مجرد مستودع معلومات سوسيولوجية، وهذه نظرة اختزالية وتبسيطية تفقد الأدب طبيعته. ولذلك فإن الأعمال التي يتم تحليلها في هذا النمط من الدراسات غالبا ما تختار في ضوء خصائص معينة تجعلها

متناسبة مع مايتبناه الباحثون من أفكار ونظريات، وما يطرحونه من فروض يسعون إلى إثبات صحتها، ولا يتناقض انتقادنا لفكرة الانعكاس والشفافية بالمعنى السائد عند أصحاب هذا التيار مع اعترافنا بأن الأدب يمثل مصدراً خصباً يمكن للباحث الاجتماعي الاستعانة به في الاستبصار بخصوبة الحياة والواقع.

التيار الوضعي ـ الإمبيريقي

تتمثل الخاصية الرئيسية التي تنتمي إلى التيار الوضعي ـ الإمبيريقي في أن هذه الدراسات تهتم بوصف الظواهر المحيطة بالنص الأدبي، والتي تتصل بإنتاج الأدب، وأوضاع الكتاب الاجتماعية والاقتصادية، وعمليات نشر الكتب وتوزيعها، وخصائص الجمهور القارىء. وغالبا ما تكون هذه الدراسات موجهة بتساؤلات وفروض مستمدة من مجال علم الاتصال، وتستخدم مناهج وضعية تعتمد فيها على الأدوات التي يشيع استخدامها في البحوث الاجتماعية مثل المقابلة والاستبيان ودراسة الحالة.. إلخ، وتميل إلى عرض نتائجها في صورة كمية كلما أمكنها ذلك، ويمكن القول إن أهم ممثلي هذا التيار هم روبير اسكاربيت وزملاؤه وتلامذته من أعضاء ما يعرف بمدرسة بوردو Bordeaux في فرنسا، وكل من هانز نوربرت فوجن، وألفونس زليرمان الذي يعد رائدا لما يعرف بمدرسة كولونيا Koeln في ألمانيا.

يرى اسكاربيت R. Escarpit في كتابه المعنون «علم اجتماع الأدب»[٨٨] أن وجود الواقعة الأدبية يشترط توفر ثلاثة أطراف هي: المبدعون، والأعمال الأدبية، والجمهور القارىء. وبين هذه الأطراف ثمة علاقات متبادلة تتم من خلال عمليات اتصالية معقدة ذات طبيعية فنية، وتقنية، وتجارية، وتحدث كلها داخل دائرة شاملة، وينتج عنها العديد من القضايا والمشكلات. فالمبدعون كطرف أول يطرحون مشكلات تتصل بالتأويل النفسي والأخلاقي والفلسفي، والأعمال الأدبية، كطرف ثان، تطرح مشاكل جمالية وأسلوبية ولغوية وتقنية، والجمهور القارىء، كطرف ثالث، يطرح مشاكل ذات طابع تاريخي وسياسي واجتماعي واقتصادي.

وفي المخطط الذي يضعه لمجال الدراسة الاجتماعية للظاهرة الأدبية، يؤكد إسكاربيت بصورة قاطعة على أن مهمة علم اجتماع الأدب ليست هي دراسة الجانب الجمالي والفني في العمل الأدبي، وإنما هي، تحديدا، دراسة جوانب الإنتاج والاستهلاك والتوزيع في الظاهرة الأدبية، على اعتبار أن الكتابة قد أصبحت في يومنا هذا مهنة تمارس في إطار النظم الاقتصادية، وأن الكتب قد صارت إنتاجا مصنّعاً، يتم توزيعه تجاريا ويخضع لقوانين العرض والطلب، وأن القراء هم الفئة المستهلكة لهذا الإنتاج[٨٩].

وقد أجرى إسكاربيت عددا من الاستقصاءات الوصفية حول بعض الجوانب الإنتاجية والتوزيعية والاستهلاكية للواقعة الأدبية. ففي الجانب الإنتاجي، درس إسكاربيت ظاهرة تتابع الأجيال الأدبية، واجتهد في وضع الأسس المفاهيمية والمنهجية لدراسة هذه الظاهرة، وحاول أن يطبق هذه الأسس على تتابع الأجيال الأدبية في الأدب الفرنسي منذ منتصف القرن السادس عشر وحتى بدايات القرن العشرين، وحساب النسبة المئوية لما أنتجته الجماعات الأدبية خلال تلك الفترة من الأجناس الأدبية (شعر ـ مسرح شعري ـ رواية)[٩٠]. وأجرى استقصاء حول الأصول الإقليمية للكتاب الفرنسيين المنتجين للأدب خلال ثلاثة قرون، ودور العاصمة باريس في تقديم النسبة الكبرى من هؤلاء الكتاب[٩١]، وتتبع الأصول الاجتماعية والأسرية والمهنية لكتاب القرن التاسع عشر في كل من فرنسا وإنجلترا، وقدم بعض الشواهد المستمدة من تاريخ الأدب على

نظام الرعاية الأدبية Patronage، وعلى مشكلات التمويل وحقوق المؤلفين ومشكلة «المهنة الثانية» التي يمارسها الكتاب لإشباع حاجاتهم وتسيير أمور معيشتهم[٩٢].

وفي الجانب التوزيعي درس إسكاربيت عملية النشر، متتبعا الأصول التاريخية لنشأة المؤسسات التجارية التي أخذت تعنى بنشر الكتب، وموضحا كيف أن النشر أصبح يقوم اليوم على عمليات ثلاث هي الاختيار والصناعة والتوزيع، وأن العملية الأخيرة هي الأهم، لأنها ترتبط بالدوائر المستهلكة للأدب، أي بجماهير القراء الذين تختلف خصائصهم وقدراتهم الشرائية وإقبالهم على القراءة[٩٣].

واهتمام إسكاربيت الأكبر موجه إلى الجانب الاستهلاكي المتمثل في عملية القراءة. وهنا يستند إلى أفكار الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر J. P. Sartre عن العلاقة الجدلية بين الكاتب والقارىء، وينطلق من التسليم بأن الكاتب يكون دائما موجها بـ«آخر» هو القارىء الذي تتشكل بينه وبين القارىء علاقة تاريخية من خلال وسيط هو الكتاب[٩٤]. وينظر إسكاربيت إلى الأدب على أنه «اتصال مزدوج» Two-Way Communication يبث المؤلف من خلاله رسالة إلى القراء الذين تأخذ استجاباتهم للرسالة صورة الأفكار والكلمات والأفعال والرسائل الأخرى التي تتفاعل مع بعضها البعض ومع الكاتب نفسه[٩٥]. ويفرق إسكاربيت بين «الجمهور النظري» الذي يفترض أن الكاتب يوجه إليه رسالته، وبين «الجمهور الحقيقي» الذي يعتمد عليه الناشر، كما يفرق بين مستويات متعددة من «النجاح» الأدبي، أي مدى انتشار العمل واستهلاكه من جانب القراء[٩٦].

وثمة أوجه عديدة للتشابه بين مشروع فوجن H.N. Fuegen ومشروع إسكاربيت، حيث يؤكد فوجن في مقدمة كتابه الشهير «الاتجاهات الرئيسية لعلم اجتماع الأدب ومناهجه» أن الفكرة الرئيسية الموجهة لمشروعه هي استبعاد التصورات القيمية الجمالية كمعايير للتعامل مع الأدب[٩٧] فطالما أن علم اجتماع الأدب هو «سوسيولوجيا خاصة»، فينبغي إذن أن يكون مرتبطا، في موضوعه ومنهجه، بعلم الاجتماع العام، ولما كان هذا الأخير يتخذ من الفعل الاجتماعي (أي التفاعل الإنساني بين الأفراد) موضوعا للدراسة، فإن سوسيولوجيا الأدب لا يجب أن تهتم بالعمل الأدبي كموضوع جمالي، بل كموضوع ترتبط به، وتتوجه إليه، أفعال إنسانية. ومن هنا، فإن موضوع الدراسة في علم اجتماع الأدب هو ذلك «التفاعل بين الأشخاص المشاركين في الأدب»[٩٨]. ويذكرنا هذا الموقف بموقف ليوبولدفون فيزة الذي اتخذه في حواره مع إيريك روتهاكر في بداية الثلاثينيات، والذي أشرنا إليه قبلا.

وفي دراسة أخرى له، يستخدم فوجن مفهوم «السلوك الأدبي» Literarisches Verhalten لتمييز الفعل الإنساني المتصل بالأدب، ويقدم محاولة منهجية يحدد فيها الإجراءات التي يرى ضرورة اتباعها عند دراسة هذا السلوك، فيميز بين أربعة أنماط من التحليل هي:

١- تحليل العناصر (ويقصد تحليل الأدوار والعلاقات بين أصحاب هذه الأدوار، وخاصة بين المؤلف والجمهور).

٢- تحليل البنية (أي دراسة العلاقات القائمة بين المؤسسات الأدبية)

٣- تحليل العوامل (ويقصد تأثير النسق الاجتماعي على الأنساق الأدبية وبالعكس).

٤ - تحليل الوظائف (ويعني وظيفة مؤسسة أدبية ما بالنسبة للمجتمع ككل، وتأثير ردود الأفعال المجتمعية على نسق المؤسسات الأدبية)[٩٩].

ورغم أن فوجن لم يوضح كيف يمكن إجراء هذه الأنماط التحليلية على حالات محددة، إلا أن عرضه لها يشي باقترابه من المناهج السوسيولوجية في تحليل عمليات الاتصال، خاصة الاتصال الجمعي. وهنا بالذات نلحظ نقاط التلاقي بين رؤيته ومنهجه، وبين رؤية إسكاربيت ومنهجه. ويدعم هذه الملاحظة المخطط المقترح الذي يقدمه فوجن لدوائر المشكلات البحثية في علم اجتماع الأدب، وهي: دائرة الكتّاب (المؤلفين) ودائرة الوسطاء الفكريين والماديين (النقاد، المسرح، محلات بيع الكتب، المكتبات)، ودائرة القراء[١٠٠].

ويمنح ألفونس زلبرمان A. Silbermann، أيضا، في أعماله، أهمية محورية لمسائل الاتصال والتفاعل في الظاهرة الأدبية. وهو أيضا ينطلق في مفهومه لعلم اجتماع الأدب، موضوعا ومنهجا، من منطلق وضعي - إمبيريقي، يستبعد «الجمالي»، ويركز فقط على «الاجتماعي»، وخاصة مسألة تأثير المجتمع على قضايا إنتاج الأعمال الأدبية وتلقيها. ومن هنا نجده يهاجم الاتجاهات النقدية عند كل من لوكاتش وجولدمان وأدورنو، ويصفها بأنها لا تمت لعلم الاجتماع بصلة، ولا ينبغي أن تضع نفسها تحت هذا النظام المعرفي، لأنها تعد فلسفة فنية أو استطيقا سوسيولوجية[١٠١]. وقد دخل زلبرمان في حوار شهير مع أدورنو، دافع فيه عن الموقف الوضعي - الإمبيريقي، وانتقد المنطلقات الفلسفية والجمالية والطروحات السوسيولوجية في أعمال هذا الأخير.

في رأي زلبرمان أن الفنون والخبرات المرتبطة بها تجسد عملية اجتماعية يطلق عليها: «عملية الفن» Kunst-prozess. ويعني هذا المفهوم لديه التفاعل والاعتماد المتبادل بين الفنان، والعمل الفني، والجمهور، وتحدث عملية الفن حين يبدع الفنان عمله، وتستقبل البيئة الاجتماعية والثقافية هذا العمل وتستجيب له. فمن خلال عملية التلقي ورد الفعل يمارس العمل الفني تأثيرات معينة على جماعات معينة، وتلعب مواقف هذه الجماعات وسلوكها إزاء العمل دورا هاما في تحديد وضع العمل نفسه في إطار الموقف الثقافي الشامل، كما تتحكم أيضا في النشاط الإبداعي للفنان وتنظمه. ومن هنا فالبحوث في سوسيولوجيا الفن تتجه إلى دراسة التفاعل بين الأفراد والجماعات والمؤسسات، أي دراسة ما يسميه زلبرمان «العمليات الفنية»[١٠٢]. وفي مقال له عن «الفن» يؤكد زلبرمان أن علم اجتماع الفن ينأى بنفسه عن دراسة أي شيء يتصل ببنية العمل الفني أو بأسلوبه، أو بالمستويات الفنية والجمالية فيه، وأن نقطة الانطلاق ونقطة العودة في البحث السوسيولوجي هي دائما «خبرة الفن» Kunsterlebnis، لأن هذه الخبرة فقط هي التي تنتج دوائر التأثير والتفاعل بين أطراف عملية الفن[١٠٣]. وحسب المنطلق الوضعي - الإمبيريقي الذي يتبناه زلبرمان، تصبح المداخل الإجرائية الوحيدة لدراسة هذه الخبرة هي - كما يذكرها هو نفسه -

١ - التجربة: وهي طريقة تسمح بضبط الموقف واختبار الفروض.

٢ - الإحصاء، بكل أنواعه (الوصفية، والاستدلالية، والتحليل العاملي.. إلخ)

٣ - الطريقة البينية Interdiziplinseres Vorgehen، ويقصد بذلك الإفادة من البيانات والمفهومات والنظريات التي تتيحها نظم معرفية قريبة من علم الاجتماع، مثل الأنثروبولوجيا، وعلم النفس، والإثنولوجيا، والتاريخ، والاقتصاد، بل وأحيانا القانون والطب[١٠٤].

ونحن لا نود أن تدين الاتجاه الإمبيريقي في دراسة الظاهرة الأدبية إدانة مطلقة. فلاشك أن مشروعات باحثين مثل إسكاربيت وفوجن وزلبرمان، وجهودهم في وضع مخططات للدراسة في مجال علم اجتماع الأدب، ودراساتهم هم أنفسهم لأوضاع الكتاب أو لاتجاهات القراء، أو لعمليات النشر.. إلخ، قد انطوت على بيانات ومعلومات لا تخلو من فائدة، و ربما كنا في حاجة إليها من أجل فهم أشمل للظاهرة، غير أن القصور المنهجي الرئيسي الذي يعاني منه هذا التيار هو تلك النظرة التصنيفية الجامدة لجوانب الظاهرة الأدبية، التي تقسمها إلى مجالات تبدو وكأنها مستقلة: إنتاج - توزيع - استهلاك، وذلك الولع (الشديد في بعض الأحيان) بإظهار الصرامة المنهجية والحذق في جمع البيانات، بحيث يبدو وكأن ذلك هو الهدف من البحث، لإضفاء الطابع العلمي الرصين عليه، في حين يغيب عن معظم الممارسات البحثية أية تصورات نظرية متسقة ومتماسكة، وأي تعامل مع النص الأدبي ذاته.

التيار الفلسفي - التاريخي - الجدلي

السمة المميزة للتيار الفلسفي - التاريخي - الجدلي، هي تعدد روافده، وتنوع موجاته، وتقاطعها مع بعضها البعض، ووجود تداخلات وتمايزات بين الاتجاهات التي يضمها. غير أن القاسم المشترك بين هذه الاتجاهات هو اتخاذها النص الأدبي محورا للبحث، لا بوصفه وثيقة أو سجلا، أو باعتباره مناظرا لمفهومات سوسيولوجية، أو انعكاسا مرآويا مباشرا لجانب أو آخر من جوانب الواقع كما هو الحال لدى أصحاب التيار الوثائقي، وإنما بوصفه فضاء جماليا - أدبيا، تتموضع وتتبلور فيه - جدليا، وعلى نحو معقد، رؤى فكرية، وبنى، وعلاقات، وأيديولوجيات. ومن هنا، فإن المشكلات والقضايا التي تطرحها البحوث التي تنتمي إلى هذا التيار، هي، في معظمها، ذات طبيعة فلسفية وتاريخية.

ولما كانت الإنجازات العلمية لهذا التيار قد صارت في السنوات الأخيرة تتراكم بصورة واضحة، وتقدم كشوفا فكرية على درجة كبيرة من الأهمية، فإن الإحاطة التفصيلية بها تصبح أمرا تضيق به حدود بحثنا الراهن. ومن هنا فإن ماسيلي هو عرض موجز لبعض أهم الاتجاهات التي يضمها هذا التيار. وزاوية النظر التي تحكم هذا العرض هي موقف كل اتجاه من النص الأدبي.

١ - النص ورؤى العالم (لوكاتش وجولدمان)

ينهض التفسير الاجتماعي للأدب عند لوكاتش (١٨٨٥-١٩٧١) على أسس مادية تاريخية، مستلهما في الوقت نفسه، مفهوم «الكلية» Totalitaet عند هيجل. ويعد لوكاتش أول مفكر ماركسي - بعد بليخانوف - يسعى بصورة جدية إلى ترسيخ رؤية ماركسية متماسكة للواقعة الأدبية، وإلى وضع الأسس لاتجاه الواقعية في النقد الأدبي، وإن كان لوكاتش لم يبدأ حياته الفكرية ماركسيا. فقد كانت أفكار كل من جورج زيمل عن «فلسفة النقود»، وأفكار ماكس فيبر عن «البروتستانتية» هي - على ما يذكر هو نفسه - نموذجه، والجسر الذي عبر عليه إلى سوسيولوجيا الأدب[١٠٥]. إلا أنه تحول، بعد الحرب العالمية الأولى، إلى الهيجلية، ومن خلالها استوعب الماركسية، وانخرط في تنظيمات حزبية في بلده المجر، وتولى بعض المناصب السياسية والثقافية العامة، وظلت النظرة الهيجلية إلى التاريخ مهيمنة على أعماله.

وفي مقال مبكر له حول «تاريخ تطور الدراما الحديثة» (١٩٠٩) انتقد لوكاتش ذلك النوع من سوسيولوجيا الأدب الذي «يسعى إلى إثبات أن العلاقات الاقتصادية لعصرما هي العامل السببي الأخير والأعمق وراء العلاقات الاجتماعية، وبالتالي هي السبب المباشر للظواهر الفنية»[١٠٦]، وذهب إلى ماهو أبعد من ذلك وأهم، «حيث ذكر أن الأخطاء الكبرى التي تقع فيها الرؤية السوسيولوجية للفن تتمثل في أن هذه الرؤية تبحث عن المحتويات في الإبداعات الفنية، وتدرسها، وتمد خطا مستقيما بينها وبين علاقات اقتصادية معينة، في حين أن الاجتماعي في الأدب فعلا هو: الشكل. فالشكل يجعل خبرة الفنان مع الآخرين، ومع الجمهور، رسالة، وعن طريق هذه الرسالة «المشكلة» وعن طريق إمكانية التأثير، والتأثير الفعلي الحادث، يصير الفن اجتماعيا»[١٠٧].

وقد طور لوكاتش هذه الأطروحة الهامة فيما بعد في كتابه «نظرية الرواية» الذي ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٢٠، والذي عالج فيه تطور الرواية الغربية، موضحا كيف أن تحول الكتابة من الشكل الشعري الذي كان سائدا في المجتمع اليوناني إلى الشكل النثري السائد في الحياة الحديثة، ليس سوى نتيجة لتبدل محتوى العلاقة بين الفرد والمجتمع. فعندما كان الإنسان في الماضي مندمجا مع جماعته، كان الشعر هو الشكل الفني الذي يعكس هذا الاندماج، وحين أحلت العلاقة بين الذات (الفرد الإنساني) والموضوع (المجتمع) تنطوي على تناقض، صار النثر هو الشكل الذي يفرض نفسه كتعبير عن تحطم الانسجام بين الإنسان وعالمه[١٠٨].

والمتتبع لكتابات لوكاتش في مجال الأدب يمكنه ملاحظة أن الموضوع الرئيسي الغالب على هذه الكتابات هو: انهيار الواقعية البورجوازية، أي الواقعية النقدية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وحلول مايسميه لوكاتش الأدب التكنيكي القادح محلها. ويقصد بذلك التيارات الحديثة المتمثلة خاصة في الحركة التجريبية أو الطليعية. وفي دراسته الهامة عن الواقعية المعاصرة، يرى أن أعمال كتاب مثل كافكا، وجويس، وأونيل، وبروست، وبيكيت، تعد نموذجا على إخفاق الأدب البورجوازي في سعيه نحو وصف الإنسان في كليته. وينطلق لوكاتش في نقده لأعمال هؤلاء الكتاب وغيرهم من مفهوم محوري هو «رؤية العالم» Weltanschauung الذي سيتبناه فيما بعد لوسيان جولدمان، ويرى لوكاتش أن «رؤية العالم» هي «العقائدية التي تكمن تحت عمل الكاتب. ومحاولة الكاتب أن يعيد خلق هذه النظرة إلى العالم هو ما يشكل «قصده»، وهو المبدأ التكويني الذي يرتكز عليه أسلوب عمل معين. وإذا نظرنا إلى الأسلوب بهذه الطريقة فإنه لا يصبح مجرد خانة شكلية، بل الأحرى أنه متأصل في المضمون. فهو الشكل المحدد لمضمون محدد. إن المضمون يحدد الشكل، وليس هناك من مضمون إلا وكان الإنسان ذاته نقطته البؤرية. ومهما تنوعت معطيات الأدب.. فالسؤال الأساسي هو، وسيظل: ماهو الإنسان؟»[١٠٩]. هنا يعود لوكاتش إلى قضية الشكل، ويربط بينها وبين مفهوم رؤية العالم.

فالأدب الحديث ينكر وجود هذه الرؤية للعالم «والتي غالبا ما ترتبط ـ في نظر لوكاتش ـ بطبقة معينة) من ناحية؛ ويسعى إلى الإيهام بأن رؤيته موضوعية من ناحية ثانية، ومن هنا جاء هذا الأدب بدون موقف معين، وعاجزا عن تمييز ملامح الواقع الهامة، والتي من أهمها وأعمقها: الصراع الطبقي الذي أحدثه المجتمع الرأسمالي، وبزوغ الطبقة العاملة بوصفها النقيض للبورجوازية، وظهور الاشتراكية كنقيض للرأسمالية وسعيها إلى استعادة كلية الإنسان، والقضاء. على النتائج المدمرة واللاإنسانية التي

أفضى إليها النمو المتعاظم للتقسيم الاجتماعي للعمل الذي صاحب التطور الرأسمالي. وقد تجلى فقدان الموقف الإنساني النازع إلى الاشتراكية في إبداع أدب سماته الرئيسية هي الإغراق في الذاتية، وتصوير الإنسان على أنه مغترب ومنعزل، وغير سوي، وفاقد لأية علاقة ذات معنى بالعالم الاجتماعي. وهي السمات التي تميز أعمال أولئك الكتاب المحدثين.

ومثلما غابت «الكلية» عن الأدب الحديث، غابت عنه «الأنماط». فالكتاب العظماء فقط هم ـ في نظر لوكاتش ـ الذين يبدعون في أعمالهم «أنماطا» بشرية خالدة، كتعبير فني عما يسميه لوكاتش «الإنسان المنسجم»[110]. وبتصوير هذه الأنماط يعيد هؤلاء الكتاب للإنسانية وحدتها الشاملة. ومثل هذه الأعمال هي الأعمال الواقعية. ومن هنا يعجب لوكاتش بأعمال كتاب مثل بلزاك وتولستوي وجوركي، بل يمتد إعجابه أيضا إلى اليونانيين، وكذلك دانتي وشكسبير، لأن هؤلاء جميعا: «هم الصور الملائمة لمراحل كبيرة متميزة على طريق التطور الإنساني، والمرشدون في الصراع الأيديولوجي من أجل بلوغ كلية الإنسان»[111].

لقد نقل لوكاتش ـ باهتمامه بقضية الشكل/ المجتمع، وبطرحه مفهومي، «رؤية العالم» و«النمط»، وباتجاهه إلى التعامل مع نصوص عديدة، موجها برؤية جدلية ـ نقل الدرس السوسيولوجي للأدب نقلة نوعية ساهمت في تخليصه من بعض المعضلات المنهجية التي كانت تتمثل عند كل من أنصار الوضعية وأنصار الماركسية الجامدة في النزعة الميكانيكية الانعكاسية المباشرة، ولأول مرة صار عنصر الوعي/ الرؤية يدخل كوسيط في عملية تفسير النص الأدبي.

ويحتل مفهوم «رؤية العالم» مكانة محورية في المنهج النقدي عند لوسيان جولدمان L. Goldmann (١٩١٣-١٩٧٠)، وهو المنهج الذي يطلق عليه «البنيوية التكوينية» Genetic Structuralism نظرا لأن هذا المنهج يدرس «بنى» فكرية واجتماعية، في ضوء أصولها وتطوراتها. وتتمثل الممارسات البحثية في أعمال جولدمان التطبيقية في الكشف عن مدى تجسد «رؤية العالم» الخاصة بجماعة ما ـ هي دائما عنده كما عند لوكاتش طبقة اجتماعية ـ في النص الأدبي الذي يبدعه الكاتب المنتمي إلى هذه الجماعة. وتنهض هذه الممارسة البحثية على فرضية أساسية هي أن «كل حالة من حالات السلوك الإنساني هي محاولة الاستجابة الدالة لموقف معين، وبالتالي فإنها (أي الحالة السلوكية) تميل إلى خلق نوع من التوازن بين الذات الفاعلة وبين الموضوع»[112] (أي البيئة). وفي ضوء هذه الفرضية، يعد الإبداع الثقافي بأشكاله المختلفة سلوكا خاصا، يتمثل في إبداع بنية ذات معنى ومتماسكة بقدر الإمكان، وفي السعي إلى الاقتراب من الهدف الذي يطمح أعضاء جماعة إنسانية ما إلى تحقيقه[113]. وبقدر ما ينجح العمل الأدبي في إبداع هذه البنية، وتحقيق هذا المسعى، بقدر ما يكون معبرا عن «رؤية العالم» لدى الجماعة المعنية. وعلى الرغم من أن العمل الأدبي إبداع فردي، إلا أن الفاعل الحقيقي في تشكيل الرؤية للعالم التي يتضمنها العمل هو «فاعل جماعي» أساسا. «فتجربة الفرد الواحد أقصر، بل أضيق، من أن تخلق مثل هذه البنية العقلية، إذ لابد لهذه البنية من أن تكون نتيجة نشاط مشترك لعدد كبير من الأفراد»[114]، يسميهم جولدمان «الفاعل الجمعي».

ومهمة الباحث في التحليل البنيوي التكويني هي الكشف عن البنى الدالة والرؤية للعالم في النص موضوع التحليل، وذلك من خلال إجراءين منهجيين، أولهما هو الفهم Comprehension، أي التعرف على

الارتباطات الداخلية للنص، ولا شيء غير النص ككل، دون إضافة أي شيء إليه، والبحث عن البنية الدالة الشاملة فيه، وثانيها هو الشرح Explanation، أي البحث عند ذات فردية أو جماعية، تمتلك من أجلها البنية العقلية المهيمنة في العمل الأدبي خاصية وظيفية دالة. وحسب جولدمان، تكون هذه الذات جماعية، فالفهم عملية ذاتية داخلية Immanent موجهة نحو النص، في حين تستدعي عملية الشرح عوامل خارجة عن النص[115]. وتعد دراسة جولدمان المعنونة «الإله المختفي»[116] نموذجا بارزا على تطبيقه للمنهج البنيوي التكويني. وموضوع الدراسة الرئيسي هو رؤية العالم المأساوية في فلسفة باسكال وفي مسرح راسين، حيث خلص جولدمان إلى أن البنى الدالة في أعمال كل من هذين المفكرين تعبر عن رؤية للعالم تتفق مع جماعة دينية اجتماعية متطرفة هي طائفة الجانسينيست Les Jansénistes، ومع طبقة اجتماعية معينة هي طبقة «أرستقراطية الرداء» La Noblesse de robe.

ويبدو أن جولدمان قد تحول فيما بعد عن الربط بين رؤية للعالم وطبقة اجتماعية ما. ففي عمله الموسوم «نحو علم اجتماع للرواية»[117] ينطلق من مسلمة جديدة هي أن الحياة الاقتصادية تنعكس في الإبداع الثقافي عامة، وفي الشكل الأدبي بصفة خاصة. لم يعد «الوعي الجمعي» يستخدم هنا، بل حل محله الربط السببي بين الشكل الروائي (في روايات مالرو، ووب، جرييه، وناتالي ساروت) وبين البناء الاجتماعي ككل، والمبرر لهذا التحول هو - حسبما يذهب جولدمان - أن الوعي الجمعي لم يعد له دور في المجتمعات الحديثة القائمة على الإنتاج للسوق، والتي يسود فيها النشاط الاقتصادي. فمنذ صعود البورجوازية، صار الشكل الروائي معبرا عن الاختلال بين الذات والموضوع، فالرواية البورجوازية المبكرة (الواقعية) في البنية المجتمعية الليبرالية، والتي كان لوكاتش مهتما بها، قد تميزت بالبطل الإشكالية الباحث عن القيم في عالم متدرج. وفي بداية المرحلة الرأسمالية الاحتكارية، كان شكل الرواية الطليعية تعبيرا عن تفكك الفردية وتحللها، أما شكل الرواية الجديدة Nouveau Roman الذي ظهر مع بداية هيمنة رأسمالية الدولة الاحتكارية، فهو تعبير عن عدم الاهتمام بالشخصية الفردية، وعن تشيؤ الفرد. وقد تعرض تحول جولدمان النظري والمنهجي هذا، خاصة فكرة التناظر بين الشكل الروائي وبنية المجتمع، للنقد[118]، ومع ذلك تظل إسهاماته، ومن قبلها إسهامات لوكاتش، خاصة الربط بين رؤى العالم وبين النصوص، علامات هامة في تطور سوسيولوجيا الأدب.

٢- النص (الشكل) كنفي للهيمنة (أدورنو)

حين أنشئ «معهد فرانكفورت للبحث الاجتماعي» عام ١٩٢٣ في ألمانيا، بقيادة عالم الاجتماع ماكس هوركهايمر M. Horkheimer (١٨٩٥-١٩٧٣)، وأثناء هجرة أعضائه القسرية من جراء الحكم النازي، وحتى بعد عودتهم من المهجر، وإعادة نشاط المعهد عام ١٩٥٠ بقيادة هوركهايمر وتيودور أدورنو Th. Adorno (١٩٠٣-١٩٦٩)، كانت إنجازاته موجهة أساسا نحو صياغة «نظرية نقدية» للمجتمع. ولم تكن الروافد الفكرية والعلمية لمن ارتبطوا بما عرف بـ«مدرسة فرانكفورت» (مثل هربرت ماركوزه وإيريك فروم، وفالتر بنيامين، وبرونو بتلهايم، وهانز ماير، وارنست بلوخ وغيرهم) واحدة، بل كانت متعددة. وقد قامت صياغة النظرية على دعامتين، وهما - حسب عبارات دافيد مايلز - «هيجلة الماركسية» Hegelianizing of Marxism (أي إحلال مصطلحات فلسفية مثل «الاستلاب» محل الاقتصاد)، ومركسة فرويد

Marxianizing of Freud (أي تطوير مفهوم «القمع» مثلا، واستخدامه في السياقات السياسية)[١١٩].

ورغم أن الإسهامات الأساسية للمدرسة لم تكن في مجال سوسيولوجيا الأدب، بل كانت في ميادين الفلسفة الاجتماعية وفلسفة الثقافة، إلا أن هذه الإسهامات قد غلت المناقشات الدائرة حول الأدب، خاصة في الدوائر الأكاديمية، بأفكار جدلية هيجلية، وتاريخية، كما أن بعض أعضاء المدرسة قد اهتم بالأدب بصورة واضحة. وسوف نقتصر هنا على واحد منهم هو أدورنو.

من البديهي، في ضوء خلفيته الفكرية، أن ينطلق أدورنو من موقف مناقض تماما للموقف الوضعي الإمبريقي الذي يمثله مواطنه زلبرمان في تحديده لموضوع الدراسة في علم اجتماع الفن. ففي مقاله المعنون «طروحات في علم اجتماع الفن» يؤكد أدورنو أن علم اجتماع الفن يضم كل جوانب العلاقة بين الفن والمجتمع، ولا يمكن أن يقتصر على جانب واحد فقط مثل التأثير الاجتماعي للفن. وذلك لأن هذا التأثير نفسه هو مجرد عنصر في كلية هذه العلاقة، ويرتبط بآليات كثيرة تتصل بالتوزيع والضبط الاجتماعي والبناء الاجتماعي. كما يرى أدورنو أن مفهوم «خبرة الفن» عند زلبرمان لا يشير إلى شيء محدد[١٢٠]. ويعترض بقوة على استبعاد تحليل العمل الفني كقيمة جمالية من الدراسة السوسيولوجية، ويقول إنه على الرغم من اعتراف زلبرمان أن إحدى مهام علم اجتماع الفن هي أن يكون نقديا اجتماعيا، إلا أن هذا الاعتراف يبدو غير صادق، إذ كيف يمكن أن تتحقق هذه المهمة طالما أن محتوى الأعمال الأدبية وقيمها الجمالية تستبعد من عملية البحث؟ إن التحرر من القيمة مسألة لا تتفق مع الوظيفة الاجتماعية النقدية. والسؤال الجوهري في عملية البحث السوسيولوجي عند أدورنو لا يتعلق بوضع الفن أو بممارسته التأثير في المجتمع بقدر ما يتعلق بكيفية «الموضع» المجتمع في الأعمال الفنية[١٢١].

هنا نجد أدورنو مناهضا لنظرية المحاكاة. ويبدو أنه كان قد فهم الواقعية عند لوكاتش على أنها واقعية تقوم على المحاكاة، فاتجه إلى مهاجمتها، كما اعترض على التناظرات التي أقامها جولدمان بين بنى متوازية (بنى النص وبنى المجتمع). وهو ـ أي أدورنو ـ لا يرفض الواقعية بإطلاق، بل هو يقدر الواقعية، ولكن بمعنى معين. فالواقعية لاتبتدئ في تصوير الواقع فوتوغرافيا، وإنما في تباعد الفن عن الواقع. فمن خلال هذا التباعد، تختفي العناصر التقريرية من الكتابة، سواء أكانت هذه العناصر مباشرة، أو نقدية، أو أخلاقية، وتبرز دلالة خاصة في النص تكشف عن قدرة على نقد الواقع ونفيه. من هنا يقدر أدورنو أهمية العناصر «ضد الواقعية» Antirealistische Momente، خاصة في الكتابات الحديثة[١٢٢]، ويوجه لها بحوثه. ونحن نعرف عن أدورنو أنه صاحب التنظيرات النقدية للكتابات القصصية والشعرية، وللأعمال الموسيقية الحديثة التي تتسم برفضها «التواصل» مع الأيديولوجيات القائمة، وتنطوي على طاقة كبرى لمقاومة الهيمنة الفكرية والتجارية[١٢٣].

لقد كان أدورنو مهتما بتبيئة الإنتاج الفني في فترات تاريخية مختلفة، وبالوظائف المختلفة للفن، وبتحول العمل الفني إلى سلعة، وبتعاظم ما يسميه «الصناعة الثقافية» Kulturindustrie.

وهو لا يهتم بهذه المسائل كمتغيرات سوسيولوجية خارجية، تغير من سياق إنتاج الفن وتوزيعه فحسب، بل هو معني أساسا بالكشف عن الكيفية التي يعاد بها إنتاج هذه المتغيرات «الخارجية» كعناصر متوترة وعقلانية داخل البنى الشكلية للأعمال الأدبية. وهنا بالتحديد تكمن أهمية إسهاماته. فالربط بين العناصر

الجمالية للعمل الفني (الذي يؤكد أدورنو دائما على استقلاله) وبين المجتمع، وعلى النحو الذي يظهر في أعمال أدورنو، هو الشيء المميز لتحليلاته الجمالية السوسيولوجية. ولعل أكثر أعماله أهمية في هذا المجال هو كتابه «النظرية الجمالية» الذي لا يخلو من بعض الغموض والصعوبة الناشئة عن خصوصية مفردات أدورنو وصياغاته اللغوية.

في هذا الكتاب أفكار ثرية من أهمها تأكيد أدورنو على أن ثمة جدلية تنشأ من كون الفن واقعة اجتماعية من ناحية، وكونه مستقلا من ناحية ثانية، وهذه الجدلية هي التي تحدد «الطابع المزدوج للفن» der Dop-plecharacter der Kunst فإذا كان الاستقلال الجمالي هو السمة المميزة للفن البورجوازي، فإن هذا الاستقلال في حد ذاته هو واقعة اجتماعية. والفن «ينتقد المجتمع من خلال وجوده (أي وجود الفن) المحض... وما يبدو لا اجتماعيا في الفن إنما هو نفي معين لمجتمع معين». هذا الطابع المزدوج للفن هو ما ينبغي أن يكون موضوع التحليل في أي سوسيولوجيا أدبية[١٢٤]. ومنهج أدورنو هو دائما الكشف عن الطبيعة الانشطارية والناقصة والعدائية للأعمال الأدبية التي قد تبدو متماسكة وكاملة وتامة. والمبدأ الرئيسي عنده هو أن العنصر الاجتماعي الحاكم الذي ينشأ عنه العمل الأدبي يمكن الاستدلال عليه عن طريق «شكله» المتحقق في النص أكثر منه عن طريق محتوى النص أو بنيته التصورية. من هنا كان أدورنو مهتما تماما بالشكل، ربما أكثر من لوكاتش.

وإذا كان أدورنو يستخدم فكرة «التوسط» Mediation المهملة، فإن استخدامه لها يختلف عن استخدام كل من لوكاتش وجولدمان، فهذان الأخيران يستخدمانها بمعنى «طبقة اجتماعية» أو «رؤية العالم» أو «تماسك النص»، في حين يستخدمها أدورنو بمعنى الطاقة السالبة أو المقاومة النافية في النص «والفن ليس اجتماعيا فقط بالنظر إلى طريقة نشوئه، إذ يجسد قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، ولا بالنظر إلى الأصول المجتمعية لمحتواه، وإنما هو اجتماعي أساسا بالنظر إلى موقفه المضاد للمجتمع... وهو ينتقد المجتمع حين يتبلور ويتجسد هو نفسه كشيء في حد ذاته «مفيدا اجتماعيا»[١٢٥].

من هنا يتحدث أدورنو عن حساسية الشعر الحديث المفرطة ضد القوة المتعاظمة «للأشياء»، وضد ما تشهده العصور الحديثة من هيمنة السلع على الإنسان، وضد «المصالح الكبرى» التي تحرك ما يسميه أدورنو «الاتصال» أو «التواصل»، والتي تؤسس كلها أيديولوجيات (أي وعيا زائفا وكاذبا)، وهذا الشعر يمتلك طاقة نقدية تتسم بالقدرة على مقاومة تلك القوى والمصالح والأيديولوجيات[١٢٦]. وسوف يبقى الفن طالما ظل ممتلكا القدرة على مقاومة المجتمع. أما إذا «تشيأ» نفسه، أي تحول إلى شيء، فسوف يصير سلعة. فالإسهام الذي يقدمه الفن للمجتمع ليس هو التواصل مع هذا الأخير، بل هو المقاومة التي من خلالها يعيد التطور الاجتماعي إنتاج نفسه جماليا، ودون محاكاة[١٢٧].

ورغم الانتقادات التي وجهت لأدورنو والتي يتركز معظمها على غموض معالجاته، وعلى رومانسيته، أو على الطابع الذاتي الانطباعي لتفسيراته[١٢٨]، إلا أن أهمية علم اجتماع الأدب عنده تبدو في معالجته الجدلية لمسألة التحول الجمالي كموضوع سوسيولوجي.

٣- إشكالية النص ـ الأيديولوجيا (الألتوسيرية: ماشيري مثالا)

لم يكن الفيلسوف الفرنسي ألتوسير Louis Althusser (١٩١٨-١٩٩٠) وهو يؤسس مشروعه الفكري، يقصد إلى صياغة نظرية نقدية أدبية، أو بناء جمالية ماركسية، فإسهامه الرئيسي هو بلورة رؤية ماركسية تناهض حركة الإحياء الهيجلي داخل الماركسية نفسها، اقتناعا منه - أي ألتوسير - بأن فكر ماركس العلمي هو ذلك الذي ظهر بعد أن أنجز ماركس «قطعا علميا نظريا» Wissenschafts Theoretischer Einschnitt مع الهيجلية[١٢٩]، وأن ما تحتاج إليه الماركسية اليوم هو إبراز خطابها العلمي وتمييزه عن خطابها الأيديولوجي المبكر، من خلال تحليل بنيتها النظرية (ومن هنا يصنفه البعض ضمن فلاسفة البنيوية، وإن كان هو نفسه يرفض ذلك) أولا، وإشكال بنائها الفلسفي ثانيا. وقد قام هذا المشروع على أساس «قراءة» ماركس، بمنهج جديد طوره ألتوسير مستفيدا من أسلوب التحليل النفسي عند فرويد، وهو الأسلوب الذي يهتم بـ «الإغفال» بقدر - أو ربما أكبر من قدر - اهتمامه بـ «بقال»، وذلك من أجل الكشف عن عناصر «اللاوعي» المتعددة والمتضافرة، والكامنة وراء ما هو باد من أعراض. ومن هنا أطلق على هذه القراءة «القراءة التشخيصية» Symptomatische Lektuere[١٣٠]، بوصفها تسعى إلى تشخيص العناصر اللاشعورية الكامنة وراء ما هو شعوري، والتي هي على درجة كبيرة من الأهمية لفهم الحالة موضوع التحليل/ القراءة، والحالة هنا هي فكر ماركس من خلال كتاباته.

وقد أفضت قراءة ألتوسير لماركس إلى بناء صيغة فكرية ماركسية وجدت لنفسها مكانا متميزا بين الصيغ الماركسية الأخرى، والتف حولها مجموعة من الفلاسفة والباحثين في العلوم الاجتماعية والنقد الأدبي فيما يعرف بـ «الألتوسيرية». وحسب هذه الصيغة تعد الماركسية علما للتشكيلات الاجتماعية، مهمته تحليل المنطق الداخلي لهذه التشكيلات، وتحليل المستويات المختلفة للبنى المكونة لها. والتشكيلة الاجتماعية (المجتمع) عبارة عن وحدة كلية مركبة من ممارسات أو مستويات متعددة (اقتصادية، وسياسية، واجتماعية، ودينية، وفنية، وأيديولوجية)، ويتميز كل مستوى منها بنوع من الاستقلال الذاتي، كما يرتبط، من ناحية أخرى، بالمستويات الأخرى وبالبنية الكلية. وهذه المستويات أو الممارسات تحكمها أشكال من «التبيّن» النوعي، لكنها مثبتة في المستوى الاقتصادي بوصفه المحدد الأخير[١٣١]. ويرفض ألتوسير القول بأن التشكيلات الاجتماعية نتاج للفعل الإنساني، كما يرفض ما يذهب إليه هيجل ولوكاتش وغيرهما من أن «الكلية» تعبير عن مبدأ أو جوهر ضمني أو داخلي، ويؤكد على أن الكلية بنية «غير مركزية»، تدخل مستوياتها المتعددة في شبكة من التناقضات والصراعات المتبادلة، تصير فيها الهيمنة، في هذه المرحلة أو تلك، لهذا المستوى أو ذاك، كما قد يكون هذا التناقض أو ذاك هو السائد، فالأمر يتوقف على الظروف الملموسة التي تمر بها العلاقات داخل التشكيلة، غير أن الاقتصاد هو الذي يحدد أخيرا - وبصورة غير مباشرة - أي المستويات تكون له الهيمنة، وأي التناقضات يسود. وبهذه الصيغة حقق ألتوسير أمرين:

أ- تخلص من الصلة المباشرة التي تقيمها بعض الصيغ الماركسية بين الأساس والبناء الفوقي، لكنه لا يلغي هذه الصلة بإطلاق، فقصده هو إبراز هرمية البنية وتدرجها، مع تغير العنصر الذي يحتل موقع القمة ويهيمن في مرحلة ما. ولذا فالبنية عنده هي بنية «ذات هيمنة» Struktur mit Dominante يمكن أن يلعب فيها أي عنصر من عناصر البناء الفوقي (كالثقافة أو السياسة أو الأيديولوجيا أو الفن أو الأدب) دورا هاما في إحداث التغير.

ب- استبعد تماما مفهوم التناقض الهيجلي الذي يختزل «كل» العناصر التي تشكل الحياة الملموسة لأي عالم تاريخي في مبدأ واحد وحيد، تعتبره الهيجلية (والنزاعات الماركسية الإنسانية) هو العنصر المحدد لكل المكونات الأخرى، وللكل الاجتماعي نفسه. وبدلا من ذلك شدد ألتوسير على تعدد العناصر التي تتقاطع مع بعضها وتتضافر في مركب غير مركزي. ويستخدم ألتوسير لوصف هذا المركب مفهوما فرويديا هو: Ueberdeterminierung (بالفرنسية Surdétermination) التي يترجمها البعض إلى العربية بـ «التضافر»[١٣٢].

وبهذه الصيغة أيضا، التي قصد بها ألتوسير فض الاشتباك بين العلمي والأيديولوجي في فكر ماركس، فتح ألتوسير آفاقا جديدة لدراسة علاقة الفن والأدب بالمجتمع. وبؤرة الدراسات الألتوسيرية للفن هي: صلته بالأيديولوجيا. يقول ألتوسير: «إنني لا أدرج الفن الحقيقي في الأيديولوجيات، بالرغم من أن للفن علاقات في غاية الخصوصية مع الأيديولوجيا... وخصوصية الفن هي منحنا «الإبصار» و«الإدراك» و«الشعور» بشيء ما يقوم بالتلميح عن الواقع... وهذا الشيء هو الأيديولوجيا التي ولد منها، والتي يسبح فيها، والتي ينفصل عنها بوصفه فنا»[١٣٣].

وثمة صلة تربط بين أفكار ألتوسير هذه وبين بعض الدراسات التي أجراها باحثون مثل تيري إيجلتون (انجلترا)، وكلاوس ـ ميشائيل بوجدال، ويوتا كولكنبروك نتس، ويورجن لنك، وأولائك هير (ألمانيا)، وبيير ماشيري، ورينيه باليبار (فرنسا). ولعل كتاب ماشيري P. Macherey المعنون «نظرية في الإنتاج الأدبي»(١٩٦٦) يبرز هذه الصلة أكثر من غيره.

يرى ماشيري أن العمل الأدبي لا يعد إبداعا Creation لكاتب أو لعبقرية أو لقدرة خاصة ملهمة، بل هو «إنتاج» Production آثار أيديولوجية[١٣٤]. والكاتب إذ ينتج نصا، فإنه يفيد من التجارب البشرية العادية، التي هي تجارب أيديولوجية، ويتخذ منها مادة لعمله، ويمنحها شكلا خاصا أو بنية خاصة. ولما كانت الأيديولوجيات، بطبيعتها، ناقصة دائما ومتناقضة (عكس العلم)، فإن النص الأدبي الذي «يستخدم» الأيديولوجيا (ويكتشفها أيضا بالضرورة) هو نص ينتج بعض عناصر الواقع فقط، ولا ينتج كل الواقع. فبنية العمل إذن هي بنية «غير مركزية» وناقصة، لأنها قائمة على مواقع صمت ومراوغة، وهي لا تضاهي الواقع أو تماثله أو توازنه أو تعكسه، كما أنها لا تعبر عن وعي طبقة ما أو رؤية ما للعالم (كما هو الحال عند لوكاتش وجولدمان)، بل هي بنية لها زمانها الخاص واستقلالها الذاتي، وفيها اشتغال ومعالجة (من خلال رموز وأدوات وحيل أدبية) لمادة اجتماعية (أيديولوجيا) تتشكل على نحو يهتك زيفها وتناقضها هي ذاتها. ويكشف طبيعة صلاتها مع شروط الوجود الاجتماعي. يقول ماشيري: «ولكي نخرج من دائرة المغالطات النقدية، يجب أن نقترح فرضا نظريا: إن العمل لا يحتوي على معنى ما يخفيه من خلال منحه شكله المنجز. فأهمية العمل تتأسس على تعددية معانيه. وتفسير العمل يعني التعرف على مبدأ التعدد هذا وتمييزه. والآن يجب شجب الوحدة المفترضة للعمل، والتي لازمت النقد الأدبي بصورة واضحة إلى حد ما. إن العمل لا يتم إبداعه عن قصد، بل يتم إنتاجه في ظل ظروف محددة»[١٣٥].

ومن البديهي أن يكون رفض ماشيري لفكرة أن الأعمال الأدبية تجسد كليات متماسكة موحدة، وإصراره على مفهوم «النص غير المركزي»، تابعا من الطبيعة غير المركزية للسياق الإنتاجي وممارساته الأيديولوجية، ومن طبيعة العلاقات المعقدة بين النص والأيديولوجيا. فالنص ليس أيديولوجيا، وهو ليس مرآة لقيم أيديولوجية تخص طبقة ما، وإنما هو يؤسس نفسه «ضد أيديولوجيا ما» مثلما يتأسس هو نفسه من أيديولوجيا ما. ومن هنا، فإن المعرفة التي يمكن أن نستمدها من دراسة النص الأدبي، هي معرفة حول التصورات الأيديولوجية. ولا يعني ذلك أن الأيديولوجيا هي «حقيقة» نص ما، لأن النص يهدم بنى الأيديولوجيا ويفككها لكي يعيد تكوينها، ثم تحويلها في شكل جمالي. ومن خلال الأدوات الأدبية يؤسس النص علاقة متحوِّلة بين نفسه وبين الأيديولوجيا التي يتطور عنها، ويرتبط بها أصلا. ومن ثم، فالجمالية في هذه الحالة يمكن أن تصير - على ما يذهب سوينجوود[١٣٦] - فرعا من فروع النظرية الأيديولوجية.

والقراءة التي يقتضيها النص هي إذن - حسب رؤية ما شيري - وبالضرورة قراءة «التشخيصية» أو «كشفية» Symptomatic، تحلل الحيل والأدوات التي ينتجها النص لكي «يخفي» تناقضات وصراعات أيديولوجية. فالنص إذ يشتغل على الأيديولوجيا، من الضروري أن يكشف عن، ويضيء، ما هو «غائب» في هذه الأيديولوجيا، ويأخذ في «إنطاق» ما هو صامت فيها. وهنا ليس ثمة وجود لأي «كمال للمعنى» في النص، بل ثمة «غيابات» Absences عديدة... تتجادل وتتضافر دلالاتها أو مجازيها المختلفة في صراع وتناقض. وهذه العناصر الغائبة هي بالتحديد - وليس «ما يقال» في العمل الأدبي - ما يرتبط بالأيديولوجيا. ومن هنا، فإن النقد الأدبي ينبغي - حسبما يشدد تيري إيجلتون - أن يركز على عدم اكتمال النص الأدبي، وينسج حوله نظريته، لكي يفسر الضرورة الأيديولوجية لما هو «غير مقول» الذي يشكل المبدأ الخاص لهوية العمل[١٣٧].

إن ماشيري يرى أن العمل الأدبي لا يعبر عن أيديولوجيا متماسكة لطبقة ما، بل هو إنتاج للتناقضات والصراعات الأيديولوجية التي تمثل جزءا من ممارسات الواقع. ومن خلال القراءة التشخيصية يقف القارىء - الباحث على حدود الأيديولوجيا التي نشأ فيها العمل، ولكنه انفصل عنها بوصفه أدبا. وهكذا يصير النقد الأدبي كشفا منهجيا علميا للمواقف الكامنة وراء النص. ويعطي ماشيري أمثلة على ذلك من تاريخ الأدب الروسي في الفترة ما بين ١٨٦٢ وحتى ١٩٠٤، وما قدمه الأدباء الروس من توصيفات يمكن للناقد الأدبي أن يبينها، «فدستويفسكي يقدم لنا روسيا الإقطاعية، وتشيكوف يصور نشأة البورجوازية، وتولستوي يصف الفلاحين، وجوركي يصف بدايات البروليتاريا الحضرية»[١٣٨].

وترجع أهمية ممارسة ماشيري البحثية إلى كونها قد أبرزت، وبصورة معينة، طبيعة العلاقة بين الأدب والأيديولوجيا من ناحية، وخاصية التناقض واللاتجانس واللامركزية في العمل الأدبي من ناحية ثانية، غير أن ممارسته تبدو فيها الأيديولوجيا وكأنها من عمل اللاوعي فقط، وتبدو فيها ممارسة الكتابة وكأنها عمل «لاشعوري» يقوم به الكاتب دون إرادة ودون أي اختيار. كما أن تفصيلات عملية القراءة «التشخيصية» لا تتضح بدقة فيما قدمه ماشيري من تحليلات، مما يجعلنا نقول إن الجماعة الألتوسيرية ما زالت مطالبة بتقديم المزيد من القراءات/ البحوث النقدية حتى يتضح منهجهم.

خاتمة

لا تزعم هذه الدراسة أنها قد استوعبت كل الاتجاهات العامة التي تسعى إلى تفسير الظاهرة الأدبية تفسيرا اجتماعيا، ولعل القارئ قد لاحظ أن اهتمامنا الرئيسي قد انصب في معظمه على المرحلة التأسيسية التي شهدت صياغة المسلمات الوضعية والمسلمات الماركسية، وعلى ما تلا ذلك، تاريخيا، من جدال منهجي برزت معه، بصورة أوضح، أهم الإشكاليات المنهجية في الدراسة الاجتماعية للأدب.

وإذا كنا قد حاولنا بعد ذلك أن نرصد أهم التيارات الحديثة في هذا المجال، فإن رصدنا لم يكن شاملا. فثمة تيارات أخرى غير التي عرضنا لها هنا لا تقل أهمية من حيث ماتطرحه من رؤى نظرية ومبادئ منهجية. ويهمني أن أشير هنا بصفة خاصة إلى ثلاثة تيارات. الأول هو التيار «التأويلي» الذي يستند إلى تقاليد فلسفية فينومينولوجية، ويفترض قبول أي نص لتفسيرات متعددة يمكن أن تكون كلها صالحة، وليس شرطا أن يرتبط أي منها بنسق نظري أو منهجي من جانب القارئ/ المؤول. ويرتبط هذا التيار بأسماء مفكرين مثل هانز جورج جادامر H.G. Gadamer في ألمانيا، و إ. د. هيرش E. D. Hirsch في الولايات المتحدة الأمريكية.

والتيار الثاني هو ما أصبح يعرف بـ «جماليات التلقي»، وهو يرتبط، بصورة أو بأخرى، بالتيار الأول، لأنه يطرح إشكاليات تتصل بدور القارئ، ومتضمنات عملية التلقي، في اكتساب النص لمعان ودلالات معينة. وقد تراكمت في العقدين الماضيين مجموعة من الدراسات في إطار هذا التيار، أنجز أهمها باحثون مرتبطون بما يعرف بمدرسة «كونستانس» في ألمانيا التي من أبرز أعضائها هانز روبرت ياوس H. R. Jausse، وفولفجانج إيزر W. Iser. كما أن جاك لينهارت J. Lenhart في فرنسا بلور مجموعة من الطروحات الهامة في هذا المجال تنهض على دراسات واقعية «إمبريقية» يقوم بها في موضوع «القراءة».

أما التيار الثالث فيسعى إلى ترسيخ ما يطلق عليه «سوسيولوجيا النص»، وذلك من خلال التعامل مع المستويات السردية والدلالية والتركيبية للنص الأدبي، والكشف عن تموضع مشكلات ومسائل اجتماعية في هذه المستويات. وتعد اجتهادات الباحث التشيكي الأصل بيير زيما P. Zima مثالا على هذا المسعى.

وثمة نقطة أخرى ختامية نود أن نشير إليها، وهي أن دراستنا هذه، بما عرضته من تقاليد علمية في مجال الدرس الاجتماعي للأدب، تثير بالضرورة تساؤلات في ذهن القارئ، حول موقف البحوث العربية من القضايا النظرية والإشكاليات المنهجية التي تطرحها هذه التقاليد. ولاشك أن النظرة الاجتماعية للأدب قد وجدت اهتماما بها من جانب بعض الدراسات العربية التي تفاوتت فيما بينها من حيث تأثرها بهذا التيار أو ذلك، ومن حيث مدى توفيقها في توظيف أطر نظرية أو مناهج وأدوات بحثية في معالجتها. وهذه قضية يحتاج النظر فيها إلى دراسات، لاستقصاء ما تتضمنه من أبعاد تاريخية وفكرية.

الهوامش والمصادر

(١) لهذا المصطلح جذور في النقد الأدبي الغربي (الإنجليزي خاصة). وحديثا أخذ بعض النقاد العرب يستخدمونه في دراساتهم التطبيقية عن الأعمال القصصية والروائية، خاصة الحداثية، التي أبدعها كتاب الستينيات والسبعينيات. ومن بين هؤلاء النقاد نذكر على وجه الخصوص إدوار الخراط، وصبري حافظ، مع اختلاف بينهما فيما يحمله المصطلح من معنى، وفي منهج توظيفه في الدرس التطبيقي. فالخراط لا يحتفل كثيرا بالمرجع الاجتماعي في تفسير التطورات الفنية في أعمال كتاب الحساسية الجديدة، في حين تتسع معالجات حافظ للعوامل السوسيولوجية ودورها الفاعل في تحولات الوعي الأدبي وتبدلات «قواعد الإحالة» إلى الواقع كما تكشف عنها كتابات الحساسية الجديدة. انظر:

ـ إدوار الخراط، «مشاهد من ساحة القصة القصيرة في السبعينيات»، فصول، المجلد ٢، العدد ٤ (يوليو ـ سبتمبر ١٩٨٢)، ص ص ١٢٣-١٥٠.

ـ صبري حافظ، «الحساسية الجديدة: دراسة في آليات تغير الحساسية الأدبية»، الناشر، يونيو ١٩٨٥، ص ص ١٠٢-١٢٣، «جماليات الحساسية والتغير الثقافي»، فصول، المجلد ٦، العدد ٤ (يوليو ـ سبتمبر ١٩٨٦)، ص ص ٦٥-٩٤، «الرواية والواقع: متغيرات الواقع العربي واستجابات الرواية الجمالية» إبداع، السنة ٩، العدد ١٠ (أكتوبر ١٩٩٢)، ص ص ٣٢-٤٤.

(٢) Alan Swingewood, "Theory," in Diana L. Laurenson and Alan Swingewood, The Sociology of Literature, London: Mac Gibbon & Kee, 1971, p.11

(٣) س. رايت ملز، الخيال العلمي الاجتماعي، ترجمة عبد الباسط عبدالمعطي وعادل مختار الهواري، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٧، ص ١٤

(٤) Alan Swingewood, op. cit., P. 13.

(٥) Hans-Georg Gadamer, Philosophical Hermeneutics, edited and translated by David Linge, Berkeley: Univ. of California Press, 1976, p. 35.

(٦) Alice Templeton and Stephen B. Groce, "Sociology and Literature: Theoretical Considerations," Sociological Inquiry, vol. 60, No. 1 «February 1990», pp. 40-44.

(٧) Hans Norbert Fuegen, Die Hauptrichtungen der Literatursoziologie und ihre Methoden, Bonn: Bouvier Verlag Herbert Grundmann, 6. Aufl., 1974, 5-13-21.

(٨) جانيت وولف، «النقد السوسيولوجي لعلم الجمال»، ترجمة وتقديم فتحي أبو العينين، إبداع، السنة ٩، العدد ١١ (نوفمبر ١٩٩١)، ص ٤١.

(٩) Jeffrey L. Sammons, "The Threat of Literary Sociology and What to do About It," in : Joseph P. Strelka «ed.», Literary Criticism and Sociology, London: The Pennsylvania State University Press, 1973, pp. 30-31.

(١٠) Ibid., P. 32.

(١١) Ibid., pp. 32-35

(١٢) جان لوي كابانس، النقد الأدبي والعلوم الإنسانية، ترجمة فهد عكام، ط ١، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٢، ص ٦٣.

(١٣) انظر: جمهورية أفلاطون، دراسة وترجمة فؤاد زكريا، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥ (الكتاب العاشر)، ص ص ٥٢٩-٥٣٣.

(١٤) أرسطوطاليس، في الشعر، حققه مع ترجمة حديثة ودراسة لتأثيره في البلاغة العربية، شكري محمد عياد، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص ٢٨.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٦٤

(١٦) المصدر نفسه، ص ١٤٠

(١٧) انظر: أمينة رشيد، «المأساة وتصوير الواقع في الوعي الكلاسي الفرنسي»، مجلة الفكر العربي، السنة ٤، العدد ٢٥ (يناير/ فبراير ١٩٨٦)، ص ص ٤١-٥٥.

(١٨) محمد حافظ دياب، «سوسيولوجيا الأدب: مساءلة نقدية»، الناشر، السنة ٥، العدد ٥٧ (سبتمبر ١٩٨٩)، ص ٢٤.

(١٩) حول كيفية تمثل البيئة الفلسفية والبلاغية العربية لكتاب أرسطو في الشعر انظر البابين الثاني والثالث من: أرسطو طاليس، في الشعر، مصدر سبق ذكره.

(٢٠) حسين الواد، في مناهج الدراسات الأدبية، تونس، سراس للنشر، ١٩٨٥، ص ص ١٩-٢٤.

(٢١) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط ٥ بيروت: دار الثقافة، ١٩٨٦، ص ٦١٦.

(٢٢) مقدمة ابن خلدون، القاهرة: دار الشعب، د. ت، ص ٥٤٢.

(٢٣) المصدر نفسه، ص٥٤٤.
(٢٤) المصدر نفسه، ص ص٢٢٨-٢٢٩.
(٢٥) عن حياة فيكو وعصره انظر: عطيات محمد محمد أبو السعود، فلسفة التاريخ عند فيكو، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٨٥، ص ص١-١٥.
(٢٦) المصدر نفسه، صفحات ٣١، ٣٧، ٤٦.
(٢٧) المصدر نفسه، ص ص١٣٠-١٣٣.
(٢٨) انظر: A. Robert Caponigri, Time & Idea: The Theory of History in Giambattista Vico, London: University of Notre Dame Press, 1968, pp. 188-201.
(٢٩) Peter Hamilton, Knowledge and Social Structure, London: Routledge & Kegan Paul, 1974, pp 4-8.
(٣٠) عطيات محمد محمد أبو السعود، مصدر سبق ذكره، ص ص١٩٧-٢٠٥.
(٣١) عن حياة هردر وأعماله: انظر الكتيب الذي صدر بمناسبة مرور ١٧٥ عاما على وفاته، وهو:
Johann Gottfried Herder, 1803/1978, Bonn-Bad Godesberg: Inter Nationes, 1978.
(٣٢) Ibid., p. 26.
(٣٣) Dietrich Steinbach, "Grundlagen einer theoretisch-Kritischen Literatursoziologie – Die Dialektische Theorie und Methode," in: Joachim Bark «Hrsg.» Literatursoziologie I: Begriff und Methodik, Stuttgart: Kohlhammer, 1974, S. 39-40.
(٣٤) Alan Swingewood, op. cit., p. 26
(٣٥) Robert Escarpit, Das Buch und der Leser: Entwurf einer Literatursoziologie, Koeln: Westdeutscher Verlag, 1961, S.11.
(٣٦) Alan Swingewood, op. cit., pp. 26-28
(٣٧) نقلا عن توماس مونرو، التطور في الفنون، نقله إلى العربية محمد علي أبو درة، ولويس إسكندر جرجس، وعبد العزيز توفيق جاويد، جـ١، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١، ص١٢٩.
(٣٨) Alan Swingewood, op. cit., pp. 28-30.
(٣٩) كارلوني وفيللو، النقد الأدبي، ترجمة كيتي سالم، بيروت: عويدات، ط٢، ١٩٨١، ص٣٦.
(٤٠) في المقدمة الشهيرة لكتابه الهام عن تاريخ الأدب الإنجليزي (١٨٦٣-١٨٦٤) يقول تين: «إن الوقائع، سواء أكانت فيزيقية أو أخلاقية، لها أسبابها. فهناك سبب للطموح وللشجاعة وللصدق، مثلما هناك سبب للهضم وللحركة العضلية وللحرارة الحيوان. إن الفضيلة والرذيلة منتجات، مثلها مثل الحامض والسكر. وكل ظاهرة معقدة تنشأ عن ظاهرة أخرى أكثر بساطة». انظر:
Hippolyte Taine, History of English Literature, trans. by H. Van Laun, vol. 1, Philadelphia: Henry Altemus Company, 1908, pp 10-11.
(٤١) Hans Peter Thurn, Soziologie der Kunst, Stuttgart: Kohlhammer, 1973, SS. 11-12.
(٤٢) توماس مونرو، التطور في الفنون، مصدر سبق ذكره، ص ص٢٦٢-٢٦٣.
(٤٣) René Wellek, A History of Modern Criticism. 1750-1950, vol. 4 (The Late Nineteenth Century,) London: Jonathan Cape, 1966, p. 36, 290 (note 55).
(٤٤) Ibid. P. 35.
(٤٥) Hippolyte Taine, op. cit., P. 17.
(٤٦) Ibid., P. 18.
(٤٧) Alan Swingewood, op. cit., P. 34.
(٤٨) توماس مونرو، مصدر سابق، ص٢٧٥.
(٤٩) Hippolyte Taine, op. cit, pp. 19-21 . وبسبب هذا التعدد والتنوع في العناصر يصف رينيه ويليك مفهوم البيئة عند تين بأنه بمثابة السلة Catch-all التي تحوي خليطا من كل شيء يمكن أن يتصل بالأدب. Rene Wellek, Op. cit. P.27.
(٥٠) Alan Swingewood, op. cit., P. 37.
(٥١) Hippolyte Taine, op. cit, pp. 21-22 في اعتقادي أن فكرة تأثر الأجيال اللاحقة بالأجيال السابقة مع اختلافها عنها في الوقت نفسه، وكما عبر عنها تين هنا، كانت فكرة جديدة في ذلك الوقت، وربما كانت موحية للمساهمات التي قدمها فيما بعد مفكرون مثل فيلهلم دلتاي، وأورتيجا إي جاسيت، وكارل مانهايم، لمسألة الأجيال الفكرية والفنية والأدبية.
(٥٢) انظر: Leo Kofler, "Hippolyte Taine «1828-1893»", in: Alphons Silbermann «Hrsg.», Klassiker der Kunstsoziologie, Muenchen: C.H. Beck, 1979, SS. 17-20
(٥٣) Alan Swingewood, op. cit., P. 39.
(٥٤) ثمة أكثر من محاولة لتجميع أقوال وتعليقات ماركس وإنجلز حول الفن والأدب، ولعل أول محاولة هي تلك التي قام بها كل من ميخائيل ليفشتز Michael Lifschitz وف. ب. شيلر F. P. Schiller، حيث جمعا كتابا بعنوان «ماركس وإنجلز: عن الفن والأدب»،

نشر في برلين عام ١٩٥٣، ثم قام ليفشتز بتوسيع الكتاب: وصدرت له طبعات متعددة فيما بعد وفي عام ١٩٣٧ حرر جان فريفيل Jean Fréville كتابا نشر في باريس بعنوان «عن الأدب والفن» وثمة مختارات بالانجليزية أصدرتها دار النشر العالمية International Publischers في نيويورك عام ١٩٤٧ بعنوان «ماركس وانجلز: الأدب والفن»، واعتمدت أساسا على كتابي ليفشتز وفريفيل. وفي عام ١٩٦٧ صدرت في برلين أوسع مجموعة بعنوان «حول الفن والأدب» حررها مانفريد كليم Manfred Kliem، ويبلغ حجمها ١٥٠٠ صفحة. وفي لايبزج صدر عام ١٩٧٥ مجلد شامل حرره وقدم له هانز كوخ Hans Koch، وضمنه، بجانب كتابات ماركس وانجلز، أيضا كتابات لينين، ونشر بعنوان «ماركس، انجلز ولينين: حول الثقافة وعلم الجمال والأدب». هذا فضلا عن كتب أخرى عديدة محررة تضم بين دفتيها نصوصا مختارة من أعمال ماركس وانجلز حول الفن والأدب. ومن الجدير بالذكر أن هناك ترجمة عربية لبعض الأجزاء من كتاب فريفيل قام بها جورج طرابيشي ونشرها بعنوان: كارل ماركس: الأدب والفن في الاشتراكية، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط٢، ١٩٧٧.

(٥٥) انظـــر: Marx, Engels, Lenin, Ueber Kultur, Aesthetik, Literatur, Hrsg. von Hans Koch, Leipzig: Reclam, 1975, Ss. 591-597.

(٥٦) Ibid., SS. 617-618

(٥٧) Ibid., SS. 571-584

(٥٨) Ibid., SS. 432-437

(٥٩) Hans-Dietrich Sander, "G.W. Plechanow «1856-1918»," in: Alphons Silbermann, op. cit., S. 61.

(٦٠) Ibid., S. 48, 52.

(٦١) في عام ١٩٠٥ نشرت مجموعة من هذه الدراسات في مجلد بعنوان «خلال عشرين عاما»، وثمة ترجمة عربية لأجزاء من هذا المجلد، قام بها جورج طرابيشي، ونشرت بعنوان: الفن والتصور المادي للتاريخ، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ط١، ١٩٧٧.

(٦٢) جورج بليخانوف، الفن والتصور المادي للتاريخ، ترجمة جورج طرابيشي، مصدر سبق ذكره، ص٥٩.

(٦٣) المصدر نفسه، ص ص٨٤-٨٩.

(٦٤) يترجمها طرابيشي بـ«اللهو الناعمة». المصدر نفسه ص٩٠.

(٦٥) انظـــر: G. Plekhanov, Unaddressed Letters, Art and Social Life, Moscow: Foreign Languages Publishing House, 1957, pp. 161-167.

(٦٦) Marxism and Art: Essays Classic and Contemporary, selected and with historical and critical commentary by Maynard Solomon, New York: Random House, 1974, pp. 121-122.

(٦٧) جورج بليخانوف، الفن والتصور المادي للتاريخ، مصدر سابق، ص٦٠.

(٦٨) Marxism and Art, op Cit., p. 122.

(٦٩) Peter Brang, «Sociological Methods in Twentieth Century Russian Literary Criticism», in :Joseph P. Strelka «ed.»Literary Criticism and Sociology, p. 214.

(٧٠) Ibid., p. 214.

(٧١) Ibid., pp. 215-216

(٧٢) Ibid., pp. 216-221

(٧٣) انظر: رامان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة وتقديم جابر عصفور، ط١، القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩١، ص ص٢٢-٣٦، تيري إيجلتون، مقدمة في نظرية الأدب، ترجمة أحمد حسان، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩١، ص ص١٢-١٩، فتوح أحمد، الشكلية: ماذا يبقى منها... ؟، فصول، مجلد١، العدد٢ (يناير١٩٨١)، ص ص١٦٠-١٦٧.

(٧٤) Alan Swingewood, Sociological Poetics and Aesthetic Theory, London: Macmillan Press, 1986, p. 17

(٧٥) Hans Guenther « hrsg.» Marxismus und Formalismus, Muenchen: Ullstein Buch, 1976, s. 10

(٧٦) Peter Brang, op. cit., pp. 225-226.

(٧٧) Alan Swingewood, Sociological Poetics..., pp. 17-19.

(٧٨) David H. Miles, "Literary Sociology: Some Introductory Notes," The German Quarterly, vol. 48, No. 1 (1975), p. 2.

(٧٩) ثمة قراءة متعمقة لنظرية سوسير بجوانبها المختلفة في: حنون مبارك، مدخل للسانيات سوسير، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ط١، ١٩٨٧.

(٨٠) عرضنا لهذا الحوار، ولغيره من الحوارات الألمانية، وأهمها حوار أدورنو - زايدمان الذي دار في عامي ١٩٦٦، ١٩٦٧ في: Fathi Abul-Enein, Gesellschaftliche Stellung junger Schriftsteller in heutigen Aegypten: eine Literatursoziologische Untersuchung, Bielefeld: Kleine Verlag, 1984.

(٨١) Lewis A. Coser, Sociology Through Literature: An Introductory Reader, Englewood Cliffs: Prentice Hall, 1963, P. 2

(٨٢) المفاهيم التي تركز عليها أقسام كتاب كوزر الستة عشر هي: الثقافة، الضبط الاجتماعي، التنشئة الاجتماعية، الأنا والآخر، المكانة والدور، التدرج الاجتماعي، القوة والسلطة، البيروقراطية، علم اجتماع السياسة، علم الاجتماع الحضري، الأسرة، علم اجتماع الدين، العلاقات العنصرية، الحشد، السلوك المنحرف، واللامعيارية (الأنومي).

(٨٣) Jane Dabeghian, Mirror of Man: Readings in Sociology of Literature, Boston: Little Brown, 1970, PP. VII-VIII.

(٨٤) Bernard Berelson and Patricia J. Salter, "Majority and Minority Americans: An Analysis of Magazine Fiction," Public Opinion Quarterly, «Vol X» Summer 1946, pp. 168-190.

(٨٥) M'lton C. Albrecht, "Does Literature Reflect Common Values?" American Sociological Review, vol. 21, No. 6 «December 1956», pp. 722-729.

(٨٦) Paul Holander, "Models of Behaviour in Stalinist Literature: A Case study of Totalitarian Values and Controls," American Sociological Review, vol. 31 «June1960.» pp. 352-364.

(٨٧) Leo Lowenthal, Literature and the Image of Man, Boston: Bacon Press, 1957, P.X.

(٨٨) ثمة ترجمة عربية لبعض أجزاء هذا الكتاب بعنوان «سوسيولوجيا الأدب» قامت بها آمال أنطوان، ونشرتها دار عويدات، بيروت، ١٩٨٣. وإحالاتنا في هذه الدراسة هي للترجمة الألمانية للكتاب، والتي نشرتها دار النشر الألمانية الغربية، كولونيا، ١٩٦١، بعنوان «الكتاب والقارئ: خطط لعلم اجتماع أدبي».

(٨٩) Robert Escarpit, Das Buch und der Leser, Ss. 9-10.

(٩٠) Ibid., SS. 36-41.

(٩١) Ibid., SS. 52-57

(٩٢) Ibid, SS. 59-68

(٩٣) Ibid., SS 69-92.

(٩٤) Robert Escarpit «hrsg» Elemente einer Literatur Soziologie, Stuttgart: Enke Verlag, 1977, S. 8f.

(٩٥) Robert Escarpit, "The Sociology of Literature," in :L.D. Sills «ed» International Encyclopedia of the Social Sciences, vol. 9, 1968, p. 414.

(٩٦) انظر: Robert Escarpit, Das Buch ..., SS. 104-120

(٩٧) Hans Norbert Fuegen, Die Hauptrichtungen der Literatursoziologie ..., op. cit., S.4.

(٩٨) Ibid., S. 14.

(٩٩) Hans Norbert Fuegen «hrsg» Wege der Literatur Soziologie, Neuwied: Luchterhand, 1971, Ss 20-32.

(١٠٠) Hans Norbert Fuegen, Die Hauptrichtungen..., SS. 105-109.

(١٠١) Alphons Silbermann, "Literaturphilosophie, Soziologische Literaturkritik oder Literatursoziologie," Koelner Zeitschrift fuer Soziologie und Sozialpsychologie, 18. Jg., SS. 139-148.

(١٠٢) A. Silbermann, Empirische Kunstsoziologie : Eine Einfuehrung mit kommentierter Biographie, Stuttgart: Enke Verlag, 1973, Ss. 20-21.

(١٠٣) A. Silbermann, "Kunst," in: R. Koenig «hrsg.» Soziologie, Fischer Lexikon, Frankfurt/M: Fischer Buecherei, Ss. 166-170.

(١٠٤) A. Silbermann, Empirische Kunstsoziologie ..., S. 23.

(١٠٥) Georg Lukacs, Schriften zur Ideologie und Politik, ausgewaehlt u. eingeleitet von Peter Ludz, Neuwied: Luchterhand, 1967, SS. 323-325.

(١٠٦) G. Lukacs, Schriften zur Literatursoziologie, ausgewaehlt u.eingeleitet von Peter Ludz, Neuwied: Luchterhand, 1977, S. 71.

(١٠٧) Ibid., SS-71-72.

(١٠٨) انظر: G. Lukacs, Die Theorie des Romans, Darmstadt: Luchterhand, 1982.

(١٠٩) جورج لوكاتش، معنى الواقعية المعاصرة، ترجمة أمين العيوطي، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١، ص١٨.

(١١٠) انظر: جورج لوكاتش، دراسات في الواقعية، ترجمة نايف بلوز، ط٢، دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٧٢، الفصلان الأول والثاني.

(١١١) جورج لوكاتش، بلزاك والواقعية الفرنسية، ترجمة محمد علي اليوسفي، ط١، تونس، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، ١٩٨٥، ص٩.

(١١٢) لوسيان جولدمان، «البنيوية التكوينية وتاريخ الأدب»، ترجمة علي الشرع، الأدب الأجنبية، السنة ١٤، العددان ٥٠-٥١ (شتاء١٩٨٧)، ص ص٣٠٤-٣٠٥.

(١١٣) Lucien Goldmann, "Der genetische Strukturalismus in der Literatursoziologie," Alternative, Bd. 13, Nr. 71, S. 50.

(١١٤) لوسيان جولدمان، «علم اجتماع الأدب: الوضع ومشكلات المنهج»، مقال مترجم، فصول، المجلد ١، العدد٢ (يناير١٩٨١)، ص١٠٢.

(١١٥) L. Goldmann, "Ideology and Writing," The Times Literary Supplement, Nr. 3422 (September 28, 1967), London, P. 904.

(١١٦) L. Goldmann, Der Verborgene Gott: Studie ueber die tragische Weltanschauung in den Pensees Pascals und in Theater Racines, Neuwied: Luchterhand, 1973.

(١١٧) L. Goldmann, Towards a Sociology of the Novel, London, Tavistock Publications, 1975.

(١١٨) كمثال على هذا النقد انظر:
Miriam Glucksmann, "Einwaende gegen Goldmanns Position," Alternative, Bd 13, Nr. 71, SS. 34-87.

(١١٩) David H. Miles., "Literary Sociology ....," op. cit., p. 6

وثمة دراسات متاحة الآن، بلغات مختلفة، حول مدرسة فرانكفورت. ومن بين الدراسات العربية القليلة نشير إلى:

- علاء طاهر، مدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلى هابرماس، بيروت: مركز الإنماء القومي، ط١ (د. ت).

- عبد الغفار مكاوي، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت: تمهيد وتعقيب نقدي، حولية كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية ١٣، الرسالة ٨٨ (١٩٩٣).

- رمضان بسطويسي محمد، علم الجمال لدى مدرسة فرانكفورت أدورنو نموذجا، القاهرة (د. ن)، ١٩٩٣.

(١٢٠) Theodor Adorno, "Thesen zur Kunstsoziologie," in Adorno, Ohne Leitbild: Parva Aesthetica, Frankfurt/M. Suhrkamp, 1967, Ss. 94-96.

(١٢١) Ibid., SS 100-101.

(١٢٢) Th. Adorno, "Standort des Erzaehlers im zeitgenoessischen Roman," in Adorno, Noten zur Literatur, Frankfurt: Suhrkamp. 1981, SS. 41-46.

(١٢٣) بيير زيما، النقد الاجتماعي: نحو علم اجتماع للنص الأدبي، ترجمة عايدة لطفي، القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط١ ١٩٩١، ص ص ١١٠-١١١.

(١٢٤) Th. Adorno, Aesthetische Theorie, Frankfurt/M: Suhrkamp, 1973, S. 335.

(١٢٥) Ibid, S. 335

(١٢٦) Th. Adorno, Noten .... Ss. 51-53

(١٢٧) Th. Adorno, Aesthetische Theorie, SS. 335-336.

(١٢٨) كمثال على هذا النقد: D. H. Miles, op. cit, pp. 6-7؛ بيير زيما، مصدر سابق، ص ص ١١٦-١٢٢.

(١٢٩) يذكر ألتوسير أنه استعار هذا المفهوم من الفيلسوف الفرنسي جاستون باشلار G. Bachelard للإشارة إلى التحول الذي يبدأ معه تأسيس نظام معرفي علمي (ماركسي) يقوم على المادية التاريخية والمادية الجدلية. ويحدد ألتوسير النقطة الأولى في هذا التحول بصدور كتاب «الأيديولوجية الألمانية» لماركس وإنجلز، ومقالة ماركس «موضوعات حول فيورباخ» في الفترة ما بين عامي ١٨٤٥ و١٨٤٦. انظر:
Louis Althusser, Fuer Marx, Frankfurt/M: Suhrkamp, 1974, SS. 31-33

وثمة ترجمة عربية لأحد فصول هذا الكتاب من الأصل الفرنسي الصادر عام ١٩٦٥: لوي ألتوسير، «البنية ذات الهيمنة: التناقض والتفاوت»، ترجمة وتقديم فريال جبوري غزول، فصول، مجلد٥، عدد٣ (إبريل/ مايو/ يونيو ١٩٨٥)، ص ص ٤٤-٥٦.

(١٣٠) انظر: Klaus-Michael Bogdal, "Symptomatische Lektuere und historische Funktionsanalyse «Louis Althusser»," in:
K.M. Bogdal (hrsg.), Neue Literaturtheorien: Eine Einfuehrung, Opladen: Westdeutscher Verlag, 1990, Ss. 82-106.

(١٣١) لويس ألتوسير، قراءة رأس المال، جـ٢، ترجمة تيسير شيخ الأرض، دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٥، ص ٥١.

(١٣٢) لوي ألتوسير، «البنية ذات الهيمنة: التناقض والتفاوت»، مصدر مذكور.

(١٣٣) لويس ألتوسير، «رسالة في معرفة الفن»، ترجمة وتقديم فريال جبوري غزول، مجلة ألف، العدد ١٠، ١٩٩٠، ص ١٥٩.

(١٣٤) Pierre Macherey, A Theory of Literary Production, London: Routledge & Kegan Paul, 1978, pp. 66-68.

(١٣٥) Ibid., P. 78

(١٣٦) Alan Swingewood, Sociological Poetics and Aesthetic Theory, P. 96

(١٣٧) Terry Eagleton, Criticism & Ideology: A study in Marxist Literary Theory, London, Verso, third impression, 1982, P. 89.

(١٣٨) Pierre Macherey, op. cit., p. 111

الدراسات النفسية والأدب

د. شاكر عبد الحميد

مقدمة

يشتمل الأدب على موضوعات وأفكار عديدة يمكن أن تستفيد منها الدراسات النفسية. كما يشتمل علم النفس على دراسات ونظريات عديدة يمكن أن يستفيد منها الأدب، إبداعا ونقدا. لكن ما حدث في واقع الأمر أن هذا التفاعل الخصب المأمول قد تأخر كثيرا. فقد وجه علم النفس بشكل عام عبر تاريخه، في شكليه القديم والمعاصر، اهتماما قليلا للموضوعات الجمالية عموما، وللأدب خصوصا. وقد حدث هذا التأخر في الاهتمام العلمي بالأدب من جانب علم النفس نتيجة عدة عوامل نذكر منها:

١ ـ تلك الاعتقاد الذي ساد المراحل المبكرة من نمو علم النفس بأن الموضوعات الجمالية هي من الموضوعات غير القابلة للتناول التجريبي المحكم، فهي تروغ من التحديد، وتهرب من التكميم.

٢ ـ أن هذا النظام العلمي الجديد ـ أي علم النفس ـ كان يجاهد من أجل وضع أسسه المنهجية القوية كعلم موضوعي ينتمي إلى العلوم الطبيعية «الصارمة» ومن ثم شعر العديد من العلماء المبكرين بضرورة عزل هذا النظام الجديد عن مجال الإنسانيات والجماليات بما فيها من نعومة وتعبيرات فضفاضة وذاتية مفرطة. وقد نتج مثل هذا التصنيف المتعسف عن ذلك التضاد الذي أطلق عليه سنو Snow تعبير «أزمة الثقافتين» أو «التضاد بين الثقافتين» أي ذلك التضاد بين ثقافة العلم الصارمة، وثقافة الفن والأدب الفضفاضة والزئبقية والمراوغة، بين ثقافة العقل وثقافة الحدس العاطفي والانفعال، بين الموضوعية والذاتية، وهو تصنيف زائف، كما هو واضح، ولا يتفق مع ماأشارت إليه دراسات عديدة من وجود جوانب فنية كثيرة في العلم ومن وجود جوانب علمية كثيرة في الأدب والفن(١).

٣ـ يوجد عامل ثالث يتعلق بطبيعة المادة الأدبية وخصوصيتها، وهي طبيعة وخصوصية مثلت صعوبة في التناول الموضوعي للأدب من الوجهة النفسية، بينما عولجت مجالات أخرى كالرسم والتصوير والنحت والموسيقى بشكل أكثر بساطة وتكرارا.

٤ـ هناك عامل رابع يتمثل في حالة من اللامبالاة من قبل علماء النفس تجاه الجماليات عموما والأدب خصوصا نتجت عن ذلك الاتجاه السلبي الذي تراكم عبر تاريخ هذا العلم والذي يربط بين الأدب وبين التحليل النفسي، وقد كان التحليل النفسي ـ ومازال ـ ضعيفا من الناحية المنهجية، ومن ثم تصور بعض الباحثين أن هذا الضعف لا يرتبط بالتحليل النفسي فقط، بل وبالموضوعات التي يدرسها أيضا، ومن بينها الأدب والجماليات.

٥ـ هناك عامل أخير أدى إلى تأخر الدراسة النفسية العلمية للأدب أو تعثرها في حالات كثيرة، ويتعلق هذا العامل برفض نقاد الأدب، بل والأدباء أنفسهم، المعاونة في البحوث النفسية العلمية للأدب، وتجلى هذا الرفض مثلا في قول اثنين من أشهر النقاد المعاصرين هما «ويليك» «ووارين»: إن الفن العظيم يتجاوز معايير علم النفس، وإن الاستبصارات النفسية بالأدب يمكن الوصول إليها بطرائق أخرى غير المعرفة النظرية بعلم النفس، وإن أهمية علم النفس هي أهمية تمهيدية أو أولية فقط بالنسبة للإبداع، وأنه خلال العمل نفسه تكون الحقيقة النفسية ذات قيمة فنية فقط، إلى آخر هذه الأقوال المحبطة التي نجد مثلا لها أيضا لدى الروائي الأمريكي الشهير وليم فوكنر والذي تجلى لديه ذلك الخلط الواضح الشائع بين التحليل النفسي (كما قدمه فرويد وأتباعه) وبين علم النفس (كعلم منهجي موضوعي منتظم)، فقال «في أي شيء تهم العقد النفسية الموجودة لدي؟ إن عملي فقط هو الذي ينبغي أن يوضع في الاعتبار. . إنني ـ كشخص ـ غير هام»[٣].

على كل حال، فإن الدراسة الحالية تحاول توضيح بعض أبعاد هذه الصورة الزاخرة، رغم تأخر ظهورها بالأفكار والمناهج والاتجاهات.

خلفية تاريخية

من الممكن أن يدخل علم النفس إلى مجال الأدب من خلال طرق ثلاثة:

يتعلق الأول منها بفحص الأديب المبدع خلال نشاطاته الإبداعية المختلفة وما تشتمل عليه هذه النشاطات من عمليات معرفية ووجدانية ودافعية وغير ذلك من العمليات.

ويؤدي بنا الطريق الثاني إلى دراسة الناتج الإبداعي، سواء كان قصة أو قصيدة أو مسرحية أو رواية أو غير ذلك من النواتج الأدبية الإبداعية، ثم إننا نستطيع من خلال فحصنا لهذه النواتج سواء كانت في صورتها الأولية، على هيئة مخطوطات أو مسودات، أو في صورتها النهائية، أن نتوصل إلى بعض النتائج حول العملية الإبداعية من حيث مراحلها والعوامل المساهمة فيها.

أما الطريق الثالث فيوصلنا مباشرة إلى المتلقي، أو قارىء الأدب، ذلك الذي يستجيب للأعمال الأدبية والإبداعية بطرائق واستجابات مختلفة.

وبالطبع يمكننا أن نكتشف وجود مسارات فرعية صغيرة تربط بين الطرق الثلاثة الكبيرة السابقة، وهي مسارات قد تهتم خلالها مثلا بدراسة موضوعات مثل: علاقة شخصية الكاتب بإبداعه، أو علاقة سمات شخصية قارىء الأدب بتفضيلاته الأدبية، أو تعبير مسودات الكاتب عن حالات اضطراباته النفسية أو غير ذلك من الموضوعات.

لقد استأثر هذا البعد النفسي الخاص من الأدب باهتمامات الفلاسفة والمفكرين عبر التاريخ، ولسنا في موضع يسمح لنا باستعراض كل هذه الاهتمامات، كل ما نستطيع أن نقدمه هنا هو مجرد إشارات عابرة لهذه الاهتمامات، ثم نكرس كل جهدنا بعد ذلك لموضوع مقالنا الرئيسي وهو «الدراسات النفسية والأدب» مع التركيز بدرجة ما على الجهود الحديثة في هذا المجال.

لقد كان أرسطو كما يقول «ديفيد دايتشز D.Diaches» أقل اهتماما بكيفية كتابة البشر لأعمال التراجيديا وأكثر اهتماما ببنية وتكوين وخصائص هذه التراجيديا، أما أفلاطون فقد كان أكثر اهتماما بالتفسير النفسي للإبداع الأدبي خاصة في محاورته «أيون»[٣].

كذلك فإننا نجد أن تلميذا من أبرز تلامذة أرسطو هو «ثيوفراستوس» قد قدم في عمله المسمى «شخصيات» Characters مجموعة من التخطيطات الأدبية (أو الاسكتشات) لبعض الشخصيات المتمايزة، فقدم صورا عامة لشخصية البخيل الجشع، وشخصية المنافق، وشخصية الثرثار، وشخصية المنحط أخلاقيا، وكل واحدة من هذه الشخصيات كانت تتميز بوجود سمة مسيطرة غالبة عليها تكشف عن نفسها في اتجاهات الشخصية وسلوكياتها المختلفة[٤].

ازداد اهتمام النقاد والشعراء الرومانتيكيين بعد ذلك بهذا الجانب النفسي في كتاباتهم حتى أننا نجد شاعرا مثل «وردزورث» يؤكد في مقدمة ديوانه «مواويل غنائية Lyrical Ballades» وجود فروق في النوع، وليس في الدرجة، بين الشاعر وغيره من البشر، فالشاعر في رأيه يكون «أكثر حساسية، وأكثر حماسا، وأكثر رقة، ولديه معرفة أعظم من غيره بالطبيعة البشرية، كما أن روحه تكون أكثر اتساعا وشمولا وقدرة على التفكير وعلى الشعور بما يعتمل في باطن الروح الإنسانية من انفعالات»[٥].

في بداية القرن العشرين بدأ ظهور إسهامات التحليل النفسي في ميدان الأدب، فظهرت كتابات فرويد ويونج وساخس وجونز وغيرهم الخاصة في هذا الشأن. وقد تباينت استجابات نقاد الأدب والفن وعلماء النفس إزاء ما قدمه التحليل النفسي، بين المؤيد تماما لهذا الاتجاه أو المعارض تماما له وبين هؤلاء وهؤلاء وقف البعض الثالث في مرحلة المنزلة بين منزلتين! بين التأييد والمعارضة، كما سنعرض لذلك فيما بعد.

خلال العقدين أو العقود الثلاثة الأخيرة بدأ الإسهام التحليلي النفسي في ميدان الأدب يشحب بدرجة واضحة وبدأ الإسهام الخاص بما يسمى بالمنحى الموضوعي (أو الامبيريقي) في دراسة الأدب يتزايد ويقدم إسهاما متميزا تلو الآخر، وتمثل كتابات ودراسات مارتن ليندأور M. Lindauer عالم النفس الأمريكي، أبرز الإسهامات في هذا الميدان.

توجد، على المستوى العربي، منذ زمن طويل، اهتمامات واضحة من قبل النقاد والأدباء بالبعد النفسي للأدب. وقد تجلت هذه الاهتمامات في كتابات «عبد القاهر الجرجاني» (خاصة في أسرار البلاغة ودلائل

الإعجاز) ولدى «ابن قتيبة» (في الشعر والشعراء). ولدى «الفارابي» و«ابن مسكويه» «وإخوان الصفا» «وحازم القرطاجني» وغيرهم، إشارات وتصورات عديدة حول الإدراك والصور الذهنية والذاكرة والخيال والإبداع[٦].

وقد اعتبر «محمد خلف الله أحمد» عام ١٩١٤ تاريخاً لميلاد فكرة الاهتمام العلمي بالبعد النفسي في الأدب، ففي ذلك العام حصل طه حسين على الدكتوراه في الأدب عن أبي العلاء المعري ووردت في هذه الدراسة وغيرها من دراسات طه حسين إشارات واضحة عن اهتمامه الملحوظ بالبعد النفسي في الأدب وتجلى ذلك في كتبه «حافظ وشوقي» و«مع المتنبي» ودراساته عن «بشار» و «أبي تمام» و«ابن الرومي» في «حديث الأربعاء» وغيرها[٧].

ثم بدأ هذا الموضوع يأخذ مكانه في جدول الدراسات العليا بقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة في أواخر الثلاثينات من هذا القرن، وقام بالمجهود الكبير في هذا الشأن «أمين الخولي» و«خلف الله أحمد» وقد كتب «أمين الخولي» عام ١٩٤٥ في العدد الأول من مجلة علم النفس مقالا بعنوان «علم النفس الأدبي» أشار فيه إلى العلاقات المشتركة والهامة بين علم النفس والأدب[٨].

إضافة إلى ما سبق هناك أيضا الإسهامات الهامة في هذا السياق والتي قدمها «حامد عبد القادر»[٩] والنويهي[١٠] «والعقاد» خاصة في دراسته الشهيرتين عن «ابن الرومي» و«أبي نواس»، التي وضح فيها تأثره الكبير بالكتابات التحليلية النفسية[١١].

من الأمثلة الشهيرة أيضا في هذا السياق ذلك الإسهام الذي قدمه «عز الدين إسماعيل» في كتابه «التفسير النفسي للأدب» والذي أكد فيه أن «العلاقة بين الأدب وعلم النفس لا تحتاج إلى إثبات، وكل ما تدعو الحاجة إليه هو بيان هذه العلاقة وشرح عناصرها، وأن النفس تصنع الأدب، كذلك يصنع الأدب النفس»[١٢] وقد قام «عز الدين إسماعيل» في كتابه هذا بالاستفادة من كتابات «فرويد» خاصة الكبت واللاشعور والتناقض وعقدة أوديب وغيرها في تفسير بعض الأعمال الأدبية وأشهرها رواية «السراب» لنجيب محفوظ و«هاملت» لشكسبير و«أيام بلا نهاية» ليوجين أونيل وغير ذلك من الأعمال.

هناك أيضا تلك الجهود الخاصة في هذا الشأن والتي قدمتها «نبيلة إبراهيم» في تفسير الأدب الشعبي استفادت من مفاهيم «يونج» عن اللاشعور الجمعي والنماذج الأولية[١٣] ودراسة «عبد المجيد حسن» عن الأدب العربي القديم التي عرضها في كتابه «الأصول الفنية للأدب»، وكتاب «مصطفى ناصف» «رمز الطفل»: «دراسة في أدب المازني» وكتاب «محمد زكي العشماوي» «قضايا النقد الأدبي والبلاغة» وكتاب «بدوي طبانه» «التيارات المعاصرة في النقد الأدبي» وكتاب «إبراهيم سلامة» «تيارات أدبية بين الشرق والغرب» وكتاب «أصول النقد الأدبي لأحمد الشايب» ودراسة «محمد خلف الله أحمد» حول «الموهبة الشعرية ووظيفة الشعر عند الشوقي»[١٤].

تتعلق الدراسات السابقة بما قدمه الأدباء ونقاد الأدب من إسهامات في مجال اكتشاف الأبعاد النفسية للأدب أي بذلك الاتجاه الذي كان يسير من الأدب ويتجه نحو علم النفس، فقد كان أصحابه من المشتغلين بالأدب لكنهم حاولوا أن يتوصلوا إلى فهم أكبر للظاهرة الأدبية كما تتجلى في بعدها النفسي وفي مقابل هذا الفريق هناك فريق آخر أصحابه من المشتغلين بعلم النفس لكنهم اتجهوا من مجال دراستهم إلى مجال الأدب أملا أيضا في الوصول إلى فهم أكبر للظواهر النفسية كما تتجلى في الأدب ولدى الأدباء. وقد بدأ هذا الاتجاه

في أواخر الأربعينات من هذا القرن على يد «مصطفى سويف» خاصة في دراسته الشهيرة «الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة»[١٥] وأيضا على يد بعض تلاميذه خاصة «مصري حنورة» في دراستيه عن الأسس النفسية للإبداع الفني في الرواية[١٦] وفي المسرحية[١٧] وكاتب هذا المقال في دراسته عن الأسس النفسية للإبداع الأدبي في القصة القصيرة خاصة[١٨]، كما أننا نجد اهتمامات أخرى بالأدب على يد «فرج أحمد فرج» وهي اهتمامات تمت من خلال القيام بالفحص التحليلي النفسي لبعض الأعمال الأدبية لمؤلفين عرب أمثال «نجيب محفوظ» و«غادة السمان»[١٩].

سوف نركز في الدراسة الحالية على عرض الاتجاهين الرئيسيين اللذين سادا مجال الدراسات النفسية والأدب: وهما التحليل النفسي والمنحى الموضوعي، ونناقش بعض المنطلقات والدراسات والأفكار الخاصة بكل منهما.

المنحى التحليلي النفسي

كان لظهور التحليل النفسي على يد «فرويد» في بداية هذا القرن آثاره الكبيرة على الفن والأدب لدرجة أن ناقدا شهيرا مثل «هربرت ريد» يقول: «إنني أشك أن السريالية كان يمكن أن توجد في صورتها الراهنة لولا «سيجموند فرويد» فهو المؤسس الحقيقي للمدرسة، فكما يجد فرويد مفتاحا لتشابكات الحياة وتعقيداتها في مادة الأحلام، فكذلك يجد الفنان السريالي خير إلهام له في نفس المجال، إنه لا يقدم مجرد ترجمة مصورة لأحلامه، بل إن هدفه هو استخدام أية وسيلة تمكنه من النفاذ إلى محتويات اللاشعور المكبوتة، ثم يخرج هذه العناصر حسبما يتراءى له بالصور الأقرب إلى الوعي، وأيضا بالعناصر الشكلية الخاصة بأنماط الفن المعروفة»[٢٠]. كذلك كان لظهور أفكار «يونج» عن اللاشعور الجمعي والنماذج الأولية ودراساته الخاصة عن الأساطير آثارها في كتابات فلاسفة أمثال «سوزان لانجر»، وعلماء أنثروبولوجيا أمثال «ليفي ستروس» ونقاد أدب أمثال «هربرت ريد» و«نورثروب فراي».

وقد اشتمل تطور تاريخ التحليل النفسي من حيث اهتمامه بالأدب على ثلاث مراحل متميزة، ولكنها متداخلة في نفس الوقت، وذلك لأن المفاهيم القديمة كان يعاد النظر إليها في ضوء تصورات جديدة، كما أن الهيمنة الطاغية للرواد أمثال «فرويد» و«يونج» يبدو أنها تراجعت لصالح بعض الباحثين المتأخرين أمثال «ميلاني كلاين» و«كريس» و«أرزنزفايج» و«لاكان» وغيرهم. كذلك فإن هناك بعض الجهود التي حاولت أن تتلافى العيوب المنهجية التي عانت منها الدراسات المبكرة في هذا السياق، ومن ثم ظهرت حركة حاولت أن تعتمد على أساليب البحث الحديثة في دراسة تلك المفاهيم القديمة ومن ثم يمكننا أن نقول إن المراحل التي مر بها التحليل النفسي من حيث اهتمامه بالأدب هي:

١ ـ المرحلة المبكرة: وهنا يمكننا أن نتحدث عن بعض أفكار ودراسات «فرويد» و«يونج» و«ساكس» و«جونز» و«فينيكل» و«فروم» بوجه خاص، ويمكننا أن نسمي هذه المرحلة بالمرحلة الكلاسيكية.

٢ ـ المرحلة الوسيطة: هنا حدثت محاولة للمزاوجة بين أفكار التحليل النفسي التقليدية وبين بعض مناهج البحث الحديثة، ويطلق على المنحى الخاص بهذه المرحلة اسم «المنحى الإكلينيكي الموضوعي» وأشهر أصحابها «سيرز وماكوردي ومارتنديل».

٣ـ المرحلة المتأخرة: وهنا حدث ما يشبه النكوص (بلغة التحليل النفسي) إلى المرحلة الأولى السابقة حيث تم التخلي عن استخدام الأساليب المنهجية الحديثة وتم التركيز على التحليل شبه النقدي للأعمال الأدبية بوجه خاص، ويمكننا أن نسمي هذه المرحلة «مرحلة المحللين النفسيين النقاد»، وأشهر أصحاب هذه المرحلة «موريس تشارني» و«جوزيف ويستلند» و«جان هنلي».

والآن إلى التفاصيل:

أولا: المرحلة الكلاسيكية

وأشهر ممثليها «فرويد» و«يونج» رغم أن اهتمامها بالأدب كان بطريقة غير مباشرة، ومن أجل أهداف أخرى لا تتصل في جوهرها بالظاهرة الأدبية، أي أهداف فرضية علاجية أو «باثولوجية» في المقام الأول.

فقد رأى «فرويد» في الفن وسيلة لتحقيق الرغبات في الخيال، تلك الرغبات التي أحبطها الواقع إما بالعوائق الخارجية أو المثبطات الأخلاقية، فالفن إذن نوع من الحفاظ على الحياة، والفنان هو إنسان يبتعد عن الواقع لأنه لا يستطيع أن يتخلى عن إشباع غرائزه التي تتطلب الإشباع، وهو يسمح لرغباته الشبقية الطموحة أن تلعب دورا أكبر في عمليات التخيل، وهو يجد طريقة ثانية إلى الواقع، عائداً من هذا العالم التخيلي، بأن يستفيد من بعض المواهب الخاصة في تعديل تخيلاته إلى حقائق من نوع جديد يتم تقويمها بواسطة الآخرين على أنها انعكاسات ثرية للواقع، وهكذا فإن الفنان، بطريقة ما، يصبح هو البطل، والملك، والمبدع، والمحبوب، الذي يرغب أن يكونه دون أن يتبع ذلك المسار الطويل الشاق الخاص بإحداث تغيرات في العالم الخارجي[٢١].

والفنان المبدع في رأي «فرويد»، هو إنسان محبط في الواقع لأنه يريد الثروة والقوة والشرف وحب النساء، لكنه تنقصه الوسائل لتحقيق هذه الإشباعات ومن ثم فهو يلجأ إلى التسامي بهذه الرغبات وتحقيقها خياليا[٢٢].

تعتمد مقاربة «فرويد» التحليلية النفسية للأدب على عديد من المفاهيم الخاصة بالآليات أو الميكانزمات الدفاعية والتي من بينها الكبت والتسامي والنكوص والتناقض الوجداني وغير ذلك من المفاهيم وتكشف هذه المفاهيم بشكل مباشر عن اهتمام «فرويد» بالبحث عن عمليات الإبدال والتعويض الخاصة بالمشكلات شديدة العمق والمتعلقة بنمو الشخصية، وقد ساوى كثيرا بين فهمه للمرض النفسي وفهمه للإبداع الأدبي[٢٣].

قضية «فرويد» الأساسية ـ كما أشرنا ـ مفادها أن نتاج الإبداع الأدبي مماثل لأي منتج آخر من منتجات الخيال، وخاصة الأحلام، فالنواتج الإبداعية هي تجليات وإشباعات رمزية للرغبات والتخيلات أو أحلام اليقظة اللاشعورية. ويقال كذلك في هذا السياق أن قراء الأدب والمتلقين له بشكل عام يستجيبون لا شعوريا للمضمون الخفي المتنكر في شكل منتجات إبداعية، إنهم يستجيبون للإشباعات وعناصر السرور التي يستثيرها الأدب، والتي يحدث أيضا أن تكون هي وسائل المؤلف في شق طريقه للعودة من عالم الخيال إلى عالم الواقع. وقد ناقش «فرويد» من خلال هذه المصطلحات الدينامية حياة وأعمال العديد من المؤلفين والفنانين

أمثال: «شكسبير» و«دستويفسكي» و«إبسن» و«ليوناردو دافنشي» و«ميكل انجلو» و«هايني» و«جوته» و«هوميروس» و«بلزاك»، كما أنه استخدم أيضا المسرحيات والأساطير والحكايات الخرافية والملاحم الإغريقية كأمثلة موضحة لأفكاره[٢٤].

ولأنه يصعب الإحاطة بكل دراسات وإشارات «فرويد» في هذا المقام نكتفي فقط بالإشارة إلى دراسته الخاصة عن «دستويفسكي» باعتبارها تمثل على نحو واضح اتجاهه الخاص في هذا الشأن.

أشار «فرويد» في دراسته عن «دستويفسكي» إلى أنه يصعب أن نرجع إلى محض الصدفة أن ثلاثة من الأعمال الإبداعية العظيمة عبر التاريخ كانت تتعامل مع نفس الموضوع وهو جريمة قتل الأب. وهذه الأعمال هي «الملك أوديب» «لسوفوكليس» و «هاملت» «لشكسبير» والإخوة «كارامازوف» «لدستويفسكي»، وفي هذه الأعمال الثلاثة كلها كان هناك أيضا ذلك الدافع للقيام بأعمال ومآثر عظيمة، وأيضا ذلك التنافس الجنسي الواضح حول امرأة ما[٢٥]. وقال أيضا بأن هناك أربعة جوانب أساسية يمكن تمييزها داخل شخصية دستويفسكي الخصبة المتنوعة، فهناك: الفنان المبدع وهناك العصابي، وهناك رجل الفضيلة والأخلاق، ثم هناك الخاطىء العاصي، وأن الجانب الخاص بالفنان المبدع أمر مؤكد لا يحتاج إلى نقاش، أما الجوانب الأخرى فهي الجديرة بالاهتمام.

تشتمل دراسة «فرويد» هذه عن «دستويفسكي» في رأينا على جزأين متميزين، في الجزء الأول تعامل «فرويد» مع «دستويفسكي» على أنه رجل مضطرب مريض مصاب بالماسوشية والرغبة الشديدة في عقاب الذات وإلحاق الأذى بها، وعلى أنه شخص تسيطر عليه مشاعر ذنب مرضية وأن نوباته الصرعية كانت نوبات مدعاة ومزعومة وغير حقيقية، وأنها كانت تعبيرات هستيرية عن صراعات عصابية داخلية ناجمة عن علاقة «دستويفسكي» غير السوية وصراعاته التي لم تحل حتى موته، مع فكرة الأب والسلطة والله. ومن ثم كان ذلك الاتجاه المزدوج المميز لعقدة أوديب لدى «دستويفسكي» الذي استفاض «فرويد» في تفسيره وقال عنه بلغة غامضة وهكذا يمكننا أن نفهم أعراض النوبات الشبيهة بالموت لديه باعتبارها تماهيا (أو توحدا) مع الأب، تقوم به الأنا. هذا التماهي تسمح به الأنا العليا كنوع من العقاب للأنا «إنك تريد أن تقتل أباك من أجل أن تحل محله، والآن أنت أبوك، لكنك أب ميت»، هذا هو الميكانزم المنظم للأعراض الهستيرية، وإضافة إلى ذلك يقوم أبوك الآن بقتلك، وبالنسبة للأنا فإن عرض الموت يكون بمثابة التمويه للرغبة الذكورية، ويكون في نفس الوقت إشباعا ماسوشيا (بالنسبة للأنا) وإشباعا عقابيا بالنسبة للأنا العليا (أي إشباعا ساديا) وكلا الاثنين، الأنا والأنا العليا، يقومان بتنفيذ دور الأب[٢٦].

أما القسم الثاني من دراسة «فرويد» هذه فيتناول نقطة خاصة في حياة «دستويفسكي» وشخصيته، وهذه النقطة تتعلق بسلوك المقامرة لديه. وقد لجأ «فرويد» من أجل تفسير هذا الجانب من شخصية «دستويفسكي» إلى القيام بتحليل قصة قصيرة كتبها الأديب النمساوي «ستيفان زفايج» عنوانها «أربع وعشرون ساعة في حياة امرأة» وقد تحرك هذا التحليل متوجها من خلال مفاهيم «فرويد» المعروفة في هذا الشأن كالدوافع الكامنة وعقاب الذات والإبدال والكبت الجنسي وما شابه ذلك من المفاهيم الفضفاضة والمراوغة.

لقد تحدث «فرويد» في دراسته كما ذكرنا عن الجوانب الأربعة المتميزة في شخصية «دستويفسكي»: المبدع - العصابي - رجل الفضيلة - الخاطىء. ونلاحظ بشكل واضح، أن الجانبين السلبيين من هذه الشخصية: العصابي والخاطىء، هما اللذان استأثرا بجل اهتمام «فرويد»، بينما لم يوجه فرويد اهتماما يذكر إلى الجانبين: الإيجابيين المبدع ورجل الفضيلة، من شخصيته «دستويفسكي» مكتفيا بالقول بأن مكانة «دستويفسكي» الفنية ليست موضعا للشك مطلقا، وأنه يقف في تاريخ الأدب على قمته وبجوار «شكسبير» ثم يحاول ثنى عنق الحقائق الخاصة بالجانب الأخلاقي في حياة «دستويفسكي» ويفرغ بعد ذلك لإظهار، واكتشاف، والتوسع في إلصاق الخصائص السلبية وحياة هذا المبدع الكبير، وتفتقر تفسيراته بدرجة واضحة إلى التماسك، كما تشتمل على الكثير من التسرع والقفز المرتفع السريع من المقدمات إلى النتائج على نحو متعسف في كثير من الحالات رغم ذلك الغلاف اللغوي البراق الذي يحيط به «فرويد» قراءاته وتفسيراته الخاصة لحياة «دستويفسكي» وبعض أعماله.

اعتقد «يونج» (١٨٧٥-١٩٦١) أن «نيتشه وفرويد» عبرا عن الموضوعين الكبيرين في الحياة الغربية: القوة والجنس. لكنه شعر أيضا أن الرجلين قد استغرقا في هذين الموضوعين الحيويين حتى سيطرا عليهما وأعمياهما عن موضوعات أخرى في الحياة الإنسانية [٢٧]. لذلك قرر «يونج» أن يمتد بعقله إلى آفاق جديدة، فقدم مفهوم اللاشعور الجمعي Collective Unconciousness كي يشير به إلى ذلك الجانب من اللاشعور الذي يشترك فيه كل البشر، وقد افترض «يونج» أن هذا اللاشعور الإنساني موروث، وينتقل عبر الأجيال، ويترك آثاره على شكل ومضمون المخ الإنساني، وأنه غير فردي ولا شخصي، بل جمعي ويتكون من المادة المتبقية عبر التطور الإنساني. وأن المكونات الأساسية لهذا اللاشعور الجمعي هي الصور أو النماذج البدائية Archetypes التي هي الأفكار والصور اللاشعورية الموروثة من تراث الأسلاف وعبر الأجيال، مثل تلك الصور والأفكار الخاصة حول الأب والله والشيطان والخير والشر.. إلخ [٢٨].

في ضوء ما سبق ميز «يونج» بين نوعين من الإبداع أو الفن هما:

١- الفن السيكولوجي أو النفسي: وهو الفن الذي يتعامل مع المواد المشتقة من واقع الشعور الإنساني أو مع دروس الحياة، أي مع خبرات الحياة في الواقع مثل موضوعات الحب والأسرة والبيئة.. الخ.

٢- الفن الكشفي: وهو الفن الذي يشتق وجوده من الأرض المجهولة في عقل الإنسان، ومن الزمن الأسطوري الذي يرجع حتى عصور ما قبل الإنسان، عصر بداية الخلق وتضاد النور والظلمة. واهتم «يونج» بشكل خاص بالنوع الثاني من الفن واعتبر رواية «موبي ديك»، «لهرمان ميلفيل» أبرز مثال عليه وذلك لأن صراع الإنسان مع المجهول والقدر يحكى فيها على نحو بارز وعميق [٢٩].

سبب الإبداع الفني الممتاز وفقا لما أشار إليه «يونج» هو تقلقل اللاشعور الجمعي في فترات الأزمات الاجتماعية مما يقلل من اتزان الحياة النفسية لدى الفنان ويدفعه للحصول على اتزان جديد. وبالطبع يمكننا القول هنا بأنه ليست الأزمات الاجتماعية فقط هي التي تعمل على قلقلة اتزان الحياة النفسية للفنان، فالأزمات النفسية الخاصة بالفنان أيضا، بصرف النظر عن الأزمات الاجتماعية، قد تعمل أيضا على هز استقراره واتزانه النفسي مما يدفعه إلى استعادة ذلك الاتزان المفقود. وقد أشار «يونج» أيضا إلى أن الفنان

الأصيل يطلع على مادة اللاشعور الجمعي بالحدس ولا يلبث أن يسقطها في رموز والرمز هو أفضل صيغة ممكنة للتعبير عن حقيقة مجهولة نسبيا»[٣٠].

أكد «يونج» أيضا على أهمية الأحلام في الإبداع الفني والأدبي، فالأحلام في رأيه هي المادة الثرية التي تتجسد فيها الأنماط الأولية للاشعور الجمعي في أبلغ صورها. فالأحلام كالرموز تحدث بعفوية ولا تبتدع، وهي - أي الأحلام - المدخل الرئيسي لكل معرفتنا عن الرمزية والرموز. العمل الفني عند «يونج» إذن أشبه بالحلم، على الرغم من وضوحه البادي[٣١].

ثانيا: المرحلة التحليلية النفسية شبه الإمبيريقية

الجدير بالذكر أنه جرت محاولات لتقوية الأساس المنهجي الهش للتحليل النفسي الكلاسيكي فظهر منحى سمي بالمنحى الإكلينيكي الموضوعي، في اعتراف ضمني بأن المنحى السابق عليهم لدى «فرويد» و«يونج» وأتباعهما لم يكن منحى موضوعيا تماما، وهو منحى يتسم - على عكس التحليل النفسي التقليدي - بأنه أكثر تنظيماً، فالبيانات يتم جمعها وتحليلها في ضوء الشروط الكمية. وهكذا فإن «ماكوردي» McCurdy قام بجدولة الموضوعات المتكررة في عديد من الأعمال الروائية والمسرحية الكلاسيكية (روايات الأخوات «برونتي» ومسرحيات «شكسبير» مثلا) وذلك من أجل توسيع حدود أفكار «فرويد» حول الدافعية وحول العمليات الأولية والعمليات الثانوية. كذلك قام «مارتنديل» Martindale باستخدام مفهوم «كريس» Kris حول «النكوص في خدمة الأنا» (كشكل من أشكال النشاط النفسي الشابه لتفكير الأطفال لكنه متسم بالانضباط في نفس الوقت) في دراسة أجيال عديدة من الشعراء الانجليز والفرنسيين ومن خلال بعض الأفكار الإحصائية التي اعتبرها مناسبة[٣٢].

كذلك تعتبر تلك الدراسة التي قام بها سيرز Sears وزملاؤه حول أحداث الطفولة والرشد الخاصة «بمارك توين» وتأثيرها على أدبه مثالا جيداً على ذلك المنحى المتوجه من خلال أفكار التحليل النفسي التي تمت تقويتها من خلال الأساليب الإمبيريقية وقد كانت الخطوة الأولى في هذه الدراسة هي القيام بالفحص الموضوعي من خلال الاستعانة بالمحكمين للمادة السيرية الخاصة «بمارك توين» (خطاباته ومذكراته مثلا)، ثانيا تم استخلاص تسعة أحداث أو موضوعات شخصية رئيسية ظهرت في حياته (كالعزلة أو النبذ مثلا).

ثالثا: تم تقسيم رواياته بطريقة موضوعية من خلال المحكمين إلى مجموعة من الأحداث المستقلة. رابعاً: تم وضع درجات لهذه الأحداث في ضوء الأحداث أو الموضوعات الشخصية الرئيسية التسعة في حياة «مارك توين» على سبيل المثال فإن «سيرز» قد استنتج في ضوء علاقة «توين» بأمه أنه كان يخاف من فقدان الحب، ولذلك فإننا نجد أن للموضوع الرئيسي الخاص بقلق الانفصال Separation Anxiety يتكرر في أعماله، بل وفي حياته الخاصة في مرحلة الرشد أيضا حيث كان يعاوده هذا القلق كلما ولد طفل جديد له[٣٣].

هناك أيضا دراسات «أدموند ويلسون» E. Wilson عن «هاوسمان» و «ديكنز» و«كيلنج» والتي حاول فيها الربط بين إبداعات هؤلاء الكتاب وبين أحداث حياتهم الخاصة، فمثلا كانت حادثة وضع والد «ديكنز» في السجن نتيجة عجزه عن سداد بعض الديون المتراكمة عليه مؤدية إلى أن يعمل «تشارلز» الصغير في مصنع للأصباغ السوداء وقد كانت هذه الأحداث هي مفتاح خيال «ديكنز» الإبداعي كما يقول،

«ويلسون» وقد تعقب هذا الباحث آثار تلك الأحداث المبكرة في حياة «ديكنز» وما ارتبط بها من معاناة وشقاء وذل وامتهان على مؤلفاته بعد ذلك[٣٤].

لقد أكد «ويلسون» أنه من المهم في حالة «ديكنز» أن تفحص حالته كإنسان كي نستطيع أن نتذوقه كفنان «وأن أعمال «ديكنز» خلال دورة حياته الإبداعية كلها كانت بمثابة المحاولة لأن يتمثل الصدمات والمشقات المبكرة، وأن يقوم بتفسيرها لنفسه أولا، وأن يفهم معنى وجوده في علاقته بهذه الأعمال»[٣٥].

إن الآلية التي كان «ويلسون» يعمل من خلالها كانت تتم من خلال الحركة من حياة المبدع إلى أعماله، ثم العودة إلى تلك الحياة من أجل تفسير هذه الأعمال، وعادة ما تم إهمال جانب التشكيل الفني وعناصر النص البنائية من أجل فهم مضامينه النفسية.

على أننا ينبغي أن نتعامل مع مثل هذا الاتجاه بحذر شديد، وذلك لأن العلاقة بين حياة الكاتب وإبداعه قد تكون علاقة غير مباشرة، وأكثر تركيبا من علاقة التناظر التي تحاول تلك الدراسات أن تقيمها بينهما، فليس هنالك من نمط ثابت للعلاقة بين تفاصيل حياة المبدع وبين المظاهر المختلفة لإبداعه وإن كان هذا لايعني مطلقا عدم وجود علاقة بين هذين الإطارين، فالعلاقة موجودة دون شك، لكنها قد تكون علاقة مركبة وغير مباشرة كما سبق أن أشرنا.

ثالثا: المحللون النفسيون النقاد

في كتاب «المناحي التحليلية النفسية حول الأدب والفيلم» الذي صدر عام ١٩٨٧ وقام بتحريره «موريس تشارني» M. Charney وجوزيف J. Reppen[٣٦] استخدم عدد من الباحثين المفاهيم والأساليب التحليلية النفسية لاستكشاف بعض النصوص الأدبية وبعض الأفلام. وقد اتضح في هذا الكتاب بدرجة واضحة ذلك التوجه التحليلي النفسي القديم خاصة قيامه بمحاولات مستمرة لإعادة بناء أو تركيب خبرات الطفولة المبكرة داخل العمل الفني. لقد أصبح التخيل أو أحلام اليقظة أمراً وثيق الصلة بالخيال. وأصبح التركيز الأساسي في تحليل العمل الأدبي يتم على الموضوعات الرئيسية في العمل وعلى الصور العقلية وعلى بنية العمل ذاته. فقد أصبح النقاد التحليليون النفسيون الجدد أمثال «ريتشارد تشزك» R.Chessick «وهربرت ليفوفتز» H. Levawitz و«جلين جابارد» G. Gabbard و«أندريه جرين» A. Green وغيرهم ممن سيأتي ذكرهم فيما بعد أكثر تحررا من أسر القبضة الفرويدية وأكثر ميلا إلى الاستفادة من أفكار ومفاهيم محللين نفسيين آخرين أمثال «يونج» و«كريس» و«جاك لاكان» J. Lacan و«ميلاني كلاين» M.Klein و«فيليس جريناكر» P. Gee-nacre و«كارين هورني» «K. Horney» وغيرهم ولكن، ورغم هذا التحرر من تلك القبضة الفرويدية، فإن ظلال «فرويد» ومفاهيمه تظل تتسلل إلى هؤلاء النقاد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

وجه هؤلاء الدارسون معظم اهتماماتهم إلى مؤلفين أمثال «برجسون» و«بروست» و«ستاندال» و«ديكنز» و«شريبر» Schreber ورغم أن المؤلف الأخير ليس مؤلفا هاما في تاريخ الأدب العالمي، ورغم أنه يتم ذكره فقط من خلال دراسة «فرويد» المشهورة عنه التي ظهرت عام ١٩١١ فإن الباحثة «مرجريت جانز» M. Ganz قد نظرت إلى حالة هذا المؤلف باعتبارها تمثل نمطا أوليا أو نموذجا أوليا (إشارة إلى مفهوم يونج الشهير) لعملية الإبداع الأدبي، خاصة لدى المؤلفين المضطربين انفعاليا وعقليا. لقد اعتبرت هذه الباحثة كتاب «شريبر»

ذكريات مرضى العصبي Memories of my nervous Illness الذي ظهر عام ١٩٠٣، كتابا ينتمي إلى الأدب وإلى الأسطورة، وينتمي بجذوره إلى أعماق الصور الفنية الرومانسية التي يمكن أن تجدها لدى مؤلفين أمثال «كولريدج» و«جوتة» و«بيرون» وغيرهم. لقد كان ما قدمه «شريبر» في رأي هذه الباحثة يمثل تعبيرا مشروعا عن الجوانب النفسية الداخلية والمحرمة في شكل رمزي وأدبي.

كان «فرويد» قد رأى في هذه الشخصية مثالا واضحا لحالة تلبس القناع الشعري للشخصية المضطربة كي تعبر عن الارتدادات العميقة لخيالها اللاشعوري. أما «مرجريت جاتز» فقد اعتبرت أن ما قام به «شريبر» هو مجرد استثمار الشكل الأدبي للتعبير عن آلياته النفسية الدفاعية. إن الفن والبارانويا (كمرض نفسي) قد يستخدمان نفس المواد الرمزية لكنهما يسيران في اتجاهين متعارضين. لقد تحولت عملية الانتهاك والخطيئة لدى «شريبر» من خلال الأدب إلى عملية تضحية [٣٧].

يشتمل نشاط التأليف الأدبي على معان عديدة بالنسبة للمؤلف، وأحد هذه المعاني أن هذا النشاط يعتبر - في ضوء التحليل النفسي - بمثابة الإشباع التعويضي. إن نشاط التأليف يشتمل على الموضوعات الرئيسية التي يكون المؤلف شديد الانشغال بها. وقد اجتذب تركيز تشارلز ديكنز «على شخصيات المحتالين انتباه باحثين أمثال «جون هاريس» «وفيليس جريناكر»، وقد نظرا إلى هذا الاهتمام باعتباره شكلا من أشكال الرغبة العارمة في قتل الأب. فالابن يعتقد أن أباه قد حرمه من عطف أمه ورعايتها له ومن ثم فهو يسعى لأن يزيحه ويحل محله كي يستعيد مكانته لدى المرأة التي حرم منها (وهي صورة أخرى من صور عقدة أوديب) وقد قدم «ديكنز» سلسلة كبيرة من الشخصيات المحتالة في روايته أوراق بيكويك Pickwick papers وهي شخصيات تتسم كلها بالطفلية الشديدة والاعتماد الواضح على الآخرين. ويقال إن هذا يتفق تماما مع ما هو معروف من تفاصيل عن حياة «تشارلز ديكنز» ذاته [٣٨].

كانت رواية «مارسيل بروست» الشهيرة «تذكر الأشياء الماضية» Rememberance of things past عبارة عن شكل من أشكال العلاج الذاتي الذي حاول «بروست» من خلاله أن يبرأ من ذلك الإحساس المهيمن عليه بتفكك الذات. وقد ربط «ريتشارد تشيزك» في دراسته الخاصة حول «بروست وبرجسون» بين شخصية «بروست» وفلسفة «هنري برجسون» الحيوية، مؤكدا أهمية الواقعية الروحية والقبض على الاندفاع الحيوي للحظات التي تمر. لقد لجأ «بروست» إلى الفن بعد موت والدته كي يستعيد ذاته المفككة. وكان النشاط الخاص بكتابة الرواية خبرة أكثر واقعية لديه من ذلك العالم الاجتماعي الخارجي الذي انسحب منه. وقد كانت هذه الرواية ذاتها بمثابة المثال الذي أوضح للعالم الخارجي كيف يمكن لشخص عصابي أن يعلو ويتجاوز ذلك التفكك الموجود في حياته الشخصية. وقد افترض «تشيزك» أن البحث عن الذات الحقيقية هو دائما محاولة لرأب الصدع ومظاهر التفكك الموجودة في هذه الشخصية. لقد أعطى كل من «برجسون» و«بروست» أهمية كبيرة لعملية الإمساك بالانطباعات العابرة ولعملية إحداث الترابط بين سلاسل الأفكار والذكريات التي قد تتعلق بهذه الانطباعات [٣٩].

قام «ليفوفيتز» بمحاولة لإيجاد أواصر قوية بين التحليل النفسي والنقد الأدبي من خلال دراسته لحالة «ستاندال». وقد أشار هذا الباحث إلى أن دوافع التأليف الأدبي لدى «ستاندال» كانت دوافع معبرة عن

عمليات الإشباع التعويضي بشكل واضح. فحياة «ستاندال» يمكن إعادة تركيبها من خلال كتاباته. كما أن كتاباته تعكس بشكل واضح حاجاته ومخاوفه واهتماماته المسيطرة عليه. ومثله مثل «بروست»، عانى «ستاندال» من الحرمان من الأم، وقد أدى موت أمه، بينما كان في السابعة من عمره، إلى أن يعاني فترة طويلة من الإهمال والحرمان والتجاهل. لقد تخلص «ستاندال» من سطوة أبيه وحاول التعويض عن حالة الحرمان قبل الأوديبية من الأم من خلال الاهتمام بحالات الاتصال الجنسي غير الشرعي. وقد امتلأت أعماله بعمليات مقارنة بين النساء المتحفظات في سلوكهن الجنسي المهتمات بتربية أطفالهن وبين النساء الشهوانيات المبتعدات كثيرا عن الفضيلة، وعلى كل حال، فإن محاولة «اليفوفيتز» لإيجاد جوانب كثيرة مشتركة بين حياة «ستاندال» وأعماله محاولة تعاني من التعسف الواضح رغم وجود الكثير من الجوانب المشتركة ـ ظاهريا ـ بين أعمال «ستاندال» وتفاصيل حياته (٤٠).

وجه التحليل النفسي اهتمامه الكبير منذ بداياته المبكرة لأعمال «شكسبير» المسرحية والشعرية. وذلك بسبب براعة هذا المبدع الواضحة في تصوير الشخصيات والانفعالات والصراعات الإنسانية.

وهكذا فإننا نجد في كتاب «الشارني» «ووبين»، سالف الذكر، دراسات عن خبرات الطفولة والحرمان من مشاعر الأم الدافئة والخوف من فقدان الحب أو الانفصال عن المحبوب وتأثير ذلك كله على سلوك الشخصيات في الرشد، كما تجلى ذلك مثلا في مسرحية «الليلة الثانية عشرة» (٤١) ونجد أيضا دراسة «هاينلي» J. Hinely التي تم فيها تحليل أحلام الشخصيات في مسرحية «حلم ليلة صيف» خاصة في علاقة هذه الأحلام بالمخاوف القطرية التي تستثيرها هذه الأحلام لدى هذه الشخصيات. ومن ثم فقد تم الاهتمام بتحليل أحلام الانتقام، وأحلام الحب، والأحلام الجنسية، وغيرها من الأحلام سواء كانت هذه الأحلام تتسم بالهدوء والوضوح النسبي أو كانت تمتلئ بالصور العتيقة والأفكار الغامضة والمشاعر شديدة الاضطراب (٤٢).

كذلك استفاد «جوزيف ويستلند» J. westlund في مقالته عن بعض مسرحيات «شكسبير» الكوميدية من بعض مفاهيم «ميلاني كلاين» وذلك من أجل فهم الوظيفة التعويضية أو الترميمية reparative والمثالية والمجددة أو الشافية للكوميديا الشكسبيرية. فالكوميديا تقدم صورا متخيلة خاصة من صور تحقيق الرغبة تتعلق بالعالم الذي نحب أن نجده. فصور الحب الرومانسي مثلا تشتمل على نرجسية مفيدة. فمن خلال رؤيتنا للمحبوب في صورة مثالية نقوم بوضع أنفسنا في صورة مثالية أيضا. «وكلما زاد اكتمال وسمو الصورة التي نعطيها للمحبوب كلما زاد ما ننعم به من الدفء النرجسي الخاص بهذا الكائن غير العادي» ويؤكد «ويستلند» أن الحب كان دوما من الموضوعات المهملة في التحليل النفسي، ذلك الذي ركز على الغريزة الجنسية بعد أن نزع منها إطارها الرومانسي. كذلك يستلفت «ويستلند» انتباهنا إلى الأساليب التي تتحرك الكوميديا من خلالها إلى ما وراء الصراعات الظاهرة كي تعمق تصوير قضية العلاقة بين الذات والآخر. فالشخصيات تشعر بالذنب بسبب نزعتها التدميرية، كما أنها تكون قادرة على رأب الصدع الحقيقي أو المتخيل الذي تكون قد تسببت في حدوثه. وأخيرا فإن «ويستلند» يشير هنا أيضا إلى أن شخصية الأم ـ أو المرأة عموما ـ في مسرحيات «شكسبير» الكوميدية (وقد يكون هذا صحيحا في مسرحياته الأخرى أيضا) هي شخصية تتسم بالقوة وأحيانا بالتسلط بينما شخصية الرجل هي شخصية تتسم بالمثالية وأحيانا بالضعف والتردد (٤٣).

أما «برنارد باريس» B. paris فقد نظر إلى شخصيات «بروتس وكاسيوس» وقيصر في مسرحية «يوليوس قيصر» لشكسبير باعتبارها تمثل مثلثا تدميريا وذلك في ضوء مفاهيم «كارين هورني» وفئاتها التصنيفية للشخصية. وعلى عكس ماهو سائد في الدراسات النقدية والدراسات التحليلية النفسية من النظر إلى شخصية «بروتس» باعتبارها شخصية إيجابية. فإن «باريس» يعتبرها شخصية سلبية وشريرة مثلها في ذلك مثل شخصية «ماكبث». «فبروتس» ليس أحد المثاليين الذين تم تضليلهم كما هو شائع، لكنه شخصية تم تضليلها بما يتفق مع محاولتها المستمرة لخداع نفسها وعدم اعترافها صراحة بعطشها الهائل إلى القوة والعظمة. لقد كانت مشكلة «شكسبير» الكبيرة في هذه الشخصية هي أن يقدم شخصية تكون لديها حاجة قوية تماما لخداع نفسها بطريقة لا يستطيع المشاهدون اكتشافها. وقد تم حل هذه المشكلة بطريقة جزئية فقط، فهناك جوانب مشتركة كثيرة بين «قيصر» و«كاسيوس»، لكن «كاسيوس» قام بتدمير ذاته تدريجيا من خلال صراعاته الداخلية ومن خلال توقه الشديد إلى أن يحظى بإعجاب «بروتس»، لقد كان سعيه للحصول على تقبل «بروتس» غير المشروط له يماثل حاجة الطفل ومطالبه بالنسبة لوالديه. وقد حظي «كاسيوس» بتعاطف أكبر عندما أصبح أكثر ضعفاً وأكثر اعتمادية. ويلاحظ على هذه الدراسة أن «باريس» أهمل القضايا السياسية التي تدور حولها هذه المسرحية من خلال تركيزه على الصراع النفسي فقط(٤٤).

في دراسته الخاصة حول النكوص المستمر في شخصية «هاملت» استفاد «تشارني» من مفهوم الإحلال أو الإزاحة Displacement في التحليل النفسي، وقد نظر إلى انتقام «هاملت» باعتباره صورة متخيلة يعاد تصورها والتهويم حولها بشكل دائم، بحيث تصبح هي ذاتها نوعا من العمل الفني. إن تأجيل الانتقام في رأي هذا الباحث يماثل أنواع الإرجاء المرتبطة بالجنس. إنه نوع من اللعب الأولي دونما أية رغبة مباشرة في الاكتمال أو الإنجاز أو التحقق. ويبدو أن «هاملت» كان يتجنب إنجاز مهمته، لأن هذا الإنجاز سيضع نهاية لتخييلاته وتهويماته التي كان يستمتع بها والتي اشتملت على عمليات كثيرة من تكلف في الحركة والكلام، وعلى تمثيل مصطنع لا نهاية له. لقد حدث ما يشبه الوثبة في هذا السلوك، أو بعيدا عنه، بعد رحلة «هاملت» الحاسمة إلى إنجلترا، ولأول مرة منذ بداية المسرحية يبدو مستعداً لإنجاز مهمته، لكن إنجاز المهمة يعني نهاية التخييل والتهويم وأحلام اليقظة ومن ثم الموت والدمار. ويشترك «هاملت» مع «بروتس» ومع ماكبث كما يشير «تشارني» في أنهم جميعا استطاعوا أن يتصوروا سلفا مصيرهم المحتوم(٤٥).

في دراسة بعنوان «الجنسية والزنا بالمحارم في أعمال برتولد بريخت» قام «سامي ماكلين» S.Mclean باختزال الإنجاز الكلي «لبرتولد بريخت» في مجال المسرح إلى ثلاثة مراحل من الارتقاء في التعبير عن الجنس على النحو التالي:

١ـ المرحلة الأولى وتمتد من عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٢٤ وهنا قام «بريخت» باستكشاف السلوك الجنسي الغيري والمثلي لدى الذكور في مسرحيات مثل «بعل» Baal و«غابة من المدن».

٢ـ المرحلة الثانية وامتدت من عام ١٩٢٨ حتى عام ١٩٢٩ وهنا قام «بريخت» بوضع أسس نمط الشخصية الخاص بالأم البطلة وأيضا تلك الثنائية الخاصة بعلاقة الأم بالابن في مسرحيات مثل «الرجل هو الرجل» و«صعود وهبوط مدينة ماهوجني».

٣ـ المرحلة الثالثة وتمتد من عام ١٩٢٩ وحتى عام ١٩٤٥، وهنا قام «بريخت» بالتسامي بمشاعر الجنسية المثلية (أو السحاق) لدى الإناث من خلال تحويل هذه المشاعر إلى نوع من المثالية الثورية المتميزة المتوجهة نحو الخير والحق والعدالة.

ورغم هذه الفئات التصنيفية فإن صورة الأم في أعمال «بريخت» تظل كما يقول «ماكلين» صورة غامضة، فهي تتسم بالقوة والعطف، كما تتسم بالشر والتدمير أيضا، وأبرز مثال على ذلك هو شخصية الأم في مسرحية «الأم شجاعة» (٤٦).

في دراسة «الجيري فلايجر» J. Flieger بعنوان «بودلير وفرويد: الشاعر كمزّاح» قام هذا الباحث بالربط بين أفكار «فرويد» وتصورات الشاعر الفرنسي الشهير «بودلير» حول الكوميديا. وقد كان «بودلير» قد كتب أفكاره الثيولوجية (اللاهوتية) والشيطانية Satantic (أو التي فيها تأكيد فطري على غريزة الشر) قبل أن يكتب «فرويد» مشروعه الخاص في التحليل النفسي. وقد كشف «فلايجر» في دراسته هذه عن عدة جوانب مشتركة بين المعاني اللاهوتية والمعاني التحليلية النفسية للمزح أو النكات، وأن «بودلير وفرويد» يتفقان على أهمية الدور الكبير الذي يلعبه اللاشعور في سلوك الشخص الضاحك أو المحب للنكات، كما أنهما اتفقا في أن المزاح وحكي النكات غالبا ما يشتملان على انتهاك ما للمعايير الاجتماعية. فالنكتة هي تعبير عن أشواق ورغبات غير مشبعة. وقد ميز «فرويد» بين النكات الموجهة نحو هدف، وبين النكات البريئة أو المنزهة عن الغرض، واعتبر «فلايجر» أن هناك مفارقة ما في هذا الشأن. وذلك لأن النكات الموجهة نحو هدف في رأي «فرويد» تكمن وراءها بعض مشاعر الذنب تكون موجودة في نفس ملقيها، بينما تكون بريئة المقصد، أي أنه لا يقصد من ورائها إحداث أثر معين يتسم بالشر، أي أنها تكون ملتبسة المقصد بريئة الأثر، لكن النكات البريئة كما يعلق «فلايجر» غالبا ما لا تكون بريئة، كما أن النكات الموجهة نحو هدف غالبا ما لا تحقق الهدف الذي وجهت من أجله. كذلك فإن هناك بعض الجوانب الشعرية والجمالية العبثية أو التي لا هدف من ورائها في النكات، مما يجعلها أحيانا تعبيرا مقصودا في ذاته أكثر من كونها تعبيرا يتوجه نحو هدف معين، إنها هنا تبدو على أنها شكل من أشكال اللعب اللفظي والعقلي، ومن ثم تبدو قريبة من النشاط التلقائي الذي أكد فلاسفة وباحثون ومبدعون عديدون أهميته في الإبداع.

ويقول «فلايجر» إن الضحك هو علامة على النفس المتعشة التي أوصد في وجهها باب الكمال أو كلية عملية الإدراك، إنه يرمز إلى حالة سقوط الإنسان وإلى غريزة الحياة (الليبدو) المتأججة لديه بشكل لا يهدأ ولايخف ضرامه (٤٧).

كان «يونج» تأثيره الواضح كما أشرنا على الناقد والمؤرخ البريطاني «هربرت ريد» وعلى فيلسوفة علم الجمال الأمريكية «سوزان لانجر» وعلى الناقد الأدبي الشهير «نورثروب فراي» صاحب الاتجاه الأسطوري في النقد الأدبي، كما كان له تأثيره الواضح على الباحثة الإنجليزية «مود بودكين M. Bodken» في كتابها الشهير «الأنماط الأولية في الشعر» الذي ظهر عام ١٩٣٤ والذي حاولت فيه اكتشاف بعض الإحساسات والمعاني البدائية والقديمة والمتكررة في الصور والرموز والمواقف الشعرية.

نقد وتعقيب

ظهر عمل «فرويد» الأول المتصل بالأدب عام ١٩٠٨، ومنذ إشارته الأولى للأدب عام ١٩٠٠ والتي كانت تتعلق بمسرحية أوديب «السوفوكل»، ورغم التعديلات التي طرأت على التحليل النفسي بشكل عام (كما في حالة إعطاء أهمية أكبر للعقل الشعوري أو للأنا في مقابل الهو اللاشعوري لدى بعض الدارسين) فإن الجوهر ظل كما هو.

وتعتبر دراسة «جونز» حول «هاملت» نموذجا كلاسيكيا للعلاقة بين التحليل النفسي والأدب وقد حاج «جونز» في دراسته هذه قائلا إن حالة التردد التي أصابت «هاملت» كانت ترجع في المقام الأول إلى أن أفكار القتل والزنا بالمحارم، التي تتعلق بوالديه، والتي سبق له كبتها، قد انبعثت أو أثيرت من جديد. وقد أعيد إيقاظ هذه الرغبات الطفلية نتيجة موت والده وزواج أمه مرة أخرى. وهكذا فإن جوهر هذه المسرحية في رأى «جونز» يكمن في الصراع الأوديبي. وأرجع «جونز» الإعجاب الكبير الذي حظيت به هذه المسرحية عبر الزمان والمكان إلى قدرتها على تحقيق قدر من التنفيس (التطهير) يتسم بالأمان ويتعلق بالقوى الأدبية اللاشعورية التي يشترك فيها القراء والمشاهدون، فالمسرحية كالحلم، طريق آمن للتعبير عن تخيلات الطفولة دون إثارة صراعات أو آليات دفاعية معارضة لتذكر هذه التخيلات. وقد أشار «جونز» أيضا إلى أن جذور مسرحية «هاملت» تكمن في حياة «شكسبير» نفسه، في موت أبيه (ثم بعد ذلك موت راعيه) ثم فقدان عشيقته [٤٨].

وهكذا بالنسبة للتحليل النفسي فإن استجابة المتلقين للأدب ولغيره من الفنون هي نتيجة للتنشيط الخاص بأحداث الطفولة اللاشعورية، وبالنسبة للمبدعين فإن النواتج الإبداعية تكون هي المحصلة لهذا التنشيط.

وبشكل عام يمكننا أن نلاحظ أن التحليل النفسي، باتجاهاته وتياراته ومراحله المختلفة، يقرر أن منبع الإبداع هو اللاشعور، تلك المادة التي تُصنع منها أحلام ليلنا وأحلام يقظتنا وما بينهما، والشعراء ـ والمبدعون عموما ـ يغوصون فيها، ويخرجون منها برموز يشعرون فيها باللذة الجمالية، دونما إدراك لمعناها الحقيقي [٤٩].

ويمكننا أن نلاحظ أيضا أن مراحل التحليل النفسي للأدب، المختلفة، (القديمة والوسيطة والحديثة) والتي تحدثنا عنها لم تختلف كثيرا في منطلقاتها الأساسية وإن اختلفت أحيانا في نقاط التركيز: فالتحليل النفسي التقليدي، لدى «فرويد» و«يونج» مثلا، لم يهتم بالمادة الأدبية، أو بالأديب في حد ذاتها، ولكن من أجل إكمال الصورة الخاصة في أذهانها عن الشخصية الإنسانية، فالحقيقة العامة «أنه لا «فرويد» ولا «يونج»، قد بدأ بدراسة النشاط الفني، وحقيقة الأمر أنها حاولا تعرف طبيعته من خلال مذهبيهما ليسدا بذلك ثغرة من شأنها أن تشوه البناء، وهما في ذلك يشبهان «كنت» و«هيجل» اللذين تكلما في الاستطيقا ليكملا مذهبيهما الفلسفيين [٥٠]. وبذلك كان اهتمامها بالأدب اهتماما عابرا أو غير مقصود لذاته.

ويمكننا قول الشيء ذاته عن الاتجاه الثاني أو المرحلة الثانية من مراحل التحليل النفسي للأدب، وكما تمثلت مثلا في دراسات «ماكوردي» و«مارتنديل» و«شيرز». فهذه الدراسات رغم اتباعها التحى الموضوعي، إلى حد ما، ظلت أسيرة المفاهيم التحليلية النفسية، وهي مفاهيم تفتقر كثيرا إلى ما يسمى في العلم بالتعريفات الإجرائية Operational Definations أي تعريف المفاهيم من خلال العمليات والإجراءات المستخدمة في ملاحظة وقياس هذه المفاهيم، وهي عملية تؤدي إلى توفر صفة الدقة والتحديد في المفاهيم

والإجراءات، ومن ثم إمكانية الاتفاق بين الباحثين المختلفين، أي أنها تؤدي بالضرورة إلى ما يسمى بقابلية الدراسة لإعادة الإنتاج Replicability وهو شرط أساسي من شروط الضبط العلمي.

فمثلا ليس هناك تعريف إجرائي لمفهوم «النكوص في خدمة الأنا» Regression in the service of the Ego كما قدمته «كريس» وكما استخدمه «مارتنديل» في دراسته، كما أنه ليس هناك من تعريف إجرائي محدد لمفهوم «قلق الانفصال» أو «الخوف من فقدان الحب كما استخدمها «سيرز».

تنطبق هذه الانتقادات أيضا على المرحلة الثالثة من مراحل التحليل النفسي للأدب، وهي المرحلة التي اهتم فيها أصحابها بشكل خاص بالتركيز على الأعمال الأدبية والعكوف عليها، والرجوع منها أحيانا إلى شخصية المبدع، مع التركيز على البعد الخيالي في العمل الأدبي والاهتمام، بدرجة أقل، بخبرات الطفولة. لكن المفاهيم ظلت هي هي، على ما فيها من غموض وتناقض وافتقار للتحديد أو التعريف الإجرائي، ومن ثم ظلت مفاهيم النكوص، وعقدة أوديب والرغبة في قتل الأب والإشباع التعويضي، والزنا بالمحارم، والنبذ والمضمون الكامن والمضمون الصريح للحلم، هي المهيمنة على هذه الدراسات، وإن كان قد تم تطعيم هذه الدراسات بمفاهيم أخرى من محللين آخرين أمثال «كرين» و«كلاين» و«هورني» كما سبق وأن ذكرنا.

وقد عارض بعض الباحثين أمثال «كارميكل» Carmichael تلك التبسيطات الزائدة للأمور الموجودة في التحليل النفسي، والتي تنتقص من قدر الجهد الأدبي، بتفسيره باعتباره شيئا آخر غير ماهو عليه، فتقييم العمل الأدبي باعتباره تخيلا أو أحلام يقظة فقط، أو باعتباره شيئا غير واقعي، أو عقلانية متنكرة، معناه إنكار الإمكانية الخاصة بالأدب والتي تمكنه من التفسير الصادق للعالم، ومن الإدراك الواقعي لهذا العالم. أما «روزنبرج» فنظر إلى التحليل النفسي باعتباره محدودا، ومتكلفا، وجامدا، بسبب إهماله النظر في الخصائص الأدبية للعمل الأدبي. «فالتأكيد الخاص على الصراع الأوديبي فقط هو فعلا مجرد «الكليشيه» نفسي أدبي، فالصراع غالبا ما يتم اختياره الطريق. والهدف الكلي، المفسر لكل شيء في العمل الأدبي، كما يتم إغراء القارىء والناقد بالذهاب بعيدا عن تلك التفاصيل المرهفة الخاصة والخصبة، وبعيدا عن العمليات المعرفية الخاصة داخل العمل الأدبي» (٥١). وقال باحثون آخرون إن هناك أشياء أخرى في الحياة غير الصراعات الطفولية، وأشياء أخرى في العمل الأدبي أكثر أهمية من صراعات المؤلف وفحص أحشاء العمل الأدبي. (٥٢)

رغم كل ما قلناه سالفا، فإن الأمر الجدير بالذكر أن التحليل النفسي غالبا ما يختلط في أذهان العديد من القراء، بل وبعض نقاد الأدب بعلم النفس فيصبحان شيئا واحدا، رغم الفروق الكبيرة بينهما، فعندما يذكر علم النفس، فإنهم يتحدثون عن التحليل النفسي وعن (فرويد» و«أدلر» و«يونج» رغم تلك الخاصية الأساسية المميزة لعلم النفس الحديث باعتباره علما يدرس السلوك الإنساني الخارجي والداخلي، ومن بينه السلوك الأدبي والفني، من خلال أساليب دقيقة ومضبوطة وكمية.

المنحى الموضوعي في الدراسة النفسية للأدب

تستخدم كلمة «موضوعي» هنا كي تشير إلى كل ماهو واقعي، أي كل ما يكون قابلا للملاحظة والقياس والتحديد، قابلا للتحقق منه وقابلا لإعادة إنتاجه، ومستقلا ـ قدر الإمكان ـ عن الخبرات الداخلية أو الذاتية للباحث، متحررا من التحيز الذي قد ينجم عن الجوانب الانفعالية أو الأيديولوجية للدارس.

وتستخدم هذه الكلمة أيضا بشكل متطابق إلى حد كبير مع كلمة «إمبيريقي» التي تعني التعامل المحدد مع حقائق الواقع من خلال إجراءات واضحة محددة، ودون الالتصاق الأعمى بنظرية محددة، وهي إجراءات تتعلق بملاحظة الواقع ووضع الفروض وجمع البيانات وتحليلها بأدق طرائق متاحة أو ممكنة [٥٣].

يمكن أن يتم التعامل الإمبيريقي مع الأدب من خلال مداخل عدة منها:

١- محتوى النصوص الأدبية: أي ما تشتمل عليه من دوافع لدى الشخصيات في الرواية، والانفعالات والصور في الشعر، والقيم في القصة القصيرة وما شابه ذلك من الموضوعات.

٢- شخصيات المؤلفين: كالاهتمام مثلا بمصادر الإبداع لديهم، وتأثيرات مرحلة الطفولة، مثلا، على إبداعاتهم، وأيضا الفروق بين كاتب الرواية، وكاتب المسرح، والشاعر... إلخ.

٣- تفضيلات القراء: كالفروق بين صغار السن والراشدين، أو بين الذكور والإناث، في تفضيلاتهم لأعمال أدبية معينة أكثر من غيرها.

٤- دور السياق الاجتماعي الذي يبدع فيه المبدعون إبداعاتهم أو الذي يقوم فيه القراء بالاختيار والتفضيل الأدبي: وأيضا كيف يمكن أن تتغير الأساليب الأدبية عبر الزمن وبين الثقافات المختلفة.

٥- عملية الإبداع: بما تشتمل عليه من نشاطات وعلاقات وعوامل نفسية وأسلوبية واجتماعية.

والجزء المتبقي من هذه الدراسة مكرس للتعامل مع بعض هذه الموضوعات وقد ظهر أن معظم هذه الموضوعات قابلة للتعامل الإمبيريقي معها. ورغم الفائدة الواضحة التي يمكن أن نجنيها من الربط بين الأدب وعلم النفس من خلال المنحى الإمبيريقي، فإن هذا المنحى في حالات كثيرة منحى غير معروف بدرجة كبيرة، أو غير مرحب به، أو تمت إساءة فهمه، وغالبا ما سادت الدراسات النفسية للأدب الأساليب الذاتية والحدسية، أكثر من الأساليب الإمبيريقية الموضوعية، كما هيمنت على هذا المجال التأملات أكثر من الحقائق، والمفاهيم التاريخية والنقدية والفلسفية أكثر من المفاهيم العلمية. وقد كان يتم تمثيل علم النفس في مجال الدراسات النفسية للأدب من خلال التحليل النفسي، وعن طريق دراسات الحالات الفردية التي تشتق توجهاتها من «علم نفس العمق» وثيق الصلة بالتحليل النفسي والذي يقف غالبا في عزلة واضحة عن المنحى الموضوعي، بل قد يكشف أصحابه عن عداء واضح لكل ما هو موضوعي أو كمي أو قياسي أو منهجي [٥٤].

المنحى الموضوعي في دراسة الأدب هو إذن ذلك المنحى الذي يعتمد على إجراءات واضحة ومحددة، كما أنه يقدم بيانات عيانية وقابلة للتحديد، فهذا المنحى يتعامل مع الحقائق ويتبنى الوسائل المناسبة للوصول إليها.

غالبا ما ظهرت في مواجهة العلماء الذين يتبنون هذه الوجهة من النظر اعتراضات كثيرة بعضها ضمني عابر، وبعضها واضح وصريح وساخر ومنكر لمدى إمكانية استخدام مثل هذا المنحى في دراسة الأدب، الذي هو، في رأيهم مادة شديدة الرهافة، خاصة عندما تتعلق هذه المادة بانفعالات مثل الحب والكراهية، وبقيم مثل الحرية والعدالة. فكيف يمكن ملاحظة هذه الانفعالات والقيم؟ وكيف يمكن جعلها قابلة للملاحظة، ومن ثم كيف يمكن دراستها موضوعيا؟

يمكن بالطبع حل هذه المعضلة من خلال وسائل عديدة:

١ ـ كثيرا ما نجد كتابات مدونة أو أحاديث لفظية مسجلة للمؤلفين والقراء حول خبراتهم العقلية أو الانفعالية الخاصة خلال إنتاجهم أو تلقيهم للأدب وتفاعلهم معه. ومثل هذه الكتابات والأحاديث يمكن ملاحظتها أو تسجيلها ثم تحليلها بالوسائل المناسبة.

فمثلا قام «سويف» في دراسته عن الإبداع في الشعر بتحليل كتابات عدد كبير من الشعراء والفنانين والنقاد والفلاسفة حول الإبداع الفني عامة والإبداع الشعري خاصة [٥٥] وقام «حنورة» في دراسته بتحليل مواد كثيرة من بينها كتاب كامل كتبه «توماس مان» عن تأليفه لرواية «الدكتور/ فاوستوس» [٥٦] وقام كاتب هذه الدراسة بشيء مماثل في دراسته عن القصة القصيرة [٥٧].

٢ ـ كذلك يمكن جعل المعنى النفسي للعمل الأدبي، وهو المعنى الذي يكون أكثر خفاء من مجرد الاستجابة الصريحة بالتفضيل أو عدم التفضيل للعمل الأدبي، يمكن جعل هذا المعنى قابلا للتناول الموضوعي من خلال الاهتمام بدراسة أحكام القراء حوله، أي تلك المعاني المختلفة، أو المشتركة التي يقدمونها لنا بعد تعرضهم المناسب لهذه الأعمال، بل إن ظواهر الصور العقلية والاتجاهات وسمات الشخصيات يمكن دراستها أيضا من خلال هذا الأسلوب غير المباشر، إننا هنا ندرس المبدع من خلال المتلقي أو القارىء، مثلما ندرس المنتج من خلال المستهلك، وبناء على استجابات هذا المستهلك نعرف تلك الاتجاهات والأهداف والصور المختلفة التي أراد المنتج أن يصورها، أو يعبر عنها، أو يقدمها لنا. ومن أمثلة ذلك دراسة «سويف» وزملائه عن صورة المرأة كما تقدمها وسائل الإعلام [٥٨].

٣ ـ من خلال التعريفات الإجرائية للمفاهيم المستخدمة في الدراسة أي من خلال التحديد الواضح للإجراءات المستخدمة في ملاحظة وقياس الظواهر موضع الاهتمام، يمكن الربط بين الجوانب غير القابلة للملاحظة وبين الجوانب القابلة للملاحظة. فمثلا عرف الذكاء بأنه ما تقيسه اختبارات الذكاء، وعرف أيضا أنه القدرة على حل المشكلات والقدرة على التفكير المجرد. وهذه كلها جوانب يمكن ملاحظتها أو قياسها. والاستدلال من هذه الملاحظة وهذا القياس على وجود مستويات مختلفة متزايدة أو متناقصة من الذكاء. كذلك الحال مثلا بالنسبة للصور العقلية في الأدب يمكن ملاحظتها وإحصاؤها في بعض الأعمال الأدبية ومن ثم الاستدلال منها على أنماط الصور العقلية (بصرية ـ سمعية ـ لمسية . . . إلخ) التي يفضلها بعض الكتاب بدرجات متفاوتة في أعمالهم. ومن أمثلة ذلك دراسة «الناور» عن الصور العقلية في بعض أعمال الكاتب الأمريكي هرمان ملفيل» [٥٩].

قال «الناور» في تقديمه لدراسته هذه إن شهرة «هرمان ملفيل» ـ الكاتب الأمريكي الشهير ـ ككاتب تستند على استخدامه للعديد من الصور الوصفية والحية، وقد تمت هذه الدراسة باستخدام أسلوب تحليل المضمون على اثنين من أعماله الروائية هما «موبي ديك» و«بيير»، وقد كتبا في فترتين مختلفتين من حياة «ملفيل»، فقد كانت حياته المبكرة مليئة بالمغامرات والخبرات الحية في البحار والمحيطات وفي تلك الفترة كتب «موبي ديك»، أما فيما بعد وفي فترة متأخرة من حياته فقد أصبح «ملفيل» أكثر تأملا وأكثر اعتمادا على استبطانه للذاته في كتاباته، وخلال ذلك كتب روايته «بيير»، وهي الرواية الوحيدة لديه التي لا تستند على البحر كأرضية

أو خلفية لها. تم اختيار صفحة من كل عشرين صفحة من رواية «موبي ديك» وصفحة من كل خمس عشرة صفحة من «بيير» (والاختلاف في العينة المختارة يرجع إلى اختلاف الحجم الكلي لكل رواية على حدة) وتم تحويل الجمل الموجودة في هذه الصفحات إلى رموز تشير إلى الإحالات الحسية (البصرية ـ السمعية ـ اللمسية . . . إلخ) المختلفة الموجودة في الروايتين، وتم وضع علامات على الجمل التي تشير على أكثر من غيرها في هذه الصفحات، إلى الإحساسات المختلفة الخاصة بالتذوق، والإبصار، والرائحة، واللمس، والصوت. وتم تصنيف هذه الجمل وإحصاؤها من خلال اثنين من المحكمين، وعندما كان يتم ذكر أكثر من صورة حسية في الجملة الواحدة، كان يوجه الاهتمام الأكبر إلى خصائص الصور التي ترد وتتكرر أكثر من غيرها في نفس الجملة. وتم من خلال ذلك حل بعض الخلافات بين المحكمين فيما عدا حوالي ٤٪ من الجمل موضوع الدراسة، حيث لم يتحقق اتفاق مناسب بينهما حول كيفية تصنيف هذه الجمل، ومن ثم استبعدت هذه الجمل من التحليلات. ومن أمثلة الجمل التي خضعت للتحليل «القرية . . لم يكن لها طعم مقبول» أو «الحيتان ذات الرائحة الكريهة» من رواية «موبي ديك» وكذلك «لم يحو الخطاب أية إجابة دافئة» و«اكاد لمه الحار يحيط بي» من رواية «بيير».

وقد وجد «التداوز» أن هناك ٣٧٦ إشارة حسية من هذا النوع في عينة الدراسة التي قام بدراستها والمأخوذة من الروايتين منها ١٩٢ إشارة في رواية «موبي ديك»، و١٨٤ إشارة في رواية «بيير» ويعرض الجدول رقم (١) العدد والنمط الخاص بكل إشارة حسية في الروايتين، ويشير هذا الجدول كذلك إلى عدد هذه الإشارات في كل قسم من أقسام كل رواية على حدة، وقد كان هذا التقسيم الأخير بمثابة المراجعة لمدى ثبات المحكمين في تصنيف المادة، حيث إن تحديد قيم الصورة الحسية في نصفي كل عمل يجب أن يكون متماثلا لدى المحكمين، إذا كانت طريقة إعطاء الدرجات متسقة، واستخدمت هذه الدرجة أيضا لقياس مدى تماثل أو تشابه أسلوب المؤلف (أو استخدامه للكلمات) في الأجزاء الأولى والأخيرة من العمل، ولم تكشف الدراسة عن وجود فرق دال بطريقة جوهرية بين استخدام «ملفيل» للإشارات والصور الحسية في نصف كل عمل على حدة، أما الاختلاف الواضح بين الروايتين فظهر بشكل خاص في طبيعة أو نمط الإشارات والصور الحسية المستخدمة، فقد كانت الإشارات والصور البصرية في «موبي ديك» أكثر من مثيلتها في «بيير»، بينما كانت الصور اللمسية والعضلية في «بيير»، أكثر من مثيلتها في «موبي ديك»، وفي كل رواية كان الاختلاف أو البروز واضحا بالنسبة للصور والإشارات اللمسية والبصرية عن غيرها من الإشارات والصور الحسية والعقلية الأخرى.

كانت رواية «موبي ديك» بإشاراتها العديدة إلى البحر وألوانه أكثر بصرية من رواية «بيير»ومن ثم اشتملت على صور بصرية أكثر، وعلى العكس من ذلك كانت رواية «بيير» أكثر تأملية واستبطانية، فقد كان «ملفيل» يشير فيها كثيرا إلى حاسة اللمس أو ما يسمى أحيانا بحاسة القرب، أو حاسة الأشياء القريبة، على عكس الإبصار الذي يمكن تسميته حاسة الأشياء البعيدة. وقد وجد هذا المؤلف صعوبة في تفسير التشابه بين الروايتين في الإشارات والصور السمعية والشمسية والتذوقية رغم أنها أيضا حواس خاصة بالأشياء القريبة. ثم يختم دراسته بأن يشير إلى أهمية دراسة أعمال أخرى «لملفيل» من فترات مختلفة لفحص عمليات التغير في استخدام الكاتب لإشارات حسية معينة، ومن ثم صور حسية وعقلية معينة، في فترات مختلفة من حياته،

ويشير هذا الباحث أيضا إلى أهمية دراسة الإشارات والصور الحسية المختلفة لدى أدباء عديدين من نفس الفئة، أو من أصحاب نفس المدرسة، أو الأسلوب، ومن أصحاب مدارس وأساليب أخرى، لمعرفة التشابهات والاختلافات بين هؤلاء الكتاب وهذه المدارس والأساليب.

ويؤكد في النهاية أهمية أسلوب تحليل المضمون في القيام بمثل هذه الإجراءات مشيرا إلى أنه حتى مجرد إحصاء الكلمات الحسية في النص الأدبي يمكن أن يتسم بالثبات المرتفع وبالأهمية الكبيرة، لكن مع ضرورة وضع الأبعاد والمكونات الأخرى للعمل الأدبي في الاعتبار أيضا.

جدول رقم (١)

ويوضح الإحالات الحسية في روايتين لهرمان ملفيل

الرواية / الإحالة الحسية	الشمية	اللمسية	الذوقية	البصرية	السمعية	الدرجة الكلية
موبي ديك						
النصف الأول	٣	٣٣	ـ	٤٩	١٧	٩٢
النصف الثاني	٦	٢١	٣	٥٦	١٤	١٠٠
العدد الكلي	٦	٤٥	٣	١٠٤	٣١	١٩٢
(٪)	٪٥	٪٣٣	٪١	٪٣٤	٪١٦	
بيير						
النصف الأول	٢	٤٣	٢	٥٥	١٤	٩٥
النصف الثاني	١	٣٨	ـ	٣٥	١٨	٨٩
العدد الكلي	٣	٨١	٢	٦٨	٣٢	١٨٤
(٪)	٪١	٪٤٤	٪١	٪٣٧	٪١٧	

إن ما يطمح إليه هذا المنحى هو ربط الظواهر أو العمليات الضمنية الداخلية (أو الوسيطة) في الأدب، أو لدى الأديب، بعمليات قابلة للقياس والملاحظة، أي بمنبهات معينة، وأيضا بأشكال عيانية محسوسة من النتاتج أو الاستجابة.

٤- هناك استراتيجية رابعة تستخدم تشكيلة كبيرة من أساليب وأدوات القياس والتحليل فالاستبيانات والاختبارات، وتحليل المضمون والتحليل العاملي، وغير ذلك من الأساليب لدراسة عملية الإبداع كما حدث في دراسة كاتب هذا المقال للعوامل المساهمة في عملية الإبداع في القصة القصيرة مثلا أو في دراسة استجابات القراء[٦٠] أو غير ذلك من أبعاد الأدب والنشاط الأدبي.

أساليب للدراسة الموضوعية للأدب

هناك على كل حال أساليب علمية مناسبة يمكن الاعتماد عليها في دراستنا النفسية للأدب بطريقة موضوعية، نكتفي بذكر أسلوبين منها فقط على سبيل المثال والتوضيح

أولا: تحليل المضمون

الأسلوب الأكثر ذيوعا في تحويل المضمون الأدبي إلى بيانات قابلة للملاحظة والقياس هو الأسلوب المسمى تحليل المضمون Content Analysis ويعرف «بيرلسون» B. Berelson هذا الأسلوب بأنه: أسلوب من أساليب البحث يستخدم من أجل الوصف الموضوعي المنظم والكمي للمضمون الاتصالي الصريح [٦١].

ويشتمل هذا الأسلوب على خطوات عديدة منها:

١ ـ أن يقوم الباحث بتحديد الهدف الذي سيقوم بإجراءات تحليل المضمون من أجله ومن ذلك مثلا: كيف تعبر القصص الأدبية المنشورة في المجلات النسائية في فترة معينة عن صورة المرأة؟.

٢ ـ تحديد أو تطوير بعض الفئات Categories التي سيقوم بتحليل مضمون الأعمال الأدبية وفقا لها وتتنوع هذه الفئات أو الوحدات Units فتتناهى في البساطة فتكون هي الكلمة المفردة، أو قد توغل في التركيب، فتصير الموضوع الرئيسي في العمل الأدبي، وبين البساطة والتركيب، تجد العديد من الفئات التي قد يستخدم محلل المضمون واحدة منها أو أكثر في عمله، فقد يستخدم البند Item (المقالة، القصة، الكتاب، القصيدة... إلخ) أو الشخصية، أو الزمان، أو المكان، أو المساحة أو القيم، أو السلطة، أو الأسلوب، أو السمات، أو الهدف، أو المصدر، أو غير ذلك من الفئات. وتعتمد طبيعة الفئات بدرجة واضحة على الهدف من الدراسة، وعلى نوع المادة المستخدمة في التحليل.

٣ ـ تدريب مجموعة من المحكمين على استخلاص هذه الفئات وتصنيفها من خلال إجراءات محددة، مما يسهل عمليات التواصل بين العلماء، ويجعل عمليات فهم المستقبلين لنتائج الدراسة أكثر سهولة، كما يجعل إمكانية قيام باحثين آخرين بتطبيق نفس الإجراءات والوصول إلى نفس النتائج ـ وهو ما يسمى بالقابلية لإعادة الإنتاج، وهو من الشروط الهامة في العلم ـ أمرا ممكنا.

٤ ـ اختيار المواد التي سيتم تحليلها وهو ما يسمى عادة بعينة البحث، وقد تكون هذه العينة عملا واحدا، وقد تكون نوعا أدبيا واحدا، وقد تكون عدة أنواع أدبية تجري المقارنة بينها، وقد تكون أعمالا لمؤلف واحد في فترات مختلفة من حياته، كأن أقارن بين الأعمال الأولى والأعمال الأخيرة لمؤلف معين، أو كأن أقارن بين أعمال بعض الكتاب قبل المرض وبعد المرض مثلا، سواء كان هذا المرض جسميا (كما في حالة «بدر شاكر السياب» أو «أمل دنقل» مثلا) أو متعلقا بالجهاز العصبي لكنه ليس مرضا عقليا (كما في حالة الروائي المصري الراحل عبدالحكيم قاسم مثلا) أو اضطرابا عقليا (كما في حالات نيتشه «وهولدرلين وفان جوخ» مثلا). وقد يتم اختيار عينة الدراسة بالطريقة العشوائية Random وهي طريقة علمية مضبوطة وموضوعية ودقيقة، على عكس ما قد توحي بذلك الترجمة العربية للمصطلح، وقد تستخدم أية طريقة أخرى مناسبة في اختيار عينة البحث.

٥- يقوم المحكمون بفحص المواد الأدبية المختارة في ضوء الفئات المحددة سلفا ثم يسجلون أحكامهم أو تقديراتهم المناسبة لها.

٦- توضع المادة التي استخلصها المحكمون في جداول وقد تتم معالجتها إحصائياً من خلال أساليب مناسبة (التحليل العاملي مثلا)، أو قد يُكتفى بالتحليل الكيفي لنتائج التحليل، أو قد يجمع بين التحليل الكمي والتحليل الكيفي، وهو ما يعتبر، في رأينا، الطريقة المناسبة في تفسير النتائج التي يقدمها لنا تحليل المضمون.

بالطبع هناك إجراءات منهجية أخرى ينبغي وضعها في الاعتبار مثل محاولة تحقيق أكبر قدر من ثبات التحليل (أي إمكانية الوصول إلى نفس النتائج في أي وقت أقوم به بإعادة التحليل، أي إمكانية الاعتماد على النتائج، ودقتها، واتساقها، واستقرارها، وإمكانية التنبؤ منها)، وصدقه (أي أن يقيس التحليل ما وضع لقياسه) وغير ذلك من الشروط السيكومترية (أي الخاصة بالقياس النفسي) والتي نكتفي هنا بالإشارة إليها، ويمكن للقارىء الراغب في المزيد من المعرفة الرجوع إلى أي كتاب مناسب في مجال القياس النفسي.

إن ما يجعل تحليل المضمون أداة قوية بشكل خاص، هو قابليته، من خلال إجراءات معينة، للتناول من خلال أجهزة الحاسوب، فالعديد من مجموعات برامج الحاسوب الجاهزة قد صممت من أجل تحليل محتوى الوسائل المختلفة. ويمكننا أن نجد تطبيقا رائعا لتحليل المضمون المبرمج آليا ـ كما يشير «سيمونتون» ـ في كتاب «كولن مارتنديل» C. Martindale المعنون «العاقب الرومانتي، علم نفس التاريخ الأدبي الذي ظهر عام ١٩٧٥. وقد اختبر «مارتنديل» فيه بعض التصورات النظرية الخاصة بالإبداع الشعري، من خلال تحليله لمحتوى قصائد خاصة بواحد وعشرين شاعرا إنجليزيا، وواحد وعشرين شاعرا فرنسيا، وحاول أن يكتشف الصلات بين بعض المتغيرات: مثل عمليات التفكير، والضغط المتواصل على الشعراء لأن يكونوا أصلاء دائما، وبين التغيرات في المضمون الشعري، وارتباط ذلك ببعض الظروف الاجتماعية عبر التاريخ [٦٢].

كذلك فإن أسلوب تحليل مسودات العمل الأدبي يتدرج بشكل أو بآخر ضمن أسلوب تحليل المضمون، وقد قام «سويف» في دراسته للشعر بتحليل مسودات بعض الشعراء، وقام «حنورة» في دراستيه عن الرواية والمسرحية بتحليل بعض النصوص الأدبية المناسبة، وقام كاتب هذه الدراسة خلال دراسته لعملية الإبداع في القصة القصيرة بتحليل مسودة قصة قصيرة للكاتب «عبدالحكيم قاسم».

في محاولة منهم لتحريك المياه الراكدة نسبيا في حقل الدراسة النفسية الموضوعية للأدب، قام «التداور» وتلاميذه، ومن خلال تحليل المضمون، بعدة دراسات تناولت موضوعات عديدة مثل: الخصائص الفراسية للعنوان في القصة القصيرة [٦٣] ومثل قياس الاستجابات العقلية والانفعالية لمشاهدي المسرح والأوبرا بعد مشاهدتهم لأعمال مسرحية وأوبرالية مختلفة، ومثل ارتباط الشعر بالقدرة القرائية والثقافية والخيالية للقارىء، ومثل اختلاف الشعراء عن غير الشعراء في علاقتهم بالكلمات ذات المعنى وغير ذات المعنى [٦٤] ومثل الاهتمام بذلك القارىء الخاص الذي أطلق عليه «التداور» اسم الشخص الجمالي Aesthetic person والذي هو أعلى مرتبة من القارىء العادي وأقل مرتبة من المبدع، وهو الذي يمكن أن يصبح ناقدا أو مؤرخاً للأدب بعد ذلك [٦٥].

ونعرض الآن ببعض التفصيل لدراستين قام بهما «التداور» وتلاميذه. وقد حاولت الدراسة الأولى منهما الإجابة على السؤال التالي: هل يتغير أسلوب الكاتب في بداية حياته الأدبية وعبر مراحل هذه الحياة المختلفة، أي هل يكون الكاتب أكثر ميلا إلى استخدام الأساليب المركبة والصور الغامضة في بداية حياته أم العكس؟ هل يتحرك الكاتب عبر حياته من البساطة إلى التركيب أم من التركيب إلى البساطة؟ وما الفرق بين البساطة الأولى (مرحلة البدء في الكتابة) والبساطة الثانية (أعمال نهاية العمر)؟ وكذلك ما الحال بالنسبة للتركيب؟ في هذه الدراسة تمت المقارنة بين قصتين قصيرتين للكاتب الروسي «أنطون تشيكوف» كانت القصة الأولى هي «زهور متأخرة التفتح» Late Blooming Flowers وكانت القصة الثانية هي «المخطوبة» The Fiancée وقد درست هاتان القصتان من خلال أسلوب تحليل المضمون حيث تم اختيار فقرة عينات هي «كل عاشر فقرة من كل قصة» وتوفرت بناء على ذلك ثماني عشرة مادة أدبية كي يتم تحليلها. واستخدمت في معالجة هذه المادة ما يسمى بمعادلة الانقرائية Readability Formula وقد نتج عن هذا الاستخدام مقياسان أحدهما هو ما يسمى بسهولة القراءة Reading Ease (RE) وهو يتعلق، مثلا، بمتوسط عدد الكلمات في كل جملة. أما المقياس الثاني فيتعلق بما يسمى بالاهتمام الإنساني Human Interest (HI) أي متوسط عدد الضمائر المستخدمة مثل أنا وهو ونحن (في هذه المعادلة تستخدم الدرجة صفر كي تشير إلى الصعوبة الواضحة في سهولة الانقرائية وإلى القصور أو عدم الوضوح في الاهتمام أو الهم الإنساني، بينما تستخدم الدرجة ١٠٠ كي تشير إلى سهولة الانقرائية والاهتمام الإنساني الكبير والدرامي. وهناك بالطبع درجات متراوحة بين الصفر والمائة في ضوء المتغيرين السابقين).

وقد وجد القائمون بهذه الدراسة أن قصة «تشيكوف» الأولى كانت أكثر صعوبة في القراءة من قصته الأخيرة (بمتوسط سهولة قراءة مقداره ٥٩, ٦٩ بالنسبة للقصة الأولى و٩٥, ٨١ للقصة الثانية). لكن، ورغم أن قصة «الزهور. . .» كانت أكثر صعوبة، فإنها كانت أكثر انشغالا بالهموم والاهتمامات الإنسانية، وأكثر إثارة للاهتمام من القصة الأخيرة (بمتوسط قدره ٦٤, ٧٨ للقصة الأولى في مقابل متوسط قدره ٣٣, ٧٠ للقصة الثانية).

أما الدراسة الثانية التي قام بها «التداور» وتلاميذه فحاولت الإجابة على السؤال التالي: هل يعتبر كتاب الأدب أكثر تعبيرا عن الإبداع من المبدعين في المجالات الأخرى؟ هنا تم فحص السير الذاتية لعدد من الكتاب والموسيقيين والرسامين، وتمت المقارنة بين تعبيرات وأحاديث كل منهم عن عملية الإبداع، وقد أجريت عمليات تحليل المضمون على ٥٠١ جملة تم استخراجها من ١١٥ سيرة ذاتية لهؤلاء المبدعين، وتم الاهتمام في التحليل بالتركيز على فئات مثل مصادر الإبداع وعلاقته بالصعوبات التي يعاني منها المبدع، وغير ذلك من الفئات المناسبة. والجدير بالذكر أن عدد السير الذاتية الخاصة بالكتاب والمتضمنة في الدراسة كانت أقل مقارنة بالمبدعين الآخرين (١٣ سيرة ذاتية للكتاب في مقابل ٣٠ بالنسبة للموسيقيين و٧٢ بالنسبة للمصورين) وربما كان هذا الانخفاض الواضح في السير الذاتية للكتاب راجعا كما يقول «التداور» إلى أن الأعمال الأدبية كثيرا ما تكون بمثابة السير الذاتية لمبدعيها.

لكن الشيء الجدير بالذكر أيضا هو أن حديث الأدباء حول عملية الإبداع كان الأقل مقارنة بالمبدعين الآخرين (١١٩ جملة بالنسبة للكتاب في مقابل ٢٦٠ و١٢٢ بالنسبة للموسيقيين). ومع ذلك فإنه عندما تم

تحويل هذه الدرجات الخام إلى متوسطات (حيث تمت قسمة عدد الجمل أو التعبيرات المعبرة عن الإبداع على عدد السير الذاتية) ظهر أن الكتاب قد تفوقوا على غيرهم في تعبيرهم عن الإبداع (بمتوسط قدره ٩,١٥ في مقابل ٤,٠٦ بالنسبة للموسيقيين و٣,٦١ بالنسبة للمصورين).

وهكذا كان الأدباء (في المتوسط) الأكثر حديثا من غيرهم من المبدعين حول عملية الإبداع، رغم قلة ماكتبه هؤلاء الكتاب من سير ذاتية، أو من تعبيرات حول الإبداع، في السير الذاتية المكتوبة فعلا. وقد كان «هنري ميلر» هو أكثر الكتاب المساهمين في هذا الشأن ثم جاءت بعده «فرجينيا ولف» ثم «ووردزورث» ثم «آمي لويل»، أما في التصوير فقد كان «بيكاسو» هو الأكثر حديثا. عن الإبداع وفي الموسيقى كان «كوبلاند»[٦٦].

ثانيا: الدراسات السيرية (أو البيوجرافية)

ترجع بدايات هذا الأسلوب إلى «جالتون» في دراسته عن العباقرة التي نشرها في كتابه «العبقرية الوراثية» عام ١٨٦٩، وقد امتد هذا الاهتمام حتى أيامنا هذه ولكن بأشكال ومناهج مختلفة، ولعل أبرز مثال عليه تلك الدراسات الحديثة التي قدمها «هوارد جروبر» H.Gruber و«سارا ديفيس» S. Davis و«والاس» D.wallace. حول مبدعين في مجالات مختلفة من الإبداع الإنساني ضمن ما يسمى بأسلوب «دراسة الحالة في مجال الإبداع»[٦٧].

من الممكن أن يجتذب هذا الأسلوب اهتمام الباحثين في ميدان الدراسة النفسية للأدب لعدة أسباب منها:

١ـ أن السير غالبا ما تكون ذات شكل أدبي.

٢ـ من بين أنماط السير المختلفة تعد السير التي يكتبها الأدباء أكثر أشكال السير جذبا للاهتمام.

٣ـ تتوفر في هذا الأسلوب درجة واضحة من الثبات (كشرط سيكومتري) في التعامل مع المادة الأدبية النثرية لدرجة أنه يمكن الاقتداء به وتطبيقه على الأشكال الأدبية أيضا، كأن يطبق على الرواية مثلا وليس على كاتبها، وعلى ما يسمى برواية السيرة مثلا.

٤ـ أن التعبيرات الخاصة الموجودة في السير الذاتية للأدباء المبدعين حول مراحل عملية الإبداع مثلا هي مادة خصبة يمكن الاستفادة بها في القيام بالبحوث النفسية في هذا المجال وفي تفسير نتائجها أيضا.

وهناك محاولات حديثة لإخضاع المادة السيرية لأساليب التحليل الإحصائي المتقدمة وللاستفادة من الإمكانيات الهائلة التي وفرها الحاسوب أو الحاسب الآلي في معالجة مواد شديدة الضخامة، ومن ذلك مثلا ماقام به «سيمونتون» في إطار ما يسمى بالقياس بالتاريخي Historimetry (*) لتحديد العوامل المؤدية إلى

(*) القياس التاريخي: ويقصد به هنا: تطبيق أساليب البحث العلمي المناسبة على السجلات التاريخية وعلى السجلات الخاصة بالسير الذاتية من أجل اكتشاف العوامل النفسية والظروف الاجتماعية التي أدت إلى أن يقوم بعض المبدعين والقادة بممارسة تأثيرهم البارز الكبير على التاريخ، تاريخ الأفكار أو تاريخ الشعوب وأول من استخدم هذا المصطلح هو المؤرخ «فردريك» عام ١٩١١ كي يشير به إلى تلك الفئة من البحوث التي يتم فيها إخضاع حقائق التاريخ للمعالجة الإحصائية في ضوء بعض أساليب القياس الموضوعية.

زيادة أو نقص الإنتاجية الإبداعية لدى الأدباء والمؤلفين الموسيقيين والفلاسفة والعلماء. وقد درس «سيمونتون» السجلات الخاصة بآلاف المبدعين هؤلاء والتي تمتد فيما بين عام ٧٠٠ قبل الميلاد وحتى عام ١٩٠٠ ميلادية وهي سجلات قد تم تخزينها في الحاسوب، كما ذكرنا، على هيئة موسوعات وقواميس وسير ذاتية (كتابات تاريخية وما شابه ذلك)، وقام «سيمونتون» بحساب الارتباطات بين الإنتاجية الإبداعية وبين العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتاريخية المرتبطة بها. ومن بين النتائج التي وجدها «سيمونتون» بالنسبة للأدباء أن الشعراء المبدعين غزيري الإنتاج، والروائيين المبدعين غزيري الإنتاج، غالبا ما يتعاصرون مع بعضهم البعض، كما أنه لاحظ أيضا أن الإبداع الأدبي يزدهر إبان حالات الازدهار الفلسفي والعلمي والموسيقي لكن ازدهاره يخبو عندما تزدهر فنون النحت والتصوير والعمارة. وقد حاول «سيمونتون» تفسير هذا التفاوت في الازدهار من خلال فحصه لطبيعة العوامل المشتركة والمختلفة بين الأدب والموسيقى والفلسفة والعلم، من ناحية، وبين الأدب والفن التشكيلي والعمارة، من ناحية أخرى، لكن تفسيراته هنا كانت شديدة العمومية، فمثلا من النتائج التي توصل إليها «سيمونتون» أن حالات عدم الاستقرار السياسي لا تؤثر على الإنتاجية الإبداعية الأدبية في الجيل المعاصر لهذه الاضطرابات السياسية (والجيل عنده مداه عشرون عاما) لكنها تؤثر أكثر على الجيل التالي لهذه الاضطرابات، وذلك لأنه يكون قد تربى وترعرع في ظل حالات عدم اليقين هذه. وأن هذا التأثير يكون سلبيا[١٨].

دراسة عملية الإبداع

تعتبر الدراسات النفسية التي أجريت في مصر حول عملية الإبداع في الشعر وفي الرواية وفي المسرحية وفي القصة القصيرة بمثابة المشروع البحثي المبني على أساس التراكم والتكامل الملم بمعظم جوانب ظاهرة الإبداع الأدبي. ونعرض باختصار شديد لهذه الدراسات هنا، حيث إنها الآن منشورة ومتاحة أمام القارئ العربي.

أولا: الإبداع الشعري

في دراسته الرائدة حول «الأسس النفسية للإبداع في الشعر خاصة» كان تأثر «سويف» واضحا بالمنحى الجشطلتي في علم النفس وخاصة من منظور «كيرت ليفين» K. Lewin «وشولسه» وأصحاب نظرية المجال. وقد استخدم «سويف» في دراسته هذه أدوات منهجية هي تحليل المضمون والاستبيان (أو الاستخبار) والاستبار (أو المقابلة) وتحليل المسودات وتكونت عينة الدراسة من سبعة من الشعراء من مصر وبلاد عربية أخرى وكانت أهم النتائج التي توصل إليها:

١ـ أن العملية الإبداعية في الشعر لها جذورها الممتدة بدرجة كبيرة في حياة الشاعر الماضية.

٢ـ عندما يواجه الشاعر خبرة حية حيوية جديدة، فإن عقله يبدأ في المزج بين الخبرات الماضية والخبرات الجديدة.

٣ـ أن هذا المزج قد يكون غير كامل، ومن ثم يحدث تسارع وارتفاع في التوتر وفقدان للاتزان النفسي.

٤ـ أن العملية الإبداعية هي محاولة الشاعر الخاصة لتجاوز أو عبور التوتر واستعادة التوازن المفقود.

٥ـ أحد الملامح الخاصة المميزة للعملية الإبداعية في الشعر هي «الحاجة إلى الشحن» التي تحاول الأنا المبدعة الوصول إليها أو تحقيقها.

٦ـ تلعب الخصائص الفراسية دورها الكبير في اختيار الشاعر للكلمات والصور والموضوعات الرئيسية في قصائده.

٧ـ القصيدة الإبداعية هي ناتج للمحاولات الإبداعية من قبل الشاعر لتنظيم خبراته الإبداعية داخل إطار إبداعي.

٨ـ لا يتقدم الشاعر خلال إبداعه للقصيدة من بيت إلى بيت، ولكنه يتقدم من مجموعة من الأبيات إلى مجموعة أخرى، ويكون هذا ممكنا من خلال وثبات إبداعية. وهكذا فإن القصيدة لا تتكون من أبيات ولكن من وثبات. والكل سابق على الجزء في الإبداع الشعري.

٩ـ وأخيرا، فإن العملية الإبداعية في الشعر لا تشبه اللعب الحر ولا التهويم أو أحلام اليقظة الطليقة، وذلك لأنها تحدث غالبا ضمن حدود خاصة بالأطر الفنية والثقافية واللغوية والاجتماعية[٦٩].

ومازالت هذه الدراسة منذ طبعتها الأولى في أوائل الخمسينات تؤثر على مجالات علم النفس والأدب والنقد الأدبي والفن في مصر والوطن العربي بدرجة واضحة.

الإبداع الروائي والمسرحي

في عام ١٩٧٩ نشر «حنورة» كتابه حول «الأسس النفسية للإبداع الأدبي في الرواية» والذي كان عبارة عن رسالته للماجستير التي أنجزها تحت إشراف «مصطفى سويف» وقد استخدم في دراسته هذه الاستبيان، والاستبار، وتحليل المضمون، وتحليل المسودات، وهي نفس الأدوات التي استخدمها «سويف» في دراسته، لكن عينة «حنورة» كانت أكبر نسبيا فقد تكونت من ٢٤ كاتبا من المشاهير (نجيب محفوظ مثلا) و١٢ كاتبا من غير المشاهير. وقد اشتملت دراسة «حنورة» هذه على تحليلات عديدة لمسودات كتاب عرب وأجانب. فمثلا قام هذا الباحث بتحليل كتابات ومسودات «توماس وولف» وهنري جيمس»، وقام أيضا ـ كما سبقت الإشارة ـ بتحليل كتاب كامل حول إبداع «توماس مان» لروايته «دكتور فاوستوس». ويمكننا أن نلخص أهم النتائج التي توصل إليها «حنورة» فيما يلي:

(١) أن العملية الإبداعية في الرواية تتكون من مرحلتين كبيرتين هما: الإعداد والتنفيذ.

(٢) تشتمل مرحلة الإعداد على:

أ ـ الاهتمامات المبكرة بالأدب.

ب ـ عادات الكتابة.

ج ـ تجميع البيانات وتسجيل الملاحظات.

د ـ مواصلة الاتجاه الذي هو توجه إبداعي يعتمد على الإدراك والذاكرة والخيال.

هـ ـ اختيار الفكرة أو تبلورها .

(٣) تشتمل مرحلة التنفيذ على :

ا ـ جلسات الكتابة .

ب ـ التخطيط للكتابة .

ج ـ التركيز الإبداعي .

(٤) لا يعتبر عامل مواصلة الاتجاه عاملا أحادي البعد ، بل هو عامل متعدد الأبعاد ، فهو يشتمل على عوامل إدراكية وخيالية وتقييمية وانفعالية ومزاجية وإيقاعية وجسمية .

(٥) لا يتم إنجاز الإبداع الروائي من خلال مراحل منفصلة كما كان «والاس» يقول ، ولكن من خلال مراحل متفاعلة على نحو مستمر .

(٦) يكون «الكل» سابقا على الأجزاء خلال كتابة الرواية ، وهو ما توصل إليه «سويف» أيضا ، ومن ثم تم التأكيد لبعض الفروض الجشطلتية .

(٧) يلعب المجتمع دورا حاسما قبل وأثناء وبعد العملية الإبداعية [٧٠] .

في عام ١٩٨٠ نشر «حنورة» دراسته الثانية حول الإبداع في المسرح ومن خلال أدوات مماثلة وعينات مقاربة ، وتوصل إلى نفس النتائج تقريبا مع توسيع أكبر لحدود التفسيرات النظرية التي قدمها . فقد أكد في هذه الدراسة أن الكاتب المبدع ينجز مسرحياته المتميزة من خلال «أساس نفسي فعال» يتكون من أبعاد جمالية ومعرفية وانفعالية واجتماعية وهي فكرة طورها «حنورة» في عديد من دراساته بعد ذلك [٧١] .

الإبداع في القصة القصيرة

قام كاتب الدراسة الحالية بإنجاز رسالته للماجستير عام ١٩٨٠ م تحت إشراف «مصطفى سويف» أيضا وكان عنوانها «العملية الإبداعية في القصة القصيرة» . وقد نشرت بعد اثني عشر عاما تحت عنوان «الأسس النفسية للإبداع الأدبي في القصة القصيرة خاصة» بعد إدخال تعديلات كثيرة عليها لم تمس الجوهر ، وقد تمت الاستفادة في هذه الدراسة من دراسات «سويف» و«حنورة» على نحو واضح . وتكونت عينة الدراسة من خمسين كاتبا وكاتبة للقصة القصيرة من مصر خاصة ، وكانت أداة البحث الرئيسية عبارة عن استبيان مكون من ٤٥٠ بندا تتناول الجوانب المختلفة لعملية الإبداع في القصة القصيرة (إضافة إلى استخدام أدوات أخرى مثل تحليل المضمون والاستبيان) .

وقد اقترح كاتب هذه الدراسة أن عملية الإبداع في القصة القصيرة تشتمل على ست عشرة عملية فرعية هي على التوالي : تكوين الإطار ـ العمليات الإدراكية ـ عادات الكتابة ـ التركيز ـ الدوران حول العقبات والأفكار والصور الغامضة ـ حالات القلق والتعب العقلي ـ الاسترخاء ـ الاكتشاف المفاجيء للأفكار ـ العمليات التنظيمية ـ التنفيذ ـ التقييم ـ التعديل ـ حالة السيطرة على العمل ـ العمليات اللاإرادية ـ العمليات الاجتماعية .

واستخدم الباحث أيضا أسلوب التحليل العاملي بطريقة المكونات الرئيسية «الموتلنج» (وهو إجراء نادر الاستخدام في دراسة العملية الإبداعية في الأدب) وكشف له هذا التحليل عن أن العملية الإبداعية في القصة القصيرة تشتمل على ثلاثة أبعاد أو عوامل رئيسية هي: التنظيم الإبداعي للمدركات، عامل التركيز، ثم العامل الاجتماعي. ورغم أن التحليل العاملي قد تم على عينة صغيرة نسبيا (٥٠ كاتبا) مما قد يحد من فرصة التعميم لهذه النتائج، فإنه قد ألقى أضواء عديدة على طبيعة البنية الخاصة بعملية الإبداع في القصة القصيرة[٧٢].

الجدير بالذكر أن هذه الدراسات حول العملية الإبداعية في الأدب رغم قلتها، وتباعدها الزمني، كانت تنطلق أساسا من توجهات موضوعية إمبيريقية في مناخ ساده التحليل النفسي بدرجة كبيرة، فقد تم التأكيد على أهمية الدراسة الموضوعية للأدب وللأديب، وفي إطار تكاملي أكثر شمولا وعمقا، يضع في اعتباره الأبعاد المختلفة المتفاعلة في ظاهرة من أشد ظواهر السلوك الإنساني تعقيدا، وهي ظاهرة الإبداع الفني. وخلال ذلك تم التأكيد على أهمية البعد المنهجي من حيث اختيار الأدوات الدقيقة وتطبيقها على عينات كبيرة نسبيا، واستخدام الوسائل المناسبة في حساب صدق وثبات وموضوعية الأدوات. ثم استخدام الطرائق الإحصائية الدقيقة والمضبوطة لتحليل وضبط وتعميم النتائج، وذلك في دراسة ظاهرة هرب «فرويد» من دراستها بشكل مباشر، واعتبرها «يونج» أشد ظواهر السلوك الإنساني مراوغة وهروبا من محاولة الإنسان فهمها أو الإمساك الكلي بها[٧٣].

علم النفس والتذوق للأدب

نتحدث هنا عن بعض الموضوعات التي اجتذبت اهتمام علماء النفس المهتمين بالأدب ومنها:

أولا: التذوق والتفضيل

يشير الناقد الكندي «نورثروب فراي N. Frye» إلى أن الدلالات الفنية لمصطلح الذوق أو التذوق Taste بدأت في الظهور في انجلترا في النصف الأول من القرن الثامن عشر. ففي تلك الأثناء ذكر «أديسون» أن معظم اللغات تستخدم هذه الاستعارة الخاصة بالتذوق من مجال الأطعمة والمشروبات إلى مجال السلوك الفني، وذلك من أجل التعبير عن ملكة العقل التي تقوم بتمييز كل الأخطاء البادية، وكل مظاهر الاكتمال المرهفة في عملية الكتابة. وقد عرف «أديسون» هذه الملكة بأنها «ملكة الروح التي تنتبه إلى مظاهر الجمال لدى أحد المؤلفين، وتستجيب لها من خلال السرور، وتنتبه أيضا إلى مظاهر عدم الاكتمال لديه، وتستجيب لها من خلال الكراهية أو عدم التفضيل». واعتقد «أديسون» أن التذوق ـ رغم أنه فطري في جانب منه، فإنه قابل أيضا للتثقيف والتهذيب، من خلال القراءة والحوار والإطلاع على كتابات أفضل نقاد الماضي والحاضر[٧٤].

في كشاف اصطلاحات الفنون «للتهانوي» يعرف التذوق بأنه «قوة إدراكية لها اختصاص بإدراك لطائف الكلام ومحاسنه الخفية»[٧٥].

كذلك فإننا نجد شاعرا وناقدا معاصرا مشهورا وهو «ت. س. إليوت» يقول بأن هدف النقد هو «توضيح الأعمال الفنية وتقييمها، وأيضا تصحيح عملية التذوق»[٧٦].

بشكل عام تركز الدراسات النفسية للأدب على أمور قريبة من التعريفات السابقة، مع توسيع مدى

الاهتمام ليتناسب مع طبيعة مجال الدراسة النفسية. فهي تركز مثلا على الخبرة النفسية التي يمر بها المتذوق عند استغراقه في تأمل عمل فني، وأيضا على سمات الشخصية المرتبطة بعمليات التفضيل الفني، وعلى الفروق أو التشابهات بين الثقافات والحضارات المختلفة في عمليات التذوق الفني (٧٧).

نظر بعض علماء النفس العرب إلى عملية التذوق الفني على أنه الوجه الآخر لعملية الإبداع، ومن ثم فإن قوانين الإبداع ومراحله يمكن أن تكون أيضا هي قوانين عملية التذوق ومراحلها. ولعل أبرز التصورات على هذه الوجهة من النظر ما قدمه «سويف» من رؤية خاصة فحواها أن القانون الأساسي لعملية التذوق يتفق مع القانون الخاص لعملية الإدراك، فالإدراك، يبدأ إجماليا ثم ينتقل إلى التفاصيل ليرتد بعد ذلك إلى إدراك الكل إدراكا يتسم بالوضوح والثراء. ويتفق هذا التصور مع تصور «سويف» الخاص بعملية الإبداع، وهو التصور الذي يشير إلى أن القصيدة (أو اللوحة) تبدأ في نفس الشاعر (أو الفنان) ككل سديمي غامض قبل أن تفتتح عن أجزائها من خلال جهود المبدع التعبيرية (٧٨).

يقرر «سويف» أنه توجد لحظات لا يمكن إغفالها خلال تشريح خبرة التذوق الفني، وربما كان أوضحها في الذهن فترة التهيؤ النفسي، بكل ما فيها من جوانب وجدانية ودينامية وعقلية. ثم هناك أيضا الإطار الثقافي للمتذوق والاستعدادات الشائعة لديه لإصدار أحكام تقويمية على الأعمال الفنية. كذلك فإن خبرة التذوق، في ضوء هذا التصور لا تنتهي بانتهاء الاطلاع على العمل الفني أو مشاهدته، بل تمتد فترة من الزمن بعد ذلك قد تطول وقد تقصر تبعا لعوامل متعددة. أيضا يؤكد «سويف» أهمية وجود حالة من التوجه العام بتأثير المنبه الفني، وهي تلك الحالة التي تشتمل على القيم الإيقاعية والصوتية وبعض الصور، وكذلك وجود حالة من الشعور بالتوقع والاستباق لنتيجة معينة، أو أثر معين خلال تلقي العمل الفني، وهو أمر شبيه بما يسميه علماء الجشطلت «الميل إلى الإغلاق»، أي الميل إلى إكمال العمل أو إكمال عملية التلقي له لأن وجود ثغرات أو نقص أو مناطق مجهولة أو غير مكتملة في هذه الخبرة يؤدي إلى التوتر والضيق والقلق. كذلك هناك تأكيد، في ضوء هذا التصور المتماسك، لأهمية عوامل أخرى مثل التفضيل أو القدرة على تحديد التفاصيل التي تساهم في تنمية فكرة معينة، واستمرار الربط بين هذه التفاصيل، وبين الفكرة الأصلية، وأيضا أهمية عامل المرونة التكيفية، أي قدرة الشخص على تغيير الزاوية الذهنية التي ينظر منها هذا الشخص إلى حل مشكلة معينة (٧٩).

كما سبقت، الإشارة، فإن هذا التصور الخاص لعملية التذوق تصور وثيق الصلة إلى حد بعيد بتصور «سويف» الخاص لعملية الإبداع الذي هو بدوره تصور وثيق الصلة بالتصور الخاص لنظرية الجشطلت لعملية الإدراك، وهو تصور يتسم بالخصوبة ومازال يحتاج إلى الجهود التجريبية المناسبة للتحقق منه.

في عام ١٩٨٥ قدم «حنورة» نموذجا تحليليا تشريحيا، يمكننا أن نعتبره نموذجا بنائيا، في مقابل نموذج «سويف» الوظيفي الدينامي لعملية التذوق. وفي ضوء هذا النموذج أشار «حنورة» إلى أن عملية التذوق تشتمل أيضا على أربعة أوجه أو (أبعاد أومكونات) هي:

١ ـ الوجه العقلي المعرفي: والذي يتمثل في البطانة المعرفية والاستدلالية الواعية القادرة على الفهم والمقارنة.

٢ـ الوجه الجمالي: وهو الجانب التقويمي التفضيلي التشكيلي الذي يحب أو لا يحب، يميل أو لا يميل، يفضل أو لا يفضل هذا العمل أو ذاك.

٣ـ الوجه الاجتماعي الثقافي: الذي يمثل البطانة الثقافية التي تمد الفرد بمعايير وقواعد لتقبل أو رفض العمل.

٤ـ الوجه الوجداني: الذي يعبر عن درجة الرضا والميل إلى الانفعال بالعمل الفني.

وكما هو ملاحظ فإن هناك تداخلا ضروريا بين هذه الأبعاد الأربعة لعملية التذوق بدرجة واضحة، بل إنه يصعب الفصل أو التمييز بين بعضها، بحيث إنها تكاد تكون درجات مختلفة من نفس البعد، فمثلا ما الذي يميز بين البعد الثاني الجمالي التفضيلي (الذي يميل أو لا يميل، يفضل أو لا يفضل هذا العمل أو ذاك) وبين البعد أو الوجه الوجداني (الذي يعبر عن درجة الرضا والميل إلى الانفعال بالعمل الفني)؟ يبدو أن الفارق بينهما هو فارق في الدرجة لا في النوع، فالبعد الثاني يرتبط بوجود درجة أكبر من الخبرة أو الثقافة بينما البعد الرابع أكثر قربا من حالة الانفعال التلقائي والاستجابة العفوية للعمل الفني.

على كل حال، فإن الجوانب السابقة تتفاعل معا، فتشكل ما أسماه «حنورة» «بالأساس النفسي الفعال» في خبرة التذوق الفني، والمماثل في طبيعته أيضا للأساس النفسي الفعال أو التوجه الإبداعي العام في عملية الإبداع ذاتها، وهنا يشترك «حنورة» مع «سويف»، في تصوره لعملية التذوق على أنها مماثلة في جوهرها لعملية الإبداع، لكنه يقرر أيضا ضرورة وجود حالة من التوازن الخاص بين المكونات الأربعة للأساس النفسي الفعال في عملية التذوق «لكي يتمكن الإنسان المتذوق من تلقي الموضوع بحالة من الهدوء والاستقرار والكفاءة، وهو ما ينعكس في النهاية على نوع الحكم التفضيلي الذي يصدره، وينعكس أيضا في نفس الوقت، على الخبرة الشعورية التي تحقق له قدرا من التذوق»[٨٠].

الجدير بالذكر أن جهود «حنورة» ـ وهو أول تلاميذ «سويف» في مجال دراسة الإبداع والتذوق الفني والأدبي ـ قد تضمنت خطوة هامة إلى الأمام في اتجاه الدراسة التجريبية لعملية التذوق الفني، فقد اشتملت كتاباته على مجموعة من الدراسات الهامة حول التذوق الفني عند الأطفال وأيضا الجوانب الجمالية في الرسالة الإعلامية وغير ذلك من الأبعاد[٨١].

علينا أن نلاحظ أن هناك مصطلحا آخر كان يرد بشكل عابر أو مقصود، مباشر أو غير مباشر، في دراسات «سويف» و«حنورة»، لكنه كان يحتل مركز الاهتمام في دراسات عديد من الباحثين في مناطق مختلفة من العالم. هذا المصطلح هو التفضيل الجمالي Aesthetic preference وهو مصطلح يشيع في إطار ما يسمى بالجماليات التجريبية. وقد عرفه «سميتز» Smetz بأنه «تعبير لفظي أو سلوكي عن المعلومات التي يشتمل عليها الرمز أو العمل الفني»[٨٢] وقال عنه «أبو حطب» بأنه «نوع من الاتجاه الجمالي الذي يتمثل في نزعة سلوكية عامة لدى المرء تجعله يحب (أو يقبل على أو يتجذب نحو) فئة معينة من أعمال الفن دون غيرها. ومعنى ذلك أن التفضيل الجمالي يتعلق بالأثر الذي تحدثه الأعمال الفنية في أبسط مظاهره. أي في صورة القبول والرفض، أو الحب والنفور[٨٣].

على كل حال، فإن الاتجاه الذي يسمى «الجماليات التجريبية» يرتبط ـ بدرجة واضحة ـ بالبدايات العلمية الحقيقية لعلم النفس الحديث. بل إن بعض العلماء يميل إلى اعتبار عام ١٨٦٠ البداية الحقيقية لعلم النفس التجريبي الحديث (*)، فقد ظهر في ذلك العام كتاب عالم الفيزياء والفيلسوف عالم النفس الألماني الشهير «جوستاف فخنر» J. Fechner المسمى «عناصر السيكوفيزيقا» elements of psychophysics (٨٤).

ويعد «فخنر» ـ كما يشير «برلين» Berlyne من الرواد المبكرين لعلم النفس التجريبي، كما هو الحال بالنسبة «لفيبر» و«جالتون» «وفونت»، وهؤلاء هم الرواد الأوائل الذين حاولوا الإجابة على القضايا والمشكلات النفسية من خلال الأساليب الإمبيريقية الموضوعية المنظمة، وقد كانت الظواهر الجمالية من بين أكثر الظواهر النفسية تركيبا، وقد كان التركيب (أو التعقيد) هو الاعتذار المعتاد الذي استخدمه علماء النفس، أو طرحوه، عندما لم يكن لديهم الكثير كي يقولونه حول هذه الظواهر. ورغم ذلك فقد كانت الظواهر الجمالية فعلا من أوائل الظواهر التي اهتم بها علماء النفس ووضعوها في اعتبارهم، بشكل مباشر أو غير مباشر، وقد كان «فخنر» من بين هؤلاء هو المؤسس لما سمي «الجماليات التجريبية»، فهو أول من قام بدراسات ينطبق عليها هذا المصطلح حين قام عام ١٨٧١ بدراسات على استجابات بعض الأفراد حين عرض عليهم أعمالا فنية معينة وطلب منهم المقارنة والاختيار والتفضيل بينها، وذلك في متحف مدينة درسدن. ورغم أن هذه التجربة لم تحقق كل أهدافها، حيث لم يستجب إلا عدد قليل من زوار المتحف لطلبات «فخنر»، فإن الأساليب التي استخدمها «فخنر» في دراساته المبكرة تلك كانت لها أهميتها الفائقة، وذلك لأنها فتحت الطريق وقدمت النموذج لما يمكن أن تكون عليه الدراسات في مجال سادته التأملات والمخاوف والتحفظات (٨٥).

في عام ١٨٧٦ نشر «فخنر» كتابه «عناصر الجماليات» Elements of Aesthetics وقد كان كتابا نظريا في المقام الأول، لكنه اشتمل أيضا على تقارير حول عدد من التجارب التي قام بها «فخنر» في ظل ظروف تجريبية أكثر ضبطا مما كان عليه الحال في تجربة متحف درسدن. وقد حدد «فخنر» في هذا الكتاب الخصائص المميزة لدراسة الجماليات التجريبية التي يتبناها على أنها تبدأ «من أدنى» أو «من أسفل» From Below قاصدا بذلك أنها دراسات تبدأ من الحقائق الخاصة والنوعية ثم تستمر من خلالها حتى تصل إلى العموميات، وذلك في مقابل الدراسات الجمالية التي تبدأ من أعلى From Above أي الدراسات التي تبدأ من الأفكار والمفاهيم الأكثر عمومية، وتستمر في طريقها حتى تصل إلى الخاص والنوعي، وكما تمثل ذلك الدراسات الفلسفية التقليدية حول الجماليات (٨٦).

لم يُتح لهذه البدايات المبكرة الواعدة لدى «فخنر» أن تستمر حيث سادت مجال الدراسات النفسية نظريات متعارضة ومتضاربة بعضها يؤكد النزعة التجريبية الخارجية مع الاهتمام بالضبط الكمي (السلوكية الكلاسيكية لدى «واطسون» مثلا)، وبعضها يؤكد أهمية الاتجاه الكلي التكاملي الذي يؤكد على الداخل والخارج، وإن كان أقل اهتماما بالتكميم أو الأرقام (نظرية الجشطلت مثلا)، بينما أوغل البعض الثالث في الاهتمام بالجوانب اللاشعورية والمرضية المؤثرة على السلوك الإنساني (التحليل النفسي مثلا)، واحتاج الأمر إلى فترة طويلة تكاد تقترب من القرن حتى يعود الاهتمام بالجماليات التجريبية مرة أخرى على يد عالم اتسم عمله بالحماس وغزارة

(*) هناك رغم وجود ما يشبه الإجماع على اعتبار عام ١٨٧٩، البداية الحقيقية لهذا العلم حيث تم تأسيس أول معمل في تاريخ علم النفس على يد «فونت» في لايبزج ألمانيا.

الإنتاج، ألا وهو «برلين»، ذلك الذي تطور اهتمامه المبكر بالفضول أو حب الاستطلاع Curiosity لدى الحيوان إلى الاهتمام بجذور السلوك الفني والجمالي لدى الإنسان، وقد كان توجهه مزيجا من الدراسات النفسية والدراسات البيولوجية، ومن خلال إثارته، أو بالأحرى بعثه، للاهتمام بهذه الموضوعات طرح علماء النفس المعرفيون الارتقائيون وغيرهم مجموعة كبيرة من النماذج النظرية، ومن الأساليب المنهجية، من أجل استكشاف جذور وأصول عمليات ارتقاء القدرات والعمليات الجمالية، وطبيعة تكوينها ونشاطها، والعوامل المتضمنة فيها، بل وفي عملية الإبداع الفني ذاتها[٨٧].

ثانيا: فرض التوسط بين البساطة والتركيب

أشار «برلين» إلى أننا ننجذب ونستمر في اهتمامنا بالمثيرات والأعمال الفنية التي تمتلك قدرا معيناً من الجدة Novelty والتركيب Complexity والتباين Heterogeneity أو التغاير والإدهاش أو المباغتة Susprisingness والغموض Ambiguity وغير ذلك من الخصائص المميزة للمثير الجمالي. فمثل هذه المثيرات تقدم مصادر جديدة مرتفعة من التنبيه للجهاز العصبي، ومن ثم تحقق تلك الحاجة البيولوجية الموجودة لدى الكائنات الحية التي تجعلها تقوم بالاستكشاف لإشباع الفضول المعرفي الخاص بها. وعلى سبيل المثال فنحن لا نفضل المثيرات شديدة البساطة، لأنها تكون شديدة الإثارة للملل، وتخلو من القدرة على استثارة الاهتمام، وأيضا لا نفضل المثيرات شديدة التركيب والغموض والتباين... إلخ، وذلك لأنها تكون مسببة للارتباك والإحساس بالغموض والاضطراب، ولا تحقق الاستجابة المناسبة، ونفضل، بدلا من ذلك، تلك المثيرات أو الأعمال الفنية، التي تشتمل على درجة متوسطة أو معتدلة من التركيب، فالأمر المثالي بالنسبة لأي عمل فني هو أن يقع فيما بين هاتين النقطتين، أي فيما بين البساطة والتركيب[٨٨].

لكن هذه الصورة الخاصة بالعلاقة بين التفضيل والتركيب تتعقد إلى حد ما عندما يتم إدخال نمط المادة المستخدمة في حساب هذه العلاقة، في الاعتبار، كأن تكون هذه المادة، مثلا مألوفة أو غير مألوفة، كما أن المستوى الأمثل للتفضيل الجمالي سوف يتغير، صعودا أو هبوطا، اعتمادا على خبرة المتلقي وخلفيته الثقافية[٨٩].

رغم هذه التحفظات فإن بعض الدراسات في مجال التذوق أو الاستجابة للأعمال الأدبية قد أكدت فرض التوسط لدى «برلين» إلى حد كبير. من ذلك مثل ما وجده «كامان» Kamman عام ١٩٦٧ من أن تفضيل القراء للشعر المتسم بدرجة متوسطة من التركيب يفوق تفضيلهم للشعر المتسم بدرجة عالية أو بدرجة منخفضة من التركيب، ورغم أنه أجرى دراسته على نوع واحد من المادة الأدبية، فإن نتائجه تتسم بالأهمية، وذلك لأنها اتفقت مع نتائج أخرى مماثلة في مجال الفن التشكيلي، ومن ثم فإنها أكدت أيضا فرض التوسط أو الاعتدال كما عبرت عنه دراسات «برلين»[٩٠].

قام كاتب الدراسات الحالية وزميلان له بدراستين تندرجان ضمن هذا السياق[٩١]: كانت إحداهما حول الفروق بين الذكور والإناث في التفضيل الجمالي لبعض الأعمال الأدبية، وكانت الأخرى حول علاقة هذا التفضيل الجمالي ببعض سمات الشخصية. وقد استخدمت في الدراسة الأولى بعض الأعمال الأدبية

الشعرية والقصصية العربية التي تم تصنيف بعضها على أنها قصائد أو قصص مركبة، وتم تصنيف بعضها الآخر على أنها قصص أو قصائد بسيطة. وقد تم هذا التصنيف في ضوء بعض الأحكام التي قدمها بعض نقاد الأدب ذوي الخبرة الكبيرة في هذا المجال. ثم قدمت هذه الأعمال الإبداعية لعينة من طلاب كلية الآداب جامعة القاهرة ومن أقسام مختلفة، وطلب منهم التعبير عن استجاباتهم المختلفة من خلال استبيان صغير الحجم لهذا الغرض، وقد كشفت النتائج عن وجود فروق واضحة بين الذكور والإناث في عمليات التفضيل الجمالي للمواد الأدبية التي عرضت عليهم، ففي حين فضل الذكور القصيدة البسيطة، فضلت الإناث القصيدة المركبة، وفي حين فضل الذكور القصة المركبة فضلت الإناث القصة البسيطة، وتبدو هذه النتائج متناقضة ظاهريا وذلك لأنه يفترض أن الميل للتفضيل هو ميل عام يظهره الفرد تجاه كل الموضوعات التي يتعرض لها، فمن فضل القصيدة البسيطة كان من المفترض أن يفضل القصة البسيطة والعكس بالعكس، فما تفسير هذا التناقض الظاهري؟

لعلنا نجد حل هذا التناقض في دراسة قام بها «سويف» وأيزنك» على عينات من الطلاب المصريين والبريطانيين الدارسين وغير الدارسين للفنون وباستخدام مجموعة من الأشكال الهندسية وشبه الهندسية البسيطة والمركبة، فقد فضل الطلاب المصريون الدارسون للفنون الأنماط المركبة من الأشكال بينما فضل الطلاب غير الدارسين للفنون الأنماط البسيطة، وفضل الطلاب البريطانيون الدارسون للفنون الأنماط البسيطة من الأشكال، بينما فضل الطلاب البريطانيون غير الدارسين للفنون الأنماط المركبة من هذه الأشكال، واستخلص الباحثان أن مصطلحي بسيط ومركب ليسا أحاديي البعد كما يفترض غالبا [٩٢]. كذلك يمكننا افتراض أن تأثير عوامل مثل اختلاف الخبرة، والفروق بين الجنسين، والفروق بين الثقافات، يمكن أن تلعب دورها في هذا السياق أيضا. وكنوع من النقد الذاتي للدراسة السابقة لاحظ كاتب هذه الدراسة وزميلاه أنه كان يجب أن توضع الأعمال التي تتسم بدرجة منخفضة من البساطة، أو التركيب، ضمن الأعمال الأدبية التي استخدمت في دراستهم هذه، فالأعمال الأدبية التي استخدم لفظ «بسيطة» للإشارة إليها كانت في الواقع أعمالا تتسم بدرجة متوسطة من التركيب، فقد كانت أعمالا أدبية متميزة ـ ليست سطحية ولا مبتذلة ـ وقد وصفها النقاد والمحكمون بأنها بسيطة في مقابل الأعمال المتميزة الأخرى التي وصفوها بأنها مركبة، وكنوع من النقد الذاتي، أشار كاتب هذه الدراسة وزميلاه إلى أنه رغم ما حدث من تأكيد معين لفرض التوسط لدى «برلين» إلا أنه كان ينبغي أن تتضمن الدراسة بعض الأعمال التي تتسم بالبساطة أو السهولة الواضحة، وتشتمل على أقل درجة من الغموض والتركيب والإدهاش، وغير ذلك من العوامل التي حددها «برلين» والتي ذكرناها آنفا.

. في الدراسة الثانية قام كاتب هذا المقال وزميلاه بمحاولة الكشف عن العلاقة بين التفضيل الجمالي لبعض القصائد والقصص العربية الحديثة، البسيطة والمركبة، وبين بعض سمات الشخصية: مثل الانبساط والعصابية والتصلب والنفور من الغموض. وبعد عمليات التطبيق، وإجراءات الحسابات الإحصائية المناسبة، تبين عدم وجود ارتباطات مستقيمة بين التفضيل الجمالي للأعمال الأدبية البسيطة أو المركبة، وبين سمات العصابية والانبساط والتصلب والنفور من الغموض، سواء لدى الذكور أو لدى الإناث، وأن العلاقات الارتباطية التي ظهرت بين التفضيل الجمالي للأعمال الأدبية البسيطة،

وبين العصابية والتصلب (خاصة لدى الذكور) من ناحية، وبين التفضيل الجمالي للأعمال الأدبية المركبة، وبين العصابية والانبساط (خاصة في عينة الذكور أيضا)، إنما كانت من قبيل العلاقات الارتباطية المتحنية (*).

وتشير هذه النتائج بشكل عام، إلى وجود ارتباط طردي بين التفضيل الجمالي للأعمال الأدبية الحديثة الشعرية والقصصية، وبين سمات العصابية والتصلب والانبساط، وإلى حد معين، أما بعد هذا الحد فلا يرتبط اتجاه التفضيل بهاتين السمتين أو قد يرتبط بهما ارتباطا سالباً، فالسمات المزاجية يمكن النظر إليها هنا على أنها «مناخ» نفسي قد يساعد على الأداء الجمالي أو الإبداعي، أو قد يعوق هذا الأداء (٩٣) فدرجة متوسطة من التصلب قد تؤدي إلى تفضيل الأعمال التي تتوفر فيها بعض الخصائص الجمالية الراسخة أو الكلاسيكية، أما التمسك بهذه الخصائص دون غيرها فقد يعني الجمود، ومقاومة الجديد والتجديد، ومن ثم درجة عالية من التصلب.

يرتبط «فرض التوسط» في رأينا بأهمية البعد عن المألوف والشائع والعادي والمبتذل بدرجة معينة، وهي فكرة شائعة بأشكال مختلفة لدى نقاد الأدب، مثلما نجدها لدى علماء النفس، فمثلا أشار «بيكمان» إلى أن المعنى الانفعالي مشتق في جانب من انتهاك هذا الشعر، أو هتكه، للمتوقع أو المألوف، ولذلك فإن الشعر يفقد كثيرا من خصائصه إذا تحول إلى نثر، وذلك لأن المتلقي لن يستطيع حينئذ أن يعايش أو يمر بخبرة الأثر الانفعالي الناتج عن عمليات تغيير الاتجاهات، أو التوجهات البنائية أو النحوية، وهي العملية التي أطلق عليها اسم Syntactical Disorientation أي تغيير التوجهات البنائية أو التركيبية التي يقدمها الشعر (٩٤). وإلى مثل هذا الرأي يذهب الناقد الفرنسي «جان كوين» J. Cohen في كتابه «بناء لغة الشعر» حين أكد أهمية ابتعاد لغة الشعر عن المألوف أو الشائع، بدرجة ما، حتى تحقق الأثر المنشود من وراء إبداعها، ومن ثم تحدث «كوين» عن فكرة الانحراف الانزياح Deviation، وهي الفكرة التي تتردد أصداؤها حاليا بأشكال مختلفة في كتابات نقاد وشعراء عرب عديدين (ادونيس مثلا)، وهي أيضا الفكرة التي قام «شكري عياد» في كتابه «اللغة والإبداع» بتوضيح أبعادها المختلفة وتمييزها عن الأفكار التي قد تختلط بها، مثل «الاختيار» و«مخالفة القواعد»، وغير ذلك من المفاهيم، كما أنه وجد جذورا عميقة لهذا المصطلح في التراث العربي متمثلة فيما سماه البلاغيون الاستطراف والبعد في التشبيه، والغرابة في الاستعارة، وأن الانحراف يكون لدى العرب أيضا في «البناء النحوي للجملة، ولكنه لا يعني مخالفة القواعد، وإنما يعني «العدول عن الأصل» (٩٥).

يؤكد «جان كوين» أن المستوى الذي يقصد الشاعر أن يفهمه هو مسافة وسطى بين الفهم وسوء الفهم، لذلك فقد تحدث هذا الناقد عن مرحلتين هامتين في تذوق الشعر: الأولى أطلق اليها اسم وجود الانحراف أو حضوره أو عرضه Presentation of Deviation أما الثانية فهي: اختزال الانحراف Reduction of De-

---

(*) الاستقامة والانحناء من المفاهيم الإحصائية التي تصف العلاقة بين متغيرات معينة، فإذا كانت العلاقة بين متغير وآخر تأخذ شكل أنهما يزيدان معا أو ينقصان معا قيل عنها إنها علاقة مستقيمة، أما إذا كان هذان المتغيران (التفضيل الجمالي وتركيب العمل الفني مثلا) يزيدان معا أو ينقصان معا حتى نقطة معينة (حد التوسط مثلا) ثم يفترقان بعد ذلك فلا يتفقان في اتجاههما، زيادة أو نقصا، قيل إن هذه العلاقة منحنية.

viation والأمر هنا شبيه بالحالة السديمية العامة التي تحدث عنها «برجسون» «وسويف» وغيرهما في بداية عملية الإبداع أو التذوق، حيث توجد حالة من عدم التوجه ثم يتم اكتشاف التوجه أثناء الخبرة الجمالية، من خلال إنتاج وحدات فرعية، تختلف عن الوحدات الموجودة الخاصة بالمعنى الظاهري للرسالة أو العمل الفني، وقد يتم ذلك مثلا من خلال القيام بإحداث التجاور أو التقابل مثلا، بين الأفكار التي لا تبدو متشابهة أو قريبة في معناها. إن حالة الانحراف تعوق عملية الفهم للوهلة الأولى، لكن هذا التفاوت يتم حله عندما يبدأ أو يفتح التمثيل الداخلي (العقلي أو الخيالي)، لدى القارىء، للقصيدة طريقا نحو تمثل أو تمثيل آخر، وهو تمثل يكون أقل وضوحا وأكثر غموضا، ومن ثم قد يشتبك أو يتصادم مع المعنى الإشاري المحدد الذي يتفق مع معلومات أو موضوعات محددة ترتبط بما هو شائع أو مألوف، فالقصيدة هنا وكذلك أي عمل إبداعي متميز) تقوم كما قال «بيرنشو» Burnshaw بالتوحيد بين المألوف والغريب، بين الواقعي وغير الواقعي، بين الواقعي والمتخيل، ووظيفة الخطاب الشعري في رأي «كوين» هي تحطيم أو تغيير الاستجابة العادية المباشرة للغة بحيث يكون توصيل المعنى غير المألوف أو غير المعتاد أمرا ممكنا (٩٦).

الشيء اللافت للاهتمام أن «برلين» يعود في أحد كتبه المتأخرة نسبيا إلى «كوين»، ويؤكد وجود جوانب كثيرة مشتركة بينهما، خاصة في نظرتها للعناصر المكونة للأعمال الفنية، وللعوامل المحددة لاستجابات الأفراد لهذه الأعمال (٩٧).

ثالثا: دراسات حول العمل الأدبي

يصعب التمييز أو الفصل بين الدراسات التي تناولت المضمون الأدبي وبين الدراسات التي تناولت استجابات أو ردود أفعال القراء تجاه هذا المضمون، فالأمر الواضح هو أنه لا يمكن فصل المعنى النفسي للعمل الأدبي عن شخصية المؤلف بكل ما تشتمل عليه هذه الشخصية من خبرة ومن اتجاهات ومن قيم ومن سمات ومن قناعات فنية وسياسية واجتماعية... إلخ، ومن سياق اجتماعي وإنساني عاش فيه وتفاعل معه بأشكال مختلفة. في ضوء ما سبق فإننا نكتفي هنا بأن نشير إلى بعض الموضوعات الخاصة بقارىء الأدب والتي استأثرت باهتمام علماء النفس، رغم اختلاف توجهاتهم ومنطلقاتهم النظرية، أي أنه يمكننا أن نلخص اهتمامات علماء النفس بقارىء الأدب على أنها تندرج ـ هذه الاهتمامات ـ ضمن واحد أو أكثر من المحاور التالية:

(١) تعبير الأدب عن الاتجاهات والدوافع والانفعالات

ومن أشهر الأمثلة على ذلك دراسات «ماكيلاند» Mcleland الخاصة حول «مجتمع الإنجاز» والتي استخدم فيها الأسلوب البحثي المسمى تحليل المضمون. فمن أجل قياس الحاجة للإنجاز في اليونان القديمة مثلا، قام بتدريب الباحثين على إحصاء الأمثلة الدالة في هذه الحاجة في الأغاني والأساطير والملاحم والقصائد الغنائية والمواويل والخطب وغيرها من المنتجات الأدبية في فترات مختلفة من تلك الحضارة، ثم قام بالربط بين أنماط الدافعية التي ظهرت في هذه الأعمال وبين بعض مؤشرات النمو الاقتصادي، وقد أكدت العلاقات التي وجدها «ماكيلاند» التوجهات العامة لنظريته والتي تؤكد أن نهوض وتدهور المجتمعات هو دالة للأنماط المبكرة لتربية الأطفال (التدريب على الاستقلال مثلا في مقابل التدريب على التبعية) (٩٨).

لقد أظهرت هذه الدراسات أن التعبير المرتفع عن «الحاجة للإنجاز» في الأدب يسبق عملية النهوض الاقتصادي لأحد المجتمعات، ثم عندما يصل النمو الاقتصادي للمجتمع إلى ذروته، فإن العادات الشخصية الخاصة بالاستقلال والكفاح تصبح غير مناسبة، وذلك لأن الأثرياء يمكنهم ـ حينئذ ـ شراء الخدمات من الآخرين، كما أن الأطفال سيتلقون تدريبات أقل على الاستقلال، ونتيجة لذلك تعتري دافعية الإنجاز حالة من الخمود أو الهبوط، ومن ثم يتوقع حدوث حالة من الأفول أو الانحطاط الاقتصادي والاجتماعي [٩٩].

إضافة إلى إمكانية دراسة دوافع نفسية مثل دوافع الإنجاز أو القوة أو المكانة أو تحقيق الذات من خلال تحليلنا المناسب للأعمال الأدبية، فإنه يمكننا أيضا أن ندرس انفعالات كالحب والكراهية والقلق والخوف، واتجاهات إيجابية أو سلبية، سياسية واقتصادية واجتماعية وجمالية ودينية، من خلال تحليلنا المناسب للأعمال الأدبية الممثلة لفترة معينة، أو فترات مختلفة من تاريخ حضارة معينة.

(٢) تعبير الأدب عن العمليات المعرفية

هنا اهتمت الدراسات النفسية بعمليات معرفية مثل الإدراك والتذكر والتخيل والتفكير المنطقي والإبداع والصور العقلية وما شابه ذلك من العمليات، وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن موضوع الصور العقلية قد استأثر باهتمام العديد من الباحثين بدءا من «فالانتين» Valentine الذي توصل إلى أن الاستمتاع الجمالي الخاص بالشعر وقدرة هذا الشعر على إحداث السرور بشكل عام، إنما يعتمدان على ما إذا كانت الصور العقلية التي يثيرها هذا الشعر هي صور تلقائية أم لا [١٠٠]، وانتهاء بالدراسات الحديثة حول دور الصور العقلية في الإبداع الأدبي وفي التذوق الأدبي، وأنواع هذه الصور ومراتبها المختلفة ودورها في الكتابة والقراءة، كما أن هناك أيضا تلك الدراسات التي اهتمت بالمجاز بأشكاله المختلفة وعلاقته بالتذوق [١٠١] وأيضا الأحلام والرموز والتعبيرات النمطية والجديدة واضطراب الوعي والتفكير وتعبير الأدب عن ذلك أو انعكاسه فيه وغير ذلك من الجوانب المعرفية.

(٣) بنية النص الأدبي

الجانب الهام الذي اهتم به الباحثون هنا هو الأسلوب الأدبي، ذلك الذي لا يقوم باستثارة استجابة معرفية ووجدانية لدى القارىء فقط، لكنه يشكل أيضا الأساس لوصف الخصائص البنيوية المميزة للمواد الأدبية المختلفة، وأيضا لتحديد الفروق بين هذه المواد. وقد كشف «لي» Lee عن توجه بالغ المحدودية نحو الأسلوب لدى بعض الكتاب، وذلك لأنهم اعتمدوا في كتاباتهم على عناصر لغوية محدودة ومعزولة إلى حد ما، وقال بأن أبرز مثال على ذلك هو كثرة استخدام «كارليل» مثلا للزمن المضارع [١٠٢].

أيضا يمكننا الوصول إلى مقاربة كمية شديدة الوضوح حول الأسلوب من خلال الطريقة الإحصائية المسماة التحليل العاملي والتي تقوم على أساس تصنيف العدد الكبير والهائل من البيانات والمتغيرات (كلمات أو تعبيرات أو صور أدبية مثلا) وتلخيصها في شكل عدد قليل موجز مكثف من المحاور أو الأبعاد، فقد استطاع «كارول» J.B. Carrol أن يستخلص مجموعة من القيم الرقمية من خلال تحليلاته العاملية لأشكال نثرية مختلفة، منها الروايات والمقالات وبعض المواد الصحفية الأخرى، واعتمد على بعض المقاييس مثل عدد الكلمات ونسبة الكلمات والجمل إلى العمل أو إلى جوانب منه، وظهرت لديه عوامل قال بأهمية وضعها في الاعتبار عند فحص الأساليب الأدبية المختلفة منها: التقييم العام (جيد ـ رديء) والأثر الشخصي (انفعالي ـ

عقلي) والبعد الزخرفي أو التزييني (متأنق بلاغيا ومطنب في مقابل الأسلوب البسيط) ثم هناك أيضا التجريد في مقابل استخدام الكلمات التي تشير إلى وقائع عيانية أو محسوسة بعينها[١٠٣].

بشكل عام يمكننا القول هنا بأنه من المفيد ألا يقتصر الباحث في تحليلاته على دراسة العناصر البسيطة من النص الأدبي (الكلمة أو الجملة مثلا)، بل لابد له أن يهتم أيضا بدراسة الأعمال الأكبر (القصة الكاملة أو القصيدة الكاملة) حيث إنها قد تكون أكثر تعبيرا عن روح الكاتب وأسلوبه، كما أنه يفضل عدم الاكتفاء بدراسة النص الأدبي من داخله فقط (تحليل النص الأدبي والاكتفاء باستخراج خصائصه الأسلوبية)، بل لابد من الاهتمام أيضا بتحليل النص الأدبي من خارجه أيضا (العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية والنفسية المؤثرة فيه).

(٤) هناك محاور أخرى يمكن أن يهتم بها علماء النفس في سياق اهتمامهم بقارىء الأدب ومن هذه المحاور على سبيل المثال لا الحصر:

أ ـ الاهتمام باللغة المنطوقة: أي بالأدب الشفاهي والشعبي، وتعبير هذا الأدب عن قيم وعادات وطرائق تفكير وأساليب سلوك خاصة بجماعة بشرية معينة، في فترة تاريخية معينة، أو عبر تاريخ هذه الجماعة أو الشعب وأيضا الفروق المختلفة بين هذه الجماعات والشعوب. وقد اهتم بعض الباحثين بدراسة عناصر الإبداع وعناصر التقليد أو الإتباع في هذه النتاجات الشعبية مجهولة المؤلف كثيرة الحضور والتكرار[١٠٤].

ب ـ قابلية الأدب للقراءة: وهنا يتم الفحص الكمي للخصائص الطبيعية للغة المكتوبة من أجل تحديد مدى وضوحها وجاذبيتها، وأهداف المؤلف من ورائها، ومدى إسهام هذه النصوص الأدبية في إشباع التوقعات لدى القراء.

ج ـ تحديد أصل الكتاب أو مؤلفه الحقيقي: وهذه الاهتمامات تتعلق بإجراء بعض التحليلات الإحصائية لتحديد المؤلف الحقيقي لمادة أدبية معينة متنازع عليها (مثلا هل «شكسبير» هو مؤلف مسرحياته فعلا؟) وهنا يتم تحديد وحدة أساسية باعتبارها تمثل الكاتب أكثر من غيرها: كالاسم أو الفعل أو الصور أو العدد الكلي للكلمات أو طول الكلمة المفردة، ثم يتم التحليل بعد ذلك وقد انتقد بعض الباحثين مثل هذه الدراسات على اعتبار أنها تهمل المضمون والدلالة والأسلوب وغيرها من الخصائص الأساسية المميزة للنص الأدبي[١٠٥].

د ـ استخدام المواد الأدبية في الدراسات النفسية: كأن تستخدم المواد الأدبية في دراسات التعلم والتذكر والتخيل والتفكير وغير ذلك من العمليات النفسية. ومن ذلك مثلا ما قام به «بارتليت» في الثلاثينات حين عارض استخدام المقاطع الصماء والمواد غير ذات المعنى في الدراسات النفسية للتذكر، وقام بدلا من ذلك، بدراسة التغيرات الكيفية في تذكر المواد المركبة كالحكايات الشعبية مثلا، ومن ثم كان قادرا على أن يبين تلك الطبيعة النشطة للذاكرة[١٠٦].

على كل حال، فإن الدراسات النفسية العربية للتذوق الأدبي، مازالت قليلة، مثلها في ذلك مثل دراسات الإبداع، ومازالت غير متناسبة بأي حال من الأحوال مع ذلك الاهتمام الذي أولاه العرب عبر تاريخهم للإبداع الأدبي، إنتاجا وتلقيا، ويكمن أحد الحلول فيما اقترحه «سويف»، في إحدى دراساته من ضرورة التعاون الخصب المثمر بين المتخصصين في مجال الدراسات النفسية والمتخصصين في مجال الدراسات الأدبية والنقدية[١٠٧] وهو اقتراح يوافق عليه كاتب الدراسة الحالية إلى حد كبير.

المراجع

(١) انظر على سبيل المثال لا الحصر:

ـ أغروس (روبرت . م) وستانسيو (جورج ن) العلم في منظوره الجديد (ترجمة كمال خلايلي) الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة العدد ١٣٤) فبراير ١٩٨٩ .

Simonton D.K. Genius, creativity and Leadership, Cambridge, MA: Harvard University press, 1984.

(٢) Lindauer, M.S. The Psychological study of literature: Limitions, possibilities, and Accomplishments, Chicago:Nelson-Hall, 1974, pp. 31 - 33.

(٣) Daiches, D. Critical Approaches to literature, London: Longman, 1981, p. 335.

(٤) أوتيل (و . م) بدايات علم النفس الحديث (ترجمة شاكر عبدالحميد) بغداد: دار الشئون الثقافية العامة، ١٩٨٧، ص ١٣٣ .

(٥) Daiches, op. cit, p. 331.

(٦) عصفور (جابر). الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، ١٩٨٣ .

(٧) أحمد (محمد خلف الله) من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، الطبعة الثانية، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٠ .

(٨) الخولي (أمين). علم النفس الأدبي. مجلة علم النفس، ١٩٤٥، ١، ٣٦ ـ ٥١ .

(٩) عبدالقادر (حامد). دراسات في علم النفس الأدبي. القاهرة: لجنة البيان العربي، ١٩٤٩ .

(١٠) خاصة في كتابه «الثقافة الناقد الأدبي» الذي صدر عام ١٩٤٩م، (انظر: عزالدين إسماعيل: التفسير النفسي للأدب).

(١١) العقاد (عباس محمود): ـ ابن الرومي، حياته من شعره، الطبعة السابعة، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٨ .

ـ أبو نواس، الحسن بن هانئ، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٨ .

(١٢) إسماعيل (عزالدين). التفسير النفسي للأدب، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣، ص ٥ .

(١٣) إبراهيم (نبيلة). الدراسة الشعبية بين النظرية والتطبيق، القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة (د. ت).

(١٤) لمزيد من المعلومات حول هذه الدراسات العربية انظر:

ـ أحمد (محمد خلف الله)، من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، مرجع سابق.

ـ إسماعيل (عزالدين). التفسير النفسي للأدب، مرجع سابق، وخاصة الفصل الأول.

ـ يحيى (عصام)، الاتجاه النفسي في دراسة الأدب ونقده، مجلة فصول، ١٩٩١، المجلدان الثالث والرابع، ص ١٣٣ ـ ١٤٨ .

ـ عبد الحميد (شاكر). بين علم النفس والأدب في مصر. المجلة العربية للعلوم الإنسانية (الكويت): ١٩٨٥؛ ٥، ١٧، ١٧٤ ـ ١٩٠ .

(١٥) سويف (مصطفى). الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠ .

(١٦) حنورة (مصري عبدالحميد): الأسس النفسية للإبداع الفني في الرواية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩ .

(١٧) حنورة (مصري عبدالحميد). الأسس النفسية للإبداع الفني في المسرحية. القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠ .

(١٨) عبدالحميد (شاكر). الأسس النفسية للإبداع الأدبي في القصة القصيرة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢ .

(١٩) فرج (فرج أحمد): ـ التحليل النفسي للأدب، مجلة فصول، ١٩٨١: ٢، ٢، ٢٦ ـ ٣٥ .

ـ التحليل النفسي والقصة القصيرة، فصول، ١٩٨٢: ٢، ٤، ١٦٩ ـ ١٧٨ .

(٢٠) ريد (هربرت). الفن اليوم (ترجمة محمد فتحي وجرجس عبده). القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١، ٩٤ .

(٢١) - Fread, S . Creative writes and Daydreaming. In: P.E. vernon (ed) Creativity. Harmondworth: penguin Books, 1973, 126 - 156.

(٢٢) - Fread, S. Leonardo (Translated by A.Tyson). Harmondworth: penguin Books, 1963.

(٢٣) - Fread, S. Dostoevsky and paricide, in: The standard edition of the complete works of sigmund Fread. London: The Hogarth press, 1981. Vol. XXI, 175-199.

(٢٤) - Lindauer, op. cit, p.19.

(٢٥) - Fread, D ostoevsky and paracide, op.cit.

(٢٦) - op. cit.

(٢٧) - Frager, p.& Fadiman, J. Personality and personal Growth. New York: Harper & Raw, 1984, p. 56.

(٢٨) - Jung, C.G. Psychology and Literature. In: B. Ghiselin (ed) The Creative process. New York: The New Amer, Libr . 1952. 208 - 223.

(٢٩) - Ibid.

(٣٠) سويف (مصطفى) . الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، مرجع سابق، ص ٢٠، ص ٢٠١ .

(٣١) يونج (كارل جوستاف) وآخرون، الإنسان ورموزه (ترجمة سمير علي) بغداد: منشورات وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة الكتب المترجمة، ١٩٨٤، مواضع متفرقة.

(٣٢) - Daiches, op. cit, p. 334

(٣٣) - Lindauer, M. psychology and Literature: An Empirical perspective. In: M.H. Bornstein (ed.), psychology and its allied disciplines, Vol, I, The Humanities, Hillsdale, N. J. Earlbaum, 1984, 113 - 154.

(٣٤) - Ibid.

(٣٥) - Daiches, op. cit, p. 334.

(٣٦) - Charney, M & Reppen, J. - (eds) psychoanalytic approaches to Literature and Film. London: Associated University press, 1987.

(٣٧) - Ganz, M. schreber's Memories of My Nervous Illness: Art prescribed. In: Charney & Reppen (eds) Ibid, 37 - 58.

(٣٨) Harris, J. "But He was His Father": The Gothic and the Impostorious in Dickens's The Pickwick papers. In: Charney & Reppen (eds) op. cit, 69 - 82.

(٣٩) Chussick, R.D. The search of the Authentic self in Bergson and proust. In: Charney & Reppen (eds), op. cit, 19 - 36.

(٤٠) Leuowitz, H.J. & Levenetz, M. Henry Beyle/ Stendhal: A psychodynamic Exploration of the Man and writer, In: Charney and Repper, (eds), op. cit, 59 - 68.

(٤١) Freedman, B. Separation and Fusion in Twelfth Night, In: Charney & Reppen (eds), op. cit, (96 - 119).

(٤٢) Hinely, J. L. Expounding the Dream. Shaping Fantasies in A Midsummer Night's Dream. In. Charney & Reppen (eds), op. cit, 120 - 138.

(٤٣) Westlund, J. what comedy can Do For us: Reparation and Idealization in Shakespear's Comedies. In: Charney & Reppen, (eds), op. cit, 83 - 95.

(٤٤) Paris . B.J. Brutus, Cassius, and Caesar: An Interdestructive Triangle, In: Charney & Reppen (eds), op. cit. 139 - 155.

(٤٥) Charney, M. Analogy and Infinite Regress in Hamlet. In: Charney & Reppen (eds), op. cit, 156 - 170.

(٤٦) Mclean, S. Sexuality and Incest in the plays of Bertold Brecht. In: Charney & Reppen (eds), op. cit, 192 - 214.

(٤٧) Plinger, J.A. Baudelaire and Freud: The poet as Joker In: Charney & Reppen (eds), op. cit, 266 - 281.

(٤٨) Jones, E. Hamlet And Oedipus, N. J: Doubleday, 1955.

وهناك تفسيرات أخرى عديدة: خلاف هاملت غير ما قدمه فرويد وجونز، انظر على سبيل المثال:

- مولون (جيمس) وكلاين (لويس) تأويل جديد لمسرحية هاملت (عرض: مصطفى سويف) مجلة علم النفس، ١٩٥١، ٧، ١٠٢ـ١١٤ · الزغلول (إبي) مقدمة من: إشكالية العلوم النفسية والنقد الأدبي، فصول ١٩٨٣، ٤، ١، ٣٥ـ٥٧.

- Green, A. Oedipus, Freud, and Us. In: Charney & Reppen (eds), op. cit, 215 - 237.

(٤٩) سويف (مصطفى). التحليل النفسي والفنان، مجلة علم النفس، ١٩٤٦، ٢، ٢، ٢٨٣ـ٣٠٥.

(٥٠) سويف، المرجع السابق.

(٥١) Lindauer, The psychological study of Literature, 1974, op. cit, 20 - 21.

(٥٢) Ibid, 22.

(٥٣) Reber, A. The penguin Dictionary of psychology, Harmondsworth penguin Books, 1987.

(٥٤) Lindauer, M. The Empirical Approach to the psychology of Literature: A Guide To Research In: J. P. Natali (ed) psychological perspective on Literature: post Freudian and non Freudian. New york, Archon/ Shoestring press, 1984, 1 - 43.

(٥٥) سويف (مصطفى)، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، مرجع سابق.

(٥٦) حنورة (مصري عبد الحميد) الأسس النفسية للإبداع الفني في الرواية، مرجع سابق.

(٥٧) عبدالحميد (شاكر) الأسس النفسية للإبداع الأدبي في القصة القصيرة، مرجع سابق.

(٥٨) سويف (مصطفى) صورة المرأة كما تقدمها وسائل الإعلام، القاهرة: المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ١٩٧٧.

(٥٩) Lindauer, M. Imagery and the Arts. In. A.A. Sheikh (ed): Imagery, current Theory, Research and Application, New york: John wiley, 1983, 291 - 296.

(٦٠) انظر: عبدالحميد (شاكر) وآخرون: دراسات نفسية في التذوق الفني، القاهرة: مكتبة غريب، ١٩٨٩.

(٦١) Berelson, B. Content Analysis Lindzey (ed) Handbook of Social psychology, 1954.

(٦٢) Simonton, op. cit, p. 118.

(٦٣) Lindauer, The Empirical Approach to the psychology of Literature, op. cit.

(٦٤) Ibid.

(٦٥) Lindauer, M. Aesthetic Experience, : A Neglected Topic in the psychology of Art., In: D. O'Hare (ed). Psychology and the Arts, New Jersey: Harvester press, 1981, 29 - 75.

(٦٦) Lindauer, M. The Empirical Approach to the psychology of Literature, op. cit.

(٦٧) Wallace, D. & Gruber, H. E Creative people at work Oxford: Oxford University press, 1989.

(٦٨) Simonton, op. cit. p. 118.

(٦٩) سويف (مصطفى)، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، مرجع سابق، مواضع متفرقة.

(٧٠) حنورة (مصري عبدالحميد)، الأسس النفسية للإبداع الفني في الرواية، مرجع سابق، مواضع متفرقة.

(٧١) حنورة (مصري عبدالحميد)، الدراسة النفسية للإبداع الفني: منهج وتطبيق، فصول، ١٩٨٠، ١، ١، ٣٦ـ٥١.

(٧٢) عبدالحميد (شاكر)، الأسس النفسية للإبداع الأدبي في القصة القصيرة خاصة، مرجع سابق، مواضع متفرقة.

(٧٣) Jung, C.G. psychology and Literature, op. cit.

(٧٤) Frye, N. et al, The Harper Handbook to Literature. new york: Haper & Row, 1985.

(٧٥) التهانوي (محمد علي بن علي)، كشاف اصطلاحات الفنون، المجلد الأول، القسم الثاني، كلكتة: ١٨٦٢.

(٧٦) Shipley J.T. Dictionary of world Literature (taste) New york 1953.

(٧٧) فراج (محمد فرغلي)، مدخل إلى علم النفس، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٤، ص ١٠٣.

(٧٨) سويف (مصطفى)، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، مواضع متفرقة.

(٧٩) سويف (مصطفى)، دراسات نفسية في الفن. القاهرة: مطبوعات القاهرة، ١٩٨٣.

(٨٠) حنورة (مصري عبدالحميد)، سيكولوجية التذوق الفني. القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٥، مواضع متفرقة.

(٨١) حنورة، المرجع السابق، مواضع متفرقة.

(٨٢) Smets, G. Aesthetic Judgement and Arousal An experimental Contribution to Psychaesthetics, Belgium: Leuven University press, 1973, p. 11.

(٨٣) أبو حطب (فؤاد). التفضيل الفني وسمات الشخصية، المجلة الاجتماعية القومية، ١٩٧٣، ١٠، ١، ٣ ـ ٣٠.

(٨٤) أوتيل (و. م)، مرجع سابق، ص ١٢.

(٨٥) Berlyne, D.E. Aesthetics and psychobiology, New york: A ppleton - Century, Crofts, 1971, p. 10.

(٨٦) Berlyne, Ibid, p.11.

(٨٧) Berlyne, D.E. Conflict, Arousal, and Curiosity. New York: Mcgraw - Hill, 1960.

(٨٨) Berlyne, op. cit, 1971.

(٨٩) O'Hare, D. Introduction. In: D.O'Hare (ed) psychology and The Arts, New Jersey: The Harvester press, 1981, 13 - 28.

(٩٠) Lindauer, M. The psychological Study of Literature. 1974, op. cit. 161 - 162.

(٩١) انظر:

أ ـ عبدالحميد (شاكر) وآخرون. الفروق بين الجنسين في التفضيل الجمالي (في الأدب خاصة) في: شاكر عبدالحميد وآخرون، دراسات نفسية في التذوق الفني، مرجع سابق، ١٤٣ ـ ١٨٨.

ب ـ عبدالحميد (شاكر) وآخرون: العلاقة بين التفضيل الجمالي وبعض سمات الشخصية (في الأدب خاصة)، المرجع السابق، ١٨٩ ـ ٢٢٥.

(٩٢) -Soueif, M.I. & Eysenck, H.J. Cultural Differences in Aesthetic preferences. International Journal of psychology, 1971, 6: 293 - 298.

(٩٣) السيد (عبدالحليم محمود). الإبداع والشخصية، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧، ٢٧١.

(٩٤) Child, I.L. Esthetics, In: G. Lindzey & E. Aronson (eds). Handbook of Social psychology, Readings, Mass: Addison wesley, 1969, 953 - 916.

(٩٥) عياد (شكري). اللغة والإبداع، مبادئ علم الأسلوب العربي. القاهرة: انترناشيونال برس، ١٩٨٨، ص ٧٨ ـ ٨٥.

(٩٦) كوين (جان). بناء لغة الشعر (ترجمة: أحمد درويش). القاهرة: مكتبة الزهراء، ١٩٨٥، ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٩٧) Berlyne, 1971, op. cit.

(٩٨) Lindauer, The psychological study of Literature op. cit, p. 193.

(٩٩) Simonton, op., cit, pp 49 - 51.

(١٠٠) Valentine, C.W. An Introduction to the experimental psychology of Beauty, London: T. C. & E.C. Jack Ltd, 1919.

(١٠١) Ortony, A. (ed) Metaphor and Thought. Cambridge: Cambridge University press, 1979.

(١٠٢) Lindauer, The psychological study of Literature, op. cit, p. 149.

(١٠٣) - Lindauer, Ibid. p. 149.

(١٠٤) - Vikis - Freibergs, V. Creativity and Tradition in Oral Folklore, or the Balance of Innovation and Repetition in the Oral Poet's Art. In: w.R. Crozier & A. J. Chapman (eds), The Cognitive Processes in the Perception of Art. North Holand: Elsevier publishers, 1984, 325 - 343.

(١٠٥) - Lindauer, The psychological Study of Literature, op. cit, 154 - 155.

(١٠٦) - Bartlett, F.E. Remembering. Cambridge: Cambridge University press, 1932.

(١٠٧) سويف (مصطفى) النقد الأدبي: ماذا يمكن أن يفيد من العلوم النفسية الحديثة، فصول، ١٩٨٣، ٤، ١، ١٩ ـ ٣٣.

القارئ والنص:

(من السيميوطيقا إلى الهيرمينوطيقا)

سيزا قاسم

(مثل الزارع)

فكلمهم بالأمثال في أمور كثيرة قال: «هو ذا الزارع قد خرج يزرع. وبينما هو يزرع، وقع بعض الحب على جانب الطريق، فجاءت الطيور فأكلته. ومنه ما وقع على أرض حجرية لم يكن له فيها تراب كثير، فنبت من وقته لأن ترابه لم يكن عميقا. فلما أشرقت الشمس احترق، ولم يكن له أصل فيبس. ومنه ما وقع على شوك فارتفع الشوك فخنقه. ومنه ما وقع على أرض طيبة فأثمر، بعض مئة، وبعض ستين، وبعض ثلاثين. فمن كان له آذان فليسمع»!

فدنا تلاميذه وقالوا: «لماذا تكلمهم بالأمثال؟ فأجابهم: لأنكم أعطيتم أنتم أن تعرفوا ملكوت السموات، وأما أولئك فلم يعطوا ذلك. لأن من كان له شيء يعطي ويفيض. ومن ليس له شيء ينتزع منه حتى الذي له. وإنما أكلمهم بالأمثال لأنهم ينظرون ولا يبصرون ولأنهم يسمعون ولا يسمعون ولا هم يفهمون وفيهم تتم نبوءة أشعيا حيث قال:

«تسمعون سمعا فلا تفهمون

وتنظرون نظرا فلا تبصرون

فقد غلظ قلب هذا الشعب

وأصموا آذانهم عن السمع

وأغمضوا عيونهم

لئلا يبصروا بعيونهم

ويسمعوا بآذانهم

ويفهموا بقلوبهم

ويتوبوا فأشفيهم»

«وأما أنتم فطوبى لعيونكم لأنها تبصر، ولآذانكم لأنها تسمع. الحق أقول لكم إن كثيرا من الأنبياء والصديقين تمنوا أن يروا ما تبصرون فلم يروا، وأن يسمعوا ما تسمعون فلم يسمعوا»

(متى ١٣، ٣ ب - ١٣)

مدخل

كلنا يعيش في عالمين: عالم الطبيعة وعالم الحضارة. أما عالم الطبيعة فيمكن أن نقول إنه عالم أصم أبكم: فالأشجار والزهور والجبال والصخور والبحار والصحارى والشموس والكواكب، والحيوانات والحشرات هي أشياء أو كائنات تتقاسم معنا حيزا في الكون الذي نحن جزء منه. والطبيعة ساهرة أيضا في أعماقنا، في أننا بشر يخضع تكويننا البيولوجي لقوانينها، فالدم الذي في عروقنا، وقلوبنا وأعضاؤنا، والجينات التي تتحكم في لون بشرتنا، وملمس شعرنا، وطولنا، وفي كثير من طباعنا وخصالنا كلها أيضا ظواهر من فعل الطبيعة. ولكن هل لكل ما ذكرنا آنفا معنى أو دلالة؟ قد تبدو الإجابة واضحة من الوهلة الأولى بالنفي. فما معنى الجبل أو البحر أو القلب أو الدم، أو البشرة السوداء أو الشعر الأملس؟ وهل لحمرة الدم دلالة؟ إذن لماذا يقال إن بعض الناس يجري في عروقهم الدم الأزرق؟ لماذا يكره البعض من يختلف لون بشرته؟ لماذا يقارن الإنسان باليم؟ لماذا عندما نرى امرأة جميلة تبدى لنا «وكأنها البدر في تمامه»؟

إن الإنسان يسعى إلى العالم الآخر، عالم الحضارة بكل قوته. فالحضارة هي تحويل عالم الطبيعة الأبكم الأصم إلى عالم ناطق يمكن التحاور معه: أكلمه فيجيب. وأستطيع بدءا أن أقول إن هناك تجاذبا قويا بين عالم الطبيعة وعالم الحضارة، عالم الحياة وعالم الدلالة، عالم الذين يعيشون وعالم الذين يفسرون.

لا يستطيع الإنسان أن يعيش في الصمت والسكوت، فاللغة هي الملكة التي تميز الإنسان عن غيره من الكائنات، ولا يختلف الطبري فقيه القرن الرابع من الهجرة (العاشر الميلادي) عن تشومسكي لغوي القرن العشرين - على قلة ما يتفقان فيه - في أن اللغة هي المميز الأساسي للبشر. يقول الطبري:

إن من عظيم نعم الله على عباده، وجسيم منته على خلقه، ما منحهم من فضل البيان، الذي به عن ضمائر صدورهم يبينون، وبه على عزائم نفوسهم يدلون، فذلل به منهم الألسن، وسهل عليهم المستصعب، فبه إياه يوحدون، وإياه به يسبحون ويقدسون، وإلى حاجاتهم به يتوصلون، وبه بينهم

يتحاورن، فيتعارفون ويتعاملون . . .[١]

وإذا كان منطلق تشومسكي يختلف اختلافا جوهريا عن منطلق الطبري، إذ إن تشومسكي يرى أن اللغة ملكة بيولوجية لها نفس الخصائص البيولوجية التي لملكة البصر أو السير عند الإنسان، أو لملكة الطيران عند الطيور. ورغم اختلافهما الكبير عن مصدر اللغة، فقد اتفقا على أن اللغة كانت، ومازالت، تحتل مكان الصدارة في تميز الإنسان عن عالم الطبيعة الذي يعيش فيه.

كان الطبري في تعريفه «للبيان» ـ وهو هنا يعني اللغة في أرقى مستوياتها ـ مشغولا بالرسالة الإلهية . . القرآن، من حيث إنها معجزة لغوية وإنها أبين من أي لغة إنسانية مهما توصلت إليه من كمال. أما تشومسكي فكان مشغولا بقضية البنيات النحوية التي تخضع لها اللغة والتي لا يمكن أن تفسر بالاكتساب أو التعلم. فالجانب الذي يهتم به الطبري هو جانب البيان أو جانب القصد، كيف يبين كل متكلم عما يختلج في نفسه، وكيف يتواصل مع غيره من البشر، أما تشومسكي، النحوي التوليدي التحويلي فإنه يحاول أن يعرف كيف تنتج الجمل النحوية الصحيحة. وفي هذين المدخلين نرى أن الاهتمام الأساسي هو في الجانب الإنتاجي للغة، أو الجانب الوظيفي للغة في حياة البشر. غير أن الذي يهمنا نحن في هذا المقام هو الجانب المقابل لهذا المدخل؛ وهو كيف تستقبل اللغة؟ أو كيف تفهم؟ كيف تنتقل الدلالة من منبع ما إلى مستقبلها؟ كيف يفهم البشر بعضهم البعض؟

ولكن هل نستطيع أن نتناول الإجابة عن هذا السؤال دون أن نبدأ بالإجابة عن السؤال الأول، وهو ما أصل اللغة؟ يبدو لي أن الإجابة عن هذا السؤال قد انتقلت في العقود الثلاثة الأخيرة من مجال الفلسفة التأملية إلى مجال النيوروبيولوجي، وذلك مع بداية دراسات عالم اللغة الأمريكي أيريك لينبرج الذي وضع الخطوط الأولى لدراسة الأسس البيولوجية لاكتساب اللغة. ولا شك أن علم اللغة أصبح اليوم عميق الجذور في العلوم الطبيعية البيولوجية، ولكن هذه الدراسات مازالت في مهدها، ولاتستطيع أن تحل كثيرا من الجوانب الخاصة بالأبعاد الاجتماعية والحضارية للغة. فاللغة شأنها شأن كل ما يتعلق بالكيان البشري لها جانب طبيعي بيولوجي معطى ولها جانب مكتسب. ومن هنا يمكن أن ينطلق تأملنا حول تعاملنا مع اللغة في المجال الإنساني.

ونعود إذن إلى سؤالنا الذي طرحناه وهو كيف يفهم البشر بعضهم البعض؟ وكيف يفهمون العالم الذي يعيشون فيه؟ كيف يفهمون الطبيعة وكيف يفهمون الحضارة؟ وكيف يفهمون أنفسهم؟ وهل الفهم هو مقابل للمعرفة أم أنه حالة نفسية عقلية مختلفة؟ هل يمكن أن نتحدث عن سوء معرفة كما نتحدث عن سوء فهم؟ هل الفهم يستدعي التفسير والتأويل أو أن الفهم حالة سابقة للتفسير؟

إن الإجابة عن الأسئلة المتعلقة بالمعرفة تخص علم الإبستمولوجيا الذي يبحث في إمكانية النفس الواعية معرفة العالم الذي يحيط بها، وهل لهذا العالم وجود خاص مستقل عن الذات العارفة أم هو إسقاط لما في هذه النفس من ملكات وخبرات ونزعات. تتناول الإبستمولوجيا كل ما يتعلق بما هو خارج النفس البشرية من أشياء سواء كانت طبيعية أو حضارية. فالابستمولوجيا، أو نظرية المعرفة، هي الباب الأول الذي ندخل منه إلى الفهم. ويؤثر المنحى الجوهري في الابستمولوجيا على ما يتعلق بموقفنا من الفهم. إذا اعتقدنا أن العالم له وجود مستقل عن ذاتنا فمحاولة فهمه ستختلف عنها إذا ما اعتقدنا أنه إسقاط لما في نفوسنا.

وتتفرع الإبستمولوجيا إلى فرعين كبيرين، الفرع الأول ينطوي على المشاكل الخاصة بعالم الطبيعة ومنه تولدت العلوم الطبيعية، والفرع الثاني ينطوي على المشاكل الخاصة بعالم الحضارة، ومن هذا الفرع تتولد العلوم الإنسانية. ولا شك أن كل ما يخص الإنسان يتأرجح بين الفرعين. غير أن هناك علمين يخصان الفرع الثاني بشكل ربما يكون ألصق، هما السيميوطيقا والهرمينوطيقا. فهما يتعاملان في الأساس مع ما ينتجه البشر من وسائل لتحويل محيطهم إلى محيط إنساني، وأعني بإنساني محيطا ذا دلالة.

وإذا حاولت في البداية تعريف السيميوطيقا والهرمينوطيقا، فأستطيع أن أقول إن الأولى تسعى إلى تعريف العلامات التي يبدعها البشر وتصنيفها وتحليلها، بينما تسعى الثانية إلى كشف الطرق والوسائل التي تمكن من فهم النصوص. ومن الوهلة الأولى يمكن أن نتبين أن السيميوطيقا أعم، لأنها تتعامل مع جميع أنواع العلامات، أما الهرمينوطيقا فإنها ألصق بالنصوص التي تبدع في إطار اللغة الطبيعية. وإذا كانت السيميوطيقا ألصق بالإطار الاجتماعي فالهرمينوطيقا ألصق بالنطاق الفردي. ولكن في الأساس نجد أن العلمين هما في الواقع تطوير لعملية القراءة، وتقنين لها، وطرح لجميع المشاكل المتعلقة بها. إن السيميوطيقا والهرمينوطيقا هما في الواقع المنهج الذي يمكن أن نسلكه لقراءة العلامات والنصوص.

ماذا يحدث عندما يواجه قارئ نصا ما؟ ما نوعية العلاقة التي تتخلق من هذا اللقاء بين القارئ والنص؟ هل يمكن الفصل بين النص والقارئ؟ عمّ يبحث القارئ في النص؟

يمكن أن أقدم عملية القراءة على أنها تسلق سلم حلزوني يبدأ بالطابق الأول وهو طابق العلامات بكل أنواعها، ثم التوصل إلى الطابق الثاني، طابق اللغة الخاصة بكل نص، ثم الطابق الثالث وهو طابق تفسير النص وتأويله، ثم التوصل إلى الطابق الرابع وهو القمة التي يمكن أن نصل إليها وهو طابق الاستيعاب أو تحويل النص إلى معايشة فعلية.

يحسن أن نعرف القراءة هنا قبل أن نستطرد في بحثنا.[٢] أقول إن القراءة خبرة معقدة في إدراك شيء ملموس في العالم الخارجي ومحاولة التعرف على مكوناته وفهم هذه المكونات: وظيفتها ومعناها. هذا التعريف العريض لعملية القراءة ينطبق على كثير من الأنشطة البشرية في التعامل مع معطيات الواقع. ولا شك أنني أطرح هذا التعريف المبدئي انطلاقا من وعيي بأن النفس المدركة للعالم الخارجي تتعامل مع هذا العالم على أنه عالم مركب متشعب يمد النفس بكم هائل من المدركات في كل لحظة من لحظات الإدراك الواعي. فهل كل إدراك قراءة؟ إن الإجابة عن هذا السؤال هي النفي بكل تأكيد، رغم ما في عملية الإدراك من تركيب وماتنطوي عليه من انتقاء وتنظيم. فالإدراك ليس عملية سلبية بحيث يستقبل المتلقي المدركات دون رد فعل ولكنها عملية انتقائية تخضع لبعض المستلزمات[٣]. فليس كل إدراك قراءة، ولكن القراءة لابد أن تبدأ من نقطة هذا الإدراك لواقع محسوس، ثم تنتقل النفس إلى تصنيف هذا الواقع إلى ماهو «قابل» للقراءة وما هو غير قابل للقراءة. وإذا كانت بعض الإدراكات تتم دون تدخل الوعي، مثل أن أسحب يدي إذا ما لمست شيئا ساخنا، فإن القراءة تستلزم قدرا كبيرا من تدخل الوعي، بل أكثر من ذلك فهي عملية ذهنية تقوم على ترجمة عنصر مادي إلى عنصر معنوي. فالقراءة في المقام الأول عملية واعية، أي أن الإدراك العفوي لمعطى ما ـ كما أسلفنا ـ لا يمكن أن يعد قراءة، هذا بالإضافة إلى أنها عملية مركبة ومعقدة ذات مراحل ومستويات متعددة، وكما ذكرنا هناك أربعة مستويات:

الإدراك، فالتعرف، فالفهم، ثم التفسير.

فالإدراك هو مستوى حسي يعتمد على الحواس: الشم أو البصر أو السمع أو اللمس، إدراك حسي لشيء مادي موجود في عالم الواقع.

أما التعرف فينطوي على عملية ذهنية تستكنه الطبيعة السيميوطيقية لهذا الشيء، فرغم أن هذا المدرك شيء مادي ينتمي إلى عالم الواقع إلا أنه ذو طبيعة خاصة، إنه «علامة» أي ينتمي إلى نظام سميوطيقي، وكما هو معروف فالعلامة شيء مادي مزدوج البنية: له جانب مادي (سمعي أو بصري أو لمسي) وله جانب معنوي هو الدلالة.

أما الفهم فهو محاولة فك شفرة العلامات، وهو المستوى الأولي للتوصل إلى الدلالة، وهذا المستوى يتطلب درجة كبيرة من التعلم حيث إن الدلالة ليست معطى من معطيات الشيء، أو صفة من صفاته ولكنها تسند إليه بفعل الاصطلاح والمواضعة.

وقد تتوقف عملية القراءة عند هذا المستوى الثالث، عند فك شفرة الشيء. ولكن في أحيان أخرى تكون هذه الدلالة مبتورة أو مغلوطة وعندئذ لابد من محاولة معرفة إذا ما كانت هذه الدلالة تنطوي على مستوى أعمق يحتاج إلى عملية تفسير، أي قد تكون الدلالة المتعرف عليها غير كاملة ولذا لابد من البحث عن شفرة جديدة تكمل الشفرة الأولى وتوصل إلى المعنى الثاني أو معنى المعنى.

المستوى السيميوطيقي: مرحلة التعرف

يعيش الإنسان في عالم الطبيعة وعالم الثقافة، والذي يميزهما هو أن الأول مكون من الأشياء أما الثاني فمكون من النصوص. والثقافة هي في الواقع مخزون هذه النصوص. والذي يميز النص عن غيره من الأشياء هو أنه حقيقة سميوطيقية. ولا أود هنا أن أستعرض النظرية السيميوطيقية ولكنني أود أن أعرض بعض الأمثلة لكي أوضح كيف يستقبل القارئ النص بوصفه ظاهرة سميوطيقية.

إذا ما تأملنا المكان، وهو المحيط الذي يعيش فيه الإنسان، فإننا نستطيع أن نصفه طبقا للإحداثيات المكانية من قياسات الحجم، والمسافة، البعد والقرب. غير أن المكان يكتسب صفة سميوطيقية من خلال إعطائه قيمة دلالية تميز بين الظواهر المكانية التي لا يختلف بعضها عن البعض في الواقع. فالقرب والبعد، أو الطول والقصر، ليس لها قيمة في حد ذاتها غير أنها تكتسب قيمة من خلال تنظيم سميوطيقي لهذه العناصر. ومن ثم نجد أن هذا النظام السميوطيقي لعناصر المكان يتخلل كثيرا من النشاط الإنساني. فالنظام السميوطيقي للمكان ينعكس على الاستخدامات اللغوية، فالعلو والانخفاض، والقرب والبعد، والحركة والسكون كلها مفاهيم تكتسب بعدا جديدا من خلال قيمتها السميوطيقية. وينعكس أيضا النظام السيميوطيقي للمكان على تنظيم المحيط المكاني الذي ينشئه الإنسان ليستقر فيه. فاختيار الشاطئ الشرقي للحياة والغربي للموت في التراث الفرعوني ناشئ من تنظيم سميوطيقي للمكان. ونجد هذا الاختيار في ثقافات كثيرة، وقد يكون معكوسا في بعضها دون أن يفقد دلالته السميوطيقية المحلية. ففي العصر الحديث أصبح الغرب هو مرادف التقدم واكتسب الشرق صورة التخلف، بعكس ما كانت دلالتها في أزمنة سابقة. وهذه الصورة تعتمد على الطريقة التي تدرك بها كل ثقافة نفسها كما تترتب على الطريقة التي تدرك بها الآخر. إن النظام السميوطيقي للمكان ينعكس أيضا على الطريقة التي ينظم بها كل مجتمع الفصل بين الجماعات وفقا لنظرته الخاصة: أماكن للبيض وأماكن للسود، أماكن للأغنياء وأماكن للفقراء. ولا يظل هذا الفصل ثابتا بل يخضع للتغيير. فالأحياء تتغير ملامحها، ويهجرها سكانها الأصليون لأن قيمتها تتبدل مع مرور الزمن، بفعل متغيرات اقتصادية أو اجتماعية أو سميوطيقية ويتعذر أن نفصل بين كل العناصر التي

تساهم في تشكيل وعي البشر بواقعهم. إن تنظيم الحياة في المكان يخضع لتنظيم سميوطيقي صارم في بعض الأحيان. ومن أهم أنواع هذا التنظيم الفصل والوصل. قد تناول ميشيل فوكو في بحثين هامين[٤] عمليات الفصل التي يقوم بها المجتمع لتنقية نفسه من العناصر الشاذة. ومن وسائل الفصل التي كان يلجأ إليها المجتمع لإبعاد المجانين في القرون الوسطى وضعهم في سفن خاصة تظل تجوب البحار إلى الأبد. وقد درس فوكو أيضا وسائل أخرى من الفصل وهي السجون. وتشبه السجون مصحات الأمراض العقلية في أنها أماكن مقتطعة من المكان الاجتماعي ولها وضعها الخاص، وهيبتها ورهبتها. وإذا كان السجن له قيمته السيميوطيقية بالنسبة لتنظيم المكان إلى منفصل ومتصل فإنه أيضا له قيمة من حيث الحركة والسكون. غير أن الانفصال والاتصال لا يقتصر على هذين المكانين - أي السجن وسفينة المجانين أو المصحات الخاصة بالأمراض العقلية - ولكنهما يظهران في أنماط أخرى من الأماكن مثل الأديرة والصوامع، وكثيرا ما نجد مثلا في القرى الإفريقية الكاهن، أو الحكيم، يعيش في كوخ خارج زمام القرية لأنه يختلف عن باقي أفراد الجماعة بأنه يحمل في دخيلة نفسه أسرار الحكمة والمعرفة، وينتقل إليه أفراد الجماعة للمشورة عندما تواجههم مشكلة أو أزمة. وبصفة عامة يمثل الفصل - سواء كان اختياريا أو إجباريا - عملية بتر أو تهميش لجماعة ما، أو لفرد ما. ويعمل أيضا الفصل والوصل على تنظيم المكان إلى خاص وعام، وهذا التقسيم يسري في تصور المسكن الفردي، كما يسري على الأماكن العامة، فالمقهى يختلف عن المسرح من حيث نوع العلاقات التي يفرضها على رواده. فالمقهى يمثل معبرا بين العام والخاص، بين الوحدة والتجمع، أما المسرح فيضع جمهور المشاهدين - رغم استقلالهم كأفراد - كمجموعة، في مقابل خشبة المسرح ومن عليها من ممثلين. فالسلوك البشري يختلف اختلافا تاما بين هذين القطبين: العام والخاص. وكذلك ينتظم المكان من حيث انفصال المقدس والإنساني. ويتم هذا الفصل بين الإنساني والمقدس من خلال تحديد المقدس ببعض العلامات والمؤشرات، وهذه تختلف من ثقافة إلى ثقافة. ويمكن فصل الإنساني عن المقدس بفعل وضع جسدي مثلا فعندما يتوجه المسلم نحو القبلة للصلاة، فإنه بهذا الفعل يحول المكان الذي يقف فيه من إنساني إلى مقدس. وتقول الرسامة الفرنسية أرليت فابر إن مرسمها هو كنيسة بالنسبة لها، وعندما طُلب منها تفصيل هذه الفكرة قالت إنه مكان مغلق، محدد، مخصص للتأمل ولا يسمح لأي شخص بدخوله، لأن أغلب من يدخلونه يفسدون مناخه لعدم فهمهم أبعاد التأمل الذي يشيع فيه، وإنها كثيرا ما تستمع في هذا المرسم إلى قداس الموتى لموتزارت وإن هذه الخبرة، إذا ما كانت في حالة من الاستعداد النفسي تؤهلها للتفاعل مع الموسيقى، تصل إلى حالة من الكشف تسبب لها توترا جسديا لا يحتمل في بعض الأحيان، وأنهت تحليلها بالقول: لو كان الله موجودا فإنه بكل تأكيد موجود في هذه الموسيقى. فبالرغم من أن هذه الفنانة ملحدة فإن قيمة المكان المقدس ودلالته انتقلتا من المكان المقدس التقليدي وهو الكنيسة بكل العناصر المكونة له إلى مكان إنساني فتحول إلى مكان مقدس في وعي من يشغله.

ولا أظن أن هذا الإدراك للمكان إدراك حديث، أو من اختراع علماء السميوطيقا المعاصرين، ولكن يمكن أن نقترح أن هناك وعيا أعمق بالبعد السيميوطيقي للمكان بحيث إن المهندسين المعماريين اليوم كثيرا مايتحدثون عن سميوطيقا العمارة. فالعمارة هي تقنية، وفن، وسميوطيقا في آن واحد. فالتقنية تتعلق بالجانب العملي للإنشاء، والفن يتعامل مع الجانب الجمالي للمبنى، والسميوطيقا تتعامل مع تنظيم دلالي وقيمي للحيز المكاني الذي يخصص لوظائف مختلفة في حياة الجماعة[٥].

ويمكن القول إن من آليات الثقافة الأساسية تحويل الأشياء الطبيعية إلى ظواهر سميوطيقية. ولكل ثقافة نظامها السيميوطيقي الخاص والذي تحدد نفسها من خلاله وتحكم من خلاله على الآخر: فكل من يوجد داخل حيز هذا

النظام فهو منها، ويوصف بالتحضر، وكل خارج عنه فهو بربري. فالحضارة والبربرية صفة نسبية داخل إطار كل حضارة. وقد تناول تودوروف[6] هذا الصدام الحضاري بين الأسبان والهنود الحمر في مرحلة غزو أمريكا في عصر النهضة في كتاب يقوم على أساس القراءة السيميوطيقية المغلوطة للثقافة الضد من جانب الأسبان ومن جانب الهنود الحمر. إن هذا البعد من الصراع لا يلغي بالطبع الصراعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والنفسية، أو غيرها، إلا أن الاتصال بين الحضارات، مثله مثل الاتصال بين الأفراد، يقوم على معرفة الشفرات الخاصة بكل ثقافة، أو مجتمع، أو فرد. وكلما تعمق الوعي باختلاف الشفرات وتنافرها صعب الاتصال، وكلما تعمق الوعي بالتشابه بين الشفرات وتناغمها تيسر الاتصال.

ولم أستخدم مصطلح العلامة حتى الآن مفضلة استخدام كلمة ظاهرة، الأكثر اتساعا ومرونة، خوفا من إثارة الغموض أمام القارئ الذي يستقبل هذا الجديد ويشعر أنه يخبر شيئا يختلف عن الظواهر الطبيعية، فيه كثير من الجوانب المتشعبة، إذ إن الظاهرة السيميوطيقية قد تكون في بعض الأحيان محددة، وفي أحيان أخرى غير محددة في الوعي. وهنا يمكن أن نطرح منذ البداية مشكلة العلاقة بين العلامة والدلالة والشيء الذي تدل عليه العلامة والذات التي تستقبل هذه العلامة.

ويمكن أن نختبر هذه العلاقات من خلال بعض الأمثلة المحددة. فإذا أخذنا مثلا مثال المدينة، فإنها بوصفها علامة سيميوطيقية هي في المقام الأول حقيقة مكانية. تكتسب قيمتها السيميوطيقية من مجموعة من المكونات الدلالية والقيمية، بعضها يتعلق بتفاصيل تخص وضع المدينة نفسها في نطاق المنظومة الثقافية العامة: هل هي عاصمة؟ ميناء؟ حجمها؟ مناخها؟ من ولد فيها؟ ما أبرزها من الأحداث التاريخية؟ هل ننظر اليوم إلى مراليقو كما كنا ننظر إليها من سنة مضت؟ وكيف ينظر أهل المدينة إليها في مقابل نظرة الآخر إليها؟ وإذا كانت المدينة الكبيرة تختلف عن المدينة الصغيرة، وكذلك عن القرية، فإن قلب المدينة يختلف عن الضواحي. ولكل من هذه التجمعات خصائص منها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والجمالي والسيميوطيقي. والمدينة بوصفها ظاهرة سيميوطيقية تتحقق في الوعي من خلال الممارسة الحياتية. فالذي يعيش في المدينة يحيها على مستويات مختلفة منها المستوى السيميوطيقي. وإذا ذكرنا قصيدة لافونتين فأر المدينة وفأر الحقول تظهر القضية الأولى التي تميز بين المدينة واللامدينة، فلكل منها خصائص محددة، هي التي تشكل الوعي السيميوطيقي للمكان. وقد نذكر من هذه الخصائص النور في مقابل الظلمة، (حتى أن باريس أصبحت تحمل اسم مدينة النور)، الحركة في مقابل السكون، الصحوة في مقابل النوم، العنف في مقابل السكينة، النجاح في مقابل الفشل، الحياة في مقابل الموت. وإذا ما نظرنا إلى خريطة العالم فإن هناك بعض المدن التي تمثل معالم لها كثافة سيميوطيقية كبيرة مثل طيبة، أثينا، روما، القسطنطينية، بغداد، قرطبة، باريس، لندن، إلخ... وفي كل ثقافة وعصر تحتل بعض المدن مكان الصدارة، وقد تتلاشى دون أن تترك أثرا، وقد تحيا إلى الأبد في الوعي الإنساني. وتختلف الكثافة السيميوطيقية للمدينة طبقا للمنظومة التي تدخل فيها فإذا كانت الثنائية الضدية التي تدخل فيها هي الحضر والبداوة/ الريف، فإنها تخضع لبعد دلالي يختلف عما إذا ما دخلت في منظومة المقدس والإنساني، ففي هذه الحالة تجد مجموعة أخرى من المدن تحتل مكان الصدارة مثل مكة، بنارس، كيوتو، القدس، وتكتسب المدينة قداسة خاصة يحج إليها المؤمنون كما يحج إلى العواصم من يسعى إلى البهجة والنجاح، وإذا دخلت المدينة في منظومة العلم والجهل فإن الوضع أيضا يختلف والكثافة السيميوطيقية تختلف.

ويمكن النظر إلى المدينة على أنها نص يمكن قراءته. ففي الواقع المعاش تقرأ المدينة من خلال تحقق الوعي

السيميوطيقي. هل يستطيع أي متلق للمدينة قراءتها؟ أم أن هذه القراءة تختلف من قارئ إلى آخر؟ هل تتفق قراءة الساكن الأصلي للمدينة مع قراءة السائح الذي يزورها؟ هل تختلف قراءة السائح الياباني عن قراءة السائح المصري؟ ومن بين المتماثلين كيف قرأ الطهطاوي باريس في مقابل توفيق الحكيم أو حسين فوزي؟

إنني أدعي في هذا المضمار أن الكفاءة السيميوطيقية تشبه الكفاءة اللغوية ولكنها أوسع، وهي في الواقع ناتج الحياة داخل إطار ثقافي معين في عصر معين، تمكن أفراد الجماعة من التواصل على المستوى الحياتي لا اللغوي فقط. فعندما زار رولان بارت اليابان نظر إليها على أنها نص لابد أن يقرأ. فكانت اليابان بالنسبة لرولان بارت، بوصفها نصا، عصلة الظواهر الثقافية الدالة في هذا النص، من طرائق التحية إلى اختيار الأزياء، إلى تنسيق الزهور، إلى طقوس تناول الشاي، إلى المنتج الفني في كل تجلياته من شعر ورسم وموسيقى ومسرح، ومسرح عرائس، إلخ... ومن واقع قراءته لهذا النص، بعد أن زار اليابان ثلاث مرات، أصدر بارت كتابا بعنوان إمبراطورية العلامات[7].

ويبقى السؤال: هل تمكن بارت من قراءة اليابان ـ النص؟ هل أستطيع أنا بوصفي قارئة لبارت، من خارج الثقافة اليابانية والفرنسية، أن أثق في قراءة بارت لليابان ـ النص؟ ورغم مافي الكتاب من حساسية عميقة في قراءة علامات ثقافة مختلفة، يظل السؤال هل هذه القراءة صحيحة؟ وهل هناك قراءة صحيحة وقراءة خاطئة؟ أم أن قراءة بارت هي تأويل ذاتي لعلامات يجهل هو حقيقة دلالتها وقيمتها؟ كيف نستطيع أن نعرف هذا؟ قد يساعد أن نقارن ما كتبه بارت عن اليابان بتحليل مقابل لنفس الظواهر من إنتاج شخص من داخل الثقافة نفسها لنرى إذا ما كان هناك تطابق بين نتائج بارت ونتائج القارئ الياباني للثقافة. ومن اللافت أن كاتبين يابانيين علقا على عمل بارت، والكاتب الأول هياكوداي ساكاموتو قدم بحثا بعنوان «بنية مفهوم الـ «وا» بوصفه وسيطا سيميوطيقيا يميز الروح اليابانية»[8]، يبدأ الكاتب بالقول إن كتاب بارت كتاب صادم، ولكنه سرعان ما يضيف أنه ـ حتى بالنسبة لليابانيين ـ يبدو تحليله جديدا ومثيرا. ثم يذهب الكاتب بعد ذلك للقول بأنه يريد في مقاله أن يحمل المسار في إمبراطورية العلامات «لا من وجهة نظر الأجنبي ولكن من وجهة نظر الياباني». فنحن هنا أمام من يقف خارج الثقافة ويحاول قراءتها، ومن ينتمي إلى الثقافة ويقرأ قراءة الآخر. ويقدم هياكوداي ساكاموتو علامة هي في رأيه العلامة المنبع التي منها تتولد كل الثقافة اليابانية والتي لم يتوصل بارت إلى الكشف عنها. والـ «وا» كما يقول الكاتب هي في الواقع علامة تستخدم كنوع من الوسيط Interface بين الأوجه لتفادي الصدام. ويفسر الكاتب الانحناءة التي تميز التحية اليابانية بأنها نابعة من الـ «وا»، وهي في الواقع تنبع من نزعة غريزية في محاولة تفادي الصدام بين أعضاء الفصيلة الواحدة. ويقول الكاتب إنه عند نوعية معينة من الأوز يعتبر مد العنق في اتجاه الآخر علامة على نية العدوان، أما مد العنق بعيدا عن الآخر فهو علامة على التحية. وهكذا فإن الانحناء يكشف عن غياب نية بالعدوان. فالانحناء هي في الواقع وسيط سلام بين عضوين من جماعة واحدة. ويضيف الكاتب أن السيدة إذا ابتسمت عندما يعرض عليها عرض فهذا علامة على الرفض لأن الابتسامة في هذه الحالة هي تحقق للـ «وا»، تسهل تقبل الرفض، أو تمنع المواجهة. ولذلك لا يستسيغ الياباني تبادل النظرات المباشرة لأنها تعني الاحتكاك المباشر وهو نوع من العدوان. ويضرب الكاتب أمثلة أخرى كثيرة عن الـ «وا» في الثقافة اليابانية. وأما المقالة الثانية فهي بقلم كيكوكو تاتشيانا بعنوان «العلامات الفارغة في النص ـ اليابان»[9]. والكاتبة في هذه المقالة تتحفظ على النتيجة التي توصل إليها بارت من أن العلامات في النص ـ اليابان فارغة رغم اتفاقها مع كثير من النتائج الفرعية التي توصل بارت إليها. وتتناول الكاتبة مجالات مختلفة من الثقافة اليابانية: الشعر، وطقوس تناول الشاي، وتنسيق الزهور التي تطورت تحت تأثير الزن Zen، وتظهر كيف أن هذه العلامات كلها مشحونة بالدلالة. وتنتهي إلى أننا



رسم توضيحي لمفهوم الـ «مو»

لابد أن نفسر مقولة بارت بأن كلمة «فارغ» هي كلمة إيجابية وليست سلبية حيث إن العلامات في النص ـ اليابان هي نوع من الكتابة، تبدو في الظاهر مجردة من الدوال ولكنها في الباطن موحية بالدلالة في إطار معين ولا يمكن نزعها من إطارها. والإطار بالنسبة لكيكوكو تاتشيانا هو معايشة اليابان معايشة الاندماج الكلي، المكاني والزماني. فلا يمكن فهم الشعر دون اختبار فصول السنة وتبدلها ومعرفة مفردات اللغة التي تعبر عن الظواهر الطبيعية في اليابان، ولايمكن فهم طقوس حفل الشاي دون معرفة تاريخ هذا التقليد الذي يعود إلى القرن الرابع عشر. والمسار الذي تتبعه الكاتبة هو مسار الزن، وهو في الحقيقة عملية معقدة من معرفة أولية للدلالة ثم التحرر منها كما أن الزن هو. . . «تفريغ الوعي، ثم بعد ذلك تفريغ اللاوعي، ثم بعد ذلك الخطوة التالية وهي أيضا تترك وتتجاوز، ففي بعض الأحيان تفكر وبعض الأحيان لا تفكر، ثم بعد ذلك يصبح الذهن نقيا مثل القمر، مثل انعكاس القمر الذي يبقى على صفحة النهر. . .» وخلاصة القول إن الكاتبين اليابانيين لم يرفضا تحليل بارت للنص ـ اليابان ولكن قدما تحفظات عامة على قراءة الثقافة. التحفظ الأول هو أهمية معرفة العلامات الأساسية التي تنتظم حولها العلامات الأخرى، أو معرفة ما يسمى بروح الثقافة. وهذا لا يمكن أن يتم إلا من داخل الثقافة في رأي هياكوداي ساكاموتو، فبالرغم من إعجابه بتحليل بارت فإنه يرى أن غياب علامة الـ «مو» من هذا التحليل أفقد باقي العلامات دلالة أساسية من دلالاتها أما التحفظ الثاني فيتعلق بمعرفة الإطار العام الذي تعمل فيه العلامات، وهذا الإطار مكاني وزماني. فبالرغم من اتفاق كاتبة المقالة الثانية مع بارت في كثير من النتائج التي توصل إليها فإنها ترى أنه لم يعايش النص ـ اليابان مكانيا، أو زمانيا، فالعلامات السيميوطيقية تكتسب دلالاتها من التراكم المكاني والزماني على حد سواء. فالطبيعة اليابانية مثلا تلعب دورا هاما في الشعر، ولكل ظاهرة مكانية دلالة محددة، فعاصفة الخريف لها علامة خاصة، والمطر الغزير له علامة خاصة، وجسر سيتا له دلالة خاصة حيث إنه يقع في مكان تشتد فيه الرياح ولابد لمن يعبره أن يسرع تحت شدة المطر المنهمر، فهذا الجسر له دلالة مكانية وزمانية في آن واحد، ولم يستطع بارت التوصل إلى هذه الدلالة. ومن جانب آخر فإن طقوس الشاي يرجع تقنينها إلى القرن الرابع عشر، وتقول الكاتبة إن هذه الطقوس قد تبدو للغريب كأنها مشهد شكلي، ولكن طقوس حفل الشاي ليست مجرد إجراء شكلي، ولكنه ما هذبته الأجيال المتعاقبة من خلال تطوير طقوس الشاي الصينية، وارتباطها ارتباطا وثيقا بروح رياضة الزن. ويبدو لي من مناقشة هذين البحثين أن العلامات السيميوطيقية مقننة تقنينا ثقافيا محددا، ولا يمكن التوصل إلى دلالاتها إلا من خلال التعلم، لا التعلم النظري ولكن التعلم الحياتي، الممارسة الفعلية. ولكن هل يعني هذا أننا لا نستطيع أن نقرأ علامات ثقافة غريبة عنا إلا من خلال تقمص ذاتية أعضاء هذه الثقافة؟ ألا توجد لغة إنسانية يمكن أن تكون وسيطا بين الثقافات؟ فكلنا بشر ونشترك في نفس الخبرات البشرية الأساسية

للجنس البشري بين المهد واللحد. فهل تمثل الخصوصية الثقافية كثافة لا يمكن اجتيازها بالنسبة لمن ينظر إليها من الخارج؟ وإذا كان هذا صحيحا وذهبنا بهذا الفرض إلى نهايته المنطقية فإننا سنصل إلى استحالة الاتصال بين البشر، وسنرفض مثلا احتمال صحة الترجمة من لغة إلى لغة أخرى حيث إن اللغة تحمل في طياتها خبرة الجماعة التي تتكلم بها وأن هذه الخبرة تختلف من جماعة إلى أخرى. ولكنني سأترك هذا السؤال معلقا إلى فقرة تالية.

وأود أن أتوقف هنا عند نوعية النص السيميوطيقي وتكوينه. وقد استخدمت حتى الآن مصطلحين بالتبادل: مصطلح الظاهرة السميوطيقية ومصطلح العلامة السيميوطيقية. وأظن أن التمييز بينهما قد يكون مفيدا في بعض مستويات التحليل، فالظاهرة السميوطيقية هي كل ظاهرة لا تندرج تحت إطار الظواهر الطبيعية. ويمكن القول إن كل ما يتعلق بالثقافة هو ظاهرة سميوطيقية، سواء كانت هذه الظاهرة مادية أم معنوية، فيمكن القول إن الـ «واو» ظاهرة سيميوطيقية، وإن آداب السلوك الاجتماعي ظاهرة سيميوطيقية؛ بينما الثوب الأصفر الذي يتدثر به الرهبان البوذيون علامة سيميوطيقية، وإن النقطة الحمراء التي يضعها الهنود على جبينهم علامة سيميوطيقية، وكذلك النشيد القومي للدولة. إن القارئ يبدأ التعرف على العالم السميوطيقي من خلال هذا التمييز بين ما هو سيميوطيقي وما هو لاسيميوطيقي. وعند هذه النقطة يمكن أن يبدأ تصنيف هذه الظواهر ووصفها طبقا للشفرات المختلفة التي تتحقق من خلالها الظواهر. وقد تتحقق الظاهرة في أكثر من شفرة. فيمكن أن نمثل لذلك بالرجوع إلى مثالنا عن المدينة؛ فالمدينة بوصفها ظاهرة سيميوطيقية تتشكل في الوعي الجماعي من خلال تحققها في شفرات مختلفة، منها الرسم البياني، والماكيت، والرسم، والتصوير الفوتوغرافي، والوصف اللغوي المعماري، والوصف اللغوي الشعري، والتسجيل الصوتي لصخب الشوارع وأصوات الناس والحيوانات. وأيضا إذا تناولنا فصول السنة - فإذا أدركناها على أنها ظاهرة سيميوطيقية - فإنها تتحقق في عدد من الشفرات منها الطقوس الاجتماعية من احتفالات باستقبال الربيع، واحتفالات الحصاد، ومنها طقوس دينية، فقد بني معبد أبي سمبل لتدخل أشعة الشمس إلى قدس الأقداس مرتين في السنة في ٢١ مارس و٢١ أكتوبر، ومن الشفرات الموسيقية مثلا متتالية فيفالدي الفصول الأربعة، وكذلك الشفرات الشعرية.

والعلامة السيميوطيقية هي الوحدة التي تتكون منها الشفرات المختلفة، ثم تنتظم هذه العلامة مع غيرها لتكوين النصوص. وأود هنا أن أشير إلى دراسة رولان بارت حول الشفرات عندما تطرق إلى تحليل النص الأدبي في كتابه S/Z[١٠] وأرى أن بارت توصل فيه عند تحليله لقصة من قصص بلزاك إلى نتائج مفيدة من حيث توصيف الشفرات المختلفة التي ينتظم حولها النص الأدبي. ولكن تجب الإشارة هنا إلى أن هذا التحليل بهيكل النص إلى حد ما، فالتحليل السيميوطيقي في رأيي هو التوصل إلى الهيكل العام للنصوص السميوطيقية ولكنه لا يفي بجميع جوانب الظواهر الإنسانية وبخاصة أكثر هذه الظواهر تركيبا وهي الظاهرة الفنية. وأظن أن الوصف السميوطيقي هو في الحقيقة وصف هيكلي، ولا أعني بهذا أنه تسطيحي أو تبسيطي، ولكنه وصف يحاول التوصل إلى بنيات أساسية مجردة إلى حد ما، وقد تكون في بعض الأحيان مجردة من الدلالة. فإذا حاولت توصيف الفروق في طرائق الملابس من مجتمع إلى مجتمع، أو من طبقة اجتماعية إلى طبقة اجتماعية فإنني في الواقع لا أستطيع أن أقول إن الطرحة السوداء لها دلالة معينة ولكن ارتداءها يشير إلى الانتماء إلى طبقة اجتماعية معينة، وما دلالة الحجاب أو النقاب أو الجلباب، أو اللحية؟ إنها علامات على انتماء أصحابها إلى فرق معينة. وكذلك فن المائدة أو طرق تناول الطعام، فإنها مقننة إلى حد كبير؛ فهل للحساء دلالة؟ أم لكعك العيد؟ ما دلالة أن أتناول صنفا معينا من الطعام قبل الآخر؟ ومن هنا يمكن أن أقول إن الأنظمة السيميوطيقية هي في نفس الوقت أنظمة هيكلية وفيها قدر من

الغموض على مستوى الدلالة.

إن موضوع الدلالة السيميوطيقية لم يتضح لنا في كل تجلياته، حيث إن بعض الموسيقيين يتحدثون عن رسالة في الموسيقى ولكنهم بالقطع لا يعنون رسالة لغوية. فالمؤلف البولندي فيتولد لوتوسلافسكي Witold Lutoslawski، وهو من أشهر مؤلفي الموسيقى المعاصرة، يقول في حديث له، «إن اللغة الموسيقية إذا لم تحمل رسالة فالمتلقي لن يقبل عليها أما إذا كانت تحمل رسالة فالمتلقي بالقطع سيفهم هذه الرسالة». هل توازي الرسالة الدلالة بالنسبة للوتوسلافسكي؟ ومن الفنانين التشكيليين الذين كان لهم تأثير عميق في مسار الفن الحديث م. س. إيشير M. C. Escher الذي يقول «كانت تراودني أفكار لم يكن لها علاقة بالحفر، أفكار كانت تبهرني إلى الدرجة التي كانت تولد لدي رغبة عنيفة في توصيلها. كان من المستحيل أن أعبر عنها بالكلمات لأنها لا تتصل بالمجال الأدبي بل التمثيلي، ولا يمكن فهمها إلا في شكل مرئي...»[11] ومن اللافت للنظر أنه يقدم في نهاية كتابه ما يسميه «سيرة ذاتية قصيرة» هي في الواقع صورة ذاتية ?autoportrait = autobiographie، والقضية هنا هي ماذا نعني بأنها «تدل»؟ أو أنها تحمل «دلالة»؟ إن التعريف البسيط للعلامة هو أنها شيء مادي يستدعي إلى الذهن شيئا معنويا. وإني أقبل هذا التعريف بصفة عامة ولكن الذي أود أن أناقشه هو طبيعة هذا الشيء المعنوي، ماهي طبيعته. هل هو فكرة؟ مفهوم؟ رسالة؟ شعور؟ إحساس؟ هل الشعور دلالة؟ إن التعريف الأساسي للدلالة هو الدلالة اللغوية، ولا نستطيع أن نتحدث عن الدلالة إلا من خلال اللغة الطبيعية، بمعنى أن العلامة السيميوطيقية ـ أيا كانت الشفرة التي تنتمي إليها ـ لا تكتسب دلالة إلا من خلال ترجمتها إلى علامات لغوية. ولكن هذا سيخرج من نطاق الدلالة أنظمة سيميوطيقية مثل الموسيقى، والرقص، والرسم، والأزياء، فمن يحاول ترجمة النوتة الموسيقية إلى مفردات من اللغة الطبيعية لا يقدر خصوصية الشفرة الموسيقية التي من طبيعتها خلوها من الدلالة اللغوية. ولكن في نفس الوقت تتميز كل موسيقى بخصائص تربطها بأطر ثقافية وجمالية وإيقاعية خاصة، لابد من معرفتها للتفاعل مع هذه الأنماط من الموسيقى، مما يجعلنا نستطيع أن نتعرف على هذه النوعيات من الموسيقى عند سماعها. فالموشح غير الأغنية الخفيفة غير الموال ويختلف عن التقاسيم، هذا بخلاف أن الموسيقى الهندية تختلف عن الصينية عن العربية عن الإفريقية، عن الموسيقى الكلاسيكية الغربية عن موسيقى الجاز إلخ... وإنني أميل إلى نظرية يفنست الذي يميز بين الأنظمة السيميوطيقية التي لا تحمل دلالة وبين الأنظمة التي تدل. ففي رأيه أن اللغة الطبيعية هي النظام السيميوطيقي الوحيد الذي ينطوي على دلالة، أما باقي الأنظمة فتكتسب قيمتها الدلالية من ترجمتها إلى علامات من اللغة الطبيعية. ولكن ماذا نعني عندما نقول إن الرقص، أو الموسيقى أو الرسم، أو التصوير الفوتوغرافي لا يدل؟ وأننا لابد أن نترجم العلامات السيميوطيقية الموسيقية، أو حركات الجسد البشري إلى علامات لغوية لكي تكتسب دلالة؟ إننا نستطيع أن نصفها من خلال اللغة الطبيعية ولكن هذا لا يعني أننا نسند إليها دلالة؟ غير أن عدم فهمنا، بعد، لهذه العلامات يجب ألا يدفعنا إلى رفض أن لها معنى. ويجدر بنا أن ننظر إلى أحاسيس هؤلاء الفنانين الكبار على أنها إرهاصات لما لم يتكشف لنا بعد، وأن نحتفظ بثقتنا في قدرة الذهن البشري، مع تقدم المعرفة، على فض شفرتها وتحديد معناها وتلقي رسالتها بوضوح نفتقده اليوم. فلنتفق على تعليق الحكم إلى يوم قادم.

إن الاقتراح الذي أقدمه في هذه المرحلة من التفكير هو أن البحث السيميوطيقي قد أخذ يحل محل البحث عما كان يسمى بالأشكال الرمزية. ومصطلح الرمز في اللغات التي أعرفها له من التشعبات الدلالية ما يجعله غير صالح، في رأيي، للتعبير عن هذه الأشكال المختلفة من التنسيق والتنظيم في الحياة البشرية. فأنا لا أستطيع أن أعد

حفريات (يشير رموزاً)، أو سيمفونيات (يتهوفن رموزاً)، ولكنها في تقديري ظواهر سيميوطيقية تخضع لمجموعة من القواعد والأنساق. والبحث السيميوطيقي يجمع في مجاله أنماطاً مختلفة من الأنشطة البشرية. وبالقطع أنا لا أنادي بأن تنظر إلى جميع مظاهر الحياة الثقافية على أنها ظواهر سيميوطيقية. ولكن هذه النظرة ـ في رأيي وإلى الحد الذي أوصلتني إليه خبرتي الخاصة ـ تساعد على فهم خصوصية كل نظام من أنظمة العلامات المختلفة، والطرائق التي تنتقل العلامات بها من مجال إلى مجال. وأعود هنا إلى ما قدمت من تحليل سابق لتنظيم المكان الإنساني تنظيماً سيميوطيقياً وكيف يمكن أن ينتقل هذا التنظيم إلى الأعمال الفنية المختلفة سواء كانت لغوية أم بصرية؟ وقد قمت في موضع آخر بتحليل المكان في ثلاثية نجيب محفوظ طبقاً لهذا التنظيم السيميوطيقي[١٢]. وقد أحاول هنا أن أضرب مثالاً على هذا بالنظر إلى علامة سيميوطيقية محددة وهي الكتاب.

إذا نظرنا إلى الكتاب بوصفه علامة سيميوطيقية، فإننا نجد بدءاً أنه كشيء مادي من منتجات الحضارة يفصل بين الحضارة والبربرية. وفي جميع الحضارات كانت تهمة إحراق المكتبات علامة على بربرية الذين يقومون بهذا الفعل «الهمجي». والكتاب علامة تشير إلى الديانات السماوية، ورغم أن القرآن لم يدون إلا زمن عثمان، ومع أنه نزل على نبي «أمي»، وأنه لم يكن «مكتوباً» فقد كان يسمي نفسه الكتاب. وتستدعي هذه التسمية لنص شفاهي كان لا يزال يتداول من خلال الحفظ والتلقين بعض التأمل و«التفسير». وربما أتت هذه التسمية من الكتب السماوية السابقة على القرآن وهي التوراة والإنجيل. وإذا تأملنا علامة الكتاب في النص القرآني نرى أن المفسرين يرون أن التسمية تشمل القرآن والتوراة، بل إنهم يرون أن التسمية إذا كانت مطلقة فإنها تشير إلى التوراة. ففي اللسان: «الكتاب» مطلق: التوراة؛ وبه فسر الزجاج قوله تعالى: نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب. وقوله: كتاب الله جائز أن يكون القرآن، وأن يكون التوراة، لأن الذين كفروا بالنبي، صلى الله عليه وسلم، قد نبذوا التوراة». ومعنى ذلك أن المفسرين المسلمين يوازون بين الكتب السماوية المنزلة، التوراة والإنجيل والقرآن. وقد نقول إن القرآن سمي كتاباً لأنه كان مكتوباً على اللوح المحفوظ. ومن الأشياء اللافتة للنظر أن القرآن المكتوب الذي نجده بين دفتي كتاب لم يسمّ بالكتاب وإنما سُمّي بالمصحف، وفي هذا تمييز بين «النص ـ الأم» نفسه ـ الأصل الذي أنزل شفاهاً على النبي ـ والنص المكتوب المادي المنتشر بين الناس. والكتاب ـ دون تمييز ـ يعتبر في الثقافات الدينية المختلفة النص ـ الأم urtext الذي تتولد منه كل النصوص الأخرى وتنبع منه. أما إذا انتقلنا إلى ثقافات غير دينية فإننا سنجد في كل منها «توراتها» bible أو «قرآنها»، فيمكن القول إن ثروات الأمم لآدم سميث هو كتاب الرأسمالية، بينما يمثل رأس المال توراة الشيوعيين، والكتاب الأحمر إنجيل الماويين إلخ... حيث تتولد من هذه النصوص ـ الأم جميع الأقوال الخاصة بثقافة ما أو بفئة ما. والكتاب في هذه الأحوال علامة سيميوطيقية تظهر في كثير من الأنظمة المختلفة لثقافة بعينها. وقد تتبع إرنست روبرت كورسيوس استعارة الكتاب في الثقافة العالمية من الثقافة الإغريقية مروراً بالرومانية والعربية والعصور الوسطى حتى الرومانسية الألمانية[١٣]. ويظهر من دراسته أن الكتاب لم يظهر في الأدب الإغريقي والروماني مثلما ظهر في الثقافة الغربية بعد ظهور المسيحية، وقبل انتشار الطباعة. ولا شك أن هذا التطور مرتبط بمركزية النص الديني المنزل في ثقافة بعينها. غير أن النظرة إلى الكتاب المنزل كان يصاحبها الاعتقاد أن العالم أيضاً كتاب، أي أن الله قد خلق كتابين: العالم بما فيه الإنسان، والكتاب المقدس، وأنه يمكن للإنسان التعرف على الله وقدرته وحكمته من خلال هذين الكتابين. وهي نظرة إلى الكتاب كان فيها الكثير من التفاؤل، نرى تتويجها في ختام الكوميديا الإلهية حيث «يرى دانتي في أعماق النور الأبدي كل الصحائف المتناثرة في الكون وقد انضمت في حب بعضها إلى البعض في مجلد واحد...»[١٤] وهي نظرة تتصور أن

التنوع والاختلاف في الطبيعة يمكن أن يتجمع ويتآلف في بنية واحدة كلية إذا توصل الإنسان إلى معرفتها أمكنه أن يضاهيها في عمله. وقد تآكل هذا التفاؤل مع مرور الزمن إبان نشأة العلم الحديث، وبخاصة مع كوبرنيكوس وكيبلر وجاليليو، غيرت نظرة الإنسان إلى «كتاب الطبيعة» وبدأ هؤلاء العلماء يرون أن العلم لا يحتذي قراءة الكتب كما عرفها الإنسان، ولكن دراسة الطبيعة بالملاحظة والتنظير والاختبار تكشف أسرارها؛ ورغم ذلك ظل الرومانسيون يرون أن كتاب الطبيعة يخفي وراء علاماته الظاهرة دلالات خفية، مغلفة في لغة سحرية توصلنا إلى العرفان إذا نجحنا في فك طلاسمها. ويمكن أن نتتبع تطور دلالة الكتاب في مجالات أخرى مثل الفلسفة (عند هيجل مثلا)، أو الشعر (نظرية مالارميه عن الكتاب)، وسنجد عناقيد من الدلالات التي تتولد من هذه العلامة منها بعض الثنائيات الخاصة بالمقدس وغير المقدس، المقروء والملغز، المفتوح والمغلق، المتحرك والساكن، المتكلم والصامت، إلخ. . . هذه العناصر التي تتولد منها الدلالات السيميوطيقية. ويمكن أيضا تتبع الكتاب بوصفه علامة سيميوطيقية في النصوص الأدبية. فالكتاب ـ الشعري يشير إلى نفسه في النص من خلال ذكر كتب أخرى تعمل وكأنها مرآة ينعكس فيها الكتاب الأصلي الواقعي في عملية انعكاسية لا متناهية.[١٥]

ويظهر الكتاب بوصفه علامة سيميوطيقية في الفن التشكيلي الغربي. وقد تتبع يان بيالوستوكي في مقالة بعنوان «كتب الحكمة وكتب المزل»، التطور الذي اعترى تمثيل الكتاب في الأيقونولوجيا الغربية من القرن الثالث عشر حتى التاسع عشر، حيث إن الكتاب على حد قوله علامة غامضة في الحقيقة لأنه يمكن أن يحوي أشياء متعارضة ومتناقضة، فقد يحفز على الخير كما أنه قد يدفع إلى الغاوية. وفي بعض الأحيان كان يظهر الكتاب في بعض شواهد القبور على أنه علامة على الحياة الأبدية الخالدة، فالمرق كان يمثل ممسكا بكتاب وعيناه متوجهتان نحو السماء، وفي بعض الأحيان الأخرى كان الكتاب يدل على عكس ذلك. ففي بعض لوحات الطبيعة الميتة Nature morte، مثلا، التي تشير إلى زوال الحياة، وعبث المعرفة الإنسانية، كان الكتاب يظهر أيضا ولكن ممزقا منزوعة منه صفحات.[١٦] فالعلامة السيميوطيقية فيها كثير من المرونة إذ تتبدل طبقا للنظام العام الذي تنتمي إليه[١٧].

تعدد الشفرات وما هي طبيعة دلالة الشفرة؟

استخدمت كثيرا في الفقرات السابقة مصطلح الشفرة[١٨] أو الكود Code رغم أنني لم أحدده أو أعرفه، وأرى أن هذا المصطلح يمثل العصب الأساسي للتفكير السيميوطيقي. وقد انتشر في الكتابات السيميوطيقية منذ الستينيات وبصفة خاصة في كتابات رولان بارت. ورغم أهميته فإنه يشكل صعوبة للتحليل السيميوطيقي بسبب ما يرتبط به من تحديد صارم في التصورات الشائعة له. فالشفرة في أبسط أشكالها هي علاقة تبادل دلالي بين عنصرين يمكن أن يحل أحدهما محل الآخر، وأبسط أشكال الشفرة هي مثلا شفرة التلغراف القديم التي كانت تحل فيها الرنات الطويلة والقصيرة محل الحروف الأبجدية، أو شفرة برايل الخاصة بالعمي. وفي هذا النوع من الشفرات يمكن تحويل الرسالة من شفرة إلى أخرى والعكس دون تأثير في محتوى الرسالة. ويمكن القول أيضا إن الكتابة شفرة تحول الكلام المنطوق إلى كلام مكتوب دون إبدال الرسالة، فالكتابة هي تحويل الكلمات من سلسلة أصوات إلى أشكال خطية مرئية على سطح ما. وفي هذا النوع من الشفرات تكون المعادلة بين العنصرين تامة حيث أ = ب. وهناك دلالة أخرى لكلمة شفرة أو كود Code وهي أن الشفرة هي مجموع القواعد والقوانين التي تحدد السلوك الذي يجب أن يتبع في مواقف معينة، مثل آداب السلوك الاجتماعي Etiquette، أو شفرة فرسان العصور الوسيطة، أو شفرة «الشرف» بين اللصوص. وهذه الشفرات تتحدد أيضا بطريقة صارمة فهناك قواميس خاصة تحدد آداب السلوك الخاصة التي يجب أن تتبع في كل مناسبة.

قد يبدو من التعريفين السابقين أن الشفرة لابد أن تكون محددة تحديدا صارما حيث يمكن التعرف على كل عنصر من عناصرها بالعودة إلى قواميس أو معاجم. غير أننا نصطدم هنا بمشكلة الدلالة. هل لكل شفرة دلالة محددة بحيث يمكن الانتقال من شفرة إلى أخرى كما في الأمثلة السابقة؟

هنا أجدني أميز بين الشفرات من حيث الدلالة (وهنا أعني الدلالة اللغوية) بين الشفرات الصلبة والشفرات المرنة، الشفرات المتسعة والشفرات المفرغة، بحيث نستطيع أن نضع الشفرات في متوالية متدرجة تبدأ من الصفر وتمتد إلى ما لا نهاية. ونستطيع أن نقول إن التعرف على هذه المستويات يتم من خلال محاولة ترجمة الشفرة إلى اللغة الطبيعية. فالتلغراف شفرة صلبة حيث تتساوى عناصرها مع عناصر اللغة الطبيعية. واللغة الطبيعية شفرة مرنة ترتبط بكثير من الظروف المحيطة للتعرف على علاماتها، كما تحتمل علامات اللغة الطبيعية دلالات متعددة، أما الشفرات الاجتماعية والفنية فإنها شفرات متسعة أي أنها تحيل إلى دلالات عامة ثقافية واجتماعية، أما الشفرات الموسيقية والفنية المجردة فإنها شفرات مفرغة. إني أقترح هذا التقسيم بوصفه تصنيفا أوليا للشفرات لم يطرح من قبل ويحتاج إلى كثير من التفصيل والمناقشة. ويخيل إلي أن مفهوم الشفرة قد يساعد في التعامل مع كثير من الأنظمة الدالة وغير الدالة لتحليل النصوص. فإذا ما قارنا بين الشفرة الشفوية والكتابية نجد أننا أمام أنظمة سيميوطيقية تختلف من حيث القواعد التي تنتظم العلامات في كلتا الشفرتين. فالمتلقي إذا كان يستقبل الرسالة من خلال كلام شفاهي يتوقع اختلافات عما إذا تلقاها كتابة لاختلاف طبيعة الشفرتين. فالشفرة بالنسبة لي هي أقرب إلى النظام العام الذي يحكم تخلق النص. وتنتمي الشفرة بصفة عامة إلى المستوى الثقافي والاجتماعي، فالفرد يتعلم الشفرة ولا يبدعها. وليس للشفرة دور في تحديد الدلالة بقدر دورها في تنظيم الحياة الاجتماعية والثقافية: أي أن الشفرة هي القواعد والشروط التي تحكم إنتاج النص الثقافي والحضاري[19]. غير أنه من الصعب تحويل شفرة مرنة إلى شفرة صلبة، أو شفرة ضيقة إلى شفرة متسعة، رغم المحاولات التي تمت في هذا المجال، مثل محاولات تحويل الألوان أو الموسيقى إلى شفرة مشاعر أو معان بعينها.

قد أدعي في نهاية هذه الفقرة أن القواعد السيميوطيقية هي الطريقة التي تنظم بها كل ثقافة آليات العلامات للإشارة إلى نفسها. ولذلك يمكن القول إن العلامة السيميوطيقية اصطلاحية في أساسها ومقننة، وإن الفرد لا يملك القدرة على إبداع علامات سيميوطيقية ولكنه قادر على شحن هذه العلامات بدلالات خاصة به في صيغ الخطاب المختلفة. وتختلف نوعيات الخطاب، وتصنف طبقا لشفرات محددة ثقافيا. ففي الخطاب العلمي تكون علاقة العلامة بالشيء الذي تدل عليه هي المحك الأساسي، كما يكون ارتباط النص بعالم الظواهر التي يصفها هو هدف الخطاب الأساسي. أما في الخطاب الموسيقي فالعلامة لا تحمل دلالة معينة ولكنها لها «معنى» يسميه المنظرون في علم الجمال الموسيقي «مؤثرات» Effects[20]. ومن اللافت للنظر أن عالم الجماليات إرنست جومبريتش يستخدم مصطلح المعنى Meaning ومصطلح مؤثرات Effects وكأنهما تقريبا متساويان في كتابه الذي نشره عام ١٩٧٩، The Sense of Order، ويشعر جومبريتش بصعوبة هذه المشكلة، فيقول إن وصف أي رد فعل بصري للفن التشكيلي من خلال اللغة الطبيعية هو من باب الاستعارة والمجاز لا الحقيقة عندما نقول إن اللون الأحمر دافئ، واللون الأزرق بارد، ويضيف جومبريتش:

هل نستطيع أن نذهب إلى أبعد من هذا؟ هل نستطيع أن نبرر هذه الاستعارات في مصطلحات سيكولوجية موضوعية؟ أو بعبارة أخرى هل نستطيع أن نشرح إحساسنا بأن بعض الألوان أكثر دفئا من أخرى، أو بعض الأصوات أكثر دكانة من أخرى؟ قد يقول قائل إننا لن نتوصل إلى إجابة إلا من خلال رصد خريطة كاملة للمخ

البشري. لابد أن نعرف كيف تتصل قنوات حواسنا المختلفة، وكيف تتجمع ردود فعلنا للبصر والسمع واللمس والشم في مركز واحد. . . ، ومن ثم نستطيع أن نشرح المؤثرات البصرية من منحى إدراكي فسيولوجي فقط. . ولكن حيث إن هذا اليوم لم يحن بعد فلا حيلة لنا سوى البحث عن شروح لهذه المؤثرات في محيط ما تعلمه عن الحاسة البصرية لفهم ردود فعلنا للأشكال والألوان التي ندركها. (٢١)

إذا كنا نتعامل مع النصوص في المستوى السيميوطيقي على أنها حقائق ثقافية، حضارية اجتماعية، بعضها يحمل دلالة محددة، مقننة، وبعضها يحمل دلالة عامة متسعة وبعضها لا يحمل دلالة في نطاق العلاقة بين الأنظمة السيميوطيقية واللغة الطبيعية، فماذا يحدث عندما يواجه القارئ نصا محاولا أن يفك شفرته؟ وكيف يكون التفاعل بين القارئ والنص؟ كيف يتوصل القارئ إلى دلالة النص؟ كيف يقرر أن هذا النص يحمل دلالة أو لا يحمل دلالة؟ كيف يقرب النص؟ ما الطقوس الاجتماعية والفردية التي تحيط بهذا اللقاء؟ إذا كان القارئ في المستوى السيميوطيقي يخضع للعرف ولقواعد الشفرة فإنه في المستوى الدلالي أو السيمنطيقي يتمتع بحرية أكبر. وأود في الفقرات التالية أن أختبر بعض المحاور التي تمس الإجابة عن الأسئلة المطروحة.

المستوى السيمنطيقي: مرحلة الفهم

علاقة القارئ بالنص:

هناك بعض التصورات للعلاقة التي تقوم بين القارئ والنص نجدها في جميع فروع المعرفة. وليس من السهل تفهم الآليات التي تحكم هذه العلاقة. فأنماط العلاقة التي تتحكم في التفاعل بين النص والقارئ مركبة إلى حد بعيد وقد تشبه العلاقة التي تربط بين الناس. فإذا نظرنا إلى العلاقة التي تربط القارئ بالنص من منظور علاقات القوة: يمكن أن نقول إن هناك علاقة سيطرة أو تبعية أو تكافؤ بين القارئ والنص. وأن هذه المستويات الثلاثة تتحقق بطرق وأشكال مختلفة. فهل النص يتبع القارئ أم القارئ هو الذي يتبع النص؟

إذا ضربنا مثلا من حياتنا المعاصرة التي تملؤها أغاني البوب POP صخبا ونظرنا إلى فرقة الخنافس البريطانية The Beatles التي لاقت شهرة منقطعة النظير في الستينيات، والتف حولها الشباب من جميع أنحاء العالم، غربه وشرقه، نجد نوعا من الإسقاط الذاتي من قبل هذا الشباب الذي كان يجد في أغاني الخنافس تعبيرا عن جيلهم، وقيل إنهم كانوا يجدون فيها تعبيرا عما في نفوسهم من مشاغل وخواطر. كيف كان الشباب يستمعون إليها؟ هل كان المستمع يرى فيها تعبيرا عن المتكلم، أي عن آراء المغني، وعواطفه ومشاعره؟ أم كان يجد فيها تعبيرا عما يختلج في نفسه هو؟ عندما يسمع: «أريد أن أكون صيادا» هل يترجم هذا إلى «جون لينون يريد أن يكون صيادا» أم أن المتلقي هو الذي يريد أن يكون صيادا، أي أن يهرب من تقاليد الحياة التي يعيشها وينطلق في البحار في حياة حرة؟ لا شك أن عملية الإسقاط بالنسبة لفرقة الخنافس كانت على مستويات متعددة منها تبني النص الشعري للأغاني وكذلك النص الموسيقي وأيضا الإطار العام السيميوطيقي للفرقة بما فيها من مظهر الشعر الطويل، حتى أننا في العالم العربي أسمينا من يطيلون شعرهم «خنافس». فالإسقاط في هذه الحالة لم يكن على الأفراد الواقعيين الذين يشكلون فرقة الخنافس، ولكن على بنية سيميوطيقية شاملة. وتفرقت فرقة الخنافس في أواخر السبعينات، واستقل أفرادها، بعد أن تجاوزوا مرحلة الشباب، ولكنهم ظلوا يعيشون ماضيهم المزدهر ويؤلفون موسيقى على غرار التي كانوا يقدمونها وهم شباب!! وصدرت في سنة ١٩٩٠ مجموعة أغاني لكل من بول ماكارتني وجون لينون، غير أن رد فعل شباب اليوم جاء عكس ما كان في الستينيات، استاء الشباب من كهول يتشكون هموم الشباب، واغترابه وعزلته. وقال

بعضهم إنه لا يستطيع أن يتعاطف مع هذا المليونير الكهل الذي ينوح ويبكي ويئن ويشكو . . فالموقفان متناقضان في التفاعل بين المتلقي والنص . ففي الموقف الأول هناك التحام بين المتلقي والنص ومصداقية المتكلم أيضا ، أما في الثاني فهناك انفصام بين المتلقي والنص والمتكلم . لا شك أن الموقف أكثر تركيبا ولابد من دراسة ظاهرة التفاعل بين الشباب المتلقي للموسيقى ومن يؤديها من الفنانين . فلكل جيل آلهته ومعبودوه ، والشاب الذي انفصم عن فرقة الخنافس يلتحم اليوم مع مادونا وغيرها من الوجوه الصاعدة ، وهكذا تتحطم أصنام وتقام أصنام . وقد شهدنا نفس الظاهرة في العالم العربي بالنسبة لعبدالحليم حافظ الذي التف حول أغانيه أجيال من أبناء العالم العربي . ولا شك أن الذين كانوا يستمعون إلى عبدالحليم حافظ كانوا يسقطون أنفسهم ومواجعهم وشجونهم على هذه الأغاني ، ومن مظاهر هذا الإسقاط والالتحام مع عبدالحليم حافظ الحشود الغفيرة التي احتشدت في جنازته . وربما اليوم يحتل بعض المغنين محلا مشابها للذي كان يحتله عبدالحليم حافظ ، غير أن الالتحام والإسقاط يقوى ويضعف طبقا لآليات يمكن تحليلها ودراستها دراسة ميدانية . ولكن النقطة الهامة في هذا المجال هي عملية الإسقاط في القراءة : عندما يتبنى القارئ النص ويجعله تعبيرا عما يختلج في نفسه وفي ذاته . وقد يصاحب هذا الإسقاط تقمص شخصية المتكلم ، غير أن هذا المتكلم لا يكون بالقطع منتج النص الواقعي ، وهذه الظاهرة من أوضح ماتكون في النص الفني .

يمكن أن نتتبع بعض نماذج القراءة لكي نتعرف على أنواع العلاقة التي قد تربط القارئ بالنص . لابد أولا أن نتعرف على هاتين الحقيقتين المتواجهتين لكي نحدد نوعية العلاقة التي تربط بينهما . من أهم المعطيات التي تحدد هذه العلاقة وعي القارئ بنفسه ، وهذا الوعي قد تغير تغيرا كبيرا على مر العصور ، وفي الحقيقة لكي نفهم التفاعل الذي يتم بين النصوص والقارئ لابد أن نتعرف على هذا الوعي بالذات . هل يمكن أن يُخضع القارئ النص لذاته إذا لم تكن هذه الذات قد تشكلت ، ووضحت معالمها؟ إن القراءة الإسقاطية لم تكن ممكنة في العصور السابقة لظهور مفهوم الفرد والفردية ، كما لا تتأتى هذه القراءة في مجتمع لم ينفصل الفرد فيه عن الجماعة . يقول جان بول فرنان إن مفهوم الفردية كما نعيه اليوم لم يكن موجودا في الثقافة الإغريقية[٢٢] ، ولم يكن من المتصور أن يكتب كاتب إغريقي سيرة ذاتية مثل التي كتبها القديس أوغسطين ، حيث إن هذه الذاتية الداخلية لا تتخلق إلا في نفس من مارسها ، ومن ثم لم تكن مطروحة بالنسبة للفرد الإغريقي ، إذ لم تولد إلا مع ظهور المسيحية . نقول إذن إن نوعية العلاقة التي تربط القارئ بالنص تتحدد من خلال وعي الذات بنفسها ، ووعيها بالنص الذي تتلقاه . فالذات المدركة ، من جانب ، والنص المدرك من جانب آخر ، يتم التفاعل بينهما طبقا للتصورات العامة السائدة في الثقافة المعاصرة لعملية القراءة التي تشكل «وعي» القارئ بهاتين الحقيقتين . فالمقولة - التي نقبلها اليوم - بأن القارئ قد يستخرج من النص «دلالة» ليست هي ما قصد إليه المؤلف سواء لأن النص يحتملها وفقا لرؤية غير ما قصده المؤلف ، بل وحتى من إسقاط القارئ ، لم تكن مطروحة من قبل ، ولم يكن من الممكن تصورها إلا بعد ظهور مفاهيم علم النفس الحديث وانتشارها ؛ وكان كل ما يمكن تصوره ، هو أن النص منتج من قبل متكلم يضع فيه «دلالة» بعينها ليس على القارئ سوى أن يستخرجها من النص ؛ وأن دوره دور سلبي ، فلا يمكن أن «يحمل» النص ما لم يكن من قصد منتجه . ولايعني ذلك استبعاد احتمال سوء الفهم ؛ فقد يسيء القارئ فهم قصد الكاتب . فيصل إلى قراءة مغلوطة ؛ ولكن ليس هناك سوى قراءة واحدة صحيحة ، هي التي يجتهد القارئ ليلوغها ؛ أما القول بأن هناك أكثر من قراءة صحيحة للنص الواحد فلم يكن مطروحا ، قبل أن يطرح وجود نظرة ذاتية ، في مقابل النظرة الموضوعية ، أو إمكان «تحمّل» النص الواحد أكثر من دلالة (ويجب الحرص هنا على استثناء

نصوص العلوم الطبيعية من ذلك، حيث يتم تحديد وتعريف الكلمات والمصطلحات تحديدا صارما يمنع إمكان تحميلها أكثر من معنى واحد محدد، يحد من حرية كل من الكاتب والقارئ في استخدام الكلمة أو المصطلح في غير ما استهدف منه؛ غير أن ذلك يخرج عن مجال حديثنا). فكانت القراءة هي البحث عن الدلالة المودعة في النص مسبقا. ورغم أن النص من وضع متكلم معين فلم يكن ذلك يعني أنه ملك له، بل يمكن امتصاصه واستبطانه وهضمه ليصبح ملكا للقارئ، أو جزءا منه. ومن المقولات التي تؤمن بها، مثلا، مارجريت يورسينار الكاتبة الفرنسية المعاصرة، ربما لأنها عايشت ثقافة القرون الوسيطة، أنه ليس من المهم من يقول الشيء، ولكن المهم هو أن يقال. إن الإحساس بالامتلاك، بما في ذلك النصوص، هو تطور من التطورات التي ظهرت مع ظهور الفردية وتبلورها. ولا يتنافى ذلك مع نظرية السلطة النصية أو الـ Autoritas في الثقافة المسيحية، أو الإسناد في الثقافة الإسلامية. إذا كان الغرض من تتبع سلسلة الإسناد الاطمئنان إلى صدق الرواة في النقل وأمانتهم، حتى يمكن للمتلقي الركون إليها واعتمادها فيما يؤمن به والتصديق والتسليم بما جاء فيها، وليس حفظ حق من قالها في ابتكارها أو السبق إلى اكتشافها.

تنتشر بعض المقولات دون أن تفصح عن الافتراضات الضمنية التي بنيت عليها أو أن تبين حقيقة المنطلقات التي تكمن وراءها. من بين تلك المقولات الثنائيات الضدية التي تميز نوعين من القراءة في التراث الإسلامي: النقل والعقل، أو الرواية والدراية. فقد يترتب على المصطلح الأول أن القارئ كالوعاء الفارغ الذي يملؤه النص كما يملأ كوب فارغ بسائل فيتلون الكوب بلون السائل الذي يسكب فيه. وأن الرواية هي في الواقع ترديد النص دون إعمال العقل. ومعنى هذا أن النوع الأول هو قراءة سلبية، أما النوع الثاني فهو قراءة إيجابية، أو أن النوع الأول هو تقمص النص، أما الثاني فإنه من نوع القراءة النقدية أو الحوارية. وكان ينظر أيضا إلى القراءة في العصور الوسطى المسيحية على أنها ذوبان في النص دون تفاعل أو رد فعل. غير أن الصورة قد تبدو مختلفة إلى حد ما إذا ما توقفنا عند أساليب القراءة عند القراء المسلمين: علماء التفسير الذين انكبوا على القرآن يتفحصونه ويدرسونه ويعايشونه قرونا عديدة؛ وكذلك عند القراء المسيحيين، أي آباء الكنيسة الذين وضعوا الأسس التي شيدت عليها علوم قراءة الكتاب المقدس. ولا شك أن ثمار قرون من تأمل النصوص الدينية يكشف لنا كثيرا من جوانب علاقة القارئ بالنص. وقد تكون المقارنة بين نظريات القراء المسلمين والمسيحيين كاشفة إلى حد كبير لآليات القراءة. ومما لا شك فيه أن جهود هؤلاء العلماء لم تبق محصورة في إطارهم وحدهم. إذ ان قراءة النص الديني كانت منتشرة في المجتمع برمته الذي كان يحيا في «نور» قراءة النص ولكنه في نفس الوقت كان يعيش في «ظل» من آلوا على أنفسهم مهمة قراءته قراءة «صحيحة». ولابد أن نعي كيف كان هؤلاء القراء الأوائل يتصورون أنفسهم في مقابل هذا النص الذي كان المرجع الأول والأخير في حياتهم الروحية والعملية والعلمية.

لابد في البداية من تحديد بعض الأطر العامة التي كانت تغلف تنظير هؤلاء القراء للقراءة. إن قراءة النص الديني من داخل إطار الإيمان توجه القارئ توجها خاصا. إذ يخضع هذا الإيمان خضوعا تاما يوجه الباحث وهو يتفاعل مع نص تحيط به قدسية وهالة ورهبة تجعل الاقتراب منه محاطا بالمحاذير. والمؤمن الذي يملأ قلبه الإيمان مقتنع في أعماقه من قبل أن يقرب النص بأن الله قد أودع الحقيقة في هذا النص ليتعرف عليها العباد. وإذا تأملنا هذه القراءة فإن القارئ يبحث في النص الذي يقرؤه عن المعنى والدلالة، والحقيقة، والهداية، وأيضا عن نفسه. غير أن القراءة لم تكن قراءة سلبية، بل كانت أقرب إلى المجاهدة ووضعت لها شروط امتدت إلى عصرنا هذا. فالهيرمينوطيقا الحديثة نابعة من تراث تفسير الكتب المقدسة.

مستويات القراءة عند علماء المسلمين

ومن أهم المؤلفات حول أنماط القراءة كتاب الزركشي «البرهان في علوم القرآن». وأود أن أتوقف عند هذا الكتاب بعض الشيء، لما فيه من تأملات خصبة. ومحمد بن بهادر بن عبدالله بدر الدين الزركشي (٧٩٨ - ٧٥٤هـ) كان من علماء مصر الشافعية، وقد عرف عنه الزهد والتقشف، ويبدو أن الزركشي كان متواضعا رقيقا، يلبس الخشن ويقنع بالقليل. وتقول عائشة عبدالرحمن إن كتاب الزركشي لم ينتشر كثيرا في عصره ولم يشتهر إلا بعد أن نوه به جلال الدين السيوطي الذي صرح أنه اتخذه أصلا لكتابه الإتقان في علوم القرآن، ومع ذلك فقد اشتهر الفرع على حساب الأصل. والفروق كبيرة بين الكتابين، فلابد من التأمل في إعادة كتابة البرهان على يد السيوطي. ومما يسترعي الانتباه تعاطف الزركشي الواضح تجاه التصوف، ربما لما في نفس الزركشي من ميل إلى الحياة الروحية بصفة عامة، هذا من جانب، ومن جانب آخر يتمتع كتاب الزركشي بتوجه عقلاني معتدل في التعرض لعدد كبير من المسائل المطروحة. ورغم إغراء إجراء المقارنة بين الكتابين أكتفي هنا بعرض ما يراه الزركشي مطروحا بالنسبة للمسلم الذي يسعى إلى قراءة القرآن، والعلوم المختلفة التي تعينه على القيام بهذا النشاط. ومما لا شك فيه أن كتاب البرهان في أساسه يعرض نظرية التفسير القرآني وهو مصنف على غرار المقدمة في علوم الحديث لابن الصلاح، أي يحاول الزركشي أن يعرض في كتابه - وبطريقة تعليمية إلى حد كبير - جميع ما استقر على أن يسمى بعلوم القرآن وفنونه. وهذا الجمع له فائدة محددة بالنسبة للزركشي وهي أن تكون «مفتاحا لأبوابه (القرآن)، .. معينا للمفسر على حقائقه»(٢٣). وإذا قلنا إن التفسير هو القراءة المتعمقة للنص القرآني فالزركشي في الواقع يتعرض لجميع مستويات القراءة، فيميز بين القراءة، والتجويد، والتلاوة، والترتيل، والتفسير، والتأويل. أما المستوى الأول فإنه موضوع علم القراءات ويتناوله الزركشي في الفصل الثالث والعشرين بعنوان «معرفة توجيه القراءات وتبيين وجه ما ذهب إليه كل قارئ»، ومرجع الزركشي في هذا العلم هو كتاب التيسير لأبي عمرو الداني.

وفي تعريف القراءات يقول الزركشي:

«واعلم أن القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للبيان والإعجاز، والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتبة الحروف أو كيفيتها؛ من تخفيف وتثقيل وغيرها». (٢٤)

وعلم القراءات هو ضبط النص وهو علم دقيق المغزى لا يقوى عليه سوى علماء على مستوى رفيع من التخصص، أما مستوى التجويد فهو في طريقة إخراج الأصوات بالنسبة للمقرئين الذين يجهرون بالنص. بينما التلاوة والترتيل - وهي القراءة التي تهمنا هنا - فيرى الزركشي أنها تهم كل مسلم على اختلاف مستويات علمه. ويستهل الزركشي هذا الفصل بمدخل يضع القارئ في موقف نفسي يؤهله لاستقبال النص الذي هو بصدد تلاوته. يقول الزركشي إن تعلم القرآن نعمة من أكبر النعم التي منحها الله الإنسان، حيث إن القرآن أعظم المعجزات، وأن النبي خاتم الأنبياء والمرسلين. فالحجة بالقرآن العظيم قائمة على كل عصر وزمان، لأنه كلام رب العالمين. وفي هذه المقدمات أساس الإيمان بإعجاز القرآن بعد الإيمان به. وكأن الذي يبدأ التلاوة يبدأ بإثبات إسلامه وإيمانه بالله ورسوله. أما الخطوة الثانية في التلاوة فهي الاعتقاد بأن القرآن هو الهادي والمعين في توجيه العمل:

«فلير من عنده القرآن أن الله أنعم عليه نعمة عظيمة، وليستحضر من أفعاله أن يكون القرآن حجة له

لأهله؛ لأن القرآن مشتمل على طلب أمور، والكف عن أمور، وذكر أخبار قوم قامت عليهم الحجة فصاروا عبرة للمعتبرين حين زاغوا فأزاغ الله قلوبهم، وأهلكوا لما عصوا، وليحذر من علم حالهم أن يعصى، فيصير مآله مآلهم؛ فإذا استحضر صاحب القرآن علو شأنه بكونه طريقا لكتاب الله تعالى، وصدره مصحفا له انكفت نفسه عند التوفيق عن الرذائل، وأقبلت على العمل الصالح الهائل...»[٢٥].

ويجب ألا ننسى أن الزركشي يخط في هذا الفصل خطوطا عامة في «آداب تلاوته [أي القرآن] وكيفيتها». أي السلوك العام الذي يجب أن يتبع في جميع تفاصيل التلاوة. فلابد من الاستعداد الجسماني من الاستياك وتطهير الفم، إلى تطهير البدن بالطيب المستحب تكريما لحال التلاوة، وارتداء ما يتجمل به التالي بين الناس من ثياب. وبعد هذا الاستعداد الروحي والجسماني يشرح الزركشي كيف يبدأ المسلم القراءة، وشروط الابتداء: التعويذ والبسملة، وبعد هذه البداية هل تكون القراءة في المصحف أفضل، أم على ظهر قلب؟ وفي هذا يطرح الزركشي ثلاثة أقوال[٢٦]:

الأول أنها من المصحف أفضل؛ لأن النظر فيه عبادة فيجتمع القراءة والنظر. والأدلة التي يقدمها الزركشي على أن طريقة القراءة من المصحف أفضل من القراءة على ظهر قلب هي أولا من التقاليد المتواترة في القراءة، فيذكر من الصحابة والأئمة من كانوا يقرأون من المصحف مثل القاضي الحسين والغزالي والشافعي، ثم يذكر بعض الأحاديث النبوية التي تعلي من شأن القراءة في المصحف. ويؤكد أن أجر هذه القراءة أكبر من القراءة على ظهر قلب. والقراءة التي تجمع بين الصوت والصورة أو جارحة العين وجارحة اللسان هي القراءة جهرا لا القراءة الصامتة. ويبدو أن هذا النوع من القراءة - الجهر - كان هو السائد في المجتمع الإسلامي وفي القرون الوسيطة المسيحية على حد سواء؛ وأن التحول من القراءة جهرا إلى القراءة الصامتة كان تطورا كبيرا في علاقة القارىء بالكتاب.

أما القول الثاني: إن القراءة على ظهر القلب أفضل فيعضده الزركشي بتقديم رأي أبي محمد عزالدين بن عبدالسلام الذي يقول في أماليه[٢٧]:

قيل القراءة في المصحف أفضل؛ لأنه يجمع فعل الجارحتين؛ وهما اللسان والعين، والأجر على قدر المشقة. وهذا باطل لأن المقصود من القراءة التدبر لقوله تعالى «ليدبروا آياته»[٢٨] والعادة تشهد أن النظر في المصحف يخل بهذا المقصود، فكان مرجوحا.

ويتضح هنا أن الهدف من القراءة هو أن يتدبر القارىء النص، والتدبر هو التأمل في أدبار الأمور وعواقبها، ثم استطرد في شرح كل تأمل سواء كان ناظرا في حقيقة الشيء وأجزائه أم في سوابقه وأسبابه أم في لواحقه وأعقابه. فالهدف من القراءة هو التأمل في معاني القرآن، فالتمييز بين النوعين من القراءة على سبيل تحديد أيهما أفضل في التوصل إلى التدبر وأيهما يعين القارىء في ممارسة هذا التأمل.

ويؤكد الزركشي أن الهدف من القراءة هو تدبر النص وأن القارىء له حرية الاختيار بين الطريقتين في القراءة على أساس أيهما تعينه على التوصل إلى هذا الهدف. تظهر أهمية غاية التدبر أوضح ما تظهر في القول الثالث، وهو قول النووي والذي جاء في الأذكار[٢٩]:

إن كان القارىء من حفظه ويحصل له من التدبر والتفكر وجمع القلب أكثر مما يحصل له من المصحف فالقراءة من الحفظ أفضل، وإن استويا فمن المصحف أفضل، قال: وهو مراد السلف.

وإذا كان الزركشي في نهاية هذه المسألة لا يعبر عن رأيه بوضوح فإننا نجد أنه في القول الأول أتى بعدد من

الأحاديث النبوية تعضده. ويستند أيضا إلى القدوة بالسلف الصالح من الخلفاء الراشدين والأئمة بما فيهم الإمام الشافعي الذي يتبعه الزركشي؛ فيبدو من ذلك أنه يميل إلى القول الأول، وهو أن القراءة بالعين واللسان؛ أفضل من القراءة على ظهر قلب وذلك كان المتبع في تقاليد القراءة (عند السلف).

ويبدو من ذلك ـ وكما أسلفنا ـ أن القراءة كانت جهرا لتشمل الجارحتين العين واللسان، غير أن الزركشي في مسألة أخرى يطرح الاختيار بين القراءة جهرا والقراءة بالإسرار. ويستحب البعض الجهر ببعض القراءة والإسرار ببعضها، لأن المسر قد يمل فيأنس بالجهر، والجاهر قد يكل فيستريح بالإسرار، «إلا من قرأ بالليل جهر بالأكثر، وإن قرأ بالنهار أسر بالأكثر». ويروي الزركشي عن معاذ بن جبل: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة». ويعلق الزركشي برقته المعروفة:

نعم من قرأ والناس يصلون فليس له أن يجهر جهرا يشغلهم به، فإن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه وهم يصلون في المسجد فقال: «يا أيها الناس كلكم يناجي ربه، فلا يجهر بعضكم على بعض في القراءة».

وبعد كل هذه الاستعدادات الروحية والنفسية والجسمانية، واختيار القراءة الأكثر ملاءمة، يبدأ القارىء. والتلاوة تبدأ بالترتيل، وهو التلاوة بوعي شديد بكل حرف من حروف النص، وبكل كلمة من كلماته. والترتيل هو أيضا تصنيف للنص، أي الوقف عند كل مقطع، ويعرف الزركشي الترتيل بقوله:

«فحق كل مسلم قرأ القرآن أن يرتله، وكمال الترتيل تفخيم ألفاظه والإبانة عن حروفه والإفصاح لجميعه بالتدبر حتى يصل بكل ما بعده، وأن يسكت بين كل النفس والنفس حتى يرجع إليه نفسه، وألا يدغم حرفا في حرف، لأن أقل ما في ذلك أن يسقط من حسناته بعضها، وينبغي للناس أن يرغبوا في تكثير حسناتهم».[(٣٠)]

فالقراءة لابد أن تكون مفصلة دقيقة فيها تدبر وفيها أيضا إحساس بإعجاز القرآن، أي بصفاته، أو كما يقول الزركشي بحسناته. ويجب في الترتيل أن يظهر القارىء مغزى النص، أو كما يقول الزركشي أن يقرأه على منازله، فإن كان يقرأ تهديدا لفظ به لفظ التهديد، وإن قرأ لفظ تعظيم لفظ به على التعظيم. فلا يجب القراءة بلا تعبير وبطريقة آلية. فإذا كان الترتيل ينطوي على الجانب الصوتي من مخارج الحروف وتوضيح كل حرف من الحروف فإن قراءة النص لابد أن تنطوي على جانب «تمثيلي»، أن يتمثل القارىء ما في النص من مشاعر مثل التهديد والتعظيم.

وبذلك تتدرج القراءة من المستوى الفونولوجي – الصوتي (وهذا مما يؤيد القراءة بالجهر)، إلى المستوى الأدائي، ثم ينتقل القارىء إلى المستوى الدلالي. وفي هذا المستوى يقرأ القارىء بـ «القلب»، فينبغي أن يشتغل قلبه بالتفكير في معنى ما يلفظ بلسانه». فنرى أن القراءة هنا تجمع بين ثلاث جوارح العين، واللسان والقلب. وهذا التفكير يوصل القارىء إلى «معرفة من كل آية معناها، لا يجاوزها إلى غيرها حتى يعرف معناها»، ومن اللافت للنظر أن الزركشي في هذا الموضع يعرف المعنى في هذا النوع من القراءة. فالمعنى هو الاستبطان لما تضمنه الآية من توجيه نحو الرياضة النفسية والخلقية للتوصل إلى الرحمة واجتناب العذاب. فهذه القراءة هي قراءة أخلاقية في المقام الأول. وتمتد هذه الرياضة النفسية ـ الأخلاقية إلى ذوي القارىء وأهله، ولابد من من امتدادها خارج نطاق الأقرباء إلى الغرباء. فإذا شعر وهو يقرأ أنه أساء إلى أحد فلابد من النية إلى إصلاح الظلامات. وبالتوصل إلى هذا المستوى من الفعل يكون القارىء توصل إلى كمال الترتيل.

وفي كل هذه المستويات يفترض الزركشي ضمنا أن القارىء لا يواجه صعابا أو مشاكل في القراءة وأن النص

في متناول فهمه (لايستخدم الزركشي كلمة الفهم ولكن يستخدم كلمة التدبر)، ولكن إذا صادف القارىء آية لا «يعرف» معناها فما العمل؟ «عليه أن يحفظ الآية حتى يسأل عنها من يعرف معناها، ليكون متعلما لذلك طالبا للعمل به» ولكن قد نسأل الزركشي في هذا الموضوع: «يسأل من؟» ولكنه لا يحدد هنا سلطة مرجعية يرجع إليها القارىء، بل يتركه حكيا في اختيار من يسأل. ثم إذا كانت الآية فيها خلاف فماذا يفعل القارىء؟ إن الاختيار هنا أيضا متروك للقارىء بأن «يعتقد من قولهم [المختلفين] أقل ما يكون»، وهذا الموقف المعتدل هو الذي يوجه اختيارات الزركشي بصفة عامة، ولكن هناك محك آخر يدخله الزركشي في الاختيار وهو «التوكيد»، يقول «إن احتاط [القارىء] على نفسه بأن يعتقد أوكد ما في ذلك كان أفضل له وأحوط لأمر دينه».[٣١]

ونجد أن الاعتدال بالنسبة للزركشي هو أساس الحياة الروحية والنفسية والخلقية، فحتى الخوف والرجاء يجب أن يكونا معتدلين:

«فإن كان ما يقرؤه [القارىء]. . . وعيدا وعد الله به المؤمنين فلينظر إلى قلبه، فإن جنح إلى الرجاء فزعه بالخوف، وإن جنح إلى الخوف فسح له في الرجاء، حتى يكون خوفه ورجاؤه معتدلين، فإن ذلك كمال الإيمان».[٣٢]

غير أن هناك منطقة من النص لا يجب أن يقربها القارىء وهي منطقة المتشابه، حيث إن هذه الآيات في القرآن، طبق تصنيف المفسرين قد تفرد الله بتأويلها، فلا حق للقارىء في محاولة معرفة معانيها على حق قول الزركشي، ويستشهد الزركشي في هذا المقام بآيتين: «فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله. . . . . . . وما يعلم تأويله إلا الله»[٣٣]. وقضية المتشابه من أصعب القضايا المطروحة بالنسبة للمفسرين وأكثرها تركيبا وتعقيدا، ولكل مذهب من مذاهب التفسير موقف خاص من هذه القضية وقد تعرض لها الزركشي في البرهان في موضوع آخر من الكتاب، فالمتشابه علم خاص به يقدمه الزركشي في الفصل الخامس بعنوان «علم المتشابه». وليس هنا مجال عرض هذا الفصل ولكن ما نستطيع قوله إن القراء مراتب وإن مرتبة المسلم المؤمن ـ أي القارىء العادي غير المتخصص ـ يجب ألا يحاول الخوض في مسائل قد تفسد إيمانه وتبلبل ذهنه.

وكما أسلفنا القول يميل الزركشي إلى المنهج الصوفي ويدافع عن المتصوفة في أكثر من موضع من كتاب البرهان، رغم أن تفاسير المتصوفة كانت موضع هجوم شديد من جمهور العلماء، غير أن المتصوفة أنفسهم كانوا يسمون تفاسيرهم «إشارات» لتفادي ما كانوا يتعرضون له من هجمات، ويتبنى الزركشي هذا الموقف مع شيء من التحفظ، فإنه يعد تفاسير المتصوفة «تلاوة» للقرآن فنجد عنده المقولة التي شاعت في كتابات الشيعة والمتصوفة من أنه «ما من آية قرآنية إلا ولها أربعة معان: ظاهر وباطن وحد ومطلع». وأصل هذه المقولة يُرد إلى علي بن أبي طالب. غير أن الغزالي يستشهد بهذه المقولة لتأكيد أن للقرآن باطنا غير ظاهره، وأكثر من ذلك يجعل منها حديثاً نبويا، وإن كان ينبه إلى أنه «ربما نقل هذا عن علي موقوفا عليه»[٣٤]. وربما يكون من المفيد تتبع تفسير هذه المقولة عند المفسرين على اختلاف مذاهبهم؛ ولكن الذي يتضح لنا من ورودها في البرهان أن الزركشي ينتمي إلى الاتجاه الذي يطلق عليه التصوف السني. والذي يهمنا في هذا المضمار أن الزركشي يرى أن القارىء يتمتع بقدر كبير من الحرية، وأن التلاوة عنده هي نوع من المجاهدة النفسية فإنه يقول بالنسبة لتفاسير المتصوفة:

فأما كلام المتصوفة في تفسير القرآن، فقيل ليس تفسيرا، وإنما هي معاني ومواجيد يجدونها عند التلاوة،

كقول بعضهم في «يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار»(سورة البقرة ١١-١٢)، إن المراد النفس، فأمرنا بقتال من يلينا ولأنها أقرب شيء إلينا وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه.

قال ابن الصلاح في فتاويه: وقد وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحدي أنه صنف أبو عبدالرحمن السلمي [٣٥] حقائق التفسير فإن كان اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر.

قال: وأنا أقول: الظن بمن يوثق به منهم إذا قال شيئا من أمثال ذلك أنه لم يذكره تفسيرا، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة في القرآن العظيم، فإنه لو كان ذلك كانوا قد سلكوا مذهب الباطنية، وإنما ذلك منهم ذكر لنظير ما ورد به القرآن، فإن النظير يذكر بالنظير، فمن ذلك مثال النفس في الآية المذكورة، فكأنه قال: أمرنا بقتال النفس ومن يلينا من الكفار، ومع ذلك فياليتهم لم يتساهلوا في مثل ذلك، لما فيه من الإيهام والالتباس! انتهى.[٣٦]

وقد أتى هذا التنبيه عن طبيعة التفسير الصوفي في الفصل الخاص بتعريف التفسير والتأويل، والذي يحمل عنوانا فرعيا يقول: «معاني العبارات التي يعبر بها عن الأشياء». والواضح من التقديم السابق أن الزركشي ينظر إلى التفسير الباطني بشيء من التحفظ ويفضل تفسير الظاهر، أي اعتماد المعنى الحرفي دون المعنى المجازي أو الباطني. غير أن الزركشي يقبل أن ينطلق في القراءة إلى بعض الاستنتاجات رغم تحفظه هو عليها. وما يؤكد هذا التقبل العرض الذي يعرضه في هذا الفصل، فصل التلاوة، ففي التلاوة يمكن للمسلم أن ينطلق إلى آفاق واسعة من الرياضة النفسية والروحية والصوفية. ويقدم الزركشي مراتب تلاوة الصوفية على لسان بعض المتصوفة، وإن لم يذكره، يقول المتصوف إن الناس في تلاوة القرآن على ثلاثة مقامات[٣٧]:

المقام الأول هو مقام العارفين من المؤمنين الذين يتوصلون إلى الله من خلال كلامه، ومعرفة معاني خطابه، فإن التلاوة هنا هي التوصل إلى المتكلم، ويذكر الزركشي قول جعفر بن محمد الصادق وهو من أئمة الشيعة: «لقد تجلى الله لخلقه بكلامه ولكن لا يبصرون». فالعارفون أسمى مرتبة من القارئ المسلم العادي الذي يتدبر النص ليعرف نفسه وأفعاله، أما العارف فإنه يبحث عن الله في خطابه، فإنه لا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته. . . ، بل هو مقصور الفهم عن المتكلم، موقوف الفكر عليه، مستغرق بمشاهدة المتكلم.

أما المقام الثاني فهو مقام عموم المقربين، وهم من يشهدون بقلبهم كأنه تعالى يخاطبهم ويناجيهم بألطافه، وحالهم الإصغاء والفهم.

والمقام الثالث، وهو أرفعها. هو مقام أصحاب اليمين الذين يرون أنهم يناجون ربهم سبحانه وتعالى.

ولكن من هم هؤلاء العارفون والمقربون وأصحاب اليمين؟ «إن كل أحد يفهم عنه بفهمه الذي قسم له، حكمة منه».

وتقديم الزركشي للقراءات الصوفية يتفق مع ما ذهب إليه الجابري من أن انتشار التيارات العرفانية في الإسلام أدى إلى:

«. . . تجاوز إقامة التقابل بين الظاهر والباطن على مستوى النص القرآني، إلى التمييز تمييزا حاسما بين «علم الظاهر» و«علم الباطن»». يقول أبو نصر السراج الطوسي، وهو من أوائل المؤلفين في تاريخ التصوف في الإسلام: «إن العلم ظاهر وباطن، وهو علم الشريعة الذي يدل ويدعو إلى الأعمال الظاهرة والباطنة. والأعمال الظاهرة كأعمال الجوارح وهي العبادات والأحكام. . . وأما الأعمال الباطنة فكأعمال القلوب وهي المقامات

والأحوال. . . ولكل عمل من هذه الأعمال الظاهرة والباطنة علم وفقه وفهم وحقيقة ووجد. . . فإذا قلنا: علم الباطن أردنا بذلك علم أعمال الباطن التي هي الجارحة الباطنة وهي القلب، وأما إذا قلنا علم الظاهر أشرنا إلى علم الأعمال الظاهرة التي هي الجوارح الظاهرة وهي الأعضاء. . . »[٣٨].

وبناء على التقسيم السابق يمكن القول إن التلاوة تنقسم إلى تلاوة كل مسلم التي تنتمي إلى علم الظاهر، أما تلاوة المتصوفة فتنتمي إلى علم الباطن.

ولكن الذي نود تأكيده أن منهج الزركشي هو منهج الاعتدال، فإذا كان يذكر مقامات المتصوفة بنوع من التعاطف (وقد أسقطها السيوطي من الإتقان)، فإنه في الحقيقة لا يعتمد التفاسير الصوفية في البرهان بل على العكس من ذلك فإن أكثر رجوعه في تفسير الآيات لكشاف الزمخشري المعتزلي. وقد نقول إن الزركشي يفصل بين التفسير والتلاوة، فالتفسير علم دقيق المنحى، وهو ما يفصله في أبواب مختلفة من كتابه، أما التلاوة فتقوم على العلاقة الشخصية بين القارىء والنص، بين القارىء والله. التلاوة نشاط خاص يسمو به كل قارىء بنفسه فوق نفسه، أما التفسير فنشاط عام لابد من اتباع خطوات دقيقة وحريصة عند ممارسته. ومما لاشك فيه أن علماء السنيين كانوا يتخوفون خوض العامة في علوم القرآن دون علم ولذلك خطوا حدودا فاصلة بين القراء ومن لهم الحق في تناول هذا النص بالتفسير والتأويل.

وإذا كنا قد أطلنا في تحليل هذا الفصل من كتاب البرهان فذلك لأهميته بالنسبة لدراسة علاقة القارىء بالنص، والآن لابد من عرض ما يقابل هذا الفصل من كتاب الزركشي عند علماء المسيحيين.

مستويات القراءة عند علماء المسيحيين

كان عالم القرون الوسطى يتوصل إلى المعرفة من خلال القراءة، سواء كانت هذه القراءة للنصوص، أي الكتب، أو الأشياء أي كتاب الطبيعة، فالله يكلم البشر من خلال مخلوقاته وأيضا من خلال خطابه. وهذا ينطبق على العالم الإسلامي والمسيحي على حد سواء. فالمعرفة ـ كل أنواع المعرفة ـ يصل إليها العارف من خلال القراءة، والمعرفة تنتقل من الأستاذ إلى المريد من خلال القراءة أيضا. ففي العالم الإسلامي كان الدرس هو قراءة، فالمريد يقرأ العلوم على الأساتذة، وكذلك كان الأمر بين الأساتذة والمريدين في العالم المسيحي. وكانوا يميزون بين ثلاثة أنواع من القراءة: هناك قراءة الأستاذ Lego librum illi (أي أقرأ الكتاب له)، وقراءة المريد Lego librum ab illo (أي أقرأ الكتاب عليه)، وهناك القراءة الخاصة Lego librum (أي أقرأ الكتاب). فالتدريس هو القراءة بالمعنى الدقيق للكلمة، الأستاذ يقرأ النص الذي يدرسه ومحاضرته تسمى Lectio[٣٩] وهو نفسه يسمى قارىء Lector، ومازالت هذه التسمية مستخدمة حتى يومنا هذا في بعض الجامعات الغربية، ومنها مصطلح «المحاضرة» بالانجليزية Lecture فالقراءة نشاط جماعي في نقل المعرفة، فبالرغم من أهمية هذا الموضوع ـ أي انتقال المعرفة من الأستاذ إلى المريد والدور الجوهري الذي يلعبه «الشيوخ» في تكوين الحياة الفنية للمريدين ـ فإننا نريد في هذه الفقرة الإطلالة على قراءة المريد عندما يواجه نصا بمفرده.

ونجد عند المنظرين الذين تناولوا ظاهرة نشاط القراءة وصفا لكيفية تناول النصوص بصفة عامة والنصوص المقدسة بصفة خاصة، فكان يطلق على هذه القراءة مصطلح Lectio divina أي القراءة المقدسة (ومازالت هذه التسمية مستخدمة حتى الآن). ولقد قننت القراءة في الأديرة حيث مثلت النشاط العلمي والتعبي الأساسي في حياة الرهبان. وكانت الأديرة، وبخاصة في القرون الوسيطة المتقدمة، هي المراكز التي انطلق منها العلم بكل

صوره. ومن أهم أديرة القرن الحادي عشر دير سان فكتور الذي لمع فيه ـ من بين من لمعوا ـ هوج دي سان فكتور صاحب كتاب ديدسكاليكون أوفن القراءة[٤٠]؛ نجد في هذا الكتاب القواعد العامة التي تحكم عملية القراءة. ويميز هوج دي سان فيكتور ـ على غرار من سبقه ـ بين نوعين من القراءة، أو ربما من الأدق أن نقول بين مستويين من القراءة: المستوى الأول هو مستوى التلاوة Lectio والثاني هو مستوى التدبر Meditatio؛ ويشبه هذا التصنيف ذلك الذي وجدناه عند الزركشي. فالتلاوة أو Lectio هي التعرف على النص، وارتياد النص، أما التدبر أو Meditatio فهو تحويل النص إلى الداخل، استبطان النص، يقول هوج دي سان فكتور:

إن التلاوة (أو القراءة) تسعى إلى تدريب قدرات القارىء الطبيعية Ingenium وهذا من خلال التصنيف ومنهج العرض والتحليل Ordo et Modus، وقد يساعد على هذا اللجوء إلى النحو والجدل. أما التدبر Meditatio فرغم أنه يبدأ بالتلاوة فإنه لا يخضع لحدودها وقواعدها ولكنه يتجاوزها. حيث إن التدبر يستحسن الانطلاق في الساحات الرحبة حيث يركز نظرته الحرة المطلقة على مشاهدة الحقيقة. فيستطيع القارىء في مرحلة التدبر أن يربط بين هذه الأفكار أو تلك. أو أن يغوص في أعماق الأعماق، حيث لايترك شيئا مشكوكا فيه أو غامضا. إن الدراسة تبدأ بالتلاوة وتصل إلى تتويجها في التدبر.[٤١]

وكما أسلفنا القول إن القراءة في العصور الوسطى كان ينظر إليها على أنها عملية سلبية يكتفي القارىء بامتصاص النص، كالإسفنجة، دون التفاعل معه. غير أن هذه النظرة فيها شيء من التبسيط المخل حيث إن الهدف من القراءة لم يكن مجرد الحفظ على ظهر قلب، وإنما كان الحفظ أداة لتحويل النص من حقيقة مادية خارجة عن النفس إلى جزء من ذاتها. فكانت النصوص تختزن في الذاكرة التي كانت تقارن بالمعدة ـ ولكنها لم تكن تختزن اعتباطا، ويشهد على ذلك هذه الرسائل والكتب التي ألفت على مر العصور في «فن الذاكرة»[٤٢]، فالحفظ كان يتم من خلال ربط جزئيات النص بما يشبهها أو يستدعيها في النفس، بحيث تلتحم بها وتنسج داخل نسيجها. ولا نستطيع أن نعرض لكل تفاصيل فن الذاكرة في هذا التراث، ونحيل القارىء إلى الدراسات المشار إليها في الهامش. ولكن هناك نقطتين نود إبرازهما هنا. الأولى هي أن النص كان لابد أن يستبطن، وكانت النصيحة العامة التي ينصح بها جمهور المعلمين لطلابهم أن يستألفوا النص، أي أن يجعلوه أليفا Familiar أوحسب عبارة ألبير العظيم Albertus Magnus أن يستأنسوا النص Domesticar. إن هذه النصيحة، أن يحول القارىء النص إلى جزء من نفسه، كانت العرف الشائع في أساليب القراءة في القرون الوسطى. وهذه النصيحة نابعة من التوجه الأخلاقي العام الذي كان يسود تلقي العلوم في القرون الوسطى، حيث كانت القراءة نوعا من الرياضة النفسية لكي يصل القارىء إلى قمة الكمال الإنساني. ويوضح هذا المنحى رسالة مشهورة لهوج دي سان فكتور بعنوان «عن سفينة نوح الأخلاقية» "De arca Noe morali" ويقدم فيها الخطوات التي يجب أن يتبعها المريد من خلال التدبر للتوصل إلى قمة الحكمة. فالقارىء لم يكن منفصلا عن النص، بل على العكس من ذلك كما تشير الاستعارات التي كانت تستخدم للتعبير عن القراءة. فالقارىء كان يقارن بالبقرة لأنه يجتر النص كما تجتر البقرة الطعام. وكانت حركة الفم عند الترتيل والتجويد تساعد على مقارنة القراءة بالاجترار. والتشابه هنا يأتي من أن كلا من الآكل والقارىء يحول المأكول والنص إلى جزء من نفسه؛ كما أنه هو نفسه يتحول إلى شيء آخر بعد الانتهاء من التناول. كما كان القارىء يقارن بالنحلة التي تحول رحيق الزهور إلى عسل.

واللافت للنظر أننا نجد هاتين الاستعارتين في البرهان، فعندما يتحدث الزركشي عن التلاوة، في سياق

ماروي عن خلط بلال الطيب بالطيب من السور، ونهي النبي عن ذلك، يعلق الزركشي على ما رواه الترمذي في نوادر الأصول «مَثَل بلال كمثَل نحلة غدت تأكل من الحلو والمر، ثم يصير حلوا كله»:

وإنما شبهه بالنحلة في ذلك لأنها تأكل من الثمرات حلوها وحامضها، ورطبها ويابسها، وحارها وباردها فتخرج هذا الشفاء، وليست كغيرها من الطير تقتصر على الحلو فقط لحظ شهوته فلا جرم أعاضها الله الشفاء فيما تلقيه؛ وهذا كقوله «عليكم بألبان البقر فإنها ترم من كل الشجر فتأكل»[43].

فالقارئ، يحول الحلو والمر إلى شفاء كما تحول البقرة ورق الشجر على أنواعه وألوانه إلى لبن.

وكانت مقارنة القارئ، بالبقرة أو النحلة شائعة في الثقافات الإغريقية والرومانية والقرون الوسيطة الأوربية، ونجدها أيضا في الثقافة العربية، وإن تساورني الدهشة إذا ما اتضح وجودها في ثقافات الشرق الأقصى القديمة أيضا. فإذا كانت تلك نظرتهم لدور القارئ، فهل يجوز لنا القول بأن قارئ، القرون الوسطى كان سلبي الدور في عملية القراءة؟ والعبرة هنا هي أن العسل واللبن محددان في طبيعتها، فلا يستطيع القارئ، أن يحول ما يقرؤه إلى أي مادة يختارها لنفسه، فالعبرة معروفة، والدلالة متحوتة في النص، وضعها صاحبه؛ وإنما كان اجتهاد القارئ، فالدلالة محددة العدد، قد تكون واحدة أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة. ففي التفاسير المسيحية كانت الدلالة تحصر في نطاق عددي محدد من واحدة إلى خمس، لا أكثر. وكان على القارئ، أن يتوصل إلى هذا العدد المحدد، لا يتجاوزه. وكانت الخلافات بين مدارس التفسير تنحصر حول عدد الدلالات في النص الواحد، ولكن كان لابد من تحديد العدد، والطبيعة، والمغزى.

وقد انتشرت منذ أوريجين Origene (١٨٥-٢٥٤) في القرن الثاني الميلادي مقولة الدلالات الثلاثة للكتابات المقدسة واكتملت إلى أربعة عبر القرون الوسيطة ووصلت إلى قمتها على يد توماس الأكويني.

وقد تسللت هذه النظرية إلى منهج القراءة، فالدلالات الأربع هي الدلالة الحرفية Literal or historical (الظاهر)، والدلالة الأليجورية Allegorical (المجازية)، والدلالة التربولوجية Tropological (الأخلاقية) والدلالة الأناجوجية Anagogical (الباطن) إن القارئ، في تلاوته لابد أن يرتفع من مستوى إلى مستوى، ويقول هوج دي سان فيكتور في كتابه فن القراءة إن المستويين الأول والثاني من الدلالة يتوصل إليهما القارئ، عن طريق التلاوة Lectio، وهذا بالاستعانة ببعض العلوم ومنها النحو والبلاغة والتاريخ، أما المستويان الثالث والرابع فلا وصول إليهما إلا من خلال التدبر Meditatio.

إذا كان منهج قراءة النصوص قد تأسس في نطاق تلاوة النصوص الدينية فإنه لم يظل محصورا في هذا النطاق حيث كانت المقارنة مطروحة بين النص الديني المقدس والنص الإنساني بالنسبة لآباء الكنيسة حتى تظهر الفروق التي كانت تميز كلام الله عن كلام البشر. وهناك كثير من المناظرات التي كانت تمس هذا الموضوع ليس هنا مجال عرضها، ولكن ما نود تأكيده هو أن هذا المنهج تسلل إلى قراءة النصوص البشرية. وكان الشاعر الإيطالي بترارك[44] ممن تعرضوا لموضوع القراءة واختزان النصوص في الذاكرة. وصورة القارئ، عند بترارك درست كثيرا كما عرضها في مذكرات سرية، سماها سر الأسرار، كان يكتبها ونشرت بعد وفاته. وقد كتبها في شكل حوار بين الشاعر الذي يطلق على نفسه اسم فرانشسكو والقديس أوغسطين الذي كان بترارك من مريديه ولا يتحرك إلا واعترافاته معه. وقد أودع هذه المذكرات خلجات نفسه، واعترف فيها بخطاياه ومعاناته وشكوكه للقديس.

وفي فقرة من الفقرات يشكو فرانشسكو(بترارك) إلى القديس ضعف الجسد وهوانه، وما يعاني من الحياة في مدينة ميلانو بقذارتها وضجيجها وصخبها. فيذكره القديس بكل الأعمال الأدبية التي تعالج مثل هذه المشكلة - بما فيها مؤلفاته هو نفسه. ألا تساعده هذه القراءات على مواجهة مشكلته وعذابه؟ يجيب فرانشسكو - بترارك:

في لحظة القراءة نفسها أشعر أنها تساعدني حقا، ولكن ما إن تترك يدي الكتاب حتى يتلاشى شعوري به. يقول أوغسطين: هذا النوع من القراءة أصبح عاديا الآن بين جمهور المتأدبين... ولكنك إذا سجلت في مكانها الصحيح ملاحظات مؤكدة سوف تحصد نتاج قراءتك. يقول فرانشسكو: أي نوع من الملاحظات؟ يقول أوغسطين: عندما تقرأ كتابا وتقابل حكما متكاملة تجيش بها روحك والعقل، لا تثق بقدراتك الطبيعية، ولكن تأكد من حفظها على ظهر قلب، واجعلها أليفة لك من خلال التفكير... حتى أنك عندما يتنابك داء مفاجىء تجد الدواء وكأنه كتب في ذهنك... عندما تقابل مقاطع ما تبدو لك مفيدة، علمها بعلامات متينة، وكأنها أوتاد في ذاكرتك حتى لا تطير بعيدا عنك.(٤٥)

ماذا نعني في الحقيقة عندما نقول اجترار النص، امتصاصه، جعله جزءا من كيان القارىء؟ هل نتخيل اليوم هذا القدر من سطوة النص نظريا؟ هل يحدث هذا في الواقع أم أن كل قارىء يمتص من النص على قدر رغبته واستطاعته، على قدر ما هو مؤهل له؟

قد يكون من المفيد أن ننتقل إلى مرحلة تالية تاريخيا وأن نتأمل نظرية ميشيل دومونتاني Montaigne الكاتب الفرنسي. إن مونتاني يعد المفصل الذي يفصل بين عقلية العصور الوسطى والعصر الكلاسيكي. كيف كان ينظر إلى القراءة؟ كان مونتاني يقارن القراءة بلعبة التنس(٤٦) (المضرب)، يقول في فصل بعنوان «عن الخبرة» في كتابه الشهير المقالات Les Essais:

إن الكلام La parole ينتمي بالمناصفة بين المتكلم والمستمع. إن الأخير يجب أن يستعد لاستقبال الكرة حسب الاتجاه الذي تندفع إليه. كما هو الحال بين لاعبي التنس. المستقبل يتحرك، ويستعد على أساس حركة الضارب وحسب طبيعة الضربة.(٤٧)

لاشك أن هذه المقارنة توجهت توجها مخالفا عن مقارنة البقرة أو النحلة، حيث إن الطرفين هنا متساويان في اللعبة ولكل استراتيجيته الخاصة في استقبال الكرة والتعامل معها. وفي جميع عناصر العرض الذي قدمه مونتاني كثير من السخرية والدعابة في آن واحد؛ وقد كان يتمتع بثقة كبيرة في النفس ولا يشعر بحرج أمام العباقرة اللذين يواجهونه في الكتب، مع تسليمه بأنه لا يرقى لمستواهم، فهو لا يحاول أن يشمخ لقممهم، بل يود أن يكون هو نفسه، وأن يعبر عن هذه النفس مهما ضؤلت! وكأن مونتاني يتنبأ برولان بارت عندما ينادي بالقراءة لمجرد المتعة دون التوجه إلى غاية تثقيفية أو أخلاقية!

على أية حال لن نستطيع أن نستنفد هذا الموضوع في هذه السطور القليلة حيث إنني أريد أن أتعرض في نهاية هذا البحث إلى نقطة تشغلني منذ بدأت في كتابة هذه السطور وهي الإجابة عن السؤال من أين تنبع الدلالة؟

المستوى الهيرمينوطيقي: مرحلة فهم الفهم

منبع الدلالة:

عندما نقول إن القارىء يفهم النص أو يتدبره، أو إنه يعرف معناه، فماذا نعني؟ إن في هذه الإجابة ثلاثة أقوال: الدلالة تنبع من المتكلم، الدلالة تنبع من القارىء، والدلالة تنبع من النص.

إذا بدأنا بالتعريف الشائع في التراث العربي للغة فإنه ينطلق من منبع المتكلم، فاللغة في تعريف ابن جني في الخصائص أنها «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم». وهذا التعريف يمتد أيضا إلى تعريف البيان حيث إن البيان هو على حد تعريف الطبري الإبانة عما في نفس المتكلم:

. . . . . البيان، الذي به عن ضمائر صدورهم يبينون، وبه على عزائم نفوسهم يدلون، فذلل به منهم الألسن، وسهل به عليهم المستصعب فبه إياه يوحدون، وإياه به يسبحون ويقدسون، وإلى حاجاتهم به يتوصلون، وبه بينهم يتحاورون، فيتعارفون، ويتعاملون.[48]

فاللغة إذن هي أداة للتعبير عن «أغراض» المتكلم، وفي اللسان «الغرض: شدة النزاع نحو الشيء والشوق إليه»، غير أن هذه الأغراض ليست ظاهرة ولكنها مكنونة في ضمير المتكلم، وفي اللسان «الضمير السر داخل الخاطر، الليث: الضمير الشيء الذي تضمره في قلبك. . .»، وأضمرت الشيء: أخفيته، وأضمرته الأرض: غيبته إما بموت أو بسفر. . . ، فاللغة إذن هي الوسيلة التي يستطيع المتكلم بها تحويل الأغراض و«الشيء» المضمر في دخيلة ذاته إلى علامات صوتية يمكن أن تصل إلى متلق يستطيع أن يعرف من خلال قراءتها هذه الأغراض أو «الأشياء» التي تجيش بها نفس المتكلم. والفرض المطروح هو أن المتكلم يتوجه نحو هذا المتلقي بالكلام فيسعى إلى توصيل محتوى النفس هذا إليه، فمن العبث إرسال رسالة إلى مخاطب دون هذا الهدف.

ونستطيع أن نقول هنا إن محتوى النفس هذا الذي يعبر عنه ابن جني بـ«الأغراض»، والطبري بـ«الضمائر» هو ما يصطلح على تسميته في علم اللغة القديم والحديث بقصد المتكلم. ونحيل القارئ هنا إلى دراسة نصر حامد أبو زيد التي حلل فيها مستويات الدلالة في التراث العربي، حيث تعرض بالتفصيل إلى هذه القضية[49]. ويتطرق نصر حامد أبو زيد إلى الفارق بين دلالة العلامات المفردة التي تكتسب دلالتها من فعل المواضعة ودلالة الخطاب التي لا يكتسب دلالته إلا بفعل قصد المتكلم. وقد أسند نصر أبو زيد هذا التمييز إلى المعتزلة غير أنني أرى أن إسناد الدلالة إلى قصد المتكلم لا يقتصر على المعتزلة ولكنها مقولة منتشرة في الفقه الإسلامي (مقاصد الشريعة، أسباب التنزيل) وكما استندت إليها جميع التشريعات الإلهية والبشرية على حد سواء. وإذا تعمقنا هذه المقولة (أي أن الدلالة تنبع من قصد المتكلم) نرى أنها تتخلل جميع أنواع الخطابات. فيميز الغزالي مثلا بين العبارة والخبر من منطلق قصد المتكلم يقول:

وأما العبارة فهي الأصوات المقطعة التي صيغتها مثل قول القائل: زيد قائم وضارب، وهذا ليس خبرا لذاته، بل يصير خبرا بقصد المتكلم إلى التعبير به عما في النفس. ولهذا إذا صدر عن نائم أو مغلوب لم يكن خبرا، وأما كلام النفس فهو خبر لذاته، وجنس إذا وجد لا يتغير بقصد المتكلم[50].

إن الكلام ينشأ من النفس، نفس المتكلم، مقولة جوهرية بالنسبة لكل التفكير اللغوي؛ وقد كان لمفهوم الكلام النفسي مركز محوري في علوم القرآن، ونشير هنا إلى مقال شكري عياد القيم الذي يوضح أهمية هذا المفهوم في الكتابات الإسلامية بعنوان المؤثرات الفلسفية والكلامية في النقد العربي والبلاغة العربية[51].

ولا شك أن مفهوم القصد يمثل جزءا أساسيا من دلالة الخطاب سواء كان هذا في الفكر التراثي العربي والغربي أو الفكر اللغوي الحديث. ووجدنا في عدد من الكتابات التي تسعى إلى قراءة النصوص في التراث الغربي في القرون الوسيطة، سواء كانت هذه النصوص دينية أو إنسانية. وقد قدم هذه النصوص عالمان بريطانيان متخصصان في دراسات القرون الوسيطة وقدما ترجمة إنجليزية لمجموعة من النصوص الخاصة بتقاليد التفسير التي تتناول النصوص المقدسة والإنسانية من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١٣٧٥[52]. ونجد من بين

هذه النصوص المقدمات التي كانت تستهل الأعمال الشعرية وكانت هذه المقدمات تتبع منهجا محددا يعد القارىء لفهم النص الشعري، وتسمى هذه المقدمات Accessus auctores أي التقريب إلى المؤلفين. فلكي يفهم النص كان على القارىء أن يتعرف على قصد المؤلف Intentio auctoris، عنوان الكتاب Titulus الإجراء التعليمي أو الأسلوبي Modus agendi أو Modus Tractandi، النظام المتبع في تقديم المادة Ordo، الفائدة التعليمية أو الأخلاقية Utilitas، المحتوى Materia والفرع المعرفي الذي ينتمي إليه المؤلف Cui parti Philosophiae supponitur.

من الصعب تقديم تتبع تاريخي لمفهوم قصد المتكلم في الدرس اللغوي بصفة عامة، وفي درس النصوص بصفة خاصة في بحث مختصر مثل هذا، غير أن البحث عن قصد المتكلم ساد إلى حد كبير الدرس النصي حتى القرن الثامن عشر عندما بدأ الوعي بالوضع التاريخي لكل من المتكلم والمخاطب، والشقة التي قد تفصل بينها بشكل ومن ثم تحولت علوم التفسير والتأويل[٥٣] من علوم تبحث عن الدلالة Interprétatin إلى علم الهيرمينوطيقا الذي يبحث في آليات الفهم Compréhension، وهذا التحول جعل القارىء موضع البحث بدلا من المتكلم. وقد صاحب هذا التحول بعض الأسئلة حول الدلالة التاريخية للغة، وكيف أن دلالة الألفاظ المفردة تختلف من عصر إلى عصر، ويستشهد بيتر زوندي Peter Zondi بقراءة المجتمع الأثيني لهوميروس، فالفجوة التي كانت تفصل بين الأثينيين وهوميروس هي نفسها التي تفصل بين اللغة الألمانية الحديثة وأسطورة النيبلونجن Nieblungen[٥٤]. غير أن مهمة الشارح أو المفسر كانت أن تقرب النص القديم إلى القارىء المتأخر وأن تلغي هذه الهوة، فكان يترجم الكلمات القديمة إلى كلمات حديثة. وهذا مايحدث في شروح الشعر العربية، عند شرح غريب الألفاظ. وقد يكون من المفيد مقارنة شروح ديوان شاعر واحد على مر العصور لمعرفة تطور القراءة والابتعاد أو الاقتراب من النص. ومن اللافت للنظر لمن يرتاد شرح العكبري مثلا ـ وهو من القرن السابع الهجري ـ اقترابنا من شرحه لمعنى أبيات المتنبي. فالعكبري في الحقيقة «يترجم» لغة المتنبي ـ الذي قال شعره قبل العكبري بثلاثة قرون ـ إلى لغة عصرية (قد يقول قائل إنه يحول الشعر نثرا وهذا ليس بشرح بل تشويه، ولكن الذي أود تأكيده هو عملية التقريب التي تتم دون الالتفات إلى أن هذا الشعر ينتمي إلى عصر مضى وانقضى وربما لا نستطيع أن «نفهمه» لابتعاده عنا ولا يكفي مجرد ترجمة الألفاظ القديمة الغريبة إلى ألفاظ مألوفة للقارىء).

إن تحول دراسة النصوص من محاولة تفسير النص المعتمد على التوصل إلى قصد المتكلم إلى محاولة معرفة آليات الفهم، نقول إن هذا التحول أثار كثيرا من المشكلات التي لم تكن مطروحة من قبل. منها الإطار الاجتماعي والثقافي والحضاري الذي ينتج فيه النص مقارنا بالإطار الذي يستقبل فيه. فالبعد الزماني والمكاني اللذان يفصلان بين النص والقارىء أصبحا عائقا أمام فهم النص. فهل يستطيع قارىء عربي، أو فرنسي، أو إنجليزي يعيش في القرن العشرين أن يفهم رواية يابانية كتبت في نفس القرن[٥٥]؟ أو هل يستطيع قارىء ياباني يعيش في القرن العشرين أن يفهم رواية يابانية كتبت في القرن السادس عشر مثل قصة جنجي The Tale of Gengi؟ إن المشكلة ليست مشكلة دلالة الألفاظ «الغريبة» فحسب ولكنها مشكلة مفاهيم وقيم وعادات، مشكلة أبنية سيميوطيقية، أنظمة معرفية، إلخ.. لقد بدأت تتسلل إلى دراسة النصوص مفاهيم النسبية التي مؤداها أن كل منتج ثقافي مشروط بظروف إنتاجه التي تختلف من عصر إلى عصر، ومن مكان إلى

مكان، ومن لغة إلى لغة، ومن ثقافة إلى ثقافة إلخ. . . فكيف يستطيع القارئ أن يجاوز هذه العقبات وهل يستطيع فعل ذلك والتوصل إلى فهم «صحيح» للنص في ظل هذه المعوقات؟ وما هو الفهم «الصحيح» للنص. هل هناك فهم واحد صحيح أم هناك مداخل مختلفة للفهم تتساوى؟ إن علم الهيرومينوطيقا الحديث يحاول الإجابة على هذه الأسئلة.

وقد طرحت منذ تيلور ما يعرف اليوم بعلم الهيرمينوطيقا الفلسفي مجموعة كبيرة من التصورات حول عملية «الفهم» بصفة عامة، وفهم النصوص بصفة خاصة، وفهم النصوص الفنية بصفة أخص.

يمكن أن نطرح هنا مرة أخرى هذا السؤال: من أين تنبع الدلالة؟

من المتكلم؟ من القارئ؟ من النص؟ كانت الإجابة قاطعة في الماضي بأنها تنبع من المتكلم، أو بمعنى أصح من قصد المتكلم في توصيل رسالة معينة. وأصبحت الإجابة اليوم مفتوحة، تتراوح بين الخيارات الثلاث. هل هذا القصد قصد لغوي؟ هل الأفكار والرغبات والمعتقدات تمثلات ذهنية لغوية أم غير لغوية وتصاغ في سلسلة من الأصوات هي اللغة؟ وإذا كانت لغوية هل تؤثر اللغة (وهي الكيان الاجتماعي) على تشكل هذا القصد؟ لقد انفصمت اللغة عن المتكلم، عن مستخدمها، ونشأ نوع من الصراع بين المتكلم واللغة، فأحيانا تسيطر اللغة، وأحيانا أخرى يسيطر المتكلم. إن هذا الانفصام جعل النصوص تكتسب نوعا من الاستقلال النسبي عن المتكلم.

ولكن التغير الجوهري الذي ساد دراسة النصوص الفنية هو الدور الجوهري الذي أخذ يلعبه القارئ في تلقي النص الفني بحيث أمكن أن يقال إن القارئ هو الذي «ينتج» النص، مثل العازف الذي يؤدي القطعة الموسيقية، ويصبح هناك عدد من النصوص بقدر القراء الذين يتلقون النص. ولكن. . . أليس هذا ما قاله الجاحظ في القرن الثالث الهجري عندما وصف القراءة قائلا:

«. . . والكتاب وعاء مُلِئ علما، وظرف حُشي ظرفا، وإناء شحن مزاحا وجدًّا إن شئت كان أبين من سحبان وائل، وإن شئت كان أعيا من باقل، وإن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده، وإن شئت ألهتك طرائفه، وإن شئت أشجتك مواعظه. ومن لك بواعظ مله، وبزاجر مغر، وبناسك فاتك، وبناطق أخرس، وببارد حار. . .»(٥٦)

هل يتحدث الجاحظ في هذا النص عن نفس الكتاب الذي يتبدل مع القراءة فيتحول من البيان إلى العي، ومن الهزل إلى الجد طبقا لمشيئة القارئ؟ أم أن الجاحظ يعني أن القارئ يستطيع أن ينتقل من كتاب مبين إلى كتاب عيي، وأن يرتاد الكتب المختلفة فتارة يطلع على الغرائب والفرائد، وتارة يطلع على الطرائف، وتارة على المواعظ. فهل «الكتاب» هنا اسم جنس أم اسم مفرد؟ أم هل يصف الجاحظ هنا طريقة التأليف العربية التي وضع أسسها والتي تجمع بين دفتي الكتاب الواحد الجد والهزل، وتعرض مختلف مظاهر الحياة بما فيها من تناقضات، بما يتيح للقارئ أن ينتقل، وفق مزاج اللحظة، بين شتى الأجواء؟

قد تكون محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة موضوعا لبحث آخر. . .

الهوامش

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، القاهرة، البابي الحلبي، ط ٢ (١٩٥٤)، ج١، ص ٦.

(٢) سيزا قاسم «القراءة في التصوير والأدب»، الندوة الموازية لبينالي القاهرة الرابع، ديسمبر ١٩٩٢، تحت النشر.

(٣) من أهم من درسوا آليات الإدراك الحسي عالم النفس الأمريكي جيمس جيروم جيبسون وأولريك نيسر، راجع المزيد من التفصيل

James J. Gibson, The Perception of the Visual World, Westport, Greenwood Press, 1977

The Senses Considered as Perceptual Systems, Westport, Greenwood Press, 1983

Ulric Neisser, Cognition and Reality: Principles and Implications of Cognitive Psychology 1976, San Francisco.

(٤) Michel Foucault, Histoire de la Folie à l'age classique, Paris, Gallimard, 1972. Surveiller et punir. Naissance de la prison, 1975, Paris, Gallimard,

(٥) Umberto Eco, A Componential Analysis of the Architectural Sign/Column/, in Semiotica, 5, 1, 1972, pp. 97-117.

Henri Raymond, Commenter et transmettre: La sémiologie de l'architecture, in Communications, 27, 1977, pp. 103-112,

Hugo Vandevoorde, Towards a Semiotic Definition of Architectural «Type,» in Signs of Humanity: Proceedings of the IVth International Congress of the IASS, Gerard Deledalle (ed.) Berlin, Mouton de Gruyter, 1992, pp. 903-909.

Alexandros Ph. Lagopoulos, «The Social Semantics of Space vs. the Semiotics of Space, in Signs of Humanity: Proceedings of the IVth International Congress of the IASS, Berlin, Mouton de Gruyter, 1992, pp. 875-884.

(٦) Tzvetan Todorov, La conquête de l'amérique: La question de l'autre, Paris, Editions 1982, du Seuil.

(٧) Roland Barthes, L'Empire des signes, Genève, A. Skira, 1970.

(٨) Hyakuhei Sakamoto, The Structure of the Wa-Concept as a Semiotic Interface Characterizing Japanese Ethos, in Signs of Humanity: Proceedings of the IVth International 1989 Congress of the IASS Barcelona/Perpignan, Michael Balat & Janice Deledalle-Rhodes, eds., Gerard Deledalle, general editor, Berlin, Mouton de Gruyter, 1992.

(٩) Kikuko Tachibana, «Empty Signs in the Text of Japan,» in Signs of Humanity: Proceedings of the IVth International Congress of the IASS Barcelona/Perpignan 1989, Michel Balat & Janice Deledalle-Rhodes (eds.), Gerard Deledalle (General editor), Berlin, Mouton de Gruyter, 1992.

(١٠) Roland Barthes, S/Z, Paris, Editions du Seuil.

(١١) M.C. Escher, L'Œuvre graphique: Introduction et commentaires de graveur, Koln, Benedikt Taschen, 1992.

(١٢) سيزا قاسم، بناء الرواية: دراسة في ثلاثية نجيب محفوظ، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٤.

(١٣) يمكن مراجعة دراسة إرنست كورتيوس حول الكتاب بوصفه رمزا.

Ernst Robert Curtius, The Book as Symbol, in European Literature and the Middle Ages, London, Routledge and Kegan Paul, 1979, pp. 302-347.

(١٤) Dante, Paradiso, xxxiii, 85-88.

(١٥) درست هذه الظاهرة رندا صبري في مقالة بعنوان:

Randa Sabri, Les lectures des barres de romans, Poetique, 94, Avril 1993, pp. 185-204.

(١٦) يمكن مراجعة دراسة مفصلة حول ظهور الكتاب بوصفه علامة سيميوطيقية في الأيقونولوجيا الغربية في:

Jan Bialostocki, «Books of Wisdom and Books of Vanity,» in The Message of Images: Studies in the History of Art, Vienna, Irsa, 1988, pp. 42-63.

(١٧) يجدر الإشارة هنا إلى دراسة هامة عن علاقة الكتاب بالفن التشكيلي المعاصر

Rainer Crone & Joseph Leo Koerner, Paul Klee: Legends of the Sign, New York, Columbia University Press, 1991.

كما يمكن الإشارة إلى المؤلف العلمي الوافي عن تاريخ الكتاب في الثقافات العالمية على مر العصور المترجم من اليوغسلافية في جزأين: ألكسندر ستيبتشفيتش، تاريخ الكتاب، ترجمة محمد م. الأرناؤوطي، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٣.

(١٨) تحيل الكاتبة هنا إلى الفصل الخاص بمناقشة مفهوم الشفرة

Umberto Eco, «Code», in Semiotics and the Philosophy of Language, London, Macmillan, 1984, pp. 164-188.

(١٩) تحيل هنا الكاتبة إلى كتابات ليفي شتراوس حول العلاقة بين اللغة وبنيات القرابة في الثقافات البدائية.

Claude Levi-Strauss, Les structures élémentaires de la parenté, Paris, PUF, 1947

(٢٠) استعرت هذا المصطلح الذي يستخدمه عالم الجماليات المكسيكي خوان أشا في كتابه:

Juan Acha, signos y sus efectos El Consumo art, Mexico, Editorial Trillas, 1988.

كما يستخدمه إرنست جومبريتش في كتابه:

Ernst H. Gombrich, «Towards an Analysis of Effects» in The Sense of Order: A Study in the Psychology of Decorative Arts, 1984, London Phaidon Press, 2 d. edition

(٢١) E.H. Gombrich, «Towards an Analysis of Effects» p. 120.

(٢٢) Jean-Pierre Vernant, «De la Psychologie historique a anthropologie de la Grece, question dans les sciences humaines, in Hommes et sujet: La subjectivite en Paris, Editions Harmattan, 1992, pp. 15-47

(٢٣) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، القاهرة، دار التراث العربي، د. ت، ج١، ص ٩.

(٢٤) الزركشي، البرهان . . . ج١، ص٣١٨.

(٢٥) الزركشي، البرهان . . . ج١، ص٤٤٩.

(٢٦) الزركشي، مسألة: في قراءة القرآن في المصحف أفضل أم من ظهر قلبه في البرهان . . . ص٤٦١-٤٦٣.

(٢٧) هو الإمام أبو محمد عزالدين عبدالعزيز بن عبدالسلام الشافعي، شيخ الإسلام، توفي سنة ٦٦٠.

(٢٨) سورة ص٢٩.

(٢٩) هو كتاب حلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار، المشتهر بالأذكار النووي.

(٣٠) الزركشي، البرهان . . . ج١، ص٤٥٠

(٣١) الزركشي، البرهان . . . ج١، ص٤٥١.

(٣٢) الزركشي، البرهان . . . ج١، ص٤٥٢.

(٣٣) آل عمران٧

(٣٤) أبو حامد الغزالي، مشكاة الأنوار، تحقيق أبو العلا العفيفي، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٤، ص٧٣، في محمد عابد الجابري بنية العقل العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦، ص٢٧٥.

(٣٥) هو أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد السلمي، صاحب كتاب طبقات الصوفية وغيره من الكتب توفي سنة ٤١٢.

(٣٦) الزركشي، البرهان . . . ج٢، ص١٧٠-١٧١.

(٣٧) تعرض هذه المقامات الثلاثة في إطار رغم أهمية نص الزركشي لا يتضمن من وصف لتدرج التلاوة من القراءة إلى المكاشفة، البرهان . . . ج١، ص٤٥٢-٤٥٣.

(٣٨) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي ص٢٧٧.

(٣٩) يمكن هنا مراجعة بعض الدراسات الهامة حول منهج قراءة الكتاب المقدس ومن بينها المذكر الدراسة التالية التي أفدنا منها فائدة كبيرة في بلورة بعض الأفكار التي تعرضنا لها:

(٤٠) Hugues de Saint - Victor, L'Art de lire: didascalicon 1991, Paris Les Éditions du Cerf, Ivan Illich, Du lisible au visible: Sur l'art de lire de Hugues de Saint - Victor, Paris 1991, Les Éditions du Cerf.

(٤١) Hugues de Saint-Victor, Didascalicon, III, 3-101.

(٤٢) هذا الموضوع الهام والخصب عولج في عدد من الدراسات نذكر منها التي أفدنا منها في مواضع متفرقة من هذا البحث:

Francis Yates, The Art of Memory, 1964, London, Routledge and Kegan Paul,

Mary J.Carruthers, The Book of Memory A Study of Memory in Medieval Culture, Cambridge, Cambridge University Press 1990

Janet Coleman, Ancient and Medieval Memories: A Study in the Reconstruction of the Past, 1992, Cambridge University Press.

(٤٣) الزركشي، البرهان . . . ج١، ص٤٦٩-٤٧٠.

(٤٤) فرنشسكو بترارك Francesco Petrarca (١٣٠٤-١٣٧٤م) الشاعر المبدع والعالم الإنساني، كان من بين الذين مهدوا الطريق لثقافة عصر النهضة وربط بين التراث الإغريقي واللاتيني والمسيحي.

(٤٥) Francesco Petrarca, Secret, Translated by William H. Draper, London, Chatto & Windus, 1911, pp. 97 -100, in Mary J.Carruthers, The Book Of Memory.. م. p. 163

(٤٦) راجع للمزيد من التفصيل حول منهج القراءة عند مونتاني.

Cathleen M. Bauschatz, «Montaigne's Concept of Reading in the Context of Renaissance Poetics and Modern Criticism», in Susan R.Suleiman & Inge Crosman (Eds.) The Reader in the Text: Essays on Audience and Interpretation, Princeton, Princeton University Press, 1980, pp. 264-293.

(٤٧) Michel de Montaigne, «De l'experience», in Les Essais, Paris, Gallimard, Éditions de la Pléiade texte établi et annoté par Albert Thibaudet, 1950, p. 1222-1223.

(٤٨) الطبري، جامع البيان . . . ج١، ص٢.

(٤٩) نصر حامد أبو زيد «العلامات في التراث: دراسة استكشافية» في مدخل إلى السيميوطيقا: أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، إشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، القاهرة، دار إلياس، ١٩٨٦، ص١٢٢-٧٣

(٥٠) أبو حامد الغزالي، المستصفى في علم الأصول، بولاق المطبعة الأميرية، ١٣٢٢هـ، ج١، ص١٣٢٠، في محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦، ص١١٩.

(٥١) شكري عياد، المؤثرات الفلسفية والكلامية في النقد العربي والبلاغة العربية، الأقلام، عدد ١١، آب ١٩٨٠.

(٥٢) A. J. Minnis & A.B Scott (eds.) Medieval Literary Theory and Criticism, c. 1100 c. 1375: The Commentary Tradition 1988, Oxford, Clarendon Press,

(٥٣) Peter Szondi, Introduction à l'herméneutique littéraire, traduit de l'allemand par mayotte 1989, Bolback,Paris, Éditions du Cerf,

(٥٤) Friedrich Blass, «Hermeneutik und Kritik» in Handbuch der Klassischen Altertums Wissenschaft in systematischer Darstellung..., I. V.Muller (ed.), Munich vol.1, 1892, p. 149, in Peter Szondi, Introduction...p.11

(٥٥) لقد تعرض ريتيه إتيامبل إلى هذه المشكلة في كتابه

(٥٦) الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، البابي الحلبي، الطبعة الثانية، د.ت، ج١، ص٣٨.

السقوط والخلاص

(قراءة في رواية «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ)

د. حسن حنفي

مقدمـــة

١ ـ النقد الفلسفي

النقد الأدبي على أنواع طبقا لمدارسه ومناهجه: نقد الأسلوب كما هو معروف في «الأسلوبية»، والنقد البلاغي للصور الفنية، والنقد البنيوي لمعرفة تركيب العمل الفني، والنقد الاجتماعي لمعرفة مدى تصوير العمل الأدبي للواقع الاجتماعي، والنقد النفسي لمعرفة إلى أي حد يعبر النص الأدبي عن مكونات الشعور. وهذا عمل النقاد. ونظرا لأن الأسلوب الروائي عند نجيب محفوظ أسلوب واضح وسهل وخال من التراكيب المفتعلة وأقرب إلى اللغة العادية يظل التحليل الأسلوبي لأعماله الروائية محدود الأثر. ونظرا لأن الأعمال الروائية لنجيب محفوظ تكاد تخلو من الصور الفنية البسيطة أو المركبة مثل «وغنّى الماء في القنينة» لوصف قرقرة الماء في الجوزة فإن تحليلها يظل أيضا محدودا. لذلك يظل النقد البنيوي لمعرفة المعمار الروائي عند نجيب محفوظ وأنماطه المثالية السائدة والمتكررة في أعماله الروائية هو الأكثر غنى للكشف عن العالم الروائي عنده. ويظل النقد الاجتماعي كذلك هو الكاشف للنص الروائي الذي يعكس الواقع الاجتماعي الثقافي والديني والسياسي هو الأكثر مباشرة والأقدر على الاقتراب من هذا العالم الروائي. وكثيرا مايتحول النقد الأدبي المهني إلى الوقوع في تقنيات العمل الأدبي فيما يتعلق بالشكل والأسلوب والمهارة الفنية مثل الانتقال الزماني المتقطع من ولادة قدري وهمام إلى كبرهما وهما يرعيان الغنم، ومن عبدة حاملا إلى رفاعة صبيا[1]، وبأساليب الحوار والوصف وحديث النفس والرمز والإشارة وأنواع الدلالات. ومع ذلك يظل ذلك قاصرا عن التوجه نحو المضمون مباشرة لمعرفة قصد الراوي واتجاهه منذ رؤيته للواقع إلى تصويره له في العمل الروائي إلى أداء رسالته في التبليغ لإحداث الأثر الاجتماعي المتضمن في رسالة الأدب وغاية الأديب.

مهمة النقد الفلسفي هي الدخول مباشرة في قلب العمل الروائي لمعرفة موضوعه ومساره وهدفه. فالموضوع قصد عند الروائي منذ رؤيته للواقع الاجتماعي إلى تصويره في عمل فني إلى أثره على جماهيره للمساهمة في عملية التغير الاجتماعي التي يصب فيها المفكر والمصلح والثائر. هو نقد موضوعي لأنه يتجه نحو الموضوعات مباشرة. وهو فلسفي لأنه يعبر عن موضوع الدين و التقدم، الدين والسلطة، الدين والعلم، الدين والصراع الاجتماعي، الدين والثورة. مهمة الناقد هي الدخول في أعماق النص من أجل إخراجه إلى الواقع الذي منه نشأ، إعادة إنتاج النص بتحقيقه في الواقع وتطويره وكشف أبعاده القصوى. مهمة الأديب التعبير والتصوير والتأثير ومهمة الناقد الفهم والتطوير والتغيير. ومن ثم تكون مهمة النقد الفلسفي تحليل المضمون مباشرة دون الوقوف على تحليل الألفاظ، الكشف عن الموضوع وراء اللغة والتراكيب اللغوية بالعودة إلى الأشياء ذاتها، معرفة الأنماط السابقة في الثقافة الشعبية التي استخدمها الروائي لرسم شخصياته مثل الفتوة والشيخ، وابن أو بنت البلد لأنها مازالت حاضرة في الواقع الاجتماعي، تأويل هذه الأنماط وتوظيفها طبقا لرؤية الأديب وقصده من العمل الروائي وهدفه النهائي في عملية التغير الاجتماعي، مشاركة الناقد الروائي في الهدف وبالتالي إعطاء أبعاد جديدة للنص الأدبي. النص النقدي في هذه الحالة تدعيم للنص الأدبي وتحقيق لأهدافه في الواقع الاجتماعي.

فموضوع «أولاد حارتنا» الدين والسلطة في ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة الدين، والسلطة، والجنس، هذه المحرمات الثلاثة في الوجدان العربي. صحيح أن الجنس أيضا حاضر، أميمة وأدهم، هند وقدري، ياسمينة ورفاعة، قمر وقاسم، عواطف وعرفة ولكن الدين والسلطة هما الموضوعان الغالبان، كيف يتحول الدين إلى سلطة، ممثلة في الكهنوت ورجال الدين، وكيف يثور الدين، في صيغة جديدة ضد السلطة ويعيد للدين ثورته وشبابه ودفاعه عن مصالح الناس. فالدين ظاهرة اجتماعية، ينشأ بنشأة المجتمع، ويتطور بتطوره، يقوم بقيامه ويسقط بسقوطه. ينهض بنهضته وينهار بانهياره. الدين أسرع وسيلة للسلطة. إذ يعطيها الشرعية العقلية والوجدانية، ويدعو إلى الاستسلام والطاعة لها على نحو دائم فلا تبقى السلطة قائمة فقط على القهر والاغتصاب مما يدفع إلى ثورة المضطهدين. ومن ثم يبدأ التحرر بنقد الدين من أجل نقد المجتمع، وتقويض الشرعية الدينية للقهر والاغتصاب حتى تنهار أنظمة القهر والطغيان[٢]. وفي النقد الفلسفي لا يوجد فرق بين النص الأدبي والنص الفلسفي والنص التاريخي والنص الديني والنص القانوني، الكل موضوع للدراسة على الرغم من الاختلافات بينها. وهي اختلافات في الدرجة وليست في النوع. يهدف النص الديني إلى التصوير والتأثير من أجل توجيه السلوك نحو الخير والفضيلة عن طريق الأمر والنهي. والنص القانوني يهدف إلى السيطرة على السلوك عن طريق المنع والزجر والتهديد بالعقوبات. والنص الفلسفي يصور العالم في معان مجردة من أجل إعطاء غطاء نظري للعالم ووئام بين الذات والموضوع في عالم متكيف. والنص التاريخي يعطي معلومات عن الماضي بهدف المعرفة ورصد التجارب الماضية. والنص الأدبي يهدف كالنص الديني إلى التصوير والتأثير من أجل المساهمة في عملية التغير الاجتماعي تحقيقا لرسالة الأديب. وكلها تخضع لمنطق واحد وهو علوم القراءة والتأويل أو مايسمى بالهرمنيطيقا، أحد العلوم الفلسفية المعاصرة. قد يكون النص الديني أكثر النصوص غنى من حيث العمق والتصوير والتأثير وما يحيط به من تقديس وثبات، ويليه النص الأدبي. لذلك سهل التبادل بين النصين. فالنص الديني نص أدبي، والنص الأدبي يعبر عن الموقف نفسه الذي يصوره النص الديني. وقديما تعامل الفقهاء والبلاغيون مع النصين على المستوى نفسه. فابن حزم صاحب «الإحكام في أصول الأحكام» هو نفسه صاحب «طوق الحمامة» وعبدالقاهر الجرجاني صاحب «إعجاز القرآن» هو نفسه صاحب «دلائل الإعجاز».

ولما كان نجيب محفوظ ذا ثقافة فلسفية منذ تخرجه من قسم الفلسفة ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة عام ١٩٣٤، حتى إنه ليمكن القول إن كل رواية لديه تقوم على فكرة فلسفية: الزمن، القدر، الحرية، المصير، الإنسان، الله، الآخر، الوطن، المدينة الفاضلة، الوهم، البطولة، الخيانة... لذلك كان النقد الفلسفي أكثر ملاءمة لدراسة عمله الروائي، إذ يتوجه نحو الأفكار مباشرة، قلب العمل، فيما وراء الصياغة والأسلوب. فالمعنى مقدم على اللفظ، والفكر سابق للغة، والفلسفة جوهر الأدب. ويبدو في «أولاد حارتنا» بعض الحكم الفلسفية والأمثال الشعبية ذات المغزى الفلسفي مثل «جاء الفرج»، «ما بعد الصبر إلا الراحة» أو «الأمر لصاحب الأمر» بعد ولادة أميمة زوجة أدهم «وعد الحر دين عليه» وهو قول جبل لناظر الوقف. بل إن الرواية كلها تقوم على فكرة فلسفية دينية تعتمد على قصة طرد آدم وزوجه من الجنة بناء على الحسد والغواية والتحدي من الشيطان ثم هدايتهما من جديد عن طريق رسالات الأنبياء المتتالية. فالرواية تقوم على مفهومي «السقوط والخلاص»، «الخطيئة والفداء». وهي ألفاظ أقرب إلى اللاهوت المسيحي على الرغم من أن لفظ الخلاص والمخلص لا يرد في الرواية. وقد سماها الصوفية الفتق والرتق، الفرق والجمع[٣].

ومن ثم لا فرق بين مدينة السماء ومدينة الأرض. كلاهما واجهتان لعملة واحدة. كلاهما مجتمع له رئيس ونواب، به حكومة ومعارضة، قانون وعصيان، كلاهما حارة، له فتوة وصبية، وقوادون. الحارة هي العالم كله بكل مافيه من قوانين للصراع الطبيعي والبشري. له ماض وحاضر، له تاريخ وبنية. ومن ثم يمكن الحديث عن «أولاد حارتنا» و«حكايات حارتنا». الحارة عالم واحد، عالم المثال فتصبح مدينة السماء، وعالم الواقع فتصبح مدينة الأرض. الأول من نسج الخيال والثاني من نقل الواقع. الأول حلم والثاني مأساة.

ومع ذلك، لا يمكن قراءة «أولاد حارتنا» بنية المطابقة بين الرواية ومصادرها الدينية في قصص الأنبياء وإلا حولناها إلى كتاب في التفسير وليس رواية. ما يهم هو المغزى والهدف والقصد. ولا تكون المطابقة بين الرواية والمصدر القرآني وحده، بل بين الرواية والواقع الاجتماعي كحلقة وصل بين النص الروائي والنص القرآني فكلا النصين يعبران عن واقع اجتماعي واحد، السلطة في المجتمع، السلطة الدينية ممثلة في الناظر والسلطة السياسية ممثلة في الفتوة. وكلاهما يطابق التجربة البشرية للأفراد والمجتمعات. وللأديب حريته الكاملة في إعادة القصص القرآني في أسلوب روائي. كلاهما قص. وللناقد الأدبي أيضا إعادة إنتاج القص لا فرق بين النصين. الحرية الأدبية والحرية النقدية واحدة. لا يوجد خطأ وصواب في فهم القص الديني أو الروائي عند الأديب أو الناقد. كلها اجتهادات ومقاربات ووجهات نظر وآراء. لا يوجد منها واحد صحيح والآخر باطل وإلا عدنا إلى حديث الفرقة الناجية الذي يصوب صياغة واحدة للعقائد، عقائد السلطة، ويخطىء باقي الصياغات، صياغات المعارضة، عقائد السلف التي تستبعد عقائد الخلف[٤]. لا يوجد شيء في ذاته أو إيمان في ذاته بل هناك عدة صياغات له طبقا للثقافات والصياغات الأدبية والصور الفنية سواء في القص الديني أو في القص الأدبي.

«أولاد حارتنا» نموذج من الأدب شبيه بقصص الأنبياء للتعبير عن روح الإسلام، وهو روح العلم، في أسلوب قصصي، ونقله من مدينة السماء إلى مدينة الأرض. فتطور الوحي من آدم حتى محمد هو انتقال من الدين إلى العلم، ومن الخرافة إلى العقل، ومن تدخل الإرادة الخارجية إلى الاعتماد على الإرادة الإنسانية، ومن قهر الطبيعة للإنسان إلى السيطرة عليها، ومن حكم الله إلى حكم البشر. وختم النبوة يعني إعلان استقلال الإنسان عقلا وإرادة.

وهي فكرة معروفة في تراثنا الإسلامي القديم في تراثنا الاعتزالي في مبدأ العدل، وخلق الأفعال والحسن

والقبح العقليين، وفي التراث الفلسفي الغربي عند اسبنوزا في رسالة اللاهوت والسياسية التي يبين فيها تواطؤ السلطتين الدينية والسياسية في الحكم الثيوقراطي وضرورة الفصل بينهما في الحكم الديمقراطي، وعند لسنج في «تربية الجنس البشري» عندما بين تطور الوحي في مراحله الثلاث حتى استقل الإنسان عقلا وإرادة في فلسفة التنوير(٥).

فليس في الرواية مايستحق المنع أو التحريم، الرقابة أو المصادرة، التجاهل أو الاستبعاد، الخوف أو الحذر. فموضوعها وغايتها.. تم التعبير عنها من قبل ومن بعد في الروايات السابقة واللاحقة خاصة في «حكاية بلا بداية ولا نهاية» وفي «ملحمة الحرافيش». وقد تم نشرها في «الأهرام» على حلقات حتى تم إيقافها بناء على دسيسة ووشاية من بعض رجال الدين، مزايدة في الإيمان، وتقربا إلى السلطات، ورغبة في التسلط على رقاب الناس. ومازالت تعتبر وكأنها لا وجود لها، يتم الحديث عنها سرا حتى بعد حصول صاحبها على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٩٠، لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها أو إعادة طبعها أو رفع قرار منعها. السلطة السياسية تتذرع بالسلطة الدينية، والسلطة الدينية تعتمد على السلطة السياسية. ثم صدرت في بيروت في يناير ١٩٦٧ وكأنها تتنبأ بالهزيمة بإعلانها عن موت الجبلاوي. كانت المرحلة السياسية قد بدأت بـ «اللص والكلاب» ١٩٦١ مرورا بـ «السمان والخريف» ١٩٦٢، «ثرثرة فوق النيل» ١٩٦٦، «ميرامار» ١٩٦٧ حتى «المرايا» ١٩٧٢، «الكرنك» ١٩٧٤ وبلغت الذروة في «ملحمة الحرافيش» ١٩٧٧(٦).

وتبدأ «أولاد حارتنا» بافتتاحية من ثلاث صفحات تقدم الرواية(٧). فالرواية قصة الحارة أو قصصها، قصة واحدة، تجربة واحدة ولكنها في عدة قصص أو مسلسلات، قصة الإنسانية ووعيها وصراعها ضد السلطتين الدينية والسياسية حتى تستقل وتتحرر وتنعم بالسلام. هي مجموعة من الحكايات أي الشكل الشعبي للقصة، حكايات الحارة التي لا تختلف كثيرا عن قصص الأنبياء. الأولى يرويها الراوي الشعبي ويغنيها على الرباب، والثانية ينقلها النبي ويتذكرها ويخبر بها الموسوس. تحدث في «حارتنا» نحن بصيغة جمع المتكلم في حياتنا ومكاننا وزماننا وتاريخنا ومجتمعنا وثقافتنا ومأساتنا وصراعنا، لا فرق بين الماضي والحاضر، بين الدين والدنيا، بين مدينة السماء ومدينة الأرض، بين النص والواقع، بين الوحي والتاريخ. لم يشهد الراوي إلا طورها الأخير. لم يعاصر أدهم ولا جبل ولا رفاعة ولا قاسم بل عاصر عرفة. سمع عن قصص الأنبياء، حكايات الحارة، شفاها من الرواة، من الكتب المقدسة والتراث الشفاهي الذي يتداخل فيه المقدس مع الدنيوي، الإلهي مع البشري، الرسالة السماوية مع الخيال الشعبي. الروايات متداخلة ومتضاربة ومتعددة. كل يرويها طبقا لمكانه وزمانه وخياله وثقافته عبر الأجيال كما هو الحال في السير الشعبية. تروى هذه الحكايات في المناسبات، على المقاهي، وفوق المصاطب، في الأفراح وفي المآتم. وظيفتها تفريغ الكرب، وتخفيف الهم، وتعويض الناس عن مآسيهم وأحزانهم في عالم ينسجه الخيال وينتصر فيه الأبطال «كلما ضاق أحد بحاله أو ناء بظلم أو سوء معاملة» (ص٥). شهد الراوي الفصل الأخير. وهو أحد أصدقاء عرفة، ابن الحارة البار الذي طلب منه كتابة القصة. فالعلم هو الذي يدون ويحفظ الذاكرة. يريد العلم الرواية الصحيحة تاريخيا بدلا من أهواء المؤرخين وأخطاء الرواة كما يلاحظ ابن خلدون في «المقدمة». هذه الروايات «تروى بغير نظام وتخضع لأهواء الرواة وتحزباتهم» (ص٧).

قام الراوي بتنفيذ هذه الفكرة وتحقيق هذا المطلب لوجاهتها ولحبه لعرفة. كانت الكتابة حرفة الراوي. كانت بدايتها كتابة العرائض والشكاوى للمظلومين ولأصحاب الحاجات. فالقص يبدأ من الواقع الاجتماعي، ولا فرق بين شكاوى الناس وقصص التاريخ.

والغرض من هذه الحكايات كما يصرح الراوي في نهاية كل منها علاج آفة الحارة وهي النسيان، من أجل تذكر الماضي وبلورة الوعي التاريخي لعل تكرار التجارب يؤدي إلى وعي علمي. ففي نهاية «جبل» يقول الراوي «ولولا أن آفة حارتنا النسيان ما انتكس بها مثال طيب، لكن آفة حارتنا النسيان» (ص ٢١٠). يتمنى القضاء على النسيان، لكنه يقبل الأمر الواقع. وفي نهاية «رفاعة» يتساءل فلماذا كانت آفة حارتنا النسيان؟ (ص ٣٠٥)، تساؤل من أجل معرفة السبب ورفض الواقع. وفي آخر «قاسم» يقرر «وقال كثيرون إنه إذا كانت آفة حارتنا النسيان فقد آن لها أن تبرأ من هذه الآفة، وأنها ستبرأ منها إلى الأبد. هكذا قالوا.... هكذا قالوا يا حارتنا» (ص ١٤٣).

وهو تجاوز للواقع وتمني تغييره إلى الأبد. ولما كانت حكاية ورواية فإنها تظل ظنية غير يقينية. لذلك جاء القصص ليذكر الناس بالماضي ضد آفة النسيان. ولكن هل يشفع الماضي للحاضر والمستقبل؟

وتنقسم الرواية بعد الافتتاحية إلى خمسة فصول: أربعة في الماضي: أدهم، وجبل، ورفاعة، وقاسم، وواحد في المستقبل وهو عرفة. أدهم يمثل تاريخ الأنبياء منذ آدم، وجبل يرمز إلى موسى ومرحلة اليهودية، ورفاعة إلى عيسى والمسيحية، وقاسم إلى محمد والإسلام، وعرفة إلى العلم والمستقبل، وأكبرها قاسم[8]. وكل فصل مقسم إلى عدة مناظر كما هو الحال في الفيلم السينمائي يضم حوارا بين شخصيتين أو ثلاثة كما هو الحال في باقي الأعمال الروائية لنجيب محفوظ. ولأسماء الفصول دلالاتها. فأدهم يشير إلى آدم صوتيا، وجبل يشير إلى موسى الذي أوى إلى طور سيناء يناجي ربه، ورفاعة يشير إلى السيد المسيح الذي رفعه الله إلى السماء، وقاسم يشير إلى محمد بن عبدالله الذي قسم بين العدل والظلم. ولباقي الأسماء دلالاتها كذلك فالجبلاوي هو صاحب الوقف الذي يمتلك كل شيء ويختار رسله. وأميمة أم البشر حواء، وهمام وقدري قابيل وهابيل، وعبدة تقابل مريم وعم شافعي النجار يقابل زكريا، وقمر تقابل السيدة خديجة، وبدرية تقابل السيدة عائشة، وصادق يشير إلى أبي بكر الصديق، وعجرمة هو عمر، وحسن هو علي، والسنطوري الفتوة هو أبو جهل... إلخ.

وتقوم الرواية على حركتي السقوط والرفع، الذهاب والإياب، الخطيئة والفداء بلغة اللاهوت المسيحي عند هيجل. فأدهم يمثل السقوط، الخطيئة الأولى، الطرد والحرمان، والهبوط إلى الأرض. وجبل ورفاعة وقاسم ثلاث تجارب لمحاولة الخلاص والرفع والعودة إلى الفردوس المفقود وثلاث وسائل مختلفة: بالقوة عند جبل وبالمحبة والرحمة عند رفاعة وبالعدل عند قاسم. ولكنها محاولات نسبية سرعان ما تعود إلى سابق عهدها، خلاص وقتي سرعان ما ينتكس ويعود السقوط إلى سيرته الأولى. أما المحاولة الرابعة لعرفة، الخلاص عن طريق العلم، فهي وإن فشلت أيضا على الأمد القصير بعد قتل عرفة كما قتل رفاعة إلا أنها قد تمثل على الأمد الطويل بالنسبة للمستقبل الخلاص الدائم خاصة بعد أن مات الجبلاوي.

٢ ـ السقوط: أدهم والخطيئة الأولى

في البداية كانت الحارة. وأصل الحارة ومنشؤها هو جدها القاطن في البيت الكبير على ناصيتها. هو أصل الأشياء ومنبع الحقائق وأبو البشر. الكل انحدر من صلبه. ورثه الناس واستحقوا وقفه، الخلق والدنيا ونعمها. هو لغز من الألغاز، عمّر أكثر مما يستطيع أن يتصور. له الأبدية والخلود. هو سيد الخلاء وصاحب الأوقاف، سيد الكون ومالكه. ضرب به المثل بطول العمر والبقاء. اعتزل في بيته لا يخرج. لا يراه أحد. خلق واعتزل، أبدع واعتكف، حرك ولا يتحرك بتعبير أرسطو. يرى ولا يرى، قريب بعيد. أما البيت الكبير فيقوم في صمت

متطويا على ذاته كأنما لا يربطه سبب بهذا العالم الخارجي (ص ٧٧). هو الذي أعطى الحارة اسمها، حارة الجبلاوي، فالذين جوهرها وحياتها وبه تعرف، وبفضله أصبح لها تاريخ. به نهضتها وسقوطها، عظمتها وبؤسها، انتصارها وهزيمتها. يمتلك كل شيء فيها «هو أصل حارتنا، وحارتنا أصل مصر، أم الدنيا» (ص ٥) فمصر مهد الأنبياء ومنشأ التوحيد، أخناتون وموسى وفيها حط الأنبياء ورحلوا، عيسى وموسى، «جندها خير أجناد الأرض وشعبها مرابط إلى يوم القيامة». تعرفه المخلوقات، هذا الجبل وهذه الصحراء وهذه السماء. ربما يكون الخيال أو الفرض وراء هذه الثنائية. فالخيال يبدأ من الحس، وينتهي إلى ما وراء الحس. والفرض يبدأ بالشيء المتحقق، وينتهي بالأماني والرغبات التي لم تتحقق، هل هو حقيقة أو وهم؟ موجود أو من صنع الخيال؟ خالق أم مخلوق؟

من صفاته العدل، فلم يفرض على أحد إتاوة، والتواضع فلم يستكبر في الأرض، والرحمة بالضعفاء، فقد كان بالضعفاء رحيما، ولا شيء يعادل شدته إلا رحمته، والقوة فقد كان فتوة حقا.

ولكن الصفة الغالبة عليه هي الجبروت، جبار في البيت كما هو جبار في الخلاء، وأن الناس أمامه لا شيء. ولهذا الجبروت لا يبقى أحد في البيت من أبنائه. علم ابنه إدريس أن يعامل الناس بالفظاظة والقسوة. ومن مظاهر الجبروت الظلم وغياب العدل. هل راعى مصالح العباد باختياره أدهم دون إدريس ناظرا على الوقف مما سبب البغضاء بين الأخوين؟ لماذا اختار أدهم الأخ الأصغر دون إدريس الأخ الأكبر؟ هل بدأ العالم بالظلم؟

ومن الطبيعي أن يثور الأخ الأكبر ضد هذا التحيز فهو الذي حول الملاك شيطانا بظلمه لا يرى على الرغم من وجوده في البيت الكبير ذي الباب الضخم، وفوقه مسباح عنطب. أليس من المحزن أن يكون للناس مثل هذا الجد دون أن يروه؟ كيف يعيش في هذا القصر ويعيش الناس في التراب؟ لماذا يحرم المساكين من نعم الدنيا؟ لماذا يجوعون ويضامون؟ كم من سيدة مصونة تحولت بكلمة إلى متسولة تعيسة. وكم من رجل غادره بعد خدمة طويلة مترنحا يحمل على ظهره العاري آثار سياط خلت أطرافها بالرصاص والدم يطفح من فيه وأنفه؟ لماذا يحتقر هذا البيت المساكين؟ إن العقل الإنساني يريد أن يعرف سبب اختيار أدهم دون إدريس دون أن يكتفي بمجرد طاعة الأوامر. ولكن الجبلاوي يرفض المعارضة ولا يرضى إلا بالرضوخ والاستسلام. فطرد إدريس الذي حاول فهم السبب. سبب استبعاده من نظارة الوقف وهو الأخ الأكبر.

على قوة جبارا فلم يعرف إلا أن يكون فتوة جبارا يعامل أبناءه كما يعامل ضحاياه. يغضب وينبسط، يعاقب ويثيب، يرضى ويسخط، يذل ويرفع، يضل ويهدي، يبارك ويلعن، يعفو ويقسو كما هو الحال في علم الكلام الأشعري. وقد لا يرحم ولا يعفو. وما طالب إدريس إلا بحقه في نظارة الوقف. يفرق بين أعضاء الأسرة، ويخرق الرابطة في يسر وبلادة. يسمع الصراخ كما يسمعه البشر ولكنه يعاود النوم كمن لا قلب له. علمه سر، ولا يصارح أحدا بما يدور في رأسه على الرغم من تسجيله في حجة الوقف. يحب الثناء والشكر والصلاة له. لذلك أحيانا لا يعرفه الناس، ولا يقدرونه حق قدره، ويصفونه بصفات لا تليق مما يقتضي على العلو في النفس والترفع على الواقع. هناك يتصف الجبلاوي بصفات الله. فقد امتلك مصر بقوة ساعده مع أنه صاحبها وأصل كل شيء. يتداخل الجبلاوي مع السلطان، والإلهي مع البشري. وكيف تكون لهم منزلة عند الوالي وهو والي الولاة؟ الجبلاوي ليس هو الله في ذاته بل الله كما يتصوره البشر سلطانا على العالم، لا فرق بين الله والسلطان.

ويدور الفصل الأول من الرواية عن أدهم حول قصة طرد إبليس من الجنة لعصيانه ثم قصة طرد آدم من الجنة

لوقوعه في غواية إبليس عن طريق حواء. فإدريس يشير إلى إبليس وأدهم يشير إلى آدم. طرد إبليس من الجنة لرفضه السجود لآدم ولأنه من نار وآدم من طين في حين طرد إدريس من البيت الكبير لرفضه التميز للأخ الأصغر أدهم وإعطاء الأب له نظارة الوقف وليس لإدريس الأخ الأكبر. ثم يقوم إدريس بغواية أخيه بالاطلاع على حجة الوقف لمعرفة لمن كتب الأب الميراث. ويضبط أدهم في مخدع الأب ويطرد من البيت مع زوجه التي شجعته، ويعيش الأخوان إدريس وأدهم في الأرض، وتنشأ القرية، وتتحول مدينة السماء إلى مدينة الأرض. وتتوارث اللعنات والخطايا ابنا عن أب، وأبا عن جد، وينشأ التاريخ. ويتوعد إدريس بأن العار والفضيحة ستحل بالأسرة على يديه بعد أن طرده أبوه دون حياء. فلتتحمل العواقب. ويصبح للأب حفيد من الزنا، خطأ يجر خطأ، وعقاب يجر عقابا، والبادي أظلم. لا فرق بين طرد إدريس بسبب نفسه المتعجرفة وبين طرد أدهم بسبب نفسه الضعيفة. فلا مكان في البيت الكبير للقوة، ولا للضعف إلا في صاحب البيت. فهو القوي لحد الفتك بأبنائه، الضعيف لحد الزواج من جارية، أم أدهم. لذلك يتحرش بالأقوياء مثل إدريس، وبالضعفاء مثل أدهم. وتنشأ الكراهية بين الأخوين. يكره إدريس أدهم لتفضيله عليه ويكره أدهم إدريس لغوايته. كلاهما مخطئان. وشهواتهما لا تقنعان إلا بأن تبنيا فوقهما تلاً من الذرية الصاخبة.

وبعد الطرد، يتجاور إدريس وأدهم في المكان نفسه خارج البيت الكبير، في كوخين متجاورين. يقيم أدهم وزوجته أميمة كوخا للعيش فيه. ويسعى أدهم للرزق، ويعيش في عالم السرقة والفلتان. يتقضب بين الحزن والآخر على قسوة الأب وكبريائه الذي جعله يفرط في لحمه ودمه وإيثاره العيش الرغيد، وأبناؤه في التراب يداسون بالأقدام كالحشرات. ولكن الحياة اختيار، والحكم الصحيح لا يكون إلا عند الامتحان. العمل طريق الخلاص، للعمل من أجل القوت، على الرغم من أنه لعنة اللعنات، لا يليق بكرامة الإنسان. تعلم أدهم اللباس لستر العورة وكذلك أميمة ومع ذلك يحتاج الإنسان إلى الحنين. فلا يبتعد عن البيت الكبير وإلا هلك في هذا الخلاء. وقد يؤدي هذا القرب وهذا الانتظار إلى فتح باب الرحمة والعفو «ولكي نبقى على مرمى بصره لعله يرق لحالنا» (ص ٥٢). ويشعر أدهم بالحنين إلى العودة فالنفس تتعلق بالمكان الذي تطرد منه، البيت الكبير. وتجعل أميمة كوخها مثل البيت الكبير تحقيقا لحلمها القديم.

لم يكن إدريس وأدهم وحدهما بل كان هناك عباس ورضوان وجليل. عباس وجليل عقيمان مثل زكريا. ورضوان لا يعيش له ولد مثل محمد. لذلك أتت الذرية من إدريس، ذرية الشر، ومن أدهم ذرية الخير. والكل لم يرث من الأب إلا الكبرياء. أدهم مطيع لإرادة الجبلاوي على الرغم من حرجه أمام أخيه إدريس. يريد أن يعرف سبب اختياره. إنه على دراية بطباع المستأجرين، يعرفهم بأسمائهم، وعلى علم بالكتابة والحساب، «وعلم آدم الأسماء كلها». اتخذ أدهم من الأمانة شعارا وسجل كل شيء في دفتر الوقف «العمل رسالة وأمانة»، فالإنسان صاحب الذاكرة وحامل التاريخ يشعر بالحرمان والكبت والغضب ويكظم الغيظ. خرجت أميمة من ضلعه للاستئناس بها في وحدته كما خرجت حواء من ضلع آدم كما يروي العهد القديم. سمراء مثل أدهم المخلوق من الطين. ولكن روحه صافية، يعشق الحديقة وسماع الناي. يعشق الوجود ويصلي لله شكرا على نعمائه. أما إدريس فإنه المعترض على إرادة أبيه وهو الأخ الأكبر ابن المرأة الحرة البيضاء. يدافع عن الكرامة ضد الظلم، ويرفض الجبن والخنوع لم يسيء إلى أحد من إخوته ولكن الظروف هي التي دفعته لإغواء أخيه بالاطلاع على حجة الوقف والشروط العشرة واللوح المحفوظ المدون بالفارسية في مخدع عليه بساط فارس وكأننا في جو التصوف الفارسي والساكت عن الحق شيطان أخرس. كما اعترضت أمه على الأب وهي تحتضر ولكنه اعتراض الضعيف العاجز.

ويستمر جدل الخير والشر من إدريس وأدهم إلى قدري وهمام أبناء أدهم، جدل الطاعة والعصيان في توأمين. كلاهما ينتسب إلى الجبلاوي ومن صلبه. ولولاه لاندثر الأحفاد. ولكن قدري لا يذكره إلا باللعنات، وأدهم لا يذكره إلا بالإجلال والإكبار. قدري لا يعترف بجده لأنه يترك ذريته تشقى وتكد في الحياة الدنيا وهمام يحترمه لأنه الجد. قدري يراه شبيها بالبشر ويضعفهم وهمام يراه متعاليا مترفعا. وتقع هند ابنة إدريس من سفاحه مع نرجس خادمة البيت في حب قدري ويتوارثان خطيئة الأب والجد. وينشأ الحسد بين قدري وهمام، بين العصيان والطاعة، بين الشر والخير. فيقتل قدري همام كما قتل قابيل هابيل ودفنه دون أن يتعلم من الغراب. فالقتل من صنع الإنسان والشر من خلقه وإن توارثه. واكتشف أدهم الجريمة وجعل القاتل يحمل ضحيته. ولكن لماذا لم يدافع الجبلاوي عن حفيده همام؟ للجبلاوي حفيدان قاتل وعاهرة! أما همام فإنه مثل يوسف مع إخوته. حزن لاختيار الجبلاوي له ليبقى معه في البيت الكبير مما سبب حسد قدري له كما حسد إدريس أدهم لنظارته للوقف دونه. رفض همام قبول العرض قبل استشارة أهله أو أخذهم معه. هو البذرة الطيبة في الأرض الطيبة. لذلك زار الجبلاوي أدهم لتقديم العزاء والعفو وجعل الوقف لذريته.

وضعف البشر في أهوائهم: الحسد، والغيرة، والغواية، وحب الاستطلاع، والخوف، والطمع، والجبن. هي التي تحدد سلوكهم وأخطاءهم، بسبب الخصام في الحارة بسببها، وينشأ فيها النزاع بدوافعها هي. أقوى من رسالة الجبلاوي. فعلى الرغم من الترابط الأسري في الحارة لم يمنع ذلك الخصام وكأن الدين يثير العواطف ويزيد من حدة الانفعالات كما لاحظ أسبينوزا من قبل، ويدفع إلى التطرف، ويبعد عن الاعتزال. وبدلا من أن يعم السلام في الحارة انتشر الحسد. الكل يحسد حارة الجبلاوي لأوقافها وثرائها، للثروة والسلطة. نشأت الحارة من هذه القصة الأولى، الحسد، حسد الأخ الأكبر للأخ الأصغر، وحسد أخوة يوسف ليوسف، وحسد قدري لهمام لاختيار جده له للإقامة معه. والغواية هوى بشري آخر، غواية إدريس لأخيه أدهم للاطلاع على حجة الوقف لمعرفة الورثة، وغواية أميمة لأدهم للاستجابة لطلب إدريس، والغواية ليست فقط من الخارج بل من الداخل، هوى النفس وثناء الشيطان لا تقع الغواية إلا لمن له استعداد للغواية. وحب الاستطلاع للاطمئنان على المستقبل أيضا هوى ودافع للسلوك مثل حب استطلاع أميمة على الوقف للاطمئنان على ميراث ذريتها والتحيز والمحاباة أيضا أهواء لأنها لا يقومان على العدل. والغضب هوى مثل غضب الجبلاوي على أبنائه إدريس وأدهم. وعلاقة الناس بالجبلاوي، المحبة والخوف أهواء وتشفي إدريس من أدهم بعد وقوعه في الغواية هوى. ومن ثم ارتبط الصراع في الحياة بالأهواء واستحالت معرفة الحقيقة.

لم يكن نجيب محفوظ بدعا بين الروائيين في الاعتماد على قصة آدم وحواء وإعادة صياغتها في أسلوب روائي لتصوير نشأة البشر على الأرض، والصراع في المجتمعات؟ والحنين إلى الفردوس المفقود، ودور المرأة في الغواية، وتحدي الإنسان، ورغبته في العودة إلى الأصل الأول بالعمل والجد والاجتهاد. عالجها الأدباء كما تناولها الفلاسفة منذ أوغسطين في مدينة الله حتى بول ريكير في «فلسفة الإرادة»، وقد كان ابن طفيل أكثر شجاعة عندما فسر نشأة حي بن يقظان على الجزيرة النائية تفسيرا طبيعيا، بدرجة معينة من الحرارة مع درجة معينة من الرطوبة تنشأ الخلية الحية ثم تنقسم إلى خلايا فينشأ الإنسان. لم يخرج نجيب محفوظ على التفسير التقليدي للقصة، صراع الخير والشر كما استعملها الفقهاء من قبل مثل الشهرستاني لتفسير نشأة التعدد من الوحدة بأخطاء القياس وعصيان الأمر.

٣ ـ جبل والخلاص بالقوة

وعلى الرغم من جعل الجبلاوي الوقف في ذرية أدهم إلا أن الواقع كان على خلاف إرادته ووصيته. استمر الكدح من أجل الحياة والسعي وراء الرزق وأصبح آل حمدان، ورثة أدهم، هم البائع الجوال، وصاحب الدكان أو القهوة والمتسولون، وتجار المخدرات. طابع الزحام والضجيج. الأطفال الحفاة أشباه عرايا. والنساء تقمن بأعمالهن يملأن الصمت بالصراخ والشتائم. تسمع دقة الزار بين الحين والآخر، وأصوات عربات اليد، والمعارك بالأيدي واللسان. قطط تموء، وكلاب تنبح، وأكوام زبالة، وفئران وثعابين، وعقارب وذباب ونمل وقمل. كل شاب يجد في نفسه القوة يتحرش بالآمنين، ويصبح فتوة على الحي، يفرض الإتاوة والحماية، ويبيع سلطانه لمن يشاء مثل: (قدرة والليثي وأبوسريع وبركات وحمودة وكبيرهم زقلط). ويعتمد الأفندي ناظر الوقف على كبير الفتوات لينفذ أوامره ويسلب الناس حقوقهم ويرث آل حمدان أصحاب الحق الشرعيين الوارثين النبوة والملك مثل بني إسرائيل. ضاع حق آل حمدان في الوقف وتمرغوا في تراب القذارة والبؤس وتسلط عليهم فتوة ليس منهم بل من أحط الأحياء. يهتفون للمنتصر أيا كان، ويهللون للقوي أيا كان. ويسجدون أمام النبابيت، يداورون بذلك كله الرعب الكامن في أعماقهم، غموس اللقمة في حارة الهوان. لقد وعد الجبلاوي أدهم أن يكون الوقف لخير ذريته عندما ظهر له في النهاية بعد قتل قدري لهمام عزاء له وعفوا وبشارة. وشيدت الربوع ووزعت الخيرات. ولما أغلق الأب بابه واعتزل الدنيا احتذى الناظر حذوه. ثم لعب الطمع في قلبه فاستأثر بالريع، وغالط في الحساب، وقتّر في الأرزاق وقبض على الوقف معتمدا على فتوات الحارة بعد أن اشتراهم. فزاد البؤس والفقر، وعم الجبن والذل. الفتوة وحده يعيش في بحبوحة العيش والناظر في قمة السلطة الدينية وتحته الفتوة الأكبر في قمة السلطة السياسية وتحته باقي الفتوات الصغار، الشرطة وأجهزة الأمن وتحتهم جموع الناس يدفعون الإتاوات للكل. ومع ذلك فهي حارة محسودة من بين الحارات، تحظى بوقف وفتوات، خير أمة أخرجت للناس بلا سبب، لا يأمرون بمعروف، ولا ينهون عن المنكر. الناظر لص، والفتوة جبار يعاونه على السرقة. فالإرث، إرث النبوة والملك، خاص ببني حمدان دون غيرهم. الصبر هو الحل، والتطلع إلى المستقبل لا يجيء.

وبناء حارة الجبلاوي يدل على تسلط البيت الكبير عليها. الوقف وبيوت الناس في خطين متقابلين أمامه. وهناك خلاء حول البيت الكبير من جميع الجهات رمزا للاتناهي. وبيت ناظر الوقف، السلطة الدينية، على رأس الصف الأيمن من الحارة، خليفة الله في الأرض، الكهنة ورجال الدين. وأغلق البيت أبوابه على صاحبه وخدمه المقربين. ومات أبناء الجبلاوي مبكرين، ولم يبق من سلالته إلا الأفندي ناظر الوقف واجتمعت السلطتان الدينية، الناظر، والسياسية، الفتوة، في سلطة واحدة تسيطر على مصير الحارة.

أما شعراء المقاهي فلا يروون إلا عهود البطولات، متجنبين الجهر بما يجرح مركز السادة. ويتغنون بمزايا الناظر والفتوات، بعدل لا تحظى به الحارة، ورحمة لا تجدها، وشهامة لا تلقاها، وزهد لا تراه، ونزاهة لا تسمع عنها. وظيفة الشعراء إذن تبرير الواقع، والتكسب بالشعر والنفاق. ليس عيب الشعر الغواية «والشعراء يتبعهم الغاوون» بل العجز والجبن «يقولون ما لا يفعلون». «أهذا هو حال الشعراء يا رضوان؟ ترددون حكايات الأبطال، وتغنون على الرباب. فإذا جد الجد تقهقرتم إلى الجحور، وأشعتم التردد والهزيمة. ألا لعنة الله على الجبناء».

وفي قلب هذا الواقع الأليم تبدأ بذور الثورة والتململ والاعتراض والوعي بالسقوط وبالمثال الضائع. البشر بطبيعتهم يتنازعهم واقعان: الواقع والشد إلى أسفل، والمثال والشد إلى أعلى. الواقع مستمر: الغلاء والعمل

والكدح والسعي والرزق. والمثال جذوة تشتعل فترفع الواقع أو تطفىء فيسقط الواقع. الواقع كالبدن والمثال كالنفس. الواقع بلا مثال موت، والمثال بلا واقع نفس هائمة على وجهها لا مستقر لها.

لذلك يبدأ الواقع بالتململ من الداخل بإدراك البسطاء الذين أدركوا حدود الصبر وقبول الذلة والهوان. يصف دعبس آل حمدان بأنه قضى عليهم بالذل إلى الأبد. لامقهى ولا كرامة. يسعون في العمل بعيدا عن الحارة. فإذا عادوا تواروا وراء الجدران. وإذا عثر بأحدهم فتوة عبث به صفعا أو بصقا. كما يبدأ التمرد أيضا عن طريق الشعر. رواية المقهى عندما تثير خيال الناس عن الماضي السعيد، أيام البطولات والأنبياء، وقت العدل والمساواة يبدأ التحرير عن طريق القصص الشعبي وتذكر الماضي وتمني العودة إليه تعويضا عن آلام الحاضر. يتحدث الشاعر عن هوان آل حمدان في هذه الحارة، ويقابل بين ظلم الحاضر وعدل الماضي، ويقارن بين المثال بالذكريات والواقع بالرؤية، الصراع الأبدي بين الخير والشر، بين أدهم وإدريس، بين همام وقدري.

ويبدأ البحث عن طريق الخلاص بعد تراكم مظاهر الاعتراض وبدايات التحرك والقلق دون زعامة، الطريق هو القضاء «أمامنا المحكمة»، أن تلجأ إلى الناظر قمة السلطة الدينية. وتفضل الحارة مواجهة الناظر. فذهبت إليه جماعة مع رجال الحي وليس آل حمدان وحدهم حتى ولو كان في ذلك شبهة عصيان. وعبروا له عن الأسرة والوحدة. فالكل أبناء أدهم وأميمة ولكن الناظر اعتبر أن ذلك عهد ولى ومضى. فذاك تاريخ مضى، رحم الله امرأ عرف قدر نفسه، وأن الطبقية مسار اجتماعي وتاريخي على الرغم من أن الناس هم أبناء الجبلاوي ومستحقو الوقف. ويحرك الناظر في يده المسبحة ليوحي بالإيمان والتقوى، يطقطق بها كما يطقطق النبوت على الرؤوس. فتاريخ الإقطاع هو تاريخ الدين. ويتصلب ويحتج ويدعي أن هذا الوقف حيه، وأن الناس تصدق الحكايات الخرافية، ويسمعون قصص الأنبياء على لسان الشعراء ورواة السير والمغازي في المقاهي. يعتبر رجال الدين أنفسهم ورثة الله وخلفاءه في الأرض، يستأثرون بثروات النبوة في السماء والأرض. طلب الناس رؤية الشروط العشرة، الوصايا العشر الأخلاقية التي لا يصلح الفرد والمجتمع بدونها، ولكن الجد أغلق على نفسه الأبواب. وتدرك لم حة أن الموقف الخطأ في الأصل وليس في الفرع، عند الجبلاوي وليس عند الناظر. ويصرخ دعبس فيا جبلاوي تعال شف حالنا. تركتنا تحت رحمة من لا رحمة لهم» (ص ١٢٦). والكل يصرخ فيا جبلاوي» صرخات استغاثة واستنصار. الدين عند الناظر أفيون الشعب وعند الناس زفرة المضطهدين. أراد الناظر أخذ الأمر بالشدة وعدم التهاون وإلا انتهى كل شيء. وقامت الثورة من الرعاع، ولا حل لهم إلا زقلط فتوة الفتوات الذي يقاسم الناظر الريع. وزقلط يتوق للدم. ولكن الناظر لا يريد تجاوز التأديب الحد المعقول لا الإبادة. فكل من يلجأ إلى الأصل، الجبلاوي وأدهم، يريد أن يسلب الناس أموالهم. فهو سلاح ذو حدين يستعمله الناظر ويستعمله الناس، فالدين أحد عوامل الصراع الاجتماعي. يستعمله الظالم ويلجأ إليه المظلوم. وأدب زقلط آل حمدان بتهمة التهجم على الناظر مع أنها كانت مجرد رفع شكوى. وتناقى الفتوات كبرهم ولكن تظل شعلة الاعتراض ويظهر الثورة في النفوس حين تدعو لم حة على الظالم.

ثم تظهر النبوة في هذه الظروف «وهي نوع من البطولة الأخلاقية، نوع من الفتوة كما هو الحال عند الصوفية». الواقع عنصر تبريد، والنبوة عنصر تسخين. يظهر النبي من الناس. ينتمي إليهم وولاؤه لهم. يقودهم ويغيرهم ويقضي على الظلم الاجتماعي والفساد الأخلاقي بالقضاء على فتوات الحارة وحماية السلطتين الدينية والسياسية. وهذا ما فعله جبل. وهو يتيم وليس لقيطا، أخذته امرأة الناظر من بالعة دجاج على حافة

النهر. وتربى في بيت الناظر ولكنه في الأصل من آل حمدان. يشعر نحوها بحنان الأم ولكنه يرى استغلال الناظر، موسى في بلاط فرعون. هو ربيب الناظر، ابن زوجته العاقر بالتبني، لم يعرف من الدنيا إلا هذا البيت ولكنه ينتمي إلى آل حمدان، وإنكار الحقائق لا يغيرها. كانت وظيفة جبل في بيت الناظر تسجيل الدفاتر كما كان يفعل أدهم، وتوقيع عقود الإيجار ومراجعة الحساب الختامي للشهر. يتنازعه الولاء بين البيت الذي رباه والأصل الذي ينتمي إليه، بين بيت الناظر وآل حمدان. يتعاطف مع أمه لا مع أبيه، فالأمومة أقوى من الأبوة.

قتل جبل قدرة دفاعا عن عبس كما قتل موسى المصري دفاعا عن العبري. فجبل لا يقوى على قبول الظلم «هل يرضيك هذا الظلم يا جبلاوي؟» (ص ١٣٥). كان يجلس على الصخرة نفسها التي كان يخلو فيها قدري إلى هند، ويسترجع الذكريات ويستمع إلى حديث النفس، كيف يستمتع بالحياة على حساب الغير؟ أليس خائنا لآل حمدان؟ وتتحرر النفس عن طريق الذكريات، ويحرر مثال الماضي الواقع الحاضر. كان يحب الخلوات. فلكل نبي خلوة، خلوة المسيح إلى العبد، وخلوة موسى في جبل سيناء، وخلوة محمد في غار حراء. كان يشعر بالظلم الواقع على آل حمدان، ويسمع الهاتف الباطني، ويتساءل «ألا تعلم ذلك يا جبلاوي؟ إلى متى تسكت يا جبلاوي؟ (ص ١٣٦) فالاستجابة الخارجية لا تكون إلا بعد السؤال الداخلي. ويواجه جبل زقلط في بيت الناظر ويرفض تأديب آل حمدان انتقاما لقتل قدرة ويترك بيت الناظر «من العار أن أترك أهلي يبادون وأنا أنعم بظلك» (ص ١٤٧). وتستثيره ذكريات الماضي، حقيقة البيت الكبير، مأساة أدهم التي ترويها الرباب، ويقرر أن يعيش كما يعيش أهل الحارة فالمصادفة وحدها هي التي انتشلته. ويقوي الجبهة الداخلية، ويصالح بين المتنازعين، ويعلم الناس عدم الحكم بلا دليل كما يفعل الفتوات. ويقابل فتاتين لا تقدران على ملء صفيحتيهما بالماء فيساعدهما كما فعل موسى مع ابنتي شعيب. ويقابل البلقيطي الحاوي. ويتعلم منه السحر لكسب القوت، السيطرة على الثعابين. وقد كان الساحر أيضا من حارة الجبلاوي، من آل حمدان. وتزوج صغرى الفتاتين، شفيقة وليس سيدة الكبرى طبقا للأعراف. وعاش سعيدا يفكر في هذه اللعنة التي حلت بذرية أدهم، أسرة مجيدة، تجري في دمائها الجريمة منذ القدم. قوم ظالمون وهو رجل شهم. عاش أدهم ومات وهو يتمنى الحياة البريئة اللاهية ـ الحديقة والغناء. ثم يتساءل جبل: أين الجبلاوي؟» بحثا عن الخلاص. خشيت عليه شفيقة وعلى وليدها من هذه الهموم. ولكن كيف تطيب له الحياة وهو ينتسب إلى آل حمدان، والأفندي رأس الاغتصاب، وزقلط رأس الإرهاب؟ شعر أنه مسئول عن الأرواح التي أزهقت، والأرزاق التي سلبت. يعود جبل إلى آل حمدان ويرى الجبلاوي في الطريق كما رأى موسى النار. وتم اختياره لإنقاذ آل حمدان بعد أن سمع «أنا جدك الجبلاوي» (ص١٧٧). ودعا الجبلاوي جبل إلى الثورة على الظلم. «بالقوة تهزمون البغي، وتأخذون الحق، وتحيون الحياة الطبيعية» (ص١٧٨). النداء حقيقي والمطلب حقيقي. ولن يكون النداء وهما إلا إذا كان المطلب وهما والنداء مبادئ عامة دون تفصيلات: الثورة على الظلم. فالتفصيلات والإجراءات متروكة لتقدير الناس. وصدق النداء مرهون بتحقيقه مصالح الناس.

صمم جبل على أن يذهب إلى الناظر وحده بعد الاطمئنان إلى أن آل حمدان سيكونون وراءه، وحدة متماسكة لمواجهة الشدة. وقابل جبل ناظر الوقف وفي قلبه الحنين إلى الأم. وكشف له عن معاناة آل حمدان من الذل والموت والقتل. تريد الأم أن تنسى الماضي ولكن جبل يذكرها بآلام الحاضر وبإجرام الفتوات. جاء جبل مطالبا بحقوق آل حمدان وحقهم في الوقف والحياة الآمنة تلك هي رغبة جده الجبلاوي. تعجب الناظر من أن الواقف لم

يغادر بيته قط منذ اعتزل. ولكن جبل طلب الاحتكام إليه وإلى شروطه العشرة. متوعدا الناظر بغضب الجبلاوي إن لم يرد حق آل حمدان المشروع.

وحدث أن ظهرت الثعابين في الحارة تلدغ الناس. فتطوع جبل لاستخراجها بما تعلم من السحر. فالنبي ذو نفع، يقي الناس الغرر، ويحقق لهم المصلحة. ثم ظهرت الثعابين في بيت الناظر. وقرر جبل تخليصه منها مقابل كلمة شرف باحترام آل حمدان في كرامتهم وحقهم في الوقت. وهتفت الحارة لجبل: «جبل يا نصير المساكين، جبل يا قاهر الثعابين» (ص١٩٢). ولكن الناظر لم يف بوعده، واستدعى الفتوات. ودخل معهم جبل مع آل حمدان في معركة ضد زقلط الذي غرق في المياه والطين كما غرق فرعون وجنوده. وكانت حجة الناظر أن الناس يخضعون للقوة لا للشرف، ويخشون خوفا من النبوت لا إعجابا بالشرف. لذلك استعمل جبل معه المنطق نفسه، القوة. ثم توجه البعض إلى البيت الكبير منادين جدهم الجبلاوي لأن يخرج من عزلته ليعالج ما فسد من أمورهم. بينما ذهب آخرون إلى بيت الناظر، يدفعون البوابة، واستسلم الناظر لتحقيق إرادة الواقف وإصلاح الأخطاء. وطلبت الهانم المروءة والرحمة تنبؤا بقدوم رفاعة. ما كان أيسر أن يقوم العدل دون إراقة نقطة من الدم. ولكن القوة لا تجابه إلا بالقوة. ليست الفتوة مطلب جبل ولكن استرداد حقوق آل حمدان دون الجور على حقوق الآخرين في مواجهة المزايدة ورد الفعل وجدل السيد والعبد، وأعطى جبل وصاياه الأخيرة بتذكيرهم بوصية جدهم، وبأن يكونوا أقوياء وأن يصمدوا للملمات، وأن التذرع بالقوة إذا لم ينفع فلن يدفع بهم إلى أسوأ مما هم فيه. في البأس قوة وعزيمة. وعندما يجري الخير بين أيدي الناس سيتم رفع الباقي إلى مقام البيت الكبير. حاجات الناس أولا. والخير للحارة أولا دون باقي الحارات، لآل حمدان فقط دون غيرهم، فاليهودية دين خاص باليهود وحدهم. لا فتوة في حمدان. والكل فتوة على من يطمع فيهم. ولما كان آل حمدان أحب أهل الحارة إلى الجد فهم سادة الحارة. يسود بينهم الحب والعدل والاحترام دون حسد أو شماتة. وتنزه جبل عن أن يأخذ أكثر من حقه، وحقق العدالة بين الجميع. المجتمع يؤله الزعماء والزعماء يقاومون هذا التأليه.

ولكي يضمن جبل استمرار نجاح الثورة والقضاء على الظلم والطغيان سنّ الشريعة ووضع القانون للجبهة الداخلية «العين بالعين والسن بالسن» بناء على واقعة فقء عين كعبلها من دعبس في شجار على القمار، دعبس الذي أنقذ جبل حياته وقتل قدري بسببه، ثم فقأ كعبلها عين دعبس جزاء له. لذلك أيضا تم تحريم القمار «إن الواقف لم يؤثركم بحبه ليعتدي بعضكم على بعض. فإما حياة تقوم على النظام وإما فوضى لن تبقي على أحد» (ص٢٠٨). لا نجاح على ثورة ضد الظلم في الخارج إن لم تقم على عدل في الداخل. «ماكرهتم الفتونة إلا لأنها كانت عليكم. وما أن يأنس أحدكم في نفسه قوة حتى يبادر إلى الظلم والعدوان وماالشياطين المستترة في أعماقكم إلا الضرب بلا رحمة ولا هوادة. فإما النظام وإما الهلاك». (ص ٢٠٩). أصبح جبل بعد ذلك مخوفا مرهوبا «وتهامس الناس بقسوته وظلمه، ولكن وجد هؤلاء دائما من يرد عليهم قولهم، ويذكر بالوجه الآخر لقسوته، وهو الرحمة بالمعتدى عليهم، والرغبة الصادقة في إقامة نظام يضمن العدل والنظام والإخاء في آل حمدان» (ص٢٠٩).

«هذه قصة جبل. كان أول من ثار على الظلم في حارتنا. وأول من حظي بلقيا الواقف بعد اعتزاله. وقد بلغ من القوة درجة لم ينازعه فيها منازع. ومع ذلك تعفف عن الفتونة والبلطجة والإثراء عن سبيل الإتاوة وتجارة المخدرات، وليث بين آله مثالا للعدل والقوة والنظام. أجل لم يهتم بالآخرين من أبناء حارتنا. ولعله كان يضمر لهم احتقارا وازدراء كسائر أهله، لكنه لم يعتد على أحد منهم ولا تعرض لهم بسوء. وضرب للجميع مثالا جديرا بالاحتذاء» (ص٢١٠).

٤ ـ رفاعة والخلاص بالرحمة

وعادت الحارة إلى السقوط. عم الظلم، وساد التسلط من الناظر والفتوات. الناظر له اسم هذه المرة «إيهاب» بنفس الألف الممدودة التي لرفاعة وزوجته لها اسم هدى وبها نفس الهاء التي في هند في محاولة جبل الأولى. وأصبح الفتوة ليس زقلط بل بطيخة. ساء حال المجتمع، وانغمس الناس في الحياة الدنيا. عمهم الظلم وساءهم القهر. وأصبح أسياد الحارة عبيدا أذلاء. ذهب جبل وعهده السعيد. تهوى النبابيت لأتفه سبب، وأصحاب الوجوه المستكبرة تختال كالقضاء والقدر. ويتمنى المساكين المحال كما تمناه أدهم من قبل.

ومازال البيت الكبير قائما في الخلاء، محاطا بالسور العالي. ومازالت حوله الذكريات: صخرة هند، المقام والمصلى، سوق المقطم الذي ذهب إليه جبل أيام محنته. لا يستطيع أحد أن يتحدث عن الوقف. أين جبل وعهد جبل؟ أين القوة العادلة؟ ماذا أرجع آل جبل إلى الفاقة والذل؟ لابد أن يخرج الجبلاوي يوما من عزلته لينقذ أحفاده من الظلم والهوان. اعتزل في المنزل، واستأثر ناظر الوقف بريعه إلا ما يهب الفتوات نظير حمايته. وهنا هو الدهليز الذي أغرق فيه جبل أعداءه. وفي هذه البقعة أقام أدهم كوخه، وبارك الجبلاوي ابنه وعفا عنه. رسم المبيض صورة الجبلاوي فوق رأس الشاعر كما ترد أوصافه في الحكايات. فالجبلاوي من خلق الإنسان والفنان. لماذا أغلق الجبلاوي أبوابه في وجه أحفاده؟ ربما بسبب الكبر. كيف تمضي به الأيام؟ لو فتح أبوابه لما بقي أحد من أهل الحارة في داره القذرة.

ويحكي عم جواد الضرير الشاعر قصة جبل ليلة التقى بالجبلاوي في الظلام. وطلب منه عدم الخوف، وحباه بالتأييد والعطف حتى انتصر. وعاد إلى حارته مجبور الخاطر. ما أحلى العودة بعد الاغتراب. وما أكذب الشعراء. إذ يريد الشاعر إرضاء السامعين بأي ثمن. وتختلف الروايات والحكايات طبقا للأغراض والمواقف. فالشعر مثل الحارة جبان خائف. ينتظر ويترقب، يداهن ويملق. يؤيد القوي، الناظر والفتوة على حساب الضعيف.

ثم أصبح الوقت ناضجا لإحداث تغير اجتماعي جديد بعد أن علت أصوات الاحتجاج. فقد لاحظ حجازي أحد أبناء حي جبل استكانة الحارة «عيبكم أنكم تخافون الموت أكثر مما ينبغي. لذلك يسيطر عليكم خنفس. وتسلط بيومي، وصادر إيهاب أرزاقكم» (ص ٢٤٣). العيب في الناس. كان جبل قويا، وبالقوة والعنف استخلص الحق الذي أضاعه الجبن. لا سبيل إلا القوة، والقوة وحدها لاسترداد الحق. وبغيرها لا يسود العدل. قديما ذهب جبل إلى الأفندي يسأله العدل والرحمة فأرسل إليه زقلط ورجاله ولولا النبابيت لا الرحمة لهلك جبل وآله. تجربة ناجحة أيام جبل وتستطيع أن تنجح من جديد بعد أن ضاع تراث جبل.

وهنا تتهيأ الظروف لمحاولة ثانية وأمل في خلاص المجتمع بتطهير النفس أولا حتى يتم خلاص المجتمع. وهي محاولة رفاعة كما حاول يسوع المسيح. ليست الغاية الوقف بل تطهير النفس من الطمع والجشع والأهواء حتى تحل مشاكل الوقف والظلم الاجتماعي وتسلط الفتوات. الطريق إلى ملكوت الأرض هو ملكوت السموات. وإذا كان السقوط نتيجة للأهواء البشرية: الحسد والغيرة والغواية فإن التخلص منها هو الطريق إلى الخلاص.

بدأ رفاعة هاربا مع أبيه عم شافعي مع زوجه عبدة من الحارة بعد أن شعر الأب بالظلم وبداية الاعتراض وقتل الأطفال الذين قد يظهر المخلص منهم كما هرب المسيح طفلا مع كفيله يوسف وأمه مريم من فلسطين إلى مصر، هربا من هيرود الذي أمر بذبح الأطفال. عم شافعي هو أبو رفاعة وليس الروح القدس. وهو زوج عبدة أم رفاعة زواجا شرعيا وولادة طبيعية. تأمل وقلّب وجهه في السماء مثل أدهم وجبل مما دفع رفاعة أن يتساءل «انتصر جبل يا أبي ولكن ما جدوى النصر» (ص٢٢٣) وكان الجواب «نسينا الجبلاوي». وانجذب كلاهما نحو البيت الكبير

الذي يقف عند رأس الحارة متفردا، صاحب هذه الأرض ومن عليها. الخير خيره، والفضل فضله. ولولا عزلته لملأ الحارة نورا. باسمه ينهب الناظر الوقف ويعتدي الفتوات على الناس. لم ترتد عين رفاعة من البيت المغلق وأحس يائسا أن الجبلاوي لا يتكرر. لقد أغلق أبوابه في وجه أحفاده وكان رفاعة يحب سماع الشعر والحكايات كما سمع عيسى التوراة من الأحبار. صادق عم جواد، وكرر زياراته له لتعليمه الحكمة. وقصص السابقين. وأحب رفاعة أم بخاطرها كودية الزار التي رأى أيضا صورة الجبلاوي معلقة على الحائط فوقها. أراد رفاعة أن يرسم صورة مثلها في الدكان فنبهه أبوه إلى أنهم أولى بنفقاتها. فما قيمة الخيال؟ كان لديها القدرة على إخراج العفاريت من الأبدان إبراء للمرضى. والحارة كلها في حاجة إلى من يخلصها من شياطينها. عرف رفاعة فن تطهير النفوس من أم بخاطرها كما تعلم جبل السحر من البلقيطي. والحقيقة أن العفاريت هم أولئك الناس. لكل إنسان عفريت هو سيده، وكما يكون السيد يكون العبد. ويحرق لكل عفريت البخور المناسب وتدق له الدقة المطلوبة لكل حالة. يتخلص العفريت بالبخور الزكي والنقمة الطيبة. وهل يمكن تخليص ناظر الوقف من عفريته؟، هل يمكن خلاص الشر بالخير؟ أراد رفاعة تعلم أسرار الزار لتطهير الحارة لا لكسب المال مادام بالإمكان هزيمة الشر بالطيب الجميل. صحيح أن الناظر استولى على الوقف، ولكن الخلاص منه لا يكون باسترداد الوقف ولكن بتطهير النفس من الدنيا من أجل اكتشاف السعادة الحقيقية.

كان رفاعة وديعا رقيق الحال، جُبل على رقة ومودة. لا يستطيع أن يسلو الصدقات. فالأشياء الطيبة لا تنسى أبدا. كان ذا قامة طويلة وعود نحيل، ووجه وضاء. فتى جذاب ينضح بالوداعة والرقة، غريب في الأرض التي يسير عليها. بعد أن تعلم التجارة هام على وجهه في الخلاء كما فعل جبل. احتقر الناس رقته غير المألوفة وصفاء عينيه وصوته العذب. وهو من صلب الرجال كان عطوفا على الساقطات. هن مقهورات في حاجة إلى هداية وليس إلى عقاب. آثر الحب والسلام على الرغم من عيشه بين تبايت الفتوات. لم تتفق التجارة مع شخصه على عكس رعي الغنم والتجارة. لذلك اختفى في الصحراء مثل اختفاء جبل واختفاء المسيح وبحث مريم عنه والعثور عليه في المعبد. ظن أبوه أنه عند جواد الشاعر أو أم بخاطرها كودية الزار. أما هو فقد ضاق بحياته وذهب إلى الخلاء شعورا برغبته في الوحدة. كره مجالس الحشيش والزواج وخلا بنفسه ساعات طويلة عند صخرة هند، كان له تأويله الخاص لقوة جبل. لقد أراد جبل استخلاص الحق بالحسنى، ولم يعمد إلى القوة إلا دفاعا عن نفسه. بالجبروت أقام العدل. إن الحارة اليوم في حاجة إلى الرحمة. لم يستطع رفاعة السكوت عما يشعر به، يناقش في الدكان. واختار مكانا أسفل سور البيت الكبير المشرف على الخلاء. دهمه شعور مشرق بأن صوت جده الجبلاوي يناديه قائلا: «أما جبل فقد قام بمهمته وكان عند حسن الظن به، ولكن الأمور ارتدت إلى أقبح مما كانت عليه» (ص ٢٤٧). ولما طلب رفاعة من جده أن يمد إليه يد العون قال «ما أقبح أن يطالب شاب جده العجوز بالعمل والابن الحبيب لا يعمل؟» (ص ٢٤٨). ولما اشتكى رفاعة أنه لا حيلة له حيال أولئك الفتوات وهو الضعيف رد الجبلاوي «الضعيف هو الغبي الذي لا يعرف سر قوته وأنا لا أحب الأغبياء» (ص ٢٤٨). إنهم لا يقتلون إلا من يتطلع إلى الوقف ورفاعة يبحث عن الحياة الصافية التي يحث عنها أدهم من قبل. ولم يطلب جبل حقه في الوقف إلا سعيا وراء الحياة الصافية. ثم غلب الظن أن هذه الحياة لن تتيسر إلا إذا توزع الوقف على الجميع ونال كل حقه واستثمره حتى يغنيه عن الكد فتخلص له الحياة الصافية. ما أتفه الوقف إن أمكن بلوغ هذه الحياة دونه. وهو أمر ممكن لمن يشاء. ومن الممكن الاستغناء عنه في الحال. لا يحول بين الإنسان والسعادة إلا العفاريت الكامنة في أعماقه فلا يتغير شيء في الخارج إلا إذا تغير الداخل أولا «لا يغير الله مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم». عيب أم

بخاطرها أنها تنتظر حتى يجيء إليها المرضى الموسرون ولا تذهب هي بنفسها إلى المساكين كما يريد رفاعة. لذلك اهتم بالنفوس لا بالوقف. ومادام لا يؤذي أحدا فلن يؤذيه أحد. ولا محال مادام الجد مازال حيا.

وكي يعطي رفاعة مثالا حيا للرحمة والتضحية بالنفس وتطهيرها تزوج ياسمينة بعد أن أراد الناس معاقبتها كما فعلوا مع مريم المجدلية، دفاعا عن شرف آل حمدان؛ إنقاذا لسمعة عنفس حتى لا يبدو متهاونا في تطبيق الشريعة وبيومي خليلها. اتهم رفاعة بأنه لا كرامة له وبأنه امرأة وأحمق. ولكن رفاعة طلب لها الرحمة بضعفها وذعرها، وقدم نفسه للعقاب بدلا عنها، رحمة باستغاثتها. وفي ليلة الزفاف طلب توبتها وتخليصها من العفاريت. ليست شريرة. أحبها الناس واحتقروها للسبب نفسه. تمتعوا بها وزايدوا عليها في الكرامة والشرف. يباهون بالكبائر ويفاخرون بأنهم من صلب أدهم. مادام التخلص من العفاريت ميسورا فالسعادة قريبة. لا يطيق رفاعة أن يتعذب إنسان. يحب كل الناس وليست ياسمينة وحدها. وهذه هي السعادة الحقيقية. طهر أباه وزوجه وأمه حتى تتحقق السعادة الصافية. عمل بلا أجر. وشفي الفقراء لأنهم لا يملكون الثمن. خلّص الناس من العفاريت ووهب الصحة والسعادة لوجه الله. أحبه الفقراء. واصطفى من مرضاه أربعة وكأنهم رسله، فصاروا إخوة له، برجيا وحشاشا وفتوة وقوادا. لم يعرف أحد منهم الصداقة ولا الأخوة ولا المحبة من قبل. تخلصوا من العفاريت، وتطهروا من الحقد والطمع والكراهية وسائر الشرور التي تفتك بالحارة. وأصبحوا سعداء على الرغم من فقرهم وضعفهم. لا حظ لهم في الوقف أو الفتونة». لم يستطع جبل أن يغير النفوس بتيله حقه في الوقف. ولما رحل عن الدنيا انقلب الأقوياء مغتصبين والضعفاء حاقدين وأطبق الشقاء على الجميع. أما أنا فأفتح أبواب السعادة بلا وقف ولا قوة ولا جلد» (ص ٢٦٩). وعندما يلمس الأقوياء سعادة الضعفاء سيدركون أن قوتهم وجاههم وأموالهم المغتصبة لا شيء.

وخانته ياسمينة مع بيومي مع أن مريم المجدلية لم تخن. في رأيها أن رفاعة أول كودية زار من جنس الرجال. لا عمل له إلا تخليص الفقراء من العفاريت، مشغول عن زوجه بعفاريت الناس. يعتقد أنه مكلف بإسعاد الفقراء وتطهيرهم. هذا ما يريده الواقف لأبنائه تأويلا لأقوال يتغنى بها الشعراء. ويواجه بطيخة رفاعة بعد أن قال إنه اتصل بالواقف، وكأن الاتصال به حكر عليه دون الناظر. ويرفض بطيخة الاعتداء عليه لأنه مخلوق لا ذكر ولا أنثى والاعتداء عليه مهين للفتوة، كما أن له أنصارا عنيدين يحمونه بإلقاء الحجارة. يحتقر القوة والجاه والثراء باسم الجبلاوي وهي مزاياه وصفاته في رأي الناظر. والعاجز عن شيء يلغيه وينفيه حتى ترتفع مكانته فيسلبه الناس. فالأخلاق قناع على مايقول نيتشه. ورفض رفاعة الدخول في معركة، وآثر الهرب: «لا تفكروا في العراك فإن الذي يشقى لإسعاد الناس لا يهون عليه سفك دمائهم» (ص ٢٨٣). ورفض الهجرة من الحارة حتى يؤدي رسالته. يحب الحارة والحارة تحبه. ولم يفعل شيئا يستحق العقاب إلا أنه من حي جبل المكروه لديهم. بالأمس حاربوا جبلا لمطالبته بالوقف، واليوم يحاربون رفاعة لاحتقاره الوقف. ينكر رفاعة الحيلة ولكنه لا يستحق الموت. لو عرضوا عليه بيت الواقف ما قبله. نفسه حزينة حتى الموت. فمن الظلم قتله وليس فيه جانب واحد يستحق العقاب. خانته ياسمينة بدلا من بيومي، وهو الوحيد في هذه الدنيا الذي أحسن إليها. ليس رفاعة ضعيفا كما يتصورون ولكنه نقل المعركة من ميدان إلى ميدان، من الخارج إلى الداخل، من المادة إلى الروح، مما يتطلب شجاعة أسمى وقوة أشد.

وعاش رفاعة مع تلاميذه الليلة الأخيرة. ترى هل يدري جده بحاله؟ إن كلمة منه تستطيع أن تنقذه من مخالب هؤلاء الجبارين وترد عنه كيدهم. إنه قادر على أن يسمعهم صوته كما أسمعه إياه في هذا المكان. لقد

وجد جبل نفسه في مثل هذا الموقف ثم نجا وانتصر. طالب رفاعة تلاميذه باليقظة كما طالب المسيح، فهم في حاجة إلى الوعي. وصاحت الديكة. وقتل رفاعة وصاح «يا جبلاوي» كما صاح يسوع ربي! ربي! لماذا تركتني. «كانت حياته حلما قصيرا لكنها ملأت قلوبنا بالحب والنقاء. وما كنا نتصور أن تغادرنا بهذه السرعة فضلا عن أن تقتل بيد أحد من الناس، أحد من أبناء حارتنا الجاحدة التي داويتها وأحببتها، حارتنا التي أبت إلا أن تقتل الحب والرحمة والشفاء ممثلة في شخصك فقضت على نفسها باللعنة حتى آخر الزمن... لماذا يذهب الطيبون ويبقى المجرمون؟... لولا حبك الباقي في قلوبنا لمقتنا الناس إلى الأبد... لن يرتاح لنا بال حتى نكفر عن جبننا» (ص٢٩٧).

واختفت جثة رفاعة. ربما نقلها التلاميذ إلى مكان آخر. ويقال إن جثته ظلت ملقاة في الخلاء حتى حملها الجبلاوي بنفسه فواراها التراب في حديقته الغناء. وتقابل ياسمينة الحواريين الأربعة وتخبرهم باختفاء الجثة كما فعلت مريم المجدلية. وأخبرت الحواريين، ولكنهم يقتلونها عقابا لها على خيانتها كما شنق يهوذا نفسه على جذع الشجرة وتحول رفاعة إلى حي، وأطلق عليه اسم دار الشرفاء. وواصل أصحابه المخلصون رسالته وتبشيرهم بمجيئه. ولقنوا الناس أسرار علمه بتخليص الأنفس ليزاولوها في مداواة المرضى. بذلك يعيدون رفاعة إلى الحياة. أراد أحدهم الانتقام من القتلة المجرمين ولكن الآخرين اتهموه بأنه ليس من رفاعة في شيء كما فعل بولس. ويقال إن الفتوات اختفت. داهمتها الحرائق، وأن مجانين رفاعة منتشرون في كل مكان كالبق. ورشق يومي بالطوب وتم تدمير الظلم بالطوب والجراد كما تم تدمير بيت المقدس، المدينة الظالمة. واتفق الناظر مع أصحاب رفاعة على بداية عهد جديد، والاعتراف بالرفاعيين كحي جديد مثل حي جبل بماله من حقوق وامتيازات. ونصب علي، أحد الحواريين ناظرا على وقفهم، يسلم لهم نصيبهم، ويوزعه عليهم على أساس المساواة الشاملة. وعاد إلى الحي الجديد جميع المهاجرين الذين فروا من الحارة في فترات الإرهاب وعلى رأسهم عم شافعي وزوجته وأصحاب رفاعة. وحظي رفاعة في موته بما لم يكن يحلم به في حياته من التكريم والإجلال والحب حتى صار قصة باهرة تروى على كل لسان. تغنى بها الشعراء، خاصة رفع الجبلاوي لجثته ودفنها في حديقته. وقد أجمع الرفاعيون على ذلك كما أجمعوا على الولاء له ولوالديه. لكنهم اختلفوا بعد ذلك. فأصر البعض على أن رسالة رفاعة يجب أن تقتصر على مداواة المرضى واحتقار الجاه والقوة. وغالى آخرون فتجنبوا الزواج حبا في محاكاته.

وتمسك فريق ثالث بحقه في الزواج ودعا إلى تمجيد حي رفاعة. لم يكره الموقف لذاته ولكن ليبرهن على أن السعادة ممكنة دونه. ووزع الريع بالعدل ووجه قسم منه إلى البناء والخير. فاليوم خير من الأمس. والغد خير من اليوم. فإذا كان رفاعة قد وحد الناس في حياته فإنهم تفرقوا واختلفوا فيه بعد موته، حول شخصه ورسالته.

٥ ـ قاسم والخلاص بالعدل

وسقطت الحارة من جديد، وعادت إلى سابق عهدها وكأن شيئا لم يقع، لا محاولة جبل بالقوة ولا محاولة رفاعة بالرحمة. انتهت المحاولتان إلى حيّيْن بالحارة، حي الجبلية وحي الرفاعية. لكل منهما فتوة. لم يمت رفاعة يوم مصرعه ولكنه مات يوم انقلب خليفته إلى فتوة وتحولت النبوة إلى كهانة. في الحارة الأقدام عارية، والذباب يلهو بين أكوام الزبالة. الوجوه ذابلة مهزولة، والثياب مرقعة، والشتائم تحيات، والنفاق علاقات وسلوك. وهناك حي جديد، حي الجرابيع يضم الفقراء والمساكين والضعفاء والمرضى الذين لم يخرج من بينهم زعيم. له فتوة، سوارس، كما كان أبوجهل في قريش.

والبيت الكبير مازال قائما على قمة الحارة وفي وسط هذا الانهيار، وراء أسواره غارقا في صمت الذكريات. على يمينه بيت الناظر، وعلى يساره بيت الفتوة، تجاور السلطتين الدينية والسياسية، الشرعية والتقليدية. لم يكن للناظر اسم أيام جبل. وكان اسمه إيهاب أيام رفاعة. واسمه الآن رفعت أيام قاسم. وفتوته لهيطة. ويدل الاسم صوتيا على النهب والسلب والنهط والسرقة كما كان فتوة جبل جلطة من نفس الجيم واللام، وكان فتوة رفاعة عجاج من العجيج بمعنى رفع الصوت يسرق وينهب وفي الوقت نفسه يحث الناس على اتباع سنة رفاعة في احتقار الجاه والثراء.

وكان الشعر كعادته يدافع عن الأمر الواقع. تؤكد الرباب أن نظام حلة النبابيت ونظام الوقف نظام عادل جرت به شروط الواقف العشرة، وسهر على تنفيذه الناظر والفتوات. يبدأ الشاعر بتحية الناظر رفعت، ولهيطة الفتوة، وسوارس سيد الحي قبل أن يروي قصة أدهم والجبلاوي. يغرق الشاعر في الماضي دون الحاضر، ويخرج الناس عن واقعهم المأساوي إلى حلم خيالي، يجد الناس فيه تعويضا وسكنا وبديلا.

وكان الناس كالعادة يتساءلون: أين جبلاوي؟ لماذا اختفى؟ لماذا لا يخرج من البيت لإنقاذ الحارة وإعادة سيرة أدهم وجبل ورفاعة فيرد إليهم حقوقهم من ناظر الوقف ويخلصهم من الفتوات؟ وهنا ظهر قاسم، طفل يتيم. عمه زكريا بياع بطاطة ينادي على عربة «بطاطة المعلقة... بطاطة الفرن». وهو قريب سوارس الفتوة من بعيد. لم يرزق عمه بمولود فاعتبر ابن أخيه ولده. نشأ شبه وحيد. يذهب إلى الخلاء ليلعب حول صخرة هند حيث تهيج الذكريات، الجبلاوي وأدهم وهمام وجبل ورفاعة، تعلموا من خبرات السابقين. كان يتطلع مع الصغار إلى البيت الكبير مشاهرا بجده ومقام جده، تعلم البعض من جبل، والبعض الآخر من رفاعة وهو أمي ليس لديه مايقوله. اشتهى ثمار التوت والنخيل والأشجار. فدخل ليأكل منها، ويسبح في فسقيته. كان يحب الدنيا منذ الصغر، ويتذوق الحياة الحية، ويعشق النساء ويقدر جمالهن. كثيرا ما أخذه عمه زكريا إلى المعلم يحيى يستمع منه أخبار السابقين وقصص الماضي. وهو إنسان فاضل لرفاعة ترك الحارة هربا من الاضطهاد، من البقية الصالحة التي من خلالها استمر التاريخ. تعرف على مستقبل قاسم كما فعل ورقة بن نوفل مع محمد. يعيش في جو المقاهي والحشيش والجنس، ويسأل عن كل شيء، وفائدته وضرره، ثم تحول إلى راعي غنم عندما كبر، فرعاية الحيوان مثل رعاية الأمة. وعالم الحيوان الرعي والتكاثر، مثل حال البشر، الطعام والجنس. رعى الأغنام من كل حي، جبل ورفاعة، ومن كل طبقة، الفقراء، والموسرين. وكلها ترعى في إخاء ووئام على عكس حارة الأشقياء القساة وقد كان همام راعيا. كان يحب النظافة، ويعشق حسن المنظر حتى أحبته النساء.

تجلت حكمته في معرفة سارق نقود نجاد حسما للنزاع بين القبائل وحفظا لكرامة الجميع كما فعل محمد في الحجر الأسود وتنازع القبائل على وضعه في مكانه في الكعبة. هي سرقة حلال للفقراء والمساكين واسترداد لأموالهم من الناظر التي دفعها لتجديد القرش. وكان الحل أن يضع السارق المحفظة ليلا في الحارة حتى لايرى أحد من الذي أخذها وإلى أي حي ينتسب. وكان قاسم بعد هذه الشهرة في إنقاذ الحارة من معركة النبابيت بين الفتوات يتعهد مال سيدة موسرة جميلة، قمر، لمحها ولمحته، وتبادلا النظرات والإشارات. ثم بعثت قمر جاريتها «سيقة» توميء إليه باستعدادها للزواج منه وخطبته لها. ففاتح عمه في الأمر، فهو ليس كرفاعة بل مثل جبل. أحب وتزوج واستخلص حقه في الوقف ووزعه بالعدل. رأى في قمر الزوجة والأم،

حب المرأة وحنان الأم، ورأت قمر فيه الحكمة التي تجلت يوم السرقة وفض الاشتباك بين الفتوات. يرعى الحارة كما يرعى الغنم، ويرد عليه الفتوات التحية احتراما له. كان زوجها الأول من الأكابر وهذا ليس إلا راعي غنم، ولكن للنساء باستمرار ما يرضيهن خارج التكافؤ الطبقي والاجتماعي. فقاسم مثال العقل والكرامة رغم الفقر. وهي موسرة يتاجر عمها في أملاكها وتريد القوي الأمين. طلبت إليه الجارية. ألا يذبح نعجة في حياته إكراما لقمر، عادة تحريم الذبح في الأشهر الحرم أو ذبح الشاة في عيد الأضحى. وكانت قمر على قرابة مع أمينة زوجة الناظر من طريق زوجها السابق، مما أحزن قاسم نظرا لعدائه الطبيعي للناظر ناهب أموال الحارة. أصرت قمر على موقفها ضد عمها بتجاوز التفاوت الطبقي ورضخ العم حرصا على تجارته في أموال قمر. وما أفضل زواجا يجتمع فيه الرجل المهذب والمرأة الموسرة. ولم تهددها الوشاية بأنه كان يتردد على بيتها أثناء رعيه. وتكلفت قمر بمصاريف الزفة والفرح حيث دارت الأقداح، ووزع الحشيش، ورقص الفتوات، وفرح سوارس بفرض الإتاوة على قاسم. وعاش قاسم في سعادة بالغة، ورزق بإسعاد. ولكنه كان يحمل همه الاجتماعي معه. كان مع زوجه حملا وديعا، لا يطلب ولا يزجر، وبلغ حالة من الرضى لا يطلب عندها شيئا. كان خير الرجال في الحي ولكن يبدو كالغريب في الدار. حل محل العم في إدارة الأملاك بما له من لباقة في التعامل مع السكان الأفظاظ. واكتسب ثقة العم عويس في حارة لا أخلاق لها إلا السرقة والتبوت. كان همه الاجتماعي ينغص عليه حياته. لماذا لا تكون السعادة للجميع؟ ولماذا يفرض الفتوة الإتاوة ولا تكون زكاة من الجميع لصالح الفقراء؟

وكان قاسم يلجأ منذ الصبا إلى المقطم حيث كان يخلو جبل وحيث قتل رفاعة. وكان يجلس على صخرة هند، ويعشق الأماكن المقدسة التي تهيج الذكريات العطرة. وكان يمد بصره إلى الخلاء فيستقر على البيت الكبير، بيت الجبلاوي الغارق في صمته كأنه لا يبالي بصراع الأبناء من أجله. ما أحوجهم إلى قوته الخارقة التي دانت لها هذه البقاع في الزمن الخالي. ولعل القلق لم يكن يساوره لولا ذكرى مصرع رفاعة على كثب من بيت جده. ووجد دافعا من أعماقه يدعوه إلى أن يصيح بأعلى صوته «يا جيلاوي»(٤٢٦). جالت عيناه صخرة قدري وهند وبين البقاع التي جرت عليها مصارع همام ورفاعة ولقاء الجبلاوي وجبل. هنا الشمس والجبل والرمال والمجد والحب والموت، وقلب يزغ فيه الحب. ثم يتساءل: مامعنى هذا كله؟ مامضى منه وماهو آت في الحارة ذات الأحياء المتخاصمة والفتوات المتنابلين، والحكايات التي تروى في كل مقهى طبقا للأغراض والمصالح والأهواء؟ وإذا كانوا جميعا أولاد الجبلاوي فلماذا لا يكونون كلهم في الغنى أو في الفقر سواء؟ كان قاسم يحلم بما حلم به أدهم وجبل ورفاعة، ولكن كيف السبيل إلى تحقيق الحلم؟

وغاب قاسم ليلة دون أن يرجع إلى المنزل. ثم وجد عند يحيى بعد أن غاب عن وعيه على الصخرة. لقد سمع قاسم صوتا قال إنه قنديل خادم الجبلاوي. لقد ولت أيام الراحة عندما بدأ يحمل السر الكبير. قال له قنديل: مساء الخير ياعم قاسم، أنا قنديل، قنديل خادم الجبلاوي، خادم الوقف. سأل قاسم عن جده، كيف حاله؟ الجد بخير. هل يدري الجد بما يجري في الحارة؟ نعم، لأن المقيم في البيت الكبير يستطيع أن يطلع على كل صغيرة وكبيرة. لذلك أرسل قاسم. اختاره لحكمته يوم السرقة ولأمانته. رسالته أن جميع أولاد الحارة أحفاده على السواء، وأن الوقف ميراثهم على قدم المساواة، وأن الفتوة شر يجب أن يذهب، وأن الحارة يجب أن تصير امتدادا للبيت الكبير، وأن يحقق ذلك قاسم بنفسه، تحقيق ملكوت السماوات على الأرض بالفعل والجهد الإنساني. لم يكن حلما بل واقعا. رأى قنديل وهو يعود إلى البيت الكبير.

بدأ قاسم بتبليغ الرسالة للأقارب: صادق وحسن وعجرمة. وصدقوه فهو الصادق الأمين. لم يشهد أحد لقاء الجبلاوي وجبل ولا لقاء الجبلاوي ورفاعة. هي أخبار تروى وعادت بالخير على أصحابها. الحكاية تقلق واقعها بصرف النظر عن صدقها والواقع العملي خير مقياس لتصديقها. الكل من صلب ذلك الرجل المتكف في بيته الكبير، لا فضل لحي على حي. صحيح أنه نشأ في حي الجرابيع ولكن لإبلاغ رسالته أيضا لحي جبل وحي رفاعة تحقيقا لإرادة الجد. زكريا لا يفكر إلا في سلامة ابن أخيه، وعويس لا يفكر إلا في الريع ولكن قاسم اختار كما اختار جبل ورفاعة حتى ولو قتله الأقوياء وهزأ به الضعفاء. لم يعمل لصالحه فله زوج وابنة ومال ولم يعمل ضد الفتوات وحدهم ليكون كبيرهم أو ضد ناظر الوقف وحده ليكون خليفته ويجمع بين السلطتين الدينية والسياسية. إنما أراد الخير الذي أراده جده للناس جميعا. لا يخرج الجد إلى الحارة كما طالب العم عويس ولو محمولا على أعناق خدمه ليحقق شروط وقفه كما يشاء بل يتحقق ذلك بالفعل الإنساني والإرادة الإنسانية. لم تصب العين قاسما ولكنه سمع نداء الجبلاوي، ولن يقلع عما في رأسه ولو ملك الوقف كله وحده. لقد انتصر جبل في حياته، وانتصر رفاعة بعد موته، وسينتصر قاسم في حياته وبعد موته. الميراث للجميع على قدم المساواة كما قال الجبلاوي. ولن يبقى في الحارة إلا جد رحيم وأحفاد بررة. ويقضي على الفقر والقذارة والتسول والطغيان، وتختفي الحشرات والذباب والنبابيت، وتسود الطمأنينة في ظل الحدائق الغناء. لن يأتي العام القادم إلا وقاسم سيد الحارة مثل فتح مكة. لن يتخلى قاسم عن الأمر مهما تكن العواقب. ولن يكون دون جبل أو رفاعة برا بجده وأهل الحارة. لقد أفسد الجبن الرجال. يكذبون قاسم وهم آل جبل وآل رفاعة، وهم أولى الناس بتصديقه. الجبن داء الحارة والنفاق للناظر والفتوات دينها.

وبدأت التشريعات بناء على متطلبات الواقع وحاجته وفي مقدمتها مساواة النساء بالرجال في حق الميراث بعد أن هضم حقهن في الوقف. فالوقف الآن للذكور فقط. لقد أخبره جده على لسان خادمه أن الوقف للجميع والنساء نصف كيان الحارة. وستحترم الحارة النساء يوم تحترم معاني العدالة والرحمة، لا فرق بين سيد وعبد، ولا بين سيدة وجارية، ولا بين زوجة ناظر أو فتوة وزوجة خادم. ولما قتل سوارس شعبان شرع قاسم القصاص، قتل القاتل. فالتشريع يفرضه الواقع أولا ويصبح قانونا عاما ثانيا ولما سكر عجرمة وأذاع سر اتباع قاسم جد واحد للجميع، ووقف واحد للجميع، والسلام على الفتونة، ثم تحريم الخمر التي تذهب بالعقول، ويبدأ التفكير في الوسائل والإجراءات بعد أن آمن به زوجه وخادمه وأصحابه وآله وأتباعه. كانت البداية، بعد استشارة محام شرعي، أي اللجوء إلى السلطة القضائية لرفع ظلم السلطتين التشريعية (الدينية) والتنفيذية (الفتوات) عن رقاب الناس. ثم توجه قاسم إلى الناظر مدعما بالسلطة القضائية وفتوى المحامي الشرعي، ولكنه وجده هناك عند الناظر مؤيدا له، وموظفا عنده، يبرر مواقفه، ويدافع عنه، ويقاسمه مع الفتوات الريع. لقد خان المحامي الأمانة. وهو خائن لموكله حتى في اسمه «الشافعي». ثم بدأ التفكير في ناد رياضي لتكوين الأتباع وتدريبهم على الرياضة البدنية استعدادا للقتال وأخذ الحق باليد على طريقة جبل، تأسيس نظام رياضي لا نظام سري. نظام علني في حوش بيت قاسم يرتاده الجميع.

ولما اشتد اضطهاد قاسم وأصحابه فكروا في الهجرة إلى خارج الحارة، إلى جبل المقطم كما هاجر عمه يحيى من قبل وإقامة النادي الرياضي في مكان آمن. وسيهرب الجميع بالحيلة لا بالقوة حتى لا يلقى قاسم مصير رفاعة. ويبدأ الجرابيع يهاجرون مع قاسم دون أن يبقى أحد في فراشه تضليلا مع إحسان التنظيم والتدبير كي

يعود إلى الحارة منتصرا دون ناظر أو فتوة، وكانت زوجته قمر قد توفيت بعد أن آمنت به ورأت اضطهاده قبل الهجرة. وحين أتته بدرية أخت صادق وليست عائشة ابنته تخبره بضرورة الهجرة نظرا للخطر المحدق به وبعد أن كان قد دفن قلبه في التراب لاحظ جسمها ورشاقتها. ونصحته سكينة خادمة قمر أن يخرج من وحدته، واقترحت عليه الزواج من بدرية. وقد كان، بعد الحب والرعاية من قمر، ولكن ما أغنى الأموات عن إخلاص الأحياء، تبريرا للصدق أو سيرا مع الهوى؟

وبدأت الغزوات. قتل في الأولى سوارس في الزفة وليس للاستيلاء على تجارة قريش في بدر، انتقاما لمقتل شعبان، ومن أجل القضاء على الفتونة فلا يفل الحديد إلا الحديد. وطالبته بدرية بالاغتسال قبل النوم من غبار المعركة. وهو يذكر قمر ويعدها بالنصر مما غير وجه بدرية غيرة من زوجته الأولى وليس ترحما عليها. وبعد الانتصار الأول بدأ الناس يحلمون بامتلاك الوقف والنعيم الذي تهنأ به آمينة هانم والناظر. المهم الصبر وقلة الضحايا. ما أكثر المظلومين الذين يتمنون النصر، وأدرك الفضلاء من آل جبل ورفاعة أن قاسم سيتحول مثلهم إلى حكاية من حكايات الرباب.

بدأ الناظر والفتوات الخطوة المضادة لإيقاف قاسم وأتباعه. لقد تمسكن حتى تمكن. يغري الحارة بالوقف مع أنه لا يكفي لأصحابه. يعد بالقضاء على الفتونة فيطرب لذلك الجبناء كما أطرب الفقراء. وإذا كان محمد قد كسب الغزوة الثانية في أحد أولا ثم خسرها ثانيا بالالتفاف حوله فإن قاسم كسب الجولة الثانية أيضا واستولى على الأغنام. ويبادر بالمعركة. فإذا قتل قيطة ضمن النصر لأن جلطة والحجاج سيتنافسان على الفتونة. واستطاع قاسم وأنصاره إيقاف صمود الفتوات إلى جبل المقطم ثم اغتيل حجاج فتوة الرفاعية بعد تزاعه مع جلطة ثم انتصر قاسم على جلطة في الجولة الثالثة. ثم يدخل قاسم الحارة فاتحا، دون غالب ومغلوب، أبناء حارة واحدة، لجد واحد والوقف للجميع. وهرب الناظر. وقرر قاسم عدم الفتك به احتراما لزوجته لأنها قريبة لزوجته الراحلة قمر. فالقرابة عامل في تحديد السلوك.

وفي قاسم يتحقق حلم كل الرجال الطيبين. وما أقلهم في الحارة: أدهم، همام، جبل، رفاعة. ومع ذلك لقد مات أدهم كمداً، وقتل همام ورفاعة. سيرة عطرة ونهاية مؤسفة في حين كان قاسم سيرة عطرة ونهاية عطرة. انبعثت في صدره رغبة في أن يكون مثلهم. أما الفتوات فما أقبح حالهم. كم شهدت هذه الصخرة ـ صخرة هند ـ من أحداث أناس كغرام قدري وهند، ومقتل همام، ولقاء جبل والجبلاوي، وحديث رفاعة وجده. وتبقى الذكرة الطيبة أثمن من حياة الماعز والضأن. وشهدت أيضا حياة الجد العظيم وهو يجوب هذه الآفاق وحده. يمتلك مايشاء، ويرهب الأشقياء. ترى كيف حاله في عزلته؟ الوقف للجميع على السواء كما وعد أدهم حين قال له أبوه إن الوقف سيكون لذريته. المهم أن يحسن الناس استغلاله حتى يكفي الجميع أو يفيض للاستثمار. فيحيوا كما حيّ أدهم في رزق موفور وطمأنينة شاملة وسعادة صافية.

لم يقبل قاسم الاختيار بين جبل ورفاعة، بين الخلاص بالقوة والخلاص بالرحمة. لقد سأله عمه عن أيهما أحب إليه رفاعة أم الفتوة؟ وكانت الإجابة صعبة على الصبي في البداية. أراد عمه أن يكون بائع بطاطة مثله.

أحيانا يكون قاسم مثل رفاعة. لم يجعل الوقف غايته فقط بل حسن العاشرة (العدل والنظام مثل جبل.

لقد قتل رفاعة شر قتلة. وكاد جبل أن يقتل لولا انضمام أهله إليه. أما قاسم فقد دعا الجرابيع، المساكين، المعذبين في الأرض. قتل رفاعة على بعد أذرع من بيت الجبلاوي، واعتمد جبل على القوة. وعند قاسم القوة عند الضرورة والحب في جميع الأحوال، فالقوة هي الاستثناء والحب هو القاعدة. ولا يعيب قاسم الاهتمام بالوقف إذ كيف يعيش الناس بلا وقف ودون ما يقيم أود الحياة الدنيا؟ بالوقف وبالقضاء على الفتونة تتحقق الكرامة التي أعدها جبل إلى حيه، والحب الذي دعا إليه رفاعة بل والسعادة التي حلم بها أدهم. ولن تحتاج الحارة إلى أحد بعد قاسم إذا ما حقق حلمه «سترفع النبابيت كما رفعها جبل ولكن في سبيل الرحمة التي نادى بها رفاعة ثم تستغل الوقف لخير الجميع حتى تحقق حلم أدهم. هذه هي مهمتنا لا الفتونة». (ص ٤٠٧) لاتوجد شعائر وطقوس وممارسات فقد قام الشعر بها. لن تطهر الحارة من الفتونة إلا بالقوة، ولن تحقق شروط الوقف إلا بالقوة، ولن يسود العدل والرحمة والسلام إلا بالقوة. وستكون قوة قاسم أول قوة عادلة غير باغية. لقد وضع جده ثقته بين يديه، وهو على يقين بأن في أبنائه من هم أهل لحملها. كان جد قاسم في قوة جبل وفي رحمة رفاعة وقاسم مثله، صاحب الوقف، ومن حقه أن يغير ويبدل في الشروط العشرة، وأن تتغير طبقا لتغير الواقع كما هو الحال في «الناسخ والمنسوخ». العدل للجميع، بذلك تتحقق شروط الواقف، الخير للجميع. قوى الأبدان مثل جبل وطهر الأرواح مثل رفاعة وحقق العدل مثل جده. لا فرق بين حي وحي كما كان الحال أيام جبل ورفاعة، كل زعيم لقومه ولكن قاسم بدأ بحي الجرابيع وانتهى إلى دعوة الناس جميعا، مجتمع واحد دون فتوة ولا ناظر، مجتمع متساو يعمه العدل. الحارة حارة الجميع والوقف للجميع. وفيها يقيم الجبلاوي، لا تمييز فيها بين الناس، بين حي أو حي، فرد أو فرد، رجل أو امرأة، عمل وعمل. الكل فيها بما في ذلك الحرفيون وأصحاب المهن اليدوية مثل خودة الزبال. كان صادق ابن عم شنطح مبيض النحاس، وعجرمة ابن عبدالفتاح الفسخاني، وأبوفصادة بن حلتوت صاحب المقلة، وخروش بن حسونة الفران.

ذهب الناظر إلى غير رجعة. واختفى الفتوات. فلا يوجد في الحارة بعد اليوم فتوة تؤدى إليه الإتاوات أو عربيد متوحش تخضع له الناس. يعيش الناس حياتهم في سلام ومحبة. وبيدهم ألا يعود الحال كما كان، إذا ما راقبوا الناظر. إذا خان عزلوه. وإذا نزع أحدهم إلى القوة ضربوه. وإذا ادعى فرد أو حي سيادة أدبوه. بهذا وحده يضمن الناس ألا ينقلب الحال إلى ما كان عليه ووزع قاسم الريع على الجميع بالعدل بعد الاحتفاظ بقدر للتجديد والإنشاء، أجل، كان نصيب الفرد ضئيلا ولكن إحساسه بالعدل والكرامة فاق كل حد. لم تشعر الحارة قبل قاسم بالسيادة حقا وبأن أمرها قد آل إلى نفسها دون ناظر يستغل أو فتوة يستذل، ولا عرفت قبله ماعرفت أيامه من الإخاء والمودة والسلام. ويمكن تلخيص رسالة قاسم وشخصه في صورته لدى الجرابيع إذ «رأى الجرابيع فيه طرازا من الرجال لم يوجد مثله من قبل ولن يوجد مثله من بعد. جمع بين القوة والرقة والحكمة والبساطة والمهابة والمحبة، والسيادة والتواضع، والنظارة والأمانة. وإلى ذلك كله كان ظريفا بشوشا أنيقا وعشيرا تطيب مودته فضلا عن ذوقه الجميل وحبه الغناء والنكت لم يتغير من شأنه شيء. اللهم إلا أنه توسع في حياته الزوجية كأنما جرى فيه مجراه في تجديد الوقف وتنميته. فعل حبه بدرية تزوج حسناء من آل جبل وأخرى من آل رفاعة وتعشق امرأة من الجرابيع ثم تزوج منها أيضا. وقال أناس في ذلك إنه يبحث عن شيء افتقده مذ فقد زوجته الأولى قمر. وقال عم زكريا إنه يريد أن يوثق أسبابه بأحياء الحارة جميعا مع النسوان لكن حارتنا لم تكن بحاجة إلى تفسير أو تعليل لما حدث. بل الحق أنها إذا كانت قد أعجبت به لأخلاقه مرة

فقد أعجبت به لحيويته مرات. وإن حب النسوان في حارتنا مقدرة يتيه بها الرجال ويزدهون، ومنزلة تعدل في درجتها الفتونة في زماننا أو تزيد» (ص ٤٤٣).

٦ ـ عرفة والخلاص بالعلم

وعادت الحارة إلى السقوط من جديد بعد محاولة قاسم التي كان يعلن أنها آخر المحاولات، والباقية إلى الأبد. العدل للجميع والمساواة بين الناس عادت الحارة تحت إمرة الفتوات، يوسف فتوة حي جبل، وعجاج فتوة حي رفاعة، والسنطوري فتوة حي قاسم. ويسيطر الناظر على الجميع. وتجتمع السلطتان الدينية والسياسية، الشريعية والتنفيذية. ولا توجد سلطة قضائية إلا في البيوت. انتهى عهد قاسم بحكم صادق ثم حسن طبقا لنظام القرابة. ويبدأ آل جبل وآل رفاعة يرجعون إلى طوائفهم وأحيائهم. وتحولت النبوة إلى خلافة، ثم انقلبت الخلافة إلى ملك عضوض. قتل الناظر في إحدى المعارك. وجاء الناظر قدري، وهو نفس اسم قاتل همام، من ذرية الشر. وكان سعد الله فتوة الحارة كلها بكل ما يحتويه اسم سعد الله من تناقض، بدأ الناظر بتوزيع الريع بالأمانة. واستأنف التعمير والتجديد ثم طمع مع الفتوات. استأثر بالنصف، والفتوات الأربعة بالنصف الآخر. فرض الإتاوات على المساكين. فتوقف الإنشاء والتعمير. وتحول حي الجرابيع إلى حي آل قاسم مثل باقي الأحياء، بلا كرامة ولا سيادة. ولم يعد جبل ولا رفاعة ولا قاسم إلا أسماء وأغاني ينشدها الشعراء في المقاهي للمسطولين. الدنيا غرزة. والمواويل حزينة من الخيبة والفقر والذل. الكل يتمنى الموت أو الغيبة في السكر والحشيش. الأغنيات فاحشة داعرة، والقضاء والقدر يخيم على الجميع. فالمكتوب مكتوب. الحارة تزخر بالمجلات، والقطط والقاذورات، والكلاب والحشرات والأطفال، طفل عار يلعب بفأر ميت، عجوز ضرير يحمل صينية خشبية عليها لب وفول وحلوى وذباب. لقد انقلبت كل تجربة إلى ضدها. قوة جبل إلى ضعف، حب رفاعة إلى كراهية، عقل قاسم إلى ظلم. الحارة مشؤومة عليها لعنة دائمة، تسلط الناظر والفتوة ونفاق الناس وجبنهم.

وتغني الرباب كالعادة بذكريات الماضي، أدهم وهمام، وبحكايات جبل ورفاعة وقاسم. انتهت التجارب، وبقيت الذكريات في الحكايات عن طريق الخيال. ينافق الشاعر الجميع. فوقه صورة عجاج ممتطيا جواده، وصورة أخرى للناظر قدري بشاربه الفخم وعباءته الأنيقة، وصورة ثالثة لجثة رفاعة بين يدي الجبلاوي وهو يرفعها. يؤكد الشاعر أن رفاعة مات في سبيل الحب والسعادة ومع ذلك الناس تعساء. ويغني أشعارا أخرى عن الصراع بين أدهم وإدريس. ولكن متى تكف الحارة عن هذه الحكايات؟ ماذا أفادت منها؟ هيهات أن تعمل بما تسمع. يظن الناس أن حارتهم قلب الدنيا وماهي إلا حارة للبلطجية والمتسولين. كانت في البدء مرتعا قفراً للحشرات حتى حل بها الجد الواقف. غنى كل شاعر لفتوة حيه. واستعمل الناظر الرباب، وأوصى إلى الشعراء أن يتغنوا بمجده وعدله.

وهنا ظهر عرفة، مشتق من نفس حروف اسم رفاعة، رفاعة إلى أعلى، إلى السماء، وعرفة إلى أسفل، إلى الأرض. قدم مع أخيه حنش إلى حارة الجبلاوي للسكن باحثا عن حجرة. مجهول الأب، مقتول الأم. أتى للانتقام لأمه ثم الانتقام من الفتوات كلها. يغري الأطفال بالنعناع لتحقيق مطالبه العاجلة مما يكشف عن طابعه العملي النفعي. أحب منذ الوهلة الأولى وقبل أن يكشف عن شخصية عواطف بائعة المشروبات

الساخنة على ناحية الطريق وبنت المعلم شكرون الرجل العجوز، وزواجه منها بمباركة عجاج فتوة آل رفاعة. أتى إلى الحارة يافعا ولا تعرف له طفولة مثل رفاعة وقاسم.

وجد أن الشعر في الحارة كعادته يقوم بتخدير الناس وأن الربابة والحكايات تسلب عقولهم. يقول شاعر آل قاسم إن قاسم قد استغل الوقف لتلبية مطالبه فيستغني عن العمل، ويفرغ للسعادة والغناء اللذين حلم بهما أدهم وهل الغناء هو الهدف الأخير؟ أليس حلما جميلا مضحكا؟! الأجمل هو الاستغناء عن العمل لصنع الأعاجيب بشيء هو أشبه بالسحر وليس سحرا، هو العلم الذي يشارك عرفة في اشتقاق الاسم من المعرفة. يتحدث الأبناء عن قاسم ويتحدثون عن الجد سماعا ولكن الناس لا ترى إلا الناظر قدري والفتوات سعد الله وعجاج والسنطوري ويوسف. الماضي شيء والواقع شيء آخر. الناس في غيبوبة تتسلى بالأحاديث ولا تهتدي إلى شيء. أما العلم، هذا السحر الجديد فقد يتمكن يوما من القضاء على الفتوات أنفسهم ومن تشييد المباني وتوفير الرزق لكافة أولاد الحارة. ويمكن أن يحدث ذلك قبل يوم القيامة لا بعدها كما تعد الحكايات لو تحول الناس جميعا إلى علماء أي إلى سحرة جدد هناك أدلة على وجود الفتوات بالثبوت لكن لا توجد أدلة على وجود جبل ورفاعة وقاسم إلا بالحكايات. والشعر خيال، تملق وتبرير. الكل مغلوب على أمره، يصيح كما صاح أبناء الجبلاوي «يا جبلاوي». كيف لا يرى الأبناء الجد الواقف وهم يعيشون حول بيته المغلق؟ هل يوجد واقف يعبث العابثون برزقه على هذا النحو وهو لا يحرك ساكنا؟ هل هو الكبر، كبر سنه كما يرى شكرون والد عواطف زوجة عرفة؟ وإذا كان الله قادرا على كل شيء، فكذلك هذا السحر الجديد. يبدأ الدين ببناء باطني، وهاتف داخلي في حين يبدأ هذا السحر الجديد بملاحظات خارجية واكتشاف لقوانين الكون والطبيعة. يحقق قاسم رغبة جده كما تحكي الحكايات، أما عرفة فيقوم بأعمال حاسمة. ما يكدر صفو عرفة هو ما يكدر صفو الحارة، وما يؤمنه يؤمنها. صحيح أن عرفة ليس فتوة ولا رجلا من رجال الجبلاوي ولكنه يملك الأعاجيب في حجرة سكنه الجديد، وفيها قوة لم يحز عشرها جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين. وما السبيل إلى تنفيذ شروط الوقف العشرة؟ الجد قعيد الفراش. ما عاد بوسعه أن يكلف أحدا من أحفاده بالعمل، لم يبق إلا هذا السحر الجديد القادر على وراثة الحكايات القديمة، وهو انتقال نوعي من حكايات جبل ورفاعة وقاسم، مجاوزة للقدر الكاذب بخطوة واحدة. العلم تطوير للدين وإرث وخلافة له.

ويشارك الواقع على لسان شكرون إحساسات عرفة، صوت اسم يهودي شاهد آخر عهد قاسم، مما يدل على أن الفترات بين التجارب السابقة ليست بعيدة ويتحسر على السعادة الماضية. يرى أن أهم عيب هو الكبر، كبر سن الجبلاوي، عجوز لا يفيد. كما أن الماضي لا يعود بالحكايات: «قال أبي، قالت أمي. لا خلاص من الفتوات. فالكبر، إنه الكبر، اللهم احفظنا» (ص ٤٧٢) عاصر قاسم ورأى أيام العدل والأمانة. ينادي بالثورة «الضرب، الضرب» (ص ٤٧٣) مما يدل على قدوم التغير وظهور نبي جديد، عرفة يرى أن الجبلاوي اعتكف في بيته من قبل أيام جبل ويصيح «يا جبلاوي، يا جبلاوي» (ص ٤٧٥) متى يجيب بدلا من الصمت والاعتقاد؟ وصاياه مهملة، أمواله ضائعة، وقفه مسروق، وأحفاده منهوبة. لقد كان إدريس الذي عاقبه الجبلاوي خيرا ألف مرة من فتوات الحارة. ضرب شكرون السنطوري فمات. والتسليم هو أكبر الذنوب.

يبدأ عرفة بممارسة سحره الجديد، العلم فيما يبدو، تحقيقا لمطالبة الناس وتلبية لحاجاتهم، ولكنه لم

يتلق إلا الإساءة. بدأ بالطب والعلاج، للأبدان لا للنفوس، كما كان يفعل رفاعة، ثم بالسلاح للمقاومة كما نشأ العلم في الحضارة الإسلامية قديما، وليست العلوم الرياضية أو علوم النبات والحيوان أو الفلك أو الجغرافيا علوما من أجل إطالة العمر مثل الطب، ولا للقوة والسيطرة مثل السلاح، علوم الفرد والمجتمع. هو العلم في مجتمع الجنس والحشيش، في مجتمع القهر والغلبة. ولا يتعلم العلم شفاها، من عالم أو شيخ بل من الطبيعة في تجارب مباشرة عليها، وإن كان في البداية تعلم عرفة من شيخ تعرفت عليه أمه لديه بعض من هذا السحر العجيب. تفشل هذه التجارب مرات حتى تنجح مرة. له رسالة اجتماعية مثل الدين، تغيير المجتمع وإن اختلفت الوسيلة. يعطي الثقة بالنفس وبإمكانية الفعل. يقوم على حب الاستطلاع والرغبة في ارتياد المجهول ومعرفة الأسباب وليس لطلب الرزق. إذ يعطي الساحر العجيب من جهده ووقته أضعاف أضعاف ما يتطلبه الرزق. يحلم أحلاما عريضة عن السحر والمستقبل. وكان الرجل الوحيد في الحارة الذي لم يقبل على الحشيش لحاجة عمله في الحجرة الخلفية إلى اليقظة والانتباه. عنده ما ليس عند الجبلاوي نفسه. عنده العلم الساحر الذي يستطيع أن يحقق للحارة ما عجز عنه جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين. ولن يترك الحارة حتى يقضي السحر على الفتوات ويطهر النفوس من عفاريتها ويجلب من الخير ما يعجز الواقف عن جزء منه، ويصير هو قهر الغناء المنشود الذي كان يحلم به أدهم، صحيح أنه في زمن قصير حقق قاسم العدل بغير هذا العلم السحري ولكن سرعان ما انتهت التجربة في حين أن أثر العلم السحري لا يزول، صحيح أن الإصلاح يأتي إذا تحققت العدالة، بتنفيذ شروط الواقف، لكن صحيح أيضا أن العدالة لا تبقى إلا إذا توفر لها العلم الساحر.

فإذا كان الحال كذلك فلماذا لا يذهب عرفة إلى البيت الكبير بدل أن يأتي صاحبه إليه؟ الدين يأتي إلى الإنسان في حين أن الإنسان يذهب إلى العلم. الأول هبة والثاني كسب. الأول حال والثاني مقام كما يقول الصوفية. وقرر عرفة الذهاب إلى البيت الكبير، والذهاب إلى السر دون انتظار قدومه. وما العجب في وجود حفيد داخل بيت جده؟ وقف أمام البيت الكبير حيث توجد فيه الوصية التي تركها جده. توجه عرفة للأصل، للجد وليس للفرع أي الحفيد فالعلم توجه نحو الأصول. بدلا من الانتقام لأمه ومن السنطوري قاتل شكرون طبقا لتقاليد الحارة، هذا التقليد المقدس من قديم الزمان يتحول الانتقام إلى جزء من عمل أكبر. لم يعهد إليه الجبلاوي بشيء. وهو لا يبدو كبير الثقة بالجبلاوي ولا بحكايات الرباب. به رغبة جنونية في التسلل إلى البيت الكبير ليسأله المشورة فيما ينبغي أن تسير عليه الحارة كما فعل السابقون الذين اختارهم الجبلاوي. لقد اختار عرفة نفسه بنفسه وهو الذي يذهب إليه. يريد معرفة شروط الوقف العشرة، ليس من أجل المعرفة وحدها بل للعمل بها. يريد أن يطلع على الكتاب الذي طرد بسببه أدهم إن صدقت الروايات. فالعلم تصديق للحكايات، ووسيلة للتحقق من صدقها. هل هو كتاب سحر؟ فأعمال الجبلاوي في الخلاء لا يفسرها إلا السحر أو العضلات والنبوت. هل هو كتاب السحر الأول، سر قوة الجبلاوي الذي ضن به على ابنه؟ رسالة عرفة سرقة الكتاب المقدس كما سرق بروميثيوس شعلة المعرفة من الآلهة؟ لم يعد له هم في الدنيا إلا البيت الكبير. وليس غريبا على مجهول الأب أن يتطلع بكل قوته إلى جده. لقد علمته حجرته الخلفية، محرابه العلمي، ألا يؤمن بشيء إلا إذا رآه بعينيه وجربه بيديه. فلا محيد عن الدخول إلى البيت الكبير. قد يجد القوة التي ينشدها وقد لا يجد شيئا على الإطلاق. كان بوسع جبل أن يبقى في وظيفته عند الناظر، وكان بوسع

رفاعة أن يصير نجار الحارة الأول، وكان بوسع قاسم أن يهنأ بأملاك قمر وأن يعيش عيشة الأعيان، ولكنهم اختاروا جميعا الطريق الآخر. كان رفاعة يقف مكان عرفة هذا عندما ترامى إليه صوت الجبلاوي. هكذا تقول الربابة. وسوف يعرف حقيقة كل شيء. فالعلم وسيلة التحقق من صدق الروايات. وفي هذا الخلاء كلم جبل بنفسه، وأرسل خادمه إلى قاسم. وفيه أيضا قتل رفاعة، واغتصبت أمه وضربت ولم يحرك جده ساكنا! كان عرفة يفكر في الغد العجيب حين يسير في البيت المجهول لعله يلقى الجبلاوي نفسه ويحادثه فيستوضحه عما مضى وعما هو راهن، وما شروط وقفه وسر كتابه، ذلك الحلم الذي لا يتحقق إلا بعيدا عن سحابات الدخان الذي تنفثه «الجوزة». العلم وسيلة لمعرفة حقائق التاريخ.

ودخل عرفة البيت الكبير، ذكريات الماضي ورائحة الفل والياسمين. هنا طرد الجبلاوي إدريس جزاء لتحديه، والتقى أدهم وأميمة. ويرى في السحب أحوال نفسه. له حفيد ولا أب له لا هدف له إلا الخير. فليفعل به الجبلاوي ما يشاء. الأبواب مغلقة بلا مفاتيح مما يدل على سهولة الاطلاع على السر الإلهي. حسبه الكتاب الذي يتضمن شروط الوقف وآيات السحر التي سيطر بها جده في الخلاء والناس في زمانه الأول لم يكونوا يعرفون بعد. إن أحدا قبل عرفة لم يتصور أن الكتاب كتاب علم لأن أحدا قبله لم يمارس العلم. فالعلم لا يعرف إلا بعد الممارسة. لماذا ضن الجبلاوي على أبنائه بسر كتابه حتى يكتشفوا أن روح الدين هو روح العلم؟ حتى أدهم أحب أبنائه إلى قلبه لم يعرف السر. لقد أشعل أدهم شمعة، وها هو عرفة يشعل شمعة أخرى، وهو مجهول الأب وستغني الرباب بعده قصته إلى الأبد، وهو في طريقه إلى المخدع إلى الكتاب الأثري المشؤوم. وفي الظلام تشبثت به يد لتمسك به فقتل صاحبها بالضغط على رقبته. كانت جريمة أدهم العصيان، وجريمته هو القتل. قتل رجلا لا يعرفه ولا يعرف لمصرعه أي سبب. ونسي الكتاب ربما بعد قتل المؤلف. هل قتل الخادم الذي أرسله الجبلاوي إلى قاسم أم قتل الجبلاوي نفسه؟ خيال أم واقع؟ ولماذا لم ينظر في الوصية؟ هل مات الجبلاوي أم أنه لما علم بخبر موت خادمه الأمين تأثر تأثرا لم تحتمله صحته الواهية في تلك الذروة من العمر ففاضت روحه؟ إن الجبلاوي طيب، متأثر بالإنسان ومات لأجله. يموت الجبلاوي بموت الإنسان وليس بعلة خارجية. إذا مات الإنسان مات الجبلاوي. إذا مات الخادم مات السيد. ولكن عرفة سبب موته من دون أحفاده جميعا حتى الأشرار منهم وما أكثرهم. ما ألعن هذه الحارة؟ حتى كبار الأشرار احترموا هذا البيت طيلة الماضي، حتى إدريس نفسه. عليها اللعنة إلى يوم القيامة. وربما يكون موت الجبلاوي خطأ. فلم يكن مسؤولا عن الشر. فهو الذي أرسل همام وأدهم ورفاعة وقاسم. إنما الشر هم الفتوات الحكام والناظر ورجال الدين. وربما كان الجد من دنيا وعرفة من دنيا أخرى. ولعل الجد نسي الوقف والنظارة والفتوات والحارة. واقترح آل جبل دفن الجبلاوي في مقبرة جبل. أما الناظر فأعلن أنه سيدفن في مسجد أقيم في مكان حجرة الوقف القديمة بالبيت الكبير. وغنت الرباب أمجاد الجبلاوي، سيد الرجال، ورمز القوة والشجاعة، وصاحب الوقف والحارة والأب الأول للأجيال المتعاقبة. إن كلمة من الجد كانت تدفع الطيبين من أحفاده إلى العمل حتى الموت. والآن موته أقوى من كلماته. إنه يوجب على الابن الطيب أن يفعل كل شيء، أن يحل محله، أن يكونه.

واستمر عرفة في عمله في تخليص الحارة أو دفاعا عن النفس بعد أن تعقبته الحارة عن طريق الناظر والتهديد بالوشاية به. قتل سعد الله الفتوة بالخنجر ثم قذف بالزجاجة الحارقة، الصورة الأولى للقنبلة اليدوية

نتاج العلم الساحر، على أنصاره. ووضع خطة لقتل فتوة الحارة الثاني. بعدها يبدأ التناحر بين الفتوات وكان عهدهم موشك على الزوال. فبعد قتل كبيرهم وقع الفتوات الآخرون، يوسف فتوة جبل، وعجاج فتوة رفاعة، والسنطوري فتوة قاسم في نزاع. وقامت المعارك بين الرجال في الشوارع وبين النساء في الحمامات. اتفق عجاج والسنطوري سرا على القضاء على يوسف من أجل الاقتراع بينهما. ثم اغتيل السنطوري بعد أن كان مرشح القرعة، وأصبح عجاج الفتوة، ورفض الناظر فتونة عجاج بدعوى ضرورة العيش في أمان خاصة وأن لديه فتوة من نوع جديد هو عرفة وما يمتلك من علم سحري. لقد استطاع أعوان الناظر معرفة سر عرفة الدفين، قتل الجبلاوي. وساومه على عدم تسليمه للحارة للقصاص أو إعطائه السلاح السري الجديد الذي يغنيه عن الفتونة والاعتداء عليها. وقبل عرفة العرض مضطرا فأصبح العلم السحري الجديد سجين السلطة القديمة. وعاش عرفة في قصر الناظر، وما أشبهه بالبيت الكبير. ففي الحارة الإشاعة حقيقية، والحقيقة حكم، والحكم إعدام. وحاول عرفة تبرير فعلته بأن النفس أمارة بالسوء دون الكشف عن الدافع الحقيقي، الانتقام لاغتصاب أمه وقتلها ثم الانتقام من الحارة كلها وكأنه يوحي بإمكانية المساومة. ولغة السحر لا يتكلمها إلا أهلها. وكشف الناظر نفاق العلماء، وأن دخول عرفة إلى البيت الكبير لم يكن يهدف حب الاستطلاع بل للاطلاع على الوقف والقضاء على الفتوات، وربما الناظر لاقتسامهم أموال الوقف. بدأ عرفة بآمال بسيطة محدودة والآن لديه خطة جديدة تصبح آلة رهيبة لا يمكن مقاومتها للسيطرة على الحارة حتى تظل في يد الناظر، وقام العلم السحري الجديد بوظيفة الدين والحكايات القديمة في قهر الحارة. يظن عرفة أن الناظر بين يديه نظرا لحاجته إلى سحره ويظن الناظر أن عرفة بين يديه سجين في بيته تحت تهديد الإعلان للحارة عن قاتل الواقف. أما النجاة من هذا الارتباط فموهونة بالمستقبل. في الماضي جاء جبل ورفاعة وقاسم فما المانع أن يجيء في المستقبل أمثال عرفة. فالعلم استمرار للنبوة، والعالم وارث النبي.

ولما كان النعيم لا يدوم فقد بدأ هم جديد. ضبطت عواطف زوجة عرفة زوجها مع خادمة وغادرت القصر. فالجنس والمال يقضيان على العلم كما قضت عليه السياسة. لا البيت بيتها ولا الزوج زوجها، سجين بالنهار ومأخور بالليل. كانت تظن أنه رجل من رجال الرباب فلا فرق عندها بين الحكاية والسحر الجديد، واتضح أنه وغد مثل قدري الناظر وسعد الله الفتوة، سلطة جديدة منحلة مثل السلطتين الدينية والسياسية. ورفض عرفة مصالحة زوجته لأن المرأة لا تؤخذ باللين طبقا لحكمة الحارة حتى تعود بنفسها ذليلة، وكأن العلم لم يحرر الرجل في نظرته إلى المرأة. وكشفت عواطف وهي للمرأة أن حياة زوجها سلسلة من الأخطاء وأنها تحتاج إلى عشرات الأعذار لتبريرها ولن تجني من ورائها إلا المتاعب والعذاب.

ولم يجد عرفة أنيسا له إلا قدري الناظر في بيته الكبير، العلم والسياسة. كلاهما حبيس، خائفان من الحارة. كلاهما يصبان في الموت في لحظة تحرر الحارة من قهرها باسم الدين مثل الناظر، ومن قهرها باسم العلم مثل عرفة. وفي ليلة من الليالي الحمراء بين عرفة وقدري يترحم عرفة على أدهم ويترحم قدري على إدريس كان أدهم يحب الأحلام ولا يعرف منها إلا ما أدخله الجبلاوي في رأسه، الجبلاوي الذي أراحه عرفة من عناء الكبر، كلاهما سجين مادام مطوقين بأناس يحتقرونهما مهما حولت أقراص عرفة برودة الشيخوخة إلى حرارة الشباب. أبغض عرفة الأشياء من السجن الذي وضع فيه ومن الكراهية المحدقة به ومن الهدف الذي تنكب عنه. ضاع الشباب، والجبلاوي مات، والكل أموات أبناء أموات أصبح الموت جليسه. ينتظره في أية لحظة

ولأتفه الأسباب أو بلا سبب على الإطلاق. . أين الجبلاوي الآن الذي تحتمي بأعماله الرباب؟ هذا قضاء ماكان ينبغي أن يكون. هل الموت نهاية الدين والعلم؟ انتهى الدين وانتهى العلم بالموت وخضوع كليهما للسياسة. وحتى إذا أعادت الأقراص الشباب، فما جدوى ذلك كله والموت يتبع كالظل؟ لولا حسد المحرومين حول البيت لتغير مذاق الحياة في الأفواه. وحتى لو تم رفع مستوى حياة أهل الحارة إلى مستوى الناظر والعالم الجديد فهل يقلع الموت عن اصطياد الكل؟ يكثر الموت حيث يكثر الفقر والتعاسة وسوء الحال. وحتى لو جمع الناس السحرة لمقاومة الموت، فالموت يهدد السحرة. العلم موت يهدد الموت، والموت موت يهدد العلم، فالكلمة الأخيرة للموت. الموت أقوى من السحر. عرفة والناظر حبيسان. لا يستطيع عرفة أن يخلص نفسه كما لم يستطع رفاعة. حتى السحر الجديد لا يستطيع أن يجد من هذا المأزق الخانق مخرجا.

ويبدو أن عرفة ندم على قتل الجبلاوي. فهل يستطيع العلم أن يحييه من جديد؟ هل يعني ذلك قدرة العلم اللانهائية أم ضرورة الدين لإعطاء قيمة للعلم وإلا تحول العلم إلى تدمير وسلاح وإلى وسيلة في أيدي السلطة؟ كيف يمكن التكفير عن هذه الجريمة؟ إن مآثر جبل ورفاعة وقاسم مجتمعة لا تكفي. وإن تعريض النفس لكل مهلكة لا يكفي. وإن تعلم كل فرد السحر وفوائده لا يكفي. شيء واحد يكفي هو أن يبلغ عرفة من السحر الدرجة التي تمكنه من إعادة الحياة إلى الجبلاوي، الجبلاوي الذي كان قتله أسهل من رؤيته. فلتهبه الأيام القوة حتى يضمد الجرح النازف في قلبه. إن ذروة عجائب العلم رد الحياة إلى الجبلاوي. العلم يرث الدين ثم يحتاج إليه من جديد ليعطيه سندا من القيم بدلا من العدمية والموت.

وفجأة وعلى غير سابق إنذار أبلغته خادمة الجبلاوي أنه لم يقتل الجبلاوي بل مات الجبلاوي حزنا على موت خادمه. وأخبرته بوصيته فقد كانت خادمته ومات بين يديها. اشتد به التأثر عقب اكتشاف جثة خادمه واحتضر. فسارعت إليه لإسناد ظهره المختلج، ذلك الجبار الذي دان له الخلاء. كانت وصيته أنه مات وهو عن قاتله عرفة راض. وكأن الدين نفسه مع العلم حتى ولو كان شرا ضد الدين. وكرر ذلك سبع مرات. قال قبل صعود السر الإلهي «اذهبي إلى عرفة الساحر وأبلغيه عني أن جده مات وهو راض عنه» (ص٥٣٨). وكررها مرة ثانية. ثم أكدها عرفة بلسانه فمات الجبلاوي وهو عني راض (ص ٥٤٠). وكررها مرة ثالثة، ثم أعادها «إن جدي أعلن رضاءه عني رغم اقتحامي بيته وقتلي خادمه (ص ٥٤١)، وبعدها «لكني واثق من أنه مات وهو عني راض» (ص ٥٤٢)، وأخيرا «لذلك نهني بلطف إلى سابق رضاءه» (ص ٥٤٢). لم يقل الجبلاوي للخادمة إن عرفة قد قتله. لم يقتل الجبلاوي أحد، وما كان في وسع أحد أن يقتله. هذا كذب وافتراء. لقد مات الرجل بين يدي خادمته. وذلك يعني أن عرفة لم يقض على الجبلاوي بل ساعد فقط على الإسراع بنهايته والحلول محله. لقد اختفى الجبلاوي تدريجيا من المبادرة إلى العزلة إلى الموت تأثرا دون ما حاجة إلى ضربة قاضية. لا فرق بين الخيال والواقع، بين التوهم والحقيقة. وهو ما حدث في «ميرامار» بعد ذلك. الواقع لا يصدقه أحد والخيال يصدقه الناس. يبدأ عرفة يتحدث عن جده باحترام على عكس الزمن الأول الذي كان فيه كثير الارتياب وإذا تيسر له النجاح فلن يعرف الموت. وإذا كان هو سبب موت الجبلاوي فعليه أن يعيده إلى الحياة. هذا ما أخبرته به الخادمة. أمنية قد تتحول إلى واقع. والواقع ينبع من الشعور. وبالتالي يرد العلم إلى الدين. فالعلم بلا دين سجين السياسة ويكون الموت نهاية الكل.

هرب عرفة من بيت الناظر الذي كان سجينا فيه، ولم يمده إلا بأفكار الموت وكأن الطرب والشراب والراقصات ليست إلا ألحان الموت، وكأنه يشم رائحة القبور في أصص الأزهار. وقبض على عرفة وهو في طريقه إلى أخذ زوجته عواطف. ودفنا معا أحياء في جوال، مصير سيىء مثل مصير رفاعة بل أسوأ لدفن امرأة بريئة معه، اكتشفت زيفه وهجرته. لم يستطع عرفة أن يخلص نفسه كما لم يستطع رفاعة. حتى السحر لم يستطع أن يجد لهذا المأزق الخانق مخرجا. إن رأسه المتورم من لطمات الناظر يرقد أسفل الجوال فيكاد أن يختنق. ولم يعد له أمل في الراحة إلا بالموت. سيموت وتموت الآمال. وربما عاش ذو القهقهة الباردة، الناظر. فلمن البقاء اليوم؟ للدين أم للعلم أم لإحياء الدين أم للموت؟ فإذا قتل الناظر عرفة اليوم فسيقتله الثائرون غدا وكأن الثورة هي التي لها الكلمة الأخيرة على الدين والعلم والموت. البقاء للحارة وللدنيا وللبشر. واعتقد الناس أن عرفة قد قتل بنفس السلاح السحري الذي قتل به الجبلاوي وسعد الله. وفرح الجميع لقتله رغم مقتهم الناظر. وكثر الشامتون من الفتوات، وفرحوا لمقتل الرجل الذي قتل جدهم المبارك وأعطى ناظرهم سلاحا رهيبا يستذلهم به إلى الأبد. بدا لهم المستقبل قاتما أشد قتامة مما كان بعد أن تركزت السلطة في يد واحدة قاسية. واختفى الأمل في أن ينشب بين الرجلين نزاع فيقضي إلى اختفائهما معا ولجوء أحدهما إلى أهل الحارة. وبدا لهم أنه لم يبق إلا الخضوع وأن يعتبروا الوقف وشروطه وكلمات جبل ورفاعة وقاسم كلها ضائعة قد تصلح ألحانا للرباب لا للمعاملة في هذه الحياة.

ويأتي حنش ليستأنف المسيرة بعد رفاعة. كان محاوره في حياته، وهو الآن خليفته في مماته وليس فقط أخاه ومريده. كان عرفة يسميه ابن جلجل مؤلف «أخبار العلماء» في تراثنا القديم على الرغم مما يثيره الاسم بصوته من توحش. عندما أحس عرفة بالخطر بدأ بتدوين العلم السحري الجديد في كراسة وتدريب حنش على فك رموزها. وكان قد ساعده في إجراء التجارب من قبل، كراسة أمينة سرية حتى لا يتعرض جهده للضياع أو يكون موت العالم نهاية للتجارب. فالعلم يضيع بضياع العلماء. بدأ عرفة وحنش بإتلاف كل شيء إلا الكراسة. فهي كنز الأسرار. ووضعها عرفة فوق صدره ساعة الهرب. وفي منزل أم زنفل التي كانت تقطن زوجته معها ساعة هجرته اندفع نحو النافذة لما سدت أمامه السبل ثم رمى بها في قبو المنزل حتى يعود حنش إليها بقوة لا تقاوم ورأته أم زنفل وهو يرمي بها. فتسللت إلى القبو في اليوم التالي فعثرت بين القاذورات على كراسة لا فائدة منها فتركتها ورجعت. لقد قتل عرفة الجبلاوي وأعطى الناظر سحره ولم يترك شيئا وذهب. أما حنش فكان يرى أن عرفة كان من أولاد الحارة الطيبين ولكن الحظ خانه. كان يريد لهم ما أراد جبل ورفاعة وقاسم بل وأحسن مما أرادوا. سأل عن الكراسة. لعل الزبال أخذها مع الزبالة وأرسلها إلى مستوقد الصالحية. لم يبق له من أمل الحيلة إلا تلك الكراسة. هي أمله وأمل الحارة. قتل عرفة سيىء الحظ مغلوبا على أمره. ولم يترك وراءه إلا الشر وسوء السمعة. ولعل هذه الكراسة جديرة بإصلاح أخطائه والقضاء على أعدائه وبعث الآمال في الحارة. وهنا تضيع الحقيقة وتكثر الروايات والشائعات. تهامس الناس فيما بينهم أن الكراسة التي أخذها حنش ماهي إلا كراسة السحر التي أودعها عرفة أسرار فنونه وأسلحته، وأنها ضاعت أثناء محاولته الهرب. فحملت في الزبالة إلى مستودع الصالحية حيث عثر عليها حنش. وانتشرت الأخبار من غرزة إلى غرزة بأن حنش سيتم ما بدأه عرفة ثم يعود إلى الحارة لينتقم من الناظر أشد انتقام. وأكد هذه الأقوال أن الناظر وعد من

يجيء بحنش حيا أو ميتا بمكافأة كبيرة. لم يعد أحد يشك في الدور المنتظر الذي سيلعبه حنش وكأن العلم قد تحول إلى عقيدة المهدي المنتظر. وارتفعت في الأنفس موجة استبشار وتفاؤل بعيدا عن روح القنوط والخنوع. وامتلأت النفوس عطفا على حنش في محنته المجهول. وامتد العطف إلى ذكرى عرفة نفسه. وتمنى الناس التعاون مع حنش ضد الناظر نصرا لهم ولحارتهم وضمانا لحياة خير ومحبة وسلام. هو الوحيد الباقي للخلاص، وبالتالي ضرورة التعاون معه. لا يغلب السحر مع الناظر إلا سحر أقوى منه مع حنش. ويوما بعد يوم بدأت حقيقة عرفة تتكشف للناس، لعلها تسربت من ربع أم زنفل التي علمت الكثير من عواطف. ولعلها جاءت عن طريق حنش نفسه فيما كان يعرض للبعض من مقابلته في الأماكن النائية. عرف الناس الرجل وما كان ينشده من وراء سحره من حياة عجيبة كالأحلام الساحرة. ووقعت الحقيقة من أنفسهم موقع العجب.

فأكبروا ذكراه، ورفعوا اسمه حتى فوق اسم جبل ورفاعة وقاسم. وقال أناس إنه لا يمكن أن يكون قاتل الجبلاوي كما ظنوا. وقال آخرون إنه رجل الحارة الأول والأخير ولو كان قاتل الجبلاوي. وتنافسوا فيه حتى ادعاه كل حي لنفسه. ولا ينهي نجيب محفوظ هذا الفصل الخامس من «أولاد حارتنا» بآفة الحارة، النسيان بل بانتظار المستقبل والأمل فيه، «وحدث أن أخذ بعض الشبان من حارتنا يختفون تباعا. وقيل في تفسير اختفائهم إنهم اهتدوا إلى مكان حنش فانضموا إليه. وأنه يعلمهم السحر استعدادا ليوم الخلاص الموعود. واستحوذ الخوف على الناظر ورجاله فبثوا العيون في الأركان، وفتشوا المساكن والدكاكين، وفرضوا أقسى العقوبات على أتفه الهفوات. وانهالوا بالعصي للنظرة أو النكتة أو الضحكة حتى باتت الحارة في جو قاتم من الخوف والحقد والإرهاب. ولكن الناس تحملوا البغي في جلد. ولاذوا بالصبر، واستمسكوا بالأمل. وكانوا كلما آذاهم العسف قالوا لابد للظلم من آخر ولليل من نهار. ولترين في حارتنا مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب» (ص٥٥٢).

خاتمة

٧ ـ لمن البقاء اليوم؟

واضح من بنية الرواية بفصولها الخمسة أنها بنية ثنائية تقوم على السقوط والخلاص، السقوط واحد ولكن الخلاص ذو بنية ثنائية كذلك. الخلاص الوقتي عن طريق الدين، والخلاص الدائم عن طريق العلم. والخلاص الوقتي ثلاثي البنية: خلاص بالقوة، وخلاص بالرحمة، وخلاص بالعدل. وبالتالي تكون البنية الغالبة على الرواية هي البنية الثنائية، ثنائية الدين والعلم. فإلى أي حد هذه الثنائية قائمة بالفعل؟ وهل العلاقة بينهما علاقة تضاد أم تماثل، تشابه أم اختلاف؟ فبالنسبة للسقوط والخلاص الوقتي عن طريق الدين يلاحظ:

١ ـ يبدأ الدين بالسقوط والطرد والحرمان، كما هو واضح في سقوط أدهم وإخراجه من الجنة بعد غواية إدريس أخيه وأميمة زوجة له. وفي كل مرة تنهض الحارة من جديد عن طريق إحدى محاولات الخلاص الوقتي، تعود إلى السقوط من جديد فالنبوة في البداية ثورة وفي النهاية ثورة مضادة بعد تحولها إلى مؤسسة دينية يسيطر عليها رجال الدين ورجال السياسة، في دورة أبدية، عودا على بدء، وتبدأ كل دورة من الصفر دون

تراكم تاريخي إلا زيادة عدد القصص والحكايات والروايات عند شعراء الربابة. ولا تتعلم الإنسانية شيئا. لاتعيش إلا فترة سعادة وهناء ثم تعقبها فترة بؤس وشقاء، في إطار العود الأبدي الذي يسيطر على الفكر الشرقي الديني القديم.

٢ ـ يقوم الخلاص الوقتي على جدل ثلاثي استنفد كل محاولاته: الخلاص بالقوة عند جبل كما هو الحال في اليهودية، والخلاص بالرحمة عند رفاعة كما هو الحال في المسيحية، والخلاص بالعدل عند قاسم كما هو الحال في الإسلام. وهو جدل يقوم على تحديد جوهر كل مرحلة من مراحل تطور الوحي في التاريخ: القانون والمحبة والعدل الاجتماعي. لذلك انتهى الخلاص الوقتي باستنفاد تجاربه واحتمالاته وأصبح الطريق ممهدا للخلاص الدائم عن طريق العلم. والعجيب في هذا الخلاص الوقتي أنه ينقلب إلى عكس ما بدأ منه، وينتقل من النقيض إلى النقيض، فتنقلب القوة إلى ضعف، والرحمة إلى قسوة، والعدل إلى ظلم كما هو الحال في كل الثورات عندما تنقلب بفعل الزمن ومن داخلها إلى ثورات مضادة.

٣ ـ تهدف كل محاولات الخلاص الوقتي إلى القضاء على السلطتين الدينية والسياسية أو التشريعية والتنفيذية. الأولى ممثلة في سلطة ناظر الوقف، والثانية ممثلة في سلطة فتوات الحارة. يبدأ الناظر بلا اسم، أي سلطة دينية ثم يصبح له اسم معين ثم يتغير اسم الناظر من إيهاب إلى رفعت إلى قدري، اختلفت الأسماء والمسمى واحد، وتختلف أسماء الفتوات زقلط وقلطة وخنفس وحجاج والسنطوري ويوسف والمسمى واحد، الثبوت والإتاوة وخدمة الناظر. وهناك سبب جوهري إذن في تجربة السقوط الثاني بعدما يموت نبيها وهو تحول النبوة إلى خلافة والخلافة إلى ملك عضوض، وتحول الوحي إلى كهنوت، والدين إلى تسلط واستغلال. وبالتالي تنشأ المحاولة الثانية من أجل القضاء على السلطتين الدينية والسياسية بالقضاء على السياسة أولا التي تدعم السلطة الدينية. ثم تخضع السلطة الدينية للثورة الجديدة وتتكيف معها حتى يخف الدافع الثوري فتعود إلى التسلط من جديد، تبحث عن قوة جديدة. فالعلة في السلطة الدينية التي يصعب اقتلاعها. أما السلطة السياسية فإنها تخضع لقانون القوة. يكفي قوة أقوى للقضاء على القوة الأقل قوة.

٤ ـ للمرأة دور إيجابي في هذا الجدل التاريخي. فعلى الرغم من غواية أميمة لأدهم وعلى الرغم من سفاح هند من قدري إلا أن المرأة بوجه عام تقف مع النبي في رسالته مثل شفيقة مع جبل وقمر وبدرية مع قاسم وعواطف مع عرفة العالم. كما تقف مع الحارة في ثورتها مثل تمر حنة ووقوفها ضد الفتوات. لذلك وعد قاسم النساء بإدخالهن في الميراث مع الرجال تحقيقا لمبدأ العدل والمساواة. تموت أميمة بذنبها وطلبها العفو والصفح من أدهم. وهند تفر ولا تظهر ولكن يسمع عنها من أبيها إدريس. وتقف قمر مع قاسم وتعرض عليه نفسها للزواج متجاوزة التفاوت الطبقي وتكون أول المصدقين لرسالته. وتغامر بدرية وهي تنبىء قاسم بالخطر المحدق به وبضرورة الهجرة، وتؤانسه في وحدته بعد وفاة قمر. وتدفن عواطف مع عرفة حية في جوال. وتثور تمر حنة وتدعو على الظالم إذا ما دخل الرجال الحجرات وقبلوا الضيم. وتتعارك النسوان في الحمامات إذا ماتعارك الرجال في الحارات. وياسمينة التي دافع عنها رفاعة: فمن لم يكن منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر، وتزوجها ولم يلمسها. عادت إلى بيومي لتأكيد هويتها كامرأة وكحق طبيعي لها في الحياة. وأم رفاعة عبدة تهاجر حفاظا على وليدها من قتل الأطفال. والخادمة سكينة، خادمة قمر تسعى في الحلال بينها وبين قاسم وتغضب لعدم إشراكها في رسالة قاسم وتؤمن بها. فالمرأة أمًا وزوجا وحبيبة لها دور إيجابي في الأغلب. بل

لقد فاضت روح الجبلاوي على صدر خادمته العجوز وأبلغها وصيته إلى عرفة بأنه مات راضيا عنه وقامت بإبلاغ الرسالة والأمانة.

٥ ـ يبدو أن الجبلاوي، الواقف، القاطن في البيت الكبير الذي طرد أدهم وزوجه من البيت لسماعة غواية أخيه إدريس والذي أرسل جبل ثم رفاعة ثم قاسم والذي توهم عرفة أنه قتل مع أنه مات لكبر سنه متأثرا بموت خادمه ومات وهو راض عمن أراد قتله ليس هو الله في ذاته بل هو الله كما يتصوره البشر كسلطة قاهرة وما يتم باسمه من تسلط وقهر وجبروت من السلطة الدينية مثل ناظر الوقف، خليفته في الأرض. أما الله في ذاته فإنه يرد على لسان كل الشخصيات معبرا عن أمانيهم وتمنياتهم، يتعالى عن الوصف. ورد لفظ الله ١٢٨ مرة، ولفظ الرب ٢٤ مرة، ولفظ المولى ٦ مرات، وألفاظ: الوالي، خالق الكون، من في السماء، الحي الذي لايموت كل منها مرة واحدة. ويرد على كل لسان بما في ذلك المعارضون لإرادته إذ يقول إدريس «وليفعل الله مايشاء» (ص ٤٠) «عجايب والله عجايب» (ص ٥٩ ـ ٦٢)، جزاء الله كل خير (ص ٨٠) وعلى لسان قدري «ألا لعنة الله على هذه الأسرة المجنونة (ص٨٤). ويرد على لسان الفتوات مثل «أبوسريع» «الله أكبر» (ص ١٤٢) والليثي «الله يرحكم يا آل حمدان» (ص ١٤٢)، وعلى لسان ياسمينة العاهر «إن مد الله في العمر» (ص ٢٨٨). بل إن الفتوة نفسه اسمه «سعد الله». ومن الطبيعي أن يرد على لسان المؤمنين البارين الأتقياء مثل أم أدهم «ستمسك بمشيئة المولى» (ص ٢٦) وأدهم «ليحفظنا المولى من الأخطار» (ص ٣٩)، وأميمة ادع ربك دائما أن يقيك الشر ويجنبك سواء السبيل دفعا للحسد (ص ٣٣) وهمام «اللهم احفظنا (ص ٨١)، كما يرد ذكره على لسان الأنبياء، على لسان جبل «ولله الأمر من قبل ومن بعد» (ص ١١٧) «وربه ماكنت أحسب قضيبي بهذه الفظاعة» (ص ١٤٥)، «إن شاء الله» (ص ١٦١)، نعم ورب السموات «(ص ١٦٧. ويرد على لسان رفاعة» نعم ورب السموات» (ص ٢٤٨)، «ولنحمد الله» (ص ٢٥٠)، «الله يسامحك» (ص ٢٥٤)، وعلى لسان قاسم «الفضل للمولى» (ص ٣٢١)، «اللهم اكفنا شر العين» (ص ٣٢٥) «وربك لن يقع عيب» (ص ٣٢٥). الله يفعل مايشاء، وقادر على كل شيء، يجزي على الخير، ويحفظ الناس، له الأمر من قبل ومن بعد، راحم رحيم له الحق والشكر، وعليه التوكل، عالم، كريم، فتاح، واحد، غافر الذنب، هاد، لا حول ولا قوة إلا به، ناصر عباده، شفيع، معين، حي لا يموت، منتقم... إلخ. أما الرب فإنه يتم التوجه له بالدعاء، وهو على الفتوة والظالم، فاصل بين الحق والباطل، رب السموات، المنتقم، وهو المولى، صاحب المشيئة حافظ العباد[٩].

وبالنسبة للخلاص الدائم عن طريق العلم يلاحظ:

١ ـ يسمى العلم السحر، والعالم عرفة الساحر عرفة، وكأنه لا فرق بين الدين والعلم. فالسحر هو الجامع بينهما، سحر جبل وقدرته على التعامل مع الثعابين، وسحر عرفة وقدرته على تخليص الناس من العفاريت، مرضى وأصحاء. قاسم وحده هو الذي لم يسم ساحرا. سحر الدين وسحر العلم قادر على عمل الأعاجيب، معجزات الدين وسلاح العلم. كلاهما مفتاح سحري لتغيير الواقع والقضاء على السلطتين الدينية والسياسية. وكيف يصنع العلم الأعاجيب التي لايحيط بها الخيال وهو يقوم على العلية وأن لكل معلول علة؟ كيف يكون العلم مجرد استخراج مادة معينة من مادة قذرة وكأنه سحر يخرج النقيض من النقيض؟ هذه هي صيغة العلم في المجتمع المتدين، إيمان ومعجزات وأعاجيب وليس في المجتمع العلمي.

ويبدو أن العلم هنا لقيط لا أب له ولا أم، مجهول الأصل على عكس الدين الموروث من أدهم. العلم وافد من خارج الحارة في حين أن الدين موروث منها.

٢ ـ وقع العلم سجينا في أيدي السلطة السياسية ولم يستطع التحرر منها، بل قضت عليه السلطة السياسية وانتصرت عليه في حين أن الدين انتصر على القوة السياسية في كل مرحلة وعم العدل والسعادة بين الناس. وأصبح العلم في يد السلطة السياسية بعد موت عرفة وهرب حنش. وانقلب مثل الدين إلى عكس ما بدا منه، من التحرر إلى القهر ومن الوقوف في وجه السلطة إلى التبعية لها. كانت الحارة تستطيع أن تقف في مواجهة الفتوة بفتوة آخر مثل جبل ورفاعة وقاسم. وبعد ظهور العلم وامتلاك الناظر له لا تستطيع أن تقف الحارة في مواجهة السلطتين معا الدين والعلم بعد اتحاد المصالح بينهما.

٣ ـ تحول العلم إلى مطلق مثل الدين، وطريق أوحد للخلاص، ويوتوبيا يحلم بها الناس، لذلك احتاج العلم إلى الدين من جديد ليعطيه نسقا من القيم لأن العلم لا قيمة له. أراد عرفة إحياء الجبلاوي من جديد، بل لم يكن يقصد قتله أو إيذاءه بل مجرد الاطلاع على كتابه السري، اللوح المحفوظ الذي أودعت فيه كل الأسرار. ورث العلم الدين ولكنه تحول إلى دين جديد بكل سمات الدين القديم: الأحادية، الإطلاقية، الطوباوية، وبكل عقائده مثل: المهدي المنتظر والخلاص والنص المقدس سواء كان اللوح المحفوظ الذي به شروط الوقف العشرة أو كراسة عرفة التي دونها والتي عثر عليها حنش والتي أصبحت طريق الخلاص في المستقبل. فإذا كان الدين قد حول الله إلى إنسان في التشبيه، الجبلاوي وخليفته الناظر والفتوة فإن العلم قد حول الإنسان إلى إله قادر على كل شيء، عرفة وخليفته حنش والسلاح. والنصان سر لا يمكن قراءته أو معرفته: كلاهما مخبآن، ويتحولان إلى كهنوت وسلطة. وهنا تبدو الحلقة المفرغة بين الدين والعلم. العلم يقضي على الدين، والدين يحيي العلم. العلم يرث الدين ثم الدين يرث العلم، وكلاهما واجهتان للمطلق في المجتمع وفي إيمان البسطاء.

٤ ـ ما الضامن لعدم فشل الخلاص الدائم عن طريق العلم كما فشل الخلاص المؤقت ثلاث مرات، عن طريق القوة والرحمة والعدل؟ إن العلم مجرد تطلع للخلاص بعد هرب حنش بالكراسة على أمل العودة. ما الضامن لعدم وقوع العلم من جديد بكراريسه كلها في يد الناظر واستبعاد الناس بعد التخلص من العلم، فالسلطة السياسية هي الباقية مهما تغيرت السلطة الدينية من جبل إلى رفاعة إلى قاسم إلى عرفة حامل العلم باعتباره دينا جديدا؟ كل احتمالات المستقبل روايات وأقوال وحكايات وشائعات بالنسبة للعلم ولا يوجد أي ضمان للنجاح أو إيمان بالخلاص كما كان الحال عند الأنبياء. وهل يمكن تغيير المجتمع، وتحقيق الإصلاح، والقضاء على الظلم والتسلط باحتمال العلم أم بيقين الإيمان؟

٥ ـ يبدو أن أخلاقيات العلم أقل بكثير من أخلاقيات الدين، وأن سلوك العلماء أقل أخلاقية ومعيارية من سلوك الأنبياء. لم يأت الأنبياء للتجارة والكسب والارتزاق بالدين في حين أتى عرفة ليتكسب بالعلم ويعرضه لمن يشاء ولأعلى سعر، وسيلة للكسب والإثراء. العلم نفعي، عملي،

ذرائعي، مصلحي، يغير مبادئه ومعاييره طبقا للظروف على عكس الدين المبدئي المعياري الشامل. مقياس صدقه تجربة الملايين له وليس صدقه في ذاته. بدأ بدافع الانتقام للأم، ضحية الاغتصاب والموت ثم تحول الانتقام الفردي إلى انتقام جماعي من المجتمع كله. ثم التخلي عن القضية الاجتماعية برمتها من أجل مقاسمة الأثرياء وأصحاب المال النعيم والثراء كما عاش عرفة مع قدري. نظرته إلى المرأة متخلفة، إهمالها كي ترجع ذليلة، وهي صوت الضمير الذي يذكّر الرجل بأخطائه كما فعلت عواطف مع عرفة. وهو سلاح تدميري، زجاجات متفجرة وقنابل للفتك بالناس في حين أن الدين رسالة محبة وسلام.

وهنا يبرز السؤال: هل هناك خلاف حقيقي بين الدين والعلم في الرواية أم أن الخلاف ظاهري وأن أوجه الاتفاق أكثر من أوجه الاختلاف؟ ويمكن رصد أوجه الخلاف بين الدين والعلم في الآتي:

١ ـ يتجه الدين نحو الماضي، أحلام أدهم وهمام، وآمال جبل ورفاعة وقاسم، يستلهمون أفكارهم وآراءهم من ذكريات مضت، أيام العيش في البيت الكبير مع الجد العظيم قبل الطرد والحرمان. في حين يتجه العلم نحو المستقبل وتحقيق عالم أفضل دون عود إلى عصر ذهبي سابق. والحقيقة أن الدين أيضا يتطلع نحو الخلاص في المستقبل وإن كان يستلهم الماضي، والعلم يبدأ بخبرات السابقين وبتاريخ العلم قبل أن يبدأ الفتح الجديد.

٢ ـ يعتمد الدين على الحكايات والروايات وأشعار الرباب، على المقاهي وفي الحارات. تختلط قصص الأنبياء فيه بالقصص الشعبي وسير الأبطال أما العلم فإنه يعتمد على التجارب الطبيعية ويدونها في صيغة معادلات ورموز. يخاطب الدين الخيال، ويتجه العلم نحو العقل. قد يصبح الدين وهما في حين أن العلم حقيقة. يرتبط الدين بالأحياء الشعبية وما بها من عادات كالحشيش والأفيون، غيابا بغياب، في حين رفض عرفة تناول هذه الكيفات وإن كان يصنعها لتقوية الرجال حرصا على اليقظة والانتباه. والحقيقة أن الدين في بدايته الثورية يكون علما وواقعا كما أن العلم في مرحلته التقليدية يكون أيضا وهما وخيالا كما يبدو في الخيال العلمي. فالتقابل بين النظامين ليس بهذه الحدية والإطلاق.

٣ ـ يقوم الدين على نداء من الخارج ويسمعه الصوت الباطني، نداء الجبلاوي لأدهم وجبل ورفاعة وقاسم، يؤكد الاختيار والاصطفاء، ويبلغ الرسالة للناس. بينما يقوم العلم على وعي بالواقع وإدراك لمستوى الفكر في المجتمع والحدود إمكاناته العلمية. الدين من الله، والعلم من الطبيعة. الوحي إيمان ونبوة، والعلم تجربة وحواس. والحقيقة أن هذا التقابل أيضا ظاهري خالص. فنداء الله هو صوت الضمير، ويقظة العالم جزء من يقظة الوعي العام، وصوت الله هو صوت الطبيعة، وصوت الطبيعة هو صوت الله. لذلك وجه الوحي الإنسان إلى التفكير في الطبيعة وكانت الطبيعيات عند القدماء مقدمة للإلهيات وإثبات لها ولا يعتمد الدين فقط على تدخل الإرادة الإلهية بل يحتاج أيضا إلى الإرادة الإنسانية، أفعال الأنبياء وجهاد المؤمنين، والوحي والإيمان والنبوة كل ذلك مرتبط بالواقع بأسباب النزول ومراحل التاريخ وظروف المجتمعات كما أن العلم يقوم على افتراض بعض المسلمات التي لا يمكن تجربتها في الواقع كما هي الحال في الطبيعيات النووية.

٤ ـ الدين له نهاية واكتمال وخاتم النبوة منذ أدهم حتى قاسم حتى يكتمل الوعي الإنساني عقلا وإرادة.

في حين أن العلم لا نهاية له ومستمر إلى آخر الزمان. الدين بداية البشرية والعلم نهايتها. والحقيقة أن هذا التقابل أيضا شائع في الثقافات الوافدة. فإذا ماتحول العلم إلى دين فالدين مستمر كما أن العلم في بداياته كان يخرج من الدين ويتكامل معه. وأحيانا تعود المجتمعات إلى الدين بعد أن تستنفد كل إمكانيات العلم. لقد بدأت الإنسانية بالدين والعلم معا، الدين لتفسير الظواهر البعيدة، والعلم للسيطرة على الظواهر القريبة. وقد تنتهي بهما معا، والمستقبل ميدان لهما معا.

٥ ـ الخلاص بالدين وقتي بكل وسائله، القوة والرحمة والعدل. يبدأ كي ينتهي، ويقوم كي يقعد. في حين أن الخلاص بالعلم دائم لا ينتكس. والحقيقة أن هذا التقابل إنما يعبر عن إجهاد المجتمعات الدينية وضيقها من كثرة تجارب الفشل. الحياة دورات متعاقبة وجدل بين النهوض والسقوط، بين القيام والقعود سواء في الدين أم في العلم. المجتمع الديني يود التحول إلى مجتمع علمي. والمجتمع العلمي يبحث عن تأسيس العلم الجديد على أسس معيارية أخلاقية ثابتة يستطيع الدين أن يقدمها له.

ومع ذلك فأوجه الاتفاق الحقيقية بين الدين والعلم كثيرة وهي في مجملها:

١ ـ البحث عن المجهول وارتياد الآفاق المعرفية بصرف النظر عن مصدرها، بحث في أصول الأشياء يقوم على حب الاستطلاع. كلاهما تصور للعالم وفهم وإدراك.

٢ ـ الجمع بين العلم والعمل، بهدف امتلاك نواحي القوة وطرق السيطرة. يتوجه العمل في الدين إلى الأخلاق الفردية والنظام الاجتماعي بينما يتوجه العمل في العلم إلى النظام الطبيعي والعلاقة مع الأشياء.

٣ ـ التوجه نحو التغيير والإصلاح الاجتماعي وتحسين أحوال المعيشة حتى ولو اختلفت الوسائل. وبداية التغيير هو التحرر من السلطتين الدينية والسياسية وتحرير الإنسان والمجتمع منها. فالدين لا يقبل إلا سلطة الضمير والعلم لا يقبل إلا سلطة العقل.

٤ ـ الاعتماد على أسلوب المحاولة والخطأ والتعلم من الخبرات السابقة. فهناك على الأقل ثلاث محاولات في الدين، جبل ورقاعة وقاسم. وهناك على الأقل محاولتان لعرقة في العلم في تفجير الزجاجات الحارقة. لا فرق بين الاثنين في أن الحقائق تأتي بالتجربة حتى ولو كانت معطاة سلفا.

٥ ـ التطلع إلى يوتوبيا مستقبلية وعالم أفضل يتحرر فيه البشر من كل صنوف القهر. يعبر الدين عنها في الأخرويات ويعبر العلم عنها في صيغة المستقبليات[١٠]. هناك ثقة بالنصر، وبأن الغد أفضل من اليوم على الرغم من ذكريات الماضي عن العصر الذهبي في الدين. فباب الرحمة والمغفرة فيه واسع، يسد أبواب اليأس والقنوط.

وقد يكون هذا التقابل أو التضاد أو الاختلاف أو التشابه بين الدين والعلم، بين الخلاص المؤقت والخلاص الدائم إنما هو من صنع الوهم. وإن الحقيقة في الاحتمال والنسبية واللا إرادية: الدين أو العلم، أو في العدمية، الموت الذي يضع نهاية لكل شيء، أو في الإنسان الذي حاول قتل الجبلاوي فمات الجبلاوي من أجله، أو في الحارة أصل الدنيا والحياة والناس والتاريخ والتي يرجع إليها كل شيء.

الهوامش

(١) نجيب محفوظ «أولاد حارتنا»، دار الآداب، بيروت ١٩٦٧، ص ص ٦٨، ٢١٧.

(٢) انظر بحثنا «الدين والثورة في أدب نجيب محفوظ»، الندوة الدولية، نجيب محفوظ والرواية العربية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٧ ـ ٢٠ مارس ١٩٩٠.

(٣) انظر دراستنا «الفلسفة والرواية، دراسة في توظيف الثقافة الفلسفية في أدب نجيب محفوظ»، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ندوة الرواية العربية ١٩٩١.

(٤) «من العقيدة إلى الثورة»، الجزء الخامس، الإيمان والعمل والإمامة.

(٥) اسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣ لسنج: تربية الجنس البشري، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧.

(٦) يمكن تصنيف أعمال نجيب محفوظ الأدبية إلى أربعة مراحل: الأولى المرحلة التاريخية ١٩٣٢ ـ ١٩٤٥، والثانية المرحلة الاجتماعية ١٩٤٥ ـ ١٩٥٧ والتي بلغت ذروتها في «الثلاثية» والثالثة المرحلة السياسية ١٩٦١ ـ ١٩٧٩، والرابعة المرحلة الفلسفية التجميعية التكرارية ابتداء من ١٩٨٠ حتى الآن وتجمع بين التاريخ والاجتماع والسياسة والتي اعتمدت على القصة القصيرة أكثر من اعتمادها على الرواية. كانت نسبة الرواية للقصة القصيرة في المرحلة الأولى ٤ : ١ وفي الثانية ٨ : صفر، وفي الثالثة ١٣ ـ ٩ وفي الرابعة ٩ : ٥.

(٧) أولاد حارتنا ص ٥ ـ ٨.

(٨) أدهم ص ١١ ـ ١١٢ = ١٠٢ ص (٢٣ منظراً).
جبل ص ١١٥ ـ ٢١٠ = ٩٦ ص (٢١ منظراً).
رفاعة ص ٢١٣ ـ ٣٠٥ = ٩٣ ص (٢١ منظراً).
قاسم ص ٣٠٩ ـ ٤٤٣ = ١٣٣ ص (٢٨ منظراً).
عرفة ص ٤٤٧ ـ ٥٥٢ = ١٠٦ ص (٢٣ منظراً).

(٩) دون إعطاء إحصاء كمي شامل لتحليل لفظ الله ومشتقاته طبقاً لتحليل المضمون يكفي ذكر السياقات الآتية للألفاظ الثلاثة: الله، والرب والمولى.

الله: ليفعل الله مايشاء، والله ما ارتكبت جريمة، والله ما عرفت الأبهة، عجايب والله، والله إنك خير الرجال، أليس الله بقادر، جزاه الله، اللهم احفظنا، الحمد لله، الا لعنة الله، أعوذ بالله، الشكر لله، والله الأمر الله يلعن أولاد الحرام، وحد الله ياعم، صبحك الله بالسعادة، معاذ الله، أطال الله بقاءه، والله أسيد بين الرجال، الله أكبر الله يرحمكم، اسم الله على أمك، أجارك الله، اتق الله، ومساك الله، والله ما أحن أحمد، فبارك الله، بالله خبرني، والله إن أمثالك يستحقون الظلم، والله ما كرهتم الفتوة، أيحميه الله، ألا لعنة الله، الله يحب الغضب، الله يعلم بحاله، سلام الله على قوة آل جبل، توكل على الله، والله ما قال إلا أنه ابن حنان، الله يرحم، سامحك الله، وحد الله، إن شاء الله، يفتح الله، الله أسأل، أسعد الله أحلامك، شفاك الله، لوجه الله، إن مد الله في العمر، اللهم اكفنا شر العين، الله يخرب بيت أولاد الحرام، اللهم ابعد الشيطان، الله هو الهادي، خبرني بالله، تدمر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، يا الله، أنا والله كذلك، والله لتصرن، اللهم حقق مطالبه، يحمد الله، وليحمد كل منكم الله، كان الله في عونك، شفاعة الله، استغفر الله، يا إلهي، أطال الله عمرك، والله لقد هزلت، نحن بفضل الله إخوان، نعوذ بالله، نصرك الله، أي والله، يإذن الله، الله الله، الله على كل الألسنة، والله كانت الأعاجيب تخرج من الخارة، الفضل لله، والله ما لمسته، اللهم طولك يا روح، ما شاء الله، والله شهيد، لا سمح الله.

الرب: ادع ربك دائماً، ربنا على القوة، ربنا على الظالم، وربنا بيننا وبينك، ربناه، يارب السموات، وربنا يحب التعب، ربنا يزيده في الرجال، وربك لن يقع عيب، ربنا يكرمك، يارب خلصنا من عيشتنا، ياستار يارب، وربي شهيد، ربنا يصبرنا، ربنا أمرنا بالستر، ربنا يأخذه، ربنا المنتقم، ربك قادر على كل شيء، ربناه، أقسم بربي.

المولى: بمشيئة المولى، ليحفظنا المولى، إن المولى نفسه لم يكن بوسعه أن يحيش وحده.

(١٠) انظر دراستنا: «علم الاستغرابات» في «دراسات فلسفية» الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٧ ص ٥٥١ ـ ٥٩٩.

قسيمة اشتراك

البيان	مجلة عالم الفكر		مجلة الثقافة العالمية		سلسلة عالم المعرفة		سلسلة المسرح العالمي	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	دك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	١٢	-	١٢	-	٢٥	-	٢٠	-
الأفراد داخل الكويت	٦	-	٦	-	١٥	-	١٠	-
المؤسسات في دول الخليج العربي	١٦	-	١٦	-	٣٠	-	٢٤	-
الأفراد في دول الخليج العربي	٨	-	٨	-	١٧	-	١٢	-
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	-	٢٠	-	٣٠	-	٥٠	-	٥٠
الأفراد في الدول العربية الأخرى	-	١٠	-	١٥	-	٢٥	-	٢٥
المؤسسات خارج الوطن العربي	-	٤٠	-	٥٠	-	١٠٠	-	١٠٠
الأفراد خارج الوطن العربي	-	٢٠	-	٢٥	-	٥٠	-	٥٠

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك ☐

الاسم:

العنوان:

اسم المطبوعة: مدة الاشتراك:

المبلغ المرسل: نقداً / شيك رقم:

التوقيـــع: التاريخ: / / ١٩م

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: ٢٣٩٩٦ ـ الصفاة ـ الرمز البريدي 13100

دولة الكويت